سمط النجوم العوالي

في أنباء الأوائل والتوالي

تأليف
عبد الملك بن حسين بن عبد الملك
الشافعي العاصمي المكي
المتوفى سنة ١١١١هـ

تحقيق وتعليق
الشيخ عادل أحمد عبد الموجود
الشيخ علي محمد معوض

الجزء الثالث

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

العنوان : رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
تلفون وفاكس : ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ - ٦٠٢١٣٣ (١ ٩٦١) ٠٠
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

DAR al-KOTOB al-ILMIYAH
Beirut - Lebanon

Address : Ramel al-Zarif, Bohtory st., Melkart bldg., 1st Floore.
Tel. & Fax : 00 (961 1) 60.21.33 - 36.61.35 - 36.43.98
P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

ISBN 2-7451-2615-6



http://www.al-ilmiyah.com.lb/
e-mail : baydoun@dm.net.lb

بسم الله الرحمن الرحيم
مناظرة ابن عباس للخوارج

قال الذهبى: قال عكرمة بن عمار: حدثنى أبو زميل قال: حدثنى ابن عباس قال: لما اجتمعت الخوارج قلت لعلى - رضى الله تعالى عنه -: أبرد بالصلاة لعلى آتى القوم. [قال] فإنى أخافهم عليك. قلت: كلا. فقال: أنت وذاك. فلبس حلتين من أحسن الحلل، وكان جهيرًا جميلاً. قال: فأتيت القوم، فلما رأوانى قالوا: مرحبًا بابن عباس، فما هذه الحلة ؟ قلت: وما تنكرون من ذلك ؟! لقد رأيت على رسول الله ﷺ حلة من أحسن الحلل. قال: ثم تلوت عليهم: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ يُؤْمِنُونَ اللَّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ ﴾ [الأعراف: ٣٢] الآية. قالوا: فما جاء بك ؟ قلت: جئتكم من عند أمير المؤمنين، ومن عند أصحاب رسول الله ﷺ وصهره، فأقبل بعضهم على بعض، وقالوا: لا تكلموه فإن الله تعالى يقول: ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ [الزخرف: ٥٨] وقال بعضهم: وما يمنعنا من كلام ابن عم رسول الله ﷺ يدعونا إلى كتاب الله . فقالوا: ننقم عليه خلالاً ثلاثًا: أحدها: أنه حكم الرجال فى دين الله، وما للرجال وحكم الله ؟! الثانية: أنه قاتل، ولم يسب، ولم يغنم، فإن كان قد حل قتالهم فقد حل سبيهم، وإلا فلا. الثالثة: أنه محا نفسه من إمرة المؤمنين، فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير المشركين.

قال ابن عباس: هل غير هذا ؟ فقالوا: حسبنا هذا. فقال لهم: أرأيتم إن خرجت لكم من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، أراجعون أنتم ؟ قالوا: وما يمنعنا ؟ قال: أما قولكم إنه حكم الرجال فى أمر الله - تعالى - فإنى سمعت الله - تعالى - يقول فى كتابه: ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ [المائدة: ٩٥]، وذلك فى ثمن صيد أرنب ونحوه قيمته ربع درهم، فوض الله - تعالى - فيه الحكم إلى الرجال، ولو شاء أن يحكم لحكم، وقال: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ الآية [النساء: ٣٥]، أخرجت من هذه ؟ قالوا: نعم. قلت: وأما قولكم قاتل، ولم يسب؛ فإنه قاتل أمكم؛ لأن الله - تعالى - يقول: ﴿ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ [الأحزاب: ٦] فإن زعمتم أنها ليست بأمكم فقد كفرتم، وإن زعمتم أنها أمكم فما حل سباؤها، فأنتم بين ضلالتين، أخرجت من هذه ؟ قالوا: نعم. قلت: وأما

قولكم إنه محا اسمه من إمرة المؤمنين، فإني أنبئكم عن ذلك: أما تعلمون أن رسول الله ﷺ يوم الحديبية، جرى الكتاب بينه وبين سهيل بن عمرو كتاب الصلح والهدنة، فقال: يا على، اكتب هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله، فقال سهيل: لو نعلم أنك رسول الله ما منعناك الدخول، ولا قاتلناك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، - فقال عليه الصلاة والسلام -: اللهم إنك تعلم أنى رسولك، ثم أخذ الصحيفة، فمحاها بيده، ثم قال: يا على، اكتب هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله. . . إلخ فوالله ما أخرجه ذلك عن النبوة، أخرجت من هذه؟ قالوا: نعم. قال: فرجع ثلثهم، وانصرف ثلثاهم، وقتل سائرهم على الضلالة يوم النهروان[(١)] كما يأتى قريبًا ذكره.

قال عوف: حدثنا أبو نضرة عن أبى سعيد: « تفترق أمتى فرقتين، تمرق بينهما مارقة، تقتلهم أولى الطائفتين بالحق »، وهكذا رواه قتادة وسليمان التيمى عن أبى نضرة[(٢)].

قال المسعودى: فاجتمع الثلث الباقى من الخوارج فى أربعة آلاف - قلت: ظهر أن المسعودى رجح رواية أنهم كانوا اثنى عشر ألفًا فكان الثلث أربعة آلاف - وبايعوا عبد الله بن وهب الراسبى، ولحقوا بالمدائن، وقتلوا عامل على عليها عبد الله بن خباب، ذبحوه ذبحًا، وبقروا بطنه وبطن امرأته، وكانت حاملاً [وقتلوا غيرها من النساء، وكان علي قد انفصل عن الكوفة في خمسة وثلاثين ألفًا][(٣)]، ثم ساروا إلى النهروان، وأتى إلى على من قبل عامله على البصرة ابن عباس - ثلاثة آلاف فيهم الأحنف بن قيس، وذلك سنة ثمان وثلاثين، فنزل على - رضى الله عنه - إلى الأنبار، والتأمت عليه العساكر، فسار حتى أتى إلى النهروان، فبعث إليهم على بالحارث بن مرة العبدى رسولاً، يدعوهم إلى الرجوع، فقتلوه، وبعثوا إلى على - رضى الله تعالى عنه - إن تبتَ من حكومتك، وشهدت على نفسك بالكفر بايعناك،

---

(١) ذكره بطوله الحافظ الذهبي في تاريخ الإسلام (٣/ ٥٨٨-٥٩٠) وينظر البداية والنهاية (٧/ ٣١٢).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٢٥، ٣٢، ٤٨، ٦٤، ٧٩، ٩٧) ومسلم (١٥٠/ ١٠٦٥) وأبو داود (٤٦٦٧) من طريق أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري، به .

(٣) المثبت من مروج الذهب.

وإن أبيت فاعتزلنا حتى نختار لأنفسنا إمامًا فإنا منك برآء، فقال على - كرم الله وجهه -: سيروا إلى القوم فإنكم تجدونهم قد عسكروا بالرملة، فوالله لا يفلت منهم عشرة، ولا يقتل منكم عشرة، فأشرف عليهم وقد عسكروا بالرملة على حسب ما قاله لأصحابه رضى الله تعالى عنه، ثم أتى عليهم، فلم يفلت منهم إلا سبعة[1]، ولم يقتل من أصحاب على إلا تسعة، فقال: الله أكبر لقد صدق رسول الله - ﷺ - فقد أخبرنى بذلك، ثم أمر ينظر المخدج من بين القتلى، وهو ذو الثدية: لحم مجتمع على منكبه كثدى المرأة، عليه شعرات سود، إذا مدت اللحمة امتدت حتى تحاذى بطن يده، ثم تترك فتعود إلى منكبه، فلما وجدوه بين القتلى، ثنى على - رضى الله عنه - رجله ونزل فخر ساجدًا، ومر بهم وهم صرعى، فقال: لقد صرعكم من غركم. قالوا: ومن غرهم ؟ قال: الشيطان[2].

التقاء الحكمين بدومة الجندل

لما كان رمضان من السنة المذكورة وصل من قبل على أبو موسى الأشعرى فى أربعمائة، أميرهم شريح بن هانئ، ووصل من قبل معاوية عمرو بن العاص فى أربعمائة كذلك، أميرهم شرحبيل بن السمط، فلما تدانى القوم من الموضع الذى كان الاجتماع فيه - قال ابن عباس لأبى موسى: إن عليًا لم يرض بك حكمًا لفضل عندك والمقدمون عليك كثيرون، وإنما الناس أبوا غيرك، وإنى أظن لشر يراد بهم، وقد ضم داهية العرب معك، فمهما نسيت فلا تنس أن عليًا بايعه الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان، وليست فيه خصلة تباعده عن الخلافة، وليس فى معاوية خصلة تقربه من الخلافة.

وكان معاوية قد وصى عمرًا، فقال: يا أبا عبد الله إن أهل العراق قد أكرهوا عليا على أبى موسى، وإن أهل الشام راضون بك، وقد ضم إليك رجل طويل اللسان، قصير الرأى، فأجد الحزّ، وطبق المفصل، ولا تلقه برأيك كله.

فلما اجتمعا قال عمرو لأبى موسى: تكلم، ولا تقل إلا خيرًا، فقال أبو موسى: بل تكلم أنت، فقال عمرو: ما كنت لأفعل، ولا أقدم نفسى عليك، ولك حقوق

(١) في المروج: عشرة.
(٢) ينظر مروج الذهب (٢/ ٤١٥-٤١٦)، وهناك زيادات وقد ذكرت هنا مختصرة، وبتصرف .

كلها واجبة لسنك[1] وصحبتك رسول الله ﷺ، وأنت حقيق، فتكلم أبو موسى فحمد الله، وأثنى عليه، وذكر الحدث الذى حل بالإسلام، ثم قال: يا عمرو، هلم إلى أمر يجمع الله به الألفة، ويلم الشعث وذات البين، فجزاه عمرو خيرًا، ثم قال عمرو: إن للكلام أولاً وآخرًا، ومتى تنازعنا الكلام خطبًا لم يبلغ آخره حتى ينسى أوله، فاجعل ما كان من كلام يتصادق عليه فى كتاب يصير إليه أمرنا.

قال أبو موسى: فاكتب، فدعا عمرو بصحيفة وغلام له كاتب فتقدم إليه أن يبدأ به أولاً دون أبى موسى؛ لما أراد من المكر، ثم قال له بحضرة الجماعة: اكتب فإنك شاهد علينا، ولا تكتب شيئًا يأمرك به أحدنا حتى تستأمر فيه الآخر، فإذا أمرك فاكتب، وإذا نهاك عنه فانته حتى يجتمع رأينا.

اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما تقاضى عليه فلان وفلان، فكتب، وبدأ بعمرو، فقال له عمرو: لا أم لك تقدمنى قبله كأنك جاهل حقه ؟ فبدأ باسم أبى موسى عبد الله بن قيس، وكتب: تقاضيَا على أنهما يشهدان أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، أرسله بالهدى... الآية، ثم قال عمرو: نشهد أن أبا بكر خليفة رسول الله عمل بكتاب الله وسنة رسوله حتى قبضه الله إليه، وقد أدى الحق الذى عليه. قال أبو موسى: اكتب، ثم ذكر فى عمر ما ذكر فى أبى بكر، ثم قال: اكتب: وإن عثمان ولى هذا الأمر باجتماع المسلمين، وشورى من أصحاب رسول الله ﷺ ورضِىَ عنهم، وإنه كان مؤمنًا، فقال أبو موسى: ليس هذا مما قعدنا له، فقال عمرو: والله لا بد أن يكون مؤمنًا أو كافرًا، فقال أبو موسى: مؤمنًا، فقال عمرو فمره يكتب،فقال أبو موسى للكاتب: اكتب، فكتب، فقال عمرو: ظالمًا قتل أو مظلومًا ؟ فقال أبو موسى: بل قتل مظلومًا، قال عمرو: أو ليس قد جعل الله لولى المظلوم سلطانًا يطلب بدمه ؟ قال أبو موسى: بلى، قال عمرو: فعلى ذلك قاتله يقتل أينما وجد، قال أبو موسى: نعم،قال عمرو: فهل تعلم لعثمان وليًا أقرب من معاوية ؟ قال: لا، قال عمرو: أفليس لمعاوية أن يطلب قاتله حيث وجد حتى يقتله أو يعجزه ؟ قال أبو موسى: بلى، قال عمرو: قل للكاتب اكتب، فأمره أبو موسى؛ فكتب، فقال عمرو فإنا نقيم الحجة البينة أن عليًا

(١) في ط: بنسبك. والمثبت من المروج.

قتل عثمان، قال أبو موسى: هذا أمر قد حدث فى الإسلام، وإنما اجتمعنا لغيره[١] فهلم إلى أمر يصلح الله به أمر أمة محمد ﷺ، فقال عمرو وما هو ؟ قال أبو موسى: قد علمت أن أهل العراق لا يحبون معاوية، وأهل الشام [لا يحبون][٢] عليًا، فهلم نخلَعْهما، ويستخلف عبد الله ابن عمر - وكان زوج بنته - فقال عمرو: ويفعل ذلك عبد الله، قال أبو موسى: نعم إذا حمله الناس عليه، فعزم عمرو إلى كل ما مال إليه أبو موسى، فصوبه، فقال عمرو: هل لك فى سعد، وعدد جماعة ؟ فأبى أبو موسى إلا عبد الله بن عمر، فجعل عمرو الصحيفة بعد أن ختماها تحت قدمه، وقال أرأيت إن رضى أهل العراق بعبد الله بن عمر، وأباه أهل الشام أنقاتلهم ؟ قال: لا ، فإن رضى أهل الشام به وأباه أهل العراق أنقاتل أهل العراق ؟ قال: لا، قال عمرو: وأما إذا رأيت الصلاح فى هذا الأمر، والخير للمسلمين،فقم واخطب [الناس]، واخلع صاحبينا جميعًا، وتكلم باسم هذا الرجل الذى يستخلف، فقال أبو موسى: بل أنت قم، فاخطب، فأنت أحق بذلك، فقال عمرو: ما أحب أن أتقدمك، وما قولى وقولك للناس إلا [قول] واحد، فقم راشدًا، فقام أبو موسى: فحمد الله، وأثنى عليه [وصلى على نبيه ﷺ][٣]، ثم قال: أيها الناس، إنا نظرنا فى أمرنا فرأينا أقرب ما يحضرنا فى الأمن والصلاح ولم الشعث وحقن الدماء وجمع الألفة، خلعنا عليًا ومعاوية، وقد خلعت عليًا كما خلعت عمامتى هذه، ثم أهوى إلى عمامته، فحولها عن رأسه، واستخلفنا رجلاً صحب رسول الله ﷺ بنفسه، وصحب أبوه النبى فبرّز في سابقته[٤]، وهو عبد الله بن عمر، فأطراه فرغب الناس فيه، ثم نزل، فقام عمرو: فحمد الله، وأثنى عليه [وصلى على نبيه ﷺ][٥]، ثم قال: أيها الناس، إن أبا موسى قد خلع عليًا، وأخرجه من الأمر الذى يطلب، وهو أعلم به، ألا وإنى قد خلعت عليًا معه، وأثبت معاوية على وعليكم، وإن أبا موسى قد كتب فى الصحيفة: أن عثمان قتل مظلومًا شهيدًا، وأن لوليه سلطانًا يطلب بدمه، وله طاعتنا، وبيعتنا[٦]

(١) في ط: فيه. والمثبت من المروج.
(٢) المثبت من المروج .
(٣) المثبت من المروج.
(٤) في ط: فثور في ساقته. والمثبت من المروج.
(٥) المثبت من المروج.
(٦) في ط: ويبعثنا. والمثبت من المروج.

على الطلب بدم عثمان، فقال أبو موسى: كذب عمرو لم أستخلف معاوية، ولكنا خلعناه وعليًا، فقال عمرو: بل كذب أبو موسى قد خلع عليًّا، ولم يخلع معاوية[١].

قلت: ورأيت وجهًا آخر فى كيفية ذلك ذكره المطرزى شارح المقامات فى شرحها، فقال إن عمرو بن العاص قال لأبى موسى بعد أن أظهر له عمرو الموافقة على تولية عبد الله بن عمر، وصوب رأيه فى ذلك: قم فاخلع عليًّا، ثم انزل، فإذا نزلت، قمت أنا فخلعت صاحبى معاوية، وأقمت عبد الله بن عمر كما أشرت، فإن تلك وثبة من الشيعة قوبلت بها دونك، فلما قام عمرو بعد أبى موسى فعل ما فعل، ثم نزل قائلا: إن الله - تعالى - يقول: ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾ [الاسراء: ٣٣].

ووجدت فى مروج الذهب وجها آخر فى ذلك هو: أنهما لما اتفقا على خلع على ومعاوية ، اتفقا على أن يجعلا الأمر شورى بعد ذلك، يختار الناس لهم رجلا صالحا يصلح، ففعل عمرو ما فعل.

وفى رواية أن أبا موسى قال له حينئذ: لعنك الله، غدَرْت، وفجرت، إنما مثلك كمثل الكلب، ثم ركله فألقاه لجنبه على الأرض، وارتحل أبو موسى، ولحق بمكة حياء، ولم يعد إلى الكوفة، وقد كان بها أهله وولده، وآلى ألا ينظر إلى وجه على أبدًا ما بقى، ومضى عمرو وسعد بن أبى وقاص إلى بيت المقدس.

قال المسعودى: قال ابن عباس يخاطب أبا موسى: [من الوافر]

أبا موسَى بُليتَ وكُنْت شيخًا ... قريبَ العفو[٢] مخزونَ اللسانِ
وما عَمْرو صفاتكَ يا بْنَ قيسٍ ... فيا للهِ مِنْ شيخٍ يماني
فأمسيت العشيةَ ذا اعتذارٍ ... ضعيفَ الرأيِ منكوبَ الجنان[٣]
فعضَّ الكفَّ من ندمٍ وماذا ... يَرُدُّ عليكَ عضُّكَ للبنانِ

وفى مثل هذا المعنى يقولُ خزيمة بن مالك الأسدى: [من البسيط]

لو كان للقومِ رأىٌ يُعْصَمُونَ بِهِ ... عِنْدَ الخطوبِ رمَوْكُمْ بابن عباسِ

---

(١) ينظر: مروج الذهب (٢/٤٠٦-٤٠٩).
(٢) في ط: العمر. والمثبت من المروج.
(٣) في ط: منكوت العنان . والمثبت من المروج.

لكنْ رموكمْ بِوَغدٍ مِنْ ذوى يَمَنٍ　　　لم يدر ما ضَرْبُ أخْمَاسٍ بِأَسْدَاسِ[١]

ولما انصرف الفريقان من حيث كانا إلى حيث جاء دخل عمرو بن العاص سترا له، ولم يأت معاوية، فأرسل معاوية يدعوه، فقال عمرو: إنما كنت آتيك إذ كانت لى إليك حاجة، فأما إذا كانت الحاجة إلينا، فأنت أحق أن تأتينا، فعلم معاوية ما قد دفع إليه، فخمر الرأى، وأعمل الحيلة، فأمر بطعام كثير يصنع، ثم دعا الخاصة ومواليه، فقال لهم: إنى سأغدو إلى هذا، فإذا دعوت بالطعام قدموا مواليه، وأهله، فليجلسوا قبلكم، فإذا شبع الرجل منهم، فقام، فليجلس رجل منكم مكانه، فإذا خرجوا، ولم يبق فى البيت غيركم - فأغلقوا الباب، واحذروا أن يدخل منهم أحد إلا أن آمركم.

وغدًا عليه معاوية وعمرو جالس على فرشه، فلم يقم له عنه ولا دعاه إليه، فجاء معاوية، فجلس على الأرض، واتكأ على ناحية الفراش، وذلك أن عمرا كان عند نفسه أنه ملك الأمر وإليه التصريف حيث يشاء بندب الخلافة من يرى فخرج بينهما كلام كثير، فكان فيما قاله عمرو لمعاوية: هذا الكتاب - وأشار إلى صحيفة التحاكم بينه وبين أبى موسى السابق ذكرها - عليه خاتمى وخاتمه، قد أقر بأن عثمان قتل مظلومًا، وأخرج عليًا من هذا الأمر، وعرض على رجالا هم لهذا الأمر أهل، وبهذا، الأمر إليّ أستخلف عليه من شئت، فقد أعطانى أهل الشام عهدهم ومواثيقهم على الرضا بمن أختاره، فجاء معاوية، وضاحكه، وداعبه يحوله عما كان فيه، ثم قال: يا أبا عبد الله هل من غداء ؟ فقال عمرو: أما شيء يسع ما ترى فلا والله، فقال معاوية: هلم غدائى، فجئ بالطعام المعد فوضع، فقال معاوية: يا أبا عبد الله ادع مواليك وأهلك، فدعاهم، فقال عمرو: فادع أصحابك ومواليك، قال: نعم يأكل أصحابك أولا، ثم يجلس هؤلاء بعد، فجعلوا كلما قام رجل من أصحاب عمرو جلس موضعه رجل من أصحاب معاوية، حتى لم يبق من أصحاب عمرو واحد، فقام الذى وكله بالباب فأغلقه، فقال له عمرو: فعلتها ؟! فقال: نعم، والله بينى وبينك أمران أيهما شئت فعلت، قال: ما هما ؟ قال: البيعة، أو قتلك ليس والله غيرهما، قال عمرو: فأذن لغلامى وردان؛ أستشيره، وأنظر رأيه. قال معاوية:

---

(١) ينظر : مروج الذهب (٢/ ٤٠٩، ٤١٠) مع اختلاف في السياق.

لا تراه، والله ولا يراك إلا قتيلا أو على ما قلت لك. قال عمرو: فأوف إذن بطعمة مصر. قال: هى لك ما عشت.

فاستوثق كل منهما من صاحبه، وأحضر معاوية الخواص من أهل الشام، ومنع أن يدخل معهم من حاشية عمرو أحد، فقال لهم عمرو قد رأيت أن أبايع معاوية فلم أر أحدا أقوى على هذا الأمر منه، فبايعه أهل الشام، وانصرف [معاوية] إلى منزله خليفة(١).

قال العلامة البيهقى فى كتاب المحاسن: عن عمرو بن الأصم قال: حدثنا رجل من بنى هاشم، فقال أصلح الله الأمير، ألا أحدثك بفضائل أمير المؤمنين، على بن أبى طالب ؟ قال نعم. قال: حدثنى أبى، قال: حضرت مجلس محمد ابن عائشة بالبصرة إذ قام إليه رجل من وسط الحلقة، فقال: يا أبا عبد الرحمن، من أفضل أصحاب رسول الله ﷺ ؟ فقال: أبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير - وعد العشرة ما عدا عليًا - فقلت: فأين على ؟ فقال: ما هذا ؟ تسألنى عن أصحاب رسول الله ﷺ أو عن نفسه، قال: بل عن أصحابه، فقال إن الله تعالى يقول: ﴿ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ . . . ﴾ [آل عمران: ٦١]، فكيف يكون أصحابه مثل نفسه(٢).

وعن عطاء، كان لعلى - رضى الله تعالى عنه - موقف من رسول الله ﷺ يوم الجمعة، إذا خرج أخذ بيده، فلا يخطو خطوة إلا قال: اللهم هذا عليّ ابتغى مرضاتك؛ فارض عنه، حتى يصعد المنبر(٣). وروى أبو عثمان قاضى الرى عن الأعمش، عن سعيد بن جبير، قال: كان عبد الله بن عباس يحدث على شفير زمزم ونحن عنده، فلما قضى حديثه قام إليه رجل فقال: يا بن عباس، إنى رجل من أهل الشام، رأيتهم يتبرءون من على ويلعنونه؛ فقال ابن عباس: لعنهم الله تعالى فى الدنيا والآخرة، وأعد لهم عذابًا مهينًا، ألبعد قرابته من رسول الله ﷺ ؟ أو أنه لم يكن أول ذكران العالمين إيمانًا بالله ورسوله، وأول من صلى وركع وعمل بأعمال البر ؟. قال الشامى: إنهم والله ما ينكرون من قرابته وسابقيته، غير أنهم يزعمون أنه قتل

---

(١) ينظر مروج الذهب (٢/ ٤١١، ٤١٢) .

(٢) ينظر المحاسن والمساوئ (ص٣٩) .

(٣) ينظر: المحاسن والمساوئ (ص٣٩) .

الناس. فقال ابن عباس: ثكلتهم أمهاتهم، إن عليًا أعرف بالله ورسوله وبحكمهما منهم، فلم يقتل إلا من استحق القتل. فقال: يا بن عباس، إن قومى جمعوا لى نفقة، وأنا رسولهم إليك وأمينهم، لا يسعك أن تردنى بغير حاجتى، فإن القوم هالكون فى حقه[1]؛ ففرج عنهم فرج الله عنك. فقال ابن عباس: يا أخا الشام، إن مثل على بن أبى طالب فى هذه الأمة فى عمله وفضله كمثل العبد الصالح، الذى لقيه موسى - عليه السلام - حين انتهى إلى ساحل البحر فقال: ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾، [الكهف: ٦٦]، قال العالم: ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ ﴾ [الكهف: ٦٧، ٦٨]، الآية. فلما خرق السفينة لم يصبر موسى، وترك ما ضمن له من ترك السؤال فى خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار، وكان العالم أعلم بما يأتى من موسى، وكبر على موسى الحق وعظم؛ إذ لم يكن يعرفه وهو نبى مرسل، فكيف أنت يا أخا أهل الشام وأصحابك، إن عليًا لم يقتل إلا من كان يستحق القتل، وإنى أخبرك أن رسول الله ﷺ كان عند أم سلمة زوجته إذ أقبل علىٌّ يريد الدخول، فنقر نقرًا خفيفًا، فعرف النبى ﷺ نقره فقال: يا أم سلمة، قومى فافتحى الباب، فقالتْ: يا رسول الله، من ذا الذى يبلغ خطره أن أستقبله بمحاسنى، فقال: يا أم سلمة، إن طاعتى طاعة الله عز وجل، قومى فافتحى؛ فإن بالباب رجلاً ليس بالخرق ولا بالنزق[2] ولا بالعجل فى أمره، يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، يا أم سلمة، إن تفتحى الباب له فلن يدخل حتى يخفى عليه الوطء. فلم يدخل حتى غابت عنه، وخفى عليه الوطء، فلما لم يحس لها حركة دفع الباب ودخل، فسلم على النبى ﷺ فرد عليه السلام، وقال: يا أم سلمة، هل تعرفين هذا ؟ قالت: نعم، هذا على بن أبى طالب، فقال رسول الله ﷺ: نعم، هذا على، سيط لحمه بلحمى، ودمه بدمى، وهو منى بمنزلة هارون من موسى؛ إلا أنه لا نبىّ بعدى، يا أم سلمة، هذا على سيد المؤمنين، وأمير المسلمين، وموضع سرى وعلمى، وبابى الذى الرأى[3] إليه، وهو الوصى على [أهل] بيتى والأخيار من

---

(١) في المحاسن والمساوئ: أمره.

(٢) في ط: ليس بالحوف ولا النوف. والمثبت من المحاسن والمساوئ. والخرق: الجهل والحمق. والنزق: الخفة والطيش في الأمر. ينظر الوسيط (خرق)، (نزق).

(٣) في المروج: آوى.

أمتى، وهو أخى فى الدنيا والآخرة، وهو معى فى السناء[١] الأعلى، اشهدى يا أم سلمة أن عليًا يقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين، قال ابن عباس: وقتلهم لله رضا، وللأمة صلاح، ولأهل الضلالة سخط. فقال الشامى يا بن عباس، من الناكثون ؟ قال: الذين بايعوا عليًا بالمدينة ثم نكثوا؛ فقاتلهم بالبصرة، وهم أصحاب الجمل، وأما القاسطون معاوية وأصحابه، والمارقون أهل « النهروان » ومن معهم. فقال الشامى: يا بن عباس، ملأت صدرى نورًا وحكمة، وفرجت عنى فرج الله تعالى عنك، أشهد أن عليًا مولاى ومولى كل مؤمن ومؤمنة[٢].

وكتب معاوية إلى على بن أبى طالب كرم الله وجهه: أما بعد، فلو علمنا أن الحرب تبلغ منا ومنك ما بلغت لم نحثها بعضًا على بعض، وإنا - وإن كنا قد غلبنا على عقولنا - بقى لنا منها ما نرم به ما مضى ونصلح ما بقى، وقد كنت سألتك الشام على أنه لا يلزمنى لك طاعة، وأنا أدعوك اليوم إلى ما دعوتك [إليه] أمس، فإنك لا ترجو من البقاء إلا ما أرجو، ولا تخاف من القتل إلا ما أخاف، وقد - والله - بردت الأحقاد، وذهبت الأدغال، ونحن بنو عبد مناف، وليس لبعضها على بعض فضل يستذل به العبد، ويسترق به حر، والسلام.

فكتب إليه على بن أبى طالب: من على بن أبى طالب إلى معاوية بن أبى سفيان. أما بعد، فقد جاءنى كتابك؛ تذكر فيه أنك لو علمت أن الحرب تبلغ منا ومنك ما بلغت لم نحثها بعضًا على بعض، فإنا وإياك نلتمس منها غاية لم ندركها بعد. وأما طلبك منى الشام؛ فلم أكن لأعطيك اليوم ما منعتك أمس، وأما استواؤنا فى الخوف والرجاء؛ فلست أمضى على الشك منى على اليقين، وليس أهل الشام على الدنيا بأحرص من أهل العراق على الآخرة. وأما قولك إنَّا بنو عبد مناف؛ فليس أمية كهاشم، ولا حرب كعبد المطلب، ولا أبو سفيان كأبى طالب، ولا الطليق كالمهاجر، ولا المبطل كالمحق، وفى أبينا فضل النبوة التى قتلنا بها العزيز، وبعنا بها الحر[٣]، والسلام[٤].

---

(١) كان بياضا بالأصل والمثبت من المحاسن والمساوئ.
(٢) ينظر: المحاسن والمساوئ (ص٣٩-٤١) .
(٣) في ط: قبلناها العزيز، ويقبلها الحر. والمثبت من المروج، وهو الصواب إن شاء الله.
(٤) ينظر مروج الذهب (٣/ ٢٢-٢٣) وأشار إلى هذه الرسائل الطبري في تاريخه (٥/ ١٤٠) .

ثم كتب معاوية إلى قيس بن سعد بن عبادة عامل عليّ على مصر: أما بعد، فإنك يهودى ابن يهودى، وإن ظفر أحب الفريقين إليك عزلك واستبدل بك، وإن ظفر أبغضهما إليك نكل بك وقتلك، وكان أبوك أوتر قوسه ورمى غرضه، فأكثر الحزَّ وأخطأ المفصل.

قلت: هذا من معاوية يشير به إلى منع أبيه سعد بن عبادة عن بيعة أبى بكر، ثم عن بيعة عمر، وطمعه أن يكون هو الخليفة، وجمع قومه الخزرج فى ذلك حتى اجتمعوا إلى سقيفة بنى ساعدة كما تقدم ذكر ذلك عند ذكر خلافة أبى بكر الصديق، فخذله قومه، وأدركه يومه؛ فمات بـ« حوران » ضريرًا.

فكتب إليه قيس: أما أنت فوثنى ابن وثنى، دخلت فى الإسلام كرهًا وخرجت منه طوعًا، لم يتقدم إيمانك ولم يحدث نفاقك، وكان أبى أوتر قوسه ورمى غرضه، فشعب به[١] من لم يبلغ عقبه ولا نشق[٢] غباره، ونحن أنصار الدين الذى منه خرجت، وأعداء الدين[٣] الذى فيه دخلت[٤]. ولما صرف على - رضى الله عنه - قيس بن سعد عن مصر، وولى مكانه محمد بن أبى بكر كتب محمد إلى معاوية: من محمد بن أبى بكر، إلى الغاوى معاوية بن صخر، أما بعد، فإن الله بعظمته وسلطانه خلق خلقه بلا عبث منه، ولا ضعف فى قوة، ولا حاجة به إلى خلقهم، ولكنه خلقهم عبيدًا، وجعل منهم غويًّا ورشيدًا، وشقيًّا وسعيدًا. اختار على علم واصطفى وانتخب منهم محمدا ﷺ، فانتخبه بعلمه، واصطفاه لرسالته، وائتمنه على وحيه، وبعثه رسولاً ودليلاً؛ فكان أول من أجاب وأناب، وأذعن وصدق وأسلم - أخوه وابن عمه على بن أبى طالب، صدقه بالغيب المكتوم، وآثره على كل حميم، ووقاه بنفسه كل هول، وحارب حربه وسالم سلمه، فلم يبرح مبتذلاً لنفسه ساعات الليل بالخوف والخشوع والخضوع، حتى برز شارقًا[٥] لا نظير له ممن اتبعه، ولا مقارب له فِي فعله، وقد رأيتك تنال منه وأنت أنت، وهو هو؛ أصدق الناس نية، وأفضلهم

(١) شعب الشيء: فرقه أو جمعه، من الأضداد.
(٢) نشق: يشم. ينظر الوسيط (نشق).
(٣) في ط: الزي. والمثبت من المروج.
(٤) ينظر مروج الذهب (٣/ ٢٥-٢٦).
(٥) في المروج: سابقا.

ذرية، وخير الناس زوجة، وأفضل الناس ابن عم أخوه السارى بنفسه يوم مؤتة[١]- قلت: يريد به جعفرًا الطيار - رضى الله عنهما - وعمه سيد الشهداء يوم أحد، أبوه الذاب عن رسول الله ﷺ وعن حوزته، وأنت اللعين ابن اللعين، لم تزل أنت وأبوك تبغيان لرسول الله ﷺ الغوائل، وتجتهدان فى إطفاء نور الله، وتجمعان على ذلك الجموع، وتبذلان فيه الأموال، وتؤلبان عليه القبائل، على ذلك مات أبوك، وعليه خليفته والشهيد عليك من تدنى، ولجأ إليك من بقية الأحزاب ورؤساء النفاق، والشاهد لعلى أنصاره الذين ذكرهم بفضله، وأثنى عليهم من المهاجرين والأنصار، فهم معه كتائب وعصائب يرون الحق فى اتباعه، والشقاء فى خلافه، فكيف بك - لك الويل! - تعدل نفسك بعلى ؟ وهو وارث رسول الله ﷺ ووليه، وأبو ولده، وأولى الناس به اتباعًا، وأقربهم به عهدًا؛ يخبره[٢] بسره ويطلعه على أمره، وأنت عدوه؛ فتمتع فى دُنياك ما استطعت بباطلك، وليمددك ابن العاصى فى غوايتك، فإن أجلك قد انقضى، وكبرك قد دهى[٣]، ثم تبين لك لمن تكون العاقبة العليا، واعلم أنك إنما تكايد ربك الذى أمنت كيده، ويئست من روحه، فهو لك بالمرصاد، وأنت منه فى غرة[٤]، وَالسلام على من اتبع الهدى.

فكتب إليه معاوية: من معاوية بن أبى صخر، إلى الزارى على أبيه محمد بن أبى بكر، أما بعد، فقد أتانى كتابك، تذكر فيه ما الله أهله فى عظمته وقدرة سلطانه، وما اصطفى به رسول الله ﷺ، مع كلام كثير فيه لك تضعيف، ولأبيك فيه تعسيف، وذكرت فضل على بن أبى طالب، وقدم سوابقه، وقرابته من رسول الله ﷺ، ومواساته إياه فى كل هول وخوف، فكان احتجاجك عليّ وعيبك لى بفضل غيرك لا بفضلك، فأحمد ربًا صرف هذا الفضل عنك وجعله فى غيرك؛ فقد كنا وأبوك معًا نعرف فضل على وحقه لازم لنا مبرز علينا، فلما اختار الله لنبيه ما عنده، وأتم له ما وعده، وأظهر دعوته، وأفلج حجته، وقبضه إليه - كان أبوك وفاروقه[٥] أول من

(١) في ط: بعد نور. والمثبت من المروج، وهو الصواب.
(٢) في ط: يخلوه. والمثبت من المروج.
(٣) في المروج: وكيدك قد وهى.
(٤) في المروج: في غرور.
(٥) فى ط: « كان أبوك وفاز وقد أول» . وهو تحريف .

انتزع حقه وخالفه عن أمره، على ذلك اتفقا واتسقا، ثم إنهما دعواه إلى بيعتهما فأبطأ عنهما، وتلكأ عليهما؛ فهمَّا به الهموم وأرادا [به] العظيم، ثم إنه بايع لهما وسلم إليهما، فأقاما لا يشركانه فى أمرهما، ولا يطلعانه على سرهما، حتى قبضهما الله تعالى، ثم قام ثالثهما عثمان فهدى هديهما وسار سيرتهما، فعبته أنت وصاحبك، حتى طمع فيه الأقاصى من أهل المعاصى، فطلبتما له الغوائل، وأظهرتما عداوتكما، حتى بلغتما فيه مناكما؛ فخذ حذرك يا بن أبى بكر، وقس شبرك بفترك؛ فإنك تقصر أن توازى أو تساوى من يزن حلمه الجبال، ولا تلين على قسر قناته، ولولا فعل أبيك من قبل ما خالفنا ابن أبى طالب ولسلمنا إليه، ولكنا رأينا أباك فعل به ذلك منْ قبلنا فأخذنا بمثله، فعب أباك بما بدا لك أَوْ دع، والسلام على من أناب. كذا ذكره المسعودى(١) وهو من كبار الجماعه؛ كذا أورد هذه المكاتبة ومد بها باعه. فقبح الله من كان اختراعه.

ثم وجه معاوية عمرو بن العاص إلى مصر فى أربعة آلاف، معه معاوية بن خديج، وأبو الأعور السلمى وفاء لعمرو بما وعده، وكان عليها محمد بن أبى بكر واليًا من جهة على فاقتتلا، فظفر عمرو بمحمد ووضع فى جيفة حمار، وأحرق فيها. قيل: وضع حيًا، وقيل: بعد قتله، فبلغ ذلك معاوية فسر، وبلغ عليًا فحزن أشد حزن على محمد رحمه الله تعالى. ثم ولى على الأشتر مالك بن الحارث النخعى، وبعثه إليها فى جيش مكان محمد بن أبى بكر، فمات بالطريق، ويقال: إن معاوية دس إلى دهقان أن يسمه فسمه فى شربة عسل؛ فما استقر فى جوفه حتى هلك؛ فأتى من كان معه على الدهقان ومن كان معه، وإنه لما بلغ معاوية الخبر قال: لله جنود منها العسل(٢).

ذكر وفاته: قال ابن خلكان: سببها أنه اجتمع من بقى من الخوارج، فتذكروا أصحاب النهروان وترحموا عليهم، وقالوا: ما نصنع بالبقاء بعدهم. وقال غيره: سببها أنه لما طال النزاع بين على ومعاوية تعاقدوا على قتل على ومعاوية وعمرو بن العاص، فانتدب لذلك ثلاثة نفر عبد الرحمن بن ملجم المرادى، والبرك بن عبد الله التميمى، وعمرو بن بكر التميمى - أيضًا - فقال عبد الرحمن بن ملجم: أنا لكم

(١) ينظر مروج الذهب (٣/ ٢٠-٢٢) وهناك زيادات لم ترد هنا.
(٢) ينظر: مروج الذهب (٢/ ٤٢٠، ٤٢١) .

بعلى، وقال البرك: أنا لكم بمعاوية، وقال عمرو: أنا لكم بعمرو بن العاص. واتعدوا أن يكون القتل ليلة السابع عشر من رمضان، وكان اجتماعهم لهذا التعاقد بمكة، فسار عبد الرحمن إلى على بالكوفة، وسار البرك بن عبد الله إلى معاوية بالشام، وسار عمرو بن بكر إلى عمرو بن العاص بمصر، فلما دخل ابن ملجم الكوفة عازمًا على ذلك، وكان قد اشترى سيفًا بألف دينار، وسقاه السم حتى نفضه، وكان فى خلال ذلك يأتى عليًا فيستحمله فيحمله، وينشد على - رضى الله تعالى عنه - إذا رآه: [من الوافر]

أُرِيدُ حَيَاتَهُ ويُرِيدُ قَتْلِي عذَيرى من خَلِيلى من مُرَادِ

ثم يقول: هذا والله قاتلى، قيل: فما يمنعك منه ؟ قال: إنه لم يقتلنى بعد. وقيل له: إن ابن ملجم يسم سيفه، وقال: إنه سيقتلك قتلة تتحدث بها العرب؛ فبعث إليه وقال له: تسم سيفك ؟ قال: لعدوى وعدوك، فخلى عنه، وقال: ما قتلنى بعد(١).

وعن عبد الله بن مطيع، قال: خطبنا على بن أبى طالب - رضى الله تعالى عنه- قال: والذى فلق الحبة، وبرأ النسمة، لتخضبن هذه من هذه(٢). فقال الناس: أعلمناه لَنَبِيرَنَّهُ ولَنَبِيرَنَّ عشيرته، قال: أنشدكم بالله أن يقتل بى غير قاتلى. وقعت عين ابن ملجم على قطام امرأة رائعة جميلة كانت ترى رأى الخوارج، كان على قتل أباها وأخاها بالنهروان، فخطبها ابن ملجم، فقالت له: آليت ألا أتزوج إلا على مهر لا أريد سواه، ثلاثة آلاف وعبد وقينة وقتل على بن أبى طالب. فقال ابن ملجم: والله لقد قصدت قتل على بن أبى طالب، وما أقدمنى هذا المصير غيره، ولكن لما رأيتك آثرت تزويجك. قالت: ليس إلا بالذى قلت لك. قال لها: يغنينى أو يغنيك قتل على، وأنا أعلم أنى إذا قتلته لم أفلت. قالت: إن قتلته ونجوت فهو الذى أردت، ويهنيك العيش منى، وإن قتلت فما عند الله خير من الدنيا وما فيها. فقال لها: لك ما اشترطت. فقالت: سألتمس من يشد ظهرك؛ فبعثت إليه بابن عم لها يدعى: وردان بن مخالد؛ فأجابها، ولقى ابن ملجم شبيب بن بحر الأشجعى، فقال: يا شبيب هل لك فى شرف الدنيا والآخرة ؟ قال: وما هو ؟ قال: تساعدنى على

---

(١) ينظر: الاستيعاب (٣/ ٢٢٠) .

(٢) في الاستيعاب: والله ليخضبن هذا من دم هذا.

قتل على بن أبى طالب. قال: ثكلتك أمك، لقد جئت شيئًا إمرًا[١]، كيف تقدم[٢] على ذلك ؟ قال: إنه رجل لا حرس له، ويخرج إلى المسجد منفردًا دون من يحرسه، ننتظره حين يخرج إلى المسجد فنكمن له فى المسجد، فإذا خرج إلى الصلاة قتلناه، فإن نجونا نجونا، وإن قتلنا سعدنا بالذكر فى الدنيا والجنة فى الآخرة. فقال له: ويلك، إن عليًا ذو سابقة فى الإسلام مع النبى ﷺ، والله ما ينشرح قلبى لقتله. قال: ويلك!، إنه حكم الرجال فى دين الله، وقتل إخواننا الصالحين فنقتله ببعض من قتل، فلا تَشُكن فى دينك. فأجابه وأقبلا حتى دخلا على قطام، وهى معتكفة فى المسجد الأعظم فى قبة ضربتها لنفسها، فدعت لهم، وأخذوا أسيافهم، وجلسوا أمام السُّدة التى يخرج منها على، وكان - رضى الله تعالى عنه - فى شهر رمضان الذى قتل فيه يفطر ليلة عند الحسن، وليلة عند الحسين، وليلة عند عبد الله بن جعفر، ولا يزيد على ثلاث لقم، ويقول: أحبُّ أن ألقى الله وأنا خميص.

ولما كانت الليلة التى قتل فى صبيحتها أكثر الخروج والنظر إلى السماء، وجعل يقول: والله ما كذبت ولا كذبت، وإنها الليلة التى وعدت. فلما خرج إلى صحن الدار قاصدًا الخروج إلى المسجد، إذا أوز يَصِحن فى وجهه فطردوهن، فقال: دعوهن، فإنهن نوائح، فخرج إلى الصلاة من باب السُّدة، فبدره شبيب فضربه فأخطأه، وضربه ابن ملجم على موضع الصلع من رأسه، وقال: الحكم لله يا على لا لك ولا لأصحابك. فقال على: فزت ورب الكعبة، لا يفوتكم الكلب، فشد الناس عليه من كل جانب فحمل ابن ملجم عليهم بسيفه؛ فأفرجوا له وتلقاه المغيرة بن نوفل بقطيفة فرمى بها عليه، ثم احتمله فرمى به الأرض، وجلس على صدره، ثم أوثقوه. وأما شبيب فهرب خارجًا من باب كندة .

ولما أخذ عبد الرحمن قال على: احبسوه، فإن مت فاقتلوه ولا تمثلوا به، وإن لم أمت فالأمر إليّ فى العفو والقصاص. أخرجه أبو عمر[٣]، وكذا فى الرياض.

قال ابن الجوزى: بقى على يوم الجمعة ويوم السبت، وتوفى ليلة الأحد، وقيل:

(١) في الاستيعاب: بجرة.
(٢) في الاستيعاب: تقدر.
(٣) ينظر الاستيعاب (٣/ ٢١٨-٢١٩)، ومروج الذهب (٢/ ٤٢٣-٤٢٤) وتاريخ الطبري (٥/ ١٤٣-١٤٦) والبداية والنهاية (٧/ ٣٦١-٣٦٢) .

توفى من يوم الجمعة، وكان الفتك به ليلة سبع عشرة فى رمضان كوقعة بدر، وقيل: صبيح ليلة ثالث عشرة، وقيل: لإحدى عشرة ليلة خلت، وقيل: بقيت، وقيل: لثمان عشرة ليلة خلت منه، ذكر هذا كله ابن عبد البر فى « الاستيعاب »(١)، وفى ذلك يقول الفرزدق: [من الطويل]

فلم أر مَهْرًا سَاقه ذُو سماحةٍ كَمَهْرِ قطام بين عربٍ(٢) وأَعْجُمِ
ثـلاثـةُ آلافٍ وعَـبْـدٌ وقـيـنـةٌ وضرْبُ عليٍّ بالحسامِ المصمم
فلا مَهْرٌ اغلَى مِنْ عليٍّ وإن علا ولا فَتْكٌ الاَّ دونَ فتكِ ابنِ ملجمِ(٣)

وغسله الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر، ومحمد ابن الحنفية يصب الماء.

وروى هارون بن سعد أنه كان عند على مسك أوصى أن يحنّط به، وقال: « إنه من حنوط رسول الله ﷺ » أخرجه البغوى. وصلى عليه الحسن وكبر عليه أربعًا، وقيل: سبعًا، وقيل: تسعًا.

وقيل: إن عليًا - رضى الله تعالى عنه - أوصى أن يخفى قبره؛ لعلمه أن الأمر يصير إلى بنى أمية، فلم يأمن أن يمثلوا بقبره(٤).

وقد اختلف فى قبره، فقيل: فى زاوية الجامع بالكوفة، وقيل: بالرحبة من الكوفة، وقيل: بقصر الإمارة منها، وقيل: بنجف الحيرة فى المشهد الذى يزار به اليوم، وأصح ما قيل: إنه مدفون بقصر الإمارة بالكوفة(٥).

قال العلامة السيوطى فى تاريخه: قال شريك: نقله ابنُهُ الحسن يريد به المدينة، فكان فى مسيرهم ما أخرج ابن عساكر عن ابن عبد العزيز قال: لما قتل على بن أبى طالب كرم الله وجهه حملوه ليدفنوه عند رسول الله ﷺ، فبينما هم فى مسيرهم ليلاً إذ ندَّ الجمل الذى هو عليه؛ فلم يدروا أين ذهب، ولم يقدروا عليه، فلذلك يقول أهل العراق: هو فى السحاب! وقيل: إن البعير الذى هو عليه وقع فى بلاد طيئ، فأخذوه ودفنوه. انتهى ما قاله السيوطى(٦).

---

(١) ينظر الاستيعاب (٣/ ٢١٧-٢١٨).
(٢) في الاستيعاب: من فصيح.
(٣) ينظر الاستيعاب (٣/ ٢٢٣) وتاريخ الطبري (٥/ ١٥٠) والبداية والنهاية (٧/ ٣٦٤).
(٤) ينظر البداية والنهاية (٧/ ٣٦٥).
(٥) ينظر الاستيعاب (٣/ ٢١٧).
(٦) ينظر تاريخ الخلفاء (ص١٣٩-١٤٠).

وقال العلامة الدميرى فى « حياة الحيوان الكبرى »: التحقيق أن عليًا - رضى الله تعالى عنه - لا يعرف قبره على الحقيقة. قلت: ذكر ابن خلكان أن الرشيد خرج يومًا إلى الصيد فانتهى به إلى موضع قبر على المشهور الآن بالمشهد، فأرسل فُهودًا على صيد، فتبعت الصيد إلى مكان القبر، ووقفت الفهود عنده ولم تتقدم إلى الصيد، فعجب هارون الرشيد من ذلك؛ فجاء رجل من أهل الحيرة فقال: يا أمير المؤمنين، أرأيت إن دللتك على قبر ابن عمك على بن أبى طالب، ألى عندك ملزمة ؟ قال: نعم. قال: هذا قبره. فقال له الرشيد: من أين علمته ؟ قال: كنت أجيء مع أبى فيزوره، وأخبرنى أبى أنه كان يجيء مع جعفر الصادق - رضى الله عنه - فيزوره، وأن جعفرًا كان يجيء مع أبيه محمد الباقر فيزورهُ، وكان الباقر يجيء مع أبيه زين العابدين على بن الحسين فيزوره، وكان الحسين أعلمهم بمكان القبر، فأمر الرشيد بأن يحجر على الموضع، وكان أول الناس وضع فيه، ثم تزايدت الأبنية فيه فى أيام ملوك السامانِيَّة وأيام بنى حمدان، وتفاقمت بزيادة فى أيام ملوك الديلم بنى بويه، قال: وعضد الدولة منهم هو الذى أظهره ظهورًا عظيمًا، وعمر المشهد عمارة حسنة، وأوصى أن يُدفن هناك فدفن.

قال الحافظ الذهبى: سئل على وهو على منبر الكوفة عن قوله تعالى: ﴿ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، فقال: اللهم اغفر، هذه الآية نزلت فيَّ وفى عمى حمزة، وفى ابن عمى عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، فأما عبيدة فقضى نحبه شهيدًا يوم بدر، وأما حمزة فقضى نحبه شهيدًا يوم أحد، وأما أنا فأنتظر أشقاها يخضب هذه من هذا - وأشار إلى لحيته ورأسه - عهدٌ عهده إليّ حبيبى أبو القاسم ﷺ .

ولما أصيب دعا الحسن والحسين فقال لهما: أوصيكم بتقوى الله، ولا تبغيا الدنيا وإن بغتكما، ولا تبكيا على شيء زوى منها عنكما، وقولا الحق، وارحما اليتيم، وأعينا الضعيف، واصنعا للآخرة، وكونا للظالمين خصمًا وللمظلوم أنصارًا، وأعطوا لله، ولا تأخذكم فى الله لومة لائم. ثم نظر إلى ولده محمد ابن الحنفية فقال له: هل حفظت ما أوصيت به أخويك ؟ قال: نعم. فقال له: أوصيك بمثله. ثم قال: أوصيك بتوقير أخويك؛ لعظم حقهما عليك، ولا تؤثر امرأً دونهما[1]. ثم قال

(١) في المروج: ولا تقطعن أمرا دونهما.

[لهما: سيفكما وابن أبيكما][1] أوصيكما به؛ فإنه أخوكما، وقد علمتما أن أباكما يحبه. ثم لم ينطق إلا بلا إله إلا الله إلى أن قبض كرم الله وجهه[2].

وعن هشيم مولى الفضل: لما مات على قام الحسين ومحمد ابن الحنفية إلى ابن ملجم فقطعاه عضوًا عضوًا وسملا عينيه بمسمار حديد حمى ولم يتأوه، فلما جودل قطع لسانه فصاح، فقيل له: فقال: والله ما صياحى جزعًا من الموت، لكن خشيت أن تمر بى ساعة من الدنيا لا أذكر الله فيها ولما أرادوا فعل ذلك نهاهما الحسن؛ عملاً بوصية والده فلم يمتثلا لشدة حزنهما، ثم جعل فى قوصرة، وأوقد النار، وأحرقت جيفته أم الهيثم بنت الأسود النخعية، وقيل: بل أمر الحسن بضرب عنقه فضربت[3].

ومن أغرب ما سمعته قول عمران بن حطان بن ظبيان السدوسى البصرى أحد رءوس الخوارج يمدح ابن ملجم قاتل الإمام على كرم الله وجهه وسود وجهيهما: [من البسيط]

يا ضَرْبَةً مِنْ تقيٍّ ما أرادَ بها إلا لِيَبْلُغَ مِنْ ذى العرشِ رِضْوَانَا
إنِّى لأَذْكُرُهُ يومًا فأحسبُهُ أوفى البريةِ عند الله ميزانَا
أكْرم بقومٍ بطونُ الطيرِ قبرهُمُ لم يخلطُوا دينَهُمْ بغيًا وعدوانًا

قال الذهبى: لما بلغ شعره هذا عبد الملك بن مروان أدركته الحمية فنذر دمه فوضع عليه العيون فلم تحمله أرض[4].

وكان سن على - رضى الله تعالى عنه - خمسًا وستين سنة، ذكر ذلك أبو بكر أحمد بن الدارع فى كتاب «مواليد أهل البيت»، ولم يذكره غيره، وقيل: سبع وخمسون، وقيل: ثمان وخمسون، وقيل: ثلاث وستون، وعليه الأكثرون[5].

صحب النبى ﷺ بمكة ثلاث عشرة سنة، وعمره إذ ذاك اثنتا عشرة سنة، ثم هاجر فكان معه بالمدينة عشر سنين، ثم عاش من بعده ثلاثين سنة.

ومما رثى به على - رضى الله تعالى عنه - قول أبى الأسود الدؤلى: [من الوافر]

ألا يا عَيْنُ ويحَكِ أَسْعدينَا ألا تَبْكِينَ امِيرَ المؤمنينا

---

(١) المثبت من المروج.
(٢) ينظر مروج الذهب (٢/ ٤٢٥-٤٢٦).
(٣) ينظر مروج الذهب (٢/ ٤٢٦).
(٤) ينظر مروج الذهب (٢/ ٤٢٦-٤٢٧) والاستيعاب (٣/ ٢٢١) وتاريخ الإسلام (٣/ ٦٥٤).
(٥) ينظر الخلاف في سنة وفاته الاستيعاب (٣/ ٢١٧-٢١٨).

تبكّى أمّ كلثوم عليهِ ... بعبرتها وقَدْ رأتِ اليَقينَا
ألا قُلْ للخوارجِ حيثُ كانوا ... فلا قرّتْ عيونُ الحاسدينا
أفى شَهْرِ الصيامِ فَجَعْتُمُونَا ... بخيرِ الناسِ طُرًّا أجمعينَا
قتلتُمْ خَيْرَ مَنْ ركبَ المطايا ... وذَلَّلها ومَنْ رَكِبَ السفينَا
ومَنْ لَبِسَ النعالَ ومَنْ حذاها ... ومَنْ قرأ المثانِى والمبينَا
وكُلّ مناقبِ الخيراتِ فيه ... وحبّ رسولِ رَبِّ العالمينا
لقد علمتْ قريشٌ حَيْثُ كانَتْ ... بأنَّكَ خيرُهُمْ حسبًا ودِينا
إذا استقبلْتَ وجَهَ أبى حُسَيْنٍ ... رأيتَ البدْرَ فوقَ الناظِرينا
وكنَّا قبل مقتلِهِ بخَيْرٍ ... نرى مَوْلَى رسولِ الله فينا
يُقيم الحقَّ لا يرتَابُ فيه ... ويعدلُ فى العدا والأقربينا
وليس بكاتِم علمًا لدَيْهِ ... ولم يخلَقْ من المتسخِّرِينا
كأنَّ الناسَ إذْ فقدوا عليًّا ... نعامٌ حارَ فى بَلَدٍ سبينا
فلا تشمتْ معاوية بْنَ حربٍ ... فإنَّ بقيةَ الخلفاءِ فينا[1]

وقال بكر بن حماد يرثى عليًا كرم الله وجهه، ويرد على عدو الله عمران بن حطان قوله فى عدو الله ابن مُلْجم: [من البسيط]

قلْ لابنِ ملجمَ والأقدارُ غالبةٌ ... هدمْتَ وَيْلَكَ للإسلامِ أركانا
قتلْتَ أفضَلَ مَنْ يمشى على قَدَمٍ ... وأولَ الناسِ إسلامًا وإيمانا
وأعلَمَ الناسِ بالإسْلامِ ثُمَّ بما ... سَنَّ الرسولُ لنا شرعًا وتبيَانًا
صِهْرَ النبيِّ ومولاه وناصِرَهُ ... أضحَتْ مناقبه نورًا وبرهانا
وكان منه عَلَى رغْمِ الحسودِ له ... مكانَ هارونَ من مُوسى بن عِمْرَانا
وكَانَ فى الحربِ سيفًا ماضيًا[2] ذَكَرًا ... ليثًا إذَا لَقِيَ الأقرانُ أقرانا
ذكَرْتُ قاتلَهُ والدمْعُ منحدرٌ ... فقلْتُ سبحانَ ربِّ الناسِ سبحانًا
إنِّى لأحسبُهُ ما كانَ من بَشَرٍ ... يخشى المعادَ ولكنْ كان شَيْطانا

---

(١) ينظر الاستيعاب (٣/ ٢٢٣-٢٢٤) وتاريخ الطبري (٥/ ١٥٠-١٥١) وسبل الهدى والرشاد (١١/ ٣٠٧-٣٠٨) مع اختلاف في بعض الألفاظ، وترتيب الأبيات.

(٢) في الاستيعاب: صارمًا.

أشقَى مراد إذا عدَّت قبائلها ... وأخْسَر الناسِ عِنْدَ الله ميزانا
كعاقِرِ الناقةِ الأُولى التِى جلَبَتْ ... على ثمودٍ بأرضِ الحجرِ خُسْرَانا
قد كانَ يخبرُهُمْ أنْ سوفَ يخضبها ... قَبْلَ المنيةِ أزمانًا فأزمانا
فلا عفا الله عنه ما تحملَهُ ... ولا سَقَى قَبْرَ عمرانَ بْنِ حِطَّانا
لقولِهِ فى شقي ظلَّ مجترمًا ... وقال ما قاله[١] ظُلْمًا وعُدْوانا:
« يا ضربةً من تَقِيٍّ ما أراد بها ... إلا ليبلُغَ مِنْ ذى العرشِ رِضْوانا »
بل ضربةً مِنْ غويٍّ أورثَتْهُ لظًى ... فسوْفَ يلقى بِها الرحمَنَ غَضْبَانا
كأنه لم يردْ قصدًا بضربتِهِ ... إلا لِيَصْلَى عذَابَ الخُلْدِ نيرانا[٢]

وقال الصفى الحلى يمدح على بن أبى طالب رضى الله عنه وكرم وجهه:
[من الخفيف]

جُمِعَتْ فى صفاتِكَ الأضدادُ ... فلهذا عَزَّتْ لكَ الأندادُ
زاهِدٌ حاكمٌ عليمٌ شجاعٌ ... ناسكٌ فاتكٌ فقيرٌ جَوَادُ
هِمَمٌ ما جُمِعْنَ فى بَشَرٍ قَطْـ ... ـطُ ولا حَازَ مثلَهُنَّ العبادُ
خلقٌ يخجل النسيمَ مِن اللطْـ ... ـفِ وبأسٌ يذوبُ منه الجمادُ
فلِهذا تعمَّقَتْ فيكَ أقوا ... مٌ بأقوالِهِمْ فزانُوا وزادُوا
وغلَتْ فى صفاتِ فضلِكَ «يَاسِيـ ... ـنٌ» و«حَاميمُ» «هل أتى» ثم «صَادُ»
ظهرَتْ منك للورَى مكرمَاتٌ ... فأقرَّتْ بفضلِكَ الحسادُ
إن يكذب بها عداكَ فَقَدْ كَذْ ... ذبَ مِنْ قبلُ قوْمُ لوطٍ وعادُ
أنتَ سِرُّ النبيِّ والصنو وابن الْـ ... ـعَمِّ والطهْرُ والأخُ المستجادُ
لو رأَى مثلَكَ النبيُّ لآخا ... هُ وإلاَّ لأخطَأَ الإنتقادُ
وبكُمْ بَاهَلَ النبيُّ ولم يُلْـ ... ـفَ لكُمْ خامسٌ سواه يُرَادُ
كنتَ نفسًا له وعِرْسُكَ وابنا ... كَ لدَيْهِ النساءُ والأولادُ
جَلَّ معناك أن يحيطَ به الشِّعْـ ... ـرُ ويُحْصِى صفاتِكَ التَّعْدَادُ
إنما الله عنكُمُ أذهَبَ الرجْـ ... ـسَ فردَّتْ بغيظها الحسادُ

(١) في الاستيعاب: ونال ما ناله.
(٢) ينظر: الاستيعاب (٣/ ٢٢١، ٢٢٢).

ذاكَ مَدْحُ الإلهِ فيكُمْ فإنْ قُهْـ ـتُ بَمْدحٍ فذاكَ قولٌ معادُ

وقال خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين من قصيدة فيه: [من الطويل]

رأَوْا نعمةً للهِ ليسَتْ عليهِمُ عليكَ وفضلًا بارعًا لا تنازعُهْ

فعَضُّوا من الغيظِ الطويلِ أكفَّهُمْ عليكَ ومَنْ لم يرْضَ فاللهُ خادعُهْ

مِن الدينِ والدنيا جميعًا لَكَ المنَى وفَوْقَ المنَى أخلاقُهُ وطبائعُهْ[١]

الآيات فى شأن على كرم الله وجهه

منها عن ابن عباس – رضى الله عنهما – فى قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ [البقرة: ٢٧٤]، قال: « نزلت فى على بن أبى طالب؛ كانت معه أربعة دراهم فأنفق بالليل درهمًا وفى النهار درهمًا، ودرهما فى السر ودرهما فى العلانية، فقال له – عليه الصلاة والسلام –: ما حملك على هذا ؟ قال: أستوجب على الله ما وعدنى، فقال – عليه الصلاة والسلام –: إن لك ذلك »[٢] وتابع ابن عباس مجاهد وابن المسيب ومقاتل.

ومنها قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾ [السجدة: ١٨]، نزلت فى على بن أبى طالب والوليد بن عتبة »[٣]، أخرجه الحافظ السلفى. وعن ابن عباس أن الوليد بن عتبة قال لعلى: أنا أحدّ منك سنانًا وأبسط منك لسانًا وأملأ كتيبة، فقال له على: اسكت، إنما أنت فاسق تقول الكذب، فأنزل الله الآية تصديقًا لعلى[٤]. قال قتادة: لا والله ما استويا عند الله لا فى الدنيا ولا فى الآخرة. ثم أخبر عن الفريقين فقال: ﴿ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟. . . ﴾ [السجدة: ١٩]، أخرجه الواقدى.

---

(١) ينظر الاستيعاب (٣/ ٢٢٤) .

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١١١٦٤) والواحدي في أسباب النزول (١٨٠) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٣٢٤) وقال: فيه عبد الوهاب بن مجاهد وهو ضعيف ا.هـ وذكره السيوطي في الدر المنثور (١/ ٦٤٢) وزاد نسبته إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن عساكر.

(٣) أخرجه الواحدي في أسباب النزول (٦٨٧) من حديث ابن عباس وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٣٤١) وزاد نسبته إلى أبو الفرج الأصفهاني في كتاب الأغاني وابن عدى وابن مردويه والخطيب وابن عساكر".

(٤) انظر السابق.

ومنها قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ ﴾ [القصص: ٦١]، الآية قال مجاهد: نزلت فى على وحمزة وأبى جهل[١].

ومنها قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ [مريم: ٩٦]، قال ابن الحنفية: لا يبقى مؤمن إلا وفى قلبه ودّ لعلى وأهل بيته[٢]. أخرجه الحافظ السلفى.

ومنها قوله تعالى: ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ﴾ [الحج: ١٩]، إلى قوله: ﴿ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [الحج: ٢٤]، وعن أبى ذر، كان يقسم: لنزلت هذه الآية فى على وحمزة وعبيدة بن الحارث بن المطلب حين بارزوا عتبة بن ربيعة وأخاه شيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة يوم بدر[٣]. أخرجه مسلم.

ومنها قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ [الزمر: ٢٢]، الآية، نزلت فى على وحمزة وأبى لهب وأولاده، فعلى وحمزة شرح الله صدرهما للإسلام، وأبو لهب وأولاده قست قلوبهم، ذكره أبو الفرج.

وعن على - رضى الله عنه - قال: لما نزلت هذه الآية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ﴾ [المجادلة: ١٢]، قال لى رسول الله ﷺ: ما ترى، أدينار؟ قلت: لا يطيقونه. قال: فكم؟ قلت: شعيرة، قال: إنك لزهيد. فنزلت ﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ ﴾ [المجادلة: ١٣]، فبى خفف الله عن هذه الأمة[٤]. أخرجه أبو حاتم.

ومنها قوله تعالى: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ [الإنسان: ٨]،

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري (١٠/ ٩٢) ، رقم (٢٧٥٤٧) والواحدي في أسباب النزول (٦٦٤).

(٢) رواه الطبراني في الكبير (١٢/ ١٢٢) (١٢٦٥٥) من حديث ابن عباس في قوله ﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ [مريم : ٩٦] وقال المحبة في صدور المؤمنين نزلت في علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٥١٢) وزاد نسبته إلى ابن مردويه.

(٣) حديث أبي ذر أخرجه البخاري (٣٩٦٦، ٣٩٦٨، ٣٩٦٩، ٤٧٤٣) ومسلم (٣٠٣٣) والنسائي في التفسير (٣٦١) وابن ماجة (٢٨٣٥) وزاد السيوطي نسبته في الدر المنثور (٤/ ٦٢٧) إلى سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل .

(٤) أخرجه الترمذي في سننه (٣٣٠٠) وقال: حسن غريب وذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٢٧٢) وزاد نسبته إلى ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وأبي يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والنحاس.

قال ابن عباس: آجر على نفسه فسقى نجيلاً بشيء من شعير ليلة حتى أصبح، فلما أصبح قبض الشعير فطحن منه فجعل منه شيئًا ليأكلوه، يقال له: الحريرة؛ دقيق بلادهن، فلما تم نضاجه أتى مسكين يسأل، فقال: أطعموه إياه، ثم صنعوا الثلث الثانى، فلما تم نضاجه أتى يتيم فسأل، فقال: أطعموه إياه، ثم صنعوا الثلث الباقى [فلما تم نضاجه] أتى أسير من المشركين فسأل، فقال: أطعموه إياه، فأطعموه إياه؛ وطووا يومهم، فنزلت[1]. وهذا قول الحسن وقتادة، أن الأسير كان من المشركين[2]، قال أهل العلم: وهذا يدل على أن الثواب مرجو فيهم، وإن كانوا من غير أهل الملة، وهذا إذا كان ما أعطوه من غير الزكاة والكفارة كما هنا.

قلت: يحتمل أن يكون الجار والمجرور مطلقا بالفعل على فعل مضاف، ليكون المعنى: أتى من ديار المشركين أسير الصادق بكونه مؤمنًا. بل هذا الاحتمال أولى من اعتباره صفة للأسير المؤدى إلى تعيين كونه من المشركين، المحوج إلى التوجيه بقوله. قال أهل العلم: وهذا يدل. . . . إلى آخره.

وعن ابن عباس أنه قال: ليس فى كتاب الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ [البقرة:١٠٤] إلا وعليّ أولها وآخرها، ولقد عاتب الله أصحاب محمد ﷺ فى القرآن، وما ذكر عليًا إلا بخير. أخرجه أحمد فى « المناقب ».

الأحاديث فى شأن أبى الحسنين كرم الله تعالى وجهه

الحديث الأول: عن أبى ليلى، عن النبى ﷺ أنه قال: « الصديقون ثلاثة: حبيب النجار، مؤمن آل يس، الذى قال: ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ [غافر:٣٨]. وحرمل، مؤمن آل فرعون، الذى قال: ﴿ أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ ﴾ [غافر:٢٨]. وعلى بن أبى طالب، وهو أفضلهم » أخرجه أحمد فى

(١) أخرجه الواحدي في أسباب النزول (٨٤٤) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٤٨٥) مختصراً وعزاه لابن مردويه ولم يذكر فيه القصة .

(٢) أثر الحسن ذكره السيوطي في الدر (٦/ ٤٨٤) وعزاه إلى سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن مردويه عن الحسن بلفظ: كان الأساري مشركين يوم نزلت هذه الآية ﴿ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ﴾ [الإنسان:٨] وأما أثر قتادة فذكره السيوطي أيضاً عن قتادة في الآية قال: لقد أمر الله بالأسارى أن يحسن إليهم وأنهم يومئذ لمشركون فوالله لأخوك المسلم أعظم عليك حرمة وحقاً. وعزاه إلى عبد بن حميد.

« المناقب ».

الحديث الثانى: عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله - ﷺ - لعلى بن أبى طالب: « سلام عليك أبا الريحانتين؛ فعن قليل يذهب ركناك، والله خليفتى عليك »، فلما قبض عليه الصلاة والسلام قال: هذا أحد الركنين الذى قال - ﷺ -، فلما ماتت فاطمة قال: هذا الركن الآخر. أخرجه أحمد فى المناقب أيضًا.

الحديث الثالث: عن سهل بن سعد، أن رجلاً جاءه فقال: هذا فلان - لأمير من أمراء المدينة - يدعوك تسُبّ عليًا على المنبر، قال: أقول ماذا ؟ قال: تقول له أبا تراب. قال: فضحك سهل وقال: والله ما سماه أبا تراب إلا رسول الله ﷺ ما كان اسم أحب إليه منه؛ دخل عليّ على فاطمة ثم خرج، فجاء - عليه الصلاة والسلام -، فقال: أين ابن عمك ؟ فقالت: كان بينى وبينه شيء، فغاضبنى وخرج، ولم يَقِلْ عندى، وها هو مضطجع فى المسجد. فخرج - عليه الصلاة والسلام - فوجد رداءه قد سقط عن ظهره، فجعل رسول الله ﷺ يمسح التراب عن ظهره ويقول: « اجلس أبا تراب »[(١)]. أخرجه البخارى ومسلم وأبو حاتم.

الحديث الرابع: عن معاذة العدوية، سمعت عليًا على منبر البصرة يقول: أنا عبد الله وأخو رسوله، وأنا الصديق الأكبر[(٢)].

الحديث الخامس: عن أبى ذر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لعلى: أنت الصديق الأكبر، وأنت الفاروق الذى يفرق بين الحق والباطل، يعسوب المؤمنين. وفى رواية: الدين خرجهما الحاكمى[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٤١، ٣٧٠٣، ٦٢٠٤، ٦٢٨٠) ومسلم (٢٤٠٩) والبخاري في الأدب المفرد (٨٥٢) وابن حبان في صحيحه (٦٩٢٥) والطبراني في الكبير (٥٨٠٨، ٥٨٧٠، ٥٨٧٩، ٦٠١٠).

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٥/ ١٢٦) رقم (٨٤٥٢) ذكره الشوكاني في الفوائد المجموعة (ص٣٤٣-٣٤٤) وقال: في إسناده عباد بن عبد الله الأسدي وهو المتهم بوضعه وقال ابن المديني: ضعيف الحديث، وذكره ابن حبان في الثقات، وقال في الميزان: هذا الحديث كذب على علي. وقد أخرجه الحاكم في المستدرك وقال: صحيح على شرط الشيخين وتعقبه الذهبي بأن عبادا ضعيف، وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف بدون قوله « أنا الصديق الأكبر" من طريق زيد بن وهب الجهني مكان عباد» ا. هـ قال المعلمي اليماني تعليقاً على كلام الشوكاني: لا يفيده ذلك شيئاً مع كلام كبار الأئمة فيه وظهور سقوطه»ا. هـ.

(٣) أخرجه البزار (٢٥٢٢-كشف)، وذكره الشوكاني في الفوائد (ص٣٤٤-٣٤٥) وقال: رواه =

الحديث السادس: عن عمر بن الخطاب، قال: كنت أنا وأبو عبيدة وأبو بكر وجماعة من الصحابة، إذ ضرب رسول الله ﷺ منكب على فقال: عليّ، أنت أول المؤمنين إيمانا، وأول المسلمين إسلامًا، وأنت منى بمنزلة هارون من موسى »[١]. خرجه ابن السمان.

الحديث السابع: عن زيد بن أرقم، قال: « كان أول من أسلم على بن أبى طالب ». خرجه أحمد والترمذى وصححه[٢]. وفى رواية: « بعث رسول الله ﷺ يوم الإثنين، وصلى معه عليٌّ يوم الثلاثاء »[٣]. وفى رواية عن ابن عباس: « على أول من أسلم بعد خديجة »[٤]. قال أبو عمرو: وهذا حديث صحيح الإسناد، ولا مطعن لأحد فى رواته. قلت: هو يعارض ما تقدم عن ابن عباس فى أبى بكر، والصحيح: أن أبا بكر أول من أظهر إسلامه؛ فلا تعارض.

الحديث الثامن: عن معاذة العدوية، قالت: سمعت عليًا على منبر البصرة يقول: « أنا الصديق الأكبر؛ آمنت قبل أن يؤمن أبو بكر، وأسلمت قبل أن يسلم أبو بكر »[٥]. أخرجه ابن قتيبة فى « المعارف ».

الحديث التاسع: عن سلمان، أنه قال: أول هذه الأمة ورودًا على نبيها أولها إسلامًا على بن أبى طالب[٦]. وقد روى مرفوعًا إلى النبى ﷺ، ولفظه: « أول هذه الأمة ورودا على الحوض ...» الحديث. وفى رواية: « أولكم ورودًا على

= البزار عن أبي ذر مرفوعاً وفي إسناده محمد بن عبيد الله بن أبي رافع متهم وعباد: ضعيف رافضي ا.هـ

(١) ذكره المتقي الهندي في كنز العمال (١٣/ ١٢٤) رقم (٣٦٣٩٥) وعزاه لابن النجار.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٣٦٨، ٣٧٠، ٣٧١) والترمذي (٣٧٣٥) والنسائي في فضائل الصحابة (٣٤) من حديث أبي حمزة رجل من الأنصار قال سمعت زيد بن أرقم، به.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٧٢٨) من حديث أنس بن مالك .

(٤) رواه أحمد (١/ ٣٧٣) من طريق أبي عوانة عن أبي بلج عن عمرو بن ميمون عن ابن عباس قال: أول من صلى مع النبي صلى الله عليه وسلم بعد خديجة علي. ورواه الترمذي (٣٧٣٤) من طريق شعبة عن أبي بلج عن عمرو بن ميمون عن ابن عباس بلفظ أول من صلى علي .

(٥) أخرجه العقيلي في الضعفاء الكبير (٢/ ١٣٠-١٣١) في ترجمة سليمان بن عبد الله ونقل عن البخاري قال: «لا يتابع عليه ولا يعرف سماع سليمان من معاذة» ا.هـ وذكره المتقي الهندي في الكنز (١٣/ ١٦٤) رقم (٣٦٤٩٧) وعزاه إلى محمد بن أيوب الرازي في جزئه أيضاً.

(٦) رواه الخطيب في تاريخه كما نقله السيوطي (١/ ٣٢٦) .

الحوض أولكم إسلامًا، على بن أبى طالب »[١]. خرجه ابن القلعى. وعن عفيف ابن الأشعث، عن قيس الكندى، قال: كنت امرءًا تاجرًا، قدمت للحج فأتيت العباس بن عبد المطلب أبتاع منه بعض تجارتى، قال: فوالله إنى عنده بمنى، إذ خرج علينا رجل من خباء قريب منه، فنظر إلى السماء، فلما رآها قام يصلى، ثم خرجت امرأة من ذلك الخباء فقامت خلفه، ثم خرج غلام حين راهق الحلم، فقام معه يصلى، قال عفيف: فقلت للعباس: من هذا ؟ قال: هذا محمد ابن أخى، فقلت: من هذه المرأة ؟ قال: هذه امرأته خديجة بنت خويلد، قلت: فمن هذا الغلام ؟ قال: هذا ابن عمه على بن أبى طالب. قلت: فما الذى يصنع ؟ قال: يصلى، وهو يزعم أنه نبى، ولم يتبعه أحد على أمره إلا امرأته وابن عمه هذا الفتى، وهو يزعم أنه سيفتح كنوز كسرى وقيصر، قال: فكان عفيف يقول: لو كان الله رزقنى الإسلام يومئذ فأكون ثانيا مع على بن أبى طالب. وقد أسلم فيما بعد وحسن إسلامه[٢].

وعن على نفسه قال: « صليت قبل أن يصلى الناس بسبع سنين ». وفى رواية عنه أيضًا: « عبدت الله قبل أن يعبده أحد من هذه الأمة خمس سنين »[٣]. خرجه أبو عمر. وقال على - رضى الله عنه -: « أنا أول من يجثو للخصومة بين يدى الرحمن يوم القيامة، وفينا نزلت ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِى رَبِّهِمْ ﴾ [الحج: ١٩]، فى مبارزتنا يوم بدر، أنا وحمزة وعبيدة مع شيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة »[٤]. خرجه البخارى عنه.

الحديث العاشر: عن على، قال: قال رسول الله ﷺ: « يا على، إنك أول من يقرع باب الجنة فيدخلها بغير حساب بعدى »[٥]. خرجه الإمام على بن موسى

---

(١) رواه الحاكم (٣/ ١٣٦) والخطيب (٢/ ٨١) وابن الجوزي في العلل (١/ ٢١١) وانظر الكلام على هذا الحديث في اللآلئ (١/ ٣٢٧) والفوائد المجموعة للشوكاني (ص٣٤٧) وانظر - لزاماً - كلام المعلمي اليماني في تعليقه على الفوائد.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٢٠٩). وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ١٠٦): رواه أحمد، وأبو يعلى بنحوه، والطبراني بأسانيد، ورجال أحمد ثقات ا.هـ وينظر الرياض النضرة (٣/ ١١١-١١٢)

(٣) أخرجه أبو عمر بن عبد البر في الاستيعاب (٣/ ٢٠٠- بتحقيقنا).

(٤) أخرجه البخاري (٣٩٦٥، ٣٩٦٧، ٤٧٤٤) من حديث قيس بن عباد عن علي وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٦٢٧) وزاد نسبته إلى ابن أبي شيبة والنسائي وابن جرير والبيهقي.

(٥) ذكره المحب الطبري في الرياض (٣/ ١١٤).

الرضى فى مسنده.

الحديث الحادى عشر: عن أنس - رضى الله عنه -، قال: كان عنده ﷺ طير أهدى إليه، وكان مما يعجبه أكله فقال: « اللهم ائتنى بأحب خلقك إليك يأكل معى هذا الطير، فجاء على فأكل معه »[١]. خرجه الترمذى والبغوى فى « المصابيح »، وخرجه الجزري، وزاد بعد قوله: « فجاء على فقال استأذن على رسول الله ﷺ، فقلت: ما عليه إذن، ثم جاء فرددته ثم دخل الثالثة أو الرابعة، فقال - عليه الصلاة والسلام - لعلى: ما حبسك عنى - أو ما أبطأك عنى - يا على ؟ قال: جئت فردنى أنس، وكان أنس خادم رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: يا أنس، ما حملك على ما صنعت ؟ قلت: رجوت أن يكون رجلاً من الأنصار، فقال ﷺ: يا أنس، أو فى الأنصار خير من على أو أفضل من على ؟ » خرجه البخارى[٢].

الحديث الثانى عشر: عن معاذة الغفارية، قالت: كان لى أنس بالنبى ﷺ، أخرجُ معه فى الأسفار، وأقوم على المرضى وأداوى الجرحى، فدخلت على رسول الله ﷺ فى بيت عائشة وعلى خارج من عنده، فسمعته يقول: يا عائشة إن هذا أحب الرجال إليّ وأكرمهم علي؛ فاعرفى له حقه وأكرمى مثواه »[٣]. خرجه الخجندى.

الحديث الثالث عشر: عن البراء، قال: قال رسول الله ﷺ: « على منى بمنزلة رأسي من جسدى »[٤]. خرجه الملا.

الحديث الرابع عشر: عن سعد بن أبى وقاص، أن النبى ﷺ قال لعلى: « أنت منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى »[٥]. أخرجه البخارى ومسلم.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٧٢١) والحاكم (٣/ ١٣٠) وقد ذكره البغوي في مصابيح السنة (٤٧٧٠) وقال: غريب وذكره المتقي الهندي في الكنز (١٣/ ١٦٧) الحديث (٣٦٥٠٧) وعزاه لابن عساكر، ولابن النجار.

(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ١٣٠) وليس هو عن البخاري فلعله تحريف من الناسخ وقد جمع ابن الجوزي طرق هذا الحديث في العلل المتناهية (١/ ٢٢٨-٢٣٧) ونقل قول ابن طاهر: حديث الطائر موضوع، إنما يجيء من سقاط أهل الكوفة عن المشاهير والمجاهيل عن أنس وغيره.

(٣) ذكره المحب الطبري في الرياض النضرة (٣/ ١١٦).

(٤) ذكره المحب الطبري في الرياض النضرة (٣/ ١١٧).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٧٠٦) ومسلم (٢٤٠٤) والترمذي (٣٧٢٤) وابن ماجة (١١٥)، (١٢١) والنسائي في الخصائص (١١، ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٥٤) وابن حبان في صحيحه (٦٩٢٦).

وفى رواية عنه قال: لما نزل رسول الله ﷺ بالجرف طعن ناس من المنافقين فى أمر على وقالوا: إنما استخلفه استثقالاً، فخرج على فحمل سلاحه حتى أتى النبى ﷺ بالجرف فقال: يا رسول الله، ما تخلفت عنك فى غزاة قط قبل هذه، وقد زعم المنافقون أنك خلفتنى استثقالاً. فقال: « كذبوا، ولكن خلفتك لما ورائى، فارجع فاخلفنى فى أهلى، أفلا ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى ؟ إلا أنه لا نبى بعدى ».

الحديث الخامس عشر. عن أسماء بنت عُميس، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « اللهم إنى أقول كما قال أخى موسى: اجعل لى وزيرًا من أهلى، أخى عليًا ﴿ اشدد به أزرى وأشركه فى أمرى. . . ﴾ إلى ﴿ بصيرًا ﴾[1] أخرجه الإمام أحمد.

الحديث السادس عشر. عن أنس - رضى الله عنه -، قال: قال رسول الله ﷺ لعلى يوم غزوة تبوك: « أما ترضى أن يكون لك من الأجر مثل ما لى، ولك من المغنم مثل ما لى؟! »[2]. أخرجه الخلعى.

الحديث السابع عشر: عن المطلب بن عبد الله بن حنطب، قال: قال رسول الله ﷺ لوفد ثقيف حين جاءوه: « لتسلمن أو لأبعثن عليكم رجلاً منى، أو قال مثل نفسى، فليضربن أعناقكم، وليسبين ذراريكم، وليأخذن أموالكم ». قال عمر: فوالله ما تمنيت الإمارة إلا يومئذ، فجعلت أنصب صدرى رجاء أن يقول هو هذا. قال: فالتفت إلى على، وأخذ بيده وقال: « هو هذا، هو هذا ». أخرجه عبد الرزاق فى جامعه وأبو عمر[3].

الحديث الثامن عشر: عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله - ﷺ -: « ما من نبى إلا وله نظير من أمته، وعلى نظيرى »[4] أخرجه الخلعى.

الحديث التاسع عشر: أخرج ابن السمان فى « الموافقة » قال: جاء أبو بكر وعلى يزوران قبر النبى ﷺ بعد وفاته بسبعة أيام فقال على: تقدم يا خليفة رسول الله ﷺ. فقال أبو بكر: ما كنت لأتقدم رجلاً سمعت رسول الله ﷺ يقول فيه: « على

---

(١) ذكره المحب الطبري في الرياض (٣/ ١١٨) .
(٢) ذكره المحب الطبري في الرياض (٣/ ١١٩) .
(٣) أخرجه عبد الرزاق (٢٠٣٨٩) ، وذكره ابن عبد البر (٣/ ٢١٠) ، وينظر (٣/ ١١٩).
(٤) ذكره المحب الطبري في الرياض (٣/ ١٢١) .

منى بمنزلتى من ربى »[١].

الحديث العشرون: عن سلمان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « كنت أنا وعلى نورًا بين يدى الله تعالى قبل أن يخلق آدم بأربعة عشر ألف عام، فلما خلق الله آدم قسم ذلك النور جزءين فجزء أنا وجزء على »[٢]. أخرجه أحمد فى « المناقب ».

الحديث الحادى والعشرون: عن حبشى بن جنادة قال: كنت جالسًا عند أبى بكر فقال: « من كانت له عدة عند رسول الله ﷺ ؟ فقام رجل فقال: يا خليفة رسول الله، وعدنى بثلاث حثيات من تمر، ثم قام فقال: أرسلوا إليَّ عليَّ، فأتى فقال: يا أبا الحسن، إن هذا يزعم أن رسول الله ﷺ وعده بثلاث حثيات من تمر فاحثها له، قال: فحثاها بمرة لا تزيد واحدة على الأخرى، فقال أبو بكر: صدق رسول الله ﷺ، قال لى ليلة الهجرة ونحن خارجون من الغار نريد المدينة: « يا أبا بكر كفى وكف على فى العدد سواء » أخرجه ابن السمان فى « الموافقة »[٣].

الحديث الثانى والعشرون: عن أبى أيوب، قال: قال رسول الله ﷺ: « لقد صلت الملائكة عليَّ وعلى عليّ؛ لأنا كنا نصلى ليس معنا مصل غيرنا » خرجه أبو الحسن الخلعى[٤].

الحديث الثالث والعشرون: عن أبى ذر، قال: قال رسول الله ﷺ: « لما أسرى بى مررت على ملك جالس على سرير من نور، وإحدى رجليه فى المشرق والأخرى فى المغرب، وبين يديه لوح ينظر فيه، والدنيا كلها بين عينيه، والخلق بين يديه وركبتيه، ويده تبلغ المشرق والمغرب، فقلت: يا جبريل، من هذا ؟ قال: هذا عزرائيل، تقدم فسلم عليه، فتقدمت فسلمت عليه، فقال: وعليك السلام يا أحمد، ما فعل ابن عمك على ؟ فقلت: وهل تعرف ابن عمى عليًا ؟ فقال: وكيف لا أعرفه وقد وكلنى الله بقبض أرواح الخلائق ما خلا روحك وروح ابن عمك على بن أبى

(١) ذكره المحب الطبري في الرياض (٣/١١٨-١١٩) .
(٢) ذكره المحب الطبري في الرياض (٣/ ١٢٠) .
(٣) ذكره المحب الطبري في الرياض النضرة (٣/ ١٢٠) وعزاه لابن السمان في الموافقة.
(٤) أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (٦٣٥) من حديث أبي أيوب وقال : لا يصح وينظر اللآلىء (١/ ٣٢٠) وتنزيه الشريعة (١/ ٣٧٦) .

طالب، فإن الله يتوفاه كما شئته » خرجه الملا فى سيرته[١].

الحديث الرابع والعشرون: عن عمرو بن شاس الأسلمى - وكان من أهل بيعة الرضوان - قال: خرجت مع على إلى اليمن فجفانى فى سفرى حتى وجدت فى نفسى عليه، فلما قدمت المدينة أظهرت شكايته فى المسجد حتى بلغ ذلك النبى ﷺ فى ناس من أصحابه، فلما رآنى حدد النظر إلىّ حتى إذا جلست قال: « والله يا عمرو، والله لقد آذيتنى. قلت: أعوذ بالله أن أؤذيك يا رسول الله. فقال: بلى، من آذى عليًّا فقد آذانى ». خرجه أحمد. وفى رواية « أى عمرو، من أحب عليًّا فقد أحبنى، ومن أبغض عليًّا فقد أبغضنى، ومن آذى عليًّا فقد آذانى، ومن آذانى فقد آذى الله »[٢].

الحديث الخامس والعشرون: عن أم سلمة، قالت: أشهد أنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: « من أحب عليًّا فقد أحبنى، ومن أحبنى فقد أحب الله، ومن أبغض عليًّا فقد أبغضنى، ومن أبغضنى فقد أبغض الله » خرجه المخلص والحاكمى[٣].

الحديث السادس والعشرون: عن ابن عباس، قال: بعثنى رسول الله ﷺ إلى على بن أبى طالب، فقال له: « أنت سيد فى الدنيا، سيد فى الآخرة، من أحبك فقد أحبنى، وحبيبك حبيبى، وحبيبى حبيبك، وعدوك عدوى، وعدوى عدوك، والويل لمن أبغضك » أخرجه أحمد فى المناقب[٤].

الحديث السابع والعشرون: عن ابن عباس، أنه مرّ بعد ما كف بصره بمجلس من مجالس قريش وهم يسبون عليًّا؛ فقال لقائده: ما سمعت من هؤلاء يقولون ؟ قال: يسبون عليًّا. فقال لقائده: ردنى إليهم، فرده، فقال: أيكم السابُّ الله ؟ قالوا:

---

(١) ذكره المحب الطبري في الرياض النضرة (٢/ ١٢١) وعزاه للملا في سيرته.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (١٢/ ٧٥) وأحمد (٣/ ٤٨٣) وفي الفضائل (٩٨١) وابن حبان (٦٩٢٣) وابن عبد البر في الاستيعاب (٢/ ٥٢٣) والفسوي في المعرفة والتاريخ (١/ ٣٢٩-٣٣٠) والبزار (٢٥٦١) من حديث عمرو بن شاس وعلقه البخاري في تاريخه الكبير (٦/ ٣٠٦-٣٠٧).

(٣) ذكره المحب الطبري في الرياض النضرة (٣/ ١٢٢) وعزاه للمخلص والحاكمي.

(٤) أخرجه الحاكم (٣/ ١٢٨) والطبراني في الأوسط كما في المجمع (٩/ ١٣٦) والخطيب في تاريخ بغداد (٤/ ٤١) وابن الجوزي في العلل المتناهية (٣٤٨) وصححه الحاكم على شرط الشيخين وتعقبه الذهبي وقال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

سبحان الله! من يسب الله فقد أشرك. فقال: أيكم السابُّ لرسول الله ﷺ قالوا: سبحان الله! من يسب رسول الله فقد كفر. فقال: أيكم السابُّ لعلى ؟ قالوا: أما هذا فقد كان. قال: فأنا أشهد بالله لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: « من سب عليًا فقد سبنى، ومن سبنى فقد سب الله، ومن سب الله عز وجل أكبه فى النار على منخره »، ثم ولَّى عنهم، فقال لقائده: ما سمعتهم يقولون ؟ قال: ما قالوا شيئًا. قال: فكيف رأيت وجوههم حين قلت ما قلت ؟ فقال: [من الكامل]

نظروا إليكَ بأعينٍ محمرَّةٍ نَظَرَ التيوسِ إلى شفارِ الجازرِ

قال ابن عباس: زدنى فداك أبى. فقال:

خزرُ الحَوَاجِبِ ناكسُو أذقانِهِم نَظَرَ الذليلِ إلى العزيزِ القَاهرِ

قال ابن عباس: زدنى فداك أبى. قال: ما عندى غيرهما. قال ابن عباس: لكن عندى. فقال:

أحياؤُهُمْ خزىٌ على أمواتِهِمْ والميتُونَ مسبَّةٌ للغابِرِ[(١)]

الحديث الثامن والعشرون: عن أبى ذر الغفارى، قال: قال رسول الله ﷺ لعلى: « من أطاعك فقد أطاع الله، من عصاك فقد عصانى » أخرجه الإسماعيلى فى معجمه. وفى رواية « من أطاعنى فقد أطاع الله ومن أطاعك فقد أطاعنى، ومن عصانى فقد عصى الله ومن عصاك فقد عصانى » خرجه الخجندى[(٢)].

الحديث التاسع والعشرون: أخرج أحمد فى « المناقب » عن أبى ذر أيضًا قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « يا على من فارقنى فقد فارق الله، ومن فارقك فقد فارقنى »[(٣)].

الحديث الثلاثون: عن ابن عباس - رضى الله عنهما -: « آخى النبى ﷺ بين أصحابه، فجاء على تدمع عيناه، قال: يا رسول الله، آخيت بين أصحابك ولم تؤاخ بينى وبين أحد، فقال له رسول الله ﷺ: أنت أخى فى الدنيا والآخرة ». وفى رواية: « ألا ترضى أن أكون أخاك ؟ قال: بلى يا رسول الله، رضيت. قال: فأنت

---

(١) ذكره المحب الطبري في الرياض النضرة (٣/ ١٢٢-١٢٣) وعزاه للملا في سيرته.
(٢) ذكره المحب الطبري في الرياض النضرة (٣/ ١٢٣) وعزاه للإسماعيلي في معجمه والخجندي.
(٣) قال المحب في الرياض (٣/ ١٢٣): أخرجه أحمد في المناقب والنقاش.

أخى فى الدنيا والآخرة » أخرجه الخلعى[١].

الحديث الحادى والثلاثون: عن على - رضى الله عنه - أنه كان يقول: « أنا عبد الله وأخو رسول الله، لا يقولها غيرى إلا كذب ». خرجه أبو عمر[٢].

الحديث الثانى والثلاثون: عنه أيضًا، قال: « طلبنى رسول الله ﷺ فوجدنى فى حائط نائمًا، فضربنى برجله وقال: قم، فوالله لأرضينك، أنت أخى وأبو ولدى تقاتل على سنتى، من مات على عهدى فهو فى كنز الجنة، ومن مات على غير عهدى فقد قضى نحبه، ومن مات محبك بعد موتك ختم الله له بالأمن والأمان، ما طلعت الشمس أو غربت »[٣]. خرجه أحمد فى المناقب.

الحديث الثالث والثلاثون: عن على - رضى الله عنه - « جمع رسول الله ﷺ بنى عبد المطلب منهم من يأكل الجذعة ويشرب الفرق، فصنع لهم مدًّا من طعام فأكلوا حتى شبعوا، وبقى الطعام كما هو كأنه لم يمس، ثم دعا بغمر فشربوا حتى رووا، وبقى الشراب كأنه لم يمس، فقال: يا بنى عبد المطلب، إنى بعثت إليكُمْ خاصة وإلى الناس عامة، وقد رأيتم من هذه الآية ما رأيتم، فأيكم يبايعنى على أن يكون أخى وصاحبى ؟ فلم يقم إليه أحد، قال على: فقمت وكنت أصغر القوم، فقال: اجلس، ثم قال ذلك مرات، كل ذلك أقوم إليه فيقول: اجلس، حتى كان فى الثالثة ضربت يده على يدى ». خرجه أحمد فى المناقب[٤]. وفى رواية لما نزل قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، دعا رسول الله ﷺ رجالاً من أهله فأطعمهم حتى شبعوا فقال: « من يضمن عنى دينى ومواعيدى، ويكون معى فى الجنة ؟ » فقال علىٌ: أنا. فقال ﷺ: « تقضى دينى ومواعيدى ».

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٧٢٠) والحاكم (٣/ ١٤) وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب وينظر الرياض النضرة (٣/ ١٢٤).

(٢) أخرجه ابن عبد البر في الاستيعاب (٣/ ٢٠٢) والحديث أخرجه النسائي في الخصائص (٧) وأحمد في الفضائل (٩٩٣) وابن ماجة (١/ ٤٤) وابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٥٩٨) والحاكم (٣/ ١١١) وابن الجوزي في الموضوعات (٦٣٧) من حديث علي وقال ابن الجوزي: هذا موضوع.

(٣) ذكره المحب الطبري في الرياض النضرة (٣/ ١٢٤-١٢٥) وعزاه لأحمد في المناقب.

(٤) أخرجه أحمد في المسند (١/ ١٥٩) حدثنا عفان ثنا أبو عوانة عن عثمان بن المغيرة عن أبي صادق عن ربيعة بن ناجذ عن علي، به.

أخرجه أحمد فى المناقب[١]. قلت: الفرق: مكيال يسع ثلاثة آصع.

الحديث الرابع والثلاثون: عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: « على باب الجنة مكتوب لا إله إلا الله محمد رسول الله على أخو رسول الله »، وفى رواية: « مكتوب على باب الجنة محمد رسول الله، على أخو رسول الله، قبل أن تخلق السموات والأرض بألفى سنة » خرجهما أحمد فى المناقب[٢].

الحديث الخامس والثلاثون: عن عبد الله بن عباس قال: كنت أنا والعباس جالسين عند نبى الله ﷺ، إذ دخل على بن أبى طالب، فسلم فرد عليه رسول الله ﷺ السلام، وقام إليه وعانقه، وقبل بين عينيه، وأجلسه عن يمينه، فقال العباس: يا رسول الله، أتحب هذا ؟ فقال: يا عم والله لله أشد حبًّا له منى، إن الله جعل ذرية كل نبى من صلبه، وجعل ذريتى من صلب هذا ». أخرجه أبو الخير الحاكمى[٣].

الحديث السادس والثلاثون: عن البراء بن عازب، قال: كُنَّا عند النبى ﷺ فى سفر فنزلنا بغدير « خم »، فنودى فينا: « الصلاة جامعة، وكسح لرسول الله ﷺ تحت شجرة فصلى الظهر وأخذ بيد على، وقال: ألستم تعلمون أنى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؟ قالوا: بلى. فقال: من كنت مولاه فعلى مولاه، اللهم وال من والاه،

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ١١١) حدثنا أسود بن عامر ثنا شريك عن الأعمش عن المنهال عن عباد بن عبد الله الأسدي عن علي، به. وشريك صدوق سيء الحفظ وعباد بن عبد الله الأسدي ضعيف وينظر التقريب (٣١٥٣).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٥٤٩٨) والعقيلي في الضعفاء الكبير (٢/ ٨٦) والخطيب في الموضح (١/ ٤٦٥) وابن الجوزي في العلل المتناهية (٣٤٥) من طريق زكريا بن يحيى الكسائي ثنا يحيى بن سالم ثنا أشعث ابن عم الحسن بن صالح ثنا مسعر بن كدام عن عطية العوفي عن جابر به وقال الطبراني: لم يرو هذا الحديث عن مسعر إلا أشعث ابن عم الحسن ابن صالح ولا عن أشعث إلا يحيى بن سالم تفرد به زكريا بن يحيى الكسائي ا.هـ وقال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح والمتهم به زكريا بن يحيى، قال يحيى بن معين: كان رجل سوء، وقال ابن عدي: حدث بأحاديث في مثالب الصحابة، وقال الدارقطني: هو متروك، وقال يحيى بن سالم: ضعيف ا.هـ قلت: وفيه جهالة وعطية العوفي ضعيف.

(٣) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (١/ ٣١٧)، وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٣٣٨) من حديث ابن عباس. وفي إسناده محمد بن عمران المرزباني وهو كذاب قال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، قال الأزهري: لم يكن المرزباني ثقة، وقال أبو عبد الله الكاتب: كان المرزباني كذابًا. وقال ابن الجوزي: ومن فوق المرزباني في الإسناد إلى المنصور ما بين مجهول وبين من لا يوثق به.

وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحق معه حيث دار » زاد أحمد فى المناقب: « وأحب من أحبه، وأبغض من أبغضه »(١) ورواه أكثر من ثمانية عشر صحابيًا(٢).

ولقى عمر بن الخطاب على بن أبى طالب بعد ذلك فقال له: « هنيئًا لك يا بن أبى طالب؛ أصبحت وأمسيت مولى كل مؤمن ومؤمنة ». وعن سالم، قيل لعمر: إنك تصنع بعلى شيئًا ما نراك تصنعه بأحد من أصحاب رسول الله ﷺ، قال: إنه مولاى.

وعن عمر وقد جاءه أعرابيان يختصمان فقال لعلى: « اقض بينهما يا أبا الحسن، فقضى على بينهما، فقال أحدهما: هذا يقضى بيننا ؟ فوثب إليه عمر وأخذ بتلبيبه وقال: ويحك! أتدرى من هذا ؟ هذا مولاى ومولى كل مؤمن، ومن لم يكن مولاه فليس بمؤمن ». وعنه وقد نازعه رجل فى مسألة فقال له: بينى وبينك هذا الجالس - وأشار إلى على بن أبى طالب - فقال الرجل: هذا الأبطن ؟ فنهض عمر عن مجلسه، وأخذ بتلبيبه ورفعه من الأرض، ثم ضرب به الأرض، فقال: أتدرى من صغرت ؟ مولاى ومولى كل مؤمن أو مسلم ». خرجهن ابن السمان. قلت: غدير « خم » موضع بين مكة والمدينة بالجحفة، أو هو قريب منها على يمين الذاهب إلى المدينة.

الحديث السابع والثلاثون: عن عمران بن حصين، قال: « بعث رسول الله ﷺ سرية واستعمل عليها عليًا. قال: فمضى على السرية فأصاب جارية، فأنكروا عليه، وتعاقد أربعة من أصحاب النبى ﷺ وقالوا: إذا لقينا رسول الله ﷺ أخبرناه بما صنع. قال عمران بن حصين: وكان المسلمون إذا قدموا من سفر بدءوا برسول الله

(١) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٢٨١) وفي الفضائل (١٠٤٢)، وابن أبي عاصم في السنة (١٣٦٣)، وابن ماجة (١١٦) من حديث البراء وفي إسناده على بن زيد بن جدعان وهو ضعيف.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٣٧٠)، والنسائي في الخصائص (١٥)، والحاكم (٣/ ١٠٩)، وابن حبان (٢٢٠٥) وابن أبي عاصم (١٣٦٥، ١٣٦٧)، والطبراني في الكبير (٤٩٦٩، ٤٩٧٠)، من حديث زيد بن أرقم وأخرجه ابن ماجة (١٢١)، والنسائي في الخصائص (١٦)، والحاكم (٣/ ١١٦) من حديث سعد بن أبي وقاص وينظر بقية شواهد هذا الحديث في السلسلة الصحيحة للشيخ الألباني رقم (١٧٥٠). وينظر: أيضا مجمع الزوائد (٩/ ١٠٦-١١١).

ﷺ وسلموا عليه، ثم انصرفوا إلى رحالهم. فلما قدمت السرية سلموا على رسول الله ﷺ، فقام أحد الأربعة فقال: يا رسول الله، ألم تر أن عليًا صنع كذا وكذا ! فأعرض عنه، ثم قام الثانى فقال مثل مقالته، فأعرض عنه، ثم قام الثالث فقال مثل مقالته، فأعرض عنه. ثم قام الرابع فقال مثل ما قالوا، فأقبل إليه رسول الله ﷺ والغضب يعرف فى وجهه فقال: ماذا تريدون من على ؟ ثلاث مِرَارٍ. إن عليًا منى وأنا منه، وهو ولى كل مؤمن بعدى ». خرجه الترمذى وأبو حاتم وأحمد[1].

الحديث الثامن والثلاثون: عن بريدة بن الخصيب قال: بعث رسول الله ﷺ سرية وأمَّر عليها رجلاً وأنا فيها، فأصبنا سبيًا، فكتب الرجل إلى رسول الله ﷺ: ابعث لنا من يخمسه. فبعث عليًا، وفى السبى وصيفة هى أفضل السبى، قال: فخمس وقسم، قال فخرج ورأسه يقطر، فقلنا يا أبا الحسن، ما هذا ؟ قال: ألم تروا إلى الوصيفة التى كانت فى السبى، فإنى قسمت وخمست فصارت فى الخمس، ثم صارت من آل بيت النبى ﷺ، ثم صارت من آل على ووقعت بها. فكتب الرجل إلى النبى ﷺ بذلك، فقلت للرجل: ابعثنى مصدقًا فبعثنى. قال بريدة: فجعلت أقرأ الكتاب وأقول: صدق، فأمسك النبى ﷺ يدى والكتاب، وقال لى: تبغض عليًا ؟ قلت: نعم . قال: فلا تبغضه، وإن كنت تحبه فازدد له حبًا، فوالذى نفسى بيده لنصيب آل على فى الخمس أفضل من وصيفة. قال بريدة: فما كان من الناس أحد بعد قول رسول الله ﷺ أحب إلى من على. وفى رواية: « لا تقع فى على؛ فإنه منى وأنا منه، وهو وليكم بعدى ». خرجهما الإمام أحمد بن حنبل[2].

الحديث التاسع والثلاثون: عن بريدة أيضًا: « من كنت وليه فعلى وليه » أخرجه أبو حاتم[3].

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٤٣٧- ٤٣٨)، وفي الفضائل (١٠٣٥)، والترمذي (٣٧١٢)، والنسائي في فضائل الصحابة (٤٣) وفي الخصائص (٨٩)، والطيالسي (٨٢٩)، وابن حبان (٦٩٢٩)، والحاكم (٣/ ١١٠- ١١١)، وابن عدي في الكامل (٢/ ٥٦٨- ٥٦٩) من حديث عمران وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب وصححه الحاكم على شرط مسلم وسكت عنه الذهبي.

(٢) أخرجه (٥/ ٣٤٧، ٣٥٠، ٣٥٨، ٣٦١) من حديث بريدة وينظر: الحديث الآتي.

(٣) أخرجه النسائي في الخصائص (٨٠)، وفي الفضائل (٤١) وابن أبي عاصم (١٣٥٤)، وابن حبان (٦٩٣٠)، والبزار (٢٥٣٥)، والحاكم (٢/ ١٢٩-١٣٠) عن بريدة.

الحديث الأربعون: عن بريدة أيضًا قال: قال رسول الله ﷺ « إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة ونصب الصراط على جسر جهنم ما جازها أحد حتى كانت معه براءة بولاية على بن أبى طالب ». خرجه الحاكمى(١).

الحديث الحادى والأربعون: عن ابن مسعود، قال: أنا رأيت رسول الله ﷺ أخذ بيد على وقال: « هذا وليى وأنا وليه، واليت من والاه وعاديت من عاداه » أخرجه الحاكمى(٢). وعن أبى صالح قال: لما حضرت ابن عباس الوفاة قال: اللهم إنى أتقرب إليك بولاية على بن أبى طالب. خرجه أحمد فى المناقب.

الحديث الثانى والأربعون: عن عمار بن ياسر، وأبى أيوب الأنصارى، قالا: قال رسول الله ﷺ: « حق عَليٍّ على المسلمين حق الوالد على الولد » خرجه الحاكمى(٣).

الحديث الثالث والأربعون: عن أبى رافع مولى رسول الله ﷺ قال: « لما قتل على بن أبى طالب أصحاب اللواء يوم أحد، قال جبريل: يا رسول الله، إن هذه لهى المواساة، فقال له النبى ﷺ: إن هذا منى وأنا منه، فقال جبريل: وأنا منكما يا رسول الله ». خرجه أحمد فى المناقب(٤).

الحديث الرابع والأربعون: أخرج أحمد فى « المناقب » عن على - رضى الله عنه - قال لما كانت ليلة يوم بدر قال رسول الله ﷺ: من يسقى لنا من الماء ؟ فأحجم القوم، فقام على فاحتضن قربة ثم أتى بئرًا بعيدة القعر مظلمة فانحدر فيها،

---

(١) أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (٧٤٣) من حديث علي وقال ابن الجوزي: هذا حديث موضوع. وينظر اللآلئ المصنوعة (١/ ٣٨٠).

(٢) ذكره الهيثمي في المجمع (٩/ ١١١) وقال: رواه الطبراني في الأوسط وفيه المعلى بن عرفان وهو متروك.

(٣) أخرجه ابن حبان في المجروحين (٢/ ١٢٢) من طريق عيسى بن عبد الله بن محمد بن عمر ابن على بن أبي طالب عن أبيه عن جده عن علي وعيسى قال ابن حبان: يروي عن أبيه عن آبائه أشياء موضوعة لا يحل الاحتجاج به كأنه كان يهم ويخطئ حتى كان يجئ بالأشياء الموضوعة عن أسلافه فبطل الاحتجاج بما يرويه لما وصفت. اهـ وينظر: موضوعات ابن القيسراني (٤١٤).

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (٩٤١)، وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ١١٧) فيه حبان بن علىّ وهو ضعيف، ووثقه ابن معين في رواية، ومحمد بن عبيد الله بن أبي رافع ضعيف عند الجمهور، ووثقه ابن حبان.

فأوحى الله - عز وجل - إلى جبريل وميكائيل وإسرافيل تأهبوا لنصرة محمد وحزبه، فسقطوا من السماء لهم لغط يذعر من يسمعه، فلما صاروا بالبئر سلموا عليه من عند آخرهم[١].

الحديث الخامس والأربعون: عن أبى الحمراء[٢]، قال: قال رسول الله ﷺ: « ليلة أسرى بى إلى السماء نظرت إلى ساق العرش الأيمن، فرأيت كتابًا فهمته: محمد رسول الله ﷺ أيدته بعلى ونصرته به ». خرجه الملا فى سيرته[٣].

الحديث السادس والأربعون: عن ابن عباس، قال: كنا عند النبى ﷺ فإذا طائر فى فيه لوزة خضراء، فألقاها فى حجر النبى ﷺ، فأخذها النبى ﷺ فقبلها ثم كسرها، فإذا فى جوفها ورقة خضراء مكتوب فيها « لا إله إلا الله محمد رسول الله، نصرته بعلى » خرجه أبو الخير الحاكمى[٤].

الحديث السابع والأربعون: عن جابر: أنهم يوم رجعوا من « الجعرانة » إلى المدينة، بعث رسول الله ﷺ أبا بكر على الحج، فأقبلنا معه حتى إذا كان بالعرج ثوّب بالصبح، فلما كان استواء المنكبين سمع الرغوة خلف ظهره، فوقف عن التكبير، فقال: هذه رغوة ناقة رسول الله ﷺ، فلعل أن يكون رسول الله ﷺ نصلى معه، فإذا على عليها، فقال له أبو بكر: أمير أم رسول ؟ فقال: لا، بل رسول، أرسلنى ببراءة أقرؤها على الناس فى مواقف الحج، قال جابر: فقدمنا مكة فلما كان قبل التروية بيوم، قام أبو بكر فخطب الناس، فعلمهم مناسكهم، حتى إذا فرغ قام

---

(١) ذكره الهندي في كنز العمال (٣٠٠١١)، وعزاه لابن شاهين وفيه أبو الجارود قال أحمد: متروك وقال ابن حبان: رافضي يضع الفضائل والمثالب.

(٢) في ط: الجهراء. والتصحيح من الحلية والعلل المتناهية ومجمع الزوائد.

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٣/ ٢٧)، والطبراني كما في مجمع الزوائد (٩/ ١٢٤)، وابن الجوزي في العلل المتناهية (٣٧٨) من حديث أبي الحمراء وقال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح، قال ابن حبان: أحمد بن الحسن الكوفي يضع الحديث، وقال الدارقطني: متروك. اهـ وفي إسناد الطبراني عمرو بن ثابت وهو متروك وينظر: الكنز (٣٣٠٤٠، ٣٣٠٤١).

(٤) ذكره ابن حبان في المجروحين (٢/ ٢٨٩)، وابن الجوزي في العلل المتناهية (٣٨٠) من طريق محمد بن أبي الزعيزعة عن أبي المليح عن ميمون بن مهران عن ابن عباس به وقال ابن الجوزي: وهذا لا يصح، قال البخاري: ابن أبي الزعيزعة منكر الحديث جدًا لا يكتب حديثه، وقال ابن حبان: دجال من الدجالين يروي الموضوعات.

عليّ، فقرأ على الناس براءة حتى ختمها. ثم لما كان يوم النحر خطب الناس أبو بكر، فحدثهم عن إفاضتهم، وعن نحرهم، وعن مناسكهم، فلما فرغ قام على فقرأ على الناس براءة حتى ختمها. فلما كان يوم النفر الأول قام أبو بكر يخطب الناس فحدثهم كيف يرمون وكيف ينفرون، فلما فرغ قام على فقرأ على الناس براءة حتى ختمها». خرجها أبو حاتم.

وفى رواية عن على قال: لما نزلت عشر آيات من براءة دعا النبى ﷺ أبا بكر فبعثه بها ليقرأها على أهل مكة، ثم دعانى فقال لى: أدرك أبا بكر فحيثما لقيته فخذ الكتاب منه، فاذهب به إلى أهل مكة فاقرأه عليهم، فلحقته بالجحفة فأخذت الكتاب منه، فلما رجع أبو بَكْرٍ بعد الحج أتى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله نزل فيّ شيءٌ؟ قال: لا، ولكن جبريل جاءنى وقال: لا يؤدى عنك إلا أنت أو رجل منك[(١)].

الحديث الثامن والأربعون: عن السيدة فاطمة بنت رسول الله ﷺ، قالت: خرج علينا رسول الله ﷺ فى عشية عرفة فقال: «إن الله تعالى قد باهى بكم وغفر لكم عامة، وبعلى خاصة، وإنى رسول الله غير محاب بقرابتى» خرجه أحمد[(٢)].

الحديث التاسع والأربعون: عن الحسن بن على - رضى الله عنهما - قال: «قال رسول الله ﷺ: ادعوا لى سيد العرب - يعنى عليًا - قالت عائشة: ألست بسيد العرب؟ فقال: أنا سيد ولد آدم، وعلى سيد العرب. فلما جاء أرسل إلى الأنصار، فأتوه فقال لهم: «يا معشر الأنصار، ألا [أدلكم][(٣)] على ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبدًا؟! » قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «هذا على فأحبوه بحبى، وأكرموه بكرامتى، إن جبريل أخبرنى بالذى قلت لكم عن الله عز وجل». خرجه الفضائلى[(٤)].

---

(١) اللفظ الثاني أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند (١/ ١٥١) من طريق محمد بن جابر عن سماك عن حنش عن علي بن أبي طالب.

(٢) أخرجه ابن الجوزي في العلل المتناهية (٣٨٢) وقال: هذا حديث لا يصح عن رسول الله وعباد الكليبي ليس بشيء، وقال النسائي وابن حبان: هو متروك.

(٣) بياض في ط.

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٧٤٩) من حديث الحسن وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ١٣٥) وفيه إبراهيم بن إسحاق الصيني وهو متروك، وفي الكنز (٣٣٠٠٧) عن ابن كثير: هذا حديث منكر.

الحديث الخمسون: عن عبد الله بن أسعد بن زرارة، قال: قال رسول الله ﷺ: « ليلة أسرى بى انتهيت إلى ربى عز وجل، فأوحى إليّ، أو أمرنى - شك الراوى - فى على أنه سيد المسلمين وولى المتقين وقائد الغر المحجلين »[(١)].

الحديث الحادى والخمسون: عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ لعلى بن أبى طالب: « أنت سيد فى الدنيا سيد فى الآخرة » خرجه أبو عمر وأبو الخير الحاكمى[(٢)].

الحديث الثانى والخمسون: عن بريدة، قال: قال رسول الله ﷺ: « لكل نبى وصى ووارث، وإن عليًا وصيى ووارثى ». خرجه البغوى فى معجمه[(٣)].

الحديث الثالث والخمسون: عن أنس، قال: قلنا لسلمان: سل النبى ﷺ مَنْ وصيه ؟ فقال سلمان: يا رسول الله، من وصيك ؟ فقال: يا سلمان، من كان وصى موسى ؟ قال: يوشع. قال: فإن وصيى ووارثى وصهرى [يقضي ديني، ينجز موعدي][(٤)] على بن أبى طالب . خرجه أحمد فى المناقب. زاد غيره: أن عليًا قال له: يا رسول الله، وما أرث منك ؟ قال: ما ورّث الأنبياء من قبلى. قال: وما ورّث الأنبياء من قبلك ؟ قال: كتاب ربهم وسنة نبيهم[(٥)].

الحديث الرابع والخمسون: عن الحسين بن على، عن أبيه، عن جده، قال: أوصى النبى ﷺ عليًا أن يغسّله، فقال على: أخشى ألاَّ أطيق ذلك، قال: إنك

---

(١) أخرجه ابن قانع في معجم الصحابة رقم (٦٨)، والحاكم (٣/ ١٣٧-١٣٨) وصححه الحاكم وتعقبه الذهبي وأخرجه أيضًا الباوردي وأبو نعيم كما في الكنز (٣٣٠١٠).

(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ١٢٨)، والطبراني في الأوسط كما في المجمع (٩/ ١٣٦)، والخطيب (٤/ ٤١)، وابن الجوزي في العلل المتناهية (٣٤٨) من حديث ابن عباس وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين وتعقبه الذهبي بأنه موضوع وتكلم فيه ابن الجوزي أيضًا وحكم ببطلانه.

(٣) أخرجه الجوزقاني في الأباطيل (٢/ ١٥٠) رقم (٥٤٤)، وابن الجوزي في الموضوعات (٧٠٦، ٧٠٧) وقال: هذا حديث لا يصح وأقره السيوطي في اللآلئ (١/ ٣٥٩)، وابن عراق في التنزيه (١/ ٣٥٧). وقال الجوزقاني: في إسناده ظلمات.

(٤) بدل ما بين المعكوفين في ط: « وعدي » والمثبت من الموضوعات.

(٥) أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (٧٠٢، ٧٠٣، ٧٠٤، ٧٠٥)، وحكم ابن الجوزي على كل طرقه بالوضع وأقره السيوطي في اللآلئ (١/ ٣٥٨)، وابن عراق في تنزيه الشريعة (١/ ٣٧٤-٣٧٥) وينظر المنار المنيف (٨٢) والفوائد المجموعة (٣٦٩)، والأسرار المرفوعة (١٠٢٣).

ستعان عليّ، قال: فقال علي: فوالله ما أردت أن أقلب عن رسول الله ﷺ عضوًا إلا قلب لي. خرجه ابن الحضرمي[١].

الحديث الخامس والخمسون: عن محمد ابن الحنفية، عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: إنْ ولد لك غلام فسمه باسمي وكنه بكنيتي، وهذا رخصة لك دون الناس[٢].

الحديث السادس والخمسون: عن الحسن بن علي، قال: كان رأس رسول الله ﷺ في حجر علي وهو يوحى إليه، فلما سرى عنه قال: يا علي، صليت العصر؟ قال: لا. قال: اللهم أنت تعلم أنه كان في حاجتك، وفي حاجة رسولك، فرد عليه الشمس. فردها عليه وصلى وغابت الشمس. خرجه الدولابي[٣]. وفي رواية عن أسماء بنت عميس بلفظ: فأقبلت الشمس لها خوار حتى ارتفعت قدر ما كانت في وقت العصر؛ فصلى، ثم رجعت فغربت. وفي رواية عنها أيضًا: فرجعت الشمس حتى بلغت نصف المسجد[٤]. قال في « الرياض »: قال علماء الحديث: هو حديث موضوع، ولم تردَّ الشمس لأحد، وإنما حبست ليوشع بن نون[٥].

الحديث السابع والخمسون: عن أنس بن مالك في قصة زواج علي بفاطمة، وقد تقدم ذلك دعاؤه لعلي وفاطمة حتى أتي بالماء فنضح عليهما وقال: اللهم إني أعيذها بك وذُريتها من الشيطان الرجيم. أخرجه أبو حاتم[٦].

الحديث الثامن والخمسون: عن ابن عباس لما زوج رسول الله ﷺ فاطمة لعلي قالت: « يا رسول الله، زوجتني برجل فقير لا شيء له، فقال ﷺ: أما ترضين يا فاطمة أن الله اختار من أهل الأرض رجلين فجعل أحدهما أباك والآخر بعلك ».

---

(١) ذكره المحب الطبري في الرياض النضرة (٣/ ١٣٩) وعزاه لابن الحضرمي.

(٢) ذكره المحب الطبرى في الرياض النضرة (٣/ ١٤٠) وعزاه للمخلص الذهبي وأخرجه ابن الجوزي بنحوه في العلل المتناهية (٣٩٦)، وقال: هذا حديث لا يصح.

(٣) ذكره المحب الطبري (٣/ ١٤٠) وعزاه للدولابي.

(٤) أخرجه الطحاوي في مشكل الآثار (٢/ ٩) وابن الجوزي في الموضوعات (١/ ٣٥٦) وينظر اللآلئ المصنوعة (١/ ١٧٤) وتنزيه الشريعة (١/ ٣٧٩) والسلسلة الضعيفة (٩٧١).

(٥) ينظر: الرياض النضرة (٣/ ١٤١).

(٦) أخرجه ابن حبان (٦٩٤٤)، والطبراني في الكبير (٢٢/رقم ١٠٢١) وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ٢٠٨- ٢٠٩): رواه الطبراني وفيه يحيى بن يعلى الأسلمي وهو ضعيف.

أخرجه الملا فى سيرته[١].

الحديث التاسع والخمسون: عن ابن عباس أيضًا قال: كنت عند النبى ﷺ فغشيه الوحى، فلما أفاق قال: أتدرى ما جاء به جبريل ؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: أمرنى أن أزوج فاطمة من على، فانطلق فادع لى أبا بكر وعمر وعثمان وعليًا وطلحة والزبير، وعدة من الأنصار، فقال: إن الله تعالى قد أمرنى أن أزوج فاطمة بنت خديجة من على بن أبى طالب، فاشهدوا أنى قد زوجته على أربعمائة مثقال فضة إن رضى على بن أبى طالب بذلك. ثم دعا بطبق من بسر فوضعه بين أيدينا، ثم قال: انتهبوا. فانتهبنا. فبينما نحن ننتهب إذ أقبل على بن أبى طالب، فلما دخل قال له رسول الله ﷺ: ياعلى، إن الله أمرنى أن أزوجك فاطمة، وقد زوجتكها على أربعمائة مثقال إن رضيت. قال: قد رضيت يا رسول الله. قال: ثم قام على فخر ساجدًا شكرًا لله تعالى. قال النبى ﷺ: جعل الله منكما الكثير الطيب، وبارك الله فيكما، قال أنس: فوالله لقد أخرج منهما الكثير الطيب. أخرجه أبو الخير الحاكمى[٢].

الحديث الستون: عن أنس، قال: بينما رسول الله ﷺ فى المسجد إذ قال لعلى: هذا جبريل يخبرنى أن الله عز وجل زوجك فاطمة، وأشهد على تزويجها أربعين ألف ملك، وأوحى إلى شجرة طوبى أن انثرى عليهم الدر والياقوت؛ فنثرته عليهم، فابتدرت الحور العين يلقطن فى أطباق الدر والياقوت، فهم يتهادونه بينهم إلى يوم القيامة. خرجه الملا فى سيرته[٣].

الحديث الحادى والستون: عن أم سلمة: « أن النبى ﷺ جلل الحسن والحسين وفاطمة وعليًا كساء وقال: اللهم هؤلاء أهل بيتى وخاصتى، أذهب عنهم الرجس

---

(١) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد (٤/ ١٩٦)، والطبراني كما في المجمع (٩/ ١١٥)، وابن الجوزي في العلل (١/ ٢٢٣- ٢٢٤)، وعزاه الهندي في الكنز (٣٢٩٢٥)، وعزاه للحاكم وقد سقط من المطبوع. وينظر تلخيص المستدرك (١/ ١٩٦) والحديث ضعفه ابن الجوزي والذهبي وغيرهما.

(٢) ذكره المحب الطبري في الرياض النضرة (٣/ ١٤٥-١٤٦) وعزاه لأبي الخير القزويني الحاكمي.

(٣) ذكره المحب الطبري في الرياض النضرة (٣/ ١٤٦) وعزاه للملا في سيرته.

وطهرهم تطهيرًا ». أخرجه الترمذى[١].

الحديث الثانى والستون: عن زيد بن أرقم: أن رسول الله ﷺ قال لعلى وفاطمة والحسن والحسين: « أنا حرب لمن حاربهم، سلم لمن سالمهم » أخرجه الترمذى. وفى رواية عن أبى بكر الصديق قال: رأيت رسول الله ﷺ ختم ختمة وهو متكئ على فرش عربية، وفى الخيمة علىّ وفاطمة والحسن والحسين فقال: « معشر المسلمين، أنا سلم لمن سالم أهل الخيمة، حرب لمن حاربهم، ولىُّ من والاهم، لا يحبهم إلا سعيد الجد، طيب المولد، ولا يبغضهم إلا شقى الجد، ردئ الولادة »[٢].

الحديث الثالث والستون: عن عائشة - رضى الله عنها -، قالت: قال رسول الله ﷺ لما حضرته الوفاة: ادعوا لى حبيبى فدعوا له أبا بكر، فلما نظر إليه وضع رأسه ثم قال: ادعوا لى حبيبى فدعوا له عمر، فلما نظر إليه وضع رأسه ثم قال: ادعوا لى حبيبى فدعوا له عليًا، فلما رآه أدخله معه فى الثوب الذى كان عليه، فلم يزل يحضنه حتى قبض ويده عليه » أخرجه الرازى[٣]. قلت: قد تقدم فى ذكر وفاته - عليه الصلاة والسلام - أن أبا بكر - رضى الله عنه - يوم وفاته ﷺ كان غائبًا بـ « السنح » لما رآه أصبح مفيقًا يوم الاثنين، فأذن له - عليه الصلاة والسلام - فلم يعد إلا وقد توفى - عليه الصلاة والسلام - فلينظر وجه التوفيق بين ذاك وبين قوله هنا: فدعوا له أبا بكر، فلما نظر إليه وضع رأسه. ولو لم تقيد هذه الواقعة بقوله: لما حضرته الوفاة لكان وجه التوفيق ممكنًا، يحمل وقوعها على ما قبل عزم أبى بكر إلى « السنح »، فليتأمل.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٠٥) من طريق عطاء بن أبي رباح عن عمر بن أبي سلمة به. وقال الترمذي: هذا حديث غريب من حديث عطاء عن عمر بن أبي سلمة.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٨٧٠)، وابن ماجة (١٤٥)، وابن حبان (٦٩٧٧)، والحاكم (٣/ ١٤٩)، والدولابي في الكنى والأسماء (٢/ ١٦٠) من حديث صبيح مولى أم سلمة عن زيد بن أرقم وقال الترمذي: هذا حديث غريب إنما نعرفه من هذا الوجه وصبيح مولى أم سلمة ليس بمعروف.

(٣) أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (٧٣٤) من طريق إسماعيل بن أبان ثنا عبد الله بن مسلم الملائي عن أبيه عن إبراهيم عن علقمة والأسود عن عائشة به. وقال ابن الجوزي: تفرد به إسماعيل عن عبد الله بن مسلم، قال أحمد بن حنبل: حدث بأحاديث موضوعة فتركناه وقال يحيى: هو كذاب، وقال ابن حبان: يضع الحديث على الثقات.

الحديث الرابع والستون: عن سهل بن سعد، أن رسول الله ﷺ قال: يوم خيبر « لأعطين الراية غدًا رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه » قال: فبات الناس يدوكون - أى: يخوضون ويموجون ليلتهم - أيهم يعطاها، فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ؛ كلهم يرجو أن يعطاها، فقال عليه الصلاة والسلام: أين على بن أبى طالب ؟ قالوا: يشتكى عينيه، قال: فأَرسلوا إليه. فلما جاء بصق فى كفه ومسح بها عينيه، ودعا له؛ فبرأ لوقته حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية، فقال على: يا رسول الله، أقاتلهم حتى يقولوا مثلنا. قال: انفذ على رسلك - أى: امض على تؤدتك؛ كما تقول: على هينتك - حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه، فوالله لأن يهدى الله بك رجلاً واحدًا خير لك من أن يكون لك حمر النعم. أخرجه البخارى ومسلم وأبو حاتم(١).

الحديث الخامس والستون: عن محدوج بن زيد الهذلى(٢) أن النبى ﷺ قال لعلى: أما علمت يا على، أنه أول من يدعى يوم القيامة بى؟!، فأقوم عن يمين العرش فى ظله فأكسى حلة خضراء من حلل الجنة، ثم يدعى بالأنبياء بعضهم على أثر بعض، فيقومون سماطين عن يمين العرش، ويكسون حللاً من الجنة. ألا إنى أخبرك يا على أن أمتى أول الأمم يحاسبون يوم القيامة، ثم أبشر؛ فأول ما يدعى بك لقرابتك منى،فيدفع إليك لوائى - لواء الحمد - وهو أول لواء تسير به بين السماطين. آدم وجميع خلق الله يستظلون بظل لوائى يوم القيامة، وطوله مسيرة ألف سنة، سنانه ياقوتة حمراء، قبضته فضة بيضاء، زجه درة(٣) خضراء، وله ثلاث ذوائب من نور، ذؤابة فى المشرق، وذؤابة فى المغرب، والثالثة فى وسط الدنيا، مكتوب عليه [ثلاثة] أسطر: الأول: بسم الله الرحمن الرحيم، الثانى: الحمد لله

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٤٢، ٣٠٠٩، ٣٧٠١)، ومسلم (٢٤٠٦)، وأحمد (٥/ ٣٣٣)، وأبو داود (٣٦٦١)، والنسائي في الفضائل (٤٦)، وفي الخصائص (١٧) وسعيد بن منصور (٢٤٧٢، ٢٤٧٣، ٢٤٨٢)، وابن حبان (٦٩٣٢)، والطحاوي (٣/ ٢٠٧)، والطبراني في الكبير (٥٩٩١)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٦٢)، والبيهقي (٩/ ١٠٦-١٠٧) من طريق أبي حازم عن سهل بن سعد.

(٢) في ط: يزيد الذهلي. والتصحيح من الرياض النضرة.

(٣) في ط: وردة. والمثبت من الرياض النضرة.

رب العالمين، الثالث: لا إله إلا الله محمد رسول الله، طول كل سطر [مسيرة] ألف سنة، وعرضه [مسيرة][١] ألف سنة، فتسير باللواء والحسن عن يمينك والحسين عن يسارك، حتى تقف بينى وبين إبراهيم فى ظل العرش، ثم تكسى حلة من الجنة، ثم ينادى منادٍ تحت العرش: نعم الأب أبوك إبراهيم، ونعم الأخ أخوك على، أبشر يا على، إنك تكسى إذا كسيت، وتدعى إذا دعيت، وتحيا إذا حييت». أخرجه أحمد فى المناقب[٢].

وأخرج الملا فى سيرته زيادة: قيل: يا رسول الله، وكيف يستطيع على أن يحمل لواء الحمد؟ فقال رسول الله ﷺ: وكيف لا يستطيع ذلك؟ وقد أعطى خصالاً شتى: صبرا كصبرى، وحسنًا كحسن يوسف، وقوة كقوة جبريل![٣].

الحديث السادس والستون: عن ابن عباس، قال: كان على حامل راية النبى ﷺ يوم بدر والمشاهد كلها، ولما كسرت يد على - رضى الله عنه - يوم أحد؛ فسقط اللواء من يده، قال رسول الله ﷺ: ضعوه فى يده اليسرى، فإنه صاحب لوائى فى الدنيا والآخرة[٤].

الحديث السابع والستون: عن أبى سعيد الخدرى، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن فيكم من يقاتل على تأويل القرآن، كما قاتلت على تنزيله. قال أبو بكر: أنا هو يا رسول الله؟ قال: لا. قال عمر: أنا هو يا رسول الله؟ قال: لا، ولكن خاصف النعل، وكان أعطى نعله عليًا يخصفها[٥]. ومثل هذا ما رواه علي نفسه من قوله فيه يوم الحديبية: «يا معشر قريش، لتنتهن أو ليبغين الله عليكم من يضرب رقابكم بالسيف على الدين، قد امتحن الله قلبه على الإيمان، قالوا: من هو يا رسول

---

(١) المثبت من الرياض النضرة.
(٢) ذكره المحب الطبري في الرياض النضرة (٣/ ١٧١- ١٧٢) وعزاه لأحمد في المناقب وذكره الحافظ في الإصابة (٥/ ٥٨٠) وعزاه لأبي نعيم وقال: مختلف في صحبته -أي صحبة محدوج.
(٣) ينظر الرياض النضرة (٣/ ١٧٢).
(٤) ذكره المحب الطبري في الرياض النضرة (٣/ ١٥٦) وعزاه للحضرمي.
(٥) أخرجه النسائي في الخصائص (١٥٦)، وأبو يعلى (١٠٨٦)، وابن حبان (٦٩٣٧) والحاكم (٣/ ١٢٢)، وأحمد (٣/ ٣١، ٣٣، ٨٢) من حديث أبي سعيد الخدري وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

الله ؟ قال: هو خاصف النعل. ثم التفت عليٌّ إلى من عنده وقال: إن رسول الله ﷺ قال: « من كذب عليّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار ». أخرجه الترمذى، وقال: حسن صحيح(١).

الحديث الثامن والستون: عن ابن عباس: « أن النبى ﷺ أمر بسد أبواب المسجد إلا باب على ». خرجه الترمذى(٢). وفى رواية: فتكلم فى ذلك ناس، فقام رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد فإنى أمرت بسد هذه الأبواب إلا باب على، فقال فيه قائلكم، وإنى والله ما سددت شيئًا ولا فتحته ؟ ولكنى أمرت بشيء فاتبعته ». أخرجه أحمد(٣).

الحديث التاسع والستون: عن أبى سعيد الخدرى، قال: قال رسول الله ﷺ: « يا على، لا يحل لأحد يُجنب فى هذا المسجد غيرى وغيرك ». أخرجه الترمذى(٤).

الحديث السبعون: عن أنس بن مالك، قال: « كنت عند النبى ﷺ فرأى عليًّا مقبلاً فقال: يا أنس، قلت: لبيك. قال: هذا المقبل حجتى على أمتى يوم القيامة ». أخرجه النقاش(٥).

الحديث الحادى والسبعون: عن - على رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: « أنا دار الحكمة، وعلى بابها »، وفى أخرى: « أنا مدينة العلم، فمن أراد العلم فليأته من بابه »(٦).

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٧١٥) وقال: حسن صحيح غريب.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٧٣٢)، وأحمد (١/ ٣٣٠، ٣٧٣)، وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند (١/ ٣٣١)، والنسائي في الكبرى كما في تحفة الأشراف (٦٣١٦) من حديث ابن عباس مطولاً ومختصرًا.

(٣) ينظر: الحديث السابق.

(٤) أخرجه الترمذي (٣٧٢٧) وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وسمع مني محمد بن إسماعيل هذا الحديث فاستغربه.

(٥) ذكره المحب الطبري في الرياض النضرة (٣/ ١٥٩) .

(٦) أخرجه الترمذي (٣٧٢٣) وأبو نعيم في معرفة الصحابة (٣٤٦) وابن الجوزي في الموضوعات (٦٥٤) من طريق شريك عن سلمة بن كهيل عن الصنابحي عن علي به وقال الترمذي: هذا حديث غريب منكر. وله طرق أخرى عن علي ذكرها ابن الجوزي في الموضوعات (٦٥٥،٦٥٦،٦٥٧،٦٥٨) وحكم عليها بالوضع وينظر اللآلئ (١/ ٣٢٩) تنزيه الشريعة (١/ ٣٧٧) والفوائد المجموعة (٣٤٩) .

الحديث الثاني والسبعون: عن معقل بن يسار، قال: وضَّأت رسول الله ﷺ فقال: هل لك في فاطمة نعودها. فقلت: نعم. فقام يتوكأ عليَّ حتى دخلنا على فاطمة، فقلنا: كيف تجدينك ؟ قالت: اشتد حزنى، واشتدتْ فاقتى، وطال سقمى. فقال: أو ما ترضَيْنَ أنْ زَوَّجْتُك أقدمهم سلمًا، وأكثرهم علمًا، وأعظمهم حلمًا ». أخرجه أحمد، وزاد القلعى: « زوجتك سيدًا فى الدنيا والآخرة »[١].

الحديث الثالث والسبعون: عن أنس، عن النبى ﷺ أنه قال « أقضى أمتى على ». أخرجه فى « المصابيح »[٢]. وقال سعيد بن المسيب: لم يكن أحد من أصحاب رسول الله ﷺ يقول: « سلونى » غير على بن أبى طالب[٣]. وعن أبى الطفيل، قال: شهدت عليًا يقول: « سلونى »، والله لا تسألونى عن شيء إلا أخبرتكم به، وسلونى عن كتاب الله، فوالله ما مِنْ آية إلا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار؟، أم فى سهل أم فى جبل؟ ». أخرجه أبو عمر[٤].

الحديث الرابع والسبعون: عن معاذ بن جبل، قال: قال رسول الله ﷺ لعلى: «تختصم الناس بسبع ولا يحاجك أحد من قريش، أنت أولهم إيمانًا بالله، وأوفاهم بعهد الله، وأقومهم بأمر الله، وأقسمهم بالسوية، وأعدلهم فى الرعية، وأبصرهم بالقضية، وأعظمهم عند الله مزية». أخرجه الحاكمى[٥].

الحديث الخامس والسبعون: عن على رضى الله عنه، قال: بعثنى رسول الله ﷺ إلى اليمن قاضيًا فقلت: يا رسول الله، بعثتنى إلى قوم ذوى أسنان، وأنا شاب لا أعلم القضاء، فوضع يده على صدرى فقال: إن الله يهدى قلبك ويثبت لسانك، يا على، إذا جلس إليك الخصمان فلا تقض بينهما حتى تسمع من الآخر كما تسمع من الأول؛ فإنك إذا فعلت ذلك تبين لك القضاء فيما اختلفا. قال على: فما أشكل عليَّ قضاء بعد ذلك ». خرجه الإسماعيلى والحاكمى[٦].

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٦) من حديث معقل وينظر الرياض النضرة (٣/ ١٦٠) .
(٢) قال المحب الطبري في الرياض النضرة (٣/ ١٦٧) أخرجه في المصابيح في الحسان.
(٣) اخرجه ابن عبد البر في الاستيعاب (٣/ ٢٠٦) وذكره المحب الطبري في الرياض النضرة (٣/ ١٦٦-١٦٧) وعزاه أيضا لأحمد في المناقب والبغوي في معجمه .
(٤) ذكره المحب الطبري (٣/ ١٦٧) وعزاه لابن عبد البر .
(٥) ذكره المحب الطبري في الرياض النضرة (٣/ ١٦٧) وعزاه للحاكمي.
(٦) أخرجه أحمد (١/ ٩٠، ١٤٣، ١٥٠) وأبو داود (٣٥٨٢) والترمذي (١٣٣١) من طريق =

الحديث السادس والسبعون: عن جابر « دعا النبى ﷺ عليًا يوم الطائف فانتجاه، فقال الناس: لقد أطال نجواه مع ابن عمه، فقال ﷺ: ما انتجيته ولكن الله انتجاه »(١).

الحديث السابع والسبعون: عن على - كرم الله وجهه -، قال: « انطلقت أنا والنبى ﷺ حتى أتينا الكعبة، فقال لى رسول الله ﷺ: اجلس وأصعد على منكبك(٢)، فذهبت لأربض به، فرأى منى ضعفًا فنزل، وجلس إلىَّ نبى الله ﷺ وقال لى: اصعد على منكبى، فصعدت على منكبه، قال: فنهض فخُيل لى أن لو شئت لنلت أفق السماء، حتى صعدت إلى البيت وعليه تمثال صفر أو نحاس، فجعلت أزاوله عن يمينه وعن شماله، ومن بين يديه ومن خلفه، حتى استمكنت منه، فقال لى رسول الله ﷺ: اقذفه، فقذفته؛ فتكسر كما تتكسر القوارير، ثم نزلت فانطلقت أنا ورسول الله ﷺ نستبق حتى توارينا بالبيوت؛ خشية أن يرانا أحد من الناس، وذلك صنمهم الأكبر(٣).

الحديث الثامن والسبعون: روى أبو سعيد فى « شرف النبوة » أن رسول الله ﷺ قال لعلى: « أوتيت ثلاثًا لم يؤتهن أحد ولا أنا؛ أوتيت صهرًا مثلى ولم أوت أنا مثلى، وأوتيتَ زوجة صديقة مثل ابنتى ولم أوت أنا مثلها زوجة، وأوتيت الحسن والحسين من صلبك ولم أوت من صلبى مثلهما، ولكنكم منى وأنا منكم ». وأخرج معناه الإمام على بن موسى الرضا فى مسنده بزيادة ولفظه: « يا على أعطيت ثلاثًا لم يجتمعن لغيرك، مصاهرتى وزوجتك وولديك، والرابعة لولاك ما عرف

= سماك عن حنش عن علي به وأخرجه أحمد (١/ ٨٨، ١٥٦) من طريق حارثة بن مضرب عن علي وأخرجه أحمد (١/ ١٣٦) وعبد بن حميد (٩٤) وابن ماجه (٢٣١٠) من طريق أبي البختري عن علي.

(١) أخرجه الترمذي (٣٧٢٦) وابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٥٩٨) من حديث جابر وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.

(٢) في الرياض: وصعد على منكبي.

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٨٤) وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند (١/ ١٥١) وذكره ابن الجوزي في صفة الصفوة (١/ ١٦٣) دون إسناد وعزاه لأحمد وذكره صاحب الرياض النضرة (٣/ ١٧٠-١٧١) وعزاه أيضا للحاكمي.

المؤمنون »[١].

الحديث التاسع والسبعون: عن أبى سعيد الخدرى، قال: قال رسول الله ﷺ: « أعطيت فى على خمسًا هى أحب إليّ من الدنيا وما فيها، أما واحدة: فهى تكأتى عليه بين يدى الله - عز وجل - حتى يفرغ [من] الحساب، وأما الثانية: فلواء الحمد بيده، آدم ومن ولده من تحته، الثالثة: فواقف على عقر حوضى يسقى من عرف من أمتى، وأما الرابعة: فساتر عوراتى ومسلمى إلى ربى - عز وجل - وأما الخامسة: فلست أخشى عليه أن يرجع زانيًا بعد إحصانٍ، ولا كافرًا بعد إيمان ». أخرجه أحمد فى المناقب[٢]. قلت: التكأة: بضم التاء وبالهمز: ما يتكأ عليه، وعقر الحوض، بضم العين وإسكان القاف: آخر الحوض.

الحديث الثمانون: عن عبد الله بن أبى أوفىٰ: أن النبى ﷺ قال لعلى: « أنت معى فى قصرى فى الجنة مع فاطمة بنتى، وأنت أخى ورفيقى، ثم تلا ﴿ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴾ [الحجر:٤٧] أخرجه أحمد فى المناقب[٣].

الحديث الحادى والثمانون: عن ابن عمر، عن أبيه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لعلى: « يا على، يدك فى يدى تدخل معى يوم القيامة حيث أدخل ». أخرجه الحافظ الدمشقى[٤].

الحديث الثانى والثمانون: عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: « الجنة تشتاق إلى ثلاثة: على وعمار وسلمان الفارسى ». أخرجه ابن السرى[٥].

(١) ذكره المحب الطبري في الرياض النضرة (٣/ ١٧٢-١٧٣) وعزاه لأبي سعيد في شرف النبوة وعلى بن موسى في مسنده.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢١١) والعقيلي في الضعفاء الكبير (٢/ ٢٢) وابن الجوزي في العلل (١/ ٢٤٥-٢٤٦) من حديث علي وقال العقيلي: ليس له أصل وقال ابن الجوزي: وفيه الحارث الأعور قال الشعبي وابن المديني: كذاب وذكره الطبري في الرياض النضرة (٣/ ١٧٣-١٧٤) وعزاه لأحمد في المناقب.

(٣) أخرجه ابن الجوزي في العلل المتناهية (٤٠٢) وقال: هذا حديث لا يصح، أما عمار فقال يحيى: ليس حديثه بشيء، وقال الدارقطني: متروك. وأما المحاربي فقال يحيى: يروى عن المجهولين أحاديث منكرة.

(٤) ذكره المحب الطبري في الرياض النضرة (٣/ ١٨٢) وعزاه للحافظ الدمشقي في الأربعين الطوال.

(٥) ذكره المحب الطبري في الرياض النضرة (٣/ ١٨٢) وعزاه إلى ابن السري. وفي ط: أخرجه ابن السكري، والمثبت من الرياض النضرة.

الحديث الثالث والثمانون: عنه - أيضًا - قال: قال رسول الله ﷺ: « نحن بنى عبد المطلب سادات أهل الجنة، أنا وحمزة وعلى وجعفر والحسن والحسين والمهدى ». أخرجه ابن البرى[(١)].

الحديث الرابع والثمانون: عن على - رضى الله عنه -: دخل رسول الله ﷺ وأنا فى المنام فاستسقى الحسن والحسين، قال: فقام رسول الله ﷺ إلى شاة لنا بكر فحلبها فدرَّت، فجاء الحسين، فنحاه النبى ﷺ، فقالت فاطمة: لكأنه أحبهما إليك[(٢)]. قال: لا، ولكنه - يعنى الحسن - استسقى قبله. ثم قال: إنى وإياك وهذين وهذا الراقد فى مكان واحد يوم القيامة ». أخرجه أحمد فى المسند[(٣)].

الحديث الخامس والثمانون: عن عبد الله بن عمر، قال: بينا أنا عند رسول الله ﷺ وجمع المهاجرين والأنصار إلا من كان فى سرية - أقبل عليّ يمشى. وهو متغضب، فقال: « من أغضب هذا فقد أغضبنى ». فلما جلس قال له رسول الله ﷺ: ما لك يا على؟ قال: آذانى بتولك. قال: أما ترضى أن تكون معى فى الجنة والحسن والحسين وذرياتنا خلف ظهورنا، وأزواجنا خلف ذرياتنا، وأشياعنا عن أيماننا وشمائلنا ». أخرجه أحمد فى « المناقب »، وأبو سعيد فى « شرف النبوة »[(٤)].

الحديث السادس والثمانون: عن على - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: « يا على إن لك كنزًا فى الجنة، وإنك ذو قرنيها، فلا تتبع النظرة النظرة، فإنما لك الأولى وليست لك الآخرة »[(٥)]. أخرجه الهروى فى غريبه. وقوله قرنيها، أى:

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٠٨٧) والحاكم (٣/ ٢١١) من حديث أنس وصححه الحاكم وتعقبه الذهبي بقوله: ذا موضوع. وأخرجه الخطيب (٩/ ٤٣٤) ومن طريقه ابن الجوزي في العلل المتناهية (١/ ٢٢٣) وقال الخطيب: هذا حديث منكر جدا.

(٢) في المجمع: كأنه أحبهما يا رسول الله.

(٣) أخرجه أحمد (١/ ١٠١)، وابن أبي عاصم في السنة (١٣٢٢) من طريق معاذ بن معاذ ثنا قيس ابن الربيع عن أبي المقدام عن عبد الرحمن الأزرق عن علي به وقال الهيثمي (٩/ ١٧٣) في إسناده قيس بن الربيع وهو مختلف فيه.

(٤) ذكره المحب الطبري (٣/ ١٨٣) وعزاه لأحمد في المناقب. وأبي سعد في شرف النبوة.

(٥) أخرجه أحمد (١/ ١٥٩) وابن أبي شيبة (٦/ ٣٦٧) رقم (٣٢٠٨٣) والطحاوي في شرح معاني الآثار (٣/ ١٥)، والحاكم (٣/ ١٢٣) وقال الهيثمي (٨/ ٦٦): فيه ابن إسحاق، وهو مدلس.

طرفيها.

الحديث السابع والثمانون: عنه - رضى الله عنه - وكرم وجهه -، قال: « كنت أمشى مع النبى ﷺ فى بعض طرق المدينة فمررنا على حديقة، فقلت: يا رسول الله، ما أحسنها ! قال: لك فى الجنة أحسن منها ». أخرجه أحمد فى المناقب.

وفى رواية: « فلما خلا الطريق اعتنقنى وأجهش باكيًا. فقلت: يا رسول الله، ما يبكيك ؟قال: ضغائن فى صدور أقوام لا يبدونها لك إلا من بعدى. فقلت: فى سلامة [من] دينى ؟ قال: فى سلامة من دينك »[١].

الحديث الثامن والثمانون: عن أبى سعيد الخدرى، قال: قال رسول الله ﷺ: « يا على، إن لك فى الجنة ما لو قسم على أهل الأرض لوسعهم »[٢].

الحديث التاسع والثمانون. عن أنس - رضى الله عنه -، قال: قال رسول الله ﷺ: « عليٌّ يزهر بأهل الجنة كما يزهر كوكب الصبح بأهل الدنيا »[٣]. أخرجه أبو الخير القزوينى. ويزهر: يضيء، يقال: زهرت النَّارُ زهرًا: أضاءت.

الحديث التسعون: عن على رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ « لما أسرى بى إلى السماء أخذ جبريل بيدى وأقعدنى على درنوك من درانيك الجنة، وناولنى سفرجلة، فكنت أقلبها، إذ انفلقت وخرجت منها حوراء لم أر أحسن منها، فقالت: السلام عليك يا محمد. قلت: وعليك السلام. قالت: أنا الراضية المرضية، خلقنى الجبار من ثلاثة أصناف: أعلاى من عنبر، ووسطى من كافور، وأسفلى من مسك، عجننى بماء الحيوان، ثم قال: كونى فكنت، خلقنى لأخيك وابن عمك على بن أبى طالب ». خرجه الإمام على الرضا بن موسى الكاظم فى مسنده[٤].

الحديث الحادى والتسعون: عن حذيفة، قال: قال رسول الله ﷺ: « إن الله

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ١٣٩) بالرواية الأولى، وأخرجه بالروايتين في حديث واحد أبو يعلى (٥٦٥)، والبزار كما في المجمع (٩/ ١٢١)، والمطالب العالية (٣٩٦٠)، والخطيب (١٢/ ٣٩٨)، وابن الجوزي في العلل المتناهية (١/ ٢٤٣) رقم (٣٨٨)، وقال الهيثمي: فيه الفضل بن عميرة، وثقه ابن حبان وضعفه غيره. وأخرجه ابن الجوزي (٣٨٩) من حديث أنس ثم قال: هذان حديثان ليس فيهما صحيح.

(٢) ذكره المحب الطبري في الرياض (٣/ ١٨٥) ولم يعزه لأحد.

(٣) أخرجه ابن الجوزي في العلل (٤٠٣)، وقال: هذا حديث لا يصح.

(٤) ذكره المحب الطبري في الرياض (٣/ ١٨٥) وعزاه كما عزاه المصنف.

اتخذنى خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً، وإن قصرى فى الجنة وقصر إبراهيم متقابلان، وقصر على بن أبى طالب بين قصرى وقصر إبراهيم فيا له من حبيب بين خليلين »[١].

الحديث الثانى والتسعون: عن سلمان، قال: قال رسول الله ﷺ: « إذا كان يوم القيامة ضرب لى قبة حمراء على يمين العرش، وضرب لإبراهيم قبة خضراء عن يسار العرش، وضرب فيما بينهما لعلى بن أبى طالب قبة من لؤلؤ بيضاء، فما ظنكم بحبيب بين خليلين »[٢]. أخرجه الحاكمى.

الحديث الثالث والتسعون: عن أبى سعيد الخدرى، قال: قال رسول الله ﷺ: « يا على، معك يوم القيامة عصا من عصى الجنة تذود بها المنافقين عن الحوض » أخرجه الطبرانى[٣]. وفى رواية عن على - رضى الله عنه -: « لأذودن بيدى هاتين القصيرتين عن حوض رسول الله ﷺ رايات الكفار والمنافقين؛ كما تذاد غرائب الإبل عن حياضها ». أخرجه أحمد فى المناقب[٤].

الحديث الرابع والتسعون: عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ لعلى: « لك يوم القيامة ناقة من نوق الجنة تركبها، وركبتيك مع ركبتى، وفخذك مع فخذى، حتى تدخل الجنة » أخرجه أحمد فى المناقب[٥].

الحديث الخامس والتسعون: عن عبد الله بن الحارث قال: قلت لعلى بن أبى طالب: أخبرنى بأفضل منزلتك من رسول الله ﷺ، قال: نعم ، بينا أنا عنده وهو يصلى، فلما فرغ من صلاته قال: « يا على، ما سألت الله - عز وجل - من الخير

---

(١) أخرجه ابن الجوزي في العلل (١/ ٢٥٠) رقم (٤٠٠)، والحاكم في التاريخ، والبيهقي في فضائل الصحابة، كما في كنز العمال (٣٢٩٨٨). وقال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح؛ يزيد بن معقل وعقبة بن موسى مجهولان.

(٢) أخرجه ابن الجوزي في العلل (٤٠١)، والبيهقي في فضائل الصحابة كما في كنز العمال (٣٢٩٨٧) وقال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط (٣٧٤١- مجمع البحرين)، وفي الصغير (٢/ ٨٩) وابن الجوزي في العلل (٣٩٨) وقال الهيثمي (٩/ ١٣٨): فيه سلام بن سليمان المدائني، وزيد العمي، وهما ضعيفان، وقد وثقا، وبقية رجاله ثقات. وقال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح.

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط (٣٧٤٢- مجمع البحرين) بنحوه. وقال الهيثمي (٩/ ١٣٨): فيه محمد بن قدامة الجوهري، وهو ضعيف.

(٥) ذكره المحب الطبري (٣/ ١٨٦)، وعزاه لأحمد في المناقب.

إلا سألت لك مثله، وما استعذت بالله من الشر إلا استعذت لك مثله » أخرجه المحاملى[١].

الحديث السادس والتسعون: عن عمر بن الخطاب، قال: قال رسول الله ﷺ: « ما اكتسب مكتسب مثل فضل على، يهدى إلى الهدى، ويرد عن الردى » أخرجه الطبرانى[٢].

الحديث السابع والتسعون: عن بريدة، قال: قال رسول الله ﷺ: « إن الله أمرنى بحب أربعة، وأخبرنى أنه يحبهم. قيل: يا رسول الله، فسمهم لنا. قال: على منهم. يقول ذلك ثلاثًا ». أخرجه أحمد والترمذى[٣].

الحديث الثامن والتسعون: عن ابن عباس: أن عليًا دخل على النبى ﷺ فقام إليه وعانقه وقبل بين عينيه، فقال العباس: أتحب هذا يا رسول الله ؟ فقال: يا عم، والله لله أشد حبًا له منى » أخرجه أبو الخير القزوينى[٤].

الحديث التاسع والتسعون: عن إبراهيم بن عبيد بن رفاعة الأنصارى، عن أبيه، عن جده، قال: « أقبلت من بدر ففقدنا رسول الله ﷺ، فنادى الرفاق بعضهم بعضًا: أفيكم رسول الله ؟ فوقفوا حتى جاء رسول الله ﷺ، ومعه على بن أبى طالب، فقالوا: يا رسول الله، فقدناك. فقال: إن أبا الحسن وجد مغصًا فى بطنه فتخلفت عنده ». أخرجه أبو عمر[٥].

(١) ذكره الهندي في الكنز (٣٦٤٧٤)، وعزاه للمحاملي في أماليه.
(٢) ذكره المحب الطبري في الرياض (٣/ ١٨٩) بهذا اللفظ وعزاه للطبراني وأخرجه الطبراني في الأوسط (١٩٣- مجمع البحرين)، وفي الصغير (١/ ٢٤١) بلفظ: «ما اكتسب مكتسب مثل فضل علم يهدي صاحبه إلى هدى، أو يرده عن ردى، ولا استقام دينه حتى يستقيم عمله» وقال الهيثمي (١/ ١٢٥): فيه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وهو ضعيف. اهـ إذن الرواية «فضل علم» وليس «فضل عليّ» والله أعلم.
(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٣٥١،٣٥٦)، والترمذي (٣٧١٨)، وابن ماجه (١٤٩)، والحاكم (٣/ ١٣٠) من طريق أبي ربيعة الإيادي، عن ابن بريدة عن أبيه به وصححه الحاكم، وتعقبه الذهبي بقوله: ما خرج مسلم لأبي ربيعة اهـ. وقلت: هو مقبول كما في التقريب.
(٤) أخرجه الخطيب في التاريخ (١/ ٣١٦-٣١٧)، وابن الجوزي في العلل المتناهية (١/ ٢١٤) رقم (٣٣٨). وقال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ.
(٥) أخرجه ابن عبد البر في الاستيعاب (٣/ ٢٠٥)، والحاكم (٣/ ٢٣٢)، والخطيب في التاريخ (٢/ ٤٤-٤٥)، والطبراني كما في مجمع الزوائد (٦/ ٧٢) وقال الهيثمي: فيه أبو معشر نجيح، وهو ضعيف، يكتب حديثه. اهـ.

الحديث المائة: عن أم عطية، قالت: بعث رسول الله ﷺ جيشًا فيهم على بن أبى طالب، قالت: فسمعت رسول الله ﷺ وهو رافع يديه يقول: « اللهم لا تمتنى حتى ترينى عليًا » أخرجه الترمذى[١].

الحديث الحادى والمائة: عن على، قال: كنت شاكيًا فمر بى رسول الله ﷺ وأنا أقول: اللهم إن كان أجلى قد حضر فأرحنى، وإن كان متأخرًا فارفع عنى، وإن كان بلاء فصبرنى.

فقال رسول الله ﷺ: كيف قلت ؟ فأعدت عليه، فضربنى، وقال « اللهم عافه أو اشفه » -شعبة الشاكُّ- قال: فما اشتكيت وجعى ذاك بعد ». أخرجه أبو حاتم[٢].

الحديث الثانى والمائة: عن أنس، أن النبى ﷺ بعث عليًا، ثم بعث رجلاً خلفه، وقال « ادعه، ولا تدعه من ورائه » أخرجه الدارقطنى[٣].

الحديث الثالث والمائة: عن على، قال: أهدى لرسول الله ﷺ حلة سيراء مسيرة بحرير، إما سداؤها وإما لحمتها، فبعثها النبى ﷺ إليَّ؛ فقلت: يا رسول الله، ما أصنع بها ؟ فقال: لا أرضى لك شيئًا وأكرهه لنفسى، فشققت منها أربعة أخمرة خمارًا لفاطمة بنت أسد أم على، وخمارًا لفاطمة بنت محمد، وخمارًا لفاطمة بنت حمزة، وذكر فاطمة أخرى ». أخرجه الضحاك[٤].

الحديث الرابع والمائة: عن عبد الأعلى بن عدى البَهْرانى[٥] أن رسول الله ﷺ دعا عليًا يوم « غدير خم » فعممه وأرخى عذبة العمامة من خلفه[٦].

الحديث الخامس والمائة: عن على، قال: قال رسول الله ﷺ: « من أحب

(١) أخرجه الترمذي (٣٧٣٧)، والبخاري في التاريخ الكبير (٩/ ٢٠- كتاب الكنى). وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٨٣-٨٤)، والترمذي (٣٥٦٤)، والنسائي في اليوم والليلة (١٠٥٨)، وابن حبان (٦٩٤٠)، والحاكم (٢/ ٦٢٠-٦٢١) وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

(٣) ذكره المحب الطبري في الرياض (٣/ ١٩٣) وعزاه للدارقطني بلفظ: ارعه...

(٤) أخرجه أحمد (١/ ١٣٧)، وابن ماجه (٣٥٩٦)، وابن أبي عاصم كما في الإصابة ترجمة رقم (١١٥٩٣) من طريق هبيرة عن عليّ وأصله في صحيح مسلم (١٧-١٨/ ٢٠٧١) عن أبي صالح الحنفي عن علي.

(٥) في ط: عبد الله بن عدي الهواي. والمثبت من الرياض النضرة.

(٦) ذكره المحب الطبري (٣/ ١٩٤) ولم يعزه لأحدٍ.

هذين وأباهما وأمهما كان معى فى درجتى يوم القيامة » أخرجه أحمد والترمذى[(١)].

الحديث السادس والمائة: عنه - رضى الله تعالى عنه -: « والذى فلق الحبة وبرأ النسمة لعهد النبى ﷺ لا يحبنى إلا مؤمن، ولا يبغضنى إلا منافق » أخرجه مسلم وأبو حاتم[(٢)].

الحديث السابع والمائة: عن أم سلمة، قالت: كان رسول الله ﷺ يقول: « لا يحب عليًا منافق، ولا يبغضه مؤمن » أخرجه الترمذى[(٣)]. وعن جابر بن عبد الله: « ما كنا نعرف المنافقين إلا ببغضهم عليًا »[(٤)].

الحديث الثامن والمائة: عن زيد بن أرقم، قال: قال رسول الله ﷺ: « من أحب أن يستمسك بالقضيب الأحمر الذى غرسه الله فى جنة عدن كله فليستمسك بحب على » أخرجه أحمد فى المناقب[(٥)].

الحديث التاسع والمائة: عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: « حب على يأكل الذنوب كما تأكل النار الحطب » أخرجه الملا فى سيرته[(٦)].

الحديث العاشر والمائة: عن أنس، قال: « دَفع على بن أبى طالب إلى بلال درهمًا ليشترى بطيخًا، قال: فاشترى به. فأخذ بطيخة فقورها فوجدها مرة، فقال: يا بلال رد هذا على صاحبه وائتنى بالدرهم، إن رسول الله ﷺ قال: إن الله عز وجل أخذ حبك على الشجر والبشر والمدر[(٧)]، فما أجاب إلى حبك عذب وطاب، وما

---

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد (١/ ٧٧)، والترمذي (٣٧٣٣) وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

(٢) أخرجه مسلم (١٣١-٧٨)، والترمذي (٣٧٣٦)، والنسائي (٨/ ١١٥)، وابن ماجه (١١٤)، وأحمد (١/ ٨٤، ٩٥، ١٢٨)، وابن حبان (٦٩٢٤).

(٣) أخرجه أحمد (٦/ ٢٩٢)، والترمذي (٣٧١٧) وقال: هذا حديث حسن غريب.

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط (٣٧١٩، ٣٧٢٠- مجمع البحرين). وقال الهيثمي (٩/ ١٣٥-١٣٦) رواه الطبراني في الأوسط والبزار بنحوه، بأسانيد كلها ضعيفة.

(٥) أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (٧٢٧) وأقره السيوطي في اللآلئ (١/ ٣٦٩)، وابن عراق في تنزيه الشريعة (١/ ٣٦١).

(٦) أخرجه الخطيب في التاريخ (٤/ ١٩٥) ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات (٦٩٦)، وأقر ابن الجوزي السيوطي في اللآلئ (١/ ٣٥٥)، وابن عراق في تنزيه الشريعة (١/ ٣٥٥)، والشوكاني في الفوائد (٣٦٧).

(٧) في الرياض النضرة: الثمر والبذر.

لم يجب خبث ومرٌ. وإني أظن هذا مما لم يجب ». أخرجه الملا[١]. وفى هذا دلالة على أن العيب الحادث إذا كان مما لا يطلع على العيب القديم إلا به لا يمنع الرد.

الحديث الحادى عشر ومائة: عن فاطمة بنت رسول الله ﷺ، قالت: قال رسول الله ﷺ: « إن السعيد [كل السعيد][٢] حق السعيد من أحب عليًا فى حياته وبعد مماته » أخرجه أحمد[٣].

الحديث الثانى عشر ومائة: عن عمار بن ياسر، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « يا على، طوبى لمن أحبك وصدقك، وويل لمن أبغضك وكذب فيك ». أخرجه ابن عرفة[٤].

الحديث الثالث عشر ومائة: عن على - رضى الله عنه -، قال: قال لِى رسول الله ﷺ: « فيك مثل من عيسى، أبغضه اليهود حتى بهتوا أمه، وأحبته النصارى حتى أنزلته بالمنزلة التى ليس بها »، ثم قال على - رضى الله عنه -: « يهلك فيّ رجال مُحب مفرط [يقرظني] بما ليس فى، ومُبغض [مفترٍ] يحمله شنآني على أن يبهتنى »[٥]. أخرجه أحمد فى المسند. ومعنى بهتوا: كذبوا عليه، والبهت: الكذب وقول الزور.

الحديث الرابع عشر ومائة: عن أبى الجمراء، قال: قال رسول الله ﷺ: « من أراد أن ينظر إلى [آدم] فى علمه، وإلى نوح فى فهمه، وإلى إبراهيم فى حكمه، وإلى زكريا بن يحيى فى زهده، وإلى موسى بن عمران فى بطشه، فلينظر إلى على

(١) ذكره المحب الطبري في الرياض (٣/ ١٩١). وفي ط: « لايحب » بدل « لم يحب ».
(٢) المثبت من الرياض النضرة.
(٣) أخرجه ابن الجوزي في العلل (٣٨٢)، والطبراني كما في مجمع الزوائد (٩/ ١٣٥)، وقال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح. وقال الهيثمي: فيه من لم أعرفهم. وينظر الرياض النضرة (٣/ ١٩١).
(٤) أخرجه الخطيب في التاريخ (٩/ ٧٢) ومن طريقه ابن الجوزي في العلل المتناهية (٣٩١) من طريق الحسن بن عرفة، والحاكم (٣/ ١٣٥) من طريق أحمد بن حنبل كلاهما -الحسن، أحمد بن حنبل عن سعيد بن محمد الوراق، عن علي بن الحزور عن أبي مريم الثقفي عن عمار به. وصححه الحاكم وتعقبه الذهبي بقوله: قلت: بل سعيد وعليّ متروكان.
(٥) أخرجه عبد الله بن أحمد (١/ ١٦٠)، وابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٤٨٤) رقم (١٠٠٤)، والحاكم (٣/ ١٢٣)، وابن الجوزي في العلل (٢٥٩)، (٣٥٧) به وفي إسناده الحكم بن عبد الملك قال الذهبي في التلخيص: وهاه ابن معين. وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ١٣٦) رواه عبد الله والبزار باختصار وأبو يعلى أتم منه، وفي إسناد عبد الله وأبي يعلى: الحكم بن عبد الملك وهو ضعيف، وفي إسناد البزار محمد بن كثير القرشي الكوفي وهو ضعيف.

بن أبى طالب » أخرجه الحاكمى والقزوينى[١].

الحديث الخامس عشر ومائة: عن عائشة - رضى الله عنها -، قالت: رأيت أبا بكر يكثر النظر إلى وجه على، فقلت: يا أبت، رأيتك تكثر النظر إلى وجه على فقال: يا بنية، سمعت رسول الله ﷺ يقول: « النظر إلى وجه على عبادة ». أخرجه ابن السمان فى الموافقة[٢].

الحديث السادس عشر ومائة: عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: « ما مررت بسماء إلا وأهلها يشتاقون إلى على بن أبى طالب، وما فى الجنة شيء إلا وهو مشتاق إلى على بن أبى طالب » أخرجه الملا فى سيرته[٣].

الحديث السابع عشر ومائة: عن ابن عباس - أيضًا -: « أن رسول الله صف المهاجرين والأنصار صفين، ثم أخذ بيد على والعباس من بين الصفين وضحك؛ فقال له رجل: من أى شيء ضحكت فداك أبى وأمى ؟ قال: هبط علىَّ جبريل بأن الله باهى بالمهاجرين والأنصار أهل السموات العلا، وباهى بك يا على، وبك يا عباس حملة العرش »[٤]. أخرجه أبو القاسم فى الفضائل.

الحديث الثامن عشر ومائة: عن أبى ذر - رضى الله عنه -، قال: « بعثنى رسول الله ﷺ أدعو عليًا، فأتيت بيته فناديته فلم يجبنى، فعدت فأخبرت رسول الله ﷺ، فقال لى: عد إليه ادعه فإنه فى البيت، قال أبو ذر: فعدت أناديه فسمعت صوت رحى تطحن، فشارفت فإذا الرحى تطحن، وليس معها أحد، فناديته، فخرج إلىَّ منشرحًا فقلت: إن رسول الله ﷺ يدعوك، فجاء، ثم لم أزل أنظر إلى رسول الله ﷺ وينظر إلىَّ فقال: يا أبا ذر، ما شأنك ؟ فقلت: يا رسول الله، عجبت من العجب، رأيت رحًى تطحن وليس معها أحد يديرها فقال: يا أبا ذر، إن لله ملائكة يسيحون فى الأرض قد وكلوا بمعونة آل محمد ﷺ ». أخرجه الملا فى سيرته[٥].

---

(١) أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (٦٩٧).

(٢) أخرجه ابن حبان في المجروحين (١/ ٢٤١)، وابن الجوزي في الموضوعات (٦٧١، ٦٧٢) وقد ساقه عن عدد من الصحابة ثم قال (٢/ ١٢٩): هذا حديث لا يصح من جميع طرقه.

(٣) ذكره المحب في الرياض (٣/ ١٩٨) وعزاه للملا في سيرته.

(٤) ذكره المحب في الرياض (٣/ ١٩٨) وعزاه لأبي القاسم في فضائل العباس.

(٥) ذكره المحب الطبري في الرياض (٣/ ٢٠٢) وعزاه للملا في سيرته.

الحديث التاسع عشر ومائة: عن أبى سعيد الخدرى، قال: اشتكى الناس عليًّا يومًا، فقام رسول الله ﷺ فينا خطيبًا، فسمعته يقول: أيها الناس لا تشكوا عليًّا، فوالله إنه لأخشى فى ذات الله - عز وجل -، أو فى سبيل الله » . أخرجه أحمد(١) .

الحديث العشرون ومائة: عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - أنه قال: أشهد علىٰ رسول الله ﷺ لسمعته وهو يقول: « لو أن السموات السبع والأرضين السبع وضعت فى كفة؛ ووضع إيمان على فى كفة - لرجح إيمان على ». أخرجه ابن السمان والحافظ السلفى(٢).

الحديث الحادى والعشرون ومائة: عن - على رضى الله عنه -، قال: « قال رسول الله ﷺ: يا على، كيف أنت إذا زهد الناس فى الآخرة، ورغبوا فى الدنيا، وأكلوا التراث أكلاً لمًّا، وأحبوا المال حبًّا جمًّا، واتخذوا دين الله دخلاً، ومال الله دولاً ؟ قلت: أتركهم وما اختاروا، وأختار الله ورسوله والدار والآخرة، وأصبر على مصيبات الدنيا وبلواها، حتى ألحق بك - إن شاء الله تعالى -. قال: صدقت، اللهم افعل به ذلك ».أخرجه الحافظ أبو طاهر السلفى(٣).

الحديث الثانى والعشرون ومائة: عنه - رضى الله عنه - أيضًا، قال: « جعت بالمدينة جوعًا شديدًا، فخرجت أطلب العمل فى عوالى المدينة، فإذا أنا بامرأة قد جمعت مدرًا فظننتها تريد بَلَّهُ، فعاطيتها كل دلو بتمرة، فمددت ستة عشر دلوًا حتى مجلت يدى، ثم أتيتها فقلت: بكلتا يدى هكذا بين يديها فعدت لى ست عشرة تمرة، فأتيت النبى ﷺ فأخبرته، فأكل معى منها، وقال لى خيرًا، ودعا لى ». أخرجه أحمد وصاحب الصفوة والفضائلى(٤). قوله مجلت يدى، أى: نفطت من العمل. وقوله فعاطيتها: من المعاطاة، وهى: المناولة، كأن كل واحد منهما أخذ بيد صاحبه على ذلك إذا عاقده عليه، وإن لم يوجد أخذ يد حسًّا.

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٨٦)، والحاكم (٣/ ١٣٤) وصححه ووافقه الذهبي.
(٢) ذكره الهندي في الكنز (٣٢٩٩٣) وعزاه للديلمي عن ابن عمر.
(٣) ذكره المتقي الهندي في الكنز (٣١٥١٩)، وعزاه للثقفي في الأربعين، وقال: فيه صالح بن أبي الأسود؛ واهٍ.
(٤) أخرجه أحمد (١/ ٩٠، ١٣٥) عن مجاهد قال: قال عليّ: جعت مرة... فذكره. وقال الهيثمي (٤/ ١٠٠): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح إلا أن مجاهدًا لم يسمع من عليّ، والله أعلم. اهـ وينظر: صفة الصفوة (١/ ١٦٨).

الحديث الثالث والعشرون ومائة: عن سهل بن سعد: أن على بن أبى طالب دخل على فاطمة، والحسن والحسين يبكيان؛ فقال: ما يبكيهما؟[(١)] قالت: الجوع. فخرج على فوجد دينارًا فى السوق فجاء إلى فاطمة فأخبرها، فقالت: اذهب إلى فلان اليهودى فخذ لنا به دقيقًا؛ فجاء إلى اليهودى فاشترى به دقيقًا، فقال: أنت ختن هذا الذى يزعم أنه رسول الله ؟ قال: نعم. قال: فخذ دينارك، ولك الدقيق. فخرج على رضى الله عنه حتى جاء فاطمة فأخبرها، فقالت: اذهب إلى فلان الجزار، فخذ لنا بدرهم لحمًا، فذهب على فرهن الدينار على لحم بدرهم فجاء به، فعجنت الدقيق وخبزته، وأرسلت إلى أبيها فجاءهم، فقال: يا رسول الله، أذكر لك، فإن رأيته حلالاً أكلنا. فذكرت له من شأنه، قال: كلوا باسم الله. فبينما هم مكانهم، إذا غلام ينشد الله والإسلام الدينار، فأمر رسول الله ﷺ فدعى له فسأله، فقال: سقط منى فى السوق. فقال رسول الله ﷺ: يا على، اذهب إلى الجزار فقل له إن رسول الله ﷺ يقول: أرسل إليَّ بالدينار ودرهمك عليَّ. فأرسل به فدفع الدينار إلى الغلام». أخرجه أبو داود[(٢)].

الحديث الرابع والعشرون ومائة: عن أسماء بنت عميس، عن فاطمة بنت رسول الله ﷺ، أن رسول الله ﷺ أتاها يومًا فقال: أين ابناى ؟ يعنى حسنًا وحسينًا. قالت: أصبحنا وليس فى بيتنا ما يذوقه ذائق، فقال لى على: أذهب بهما؛ فإنى أتخوف أن يبكيا عليك وليس عندك شيء، فذهب بهما إلى فلان اليهودى، فخرج إليه رسول الله ﷺ فوجدهما يلعبان فى مشربة وبين أيديهما فضل من تمر، فقال - عليه الصلاة والسلام -: يا على، ألا تنقلب بابنيَّ قبل أن يشتد عليهما الحر ؟ قالت: فقال على: يا رسول الله، أصبحنا وليس فى بيتنا شيء، فلو جلست حتى أجمع لفاطمة تمرات؟، فجلس رسول الله ﷺ وعلى ينزع لليهودى كل دلو بتمرة، حتى اجتمع له شيء من تمر، فجعله فى حجزته، ثم أقبل النبي ﷺ يحمل أحدهما وعلى يحمل الآخر. أخرجه الدولابى فى « الذرية الطاهرة »[(٣)].

---

(١) في ط: يبكيكما. والمثبت من أبي داود.

(٢) أخرجه أبو داود (١٧١٦) ومن طريقه البيهقي في السنن (٦/ ١٩٤)، وينظر: نصب الراية (٣/ ٤٦٩-٤٧٠).

(٣) أخرجه الحاكم (٣/ ١٦٥)، والطبراني في الكبير (٢٢/ ٤٢٢) ووقع عند الحاكم أسماء بنت =

الحديث الخامس والعشرون ومائة: أخرج الإمام أحمد عن على - رضى الله تعالى عنه -: « أن رسول الله ﷺ لما تزوج فاطمة، بعث معها بخميلة، ووسادة من أدم حشوها ليف، ورحيين وسقاء وجرتين، فقلت لفاطمة ذات يوم: والله لقد سنوت حتَّى اشتكيت صدرى، وقد جاء الله أباك بسبى، فاذهبى فاستخدميه. فقالت: وأنا والله لقد طحنت حتى مجلت يداى. فأتت النبى ﷺ فقال: ما جاء بك يا بنية ؟ قال: جئت لأسلم عليك. واستحيت أن تسأله ورجعت. فقلت: ما صنعت ؟ قالت: استحييت أن أسأله. فأتيناه معًا. فقلت: يا رسول الله، لقد سنوت حتى اشتكيت صدرى، وقالت فاطمة: وقد طحنت حتى مجلت يدى، وقد جاء الله بسبى وسعة فأخد منا. قال: لا والله لا أعطيكما وأدع أهل الصفة تطوى بطونهم، لا أجد ما أنفق عليهم. ولكن أبيعه وأنفق عليهم [أثمانهم][(١)]؛ فرجعنا. فأتانا رسول الله ﷺ وقد دخلنا قطيفة لنا إذا غطينا رءوسنا انكشفت أقدامنا، وإذا غطينا أقدامنا انكشفت رءوسنا، فلما رأيناه ثرنا!، فقال: مكانكما. ثم قال: ألا أخبركما بخير مما سألتمانى ؟ قلنا: بلى. قال: كلمات علمنيهن جبريل فقال: تسبحان الله دبر كل صلاة عشرًا وتحمدان عشرًا وتكبران عشرًا، وإذا أويتما إلى فراشكما سبحا ثلاثًا وثلاثين واحمدا ثلاثًا وثلاثين وكبرا ثلاثًا وثلاثين. قال على: فما تركتهن منذ علمنيهن رسول الله ﷺ. فقيل له: ولا ليلة صفين ؟ قال: ولا ليلة صفين »[(٢)]. قوله سنوت: استقيت. والسانية: الناضحة التى يستقى عليها الماء.

الحديث السادس والعشرون ومائة: عن البراء بن عازب قال: « بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى اليمن يدعوهم إلى الإسلام ، وكنت فيمن سار معه، فأقام عليهم ستة أشهر لا يجيبونه إلى شيء، فبعث النبى ﷺ على بن أبى طالب، وأمره أن يرسل خالدًا ومن معه إلا من أراد البقاء مع على فيتركه، قال البراء: وكنت مع من عقب مع على، فلما انتهينا إلى أوائل اليمن، وبلغ القوم الخبر فجمعوا له، وصلى

= أبي بكر الصديق وصححه، وتعقبه الذهبي، وقال الهيثمي (١٠/ ٣١٩): إسناده حسن.

(١) المثبت من المسند.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ١٠٦- ١٠٧) عن حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب عن أبيه عن عليّ به. وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٠٣): رواه أحمد، وفيه عطاء بن السائب، وقد سمع منه حماد بن سلمة قبل اختلاطه.

عليّ بنا الفجر، فلما فرغ صف بنا صفًا واحدًا، ثم تقدم بين أيدينا فحمد الله وأثنى عليه، ثم قرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ؛ فأسلمت همدان كلها فى يوم واحد، وكتب بذلك إلى رسول الله ﷺ، فلما قرأ كتابه خرَّ ساجدًا وقال: السلام على همدان، السلام على همدان ». أخرجه أبو عمرو[1].

الحديث السابع والعشرون ومائة: عن عبيدة السلمانى قال: ذكر على الخوارج فقال: فيهم رجل مخدج اليد، لولا أن تبطروا لأخبرتكم بما وعد الله تعالى على لسان نبيه محمد ﷺ لمن قتلهم، قال: فقلت لعلى: أسمعته من رسول الله ﷺ ؟ قال: إى ورب الكعبة، إى ورب الكعبة ». أخرجه مسلم[2].

الحديث الثامن والعشرون ومائة: عن ابن مسعود - رضى الله عنه - « أن رسول الله ﷺ أتى منزل أم سلمة، فجاء على فقال رسول الله ﷺ: هذا قاتل القاسطين والناكثين والمارقين بعدى ». أخرجه الحاكم[3]. القاسطون: الجائرون، من القَسْطِ، بفتح القاف، والقصود وهو الجور، والقِسط بكسر القاف: العدل.

الحديث التاسع والعشرون ومائة: أخرج الطبرانى والحاكم وصححه عن أم سلمة قالت: « كان رسول الله ﷺ إذا غضب لم يجترئ أحد أن يكلمه إلا على - رضى الله عنه »[4].

الحديث الثلاثون ومائة: أخرج الديلمى عن عائشة - رضى الله تعالى عنها- أن النبى ﷺ قال: « خير إخوتى على، خير أعمامى حمزة »[5].

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٢/ ٣٦٩)، وفي الدلائل (٥/ ٣٩٦). وقال في السنن: أخرج البخاري صدر هذا الحديث (٤٣٤٩) ... فلم يسقه. بتمامه وسجود الشكر في تمام الحديث صحيح على شرطه.

(٢) أخرجه مسلم (١٥٥- ١٠٦٦).

(٣) أخرجه البغوي في شرح السنة (٥/ ٤٢٨) رقم (٢٥٥٣) وابن عساكر كما في البداية (٧/ ٣٣٩)، والحاكم في الأربعين كما في كنز العمال (٣٦٣٦١). وينظر الرياض النضرة (٣/ ٢٢٦).

(٤) أخرجه الطبراني (٣٧٠٦- مجمع البحرين) ومن طريقه أبو نعيم في الحلية (٩/ ٢٢٧) وقال الهيثمي (٩/ ١١٩): فيه حسين بن حسن الأشقر، وثقه ابن حبان، وضعفه الجمهور، وبقية رجاله وثقوا. اهـ وأخرجه الحاكم (٣/ ١٣٠) وصححه، وتعقبه الذهبي بقوله: قلت: الأشقر وثق وقد اتهمه ابن عدي، وجعفر تكلم فيه.

(٥) ذكره الهندي في الكنز (٣٢٨٩٣) وعزاه للديلمي في مسند الفردوس.

الحديث الحادى والثلاثون ومائة: أخرج الطبرانى فى الأوسط عن أم سلمة، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « على مع القرآن والقرآن مع على لا يفترقان حتى يردا على الحوض »[١].

الحديث الثانى والثلاثون ومائة: أخرج أبو يعلى عن عائشة - رضى الله عنها -، قالت: « رأيت النبى ﷺ التزم عليًا وقبله وهو يقول: بأبى، الوحيد الشهيد بأبى، الوحيد الشهيد »[٢].

الحديث الثالث والثلاثون ومائة: أخرج الحاكم عن جابر أن النبى ﷺ قال: « على إمام البررة، وقاتل الفجرة، منصور من نصره، مخذول من خذله »[٣].

الحديث الرابع والثلاثون ومائة: أخرج الدارقطنى عن ابن عباس أن النبى ﷺ قال: « على باب حطة، من دخل منه كان مؤمنًا، ومن خرج منه كان كافرًا »[٤].

الحديث الخامس والثلاثون ومائة: عن على الرضى ابن الإمام موسى الكاظم: أن رسول الله ﷺ قال لعلى: « أنت قسيم الجنة والنار، فيوم القيامة تقول النار: هذا لى وهذا لك ». وأخرج الدارقطنى أن عليًا قال للستة الذين جعل الأمر شورى بينهم كلامًا طويلاً من جملته: أنشدكم الله هل فيكم أحد قال له رسول الله ﷺ: أنت قسيم النار يوم القيامة غيرى ؟ قالوا: اللهم لا.

الحديث السادس والثلاثون ومائة: أخرج ابن أبى شيبة أنه ﷺ قال فى مرض موته: « أيها الناس، يوشك أن أقبض قبضًا سريعًا فينطلق بى، وقد قَدمت إليكم القول معذرةً إليكم، ألا إنى مخلف فيكم الثقلين؛ كتاب الله عز وجل، وعترتى أهل بيتى » ثم أخذ بيد على فرفعها فقال: « هذا على مع القرآن، والقرآن مع على، لا

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٣٧٢٤- مجمع البحرين)، وفي الصغير (١/ ٢٥٥) قال الهيثمي (٩/ ١٣٧) قال: فيه صالح بن أبي الأسود، وهو ضعيف. وصححه الحاكم (٣/ ١٢٤)، ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه أبو يعلى (٤٥٧٦). وقال الهيثمي (٩/ ١٤٠-١٤١): فيه من لم أعرفه.

(٣) أخرجه الحاكم (٣/ ١٢٩) وصححه، وتعقبه الذهبي بقوله: قلت: بل والله موضوع، وأحمد ابن يزيد الحراني كذاب، فما أجهلك على سعة معرفتك! وأخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (٦٦٦).

(٤) ذكره المتقي الهندي في الكنز (٣٢٩١٠) وعزاه للدارقطني في الأفراد. وأخرجه ابن الجوزي في العلل (٣٨٤) من طريق الدارقطني، وأعله بحسين الأشقر، ونقل أنه كذاب.

يفترقان حتى يردا على الحوض فاسألهما ما خلفت فيهما »[١].

الحديث السابع والثلاثون ومائة: روى سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، وأبو نعيم، عن على - رضى الله تعالى عنه -، قال فى قوله تعالى: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٢]، قال: قال رسول الله ﷺ: « يا على، إن الله تعالى أمرنى أن أدنيك ولا أقصيك، وأن أعلمك وأن تعى، وحق لك أن تعى، سألت ربى أن يجعلها أذنيك » قال مكحول: وكان على يقول ما سمعت من رسول الله ﷺ شيئًا فنسيته[٢].

الحديث الثامن والثلاثون ومائة: روى الديلمى عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: « أعلم الناس بعدى على بن أبى طالب »[٣].

الحديث التاسع والثلاثون ومائة: روى الطبرانى فى الكبير عن محمد بن عبد الله ابن أبى رافع، عن أبيه، عن جده، أن رسول الله ﷺ بعث عليًا مبعثًا، فلما قدم قال: « الله ورسوله وجبريل عنك راضون »[٤].

الحديث الأربعون ومائة: روى الخطيب والديلمى[٥] عن عائشة - رضى الله عنها -، قالت: قال: رسول الله ﷺ: « ذكر عليّ عبادة »[٦].

الحديث الحادى والأربعون ومائة: روى الديلمى عن أبى ذر، قال: قال رسول الله ﷺ: « عليّ منى ومبين لأمتى ما أرسلت به من بعدى، حبه إيمان وبغضه نفاق »[٧].

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٦٤٤) رقم (١٥٥٥)، والحاكم (٣/ ١٠٩) بنحوه من حديث زيد بن أرقم وآخره: « ثم أخذ بيد على فقال: من كنت وليه فعلى وليه » وقد تقدم آخره قريبًا من حديث أم سلمة.

(٢) أخرجه الطبري (٣٤٧٧١)، وسعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن محكول كما في الدر المنثور (٦/ ٢١٣) وأخرجه الطبري (٣٤٧٧٣)، والواحدي في أسباب النزول (٨٣٨) عن بريدة به. وأخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٦٧) من حديث على.

(٣) ذكره المتقي الهندي في الكنز (٣٢٩٧٧) وعزاه للديلمي عن سلمان.

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (١/ ٣١٩) رقم (٩٤٦)، وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ١٣٤): رواه الطبراني من رواية حرب بن الحسن الطحان عن يحيى بن يعلى، وكلاهما ضعيف.

(٥) في ط: الدئلي، وهو تصحيف. والصحيح ما أثبتنا.

(٦) ذكره الهندي (٣٢٨٩٤) وعزاه للديلمي في مسند الفردوس. وهو في مسند الفردوس برقم (٢٩٧٤).

(٧) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس (٤٠٠٠) وعزاه له المتقي الهندي (٣٢٩٨١).

الحديث الثانى والأربعون ومائة. روى أبو نعيم فى « الحلية » عن على - رضى الله عنه -: أن رسول الله ﷺ قال له: « مرحبًا بسيد المسلمين، وإمام المتقين »[(١)].

الحديث الثالث والأربعون ومائة: روى الديلمى، عن ابن عباس - رضى الله عنهما -، قال: قال رسول الله ﷺ لعلى: « من أحبك فبحبّى أحبك، فإن العبد لا ينال ولايتى إلا بحبك »[(٢)].

الحديث الرابع والأربعون ومائة: روى أبو نعيم فى الحلية، عن عمار بن ياسر، قال: قال رسول الله ﷺ: « يا على، إن الله زينك بزينة لم تزين العباد بزينة أحب إلى الله منها؛ هى زينة الأبرار عند الله؛ الزهد فى الدنيا؛ فجعلك لا ترزأ من الدنيا شيئًا، ولا ترزأ الدنيا منك شيئًا، ووهب لك حب المساكين، فجعلت ترضى بهم أتباعًا، ويرضون بك إمامًا »[(٣)].

الحديث الخامس والأربعون ومائة: روى الخطيب والرافعى عن على - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال له: « سألت الله فيك يا على أربعًا فمنعنى واحدة وأعطانى ثلاثًا: سألت الله أن يجمع عليك أمتى فأبى عَلَيّ، وأعطانى منك أن أول من تنشق الأرض عنه أنا وأنت، ومعى لواء الحمد وأنت تحمله بين يدى؛ تسبق الأولين والآخرين، وأعطانى أنك ولى المؤمنين بعدى »[(٤)].

الحديث السادس والأربعون ومائة: روى ابن عساكر، عن عمار بن ياسر - رضى الله عنه -: أن رسول الله ﷺ قال: « يا على، ستقتلك الفئة الباغية، وأنت على الحق، فمن لم ينصرك يومئذ فليس منى »[(٥)].

الحديث السابع والأربعون ومائة: عن أبى جعفر محمد بن على بن الحسن، قال: نادى ملك من السماء يقال له: رضوان: « لا سيف إلا ذو الفقار، ولا فتى إلا

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٦٦) من حديث الشعبي عن عليّ. وعزاه له الهندي في الكنز (٣٣٠٠٩).

(٢) ذكره الهندي في الكنز (٣٣٠٢٥) وعزاه للديلمي.

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٧١). وعزاه له الهندي في الكنز (٣٣٠٥٣).

(٤) أخرجه الخطيب في التاريخ (٤/ ٣٣٩)، وابن الجوزي في العلل (٣٩٤) وقال: هذا حديث لا يصح.

(٥) ذكره الهندي في الكنز (٣٢٩٧٠) وعزاه لابن عساكر بلفظ: «ياعلى، ستقاتلك الفئة الباغية، وأنت على الحق، فمن لم ينصرك يومئذٍ فليس مني».

على »[1] خرجه الحسن بن عرفة العبدى. قلت: ذو الفقار هو سيف رسول الله ﷺ غنمه يوم بدر، وكان سيف نبيه بن الحجاج فأعطاه النبى ﷺ عليًا كرم الله وجهه. قال أبو العباس: سمى بذلك لأنه كان به حفر صغار. الفقرة: الحفرة الصغيرة التى تكون فيه، والمفقر من السيوف الذى فيه خروز، والعامة تسميه المعَيَّر. وفى ذكرى أن عدة الفقر فى سيفه المذكور - كرم الله وجهه - ست عشرة فقرة.

الحديث الثامن والأربعون ومائة: عن عبد الرحمن بن أبى ليلى، قال: « كان أبى يسمر مع على - رضى الله عنه -، وكان على يلبس ثياب الصيف فى الشتاء وثياب الشتاء فى الصيف، فقيل له: لو سألته! فسأله، فقال على: إن رسول الله ﷺ بعث إليَّ يوم خيبر، وأنا أرمد العين؛ فقلت: يا رسول الله، إنى أرمد العين؛ فتفل فى عينى وقال: « اللهم أذهب عنه الحر والبرد »، فما وجدت حرًا ولا بردًا منذ يومئذ، وقال: « لأعطين الراية غدًا رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، يكون الفتح على يده » فتشوف لها أصحاب رسول الله ﷺ فأعطانيها ». أخرجه الإمام أحمد[2]. وعن جابر بن عبد الله: أن على بن أبى طالب حمل الباب يوم خيبر حتى صعد المسلمون عليه ففتحوها، وبعد ذلك لم يحمله أربعون رجلاً. وفى طريق ضعيف: ثم اجتمع عليه سبعون رجلاً فكان جهدهم أن أعادوا الباب. أخرجها الحاكم[3].

الحديث التاسع والأربعون ومائة: حدثنا إبراهيم بن أحمد الفضائلى بإسناد يرفعه إلى أبى مالك الأشجعى رواه، « أن النبى ﷺ قال: « هبط عليّ جبريل يوم حنين فقال: يا محمد، إن ربك تبارك وتعالى يقرئك السلام، ويقول: ادفع هذه الأترجة إلى ابن عمك ووصيك على بن أبى طالب، قال فدفعتها إليه؛ فوضعها فى كفه، فانفلقت نصفين، فخرج منها رق أبيض مكتوب فيه بالنور: تحية من الطالب الغالب إلى على بن أبى طالب »[4].

---

(١) أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (٧١٥) وينظر: كشف الخفاء (٢/ ٤٨٨).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٩٩)، وابن ماجه (١١٧)، وقال البوصيري في الزوائد (١/ ٧٠): هذا إسناد ضعيف.

(٣) تقدم في فتح خيبر.

(٤) أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (٧٣٢) وقال: هذا حديث لا يشك في وضعه. وأقره السيوطي في اللآلئ (١/ ٣٧٠)، وابن عراق في التنزيه (١/ ٣٦٢).

الحديث الخمسون ومائة: أخرج الديلمى فى « مسند الفردرس »، عن سلمان، عنه ﷺ: « كنت أنا وعلى نورًا بين يدى الله مطبقًا، يسبح الله ذلك النور ويقدسه قبل أن يخلق آدم بأربعة عشر ألف عام، فلما خلق الله آدم ركب ذلك النور فى صلبه فلم يزل فى شيء واحد حتى افترقنا فى صلب عبد المطلب فجزء أنا وجزء على »(١).

الحديث الحادى والخمسون ومائة: عن أم سلمة: « لو لم يخلق عليٌّ ما كان لفاطمة كفؤ ». أخرجه فى « مسند الفردوس »(٢).

الحديث الثانى والخمسون ومائة: عن عليٍّ نفسه: « لو أن عبدًا عبد الله مثل ما قام نوح فى قومه، وكان له مثل أحد ذهبًا فأنفقه فى سبيل الله، ومدَّ فى عمره حتى يحج ألف عام على قدميه، ثم قتل بين الصفا والمروة مظلومًا، ثم لم يوالك يا على - لم يشم رائحة الجنة ولم يدخلها ». أخرجه الديلمى(٣).

الحديث الثالث والخمسون ومائة: عن ابن عباس: « لو اجتمع الناس على حب على بن أبى طالب لما خلق الله النار ». أخرجه الديلمى(٤).

الحديث الرابع والخمسون ومائة: عن حذيفة: « مثل على بن أبى طالب فى الناس مثل ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ فى القرآن ». أخرجه الديلمى أيضًا(٥). انتهى.

قلت: هذا ما ظفرت به مما ورد فى شأنه خاصة، وأما ما ورد فى شأنه مع الواحد أو مع الاثنين أو مع الثلاثة أو مع الأربعة أو مع العشرة فلم أورد منه شيئًا أصلاً، وكذلك ما ورد من الثناء عليه من الصحابة والأكابر والسلف الصالح، وما أثر من كراماته ومكاشفاته وزهده، وورعه وسماحته وحماسته، وفصاحته وعبادته، ومناقبه الحميدة، وشمائله الفريدة، فلم أورد من ذلك شيئًا، إذ لو رمت استيعاب بعض ذلك لخرج الكتاب بذلك عن وضعه المقصود بالذات، فاعتمدت على ما أثبته الأئمة الأثبات، وأودع بطون الكتب المصنفات.

---

(١) ذكره الديلمي في مسند الفردوس (٤٨٨٤).
(٢) ذكره الديلمي في مسند الفردوس (٥١٧٠).
(٣) ذكره ابن عراق في تنزيه الشريعة (١/ ٣٩٨) وعزاه للديلمي.
(٤) ذكره ابن عراق في تنزيه الشريعة (١/ ٣٩٩)، وعزاه للديلمي.
(٥) ذكره الديلمي في مسند الفردوس (٦٧٤٠).

ذكر أقضيته رضى الله عنه

عن زيد بن على، عن أبيه، عن جده قال: أُتى عمر بن الخطاب بامرأة حامل قد اعترفت بالفجور فأمر برجمها، فتلقاها على فقال: ما بال هذه ؟ قالوا: أمر عمر برجمها، فردها على وقال لعمر: هذه سلطانك عليها فما سلطانك على ما فى بطنها ؟ فقال عمر: كل أحد أفقه منك يا عمر، فضمها[١] حتى وضعت غلامًا ثم ذهب بها إليه فرجمها[٢].

وعن [أبي] عبد الرحمن السلمى قال: أتى [عمر][٣] بامرأة أجهدها العطش فمرت براع فاستسقته فأبى أن يسقيها حتى تمكنه من نفسها ففعلت، فشاور الناس فى رجمها فقال على هذه[٤] مضطرة إلى ذلك فخل سبيلها ففعل[٥].

وعن أبى ظبيان، قال: شهدت عمر أتى بامرأة قد زنت؛ فأمر برجمها، فانتزعها على من بين أيديهم فردهم، فرجعوا إلى عمر فقالوا: ردنا على، قال عمر: ما فعل هذا على إلا لشيء، فأرسل إليه فجاء فقال: ما لك رددت هذه ؟ قال: أنا سمعت النبى ﷺ يقول رفع القلم عن ثلاثة: النائم حتى يستيقظ، وعن الصغير حتى يحتلم[٦]، وعن المبتلى حتى يعقل. قال: بلى، قال: فهذه مبتلاة بنى فلان، فلَعَلَّه أتاها وغرَّ بها. قال عمر: لا أدرى. قال على: وأنا لا أدرى. فترك رجمها[٧].

وعن مسروق أن عمر أتى بامرأة قد نكحت فى عدتها ففرق بينهما، وجعل مهرها فى بيت المال، وقال: لا يجتمعان أبدًا، فبلغ ذلك عليًا فقال: إن كان جاهلاً[٨] فلها المهر بما استحل من فرجها، ويفرق بينهما. فإذا انقضت عدتها فهو خاطب من الخطاب. فخطب عمر وقال: ردوا الجهالات إلى السنة. فرجع إلى قول على -

---

(١) في الرياض: فضمنها.
(٢) ذكره المحب الطبري في الرياض النضرة (٣/ ١٦٣) وعزاه لابن السمان في الموافقة.
(٣) الزيادة من الرياض النضرة.
(٤) في ط: هي. والمثبت من الرياض.
(٥) ذكره المحب الطبري (٣/ ١٦٣-١٦٤) وعزاه لابن السمان في الموافقة.
(٦) في الرياض: يكبر.
(٧) أخرجه أحمد (١/ ١٥٤، ١٥٨)، وأبو داود (٤٤٠٢) من طريق عطاء بن السائب عن أبي ظبيان عن علي به. وينظر: الرياض النضرة (٣/ ١٦٤)، مع اختلاف يسير.
(٨) في الرياض: جهلاً.

رضى الله عنهما[١]- خرج جميع ذلك ابن السمان فى « الموافقة ». وأخرج حديث أبى ظبيان الإمام أحمد.

وعن ابن سيرين: أن عمر سأل الناس: كم يتزوج المملوك ؟ فلم يجب أحد. فقال لعلى: إياك أعنى يا صاحب المعافرى -رداء كان عليه- فقال: اثنتين.

وعن محمد بن زياد قال: كان عمر حاجًا فجاءه رجل قد لطمت عينه فقال: من لطم عينك ؟ قال: على بن أبى طالب. فقال: لقد وقعت عليك عين الله، ولم يسأل ما جرى منه ولم لطمه ؟، فجاء على والرجل عند عمر، فقال على: هذا الرجل يطوف وهو ينظر إلى الحُرم فى الطواف، فقال عمر: أحسنت يا أبا الحسن. ثم أقبل على الرجل فقال: وقعت عليك عين من عيون الله عز وجل؛ فلا حق لك.

وعن حنش بن المعتمر: أن رجلين أتيا امرأة من قريش، واستودعاها مائة دينار. وقالا: لا تدفعيها إلى واحد منا دون صاحبه حتى نجتمع. فلبثا حولاً ثم جاء أحدهما إليها وقال: إن صاحبى قد مات فادفعى إليَّ الدنانير، فأبت. فثقل عليها بأهلها، فلم يزالوا بها حتى دفعتها إليه. ثم لبث حولاً آخر فجاء الآخر وقال: ادفعى إليَّ الدنانير، فقالت: إن صاحبك جاءنى فزعم أنك قد مت فدفعتها إليه. فاختصما إلى عمر، فأراد أن يقضى عليها، وروى أنه قال لها: ما أراك إلا ضامنة. فقالت: أنشدك الله أن تقضى بيننا أو ادفعنا إلى على بن أبى طالب، فدفعهما عمر إلى على، وعرف أنهما قد مكرا بها فقال: أليس قلتما: لا تدفعيها إلى رجل منا دون الآخر ؟ قال: بلى. قال: فإن مالك عندنا، اذهب فجئ بصاحبك حتى ندفعها إليكما.

وعن أبى سعيد الخدرى، سمع عمر يقول لعلى - وقد سأله عن شيء فأجابه: أعوذ بالله أن أعيش فى قوم لست فيهم يا أبا الحسن. وعن يحيى بن عقيل قال: كان عمر يقول لعلى إذا سأله ففرج عنه: لا أبقانى الله بعدك يا على[٢]. وعن محمد بن يحيى بن حبان بن منقذ، كان تحته امرأتان هاشمية وأنصارية، فطلق الأنصارية، ثم مات على رأس الحول، فقالت: لم تنقض عدتى، فارتفعوا إلى عثمان، فقال: هذا

---

(١) ذكره المحب الطبري في الرياض النضرة (٣/ ١٦٤)، وعزاه لابن السمان في الموافقة.

(٢) ذكر كل هذه الآثار المحب الطبري في الرياض النضرة (٣/ ١٦٥-١٦٦) وعزاها لابن السمان في الموافقة.

ليس لى به علم، فارتفعوا إلى على بن أبى طالب فقال: تحلفين عند منبر رسول الله ﷺ أن لم تحيضى ثلاث حيضات ولك الميراث، فحلفت فاشتركت(١) فى الميراث. أخرجه ابن حرب الطائى(٢).

وعن زر بن حبيش قال: جلس اثنان يتغديان، مع أحدهما خمسة أرغفة، ومع الآخر ثلاثة أرغفة، وجلس إليهما ثالث، واستأذن فى أن يأكل من طعامهما فأذنا له، فأكلوا على السواء ثم ألقى إليهما ثمانية دراهم وقال: هذا عوض عما أكلت من طعامكما، فتنازعا فى قسمها، فقال صاحب الخمسة: لى خمسة ولك ثلاثة، وقال صاحب الثلاثة: بل نقسمها على السواء. فترافعا إلى على - كرم الله وجهه - فقال لصاحب الثلاثة: اقبل من صاحبك ما عرض عليك. قال: فقال ما أريد إلا الحق. فقال على: لك الحق درهم واحد وله سبعة. قال: وكيف ذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال: لأن الثمانية أربعة وعشرون ثلثًا، لصاحب الخمسة خمسة عشر ولك تسعة، وقد استويت فى الأكل وأكلت ثمانية وبقى لك واحد، وأكل صاحبك ثمانية وبقى له سبعة، وأكل الثالث ثمانية سبعة لصاحبك وواحد لك. فقال: رضيت الآن. خرجه الخلعى(٣).

وعن على - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ بعثه إلى اليمن فوجد أربعة قد وقعوا فى حفرة حفرت ليصطادوا فيها الأسد، سقط أولا رجل فتعلق بآخر وتعلق الآخر بآخر حتى تساقط الأربعة، فجرحهم الأسد فماتوا من جراحته، وتنازع أولياؤهم حتى كادوا يقتتلون، فقال على: أنا أقضى بينكم، فإن رضيتم فهو القضاء، وإلا حجزت بعضكم عن بعض حتى تأتوا رسول الله ﷺ ليقضى بينكم. اجمعوا من قبائل الذين حفروا البئر ربع الدية وثلثها ونصفها ودية كاملة؛ فللأول ربع الدية؛ لأنه أهلك من فوقه، والذى يليه ثلثها لأنه أهلك من فوقه، وللثالث النصف؛ لأنه أهلك من فوقه، وللرابع دية كاملة. فأبوا أن يرضوا، فأتوا رسول الله ﷺ [فلقوه](٤) عند مقام

(١) في الرياض: فأشركت.
(٢) ذكره المحب الطبري في الرياض النضرة (٣/ ١٦٦) وعزاه لابن حرب الطائي.
(٣) ذكره المحب الطبري في الرياض النضرة (٣/ ١٦٨) وعزاه للخلعي. وأخرجه ابن عبد البر في الاستيعاب (٣/ ٢٠٧-٢٠٨).
(٤) المثبت من الرياض النضرة.

إبراهيم فقصوا عليه القصة، فقال: أنا أقضى بينكم واحتبى ببردة، فقال رجل من القوم: إن عليًا قضى بيننا. فلما قصوا عليه ما قضاه[1] أجازه. أخرجه أحمد فى المناقب[2].

وعن الحارث عن على: أنه جاءه رجل بامرأة فقال: يا أمير المؤمنين، دلست على هذه وهى مجنونة. قال: فصعَّد على بصره فيها وصوبه، وكانت امرأة جميلة، فقال: ما يقول هذا ؟ قالت: والله يا أمير المؤمنين ما بى جنون، ولكنى إذا كان ذلك الوقت غلبتنى غشية، فقال على: خذها، ويحك!، وأحسن إليها، فما أنت لها بأهل. أخرجه أبو طاهر السلفى[3]. قلت: هذه الربوح من النساء فسل عنها وتأمل قول الإمام لزوجها: ما أنت لها بأهل - رضى الله عنه وكرم وجهه[4].

وعن زيد بن أرقم قال: أتى على باليمن بثلاثة نفر وقعوا على جارية فى طهر واحد، فولدت ولدًا فادعوه، فقال لأحدهم: تطيب به نفسًا لهذا ؟ قال: لا. وقال للآخر: تطيب به نفسًا لهذا ؟ قال: لا. قال: أراكم شركاء متشاكسين، إنى مقرع بينكم؛ فمن أصابته القرعة غرمته ثلثى القيمة[5] وألزمته الولد، فذكروا ذلك للنبى ﷺ فقال: ما أجد فيها إلا ما قال على[6].

وقد روى عنه - رضى الله عنه - أنه كان على منبر الكوفة فسأله سائل عن رجل هلك وخلَّف أبوين وبنتين وزوجة، وهذه المسألة من أربعة وعشرين، وتعول بثمنها وتسمى « المنبرية »؛ لأنه سئل عنها وهو على المنبر يخطب وكانت خطبته على حرف العين، فقال: الحمد لله الذى يحكم بالحق قطعًا، ويجزى كل نفس بما تسعى، وإليه المآب والرجعى، فسئل عن هذه فقال: بديهة على فقر الخطبة: صار ثمن المرأة تسعًا. ثم استمر على أسلوب خطبته، رضى الله عنه وكرم وجهه[7].

---

(١) في الرياض: القصة.
(٢) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٧٧، ١٥٢) من طريق حماد بن سلمة عن سماك عن حنش عن علي به.
(٣) ذكره المحب الطبري في الرياض النضرة (٣/ ١٦٩) وعزاه للسلفي.
(٤) أخرجه ابن عبد البر في الاستيعاب (١/ ٤٣٩- ٤٤٠). وينظر سبل الهدى والرشاد (١١/ ٦٨).
(٥) في ط: الدية. والمثبت من الرياض.
(٦) ذكره المحب الطبري في الرياض النضرة (٣/ ١٦٩) وعزاه للإمام أحمد في المناقب.
(٧) أخرجه البيهقي (٦/ ٢٥٣) وذكره الحافظ في التلخيص (٣/ ١٩٢-١٩٣) وعزاه لأبي عبيد أيضًا وقال الحافظ: وليس عندهما أن ذلك كان على المنبر وقد ذكره الطحاوي من رواية =

وعن [جميل] بن عبد الله بن زيد قال: ذكر عند النبى ﷺ قضاء قضى به على فأعجب النبى ﷺ وقال: « الحمد لله الذى جعل فينا الحكمة أهل البيت ». أخرجهما أحمد فى المناقب(١).

وعن ابن إسحاق: أن عثمان لما قتل، بويع على بن أبى طالب بيعة العامة فى مسجد رسول الله ﷺ، وبايع له أهل البصرة، وبايع له بالمدينة طلحة والزبير، قال أبو عمرو: واجتمع على بيعته المهاجرون والأنصار، وتخلف عن بيعته نفر فلم يكرههم، وسئل عنهم فقال: أولئك قوم قعدوا عن الحق، ولم يقوموا مع الباطل - كما تقدم ذكر ذلك. وتخلف عنه معاوية ومن معه بالشام، وكان منهم فى « صفين » ما كان، ثم خرج عليه الخوارج فكفروه وكل من معه؛ إذ رضى بالتحكيم فى دين الله بينه وبين أهل الشام، فقالوا: حكمت الرجال فى دين الله، والله تعالى يقول: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ [يوسف: ٤٠]، فقال على: « كلمة حق أريد بها باطل ! » ثم اجتمعوا وشقوا عصا المسلمين، ونصبوا راية الخلاف، وسفكوا الدماء وقطعوا السبيل؛ فخرج إليهم بمن معه فرام رجعتهم فأبوا إلا القتال، فقاتلهم بـ« النهروان » فقتلهم واستأصل جمهورهم، ولم ينج منهم إلا القليل. ثم تشاوروا وتواعد منهم أولئك الثلاثة النفر: عبد الرحمن بن ملجم، والبرك بن عبد الله التميمى، وعمرو بن بكر التميمى - أيضًا - على قتل أولئك الثلاثة على ومعاوية وعمرو بن العاص، فأما البرك؛ فإنه ضرب معاوية فأصاب أوراكه وكان عظيم الأوراك فقطع منه عرق النكاح فلم يولد له بعد ذلك، فلما أخذ قال: الأمان والبشارة؛ فقد قتل على فى هذه الليلة، فاستبقاه معاوية حتى جاء الخبر بذلك، فقطع يده ورجله وأطلقه، فرحل إلى البصرة فأقام بها حتى بلغ زيادًا أنه تزوج وولد له، فقال: أيولد له وأمير المؤمنين لا يولد له ؟ فقتله. قالوا: وأمر معاوية باتخاذ المقصورة من ذلك الوقت، يعنى وقت أن ضرب.

وأما عمرو بن بكر؛ فإنه رصد عمرو بن العاص فاشتكى عمرو بطنه ذلك اليوم فلم يخرج للصلاة، فاستناب رجلاً من الناس من بنى سهم يقال له: خارجة، فضربه

= الحارث عن علي فذكر فيه المنبر. اهـ.

(١) ذكره المحب الطبري في الرياض النضرة (٣/ ١٦٩- ١٧٠) وعزاه لأحمد في المناقب.

عمرو بن بكر فقتله فأخذ، فلما دخل به على عمرو بن العاص ورآهم يخاطبونه بالإمارة قال: أو ما قتلت عمرًا ؟ قيل: لا، وإنما قتلت خارجة، فقال: أردت عمرًا والله أراد خارجة، فقتله عمرو بن العاص، فسلم معاوية وعمرو وفاز على بالشهادة، رضى الله عنه وكرم وجهه[١]: [من البسيط]

فليتَهَا إذْ فدَتْ عمرًا بخارجةٍ فدَتْ عليًّا بمَنْ شاءَتْ من البَشَرِ

وعن الزهرى قال: قدمت دمشق وأنا أريد العراق، فأتيت عبد الملك لأسلم عليه، فوجدته فى قبة على فراش يفوت القائم وتحته سماطان، فسلمت عليه ثم جلست؛ فقال لى: يابن شهاب، أتعلم ما كان ببيت المقدس صباح مقتل على ؟ فقلت: لا[٢]، فقال: هلم. فقمت من وراء الناس حتى أتيت خلف القبة، وحول إليّ وجهه، وأحنى عليّ، فقلت: ما كان ؟ فقال: لم يرفع حجر من بيت المقدس إلا وجد تحته دم، فقال: لم يبق أحد يعرف هذا غيرى وغيرك، فلا يسمعوا منك. فما حدثت به حتى ماتوا. أخرجه ابن الضحاك فى الآحاد والمثانى[٣].

ذكر أولاده رضى الله تعالى عنه وكرم وجهه :

كان له من الولد أربعة عشر ذكرًا وثمان عشرة أنثى: الحسن والحسين، وسيأتى ذكرهما؛ هذا عند خلافته وهذا عند دعوته. ومحسن مات صغيرًا، أمهم فاطمة بنت رسول الله ﷺ[٤]، ومحمد الأكبر أمه خولة بنت إياس بن جعفر الحنفية، ذكره الدارقطنى قال: وأخته لأمه عوابة بنت أبى مكمل الغفارية، وقيل: بل كانت أمه من سبى اليمامة فصارت إلى على، وإنما كانت أمه لبنى حنيفة سندية سوداء ولم تكن من أنفسهم، أعطاه إياها أبو بكر من سبى بنى حنيفة. أخرجه ابن السمان[٥].

وعبد الله قتله المختار، وأبو بكر قتل بـ« الطف » مع الحسين، أمهما ليلى بنت مسعود[٦] بن خالد النهشلى، وهى التى تزوجها عبد الله بن جعفر خلف عليها بعد

---

(١) ينظر: الاستيعاب (٣/ ٢١٨-٢١٩)، والرياض النضرة (٣/ ٢٣٤- ٢٣٦).
(٢) في الرياض النضرة: نعم. ولعل الصواب ما أثبت، والسياق يدل عليه.
(٣) ذكره المحب الطبري في الرياض النضرة (٣/ ٢٣٧) وعزاه لابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني.
(٤) ينظر: الرياض النضرة (٣/ ٢٣٩)، وصفة الصفوة (١/ ١٦٢- ١٦٣).
(٥) ذكره المحب الطبري في الرياض النضرة (٣/ ٢٣٩) وعزاه لابن السمان في الموافقة.
(٦) في الرياض: معوذ.

عمه على جمع بين زوجة على وابنته ؛ فولدت له صالحًا وأم أبيها وأم محمد بني عبد الله ابن جعفر؛ فهم إخوة أبى بكر وعبد الله ابنى على لأمهما. ذكره الدارقطنى. والعباس الأكبر وعثمان وجعفر وعبد الله قتلوا مع الحسين - أيضًا - أمهم أم البنين بنت حرام بن خالد الوحيدية[١] الكلابية. ومحمد الأصغر أمه أم ولد قتل مع الحسين، ويحيى وعون، أمهما أسماء بنت عميس الخثعمية، فهما أخوا بنى جعفر ابن أبى طالب، وأخوا محمد بن أبى بكر لأمهم؛ لأن عليًا تزوج أسماء هذه بعد أبى بكر الصديق، وقد أتت من أبى بكر بمحمد. وأبو بكر تزوجها بعد قتل جعفر بن أبى طالب فى غزوة مؤتة، بعد أن ولدت منه عدة أولاد. وعمر الأكبر، أمه أم حبيب الصهباء التغلبية، سبية سباها خالد بن الوليد فى الردة، فاشتراها على كرم الله وجهه. ومحمد الأوسط، أمه أمامة بنت أبى العاص من زينب بنت النبى ﷺ[٢].

ذكر الإناث: أم كلثوم الكبرى، وزينب الكبرى، شقيقتا الحسن والحسين، ورقية شقيقة عمر الأكبر من أم حبيب المذكورة، وأم الحسن ورملة الكبرى، أمهما أم سعد بنت عروة بن مسعود الثقفى، وأم هانئ وميمونة ورملة الصغرى وزينب الصغرى وفاطمة وأمامة وخديجة وأم الكرام وأم سلمة وأم جعفر وجمانه ونقية ونفيسة لأمهات [أولاد][٣] شتى، ذكرهم ابن قتيبة وصاحب « الصفوة »[٤]، فجملتهم اثنان وثلاثون ولدًا، وعدهم الحافظ محمد بن يوسف الشامى فى سيرته سبعة وثلاثين: عشرين ذكرًا، وسبع عشرة أنثى. الحسن والحسين ومحسن ومحمد الأكبر وعمر الأكبر والعباس الأكبر، كلهم أعقبوا، ومحمد الأصغر قتل بـ« الطائف »[٥]، والعباس الأصغر وعمر الأصغر وقتل بـ«الطف»، وعثمان طفل، وجعفر قتل بـ « الطف »، وجعفر مات طفلًا، وعبد الله الأكبر قتل بـ« الطف »، وعبد الله مات طفلًا، وأبو على يقال: قتل بـ« الطف »، وعبد الرحمن وحمزة ورجاء وأبو بكر عتيق، يقال: قتل بـ« الطف »، وعون درج، ويحيى مات طفلًا. وبناته: زينب

---

(١) في ط: جد لحية. والمثبت من الرياض.
(٢) ينظر: المعارف لابن قتيبة (٢١٠-٢١١)، الرياض النضرة (٣/ ٢٣٩-٢٤٠).
(٣) المثبت من الصفوة والرياض.
(٤) ينظر: المعارف (٢١١) صفة الصفوة (١/ ١٦٢-١٦٣) الرياض النضرة (٣/ ٢٤٠).
(٥) في ط: الطف. والمثبت من سبل الهدى والرشاد (١١/ ٢٨٨).

الكبرى وزينب الصغرى وأم كلثوم الصغرى ورقية الكبرى ورقية وفاطمة الصغرى وفاخِتة وأمة الله وجمانة ورملة وأم سلمة وأم الحسين وأم الكرام وهى نفيسة وميمونة وخديجة وأمامة فالجميع سبعة وثلاثون[١]، العقب منه فى الحسن والحسين ومحمد ابن الحنفية وعمر والعباس، هؤلاء الخمسة.

وتزوج بنات على بنو عقيل وبنو العباس ما خلا أم كلثوم بنت فاطمة كانت تحت عمر بن الخطاب فولدت له زيدًا ورقية ابنى عمر بن الخطاب، ثم مات عنها عمر فتزوجها بعدهُ عبد الله بن جعفر فمات عنها، ثم تزوجها بعده أخوه محمد بن جعفر فجاء منها ببنت، ثم مات عنها محمد فتزوجها عون بن جعفر أخوهما فماتت عنده. وأم الحسن تزوجها جعفر بن هبيرة المخزومى، وفاطمة تزوجها سعيد بن الأسود من بنى الحارث بن فهر[٢].

كانت خلافته - رضى الله تعالى عنه - أربع سنين وتسعة أشهر ويومًا واحدًا ؟ وكانت مدة إقامته بالمدينة بعد أن ولى الخلافة أربعة أشهر، ثم صار إلى العراق، وقتل بالكوفة.

وللناس خلاف فى مدة عمره قد تقدم، وكذلك فى قدر خلافته، رضى الله عنه وكرم الله وجهه[٣].

ذكر شيء مما أثر من حكمه وكلماته وأشعاره

كان - رضى الله عنه - أفصح الناس وأعلمهم بالله، وأشدهم حبًا وتعظيمًا لخدمة لا إله إلا الله. وقيل له: ألا تحرس نفسك ؟ قال: حارس كل إنسان أجله، وإن الأجل جنة حصينة. وقال - رضى الله عنه -: كونوا بقبول العمل أشد اهتمامًا منكم بالعمل؛ فإنه لن يقبل عمل مع التقوى، وكيف يقبل عمل متقبل ؟ وقال - رضى الله عنه وكرم وجهه -: ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكن الخير أن يكثر علمك وحلمك، وتكون مشغولاً بعبادة ربك، فإن أحسنت حمدت الله تعالى، وإن أسأت استغفرت الله، ولا خير فى الدنيا إلا لأحد رجلين: رجل أذنب ذنبًا فهو

(١) ينظر سبل الهدى والرشاد (١١/ ٢٨٨).
(٢) ينظر: الرياض النضرة (٣/ ٢٤٠-٢٤١).
(٣) ينظر: مصادر ترجمة سيدنا على بن أبي طالب، رضي الله عنه.

يتدارك ذلك بتوبة، ورجل يسارع فى الخيرات.

وقال - رضى الله تعالى عنه -: « احفظوا عنى خمسًا فلو ركبتم الإبل فى طلبهن لا تبلغوهن: لا يرجو عبد إلا ربه، ولا يخاف إلا ذنبه، ولا يستحى جاهل أن يسأل عالمًا بعلم، ولا يستحى عالم إذا سئل عما لا يعلم أن يقول: لا أعلم، الله أعلم. والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا إيمان لمن لا صبر له ».

وقال - رضى الله تعالى عنه -: « إن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى وطول الأمل؛ أما اتباع الهوى؛ فبعيد عن الحق، وأما طول الأمل؛ فينسى الآخرة. ألا وإن الدنيا قد ترحلت مدبرة، وإن الآخرة قد ترحلت مقبلة، ولكل واحدة منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغدا حساب ولا عمل. ألا إن الفقيه - كل الفقيه - الذى لا يُقَنِّطُ الناس من رحمة الله، ولا يؤمنهم من عذاب الله، ولا يرخص لهم فى معاصى الله، ولا يدع القرآن رغبة عنه إلى غيره. ولا خير فى عبادة لا علم فيها، ولا خير فى عمل لا فهم فيه، ولا خير فى قراءة لا تدبر فيها ».

وقال - رضى الله تعالى عنه -: « كونوا ينابيع العلم، مصابيح الليل، خلق الثياب، جدد القلوب، تُعرفون فى ملكوت السماء، وتذكرون فى الأرض ».

وقال - رضى الله تعالى عنه -: « يأيها الناس، إنكم والله لو حننتم حنين الواله الثكلان، وجأَرتم جؤار مبتلى الرهبان، وخرجتم من الأموال والأولاد فى التماس القرب إلى الله عز وجل، وابتغاء رضوانه، وارتفاع درجة عنده، أو غفران سيئة - كان ذلك قليلاً فيما تطلبون جزيل ثوابه، والخوف من عذابه. والله لو سالت عيونكم رغبة ورهبة إليه سبحانه وتعالى، ثم عُمِّرْتُمْ عمر الدنيا مجدين فى الأعمال الصالحة، ولم تبقوا شيئًا من جهدكم لما دخلتم الجنة بأعمالكم؛ ولكن برحمته سبحانه وتعالى ». جعلنا الله وإياكم من التابعين والعابدين.

وقال - رضى الله تعالى عنه - لكُمَيْل بن زياد: القلوب أوعية فخيرها أوعاها. احفظ ما أقول لك: الناس ثلاثة: فعالم ربانى، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق، مع كل ريح يميلون، لم يستنيروا بنور العلم، ولم يلجئوا إلى ركن وثيق، العلم خير لك من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، العلم

يزكو [على العمل][١] والمال تنقصه النفقة، العلم حاكم والمال محكوم عليه، محبة العالم دين يدان بها، العلم يكسب العالم الطاعة فى حياته، وجميل الأحدوثة بعد موته، ومنفعة المال تزول بزواله، مات خزان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقى الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم فى القلوب موجودة. إن ههنا- وأشار إلى صدره - علمًا جمًا لو أصبت له حملة، بلى أصيب لفتى غير مأمون عليه، يستعمل آلة الدنيا للدين، فيستظهر بحجج الله تعالى على كتابه، وبنعمه على عباده، وينقاد لأهل الباطل[٢]، لا بصيرة له فى أحنائه[٣]، ينقدح الشك فى قلبه بأول عارض من شبهة، منهومًا للذات، سلس القياد للشهوات، أو مغرى بجمع الأموال والادخار، أقرب شبهًا بِهِمُ الأنعام السائمة، كذلك يموت العلم بموت حامله. والله يأبى أن تخلو الأرض من قائم لله عز وجل بحجته؛ لئلا تبطل حجج الله وبيناته، أولئك هم الأقلون عددا، الأعظم عند الله قدرا، بهم يدفع الله عز وجل عن حججه حتى يؤديها إلى نظرائهم، ويزرعها فى قلوب أشياعهم[٤]، هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فاستلانوا ما استوعر منه المشركون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى[٥]، أولئك خلفاء الله فى بلاده، ودعاته إلى دينه. هاه هاه شوقًا إلى رؤيتهم. استغفر الله. انصرف إذا شئت[٦].

وعن ابن عباس - رضى الله تعالى عنهما - قال: ما انتفعت بكلام بعد النبى ﷺ إلا بشيء كتبه إليّ على بن أبى طالب؛ فإنه كتب: بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد، يا أخى، فإنك تسر بما يصل إليك مما لم يكن يفوتك، ويسوؤك ما لم تدركه، فما نلت يا أخى من الدنيا فلا تكن به فرحا، وما فاتك فلا تكن به حزينا[٧]، وليكن عملك لما بعد الموت. والسلام[٨].

---

(١) المثبت من سبل الهدى والرشاد.
(٢) في السبل: الحق.
(٣) في السبل: إخبائه.
(٤) في السبل: ويزرعوها في قلوب أشباههم.
(٥) في السبل: بالنظر إلى الأعلى.
(٦) ذكر كل هذه الإمام الصالحي في سبل الهدى والرشاد (١١/ ٢٩٨-٣٠٠).
(٧) في السبل: عليه حزنا.
(٨) ذكره المحب الطبري في الرياض النضرة (٣/ ٢٠١) وعزاه للمخلص.

ومن كلامه - رضى الله تعالى عنه - لو انكشف الغطاء ما ازددت يقينا. وقال: الزهد فى كلمتين من القرآن ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ [الحديد: ٢٣]. ومن كلامه فى المناجاة: كفانى غنًى أن تكون لى ربا، وكفانى فخرا أن أكون لك عبدا. أنت لى كما أحب، فوفقنى لما تحب[١].

ومن كلامه فى العلم: المرء مخبوء تحت طى لسانه، لا تحت طيلسانه، فتكلموا تعرفوا ما ضاع امرؤ عرف قدره.

ومن كلامه فى الأدب: أنعم على من شئت تكن أميره، واستغن عمن شئت تكن نظيره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره. وقال - رضى الله عنه -: من وسع عليه فى دنياه فلم يعلم أنه مُكِرَ به فهو مخدوع فى عقله[٢]. وقال - رضى الله عنه -: الدنيا جيفة، فمن أراد شيئًا منها فليصبر على مخالطة الكلاب[٣]. وله كلمات كثيرة مشهورة قد أفردت بالتصنيف والجمع، وقد قرأت منها نسخة فى نحو الثلاثة كراريس، رضى الله عنه.

وفى سيرة الشامى: أتى - رضى الله عنه - بفالوذج فوضع بين يديه فقال: إنك طيب الرائحة، حسن اللون، طيب الطعم، ولكن أكره أن أعود نفسى ما لم تعتد. وكان بالخورنق وهو يرعد بردًا تحت قطيفة، فقيل له: إن الله قد جعل لك ولأهل بيتك فى هذا المال حظًّا، فقال: والله ما أرزؤكم من مالكم شيئًا، إنها لقطيفتى التى خرجت بها من المدينة[٤].

ومما يروى من شعره - رضى الله تعالى عنه - قوله: [من الوافر]

حقيقٌ بالتواضُعِ مَنْ يموتُ ويكفى المرءَ مِنْ دنياهُ قوتُ
فما للمرءِ يصبحُ ذا هُمُوم وحرصٍ ليس تدركُهُ النعوتُ
صنيعُ مليكِنَا حَسَنٌ جميلٌ وما أرزاقُهُ عنا تَفُوتُ

وقال جوابًا لمعاوية عن كتاب منه يفتخر فيه: [من الوافر]

محمدٌ النبيُّ أخِى وصِهْرِي وحمزَةُ سيِّدُ الشهداءِ عَمِّى

---

(١) ينظر: سبل الهدى والرشاد (١١/ ٣٠١- ٣٠٤).
(٢) في السبل: عن غفلة.
(٣) ينظر: سبل الهدى والرشاد (١١/ ٣٠١).
(٤) ينظر: سبل الهدى والرشاد (١١/ ٣٠١).

وجعفرَ[١] الذى يُمسِى ويُضحِي يطيرُ مع الملائكةِ ابنُ أُمّي
وبنتُ محمَّدٍ سَكَنِى وعِرسي توسَّط لَحمهَا بدمِى ولَحمِي
وسبطا أَحمَدٍ ولداي مِنهَا فمن فِيكُمْ[٢] له قسْمٌ كقسْمِي
سبقْتُكُمُ إلى الإسلام طُرًّا صغيرًا ما بلغْتُ أوانَ حِلْمِي
وأوجَبَ لى الولاءَ معًا عليْكُمْ رسول الله يَوْمَ غديرِ خمٍّ

كتبها إلى معاوية حين أرسل إليه معاوية كتابًا يقول فيه: يا أبا الحسن، إن لى فضائل كثيرة، كان أبى سيد - أو قائد - قريش فى الجاهلية، وصرت ملكًا فى الإسلام، وأنا صهر رسول الله ﷺ وخال المؤمنين، وكاتب الوحى. فقال على: أَبالفضائل يفخر عليَّ ابن أكالة الأكباد؟!، فكتبها وأرسلها إليه[٣].

قال أبو عمرو الزاهد: سمعت ثعلبًا يقول: اجتمعت رواة الشعر من الكوفيين والبصريين فلم يزيدوا على عشرة أبيات صحيحة لأمير المؤمنين على، وأجمعوا أن ما كان زائدًا على العشرة فهو منحول، ومن الصحيح قوله فى السندرة: [من الرجز]

أنا الذى سَمَّتْنِ أمِّى حيدرَهْ
كليثِ غاباتٍ كريهِ المنظرَهْ
أفيهِمُ بالكيلِ كَيْلَ السندرَهْ
أضربُهُمْ ضربًا يبينُ الفقَرَهْ
وأترُكُ القِرْنَ بقاعٍ مقفرَهْ
أقتُلُ منهُمْ سبعَةً وعشرَهْ
كلُّهُمُ أهلُ فسوقٍ فَجَرَهْ[٤]

وقال محمد بن عمرو البلخى: أنشدنا أبو محمد بن محمد القاضى عن أبيه عن جده لأمير المؤمنين على - كرم الله وجهه - قوله: [من الوافر]

أتَم الناسِ أعرفُهُمْ بقصَّهْ وأقمعُهُمْ لشهوتِهِ وحِرْصِهْ

---

(١) في السبل: جعفرنا.
(٢) في السبل: فأيكم.
(٣) ينظر: سبل الهدى والرشاد (١١/ ٣٠١).
(٤) ينظر: سبل الهدى والرشاد (١١/ ٣٠١، ٣٠٢).

فدانِ على السلامةِ مَنْ تُدَانِي ... ومَنْ لا تَرْضَ صحبتَهُ فأقْصِهْ
ولا تستَغْلِ عافيةً بشَيْءٍ ... ولا تستَرْخِصَنَّ أذى كرخصِهْ
وخَلِّ الفحْصَ ما استغنيتَ عنه ... فكَمْ مستجلبٍ عطبًا بفحصِهْ

ومما ينسب إليه كرم الله وجهه: [من الطويل]

ألا هَلْ إلى طُولِ الحياةِ سبيلُ ... وأنَّى وهذا الموتُ لَيْسَ يحولُ
وإنِّى وإنْ أصبَحْتُ بالموتِ موقنًا ... فلى أَمَلٌ دونَ اليقينِ طويلُ
وللدهرِ ألوانٌ تروحُ وتَغْتَدِي ... وإنَّ نفوسًا بينهُنَّ تسيلُ
أرى علَلَ الدنْيَا علَيَّ كثيرةً ... وصاحبُهَا حتى المماتِ عليلُ
إذا انقطَعَتْ عنِّى مِنَ العيشِ مُدَّتي ... فإنَّ بكاءَ الباكياتِ قليلُ
وإنَّ افتقادِى فاطمًا بعد أحمدٍ ... دليلٌ على ألاَّ يدومَ خليلُ
ولم أرَ إنسانًا يرى عيبَ نفسِهِ ... وإنْ كان لا يَخْفَى عليه جَمِيلُ
ومَنْ ذا الذى يَنْجُو من الناسِ سالمًا ... وللناسِ قَالٌ بالظنونِ وقيلُ
أَجَلَّكَ قومٌ حِينَ صرْتَ إلى الغنَى ... وكُلُّ غنيٍّ فى العيونِ جليلُ
ولَيْسَ الغنَى إلا غنى زَيَّنَ الفتَى ... عشيَّة يُقْرِى أو غداةَ يُنِيلُ
ولم يفتقرْ يومًا وإنْ كان معدمًا ... سخيٌّ ولم يستَغْنِ قَطُّ بخيلُ

ومنه قوله - كرم الله وجهه - يمدحه ﷺ: [من الطويل]

أَقِيكَ بنَفْسِى أيها المصطفَى الَّذِي ... هَدَانا به الرحمنُ مِنْ غُمَّةِ الجهلِ
وتَفْدِيكَ حوبائى وما قَدْرُ مهجتى ... ومَنْ أنتمِى منه إلى الفَرْعِ والأصْلِ
ومَنْ كان لى مذ كُنْتُ طفلاً ويافعًا ... وأنعشَنِى بالعلِّ منه وبالنَّهْلِ
ومَنْ جدهُ جَدِّى ومَنْ عمه أبي ... ومن أهْلُهُ أمِّى ومن بِنْتُه أهْلِي
ومَنْ حينَ آخَى بين مَنْ كان حاضرًا ... دعانى وآخانِى وبَيَّن مِنْ فضلى
لكَ الفضْلُ إنى ما حييتُ لشاكرٌ ... لإحسانِ ما أوليتَ يا خاتَمَ الرسْلِ

قلت: ومن الصحيح ما أورده المجد الفيروزابادى، صاحب «القاموس» فيه نقلاً عن الملا فى قوله: [من البسيط]

تلْكُمْ قريشٌ تمنَّانى لتَقْتُلَنِى ... فلا وربِّكَ ما برُّوا ولا ظَفِرُوا
فإنْ هلكْتُ فرهْنٌ مهجَتِى لَهُمُ ... بذاتِ ودقينِ لا تبقِى ولا تذرُ

ونقل عنه أنه لم يصح عن على غيرهما وهو محجوج بنقل الثقات غيره غيرهما.

ومن ذلك ما رواه ابن عساكر عن نبيط الأشجعى قال: قال على رضى الله عنه:

إذا اشتملَتْ على اليأسِ القلوبُ ... وضاقَ بما بِهِ الصدْرُ الرحيبُ
وأوطنَتِ المكارِهُ واطمأنَّتْ ... وأَرْسَتْ[1] فى أماكِنِهَا الخطُوبُ
ولمْ يرَ لانكشافِ الضُّرِّ[2] وجْهٌ ... ولا أغنَى بحيلتِهِ الأريبُ
أتاكَ على قنوطٍ منْكَ غَوثٌ ... يجىءُ به القريبُ المستجيبُ
وكُلُّ الحادثاتِ إذا تناهَتْ ... فموصولٌ بها الفرَجُ القريبُ[3]

ومن ذلك ما رواه الشعبى قال: قال على بن أبى طالب - رضى الله تعالى عنه - لرجل كره صحبة رجل: [من الهزج]

لا تصحَبْ أخا الجهْلِ ... وإيَّاكَ وإيَّاهُ
فكَمْ مِنْ جاهلٍ أردَى ... حليمًا حينَ آخاهُ
يقاسُ المرءُ بالمرْءِ ... إذا ما هُوَ ماشَاهُ
وللشيْءِ على[4] الشيءِ ... مقاييسٌ وأشبَاهُ
وللقلْبِ على القَلْبِ ... دليلٌ حِينَ يلقَاهُ[5]

ومن ذلك ما رواه المبرد قال: كان مكتوبًا على سيف على بن أبى طالب، رضى الله عنه: [من البسيط]

للناس حرصٌ على الدنيا بتدبيرِ ... وصَفْوُهَا لكَ ممزوجٌ بتكديرِ
لم يُرْزَقُوهَا بفعْلٍ عندما قسمَتْ ... لكنَّهُمْ رُزِقُوهَا بالمقاديرِ
كمْ مِنْ أديبٍ لبيبٍ لا تساعدُهُ ... وأحمقٍ نال دنياهُ بتقصيرِ
لو كان عَنْ قوةٍ أو عَنْ مغالبةٍ ... طارَ البزاةُ بأرزاقِ العصافيرِ[6]

روى عن حمزة بن حبيب الزيات قال: كان على بن أبى طالب يقول: [من المتقارب]

---

(١) في ط: وأربت. والمثبت من السبل.
(٢) في ط: العسر. والمثبت من السبل.
(٣) ينظر: سبل الهدى والرشاد (١١/ ٣٠٢).
(٤) في ط: من. والمثبت من السبل.
(٥) ينظر: السبل (١١/ ٣٠٢).
(٦) ينظر: السبل (١١/ ٣٠٢).

لا تُفْشِ سرَّكَ إلا إليكَ فإنَّ لكلِّ نَصِيح نصيحَا
فإنِّى رأيتُ غواةَ الرجالِ لا يَدَعُونَ أديمًا صحيحًا(١)

ومن ذلك ما رواه ابن عبد البر، عن الحارث الأعور، قال: سئل على بن أبى طالب عن مسألة فدخل مبادرًا، ثم خرج فى حذاء ورداء وهو يتبسم، فقيل له: يا أمير المؤمنين، إنك كنت إذا سئلت عن المسألة(٢) تكون فيها كالمسلة المحماة، قال: إنى كنت حاقنًا ولا رأى لحاقن. ثم أنشا يقول: [من المتقارب]

إذَا المشكلاتُ تصدَّيْنَ لي كشفْتُ حقائقهَا بالنظَرْ
وإنْ برقَتْ فى مخيلِ(٣) الصَّوابِ عمياءُ لا يجتليها البَصَرْ
مقنعةٌ بغيوبِ الأمورِ وضعْتُ عليها صحيحَ الفِكَرْ
لسانًا كشقشقةِ الأريحيِّ أو كالحسامِ اليمانِى الذَّكَرْ(٤)
وقلبًا إذا استَنْطَقَتْهُ العيونُ أربَى عليها تراهُ درَرْ(٥)
ولستُ بإمعةٍ فى الرجالِ أسألُ هذا وذا ما الخَبَرْ
ولكنَّنى مِذْرَهُ الأصغرَيْنِ أبيِّنُ مِنْ صاحبى ما غمرْ(٦)

وقال ابن النجار: أخبرنى يوسف بن المبارك بن كامل، قال: أنشدنى أبو الفتح مفلح بن أحمد الرومى قال: أنشدنا أبو الحسين بن أبى القاسم التنوخى عن أبيه عن أجداده إلى على بن أبى طالب - رضى الله عنه - أنه قال: [من المتقارب]

أصمُّ عن الكلمِ المحفظاتِ وأحلُمُ والحِلْمُ بى أشبَهُ
وإنى لأترُكُ جَهْمَ الكلامِ لكيلا أجابَ بما أكْرَهُ

---

(١) ينظر السابق.
(٢) في السبل: كالسَّلة.
(٣) في السبل: مجيء.
(٤) ويروى البيت في السبل هكذا:
لسانه كشقشقة الأَرْحَبِي أو كالحمام اليماني الذكر
(٥) ويروى في السبل هكذا:
وقلب إذا استنطقته الهمومِ أربى عليها بواهي الذرر
(٦) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم رقم (١٨٧٩) من طريق الحارث عن علي. وينظر: سبل الهدى والرشاد (١١/٣٠٢،٣٠٣)، والبيت الأخير في السبل:
ولكنني مذرب الأصغرين أُبَيِّن مع ما مضى ما غبر

إذا ما احترزْتُ سِفَاهَ السفيهِ عـلـيَّ فـإنـيَ لا أسـفـهُ[١]
فكَمْ من فَتًى يعجبُ الناظرينَ لـه ألـسُـنٌ ولـه أوجُـهُ
ينامُ إذا حَضَرَ المَكْرُمَاتِ وعـنـدَ الـدناءة يَـسْـتَـنْـبِـهُ[٢]

وأما خطبه ومواعظه ووصاياه فإنها لا تحصى، وأدناها لا يستقصى. رضى الله تعالى عنه وأرضاه، وكرم وجهه ومن والاه، آمين.

خلافة أمير المؤمنين أبى محمد الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما[٣]

قال الحافظ الذهبى فى تاريخه « دول الإسلام »: قال جرير بن حازم: بايع أهل الكوفة الحسن بن على بعد أبيه وأحبوه أكثر من أبيه، ثم سار حتى نزل بـ« المدائن »، وبعث قيس بن سعد بن عبادة على المقدمة فى اثنى عشر ألفًا، فبينما الحسن بـ« المدائن » إذ نادى منادٍ: ألا إن قيسًا قد قتل. فاختبط الناس وانتهبت الغوغاء سرادق الحسن حتى نازعوه بساطه تحته، وطعنه رجل من الخوارج بخنجر مسموم فى فخذه؛ فوثب الناس على الرجل فقتلوه، لا رحمه الله، ونزل الحسن القصر الأبيض بـ« المدائن »، وكاتب معاوية فى الصلح. وقال نحو هذا ابن إسحاق والشعبى.

وروى أنه لما خلع نفسه قام فيهم فقال: ما ثنانا عن أهل الشام شك ولا ندم، لكن كنتم فى مسيركم إلى صفين، ودينكم أمام دنياكم، وأصبحتم اليوم ودنياكم أمام دينكم. وتوجع الحسن من تلك الطعنة، ثم عوفى ولله الحمد.

ثم سار الحسن يريد الشام، وأقبل معاوية، وكان اجتماعهما بـ« مسكن » وهى من أرض السواد من ناحية الأنبار. قال ابن عيينة: حدثنا أبو موسى قال: سمعت الحسن البصرى يقول: استقبل الحسن بن على معاوية بكتائب أمثال الجبال، فقال عمرو بن العاص: والله إنى لأرى كتائب لا تولى أو تقتل أقرانها. فقال معاوية،

(١) في السبل: أنا الأسفه.
(٢) ينظر: سبل الهدى والرشاد (١١/ ٣٠٣).
(٣) ينظر: الاستيعاب ت(٥٧٣)، وأسد الغابة ت(١١٦٥)، والإصابة ت(١٧٢٤)، وتهذيب الكمال (٦/ ٢٢٠)، وسير أعلام النبلاء (٣/ ٢٤٥-٢٧٩)، وحلية الأولياء (٢/ ٣٥) وغيرها.

وكان خير الرجلين: أرأيت إن قتل هؤلاء هؤلاء من لى بذراريهم، من لى بأمورهم، من لى بنسائهم ؟ قال: فبعث عبد الرحمن بن ميسرة فصالح الحسن معاوية وسلم الأمر له، وبايعه بالخلافة على شروط اشترطها ووثائق، وحمل إليه معاوية مالاً، يقال: خمسمائة ألف. قلت: لم أجد تعيين هذه الخمسمائة ألف؛ هى دنانير أم دراهم فيما اطلعت عليه من التواريخ، وذلك فى جمادى الأولى سنة إحدى وأربعين.

قال أبو عبد الله الهمدانى محمد: حدثنا أبو العريف قال: لما ورد الحسن إلى الكوفة بعد مبايعته معاوية، قال له رجل من همدان يقال له أبو عامر: السلام عليك يا مذل المسلمين. فقال: لست بمذل المسلمين، ولكنى كرهت أن أقتلكم على الملك. ثم قال له آخر: يا عار المسلمين. فقال: العار خير من النار.

ثم إن الحسن - رضى الله تعالى عنه - رجع مع آل بيته من الكوفة ونزل المدينة، وسمى هذا العام المذكور - وهو عام إحدى وأربعين - (عام الجماعة) لاجتماع الأمة على خليفة واحد، هو معاوية بعد نزول الحسن - رضى الله عنه - له بها.

ثم دخل معاوية الكوفة، وخرج عليه عبد الله بن أبى الحوساء بـ « النخلة »(١)، فسير عليه؛ فقتله، وخرج عليه بالبصرة خوارج فقتل فريقًا وأمن فريقًا. وسيأتى ذكر ذلك عند ذكر خلافته إن شاء الله تعالى(٢).

مناقب الحسن بن على رضى الله تعالى عنه

هو الحسن بن على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، القرشى، الهاشمى، أبو محمد، سبط النبى ﷺ وشبيهه، يكنى أبا محمد، أمه فاطمة بنت رسول الله ﷺ سيدة نساء العالمين، وهو سيد شباب أهل الجنة، وريحانة النبى ﷺ، ويلقب بالتقى والسيد.

ولد منتصف رمضان سنة ثلاث من الهجرة، قال أبو عمر: هذا أصح ما قيل(٣)، وقيل: فى شعبان، وقيل: سنة أربع، وقيل: سنة خمس، قال فى « الإصابة »:

---

(١) في تاريخ خليفة: النخيلة.

(٢) ينظر: تاريخ خليفة (١٥٣) تهذيب تاريخ دمشق (٤/ ٢٢٥)، تاريخ الطبري (٥/ ١٥٩-١٦٠)، الكامل في التاريخ (٣/ ٤٠٤)، تاريخ الإسلام حوادث سنة (٤١هـ).

(٣) ينظر: الاستيعاب (١/ ٤٣٦).

والأول أثبت[1] سماه النبى ﷺ الحسن، وعق عنه يوم سابع ولادته، وحلق شعر رأسه وتصدق بزنة شعره فضة[2]، وهو خامس أهل الكساء. وقال أبو أحمد العسكرى: سماه النبى ﷺ الحسن، وكناه أبا محمد، ولم يكن يعرف هذا الاسم فى الجاهلية. وروى عن ابن الأعرابى عن الفضل، قال: إن الله تعالى حجب اسم الحسن والحسين حتى سمى بهما النبى ﷺ ابنيه الحسن والحسين. قال: فقلت له: والذى باليمن ؟ قال: ذاك حسْن بسكون السين وحَسِين بفتح الحاء وكسر السين، ولا يعرف قبلهما إلا اسم رملة فى بلاد « ضبة » قال ابن غنمة: [من الوافر]

لِأُمِّ الأرضِ ويلٌ ما أجنَّتْ ... غداةَ أَضَرَّ بالحَسَنِ السَّبِيلُ

وعندها قتل بسطام بن قيس الشيباني[3].

قال على: لما ولد الحسن رضى الله عنهما قال رسول الله ﷺ: أرونى ابنى ما سميتموه ؟ قلت: حربًا. قال: بل هو حسن، فلما ولد الحسين قال: أرونى ابنى ما سميتموه ؟ قلت: حربًا قال: بل هو حسين. فلما ولد الثالث قال: أرونى ابنى ما سميتموه ؟ قلت: حربًا، قال: بل هو محسن. ثم قال: سميتهم بأسماء ولد هارون، شبر وشبير ومشبر[4]. وفضائله كثيرة مشهورة.

ولى الخلافة بعد أبيه - رضى الله تعالى عنه - لِعشر ليال بقين من رمضان، سنة أربعين من الهجرة - ستة أشهر، وبايعه أكثر من أربعين ألفًا، ثم نزل عنها لمعاوية فى النصف من جمادى الأولى سنة إحدى وأربعين من الهجرة، وقيل: لخمس بقين من ربيع الأول، وقيل: فى ربيع الآخر[5]، قال ابن الأثير: قول من قال سنة إحدى وأربعين أصح ما قيل فيه، وأما من قال بنزوله سنة أربعين فقد وهم[6]، وكان نزوله مصداق قول جده ﷺ « إن ابنى هذا سيد، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من

---

(١) ينظر: الإصابة (٢/ ٦٠).
(٢) ينظر: الاستيعاب (١/ ٤٣٦).
(٣) ينظر: أسد الغابة (٢/ ١٣-١٤).
(٤) أخرجه أحمد (١/ ٩٨، ١١٨) والبخاري في الأدب المفرد (٨٢٣) وابن عبد البر في الاستيعاب (١/ ٤٣٦) والحاكم (٣/ ١٦٨)، والبيهقي (٦/ ١٦٦) من حديث علي وضعفه الألباني في ضعيف الأدب المفرد (١٣٣/ ٨٢٣). وفي ط: شبر وشبير، وبشير.
(٥) ينظر: الاستيعاب (١/ ٤٣٧).
(٦) ينظر: أسد الغابة (٢/ ١٩).

المسلمين »[١] وأى شرف أعظم من شرف من سماه النبى ﷺ سيدًا ؟!

وروى أبو القاسم البغوى والدولابى، عن قابوس بن المخارق، قال: إن أم الفضل قالت لرسول الله ﷺ: رأيت كأن عضوًا من أعضائك فى بيتى، فقال رسول الله ﷺ: خيرًا رأيت، تلد فاطمة غلامًا فترضعينه بلبن ابنك قثم. فولدت حسنًا فأرضعته بلبن قثم. قالت: فجئت به يومًا إلى النبى ﷺ فوضعته فى حجره فضرب كتفه، فقال النبى ﷺ: لم أرضعت ابنى يرحمك الله ؟[٢].

وروى الإمام أحمد والشيخان وابن ماجة وابن حبان وأبو يعلى والطبرانى فى الكبير، عن أسامة بن زيد[٣] والطبرانى فى الكبير أيضًا، وابن عساكر، عن عائشة رضى الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: « إنى أحبه فأحبه وأحب من يحبه »[٤].

وروى الشيخان وابن حِبَّان، عن البراء رضى الله عنه، قال: رأيت الحسن بن على رضى الله عنهما على عاتق رسول الله ﷺ وهو يقول: « اللهم إنى أحبه فأحبه »[٥] وروى البخارى عن أسامة بن زيد أن رسول الله ﷺ كان يأخذ الحسن والحسين ويقول: « اللهم إنى أحبهما فأحبهما »[٦].

وروى الترمذى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: « كان رسول الله ﷺ حاملاً للحسن على عاتقه فقال رجل: نعم المركب ركبت. فقال عليه الصلاة والسلام: نعم الراكب هو »[٧].

(١) أخرجه البخاري (٢٧٠٤)، وأبو داود (٤٦٦٢)، والترمذي (٣٧٧٣)، والنسائي (٣/ ١٠٧)، وأحمد (٥/ ٣٧) من حديث أبي بكرة مرفوعًا.

(٢) ذكره ابن الأثير في أسد الغابة (٢/ ١٤) من طريق الدولابي.

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٢٠٥)، وفي الفضائل (١٣٥٢)، والبخاري (٣٧٣٥،٣٧٣٥،٦٠٠٣)، وابن سعد في الطبقات الكبرى (٤/ ٦٢)، وابن حبان (٦٩٦١)، والطبراني في الكبير (٢٦٤٢) من حديث أسامة بن زيد.

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٥٨٥) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ١٧٦): فيه عثمان بن أبي الكنات وفيه ضعف.

(٥) أخرجه البخاري (٣٧٤٩) وفي الأدب المفرد (٨٦) ومسلم (٢٤٢٢)، والترمذي (٣٧٨٣)، وأحمد في المسند (٤/ ٢٨٣- ٢٨٤، ٢٩٢) وفي الفضائل (١٣٥٣، ١٣٨٨)، والنسائي في الفضائل (٦٠) وابن حبان (٦٩٦٢)، والطبراني (٢٥٨٢)، والبيهقي (١٠/ ٢٣٣) وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٦) أخرجه البخاري (٣٧٣٥، ٣٧٤٧)، وابن سعد (٤/ ٦٢) وانظر التخريج قبل السابق.

(٧) أخرجه الترمذي (٣٧٨٤) ومن طريقه ابن الأثير في أسد الغابة (٢/ ١٦-١٧) من طريق عكرمة عن ابن عباس.

وروى الإمام أحمد فى المناقب عن أبى زهر بن الأرقم، رجل من الأزد رضى الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول للحسن بن على: « من أحبنى فليحبه، فليبلغ الشاهد الغائب » ولولا عزيمة رسول الله ﷺ ما حدثتكم[١].

وروى الطيالسى والبزار وابن عساكر، عن على رضى الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: « من أحبنى فليحب هذا » يعنى الحسن[٢]. وروى ابن حبان عن أسامة ابن زيد قال: كان رسول الله ﷺ يقعدنى على فخذه، ويقعد الحسن على فخذه الآخر، ويقول: « اللهم إنى أرحمهما فارحمها »[٣].

وروى الدولابى عن محمد بن عبد المؤمن، مولى بنى هاشم: أن النبى ﷺ رأى الحسن مقبلاً فقال: « اللهم سلمه وسلم منه ».

وروى أبو سعيد بن الأعرابى، عن أبى هريرة رضى الله عنه، قال: لا زلت أحب هذا الرجل - يعنى حسنًا - بعدما رأيت رسول الله ﷺ يصنع به ما يصنع، رأيت الحسن فى حجر رسول الله ﷺ، وهو يدخل لسانه فى فمه أو لسان الحسن فى فمه ثم قال: « إنى أحبه فأحبه وأحب من يحبه ».

وروى الحاكم عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه رأى الحسن بن على رضى الله عنهما فى بعض طرق المدينة فقال: اكشف عن بطنك - فداك أبى - حتى أقبل حيث كان رسول الله ﷺ يقبل، فكشف له عن بطنه فقبل سرته »[٤].

وروى ابن أبى الدنيا وأبو بكر الشافعى، عن عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما قال: رأيت الحسن بن على يأتى رسول الله ﷺ وهو ساجد فيركبه على ظهره، فما ينزله حتى يكون هو الذى ينزل، ويأتى وهو راكع فيفرج له بين رجليه حتى يخرج من الجانب الآخر[٥].

---

(١) ذكره الحافظ في الإصابة (٢/ ٦٢) وعزاه لأحمد عن رجل من الأزد.
(٢) أخرجه البزار (٢٦٢٤- كشف).
(٣) أخرجه ابن حبان (٦٩٦١) من طريق أبي عثمان النهدي عن أسامة بن زيد.
(٤) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٢٥٥، ٤٢٧، ٤٨٨، ٤٩٣) وفي الفضائل (١٣٧٥)، والحاكم (٣/ ١٦٨)، وابن حبان (٦٩٦٥)، والطبراني (٢٥٨٠، ٢٧٦٤)، والبيهقي (٢/ ٢٣٢) من طريق عمير بن إسحاق عن أبي هريرة وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ١٨١): رواه أحمد والطبراني ورجالهما رجال الصحيح غير عمير بن إسحاق وهو ثقة.
(٥) ذكره الحافظ في الإصابة (٢/ ٦٢) وعزاه إلى ابن سعد.

وروى أبو سعيد الأعرابى، عن [أبي] سعيد رضى الله عنه، قال: جاء الحسن إلى النبى ﷺ وهو ساجد فركب على ظهره، فأخذه النبى ﷺ بيده، فأقامه على ظهره ثم ركع، ثم أرسله فذهب(١).

وروى ابن أبى الدنيا فى كتاب « اليقين » عن محمد بن معشر اليربوعى، قال: قال على للحسن ابنه، رضى الله عنهما: كم بَيْنَ الإيمان واليقين ؟ قال: أربع أصابع. قال: بيّن. قال: اليقين ما رأته عينك، والإيمان ما سمعته أذنك وصدقت به. قال على: أشهد أنك ممن أنت منه، ذرية بعضها من بعض(٢).

وروى الدولابى، عن زيد بن الحسن، رضى الله عنهما، قال: خطب الحسن رضى الله عنه الناس حين قتل أبوه رضى الله عنه، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: لقد قبض فى هذه الليلة رجل لم يسبقه الأولون، ولم يشركه الآخرون، وكان رسول الله ﷺ يعطيه الراية فيقاتل جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره، فما يرجع حتى يفتح الله عز وجل عليه، ما ترك على ظهر الأرض صفراء ولا بيضاء إلا أربعمائة(٣) درهم فضلت من عطائه، أراد أن يبتاع بها خادمًا لأهله. ثم قال: يأيها الناس، مَنْ عرفنى فقد عرفنى، ومن لم يعرفنى فأنا الحسن بن على، وأنا ابن الوصى، وأنا ابن البشير، وأنا ابن المنذر(٤)، وأنا ابن الداعى إلى الله بإذنه والسراج المنير، وأنا من أهل البيت الذين افترض الله محبتهم على كل مسلم، فقال تبارك وتعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ﴾ [الشورى: ٢٣] فاقتراف الحسنة مودتنا أهل البيت(٥).

قال صاحب « السيرة الشامية »: بايعه أكثر من أربعين ألفًا. وقال صالح ابن الإمام أحمد: سمعت أبى يقول: بايع الحسن تسعون ألفًا - بتقديم التاء - فترك الخلافة وصالح معاوية لما سار إليه من الشام، وسار إلى معاوية فلما تقاربا أرسل إلى

---

(١) أخرجه ابن الأعرابي في المعجم (٥٩٧)، والبزار (٢٦٣٨-كشف) من حديث أبي سعيد الخدري.
(٢) ذكره الصالحي في سبل الهدى والرشاد (١١/ ٦٧) وعزاه إلى ابن أبي الدنيا في اليقين.
(٣) في السبل: سبعمائة.
(٤) في السبل: النذير.
(٥) ينظر: سبل الهدى والرشاد (١١/ ٦٧).

معاوية يبذل له تسليم الأمر، على أن تكون الخلافة له بعده، وعلى ألا يطلب أحدًا من أهل المدينة والحجاز بشيء مما كان فى أيام بنى أمية وغير ذلك. وظهرت المعجزة النبوية فى قوله عليه الصلاة والسلام: « إن ابنى هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين ».

ولم يسفك فى أيامه محجمة دم، وهى نحو سبعة أشهر، وكان صلحهما لخمس بقين من ربيع الأول سنة إحدى وأربعين، وقيل: فى النصف من جمادى الأولى من السنة المذكورة، على الخلاف المتقدم فى ذلك، فإن مدة الخلافة التى ذكرها عليه الصلاة والسلام انتهت بخلافته ولم يبق إلا الملك، وقد صان الله تعالى أهل البيت منه[1].

قال أبو بشر الدولابى: أقام الحسن - رضى الله تعالى عنه - بالكوفة إلى ربيع الأول سنة إحدى وأربعين، وقتل عبد الرحمن بن ملجم، لعنه الله تعالى، ويقال: إنه ضربه بالسيف فاتقاه بيده فندرت وقتله. ثم سار إلى معاوية فالتقيا بـ« مسكن » من أرض « الكوفة »، كما تقدم نقل ذلك عن الذهبى، واصطلحا، وسلم إليه الأمر، وبايع له لخمس بقين من ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين، وأخذ منه خمسمائة ألف[2]، كما تقدم نقل ذلك عن الذهبى[3].

وروى الحافظ أبو نعيم وغيره عن الشعبى - رحمه الله تعالى - أنه قال: أما بعد، فإن أكيس الكيس التقى، وأحمق الحمق الفجور، وإن هذا الأمر الذى اختلفت عليه أنا ومعاوية إنما هو حق لامرئ، فإن كان له فهو أحق بحقه، وإن كان لى فقد تركته له إرادة صلاح الأمة وحقن دمائهم ﴿ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [الأنبياء: ١١١] ثم نزل[4].

قلت: رأيت فى المسعودى أن عمرو بن العاص أشار على معاوية أن يأمر الحسن فيخطب، فكره معاوية ذلك، فألزمه عمرو وقال: أريد أن يبدو عيّه فى الناس؛ فإنه يتكلم فى أمور لا يدرى ما هى. فأمر معاوية الحسن فقام وتشهد فى بديهته، ثم

---

(١) ينظر: السابق (١١/ ٦٧، ٦٨).
(٢) في السبل: مائة ألف دينار.
(٣) ينظر: سبل الهدى والرشاد (١١/ ٦٨).
(٤) ذكره الصالحي في السبل (١١/ ٦٨)، مع اختلاف في بعض الألفاظ.

قال: يا أهل الكوفة، لو لم تذهل نفسى إلا لثلاث لذهلت: مقتلكم أبى، ونهبكم رحلى، وطعنكم فخذى. وإنى قد بايعت معاوية فاسمعوا له وأطيعوا[١].

ومن مناقبه وجوده وزهده فى الدنيا قوله: إنى لأستحيى من الله عز وجل أن ألقاه ولم أمش إلى بيته، فمشى عشرين حجة من المدينة على رجليه، وإن الجنائب[٢] لتقاد بين يديه. وخرج من ماله مرتين، وقاسم الله ثلاث مرات، حتى إنه كان يعطى نعلاً ويمسك نعلاً. وقال محمد بن سيرين: ربما كان يجيز الواحد بمائة ألف. واشترى حائطًا من قوم من الأنصار بأربعمائة ألف، وإنه بلغه أنهم احتاجوا إلى ما فى أيدى الناس فرده إليهم. ولم يقل لسائل قط: لا.

ولا يأنس به أحد فيدعه يحتاج إلى غيره، ورأى غلامًا أسود يأكل من رغيف لقمة ويطعم كلبًا هنالك لقمة فقال: ما يحملك على هذا ؟ فقال الغلام: إنى أستحيى أن آكل ولا أطعمه، فقال الحسن: لا تبرح حتى آتيك، فذهب إلى سيده فاشتراه واشترى الحائط الذى هو فيه، وأعتقه وملكه الحائط، فقال الغلام: يا مولاى، قد وهبت الحائط للذى وهبتنى إليه.

وكان الحسن سيدًا حليمًا، زاهدًا عاقلاً، فاضلاً، فصيحًا، ذا سكينة ووقار، جوادًا يكره الفتن وسفك الدماء، دعاه ورعه وزهده إلى ترك الخلافة وقال: خشيت أن يجيءَ يوم القيامة سبعون ألفًا أو أكثر تنضح أوداجهم دمًا.

وكان من أحسن الناس وجهًا، وأكرمهم وأجودهم وأطيبهم كلامًا، وأكثرهم حياء، وكان أكثر دهره صائمًا، وكان فعله يسبق قوله فى المكارم والجود، وكان كثير الأفضال على إخوانه؛ لا يغفل عن أحد منهم، ولا يحوجه إلى أن يسأله؛ بل يتقدمه بالعطاء قبل السؤال. وقال لأصحابه: إنى أخبركم عن أخٍ كان من أعظم الناس فى عينى، وكان الذى عظمه فى عينى صغر الدنيا فى عينه، كان خارجًا عن سلطان بطشه؛ فلا يشتهى ما لا يجد، ولا يكثر إذا وجد، انتهى.

وما سمع من الحسن كلمة فحش قط،وأعظم ما سمع منه: أنه كان بينه وبين شخص خصومة فقال: إنه ليس عندنا إلا ما رغم أنفه. قلت: هذا الشخص المبهم

---

(١) ينظر: مروج الذهب (٣/ ٩).
(٢) في السبل: النجائب. وكلاهما بمعنى الخيل.

هو مروان بن الحكم الأموى.

وقيل له: إن أبا ذر يقول: الفقر أحب إليّ من الغنى، والسقم أحب إلى من الصحة، فقال: رحم الله أبا ذر،أما أنا فأقول: من اتكل على حسن اختيار الله عز وجل لم يتمن غير الحالة التى اختارها الله عز وجل. وهذا حد(١) الوقوف على الرضا بما يصرف به القضاء.

ومن كلامه رضى الله عنه: كن فى الدنيا ببدنك، وفى الآخرة بقلبك. وكان يقول لبنيه وبنى أخيه: تعلموا العلم، فمن لم يستطع منكم أن يحفظه - أو قال يرويه - فليكتبه وليضعه فى بيته. ورأى سيدنا أبو بكر الحسن - رضى الله عنهما - وهو يلعب مع الصبيان، فحمله أبو بكر على عاتقه وقال: بأبى، شبيه بالنبى ليس شبيهًا بعلى، وعلى رضى الله عنه يتبسم. وقد كان أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - يجله ويعظمه، ويحترمه ويكرمه، وكذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

وقد جاء الحسن والحسين يوم الدار وعثمان محصور، ومعهما السلاح ليقاتلا عن عثمان، فخشى عثمان عليهما،وأقسم عليهما ليرجعان إلى منازلهما، تطييبًا لقلب على وخوفًا عليهما، وكان على - رضى الله عنه وكرم وجهه - أرسلهما وأمرهما بذلك، وكان على يكرم الحسن إكرامًا زائدًا، ويعظمه ويبجله. وكان ابن عباس يأخذ الركاب للحسن والحسين إذا ركبا، ويرى هذا مِنَ النعم. وكان إذا طافا بالبيت يكاد الناس يحطمونهما مِمَّا يزدحمون عليهما للسلام عليهما، رضى الله عنهما وأرضاهما.

وكان عبد الله بن الزبير يقول: والله ما قامت النساء عن مثل الحسن(٢). قال البيهقى فى كتابه « المحاسن والمساوى »: أتى الحسن بن على رضى الله عنهما إلى معاوية بن أبى سفيان، وقد سبقه ابن عباس، فأمر معاوية بإنزالهما فى محل فأنزلا، فبينما معاوية مع عمرو بن العاص ومروان بن الحكم وزياد بن أبيه، يتذاكرون قديمهم وحديثهم ومجدهم - إذ قال معاوية: أكثرتم الفخر، فلو حضر الحسن بن على وابن عباس لقصرا من أعينكم.

---

(١) في ط: أخذ. والمثبت من السبل.

(٢) ذكر هذه المحاسن كلها الإمام الصالحي في سبل الهدى والرشاد (١١/ ٦٨-٦٩).

فقال زياد: وكيف ذاك يا أمير المؤمنين ؟ ما يقومان لمروان فى غرب منطقه، ولا لنا فى بواذخنا، فابعث إليهما حتى تسمع كلامهما. فقال معاوية لعمرو: ما تقول ؟ قال: هذا إليك، فابعث إليهما فى غد. فبعث معاوية ابنه يزيد إليهما فأتياه فدخلا عليه، وبدأ معاوية فقال: إنى أجلكما وأرفع قدركما عن المسامرة بالليل، ولا سيما أنت يا أبا محمد، فإنك ابن [(١)] رسول الله ﷺ، وسيد شباب أهل الجنة. فتشكرا له. فلما استويا فى مجلسهما وعلم عمرو أن الجرة [(٢)] ستقع به قال: والله لابد أن أقول؛ فإن قهرت فسبيلى ذاك، وإن قهرت أكون قد ابْتَدأت. فقال: يا حسن، إنا تفاوضنا فقلنا: إن رجال بنى أمية أصبر عند اللقاء، وأمضى فى الوغى، وأوفى عهدًا، وأكرم خيمًا، وأمنع ذمارًا لما وراء ظهورها من بنى عبد المطلب.

ثم تكلم مروان فقال: وكيف لا نكون كذلك وقد قارعناكم فغلبناكم، وحاربناكم فملكناكم، فإن شئنا عفونا وإن شئنا بطشنا. ثم تكلم زياد فقال: ما ينبغى لهم أن ينكروا الفضل لأهله، ويجحدوا الخير فى مظانه، نحن الحملة فى الحروب، ولنا الفضل على سائر الناس قديمًا وحديثًا.

فتكلم الحسن رضى الله عنه فقال: ليس من العجز أن يصمت الرجل عند إيراد الحجة، ولكن من الإفك أن ينطق بالخنا، ويصور الباطل بصورة الحق. يا عمرو افتخارًا بالكذب وجرأة على الإفك، ما زلت أعرف مثالبك الخبيثة أبديها مرة وأمسك أخرى، فتأبى إلا انهماكًا فى الضلالة، أتذكر مصابيح الدجى وأعلام الهدى، وفرسان الطراد وحتوف الأقران، وأبناء الطعان، وربيع الضيفان، ومعدن النبوة، ومهبط العلم.

وزعمتم أنكم أحمى لما وراء ظهوركم، وقد تبين ذلك يوم بدر حين نكصت الأبطال، وتساورت الأقران، واقتحمت الليوث[(٣)]، واعتركت المنية، وقامت [رحاها على قطبها، وافترت][(٤)] عن نابها، وطار شرار الحرب، فقتلنا رجالكم،

---

(١) في ط: من.
(٢) في المحاسن والمساوئ: الحدّة.
(٣) في ط: البيوت. والمثبت من المحاسن والمساوئ.
(٤) في ط: رحلها على مطيها وفرت. والمثبت من المحاسن والمساوئ.

ومَنَّ النبى ﷺ على ذراريكم، فكنتم لعمرى فى هذا اليوم غير مانعين لما وراء ظهوركم.

ثم قال: وأما أنت يا مروان، فما أنت والإكثار فى قريش، وأنت طليق وأبوك طريد، تنقلب من خزية إلى سوءة، ولقد جىء بك إلى أمير المؤمنين، فلما رأيت الضرغام قد دميت براثنه واشتبكت أنيابه كما قال: [من الكامل]

ليثٌ إذا سَمِعَ الليوثُ زئيرَهُ بَصْبَصْنَ ثمَّ قذفْنَ بالأبعارِ

فلما منَّ عليك بالعفو، وأرخى خناقك بعد ما ضاق عليك، وغصصت بريقك، لا تقعد منا مقعد أهل الشكر، ولكن تساوينا وتحاربنا، ونحن ممن لا يدركنا عار، ولا تلحقنا خزاية. ثم التفت إلى زياد فقال: وما أنت يا زياد وقريشًا، ما أعرف لك فيها أديمًا صحيحًا، ولا فرعًا ثابتًا، ولا قديمًا بائتًا، ولا منصبًا[1] كريمًا، كانت أمك بغيًّا تداولها رجالات قريش وفجار العرب، فلما ولدت لم يعرف لك العرب والدًا فادعاك هذا - يعنى معاوية - بعد ممات أبيه ما لك افتخار، تكفيك سمية، ويكفينا رسول الله ﷺ، وأبى على بن أبى طالب، سيد المؤمنين، الذى لم يرتد على عقبيه، وحمزة سيد الشهداء، وجعفر الطيار، وأنا وأخى سيدا شباب أهل الجنة.

ثم التفت إلى ابن عباس فقال: يابن عم، إنما هى بغاث الطير انقض عليها أجدل. فأراد ابن عباس أن يتكلم، فأقسم عليه معاوية أن يكف فكف، ثم خرجا. فقال معاوية: أجاد عمرو الكلام لولا أن حجته دحضت، وقد تكلم مروان لولا أنه يكفر، ثم التفت إلى زياد فقال: ما دعاك إلى محاورتهما ؟ ما كنت إلا كالحجل فى كف العقاب.

فقال عمرو لمعاوية: ألا رميت من ورائنا ؟ فقال معاوية: إذا أشرككم فى الجهل؛ أفاخر رجلاً رسول الله جده؟!، وهو سيد من مضى ومن بقى، وأمه فاطمة سيدة نساء العالمين. ثم قال لعمرو: والله لئن سمع به أهل الشام لهى السوأة السوءاء. فقال عمرو: لقد أبقى عليك، ولكنه طحن مروان [وزيادًا][2] طحن الرحى بثفالها، ووطئها[3] وطء البازل القراد بمنسمه.

(١) في المحاسن: منبتا.
(٢) المثبت من المحاسن والمساوئ.
(٣) في ط: وصلبها. والمثبت من المحاسن والمساوئ.

فقال زياد: قد والله فعل، ولكن معاوية يأبى إلا الإغراء بيننا وبينهم، لا جرم. والله لا شهدت مجلسًا يكونان فيه إلا كنت معهما على من فاخرهما. فخلا ابن عباس بالحسن، فقبل بين عينيه وقال: أفديك يابن عم، والله ما زال بحرك يزخر، وأنت تصور، حتى شفيتنى من أولاد البغايا.

ثم إن الحسن رضى الله عنه غاب أيامًا ثم رجع حتى دخل على معاوية، وعنده عبد الله بن الزبير فقال معاوية: يا أبا محمد، إنى أظنك تعبًا نصبًا، فأت المنزل فأرح نفسك. فقام الحسن، فلما خرج قال معاوية لعبد الله بن الزبير: لو افتخرت على الحسن، فإنك ابن حوارى رسول الله ﷺ، وابن عمته، ولأبيك فى الإسلام، نصيب وافر، فقال ابن الزبير: أنا له. فرجع وهو يطلب ليلته الحجج، فلما أصبح دخل على معاوية وجاء الحسن رضى الله عنه، فحياه معاوية وسأله عن مبيته فقال: خير مبيت وأكرم مستفاض.

فلما استوى به مجلسه قال ابن الزبير: لولا أنك خوار فى الحرب غير مقدام ما سلمت الأمر لهذا - يعنى معاوية - وكنت لا تحتاج إلى اختراق الآفاق، وقطع المفاوز تطلب معروفه وتقوم ببابه، وكنت حريًا ألا تفعل ذلك، وأنت ابن على ونائبه ونجدته، فما أدرى ما الذى حملك على ذلك ؟ ضعف رأى، أم وهدة مخبر[1]؟ فما أظن لك مخرجًا من هاتين الخلتين. أما والله لو استجمع لى ما استجمع لك لعلمت أنى ابن الزبير، وأنى لا أنكس عن الأبطال، وكيف لا أكون كذلك، وجدتى صفية بنت عبد المطلب، وأبى الزبير حوارى رسول الله ﷺ، وأشد الناس بأسًا، وأكرمهم حسبًا فى الجاهلية، وألوطهم برسول الله ﷺ.

فالتفت إليه الحسن وقال: أما والله لولا أن بنى أمية تنسبنى إلى العجز عن المقال لكففت عنك تهازيًا[2]، ولكن سأبين ذلك لتعلم أنى لست بالعيى ولا الكليل اللسان، إياى تعير وعلى تفتخر ؟ ولم يكن لجدك بيت فى الجاهلية ولا مكرمة، فزوجه جدى صفية فتفاخر على جميع العرب بها وشرف بمكانها، فكيف تفاخر من هو من القلادة واسطتها، ومن الأشراف سادتها ؟ نحن أكرم أهل الأرض، لنا

(١) في المحاسن والمساوئ: وهن نجيزة.
(٢) في المحاسن والمساوئ: تهاونًا.

الشرف الثاقب، والكرم الغالب.

ثم تزعم أنى سلمت الأمر، فكيف يكون - ويحك - كذلك، وأنا ابن أشجع العرب، وقد ولدتنى فاطمة سيدة نساء العالمين، لم أفعل - ويحك - ذلك جبنًا ولا ضعفًا، ولكنه بايعنى مثلك وهو يطلبنى بترة، ويداجينى المودة، فلم أثق بنصرته لأنكم أهل بيت غدر، وكيف لا يكون كما أقول ؟ وقد بايع أبوك أمير المؤمنين، ثم نكث بيعته، ونكص على عقبيه، واختدع حشية من حشايا رسول الله ﷺ ليضل بها الناس، فلما خلف إلى الأعنة قتل بمضيعة لا ناصر له، وأتى بك أسيرًا وقد وطئتك الكماة بأظلافها والخيل بسنابكها، واعتلاك الأشتر فغصصت بريقك، وأقعيت على عقبيك كالكلب إذا احتوشته الليوث.

فنحن - ويحك - نور البلاد وملاكها، وبنا يفتخر الأئمة، وإلينا تلقى مقاليد الأزمة. أتصول وأنت بمختدع الشاء[1]؟!، ثم أنت تفتخر على بنى الأنبياء. لم تزل الأقاويل منا مقبولة، وعليك وعلى أبيك مردودة، دخل الناس فى دين جدى طائعين وكارهين، ثم بايعوا أمير المؤمنين، فساروا إلى أبيك وطلحة حين نكثا البيعة وخدعا عرس رسول الله ﷺ فقتل أبوك وطلحة، وأتى بك أسيرًا فبصبصت بذنبك وناشدته الرحم ألا يقتلك، فعفا عنك، فأنت عتاقة أبى، وأنا سيدك وسيد أبيك فذق وبال أمرك.

فقال ابن الزبير: اعذرنا يا أبا محمد، فإنما حملنى على محاورتك هذا، وأحب الإغراء بيننا، فهلا إذ جهلتُ أمسكت عنى؛ فإنكم أهل بيت سجيتكم الحلم والعفو.
فقال الحسن: يا معاوية، انظر هل أكيع عند محاورة أحد ؟ ويحك، أتدرى من أى شجرة أنا، وإلى من أنتهى ؟ انته قبل أن أسمك بميسم تتحدث به الركبان فى الآفاق والبلدان. فقال ابن الزبير: هو لذلك أهل. فقال معاوية: فلا أراك تفتخر على أحد بعدها.

واستأذن الحسن بن على - رضى الله تعالى عنهما - على معاوية فأذن له، وعنده عبد الله بن جعفر وعمرو بن العاص، فلما أقبل قال عمرو: قد جاءكم الأقدُّ[2] العييُّ

---

(١) في المحاسن والمساوئ: تختدع النساء.
(٢) في المحاسن والمساوئ: الفهُّ.

الذى كأن بين لحييه عبلة. فقال عبد الله بن جعفر: مه، فوالله لقد رمت صخرة ململمة تنحط عنها السيول، وتقصر دونها الوعول، ولا تبلغها السهام، فإياك والحسن إياك؛ فإنك لا تزال راتعًا فى لحم رجل من قريش، ولقد رميت فما برح سهمك، وقدحت فما أورى زندك. فسمع الحسن الكلام فلما أخذ الناس مجالسهم قال الحسن: يا معاوية، لا يزال عندك عبدًا راتعًا فى لحوم الناس ؟ أما والله لئن شئت ليكونن بيننا ما تتفاقم فيه الأمور، وتحرج منه الصدور، ثم أنشأ يقول: [من الوافر]

أتأمُرُ يا معاويَ عَبْدَ سهم ... بشتْمِى والملا مِنَّا شهودُ
إذا أخذَتْ مجالسَهَا قريشٌ ... فقدْ علمَتْ قريشٌ ما تريدُ
قَصَدتَ إليَّ تَشْتِمنى سفاهًا ... لضغْنٍ ما يزولُ وما يبيدُ
فما لَكَ مِنْ أبٍ كأبى تسامي ... به مَنْ قد تسامي أو تكيدُ
ولا جَدٌّ كجدِّى يابن هندٍ ... رسولُ الله إن ذكِر الجدودُ
ولا أمٌ كأمى مِنْ قريشٍ ... إذا ما حُصِّلَ الحسبُ التليدُ
فما مِثْلِى تهكّم يابنَ هنْدٍ ... ولا مثلى تُجَاريهِ العبيدُ
فمهلاً لا تَهِجْ منى أمورًا ... يشيبُ لها معاوية الوليدُ(١)

وذكروا أن عمرو بن العاص قال لمعاوية ذات يوم: ابعث إلى الحسن بن على فمره أن يخطب، فلعله أن يحصر فيكون ذلك مما يعير به. فبعث إليه معاوية فأصعده المنبر وقد جمع له الناس، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس، من عرفنى فأنا الذى يعرف، ومن لم يعرفنى فأنا الحسن بن على بن أبى طالب ابن عم النبى ﷺ أنا ابن البشير النذير، السراج المنير، أنا ابن من بعث رحمة للعالمين وسخطًا على الكافرين، أنا ابن من بعث إلى الجن والإنس، أنا ابن المستجاب الدعوة، أنا ابن الشفيع المطاع، أنا ابن أول من ينفض رأسه من التراب، أنا ابن أول من يقرع باب الجنة، أنا ابن من قاتلت معه الملائكة، نصر بالرعب من مسيرة شهر. فافتن(٢) فى هذا الكلام ولم يزل حتى أظلمت الدنيا على معاوية فقال: يا حسن، قد

(١) الشطر الثاني في المحاسن والمساوئ:
... ... يشيب لهولها الطفل الوليد
(٢) في ط: فاحتز، والمثبت من المحاسن والمساوئ.

كنت ترجو أن تكون خليفة ولست هناك، فقال الحسن: إنما الخليفة من سار بسيرة نبى الله ﷺ، وعمل بطاعة الله تعالى، وليس الخليفة من دان بالجور، وعطل السنن، واتخذ الدنيا أبًا وأمًا، ولكن ذاك ملك أصاب ملكًا تمتع به قليلاً، وكان قد انقطع عنه فتعجل لذته، وبقيت عليه تبعته، فكان كما قال الله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [الأنبياء: ١١١] ثم انصرف. فقال معاوية لعمرو: والله ما أردت إلا هتكى، ما كان أهل الشام يرون أن أحدًا مثيلى حتى سمعوا من الحسن ما سمعوا.

وقدم عليه مرة أخرى، فوجد عنده عمرو بن العاص، ومروان بن الحكم، والمغيرة بن شعبة، وصناديد قومه، ووجوه أهل اليمن وأهل الشام، فلما نظر إليه معاوية وثب وأقعده على سريره، وأقبل عليه بوجهه يريد السرور بمقدمه، فلما نظر مروان إلى ذلك حسده. وكان معاوية قد قال لهم: لا تحاوروا هذين الرجلين - يعنى الحسن وابن عباس - فلقد قلداكم العار وفضحاكم عند أهل الشام.

فقال مروان: يا حسن، لولا صلة أمير المؤمنين وما قد بنى له آباؤه الكرام من المحل والعلاء، ما أقعدك هذا المقعد، ولقتلك وأنت له مستوجب بقودك الجماهير، فلما أحسست بنا، وعلمت أَنْ لا طاقة لك بفرسان أهل الشام، وصناديد بنى أمية - أذعنت بالطاعة، واحتجزت بالبيعة، وبعثت تطلب الأمان، أما والله لولا ذاك لأريق دمك، وعلمت أنا نعطى السيوف حقها عند الوغى، فاحمد الله تعالى إذا ابتلاك بمعاوية فعفا عنك،ثم صنع بك ما ترى.

فنظر إليه الحسن فقال: ويحك يا مروان، لقد تقلدت مقاليد العار فى الحروب عند مشاهدتها، والمحاولة[1] عند مخالطتها، نحن - هبلتك الهوابل - [لنا] الحجج البوالغ.

ولنا إن شكرتم - عليكم النعم السوابغ - ندعوكم إلى النجاة وتدعوننا إلى النار، فشتان ما بين المنزلتين. تفخر ببنى أمية وتزعم أنهم صُبر فى الحروب أسد عند اللقاء ؟ ثكلتك أمك؛ أولئك البهاليل السادة، والحماة القادة، بنو عبد المطلب، أما والله لقد رأيتهم وجميع من فى هذا البيت ما هالتهم الأهوال، ولم يحيدوا عن

---

(١) في المحاسن والمساوئ: والمخاذلة.

الأبطال، كالليوث الضارية الباسلة الخفية[1] فعندها وليت هاربًا وأخذت أسيرًا، فقلدت قومك العار، لأنك فى الحروب خوَّار. أيراق دمى زعمت، أفلا أرقت دم من وثب على عثمان فى الدار فذبحه كما يذبح الجمل، وأنت تثغو ثغاء النعجة، وتنادى بالويل والثبور كالأمة اللكعاء[2]، ألا دافعت عنه بيدٍ، أو ناضلت عنه بسهم، لقد ارتعدت فرائصك، وغشى بصرك فاستغثت بى كما يستغيث العبد بربه؛ فأنجيتك من القتل ومنعتك منه، ثم تحثُّ معاوية على قتلى، ولو رام ذلك معك لذبح كما ذبح ابن عفان.

أنت معه أقصر يدًا وأضيق باعًا، وأجبن قلبًا أن تجسرا على ذلك. ثم تزعم أنى ابتليت بحلم معاوية، أما والله لهو أعْرَف بشأنه، وأشكر لما وليناه هذا الأمر، فمتى بدا له فلا يغضى جفنه على القذى معك، فوالله لألحقن بأهل الشام بجيش يضيق عنه فضاؤها، ويستأصل فرسانها، ثم لا ينفعك عند ذلك الهرب والروغان، ولا ترد عنك الطلب يذرعك فى الكلام.

فنحن من لا نجهل، آباؤنا القدماء الأكابر، وفروعنا السادة الأخيار، وانطق إن كنت صادقًا. فقال عمرو: ينطق بالخنا وتنطق بالصدق. ثم أنشأ يقول: [من البسيط]

قد يَضْرطُ العيرُ والمكواةُ تأخذُهُ ويضرطُ العيرُ والمكواةُ فى النارِ

ذق وبال أمرك يا مروان. وأقبل عليه معاوية فقال: قد نهيتك عن هذا الرجل فأنت تأبى إلا انهماكًا فيما لا يعنيك، اربع على نفسك، فليس أبوك كأبيه ولا أنت مثله، أنت ابن الطريد الشريد، وهو ابن رسول الله ﷺ الكريم، فقال ارم من دون قبضتك، وقم بحجة عشيرتك. ثم قال مروان لعمرو: طعنك أبوه فوقيت نفسك بخصيتك فلذلك تحذره . وقام مغضبًا. فقال معاوية: لا تحاور البحور فتغمرك، ولا الجبال فتبهرك، واسترح من الاعتذار.

ولقى عمرو بن العاص الحسن بن على - رضى الله عنهما - فى الطواف فقال له: يا حسن، أزعمت أن الدين لا يقوم إلا بك وبأبيك ؟ فقد رأيت الله عز وجل

---

(١) في المحاسن والمساوئ: الحنقة.

(٢) في ط: الوكعاء. والمثبت من المحاسن والمساوئ.

أقامه بمعاوية، فجعله رأسًا بعد ميله، وَبَيِّنًا بعد خفائه، أفرضى الله قتل عثمان ؟ أم من الحق أن تدور بالبيت كما يدور الحمار بالطحين ؟ عليك ثياب كغرفئ البيض، وأنت قاتل عثمان. والله إنه لألمُّ للشعث، وأسهل للوعث، أن يوردك[١] معاوية حياض أبيك.

فقال الحسن رضى الله عنه: إن لأهل النار علامات يعرفون بها، وهى الإلحاد لأولياء الله تعالى، والموالاة لأعداء الله تعالى، الله إنك لتعلم أن عليًا رضى الله تعالى عنه لم يرتب فى الأمر، ولم يشك فى الله طرفة عين، وايم الله لتنتهين يابن أم عمرو أو لأقرعن جبينك بكلام تبقى سمته عليك ما حييت، فإياك والإنزار على؛ فإنى مَنْ قد عرفت؛ لست بضعيف الغمزة، ولا بهش المشاشة، ولا بمرىء المأكلة، وإنى من قريش فى وسط القلادة يُعرف حسبى، ولا أدعى لغير أبى، وقد تحكمت فيك قريش فغلب عليك ألأمُهم نسبًا وأعظمهم لعنة؛ فإياك عنى فإنك رجس، وإنما نحن أهل بيت الطهارة أذهب الله عنا الرجس وطهرنا تطهيرًا.

وقيل: واجتمع مرة أخرى بالحسن، فقال الحسن: قد علمت قريش بأسرها أنى منها فى أعز أرومتها؛ لم أطلع على ضعف، ولم أعكس على خسف، أعرف بشبهى، وأدعى لأبى. فقال عمرو: قد علمت قريش أنك من أقلها عقلاً وأكثرها جهلاً، وإن فيك خصالاً لو لم يكن منها إلا واحدة لشملك خزيها كما شمل البياض الحلك. والله لتنتهين عما أراك تصنع، أو لألبسن لك حافة كجلد العائط[٢] أرميك من خللها بأحد من وقع الأثافى. أغرك منها أديمك[٣] عرك السلقة[٤]؟ ما لك طالما ركبت صعب المنحدر، ونزلت فى عراص الوعر؛ التماسًا للفرقة وارتصادًا للفتنة ؟ ولن يزيدك الله تعالى فيها إلا ضياعة.

فقال الحسن رضى الله تعالى عنه: أما والله لو كنت تسمو بحسبك، وتعمل برأيك، ما سلكت فج قصدٍ، ولا حللت رابية مجد. وايم الله لو أطاعنى معاوية فجعلك بمنزلة العدو الكاشح؛ فإنك طالما طويت على هذا كشحك، وأخفيته فى

(١) في ط: يدرك. والمثبت من المحاسن والمساوئ.
(٢) العائط من الإبل: ما أنزى عليها فلم تحمل. وفي ط: العامط.
(٣) في ط: مما أدعك. والمثبت من المحاسن والمساوئ.
(٤) في المحاسن والمساوئ: السلعة.

صدرك، وطمح بك الرجا إلى الغاية القصوى التى لا يورق فيها غصنك، ولا يخضر بها مرعاك، أما والله ليوشكن يا ابن العاص أن تقع بين لحيى ضرغام من قريش، فرى ممتنع فروس ذى لبد، يضغطك ضغط الرحى للحب، لا ينجيك منه الروغان إذا التفت حلقتا البطان، انتهى[١].

وذكر هذا البيهقى فى كتابه المسمى « المحاسن والمساوئ »: وكان لرجل على أبى عتيق مال فتقاضاه، فقال أبو عتيق: ائتنى العشية فى مجلس كذا فسلنى عن بيت قريش، فأتاه الغريم فى ذلك المجلس وفيه وجوه قريش والحسن بن على، فقال الغريم: يا أبا عتيق إنا تلاحينا فى بيت قريش ورضينا بك حكمًا، فقال: آل حرب. فقال الغريم: ثم من ؟ فقال: آل أبى العاص. فشق ذلك على الحسن.

فقال الغريم: فأين بنو عبد المطلب ؟ فقال: لم أكن أظن أن تسألنى عن غير بيت الآدميين؛ فأما إذ صرت تسألنى عن بيت الملائكة، وعن رسول رب العالمين، وسيد كل شهيد، والطيار مع الملائكة، فمن يسامى هؤلاء فخرًا إلا وهو منقطع دونهم. فانجلى عن الحسن رضى الله عنه. ثم قال لأبى عتيق: إنى لأحسب أن لك حاجة. قال: نعم يابن رسول الله، لهذا [علي] كذا وكذا. فاحتملها عنه، ووصله بمثلها.

وذكروا أن رجلين أحدهما من بنى هاشم، والآخر من بنى أمية، قال هذا: قومى أسمح، وقال هذا: قومى أسمح، قال: فاسأل أنت عشرة من قومك، وأسأل أنا عشرة من قومى، فانطلق صاحب بنى أمية فسأل عشرة فأعطاه كل واحد منهم عشرة آلاف درهم، وأتى صاحب بنى هاشم إلى الحسن بن على رضى الله عنهما فأمر له بمائة وخمسين ألف درهم، ثم أتى الحسين بن على رضى الله عنهما فقال له: هل بدأت بأحد قبلى ؟ قال: بدأت بأخيك الحسن، فقال: ما أستطيع أن أزيد على سيدى، فأعطاه مائة وخمسين ألف درهم. فجاء صاحب بنى أمية يحمل مائة ألف من عشرة أنفس؛ وجاء صاحب بنى هاشم يحمل ثلاثمائة ألف من نفسين، فغضب صاحب بنى أمية فردها عليهم فقبلوها، وجاء صاحب بنى هاشم فردها عليهما فأبيا أن يقبلاها، وقالا: ما كنا نبالى أخذتها أم ألقيتها فى الطريق[٢].

(١) ينظر: المحاسن والمساوئ (٧٣-٨١).
(٢) ينظر: المحاسن والمساوئ (٥٢-٥٣).

وقال أبو جعفر الباقر: جاء رجل إلى الحسين بن على رضى الله تعالى عنهما فاستعان به فى حاجة فوجده معتكفًا فاعتذر إليه، فذهب إلى أخيه الحسن فاستعان به فقضى حاجته، وكان معتكفًا، وقال: لَقَضَاءُ حاجة أخٍ لى فى الله عز وجل أحبُّ إليَّ من اعتكاف شهر.

وكان - رضى الله عنه - كثير التزويج، فكان لا تفارقه أربع حرائر، وكان مطلاقًا مصدقًا، وكان أبوه على بن أبى طالب كرم الله وجهه يقول: يا أهل الكوفة، لا تزوجوه فإنه مطلاق، فيقولون: والله يا أمير المؤمنين، لو خطب إلينا كل يوم زوجناه منا، ابتغاء فى صهر رسول الله ﷺ[١].

ورأى الحسن فى منامه كأن مكتوبًا بين عينيه ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: ١] فبلغ ذلك سعيد بن المسيب رضى الله عنه فقال: إن كان رأى هذه الرؤيا فقلَّ ما بقى من أجله. فلم يلبث الحسن بن على بعد ذلك إلا أيامًا حتى مات. وقد أوصى أخاه الحسين ألا يطلب الخلافة، ورغبه فى الزهد فى الدنيا والعزوف عنها، إلى غير ذلك من وصايا كثيرة قال فى آخرها: أبى الله أن يجعل فينا أهل البيت مع النبوة الخلافة والملك والدنيا؛ فإياك وسفهاء أهل الكوفة أن يستخفوك فيخرجوك، فتندم حيث لا ينفعك الندم، ثم رفع طرفه إلى السماء فقال: « اللهم إنى أحتسب نفسى عندك، فإنى لم أصب بمثلها، فارحم صرعتى، وآنس فى القبر وحدتى، وأقل عثرتى، يا أرحم الراحمين »[٢].

قال العلامة المسعودى فى « المروج »: عن على بن الحسين قال: دخل أبى الحسين على عمى الحسن حدثان ما سقى السم، فقام عمى الحسن لقضاء الحاجة ثم رجع فقال: لقد سقيت السم عدة مرات فما سقيت مثل هذه، ولقد لفظت طائفة من كبدى فرأيتنى أنكثه بعود فى يدى، فقال له أبى: يا أخى، من سقاك ؟ قال له: وما تريد من ذلك ؟ فإن كان الذى أظن فالله حسيبه، وإن كان غيره فما أحب أن يؤخذ بى برىءٌ، فلم يلبث أن توفى رضى الله تعالى عنه.

وذكر بأنَّ امرأته جعدة بنت الأشعث بن قيس الكندى قد بعث إليها يزيد: إن

(١) ينظر: سبل الهدى والرشاد (١١/ ٦٩).
(٢) ينظر: سبل الهدى والرشاد (١١/ ٤٣٨).

احتلت فى قتل الحسن وجهت إليك مائة ألف درهم وتزوجتك، فكان هذا الذى بعثها على سَمِّه. فلما مات وفَّى لها بالمال وأرسل إليها: إنا لم نرضك للحسن فكيف نرضاك لأنفسنا ؟! والله أعلم بصحة ذلك.

وقال الشاعر النجاشى - وكان من شيعة على - فى شعر طويل يرثيه به، منه قوله: [من السريع]

جَعْدَةَ ابكِيهِ ولا تَسْأَمى جعد بكاء المعول الثاكلِ
لم تسبلى السِّتْرَ على مثْلِهِ فى الأرضِ مِنْ حافٍ ومن ناعلِ

وقال آخر: [من المتقارب]

تَعَزَّ فكَمْ لكَ من سالفٍ[١] يفرجُ عنك عليلَ الحَزَنْ
بموتِ النبيِّ وقَتْلِ الوصيّ وقَتْلِ الحُسَيْنِ وسمِّ الحَسَنْ[٢]

وكانت وفاته لخمس خلون من ربيع الأول سنة خمسين، وقيل: اثنتين وخمسين من الهجرة، ودفن بالبقيع فى قبة عمه العباس بن عبد المطلب.

ولما دفن وقف محمد ابن الحنفية أخوه على قبره فقال: لئن عزت حياتك فقد هزت وفاتك، ولنعم الروح روح تضمنها كفنك، ولنعم الكفن كفن تضمنه بدنك، وكيف لا يكون هذا وأنت عضيد الهدى، وعتيد التُّوى وخلف[٣] أهل التقى، وخامس أهل الكسا. غذتك بالتقوى أكف الحق، وأرضعتك ثدى الإيمان، وربيت فى حجر الإسلام، فطب حيًا وميتًا، وإن كانت أنفسنا غير سخية بفراقك، رحمك الله أبا محمد. ثم تمثل بقول القائل: [من الطويل]

أأدهُنُ رأسي أم تطيبُ مجالسى وخدّكَ معفورٌ[٤] وأنتَ سليبُ ؟!
سأبكِيكَ ما ناحَ الحمامُ بأيكةٍ وما اخضَرَّ فى أرضِ الحجازِ قضيبُ
غريبٌ وأكنافُ الحجازِ تحوطُهُ ألا كُلُّ ما تحتَ الترابِ غريبُ[٥]

---

(١) هذا الشطر في المروج:
تأس فكم لك من سلوة
(٢) ينظر: مروج الذهب (٣/ ٥، ٦).
(٣) في ط: وحليف. والمثبت من المروج.
(٤) في ط: وجدّك معقور. والمثبت من المروج.
(٥) ينظر: مروج الذهب (٣/ ٦-٧).

كان - رضى الله عنه - قد أوصى إلى أخيه الحسين أن يدفنه مع جده رسول الله ﷺ إن وجد إلى ذلك سبيلاً، فإن منعت فادفنى بـ« البقيع ». فلما مات لبس الحسين ومواليه السلاح وخرجوا به ليدفنوه، فخرج مروان بن الحكم فى موالى بنى أمية، وهو يومئذ عامل المدينة لمعاوية ليمنعه، فخرج أبو هريرة، فرده الحسين وأقسم عليه؛ فذهب بالحسن، فدفن بـ« البقيع » فى قبر فى قبة العباس ودفن فى هذا القبر أيضًا على زين العابدين، وابنه محمد الباقر، وابنه جعفر الصادق، فهم أربعة فى قبر واحد، أكرم به قبرًا. وفى ذكرى أنه دفن فيه أيضًا رأس الحسين أتى به من « دمشق » فدفن. والله أعلم[١].

ومشى مروان فى جنازة الحسن وبكى؛ فقيل له: أتبكى عليه وقد كنت تفعل به ما تفعل ؟ فقال: كنت أفعل ذلك مع من هو أعظم من هذا، وأشار إلى جبل أحد.

صفته رضى الله عنه

كان أبيض اللون مشربًا بالحمرة، أدعج العينين، سهل الخدين، دقيق المسربة، ذا وفرة كأن عنقه إبريق فضة، عظيم الكراديس، بعيد ما بين المنكبين، ربعة، من أحسن الناس وجهًا، كان أشبه الناس برسول الله ﷺ من تحت الصدر إلى الرأس. عمره سبع وأربعون سنة، وقيل: ثمان وأربعون، كان منها مع جده رسول الله ﷺ سبع سنين، ومع أبيه عليٍّ بعد وفاة رسول الله ﷺ ثلاثين سنة، وعاش بعد وفاة أبيه على كرم الله وجهه إلى حين وفاته رضى الله عنه عشر سنين، مدة خلافته منها ستة أشهر وثلاثة أيام[٢].

أولاده تسعة عشر ولدًا: تسعة ذكور، الحسن، وزيد، وحسين الأثرم، وعبد الله، وأبو بكر، وعبد الرحمن، والقاسم، وطلحة، وعمر، قاله البلاذرى، وذكر المحب الطبرى فى « ذخائر العقبى » نقلاً عن الدولابى أنهم خمسة: الحسن، وزيد، وعبيد الله، وعمر، وإبراهيم. وعن أبى بكر بن الدراع أنهم أحد عشر ذكرًا وبنت: عبد الله القاسم، والحسن، وزيد، وعمر، وعبيد الله، وعبد الرحمن، وأحمد، وإسماعيل، والحسين، وعقيل، والأنثى: أم الحسن. وعلى كل الروايات: العقب منه فى رجلين

(١) ينظر: الاستيعاب (١/ ٤٤٢).
(٢) ينظر: مصادر ترجمته وقد تقدم ذكرها.

فقط هما زيد والحسن المثنى.

وكان قد أعقب - أيضًا - من الحسين الأثرم وعمر، لكن انقرض عقبهما، فلم يبق للحسن السبط إلا من هذين الشخصين: الحسن المثنى وزيد ابنى الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنه وكرم وجهه[١].

* * *

(١) ينظر: سبل الهدى والرشاد (١١/ ٧٠).

وثبت في النسخة الثالثة وفي ط:

وهذا آخر الجزء وهو آخر النصف الأول من (النجوم العوالى فى أنباء الأوائل والتوالى) والحمد لله رب العالمين.

وكان الفراغ من نسخ هذا التاريخ فى يوم الجمعة بعد صلاة الجمعة خامس عشرين ذى القعدة الحرام من شهور سنة ١١٣٨على يد الفقير إلى ربه محمد ابن المرحوم الشيخ سليمان ابن أحمد حينون عفا الله عنهما آمين.

وصلى الله على من لا نبى بعده محمد وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته الطاهرين

ووجد بهامش الصفحة الأخيرة من الأصل المخطوط:

بلغ مقابلة بحسب الطاقة على نسخة سقيمة ولله الحمد والمنة.

وتحته:

بلغ مقابلة مرة ثانية على نسخة سقيمة فصح إن شاء الله، ما عدا مواضع مشكّك عليها، فلتصحح. ولله الحمد والمنة.

المقصد الرابع
وفيه سبعة أبواب
الباب الأول
فى الدولة الأموية[(١)]

لا يخفى أنه كان لبنى عبد مناف فى قريش محل من العدد والشرف لا يناهضهم فيه أحد من بطون قريش، وكان فخذاهم: بنو أمية وبنو هاشم حيًا جميعًا يباهون بعبدِ مناف وينتمون إليه، وجميع قريش تعرف ذلك وتسلم لهما الرياسة عليهما؛ إلا أن بنى أمية كانوا أكثر عددًا من بنى هاشم وأوفر رجالاً، والعزة إنما هى بالكثرة؛ قال الشاعر: [من السريع]

وَلَسْتَ بِالأَكْثَرِ مِنْهُمْ حَصًى وَإِنَّمَا الْعِزَّةُ لِلْكَاثِرِ

وكان لهم قبل الإسلام شرف معروف انتهى إلى حرب بن أمية، وكان رئيسهم يوم حرب الفجار الأول والثانى، وقد تقدم ذكره فى سيرته ﷺ.

وقد روى أن قريشًا تواقعوا ذات يوم وحربٌ مسند ظهره إلى الكعبة، فتبادر إليه غلمة منهم ينادون: يا عم، أدرك قومك ! فقام يجر إزاره، حتى أشرف عليهم من بعض الروابى، ولوّح بطرف ثوبه إليهم أن تعالوا، فتبادرت الطائفتان إليه بعد أن كان حَمِىَ وطيسهم.

وكان إذا مرّ مع أشراف قريش فوصلوا إلى ثنية أو حلق ربع لم يتقدمه أحد.

---

(١) لم يتعرض تاريخ دولة إسلامية ما للنقد والخلاف في وجهات النظر مثلما تعرض تاريخ دولة الأمويين وهذا لا يرجع إلى ضعف الدولة في عهدهم بل العكس تماما حيث إن هذه الدولة لها جهود مشكورة وعظيمة في جميع مناحى الحياة في الدولة الإسلامية عسكريًا وسياسيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيًا. ولكن مصدر هذا الخلاف والنقد أنها-لسوء طالعها- جاءت بعد دولة عظيمة في كل شيء بلغت حد الدولة المثالية ألا وهى دولة الخلافة الراشدة لذلك جاءت أعمالهم- وإن عظمت- قليلة بالنسبة إلى هؤلاء لذلك جاءت المقارنة في غير صالحهم وتنظر أخبار دولة بني أمية في البداية والنهاية (٨/ ١٨)، تاريخ الإسلام حوادث سنة إحدى وأربعين (ص٥)، تاريخ خليفة (ص٢٠٣)، تاريخ الطبري (٥/ ١٥٩، ١٦٠)، الكامل لابن الأثير (٣/ ٤٠٤) تهذيب تاريخ دمشق (٤/ ٢٢٣)، مرآة الجنان (١/ ١١٨، ١١٩) نهاية الأرب (٢٠/ ٢٢٥، ٢٢٦)، مقاتل الطالبِيِّينَ (٦٣، مروج الذهب (٣/ ١٨٨)، وما بعدها، تاريخ الخلفاء (١٩٤) المعارف (٣٤٤)، المعرفة والتاريخ (١/ ٣٠٥).

فلما جاء الإسلام ودهش الناس لما وقع من أمر النبوة والوحى وتنزل الملائكة وما وقع من خوارق الأمور، نسى الناس أمر العصبية مسلمهم وكافِرهم.

أما المسلمون: فنهاهم الإسلام عن أمور الجاهلية؛ كما فى الحديث الشريف « إن الله أذهب عنكم حمية الجاهلية وفخرها؛ لأنا وأنتم بنو آدم، وآدم من تراب »(١).

وأما المشركون: فشغلهم ذلك الأمر العظيم عن أمر العصائب وذهلوا عنه حينًا من الدهر؛ ولذلك لما افترق أمر بنى أمية وبنى هاشم بالإسلام إنما كان ذلك الافتراق بحصار بنى هاشم فى الشعب لا غير، ولم يقع كبير فتنة؛ لأجل نسيان العصبيات والذهول عنها بالإسلام.

حتى كانت الهجرة وشرع الجهاد ولم تبق إلا العصبية الطبيعية التى لا تفارق، وهى نفرة الرجل على أخيه وجاره فى القتل والعدوان عليه، فهذه لا يذهبها شيء ولا هى محظورة، بل هى مطلوبة ونافعة فى الجهاد والدعاء إلى الدين.

كذا فى تاريخ ابن خلدون.

قلت: قوله: « ولم تبق إلا العصبية الطبيعية... إلى آخره » صحيح لا شك فيه؛ مصداقه: قول صفوان بن أمية، عندما انكشف المسلمون يوم حنين؛ إذ قال - وهو إذ ذاك مشرك فى المدة التى جعلها رسول الله ﷺ له مهلة ليسلم بعدها حين استمهله تلك فى الإسلام، وفى حفظى أنه طلب مدة شهر فأعطاه رسول الله ﷺ مهلة شهرين، فخرج معه - عليه الصلاة والسلام - إلى حنين لأخيه لما سمعه يقول: ألا بطل السحر لا يرد هاربهم إلا البحر: « بِفِيكَ الكثكث ! لأن يربنى رجل من قريش خير لى من أن يربنى رجل من هوازن رئيسهم مالك بن عوف »(٢)؛ فلا باعث له على قوله ذاك إلا العصبية الطبيعية لقومه قريش على هوازن.

ثم إن شرف بنى عبد مناف لم يزل فى بنى أمية وبنى هاشم، فلما هلك أبو طالب وهاجر بنوه مع رسول الله ﷺ وحمزة كذلك؛ ثم بعده العباس، والكثير من بنى عبد المطلب وسائر بنى هاشم - خلا الجو حينئذ من مكان بنى هاشم بمكة

(١) أخرجه أبو داود (٥١١٦) وأحمد (٢/ ٣٦١، ٣٦٦، ٥٢٣) والترمذي (٣٩٥٥، ٣٩٥٦) من حديث أبي هريرة وقال الترمذي: حديث حسن.

(٢) تقدم في غزوة حنين.

واستغلظت رياسة بنى أمية فى قريش، ثم استلحمت مشيخة قريش من سائر البطون يوم بدر وهلك فيها عظماء من بنى عبد شمس عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وعتبة بن أبي معيط، وغيرهم، فاستقل أبو سفيان بن حرب بشرف بنى أمية والتقدم فى قريش، وكان رئيسهم يوم أحد وقائدهم يوم الأحزاب، وهى وقعة الخندق.

ولما كان الفتح قال العباس - وكان صديقًا لأبى سفيان - للنبى ﷺ: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له ذكرًا غدًا - وكان ذلك ليلة دخول مكة - فقال النبى ﷺ: « من دخل دار أبى سفيان فهو آمن »[١]، ثم مَنَّ على قريش بعد أن ملكهم يومئذ وقال: « اذهبوا فأنتم الطُلَقَاءُ »[٢]، ثم أسلمت مشيخة قريش بعد ذلك، وشكت مشيخة قريش إلى أبى بكر ما وجدوا فى أنفسهم من التخلف عن رتبة المهاجرين الأولين، وما بلغهم من كلام عمر - رضى الله تعالى عنه - فى تركه شوراهم، فاعتذر إليهم أبو بكر وقال: « أدركوا إخوانكم بالجهاد »، وأنفذهم لحرب أهل الردة، فأحسنوا الغناء فى الإسلام، وقَوَّموا الأعراب عن الجنف والميل.

ثم لما ولى عمر، رمى بهم الرومَ وفارس، وأوعبت قريش فى النفير إلى الشام وكان معظمهم هنالك، واستعمل يزيد بن أبى سفيان على الشام وطال أمد ولايته إلى أن هلك فى طاعون عمواس سنة ثمان عشرة، فولى عمر مكانه أخاه معاوية بن أبى سفيان، فأقره عثمان بعد عمر، فاتصلت رياستهم على قريش فى الإسلام برياستهم قبيل الفتح التى لم تحل صبغتها ولا نسى عهدها أيام شغل بنى هاشم بأمر النبوة وتبدّد الدنيا من أيديهم بما اعتاضوا عنها من مباشرة الوحى وشرف القرب من الله تعالى برسوله.

وما زال الناس يعرفون ذلك لبنى أمية، وانظر مقالة حنظلة بن زياد الكاتب لمحمد

---

(١) أخرجه مسلم (٣/ ١٤٠٧) كتاب الجهاد: باب فتح مكة حديث (٨٦/ ١٧٨٠) وأبو داود (٢/ ١٧٨) كتاب الخراج باب ما جاء في خبر مكة حديث (٣٠٢٤) وأحمد (٢/ ٥٣٨) والدارقطني (٣/ ٦٠-٦١) كتاب البيوع حديث (٢٣٣) والبيهقي (٦/ ٣٤) كتاب البيوع: باب ما جاء في بيع دور مكة، وفي «دلائل النبوة» (٥/ ٥٦) والبغوي في «شرح السنة» (٥/ ٦٤٣، ٦٤٤- بتحقيقنا) كلهم من طريق عبد الله بن رباح عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٩/ ١١٨)، وينظر: فتح مكة.

ابن أبى بكر: « إن هذا الأمر إن صار إلى التغالب، غلبك بنو عبد مناف ».

ولما هلك عثمان، واختلف الناس على عليٍّ، كانت عساكر عليٍّ أكثر عددًا لمكان الخلافة والفضل، إلا أنها من سائر القبائل من ربيعة ويمن وهمدان وخزاعة وغيرهم، وجموع معاوية إنما هى جند الشام من قريش شوكة مضر وبأسهم، نزلوا بثغور الشام منذ الفتح، وكانت عصبته أشد وأمضَىٰ شوكة.

ثم كسر من جَنَاحِ عليٍّ - كرم الله وجهه - ما كان من أمر الخوارج، وشغل بهم إلى أن هلك، واجتمع الناس على الحسن من بعده، فحقن الدماء وسكن النائرة، ودفع الأمر إلى معاوية وخلع نفسه، واتفقت الجماعة على بيعة معاوية.

* * *

خلافة معاوية بن أبى سفيان[1]

قال العلاَّمة ابن خلدون الحضرمى فى تاريخه المسمى: « بالعِبَر وديوان المبتدأ والخبر فى أخبار العرب والعجم والبربر »: كان اتفاق الجماعة منتصف سنة إحدى وأربعين، وسمى ذلك العام « عام الجماعة » عندما نسى الناس النبوة والخوارق ورجعوا إلى أمر العصبية والتغالب وتعين بنو أمية للغلب على مضر وسائر العرب، ومعاوية يومئذ كبيرهم، فلم تتعده الخلافة ولا ساهمه فيها غيره، واستوت قدمه واستفحل شأنه واستحكمت فى مضر رياسته وتوثق عهده، وأقام فى سلطانه وخلافته عشرين سنة ينفق من بضاعة السياسة التى لم يكن أحد من قومه أوفر منه فيها؛ يدامل أهل الترشيح من ولد فاطمة وبنى هاشم وآل الزبير وأمثالهم، ويصانع رءوس العرب وقرون مضر بالإغضاء والاحتمال والصبر على الأذى والمكروه، وكانت غايته فى الحلم لا تدرك، وعصاه لا تقرع، ومرقاته فيه تزل عنها الأقدام:

منها: ما روى أنه مازح عدى بن حاتم يومًا يؤنبه بصحبة على - رضى الله تعالى عنه - فقال له عدى: « والله، إن القلوب التى أبغضناك بها لفى صدورنا، وإن السيوف التى قاتلناك بها لعلى عواتقنا، ولئن أدنيت إلينا شبرًا من الشر، لندنينَّ إليك من الشر باعًا، وإن حز الحلقوم وحشرجة الحيزوم، لأهونُ علينا من أن نسمع المساءة فى عليٍّ - كرم الله تعالى وجهه - السيف يا معاوية، يبعث السيف ! »، فقال معاوية: هذه كلمات حق فاكتبوها، وأقبل على عدى بالمقالة محدثًا.

أمه هند بنت عتبة بن ربيعة بن أمية بن عبد شمس، أسلمت يوم فتح مكة وبايعت النبى ﷺ وهو على الصفا، وعمر - رضى الله عنه - دونه، فجاءته فى نسوة من قريش يبايِعْنَ على الإسلام، وعمر - رضى الله عنه - يكلمهنَّ عن رسول الله ﷺ، فلما أخذ عليهن أن لا يشركن بالله شيئًا، قالت هند: قد علمنا أنه لو كان مع الله

---

(١) ينظر: مصادر دولة بني أمية، وينظر في ترجمة معاوية فضلا عن ذلك في موسوعة رجال الكتب الستة (٤/ ٥، ٦)، تهذيب الكمال (٣/ ١٣٤٤)، تهذيب التهذيب (١٠/ ٢٠٧)، ٣٨٥)، خلاصة تهذيب الكمال (٣/ ٣٩)، الكاشف (٣/ ١٥٧)، تاريخ البخاري الكبير (٧/ ٣٢٦)، الثقات (٣/ ٣٧٣)، أسد الغابة (٥/ ٢٠٩)، البداية والنهاية (٨/ ٢٩)، شذرات الذهب (١/ ٤١٨) تجريد أسماء الصحابة (٢/ ٨٣).

غيره، لأغنَىٰ عنا، فلما قال: « ولا يسرقن » قالت: لكنْ يا رسول الله، أبو سفيان رجل ممسك، وربما أخذتُ من ماله بغير علمه ما يصلح ولده، فقال لها رسول الله ﷺ: « خذى ما يكفيك وولدك بالمعروف »، ثم قال: « أئنك لأنت هند ؟! » قالت: نعم، يا رسول الله، اعْفُ عنى ! فقال: « عفا الله عنك »[١].

وفى رواية بعد قولها: « نعم، يا رسول الله » - أنه قال لها: « أأنتِ هند أكالة الكبود ؟! » فقالت: أنبىَ حقودٌ ؟ وكان أبو سفيان حاضرًا، فلما قال رسول الله ﷺ: « ولا يزنين »، قالت: أتزنى الحرة يا رسول الله ؟ فلما قال لها: « ولا يقتلن أولادهن »، قالت: والله ربيناهم صغارًا حتى قتلتهم أنت وأصحابك ببدر كبارًا، قال: فضحك عمر من قولها حتى مال، فلما قال: « ولا يعصينك فى معروف »، قالت: بأبى أنت وأمى ! ما أكرمك وأحسن ما دعوت إليه، والله، ما قمتُ مقامى هذا وأنا أضمر أن أخالفك فى شيء[٢].

وروى عن حميد بن وهب قال: كانت هند بنت عتبة بن ربيعة قبل أبى سفيان عند الفاكه بن المغيرة وكان من فتيان قريش، وكان له بيت للضيافة تغشاه الناس من غير إذن، فخلا البيت ذات يوم فقام الفاكه، وهند فيه، وخرج لبعض حاجاته، وأقبل رجل ممن كان يغشى ذلك البيت فولجه، فلما رأى المرأة ولَّىٰ هاربًا، فأبصره الفاكه، فانتهى إليها، فوجدها راقدة فضربها برجله، وقال: من هذا الذى كان

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٥٠) والبخاري (٤/ ٤٠٥) كتاب البيوع، باب من أجرى أمر الأمصار على ما يتعارفون بينهم، الحديث (٢٢١١)، ومسلم (٣/ ١٣٣٨) كتاب الأقضية- باب قضية هند- الحديث (٧/ ١٧١٤) أبو داود (٣/ ٨٠٢) كتاب البيوع، باب الرجل يأخذ حقه من تحت يده- الحديث (٣٥٣٢) والنسائي (٨/ ٢٤٦) كتاب آداب القضاء باب قضاء الحاكم على الغائب إذا عرفه. وابن ماجه (٢/ ٧٦٩)، كتاب التجارات- باب ما للمرأة من مال زوجها- الحديث (٢٢٩٣)، والدارمي (٢/ ١٥٩) كتاب النكاح: باب في وجوب نفقة الرجل على أهله والحميدي (١/ ١١٨) رقم (٢٤٢) والشافعي في «مسنده» (٢/ ٦٤) كتاب الطلاق: باب النفقات حديث (٢١٠، ٢١١)، وأبو يعلى (٨/ ٩٨) رقم (٤٦٣٦) وابن حبان (٤٢٤١- الإحسان) والطحاوي في «مشكل الآثار» (٢/ ٣٣٨) وابن الجارود (١٠٢٥) وعبد الرزاق (٩/ ١٢٦-١٢٧) رقم (١٦٦١٣) وابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٨/ ١٨٨) والدارقطني (٤/ ٢٣٤-٢٣٥) كتاب الأقضية والأحكام حديث (١٠٨) والبيهقي (٧/ ٤٧٧) كتاب النفقات: باب النفقة على الأولاد من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أن هندًا قالت: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل شحيح وليس يعطيني ما يكفيني وولدي إلا ما أخذت.

(٢) ينظر الحديث السابق.

عندك ؟ قالت: ما رأيت أحدًا ولا انتبهت حتى أنبهتنى، فقال لها: الحقى بأهلك، وتكلَّم فيها الناس، فخلا بها أبوها عتبة بن ربيعة، فقال لها: يا بنية، إن الناس قد أكثروا فيك فأنبئينى بذلك، فإن يكن الرجل صادقًا، دسست إليه من يقتله فتنقطع عنا القالة، وإن يكن كاذبًا حاكمته إلى بعض كهان اليمن !! قال: فحلفت له بما كانوا يحلفون به فى الجاهلية؛ أنه كاذبٌ، فقال عتبة للفاكه: إنك قد رميت ابنتى بأمرٍ عظيمٍ، فحاكمنى إلى بعض كهان اليمن.

فخرج الفاكه فى جماعة من بنى مخزوم، وخرج عتبة فى جماعة من بنى عبد مناف ومعهم هند ونسوة معها تأنسُ بهنَّ فلما أشرفوا على بلاد الكاهن، تنكر حال هند وتغيَّر وجهها، فقال لها عتبة: يا بنية، إنى قد رأيتُ ما بكِ من تغير الحال، وما ذاك إلا لمكروه عندك، فقالت: لا، والله يا أبتاه، ما ذاك لمكروه، ولكنى أعرفُ أنكم ستأتون بَشَرًا يخطئ ويصيب، فلا آمنه أن يَسِمَنِى بِسِيمَاءَ تكون علىَّ سُبَّةً فى العرب آخر الدهر، فقال لها أبوها: إنى سوف أستخبره لك قبل أن ينظر فى أمرك، فصفر لفرسه حتى أدلى ثم أدخل فى إحليله حبة من الحنطة وأَوْكَأَ عليها بسير، وصبَّحوا الكاهن فنحر لهم وأكرمهم، فلما تغدوا، قال له عتبة: إنا جئناك لأمرٍ وقد خبأت لك خبيئةً أختبرك بها فانظر ما هو، قال الكاهن: بُرَّة فى كمرة، قال عتبة: أريد أبين مِنْ هذا، قال: حبة بر فى، إحليل مهر، فقال عتبة: صدقت، انظر فى أمر هؤلاء النسوة، فجعل يدنو من إحداهنَّ ويضربُ كتفها ويقول: انهضى، حتى دنا من هند فضرَبَ كتفها، وقال: انهضى غَيْرَ وسخاء ولا زانية، وستلدينَ ملكًا يقال له معاوية، فنظر إليها الفاكه فأخذ بيدها، فنترتْ يدها من يده، وقالت: إليك عنى، فواللهِ، لأحرصنَّ أن يكون من غيرك، فتزوَّجها أبو سفيان، فجاءت منه بمعاوية بن أبى سفيان.

قال أهل العلم: وولدته فى خيف مِنًى، فهو معاوية بن أبى سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشى الأموى العبشمى، يلتقى مع رسول الله ﷺ فى جده عبد مناف بن قصى.

ولما استقلَّ معاوية بالخلافة بعد نزول الحسن له عنها، وسمى ذلك العام - وهو عَامُ إحدى وأربعين - « عام الجَمَاعة » كما تقدَّم ذلك ؛ بعث عماله على الأمصار؛

فبعث على الكوفة المغيرة بن شعبة، ويقال: إن معاوية كان ولى على الكوفة أولاً عبد الله بن عمرو بن العاص، فأتاه المغيرة بن شعبة متنصحًا، وقال: عمرو بمصر وابنه بالكوفة، فأنت بين نابي الأسد، فعزل معاوية حينئذٍ عبد الله بن عمرو عن الكوفة، وولاها المغيرة بن شعبة وبلغ ذلك عمرو بن العاص، فقال لمعاوية: إن المغيرة يحتاز المال؛ فلا تَقْدِرُ على رده منه، فاستعمل من يخافك، فقصر معاوية ولاية المغيرة على الصلاة، وولَّى على الخراج غيره.

ثم ولى على البصرة بُسْر بن أرطاة العامرى، وكان قد تغلب عليها حمران بن أبان عند صُلْح الحسن مع معاوية، فبعث إليه معاوية بُسْرًا، فخطب الناس وتعرض لعليٍّ، ثم قال: أنشد الله رجلاً يعلم أنى صادق أو كاذب إلا صدقنى أو كذبنى، فقال له أبو بكرة - وهو صحابى مشهورٌ اسمة نُفَيْع بن الحارث بن كلدة الثقفى قلت: لقب بأبى بكرة؛ لأنه كان مع ثقيف فى حصن الطائف حال حصار النبى ﷺ أهل الطائف، فنادى - عليه الصلاة والسلام -: « من أتى إلينا، فله الأمان، وهو حر »[1]، فتدلى نفيع بن الحارث هذا من أعلى الحصن ببكرة، ونزل إليه - عليه الصلاة والسلام - وأسلم، فلقب لذلك بأبى بكرة -: « اللهم، لا نعلمك إلا كاذبًا »، فأمر به يسجن، فقام أبو لؤلؤة الضبى فدفع عنه.

وكان على فارس من أعمال البصرة زياد ابن أبيه عاملاً لعليٍّ، فبعث إليه معاوية يطلبه بالمال، فقال زياد: صرفْتُ بعضه فى وجهه، واستودعْتُ بعضه للحاجة إليه، وحملت ما فضل إلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب - رحمه الله، ورضِيَ عنه - فكتب إليه معاوية بالقدوم، لينظر فى ذلك فامتنع، فلما ولى بسر، جمع عنده أولاد زياد الأكابر: عبد الرحمن وعبيد الله وعبادًا، وكتب إليه: لتقدمنَّ أو لأقتلنَّ بنيك، فامتنع زياد واعتزم بُسْر على قتلهم، فأتاه أبو بكرة وكان أخا زياد لأمه - وسيأتى ذكر ذلك - فقال لبسر: أخذتهم بلا ذنب، وصلح الحسن مع معاوية علَىٰ أصحاب عليٍّ حيث كانوا، فأمهله بسر إلى أن يأتى كتاب معاوية، ثم قدم أبو بكرة على معاوية، وقال: إن الناس لم يبايعوا علَىٰ قتل الأطفال، وإن بُسْرًا يريد قتل بنى زياد، فكتب معاوية إلى بسر بتخليتهم، وجاء إلى السجن بعد الميعاد، ولم يبق منه إلا ساعة وهم

(١) تقدم تخريجه، وينظر حصار الطائف.

موثقون للقتل، فأدركهم وأطلقهم بُسْر.

ثم عزل معاوية بسرًا وولَّى عليها عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف، ثم ولَّىٰ معاويةُ سنة اثنتين وأربعين على المدينة مروان بن الحكم، وعلى مكة خالد بن العاص بن هشام، ثم عزل مروانَ عن المدينة سنة تسع وأربعين، وولَّىٰ مكانه عليها سعيد بن العاص، ثم عزله سنة أربع وخمسين، فرد إليها مروان بن الحكم

ولما امتنع زياد ابن أبيه بفارس بعد مقتل على - كما قدَّمناه - وكان عبد الرحمن ابن أخيه لأمه أبى بكرة يلى أمواله بالبصرة - رفع إلى معاوية أن زيادًا استودَعَ أمواله عبد الرحمن، فبعث معاوية إلى المغيرة بالكوفة أن ينظر فى ذلك، فأحضر عبد الرحمن، وقال: إن يَكنْ أبوكَ أساء إليَّ، فقد أحسن عمك، وأحسن العذر عنه عند معاوية.

ثم قدم المغيرة على معاوية، فذكر معاوية له ما عنده من الوجل باعتصام زياد بفارس، وقال: داهية العرب معه أموالُ فارس يدبر الحيل؛ فلا آمن أن يبايع لرجل من أهل البيت ويعيد الحرب جذعة، فاستأذنه المغيرة أن يأتيه ويتلطَّف له، ثم أتاه وقال: معاوية بعثنى إليك وقد بايعه الحسن، ولم يكن هناك غيره، فخذ لنفسك قبل أن يستغنى معاوية عنك، قال له زياد: أَشِرْ عَلَيَّ، والمستشار مؤتمن، فقال المغيرة: أرى أن تشخص إليه وتصل حبلك بحبله وترجع عنه، فكتب إليه معاوية بأمانه وخرج زياد من فارس نحو معاوية فاعترضه عبد الله بن حازم السلمى فى جماعة وقد بعثه عبد الله بن عامر ليأتيه به، فلما رأى عبد الله بن حازم كتاب الأمان تركه.

فلما قدم زياد على معاوية، سأله عن أموال فارس، فأخبره بما أنفق وما حمله إلى على وما بقى عنده مودعًا للمسلمين، فصدَّقه معاوية وقبضه منه، ويقال: إنه قال له: أخاف أن تكون مَكَرْتَ بى فصالحنى، فصالحه على ألفَيْ درهمٍ بعث بها إليه واستأذنه فى نزول الكوفة فأذن له، وكان المغيرة يكرمه ويعظمه.

وكتب إليه معاوية أن يُلزم زيادًا، وحجر بن عدى، وسليمان بن صرد، وشبيب ابن ربعى، وابن الكواء، وابن الحمق، وهؤلاء أصحاب على - رضى الله تعالى عنه - بالصلاة فى الجماعة، فكانوا يحضُرُونَ الصلاة.

وفى سنة ثلاث وأربعين أو التى قبلها: كان استلحاق معاوية زيادًا، قال العلامة ابن خلدون: كانت سُمَيَّة أم زياد مولاة للحارث بن كلدة الثقفى الطبيب، وولدت منه أبا بكرة نفيع بن الحارث، ثم زوَّجها بمولًى له، فأتتْ منه بابن سماه نافعًا، ثم إن أبا سفيان قد ذهب إلى الطائف فى بعض حاجاته، فأصاب سمية هذه ببعض أَنْكِحَةِ الجاهلية، وولدَتْ زيادًا هذا ونسبته إلى أبى سفيان، وأقرَّ لها به، إلاَّ أنه كان يخفيه.

قلت: هذا ما ذكره ابن خلدون، ورأيتُ المسعودى فى مروجه[١] قال ما نصه: ذهب أبو سفيان إلى الطائف لتجارة، فنزل على أبى مريم السلولى - خَمَّار بالطائف - فقال لما طالت إقامته: إن ابنة عتبة لا أتمكَّنُ معها بامرأة، وقد طالت عزوبتى فأبغنى بغيًا، فقال أبو مريم: لا أعلم الآن إلا سمية أمة الحارث بن كلدة، قال: فأتنى بها، فأتاه بها، ثم أخذ أبو سفيان بكُمِّ درعها، فأدخلها فى حجرة من الدار، ثم خرج وجبينه يرشحُ عرقًا ونفسه يتتابع. قال أبو مريم: فقلت له: كيف رأيتها ؟ فقال: لا بأس بها لولا استرخاء فى ثدييها، وذفر فى إبطيها[٢].

قال ابن خلدون: ولما شَبَّ زياد، سمت به النجابة، واستكتبه أبو موسى الأشعرى لما كان على البصرة واستكفاه عمر - رضى الله عنه - فى أمر، فحسن غَنَاؤه فيه، وحضر زياد عنده يعلمه بما صنع، فأبلغ ما شاء فى الكلام، فقال عمرو ابن العاص، وكان حاضرًا: لِلَّهِ هذا الغلامُ !! لو كان أبوه من قريش ساق العَرَبَ بعصاه، فقال أبو سفيان وعلى - رضى الله عنه - يسمع: واللهِ إنى لأعرف أباه، ومَنْ وضعه فى رَحِمِ أُمِّهِ، فقال له على - رضى الله تعالى عنه -: اسكُتْ، فلو سمع عمر هذا منك، كان إليك سريعًا.

ثم استعمل على - رضى الله تعالى عنه - زيادًا على فارس فضبطها، فكتب إليه معاوية يتهدده ويعرض له بولادة أبى سفيان إياه، فقام زياد فى الناس خطيبًا فقال: عجبًا لمعاوية يخوِّفنى وبينى وبينه ابن عم الرسول فى المهاجرين والأنصار.

وكتب إليه على - رضى الله تعالى عنه -: إنى قد وليتك وأنا أراك أهلاً، وقد

---

(١) ينظر: مروج الذهب (٣/ ١٥، ١٦).
(٢) في مروج الذهب: من فيها، والكلام ليس بنصه من المروج.

كان من أبى سفيان فلتة من أمانى الباطل وكذب النفس لا توجبُ ميراثًا ولا نسبًا، ومعاوية يأتى الإنسان من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، فاحذر ثم احذر، والسلام.

ولما قتل على - رضى الله تعالى عنه - وصالح زياد معاوية وَضَعَ زياد مصقلة بن هبيرة الشيبانى علىٰ معاوية؛ ليعرِّض له بنسب أبى سفيان ففعل، ورأى معاوية أن يستميله باستلحاقه فالتمس الشهادة بذلك ممن عَلِمَ لحوق نسبه بأبى سفيان، فشهد له رجل من أهل البصرة وألحقه، وكان أكثر شيعة عَلِى ينكرون ذلك وينقمون على معاوية، حتى أخوه لأمه أبو بكرة.

وكتب زياد إلى عائشة - رضى الله تعالى عنها - فى بعض الأحيان: « من زياد ابن أبى سفيان » يستدعى جوابها بهذا النسب؛ ليكون جوابها له حجة، فكتبت إليه: « من عائشة أم المؤمنين إلى ابنها زياد »، وكان عبد الله بن عامر يبغض زيادًا، فقال يومًا لبعض أصحابه: ابن سمية يقبِّح آثارى ويعترض معاوية، فأمر معاوية حاجبه عما لى، لقد هممت أن آتى بقسامة من قريش أن أبا سفيان طرير سمية. فوصل الخبر إلى زياد، فأخبر به معاوية فأمر معاوية حاجبه أن يرد عبد الله بن عامر من أقصى الأبواب فرد، فشكا ذلك إلى ابنه يزيد، فركب معه وأدخله على معاوية، فلما رآه، قام من مجلسه ودخل إلى بيته، فقال يزيد: نقعد فى انتظاره، فلم يزالا حتى خرج، وغدا ابن عامر يعتذر فيما كان منه من القول فى زياد، فقال معاوية: إنى لا أتكثر بزياد من قِلَّة، ولا أتعزَّز به من ذلَّة، ولكن عرفت حقًّا للَّه فوضعته موضعه.

وخرج ابن عامر يترضى زيادا ورضى معاوية له.

وفى استلحاق معاوية زيادًا يقول يزيد بن مفرغ الحميرى: [من الوافر]

ألا أَبْلِغْ مُعَاوِيَةَ بْنَ حَرْبٍ ... مُغَلْغَلَةً مِنَ الرَّجُلِ اليَمَانِي

أَتَغْضَبُ أَنْ يُقَالَ: أَبُوكَ عَفٌّ ... وَتَرْضَىٰ أَنْ يُقَالَ: أَبُوكَ زَانِى ؟!

فَأَشْهَدُ أَنَّ رَحْمَكَ مِنْ زِيَادٍ ... كَرَحْمِ الفِيلِ مِنْ وَلَدِ الأَتَانِ

وفى زياد وأخويه لأمه نُفَيع ونافع يقول حارث بن صريم الحارثى: [من المنسرح]

إِنَّ زِيَادًا وَنَافِعًا وَأَبَا ... بَكْرَةَ عِنْدِى مِنْ أَعْجَبِ العَجَبِ

إِنَّ رجـالاً ثَـلاَثَـةً خُـلِـقُـوا مِنْ رَحْمِ أُنْثَىٰ مُخَالِفِي النَّسَبِ
ذَا قُـرَشـيٌّ فِـيـمَـا يَـقُـولُ وَذَا مَوْلَى وَهَذَا بِالزَّعْمِ مِنْ عَرَبِ[١]

وفى سنة خمس وأربعين: عزل معاوية الحارث بن عبد الله الأزدى عن البصرة، وولى عليها زيادًا، وجمع له خراسان وسجستان، ثم جمع له السند والبحرين وعمان.

وفى البصرة خطب خطبته البتراء، وإنما سميت بتراء؛ لأنه لم يفتتحها بالحمد والثناء.

وفى سنة سبع وأربعين: كان الطاعون بالكوفة، وعليها المغيرة بن شعبة، فهرب منها ثم عاد إليها فمات، فضمها إلى زياد مع البصرة، فهو أول من جمع له ولاية العراقَيْنِ: البصرة والكوفة[٢].

وفى سنة ثمان وأربعين قبض معاوية فدك من مروان بن الحكم[٣]، وكان وهبها له عثمان، رضى الله عنه.

وفى سنة خمسين: حج معاوية، وأمر بحمل المنبر من المدينة إلى الشام، فكسفت الشمس، ورئيت الكواكب، فجزع لذلك وأعظمه ورده إلى موضعه، وزاد فيه ست مراقٍ.

وبعث جيشًا كثيفًا إلى بلاد الروم مع سفيان بن عوف، وندب يزيد ابنه إلى الخروج معهم، فتثاقل فتركه، ثم بلغ الناس أن الغزاة أصابهم جوع ومرض، فأنشد يزيد: [من البسيط]

أَهْوِنْ عَلَيَّ بما لاقَتْ جموعُهُمُ يَوْمَ الطوانةِ مِنْ حُمَّىٰ ومِنْ شُومِ
إِذَا اتَّكَأتُ عَلَى الأنماطِ مُرْتَفِقًا بِـدَيْـرِ مرَّانَ عِـنْـدِى أُمُّ كُـلْـثُـومِ

قلت: أم كلثوم زوجته بنت عبد الله بن عامر بن كريز المتقدِّم ذكر قوله فى زياد: «لقد هممت أن آتى بقسامة...».

---

(١) ينظر الشعر في مروج الذهب (٣/ ١٧) والشطر الأخير فيه هكذا:
.... مـولى، وهـذا بـزعـمـه عـربي

(٢) ذكر الحافظ الذهبي أن هذه الحادثة كانت في سنة خمسين، ينظر تاريخ الإسلام حوادث سنة خمسين وينظر تاريخ الطبري (٥/ ٢٣٤)، والكامل في التاريخ (٣/ ٤٦١).

(٣) ينظر تاريخ خليفة (٢٠٨) فتوح البلدان (٥٣١)، تاريخ الإسلام حوادث سنة ثمان وأربعين.

فلما بلغ قوله هذا أباه معاوية، حلف ليلحقنَّهُ بهم، فسار يزيد فى جمع كثير جمعه له معاوية، فيهم ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو أيوب الأنصارى، فأوغلوا فى بلاد الروم وبلغوا القسطنطينية، وقاتلوا الروم عليها، فاستشهد أبو أيوب الأنصاريُّ، ودفنوه قريبًا من سورها، ورجع يزيد والعساكر إلى الشام[1].

وكان المغيرة بن شعبة أيام إمارته على الكوفة كثيرًا ما يتعرَّض لَعِلِىّ فى مجالسه وخُطَبِهِ ويترحَّم على عثمان ويدعو له، وكان حجر بن عَدِيٍّ بن حاتم الطائى إذا سمعه يقول: إياكم قد أضلَّ الله ولعن، ثم يقول: « أشهد أنَّ مَنْ تذمُّون أَحَقُّ بالفَضْلِ، وَمَنْ تُزكُّونَ أولَىٰ بالذَّمِّ »، فيعذله المغيرة ويقول: « يا حجر، اتق غضب السلطان وسَطْوته؛ فإنها تهلك أمثالك » لا يزيده على ذلك.

ولما كان آخر إمارته، قال فى بعض أيامه مثل ما كان يقول، فصاح به حجر: « مُرْ لنا بأرزاقنا؛ فقد حبستها عنا، وأصبحْتَ مولعًا بذَمِّ خَيْرِ الناسِ »، وصاح الناس به من جوانب المسجد: صدق حجر، فمُرْ لنا بأرزاقنا، فالذى أنت فيه لا يُجدى علينا نفعًا. فدخل المغيرة إلى بيته، وعذله قومه فى جرأة حجر عليه بوهن سلطانه ويسخط عليه معاوية، فقال المغيرة: لا أحب أن أسعى بقتل أحد من أهل المصر، وسيأتى بعدى من يصنع معه مثل ذلك فيقتله.

ثم توفى المغيرة، وولى زياد كما تقدَّم، فلما قدم، خطب الناس وترحَّم على عثمان، ولعن قاتله، فقال حجر ما كان يقول، فسكت عنه زياد، ورجع إلى البصرة واستخلف على الكوفة عمرو بن حريث، وبلغه أن حجرًا تجتمع عليه شيعة عليٍّ ويعلنون بلعن معاوية والبراءة منه، وأنهم حصبوا عمرو بن حريث، فشخص زياد إلى الكوفة حتى دخلها، ثم خطب الناس وحُجْرٌ جالس يسمع، فتهدده، وقال: لست بشيء إن لم أمنع الكوفة من حجر وأدعه نكالاً لمن بعده. ثم بعث إليه فامتنع من الإجابة، فبعث صاحب الشرطة شداد بن هيثم الهلالى إليه فى جماعة، فسبَّهم أصحاب حجر، فجمع زياد أهل الكوفة وهددهم، فتبرءوا، فقال: ليدعُ كل رجل منكم عشيرته الذين عند حُجْر، ففعلوا، حتى إذا لم يبق معه إلا قومه، قال زياد

---

(١) ينظر: «تاريخ خليفة» (٢١١) «تاريخ الطبرى» (٥/ ٢٣٢) جمهرة أنساب العرب (٢٨٣) تاريخ الإسلام حوادث سنة خمسين.

لصاحب الشرطة: انطلق إليه فائتنى به طوعًا أوكرهًا. فلما جاء يدعوه، امتنع من الإجابة وحمل عليهم، وأشار عليه أبو القمطرة الكندى بأن يلحق بكندة فيمنعوه، هذا وزياد على المنبر ينتظر، ثم غشيهم أصحاب زياد، وضرب عمرو بن الحمق الخزاعى فسقط ودخل فى دور الأزد فاختفَىٰ، وخرج حجر من أبواب كندة فركب ومعه أبو القمطرة إلى دور قومه واجتمع إليه الناس، ولم يأته من كندة إلا قليل.

ثم أرسل زياد وهو على المنبر إلى مدلج وهمدان ليأتوه بحُجْر، فلما علم أنهم قصدوه، تسرَّب من داره إلى النخع، ونزل على أخى الأشتر، وبلغه أن الشرطة تسأل عنه فى النخع، فأتى الأزد، واختفى عند ربيعة بن ناجد، وأعياهم طلبه، فدعا زياد محمد بن الأشعث، وقال: لئن لم تأتنى به، لأقطعنك إربًا إربًا. فاستمهله ثلاثة أيام، فأمهله حتى بعث حجر بن عدى إلى محمد بن الأشعث أن يأخذ له أمانًا من زياد حتى يبعث به إلى معاوية، فجاء محمد بن الأشعث ومعه جرير بن عبد الله، وحجر بن زيد، وعبد الله بن الحارث أخو الأشتر، فاستأمنوا له زيادًا، فأجابهم، ثم أحضروا حجرًا فحبسه.

ثم طلب أصحابه، فخرج عمرو بن الحمق الخزاعى من أصحاب حُجْر شيعة علىّ إلى الموصل، ومعه رفاعة بن شداد، فاختفى فى جبل هنالك، فرفع خبرهما إلى عامل الموصل وهو عبد الرحمن بن عثمان الثقفى - ابن أخت معاوية، ويعرف بابن أم الحكم - فسار إليهما فهرب رفاعة، وقبض على عمرو، وكتب إلى معاوية بذلك، فكتب معاوية إلى زياد: إن عمرو بن الحمق طعن عثمان تسع طعنات، وقال حين طعنه: ست لله تعالى، وثلاث لما فى نَفْسِى. فاطعنه يا زياد كذلك تسع طعنات. فطعن فمات فى الأولى والثانية، فكملتْ عليه ميتًا.

ثم جَدَّ زياد فى طلب أصحاب حجر، فأتى بقبيصة بن ضبيعة العبسى بأمان فحبسه، وجاء قيس بن عباد الشيبانى برجل من قومه من أصحاب حجر فأحضره زياد، وسأله عن على بن أبى طالب، فأثنىٰ عليه فضربه وحبسه، وعاش قيس بن عباد حتى قاتل مع ابن الأشعث، ثم دخل بيته فى الكوفة وسعى به إلى الحجاج فقتله، ثم أرسل زياد إلى عبد الله بن خليفة الطائى من أصحاب حجر، فتوارى عنه وجاء الشرط فأخذوه، ونادت أخته النَّوَّار بقومه فخلصوه، فأخذ زياد عدى بن

حاتم، وهو فى المسجد، وقال: ائتنى بعبد الله بن خليفة الطائى وخبره، فقال له: آتيك بابن عمى تقتله ؟! والله لو كان تحت قدمى ما رفعتها عنه، فحبسوه، فنكر الناس عليه ذلك وكلموه، وقالوا: تفعل هذا بصاحب رسول الله ﷺ وكبير طيئ ؟! فقال زياد: أخرجه علَىَّ أن يخرج ابن عمه عنى، فأطلقه وأمر عدى عبد الله أن يلحق بجبلى طيئ، فلم يزل هنالك حتى مات. وأتى زياد بكريم بن عفيف الخثعمى من أصحاب حجر وغيره.

ولما جمع منهم اثنَىْ عشر فى السجن، دعا رؤساء الأرباع، وهم يومئذ عمرو بن حريث على ربع أهل المدينة، وخالد بن عروة على ربع تميم وهمدان، وقيس بن الوليد على ربع ربيعة وكندة، وأبو بردة بن أبى موسى على ربع مذحج وأسد، فشهدوا كلهم أن حجرًا جمع الجموع وأظهر شتم معاوية ودعا إلى حربه، وزعم أن الإمارة لا تصلح إلا فى الطالبيين ووثب بالمصر وأخرج العامل، وأظهر عذرَ أبى تراب والترحُّمَ عليه.

أقول: نعم، رحمة الله عليه ورِضَاهُ، والبراءة من عدوه ومن أهل حربه.

وإن النفر الذين معه وهم رءوس أصحابه على مثل رأيه.

ثم استكثر زياد من الشهود، فشهد إسحاق وموسى ابنا طلحة، والمنذر بن الزبير، وعمارة بن عقبة بن أبى معيط، وعمر بن سعد بن أبى وقاص، وغيرهم، وكتب فى الشهود شريح بن الحارث القاضى وشريح بن هانئ.

ثم استدعى زيادُ وائل بنَ حُجر الحضرمى، وكثير بن شهاب، ودفع إليهما حُجْرًا وأصحابه، وهم الأرقم بن عبد الله الكندى، وشريك بن شداد الحضرمى، وصيفى ابن فضيل الشيبانى، وقبيصة بن ضبيعة العبسى، وكريم بن عفيف الخثعمى، وعاصم بن عوف البجلى، وورقاء بن سمى البجلى، وكرام بن حيان العنزى، وعبد الرحمن بن حسان العنزى - أيضًا - ومحرز بن شهاب التميمى، وعبد الله بن حوية السعدى، ثم أتبع هؤلاء الاثنى عشر بعتبة بن الأخنس بن سعد بن بكر، وسعد ابن عمران الهمدانى، وأمرهما أن يسيرا بهم إلى معاوية، ثم لحقهما شريح بن هانئ، وأرسل كتابًا إلى معاوية دفعه إلى وائل بن حجر الحضرمى.

فلما انتهوا إلى مرج عذراء قرب دمشق، تقدم وائل وكثير إلى معاوية، وقرأ كتاب

شريح بن هانيء، وفيه: بلغنى أن زيادًا كتب شهادتى، وإنى أشهد على حُجْر أنه ممن يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ويديم الحج والعمرة ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حرامُ الدم والمال، فإن شئت فاقتله أو فدعه، فقال معاوية: ما أرى هذا إلاَّ أخرج نفسه من شهادتكم، يعنى: شريح بن هانئ. وحبس القوم بمرج عذراء حتى لحقهم عتبة بن الأخنس، وسعد بن عمران اللذَيْنِ ألحقهما بهم زياد، وجاء عامر بن الأسود العجلى إلى معاوية، فأخبره بوصولهما، فاستوهب يزيد بن أسد البجلى عاصمًا وورقاء ابنى عمه، وقد كتب جرير يزكيهما، ويشهد ببراءتهما، فأطلقهما معاوية، وشفع وائل بن حُجر فى الأرقم، وأبو الأعور السلمى فى ابن الأخنس، وحبيب بن سلمة فى أخويه فتركهم، وسأله مالك بن هبيرة فى السكونى فردَّهُ، فغضب وجلس فى بيته.

وبعث معاوية هدبة بن فياض القضاعى، والحصين بن عبد الله الكلابى، وأبا شريف البدى إلى حجر وأصحابه، ليقتلوا منهم من أمر بقتله، فأتوهم وعرضوا عليهم البراءة من عَلِىّ، فأبوا وصَلَّوْا عامَّة ليلتهم، ثم قدموا من الغد للقتل، فتوضأ حُجْر وصلىٰ وقال: والله لولا أن يظنوا بى الجزع من الموت، لاستكثرت منها، اللهم إنا نستعديك على أمتنا، أهل الكوفة يشهدون علينا، وأهل الشام يقتلوننا، ثم مَشَىٰ إليه هدبة بن فياض بالسيف فارتعد، فقالوا له: كيف وأنت تزعم أنك لا تجزع من الموت، فابرأ من صاحبك ونحن ندعك ! فقال: وما لى لا أجزع، وأنا بين القبر والكفن والسيف، وإن جزعت من القتل، لا أقول ما يسخط الرب فقتلوه، وقتلوا خمسة معه: شريك بن شداد، وصيفى بن فضيل، وقبيصة بن ضبيعة، ومحرز ابن شهاب، وكرام بن حيان، وصَلَّوْا عليهم ودفنوهم.

وجيء بعبد الرحمن بن حيان العنزى، وكريم الخثعمى إلى معاوية، فوعظه الخثعمى، وطلبه معاوية البراءة من على، فسكت واستوهبه سمرة بن عبد الله الخثعمى، فوهبه له عَلَىٰ ألاَّ يدخل الكوفة، فنزل الموصل، ثم سأل معاوية عبد الرحمن بن حسان عن على، فأثنى خيرًا، ثم عن عثمان، فقال: أول من فتح باب الظلم، وأغلق باب الحق، فرده إلى زياد ليقتله شَرَّ قِتْلة، فدفنه زياد حَيًّا، فهو سابع القوم.

وأما مالك بن هبيرة السكونى، فلما لم يشفعه معاوية فى حُجر، جمع قومه وسار

ليخلصه وأصحابه، فلقى القتلة وسألهم، فقالوا: تاب القوم، وسار إلَى عذراء فتيقن قتلهم، فأرسل فى أثر القتلة، فلم يدركوهم، وأخبر معاوية بما فعل مالك، فقال: تلك حرارة يجدها فى نفسه، وكأنى بها قد طُفِئَتْ، ثم بعث إليه بمائة ألف، وقال: خفت أن يعيد القوم حربًا؛ فتكون على المسلمين أعظم من قتل حُجْر، فطابتْ نفس مالك. ولما بلغ عائشة خبر حجر وأصحابه، أرسلت عبد الرحمن بن الحارث إلَى معاوية تشفع، فجاء وقد قتلوا، فقال لمعاوية: أين غاب عنك حلم أبى سفيان ؟ قال: حين غاب عنى مثلك من حلماء قومى، وحملنى ابن سمية فاحتملت. وأسفت عائشة على قتل حُجْر وكانت تُثْنِى عليه.

قلت: وحجر هذا هو حجر بن عدى بن حاتم الطائى المشهور بالكرم، وأبوه عدى صحابى رضى الله تعالى عنه. وقيل: إن لحُجر ابنِهِ هذا صُحْبَة، ولم يصح.

وفى سنة ثلاث وخمسين مات زياد ابن أبيه فى رمضان بطاعون أصابه فى يمينه خرجت بها قرحة يقال: إنها بدعوة عبد الله بن عمر بن الخطاب؛ وذلك أن زيادًا كتب إلى معاوية: إنى ضبطت العراق بشمالى، ويمينى فارغة، فاشغلها بالحجاز، فكتب له عهدًا بذلك، وجمع له الحجاز مع العراقَيْن، وخاف أهل الحجاز من ذلك.

قال العلامة المَسْعُودِى[١]: لما سمع بولايته أهل المدينة اجتمع الكبير والصغير بمسجد رسول الله ﷺ، وقدَّموا ابن عمر فاستقبل القبلة ودعا معهم، وكان من دعائه أن قال: اللهم، اكفنا يمين زياد، وضَجُّوا إلى الله تعالى، ولاذوا بقبر النبى ﷺ ثلاثة أيام؛ لِعِلْمِهِم بظلمه وجوره وفسقه.

ولما خرجت بكفه تلك البثرة، حكها ثم مدت واسودَّتْ، فصارت آكلة سوداء، فاستدعىٰ شريحًا القاضى، واستشاره فى قطع يده، فقال له: لك رزق مقسوم، وأجل معلوم، وإنى أكره إن كانت لك مدة أن تعيش أجذم، وإن حم أجلك، أكره أن تلقى ربك مقطوع اليد، فإذا سألك: لم قطعتها ؟ قلت: بغضًا لك، وفرارًا من قضائك، فقال: لا أبيت والطاعون فى لحافٍ واحدٍ، واعتزم عَلَىٰ قطعها، فلما نظر

(١) ينظر: مروج الذهب (٣/ ٣٥).

إلى النار والمكاوى، جزع وتركه، وقيل: تركه لإشارة شريح القاضى، وعذل[١] الناس شريحًا فى تلك الإشارة، فقال لهم: وددت لو أن الله قطع يده يومًا، ورجله يومًا، وسائر جسده يومًا يومًا، ولكن المستشار مؤتمن.

وكان زياد قد جمع الناس بباب قصره يعرضهم[٢] على لعن على بن أبى طالب، لعن الله اللاعنَ والعارضَ، فمن أبىٰ عرضه على السيف.

وذكر عبد الرحمن بن السائب قال: حضرتُ فصرت إلى الرحبة، [ومعي جماعة من الأنصار]، فنمت فرأيت فى منامى وأنا جالس فى جماعة، رأيتُ شخصًا طويلاً قد أقبل، فقلت: من هذا ؟! قال: أنا النقاد ذو الرقبة، بعثت إلى صاحب هذا القصر، فانتبهت فزعًا فما كان إلا مقدار ساعة حتى خرج خارج من القصر، فقال: انصرفوا، فالأمير عنكم مشغول، وإذا به قد أصابه ما ذكرنا من البلاء فى كفه- وفى ذلك يقول عبد الله بن السائب من أبيات: [من البسيط]

مَا كَانَ منتهيًا عَمَّا أَرَادَ بنا حتَّىٰ أُتِيحَ[٣] لَهُ النَّقَّادُ ذو الرَّقَبَهْ
فَأَسْقَطَ الشِّقَّ مِنْهُ ضَرْبَةٌ ثَبَتَتْ لَمَّا تَنَاوَلَ ظُلْمًا صَاحِبَ الرَّحَبَهْ[٤]

قلت: « صاحب الرحبة » يريد به على بن أبى طالب؛ لأنه دفن فى رحبة مسجد الكوفة على أحد الأقوال فى موضع قبره، وقد ذكرت الاختلاف فيه فيما تقدَّم -: فهلك وهو ابن خمس وخمسين، ودفن بالثومة من أرض الكوفة، لا رحمه الله.

قال يومًا لجلسائه: من أنعَم الناس عيشًا ؟ قالوا: أمير المؤمنين، قال: هيهات، فأين ما يَلْقَىٰ من الرعية ؟! قالوا: فأنت أيها الأمير، قال: فأين ما يَرِدُ علينا من الثغور والخراج ؟! بل أنعمهم عيشًا: من له سدادٌ من عَيْشٍ، وحَظٌّ من دِينٍ، وامرأةٌ حسناءُ رضيها ورضيته، لايعرفنا ولا نعرفه.

ولما توفى زياد، قدم ابنه عبيد الله على معاوية، وهو ابن خمس وعشرين سنة، فقال له معاوية: من استعمل أبوك على المصرين؟ فأخبره، فقال معاوية: لو استعملك أبوك لاستعملتك، فقال له عبيد الله: أنشدك الله أن يقول لى أحد

(١) أى: ولام.
(٢) في المروج: يحرضهم.
(٣) في المروج: تَأَتّي.
(٤) انظر الشعر في المروج (٣/ ٣٥-٣٦).

بعدك: لو استعملك أبوك لاستعملتك، فولاه خراسان من البصرة سنة خمس وخمسين، ووصاه فكان من وصيته: « اتق الله، ولاتؤثرنَّ على تقواه شيئًا؛ فإن فى تقواه عوضًا، وَقِ عرضك من أن تذله، وإذا أعطيت عهدًا، فأوف به، ولاتتبعن كثيرًا بقليل، ولايخرجنَّ منك أمر حتى تبرمه، فإذا خرج فلا يردن عليك. وإذا لقيت عدوك فكبِّر أكبر من معك، وقاسمهم على كتاب الله، ولاتطْمعنَّ أحدًا فى غير حقه، ولاتؤيسنَّ أحدًا من حق هو له »، ثم ودَّعه وسار، وذلك فى أول سنة أربع وخمسين من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة والتحية.

ذكر أن معاوية تنازع إليه عمرو بن عثمان بن عفان - رضى الله تعالى عنه - وأسامة بن زيد بن حارثة مولَىٰ رسول الله ﷺ - رضى الله عنه - فى أرض، فقال عمرو لأسامة: كأنك تنكرنى؟! فقال له أسامة: مايسرنى نسبك بولائى، فقام مروان بن الحكم، فجلس إلى جانب عمرو بن عثمان، فقام الحسن بن على بن أبى طالب، فجلس إلى جنب أسامة، فقام سعيد بن العاص، فجلس إلى جنب مروان، فقام الحسين بن على، فجلس إلى جنب الحسن، فقام عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة بن عبد شمس، فجلس إلى جنب سعيد بن العاص، فقام عبد الله بن جعفر بن أبى طالب، فجلس إلى جنب الحسين، فقام عبد الرحمن بن الحكم، فجلس إلى جنب عبد الله بن عامر، فقام عبد الله ابن العباس، فجلس إلى جنب عبد الله بن جعفر.

فلما رأى ذلك معاوية قال: لاتعجلوا أنا كنت شاهدًا: إذ أقطعها رسول الله ﷺ أسامة بن زيد فقام الهاشميون فخرجوا ظاهرين، وأقبل عليه الأمويون، وقالوا: هلا كنت أصلحت بيننا؟! قال: دعونى، فو الله ماذكرت عيونهم تحت المغافر بصفِّين إلا لبس على عقلى، وإن الحرب أولها نجوى، وأوسطها شكوى، وآخرها بلوى، ثم تمثل بأبيات عمرو بن معدى كرب: [من الكامل]

أَلْـحَربُ أَوَّلُ مَا تَـكُونُ فَتِيَّة ....

وقد تقدم ذكرها فى آخر خلافة عمر، رضى الله تعالى عنه.

ثم قال: ما فى القلوب يشب الحروب، والأمر الكبير، يبعثه الأمر الصغير.

ومما ذكره المسعودى[1] قوله: ضحك معاوية ذات يوم ضحكًا ذهب به كل

---

(١) ينظر: المروج (٣/ ٢٩).

مذهب، فقال عمرو بن العاص: لم تضحك يا أمير المؤمنين، أضحك الله سنك؟! فقال معاوية: أضحك من تغوّر[١] ذهنك يوم بارزت عليًّا وإبدائك سوءتك، أما والله يا عمرو، لقد واقعت المنايا، ورأيت الموت عيانا، ولو شاء لقتلك، ولكن أَبَى ابنُ أَبى طالب فى أمرك[٢] إلا تكرُّمًا. فقال عمرو: أما والله، إنى لعَنْ يمينك حين دعاك للبرازِ، فاحولَّتْ عيناك، وبدا[٣] سحرك، وبدا منك ما أكره ذكره؛ فمن نفسك فاضحك أو فدع.

دخل عبد الله بن عباس على معاوية وعنده وجوه قريش، فقال له معاوية إنى سائلك عن مسائل، قال ابن عباس: سل عما بدا لك، قال: فما تقول فى أبى بكر؟ قال: رحم الله أبا بكر، كان والله للفقراء رحيمًا، وللقرآن تاليًا، وعن المنكر ناهيًا، وبربه عارفًا، ومن الله خائفًا، وعن الشبهاتِ زاجرًا، وبالمعروف آمرًا، وبالليل مصليًا، وبالنهار صائمًا، ففاق أصحابه ورعًا وكفافًا، وسادهم زهدًا وعفافًا، فغضب الله على مَنْ تنقَّصه أو طعن فيه .

قال: ماتقول فى عمر؟ قال: رحم الله عمر أبا حفص، كان والله كهف الإسلام، ومأوى الأيتام، ومثنى الإحسان، ومحل الإيمان، وكهف الضعفاء، ومعقل الصفاء، قام بحق الله صابرًا محتسبًا، حتى أوضح الدين وفتح البلاد، وأمَّنَ العباد، فأعقب الله من يبغضه اللعنة إلى يوم القيامة.

قال فما تقول فى عثمان بن عفان؟ قال: رحم الله عثمان، كان والله أكرمَ الحَفَرَة، وأفضل البررة، هجادًا بالأسحار، كثير الدموع عند ذكر النار، نهاضًا إلى كل مكرمة، سباقًا إلى كل مُنْجِيَةٍ، حَيِيًّا وفيًّا، صاحب جيش العسرة، وختَنَ رسولِ الله ﷺ، فأعقب الله من طعن عليه لعنة اللاعنين إلى يوم القيامة.

قال: فما تقول فى عَلِى بن أبى طالب؟ قال: رحم الله عليًّا، كان والله علم الهدى، وكهف التقى، وبدر الحجى، وبحر الندى، وطود النهى، وكهف الورى، داعيًا إلى الحجة العظمى، مستمسكًا بالعروة الوثقى، خير من آمن واتقى، وأفضل

---

(١) في المروج: حضور.
(٢) في المروج: قتلك.
(٣) في ط: ربا. والمثبت من المروج.

من تقمص وارتدى، وأحبَّ من انتعل وسعى، وأفصح من تنصت وقرا، وأكبر من شهد النجوى، سرى الأنبيا، والنبى المصطفىٰ، صاحب القبلتين، فهل يوازيه أحد، وأبو السبطين، فهل يقاربه بشر، زوجته خير النسوان، فهو بفرقه فاضل، وهو للأسود قتال، وفى الحروب يختال، لم تر عينى مثله، فعلى من تَنَقَّصَهُ لعنة الله والعباد إلى يوم القيامة.

قال معاوية: يابن عباس، قد أكثرت فى ابن عمك، فما تقول فى أبيك العباس؟ فقال: رحم الله أبا الفضل، كان صنو نبى الله، وقرة عين صفى الله، سيد الأعمام، وله أخلاق آبائه الأمجاد، وأحلام أجداده الأجواد، تباعدت الأسباب عند فضله، صاحب البيت والسقاية، والمشاعِرِ والتلاوة، ولم لايكون كذلك، وهو يشابه أكرم من دَبَّ وهَبَّ، عبد المطلب.

فقال معاوية: يابن عباس، أشهد أنك نَبِيْهُ أهل بيتك، قال ابن عباس: ولم لا أكون كذلك، وقد قال لى رسول الله ﷺ: « اللهم فقهه فى الدين، وعلمه التأويل »[1].

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ٢٩٤) كتاب الوضوء: باب وضع الماء عند الخلاء حديث (١٤٣) ومسلم (٤/ ١٩٢٧) كتاب فضائل الصحابة: باب فضائل عبد الله بن عباس حديث (١٣٨/ ٢٤٧٧)، وأحمد (١/ ٣٢٧) والنسائي في «الكبري» (٥/ ٥١-٥٢) كتاب المناقب: باب عبد الله بن العباس حديث (٨١٧٧) وأبو يعلى (٤/ ٤٢٧) رقم (٢٥٥٣) وابن حبان (١٥/ ٥٢٩) رقم (٧٠٥٣) والطبراني في «الكبير» (١١/ ١٠٤) رقم (١١٢٠٤) كلهم من طريق هاشم بن القاسم ثنا ورقاء بن عمر اليشكري عن عبيد الله بن أبي يزيد عن ابن عباس به.

وأخرجه البخاري (١/ ٢٠٤) كتاب العلم: باب قول النبي ﷺ: «اللهم علمه الكتاب حديث (٧٥)، و(٧/ ١٢٦)، كتاب فضائل الصحابة: باب ذكر ابن عباس رضي الله عنهما حديث (٣٧٥٦)، (١٣/ ٢٥٩) كتاب الاعتصام حديث (٧٢٧٠) والترمذي (٥/ ٦٨٠) كتاب المناقب: باب مناقب عبد الله بن عباس حديث (٣٨٢٤) والنسائي في «الكبري» (٥/ ٥٢) كتاب المناقب حديث (٨١٧٩) وابن ماجه (١/ ٥٨) المقدمة: باب فضائل أصحاب رسول الله ﷺ حديث (١٦٦)، وأحمد (١/ ٢١٤، ٣٥٩) والفسوي في «المعرفة والتاريخ (١/ ٥١٨) وابن حبان (١٥/ ٥٣٠) رقم (٧٠٥٤) والطبراني في «الكبير» (١٠/ ٢٩٣) رقم (١٠٥٨٨) كلهم من طريق خالد الحذاء عن عكرمة عن ابن عباس، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وأخرجه أحمد (١/ ٢٦٩) والطبراني في «الكبير» (١١/ ٢١٣) رقم (١١٥٣١) كلاهما من طريق سليمان بن بلال عن حسين بن عبد الله عن عكرمة عن ابن عباس به.

وأخرجه أحمد (١/ ٢٦٦، ٣١٤، ٣٢٨، ٣٣٥) والفسوى في «المعرفة والتاريخ» (١/ ٤٩٣-٤٩٤) وابن حبان (١٥/ ٥٣١) رقم (٧٠٥٥) والطبراني في الكبير (١٠٥٨٧، ١٠٦١٤) =

وروى عن ابن عباس أنه قال: أتيت معاوية، وقد قعد على سريره وجميع أصحابه ووفود العرب عنده، فدخلْتُ وسلمت وقعدت، فقال معاوية: مَنِ النَّاسُ يابن عباس ؟ فقلت: نحن قال: فإذا غبتم؟ قلت: فلا أحد، قال: ترى أنى قعدت هذا المقعد بكم؟ قلت: نعم، فبمن قعدت؟ قال: بمن كان مثل حرب بن أمية، قلت: من أكفأ عليه إناءه، وأجاره بردائه قال: فغضب، وقال: وارِ شخصك عنى شهرًا، فقد أمرتُ لك بصلتك وأضعفتها لك، فلما خرجت قلت لخاصته: ألا تسألونى ما الذى أغضب معاوية؟! [قالوا: بلى، فقل بفضلك قال: إن أباه حربا][1] لم يلتق أحد من رؤساء قريش فى عقبة ولامضيق مع قوم، إلاَّ لم يتقدم على حرب أحد حتى يجوزه أولاً، فالتقى حرب مع رجل من بنى تميم فى عقبة، فتقدمه التميمى، فقال حرب: أنا حرب بن أمية، فلم يلتفت إليه التميمى، وجاز قبله، فقال حرب: موعدك مكة، فبقى التميمى دهرًا، ثم أراد دخول مكة، فقال: من يجيرنى مِنْ حرب بن أمية، فقالوا له: عبد المطلب، فقال التميمى: عبد المطلب أجلُّ قدرًا من أن يجير على حرب، فأتى ليلاً دار الزبير بن عبد المطلب، فدقَّ عليه الباب، فقال الزبير لأخيه الغيداق: قد جاءنا رجل إمَّا طالبُ حاجة، وإما طالبُ قِرًى، وإما مستجيرٌ، وقد أعطيناه ما أراد، فخرج إليه الزبير، فقال منشدًا: [من الكامل]

لاقَيْتُ حَرْبًا فى الثَّنِيَّةِ مُقْبِلاً ... والصُّبْحُ أبلَجُ ضَوْءُهُ للسَّارِى
فَدَعا بصَوْتٍ واكْتَنَىٰ لِيَرُوعَنِى ... وَدَعَا بِدَعْوَتِهِ يُرِيدُ فَخَارِى
فتركْتُهُ كالكَلْبِ يَنْبَحُ وَحْدَهُ ... وأتيتُ أَهْلَ معالِمٍ وفَخَارِ
ليثًا هِزَبْرًا يُسْتَجَارُ بقُربِهِ ... رَحْبَ المَبَاءَةِ مُكْرِمًا للجَارِ
وَلَقَدْ حَلَفْتُ بمكَّةٍ وبِزمزمٍ ... والبيتِ ذى الأحجَارِ والأستارِ

= كلهم من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس به وأخرجه الترمذي (٥/ ٦٧٩-٦٨٠) كتاب المناقب باب مناقب عبد الله بن عباس رضي الله عنه حديث (٣٨٢٣) من طريق عبد الملك ابن أبي سليمان عن عطاء عن ابن عباس قال: دعا لى رسول الله ﷺ أن يؤتيني الحكمة مرتين.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه من حديث عطاء وقد رواه عكرمة عن ابن عباس.

(١) الزيادة من المحاسن والمساوئ، وهى زيادة يقتضيها السياق.

إِنَّ الزبيرَ لَمَانِعِى مِنْ خَوْفِهِ ما كَبَّرَ الحُجَّاجُ فى الأَمْصَارِ

فقال الزبير: تقدَّم، فإنا لا نتقدَّم من نجيره، فتقدم التميمى، فدخل المسجد، فرآه حرب فقام إليه فلطمه، فحمل عليه الزبير بالسيف، فعدا حتى دخل دار عبد المطلب، فقال: أجرنى من الزبير، فأكفأ عليه جفنة كان أبوه هاشم يطعم فيها الناس، فبقى تحتها[١] ساعة، ثم قال له: اخرج، فقال: كيف أخرج وسبعة[٢] من ولدك قد احتبوا بسيوفهم على الباب؟! فألقى عليه عبد المطلب رداءً كان كَساهُ إياه سيفُ ذو يزن لما قَدِمَ عليه، له طرتان خضراوان، فخرج عليهم به فعلموا أنه قد أجاره، فتفرقوا عنه[٣].

وحضر مرةً مجلس معاوية هو وعمرو بن العاص، فأقبل عبد الله بن جعفر، فلما نظر إليه ابن العاص قال: قد جاءكم رجل كثير الخلوات بالتمنى، والمطربات بالتغنى، يحب القيان، كثير مزاحه، شديد طماحه، صروف عن السنان، ظاهر الطيش، لين العيش، أخاذ بالسيف، منفاق بالسرف. فقال ابن عباس: كذبت والله[٤] أنتَ! وليس كما ذكرت، ولكنه لله ذكور، ولنعمائه شكور، وعن الخنا زجور، جواد كريم، سيد حليم، ماجد لهيم، إن ابتدأ أصاب، وإن سئل أجاب، غير حصر ولا هياب، ولا فحاش عياب، حل من قريش فى كريم النصاب، كالهزبر الضرغام، الجرىء المقدام، فى الحسب القمقام، ليس يدعى لدعىّ، ولا يدنى لدنىّ؛ كمن اختصم فيه من قريش شرارها، فغلب عليه جزارها، فأصبح ألأمها حسبًا، وأدناها منصبًا، ينوء منها بالذليل، ويأوى منها إلى القليل، مذبذب بين الحيين، كالساقط بين الفراشين، لا المضطر إليهم عرفوه، ولا الظاعن عنهم فقدوه، فليت شعرى بأى قدم تتعرض للرجال، وبأى حسب تبارز عند النضال، أبنفسك فأنت الوغد الزنيم، أم بمن تنتمى إليه فأهل السفه والطيش، والدناءة فى قريش، لا بشرف فى الجاهلية شهروا، ولا بقديم فى الإسلام ذكروا، غير أنك تتكلم بغير

(١) في المحاسن والمساوئ: هناك.
(٢) في المحاسن والمساوئ: وتسعة.
(٣) ينظر المحاسن والمساوئ ص (٨٣، ٨٤)، والمحاسن والأضداد ص (١٥٤، ١٥٥).
(٤) في ط: وأهله، والمثبت من المحاسن والمساوئ.

لسانك، وتنطق [بالزور][(١)] بغير أركانك، والله لكان أبين للفضل، وأظهر للعدل، أن ينزلك معاوية منزلة العبد الحقيق[(٢)]، فإنه طالما أسلس دلوك، وطمح بك رجاؤك إلى الغاية القصوى.

فقال عبد الله بن جعفر لابن عباس: أقسمت عليك لَمَا أَمسَكْتَ؛ فإنك عنى ناضلت، ولى فاوضت، فقال ابن عباس: دعنى والعبد؛ فإنه قد كان يهدر خاليًا؛ إذ لا يجد راميًا، قد أتيح له ضيغم شرس، للأقران مفترس، وللأرواح مختلس. فقال ابن العاص لمعاوية: دعنى يا أمير المؤمنين أنتصف منه، فوالله ماترك شيئًا. فقال ابن عباس: دعه فلا يبقى المبقى إلا على نفسه، فوالله، إن قلبى لشديد، وإن جوابى لعتيد، وبالله الثقة؛ كما قال نابغة بنى ذبيان: [من الوافر]

وَقَبْلَكَ مَا قَذَعْتُ وقَاذَعُونِى فَمَا نزر[(٣)] الكَلامُ وَمَا شَجَانِى
يَصُدُّ الشَّاعِرُ العَرَّافُ عَنِّى صُدُودَ الْبَكْرِ عَنْ قَدَمِ هجَانِ[(٤)]

ولما بلغ غانمة بنت غانم القرشية سب معاوية وعمرو بن العاص بنى هاشم، قالت لأهل مكة: أيها الناس، إن قريشًا سادَتْ فجادت، وملكَتْ فملكَتْ، وفضلت ففضلت، واصطفيت فاصطفت، ليس فيها كدر عيب، ولا أفن ريب، ولاحسروا طاغين، ولاجادوا نادمين، ولا المغضوب عليهم ولا الضالين، إن بنى هاشم أطول الناس باعًا، وأمجد الناس أصلاً، وأوسع الناس حلمًا، وأكثر الناس عطاء، منا عبد مناف الذى يقول فيه الشاعر: [من الكامل]

كَانَتْ قُرَيْشٌ بَيْضَةً فتفلَّقَتْ فَالمُحُّ خَالِصُهَا لِعَبْدِ منافِ[(٥)]

وولده هاشم الذى هَشَمَ الثريد لقومه؛ وفيه يقول الشاعر: [من الكامل]

عَمْرُو الَّذِى هَشَمَ الثَّرِيدَ لقَوْمِهِ ورجالُ مَكَّةَ مُسْنِتُونَ عِجَافُ[(٦)]

ثم منا عبد المطلب الذى سُقِينَا به الغيث، وفيه يقول الشاعر: [من الكامل]

---

(١) المثبت من المحاسن والمساوئ.
(٢) في المحاسن والمساوئ: البعيد السحيق.
(٣) في ط: برز. والمثبت من المحاسن والمساوئ. ونزر: أى: قل.
(٤) ينظر: المحاسن والمساوئ ص (٨٤، ٨٥)، والمحاسن والأضداد (١٥٥-١٥٧).
(٥) البيت لابن الزبعري، والمح: صفار البيض. ينظر اللسان (محح).
(٦) البيت لابن الزبعري أيضًا، ومسنتون: أصابتهم سنة وقحط وأجدبوا. ينظر اللسان (سنت). =

[ونحن سنى المحل قام شفيعنا ... بِمَكة يدعو والمياه تغور

وابنه أبوطالب عظيم قريش، وفيه يقول الشاعر:[من الكامل](١)

أُنبِئتُهُ(٢) مَلِكًا فقَامَ بحَاجَتِى ... وَترى العُلَيِّجَ خَاسِئًا(٣) مَذْمُوما

ومنا العباس بن عبد المطلب، أردفه رسول الله ﷺ، وأعطاه ماله؛ وفيه يقول الشاعر: [من الطويل]

رَديفُ رَسُولِ الله لم أَرَ مثلَهُ ... ولا مِثْلُهُ حَتَّى القِيَامَةِ يُوجَدُ

ومنا حمزة سيد الشهداء؛ وفيه يقول الشاعر: [من الوافر]

أَبَا يَعْلَىٰ لَكَ الأرْكَانُ هدَّتْ ... وأَنْتَ الماجدُ البَرُّ الوَصُولُ

ومنا جعفر ذو الجناحَيْن، أحسن الناس حسبًا، وأتمهم كمالاً، ليس بغدار ولا ختال، بدله الله تعالى بكل يد جناحًا يطير بهما فى الجنة؛ وفيه يقول الشاعر: [من الطويل]

فَهاتُوا محاكى جَعْفَرٍ وَعَلِيِّنَا ... أَلَسْنَا أَعَزَّ النَّاسِ عِنْدَ الحقائِقِ ؟!(٤)

ومنا أبو الحسن على بن أبى طالب - رضى الله عنه - أفرس بنى هاشم، وأكرم من احتفى وانتعل بعد رسول الله ﷺ؛ وفيه يقول الشاعر: [من الطويل]

وَهَذَا عَلِيٌّ سَيِّدُ النَّاسِ فَاتَّقُوا ... عَلِيًّا بِإِسْلَامٍ تَقَدَّمَ مِنْ قَبْلُ

ومنا الحسن بن على سبط رسول الله ﷺ، وسيد شباب أهل الجنة؛ وفيه يقول الشاعر: [من الوافر]

وَمَنْ يَكُ جَدُّهُ حَقًّا نَبِيًّا ... فَإِنَّ لَهُ الفَضِيلَةَ فِى الأَنَامِ

= وفي اللسان:

عمرو العلا هشم الثريد لقومه. . .

وفي المحاسن والمساوئ:

هشم الثريد لقومه، وأجارهم ... ورجال مكة مسنتون عجاف

(١) المثبت من المحاسن والمساوئ.

(٢) في المحاسن المساوئ: آتيته.

(٣) في المحاسن والمساوئ: خائبًا.

(٤) ويروى هذا البيت هكذا:

هاتوا كجعفرنا ومثل عليِّنا ... كانا أعز الناس عند الخالق

ومنا الحسين بن على حمله جبريل على عاتقه، وكفى بذلك فخرًا؛ وفيه يقول الشاعر: [من الطويل]

نَفَىٰ عَنْهُ عَيْبَ الآدَمِيِّينَ رَبُّهُ وَمَنْ جَدُّهُ جَدُّ[١] الحُسَيْنِ المُطَهَّرُ

ثم قالت: يا معشر قريش، والله ما معاوية بأمير المؤمنين، ولا هو كما يزعم، هو والله شانئ[٢] رسول الله ﷺ، وإنى آتية معاوية، وقائلة له ما يعرق منه جبينه، ويكون منه أنينه.

فكتب عامل معاوية إليه بذلك، فلما بلغ معاوية أن غانمة قربت منه، أمر بدار ضيافة، فنظفت، وألقى فيها فرش، فلما دنت من المدينة استقبلها يزيد فى حشمه ومماليكه، فلما دخلت المدينة، نزلت دار أخيها عمرو بن غانم، فقال لها يزيد: إن أبا عبد الرحمن يأمرك أن تصيرى إلى ضيافته، وكانت لاتعرف يزيد، فقالت: من أنت كلأك الله؟ قال: يزيد بن معاوية، قالت: فلا رعاك الله يا ناقص لست بزائد، فتمعَّر لون يزيد، فأتى أباه فأخبره، فقال: هى أسنُّ قريش، وأعظمهم حالاً، قال يزيد: كم تعدُّ لها يا أمير المؤمنين؟ قال: كانَتْ تعد على عهد رسول الله ﷺ أربعمائة عام، وهى بقية الكرام.

فلما كان من الغد، أتاها معاوية فسلم عليها، فقالت: على أمير المؤمنين السلام، وعلى الكافرين الهوان، ثم قالت: مَنْ منكم ابن العاص؟ قال عمرو: هٰأنَذَا، فقالت له: رأيتك تسب قريشًا وبنى هاشم، وأنت أهل السبِّ، وفيك السبُّ، وإليك يعود السبُّ، ياعمرو، إنى والله لعارفة بعيوبك وعيوب أمك، وإنى أذكر لك ذلك عيبًا عيبًا: وُلِدْتَ من أمة سوداء مجنونة حمقاء، تبول من قيام، وتعولها اللئام، إذا لامسها الفحل، كانت نطفتها أنفذ من نطفته، ركبها فى يوم واحد أربعون رجلاً، وأما أنت فقد رأيتك غاويًا غير راشد، ومفسدًا غير مصلح، ولقد رأيت فحل زوجتك على فراشك، فما غرت[٣] ولا أنكرت، وأما أنت يا معاوية، فما كنت فى خير ولا رُبِّيتَ فى نعمة، فما لك وبنى هاشم؟! أنساء أمية كنسائهم، أم أعطى أمية فى الجاهلية والإسلام ما أعطى هاشم؟! فكفى فخرًا برسول الله ﷺ.

(١) في ط: ومجده مجد. والمثبت من المحاسن والمساوئ.
(٢) في ط: تالي. والمثبت من المحاسن والمساوئ.
(٣) في ط: غيرت. والمثبت من المحاسن والمساوئ.

فقال معاوية: أيتها الكبيرة، أنا كاف عن هاشم، قالت: فإنى أكتب عليك عهدًا، فقد كان النبى ﷺ دعا ربه أن يستجيب لى خمس دعوات، فأجعلُ تلك الدعوات كلها فيك، فخاف معاوية، وحلف لها ألاً يسب بنى هاشم أبدًا.

فهذا آخر ماكان من أمرها معه[١].

قيل: قال رجل من قريش: ما أظن معاوية أغضبه شىء قط، فقال بعضهم: إن ذكرت أمه، غضب، فقال مالك ابن أسماء القرشى: أنا أغضبه إن جعلتم لى جُعْلاً، ففعلوا فأتاه في الموسم فقال له: يا أمير المؤمنين، إن عينيك لتشبهان عينَىْ أمك، قال: نعم، كانتا عينين طالما أعجبتا أبا سفيان، ثم دعا معاوية مولاه شقران، فقال له: أعدد لأسماء دية ابنها، فإنى قد قتلته. وهو لا يدرى، فرجع وأخذ الجعل، فقيل له: إن أتيت عمرو بن الزبير، فقلت له مثل ما قلت لمعاوية، أعطيناك كذا وكذا، فأتاه فقال له ذلك، فأمر بضربه حتى مات، فبلغ معاوية موته، فقال: أنا والله قتلته، وبعث إلى أمه بتلك الدية التى أعدها، وأنشأ يقول: [من الطويل]

أَلاَ قُلْ لِأَسْمَاءِ المُنَىٰ أُمِّ مَالِكِ فَإِنِّى لَعَمْرُ الله أَهْلَكْتُ مَالِكَا[٢]

وقيل لشريك القاضى: إن معاوية كان حليمًا، فقال: كلا والله لو كان حليمًا، لما سفه الحق وقاتل عَلِيًّا، عليه السلام[٣].

ولما مات سعيد بن العاص، وفد ابنه عمرو على معاوية، فاستنطقه، فقال: إن أول كل مركب صعب، وإن مع أمس غدًا، فقال له معاوية: من أوصى بك أبوك؟ فقال: إنه أوصى إلىّ، ولم يُوصِ بى، فقال معاوية: إن ابن سمية هذا لأشدق، فُسمِّى عمرو الأشدق من ذلك اليوم[٤].

ودخل مالك بن هبيرة السلولى على معاوية، وكان شيخًا كبيرًا، فأجلسه فحرك رجله فمدها فقال له معاوية: ليت لنا جارية لها مثل ساقيك، فقال متصلاً: وبمثل عجيزتك يا أمير المؤمنين، فخجل معاوية، وقال: واحدة بواحدة.

ودخل عليه شريك بن الأعور، فقال له معاوية: أنت شريك، وما لله من

---

(١) ينظر: المحاسن والمساوئ ص(٨٦-٨٨)، والمحاسن والأضداد (ص١٥٧-١٦١).
(٢) ينظر أنساب الأشراف (٢٨٩).
(٣) ينظر أنساب الأشراف (٣٧٤).
(٤) ينظر أنساب الأشراف (٢٩٩).

شريك، وابن الأعور، والصحيح خير من الأعور، وإنك لدميم، والوسيم خير [من] الدميم، فبم سَوَّدَكَ قومك؟ فقال له شريك: إنك لمعاوية وما معاوية إلا كلبة عوت فاستعويت، فسميت معاوية، وإنك ابن حرب، والسلم خير من الحرب، وإنك ابن صخر، والسهل خير من الصخر، وإنك ابن أمية، وما أمية إلا أمة صغرت، فبم صرت أمير المؤمنين؟ فقال له معاوية: أقسمت عليك إلا خرجت عنى، فخرج وهو يقول: [من الوافر]

أَيَشْتُمُنِى مُعَاوِيَةُ بْنُ حَرْبٍ ... وَسَيْفِى صَارِمٌ ومَعِى لسانِى

وَحَوْلِى مِنْ ذَوِى يَمَنٍ لُيُوثٌ ... ضراغمةٌ تَهَشُّ إلى الطِّعانِ

وقال: أربيت على علىّ فى أربع خصال: كان رجلاً سره علنه، وكنت كتومًا لأمرى، وكان لايسعى حتى يفجأه الأمر، وكنت أبادر ذلك، وكان فى أخبث جند وأشدهم ختلاً، وكنت فى أطوع جند، وكنت أحبَّ منه إلى قريش، فثاب إلىَّ ما شئت من جائح، وتفرق عنه.

ودخل يومًا على امرأته ميسون بنت بحدل أم يزيد ومعه خَصِىٌ، فاستترت منه، فقال: لم ذلك، وإنما هو بمنزلة امرأة؟! فقالت: كأنك ترى أن مُثْلَتَكَ به تحلل ماحرم الله عليه مِنِّى.

وروى أن عدى بن حاتم دخل على معاوية، فقال له معاوية: ياعدى، أين الطرفات؟ يعنى بنيه طارفًا وطريفا وطرفةَ، قال: قتلوا يوم صفِّين بين يدَىْ على بن أبى طالب - رضى الله عنه - فقال معاوية: ما أنصفك ابن أبى طالب؛ إذ قدَّم بنيك وأخَّر بنيه، فقال عدى: بل ما أنصفت أنا عليًا: إذ قُتِلَ وبقيتُ.

قيل: قال عمرو بن العاص لمعاوية يا أمير المؤمنين، مابقى من شبابك وتلذذك؟ قال: والله، مابقى شىء يصيبه الناس من الدنيا إلا وقد أصبته أما النساء، فلا أرب لى فيهنَّ ولا لهنَّ، وأما الطِّيبُ، فقد شممته حتى ما أبالى به، وأما الطعام، فقد طعمت الحلو والحامض حتى لا أجد فرق ما بينهما، وأما الثياب، فقد لبست من لينها وجيدها حتى ما أبالى ما ألبس، فما شىء ألذ عندى من شربة ماء بارد فى يوم صائف، ونظرى إلى بنىَّ وبنى بنىَّ يدرجون حولى، فأنت ياعمرو، مابقى من لذتك ؟ قال: أرض أغرسها وآكل من ثمرتها وأنتفع بغلَّتها.

ثم التفت معاوية إلى وردان مولى عمرو بن العاص، فقال: يا وردان، مابقى من

لذتك؟ قال: صنائع كريمة أعقدها[١] فى أعناق الرجال لايكافئونى عليها تكون لأعقابى من بعدى، فقال معاوية: تَبًّا لهذا المجلس؛ يغلبنا عليه هذا العبد[٢].

وعلى هذا الذكر، قال قتيبة بن مسلم لوكيع بن الأسود: ما السرور؟ قال: لواء منشور، وجلوس على السرير، والسلام عليك أيها الأمير.

وقيل لحصين بن المنذر ما السرور؟ قال: مرأة حسناء، فى دار قوراء، وفرس بالفناء.

وقيل لبعضهم: أى الأمور أمتع؟ قال: الأمانى، فليس سرور النفس بالجدة؛ إنما سرورها بالأمل والمنى؛ وأنشد: [من البسيط]

إِذَا تَمَنَّيْتُ بِتُّ اللَّيْلَ مُغْتَبِطًا ... إِنَّ المُنَىٰ رَأْسُ أَمْوَالِ المَفَالِيسِ
لَوْلاَ المُنَىٰ متُّ مِن هَمٍّ ومِنْ جَزَعٍ ... إذا تذكَّرْتُ ما فى داخلِ الكِيسِ

وقيل لعبد الله بن الأهتم: ما السرور؟ قال: رفع الأولياء، وحط الأعداء.

وقال بعضهم: السرور توقيع نافذ، وأمر جائز.

وقيل لطرفة بن العبد: ما السرور؟ فقال: مطعم شهىّ، ومركب وطى، وملبس دفى.

وقيل للأعشى: ما السرور؟ فقال صهباء صافية، تمزجها غانية، بصوب غادية.

وقيل لمعن: ما السرور؟ فقال:[مجلس يقل هذره ، وعود يصفو وتره ، وعقول تفهم ما أقول .

وقيل لمظلوم: ما السرور ؟ فقال:][٣] كفاية ووطن، وسلامة وسكن.

وقيل لبعض العرب: ما السرور؟ فقال بنون أغيظ بهم عداتى، ولاتقرع معهم صفاتى.

وقيل لفتاة: ما السرور؟ فقالت: زوج يملأ قلبى جلالاً، وعينى جمالاً، وفنائى جِمالاً.

وقيل لطفيلى: ما السرور؟ فقال: ندامى تسكن صدورهم، وتغلى قدورهم، ولا تغلق دورهم.

وقيل لقانص: ما السرور؟ فقال: قسى مأطورة، وشرعة مشرورة، ونبال مطرورة[٤].

---

(١) في المحاسن والمساوئ: أعتقلها.
(٢) ينظر أنساب الأشراف (٢٠٦)، والمحاسن والمساوئ (ص٢٥٢)، مروج الذهب (٣/ ٣١-٣٢).
(٣) المثبت من المحاسن والمساوئ.
(٤) المأطورة: المعطوفة المقوسة. والشرعة: الوتر. ومشرورة: مفتولة بشدة. والنبال المطرورة: المحدبة.

وقال الشاعر: [من الخفيف]

أَطْيَبُ الأطيباتِ قَتْلُ الأَعادِى واخْتيَالٌ عَلَىٰ مُتُونِ الجيَادِ
وَأَيادٍ تَخْبُو بِهِنَّ كَرِيمًا إِنَّ عندَ الكَرِيم تزكُو الأَيَادِى
وَرَسولٌ يَأتِى بِوَعْدِ حَبيبٍ وَحَبِيبٌ يَأْتِى بِلاَ مِيعَادِ

وقال الآخر[١]: [من الخفيف]

أَطْيَبُ الأَطْيَبَاتِ أَمْرٌ وَنَهْىٌ لا يُرَدَّانِ فِى الأمورِ الجِسَامِ
وامتطاءُ الخُيُولِ فى كَنَفِ الأَمْـ ـنِ بِغَيْرِ الإقدامِ والإِحجامِ
وَسماع الصَّهِيلِ فِى لجبِ المَو كبِ تحتَ اللِّوَاءِ والأعلامِ

وقال الآخر[٢]: [من الخفيف]

أَطيبُ الأطيباتِ طيبُ الزمانِ ونِدامَى المُنَعَّمَاتِ الغَوانِى
واحتساءُ العُقارِ فِى غُرَّةِ الصُّبْـ ـحِ على شَدْوِ مَاهِرَاتِ القِيَانِ
وَأَمَانٌ مِن الهُمُومِ وَمَالٌ لَيْسَ يُفْنِيهِ نَائِبُ الحَدَثَانِ[٣]

ولقد خرج بنا الاستطراد، إلى غير المراد، فنعود فنقول:

وقدم زياد ابن أبيه على معاوية، فلما طال به المجلس، حدثه بحديث، فقال له معاوية: كذبت، فقال زياد: مهلاً يا أمير المؤمنين، فوالله، ماحللت للكلام حبوة إلا على بيعة الصدق، ولم أكذب، وحياة الكذب عندى موت المروءة، فاستحياه معاوية، وقال: يغفر الله لك يا أخى، فكأنى أرى بك حرب بن أمية؛ فى جميل شيمه وكرم أخلاقه.

وحكى عن معاوية؛ أنه قعد للناس فى يوم عيد، ووضعت الموائد وبدر الدراهم للجوائز والصِّلات، فجاء رجل فقعد على كيس دنانير، والناس يأكلون، فصاح به الخدم: تنحَّ، فليس لك هذا بموضع، فقال معاوية: دعوا الرجُلَ يجلس حيث أحبَّ، فأخذ الكيس وقام، فلم يجسر أحد أن يدنو منه، فقال الخدم: إنه قد نقص من المال كيس، فقال معاوية: أنا صاحبه، وهو محسوب لكم.

---

(١) في المحاسن والمساوئ: وللخليع.
(٢) في المحاسن والمساوئ: وللموصلى.
(٣) ينظر المحاسن والمساوئ (٢٥٢-٢٥٤)، وهناك زيادات لم يوردها المصنف هنا.

ويحكى عن معاوية بينما هو يسير وشرحبيل بن السمراء يسايره؛ إذ راثَتْ فرس شرحبيل، فساءه ذلك، فقال معاوية: يا أبا يزيد، إنه يقال: إن الهامة إذا عظمتْ، دلَّتْ على وفور الدماغ وصحة العقل، قال: نعم يا أمير المؤمنين، إلا هامتى؛ فإنها عظيمة وعقلى ضعيف ناقص، فتبسم معاوية، وقال: كيف ذاك، لله أنت؟ قال: لإعلافى دابتى مكوكين من شعير؛ فتبسم معاوية أيضًا، وحمله على فرس من مراكبه.

قال صاحب كتاب المحاسن والمساوئ: قيل لمعاوية: من رأيت شر الناس؟ فقال: علقمة بن وائل الحضرمى؛ قدم على رسول الله ﷺ فأمر[ني] أن أنطلق به إلى رجل من الأنصار أنزله عليه، فانطلقت معه وهو على ناقته وأنا أمشى فى ساعة شديدة الحر وليس برجلى حذاء، فقلت: احملنى يا عم، من هذا الحر؛ فإنه ليس على حذاء، قال: لست من أرداف الملوك، قلت: أنا معاوية بن أبى سفيان، قال: قد سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك، فقلت: ألق إلى نعليك، قال: لا تقلهما قدماك، ولكن امش فى ظل ناقتى، وكفاك بذلك شرفًا، وإن الظل لك كثير.

قال معاوية: فما مرَّ بى مثل ذلك اليوم، ثم أدرك سلطانى فلم أؤاخذه بذلك؛ بل أجلسته على سريرى هذا وقضيت حوائجه. انتهى[١].

كان صعصعة بن صوحان، وأخوه زيد، وقيل: يزيد بن صوحان، وكلاهما من شيعة علىٍّ من الفصحاء البلغاء، دخل صعصعة على معاوية، فسأله: ما السؤددُ فيكم ؟ قال: إطعام الطعام، ولين الكلام، وبذل النوال، وكف النفس عن السؤال، والتودد للصغير والكبير، وأن يكون الناس عندك شرعا، ثم قال: ما المروءة والسيادة؟ قال: أخوان اجتمعا، فإن لقيا قهرا وإن كان بينهما قليل، وصاحبهما جليل، محتاجان إلى صيانة ونزاهة ودماثة[٢] وفراهة، قال: فهل تحفظ فى ذلك شيئًا؟ قال: نعم، أما سمعت قول مرة بنِ ذهل الشيبانى حيث يقول: [من الكامل]

إنَّ السِّيَادَةَ والمُرُوءَةَ عُلِّقَا ... حَيْثُ السِّمَاكُ من السماءِ الأعزلُ
وَإِذَا تَقَابَلَ يجريانِ لغايةٍ ... عَثَرَ الهَجِيْنُ وأَسْلَمَتْهُ الأَرْجُلُ

(١) ينظر المحاسن والمساوئ (٢٥١).
(٢) في مروج الذهب: ديانة.

ونجَا الصريحُ مع الغِيَاثِ مُعَوَّدًا قربَ الجيادِ ولمْ يجِئْهُ الأَفْكَلُ[(١)]

قال معاوية: لو أن رجلاً ضرب آباط الإبل شرقًا وغربًا لفائدة هذه الأبيات ما عنفته.

ثم قال له: فمن الحليم؟ قال: من ملك غضبه، فلم يعجل، وأوحى إليه بحق أو باطل، فلم يقبل، ذلك الحليم يا معاوية.

ثم قال له: فمن الفارس فيكم الشجاع، حدّ لى فيه حَدًّا أسمعه منك، فإنك تضع الأشياء مواضعها يابن صوحان. قال: الفارس من قصر أجله فى نفسه، وضغم عن أمله بضرسه، وكانت الحرب عليه يومه أهون من أمسه، ذلك الفارس إذا أوقدت الحرب، واشتد بالأنفس الكرب، وتداعوا للنزال، وتسارعوا للقتال، وتخالسوا المُهَج، واقتحموا بالسيوف اللجج. قال معاوية: زدنى. قال: نعم الفارس كثير الحذر، يردد[(٢)] النظر، يلتفت بقلبه، ولا يدير[(٣)] خرزات صلبه. قال: أحسنت يا بن صوحان، فهل فى مثل هذه الصفة من شعر؟ قال: نعم، لزهير بن جناب الكلبى قوله: [من الخفيف]

فَـارِسٌ يَـكْـلأُ الـصَّـحَـابَـة مِـنْـهُ بِـحُـسَـام يـمـرُّ مَـرَّ الـحَـرِيـقِ
لاَ تَرَاهُ يَوْمَ[(٤)] الوَغَىٰ فِى مَجَالٍ يُغْفِلُ الضَّرْبَ[(٥)] لاَ وَلاَ فِى المَضِيقِ
مَنْ يَرَاهُ يَخَلْهُ فِى الحربِ يَوْمًا أنـه تَـائِـهٌ[(٦)] مُـضِـلُّ الـطَّـرِيـقِ

فقال له معاوية: أحسنت كل الحسْنْ يابن صوحان[(٧)].

ومن حسن سياسات معاوية أن رجلاً من أهل الكوفة قدم دمشق على بعير له بعد منصرفهم من صفين، فتعلّق به رجل من أهل دمشق، وقال: هذه ناقتى أخذت منى

(١) ينظر الشعر في مروج الذهب، والبيت الأخير فيه:

ويجى الصريح مع العتاق معودا ....

والأفكل: فرس نزال بن عمرو المرادي. ينظر ترتيب القاموس (فكل).

(٢) في المروج: مدير.

(٣) في ط: ترف. والمثبت من المروج.

(٤) في المروج: لدى.

(٥) في المروج: الطرف.

(٦) في المروج: أخرق.

(٧) ينظر: المروج (٣/ ٥٢-٥٤).

بصفين، فرفع أمرهما إلى معاوية، فأقام الدمشقى خمسين رجلًا يشهدون أنها ناقته، فقضى معاوية على الكوفى وأمره بتسليم الناقة، فقال الكوفى: أصلحك الله إنما هو جملٌ، وليس بناقة، فقال معاوية: هذا حكم مضى، ودس إلى الكوفى من أحضره إليه، وسأله عن ثمن بعيره، فدفع إليه ضعف ثمنه، وبره وأحسن إليه، وقال له: أبلغ عليًا أنى أقاتله بمائة ألف ما فيهم من يفرق بين الناقة والجمل.

ولقد بلغ من طاعتهم [له] أنه صلى بهم عند مسيره إلى صفين الجمعة يوم الأربعاء، وأعاروه رءوسهم عند القتال وجملوه بها، هكذا ذكره المسعودى فى مروجه(١).

ثم انتهى بهم الحال إلى أن جعلوا لَعْنَ علىٍّ - رضى الله تعالى عنه، وكرم وجهه - سُنَّةً ينشأ عليها صغيرهم، ويهلك عليها كبيرهم.

أقول: انظر إلى هذا النقل من المسعودى هل يخرج إلا من قلب مبغض، ويدخل إلا فى أذن مبغض؟! سيما صلاته بهم الجمعة يوم الأربعاء، أى معنى فيه له؟! هب أن ما عداه على تقدير صحته له غرض فيه، وأما نسبة الصلاة، فليس القصد بها إلا نسبته إلى الاستخفاف بالدين، والتلاعب بعماده التى هى أعظَمُ ركنِهِ المكين، وقد علمت أن المسعودى هو من هو، وإذا كان اعتقادهم فى الشيخين - وحاشاهما - ارتدادهما وهما من هما، فما ظنك بسواهما؟!

وذكر بعض الإخباريين أنه قال لرجل من أهل الشام من زعمائهم وأهل الرأى منهم: من أبو تراب هذا الذى يلعنه الإمام على المنبر؟ فقال الشامى: أراه إما لِصًّا من لصوص القين، أو من قطاع الطريق.

وحكى الجاحظ أنه قال لرجل من أهل الشام وهو يريد الحجَّ، وقد ذكر له البيت الشريف: يا أخى إذا أتيته فمن يكلِّمنى منه.

وقال - أيضًا -: إنه أخبره صديق له أنه قال له رجل وقد سمعه يصلى على محمد ﷺ: ماتقول فى محمد هذا، أربُّنا هو؟!

وذكر ثمامة بن أشرس قال: كنت مارًّا بالسوق ببغداد، فإذا رجل يبيع كحلًا ويصفه أنه ينجح لكل داء فى العين، فنظرت إلى عينيه، فإذا واحدة برشاء،

---

(١) ينظر: المروج (٣/ ٤١).

والأخرى موكوسة[١]، فقلت له في ذلك فقال: أو هاهنا اشتكيت عينى يا أبله؟! إنما اشتكيتها بمصر، فقال أصحابه: صدق صدق.

قال المسعودى وذكر لى بعض إخوانى من أهل العلم قال: كنا نقعد، فنتذاكر[٢] أبا بكر وعمر وعثمان وعليًا ومعاوية، ونذكر ما يذكره أهل العلم، وكان قوم من الناس منهم ينظرون إلينا فقال لى بعضهم، وكان أظرفهم وأعقلهم وأكبرهم لحية: كم تطنبون فى علىّ ومعاوية وفلان وفلان؟ فقلت له: وما تقول أنت فى ذلك؟ فقال: من تريد؟ قلت: علىّ؛ ما تقول فيه؟ قال: أليس هو أبا فاطمة؟ قلت: ومن كانت فاطمة؟ قال: امرأة النبى ﷺ بنت عائشة أخت معاوية، قلت: فما كان من قصة على؟ قال: قتل فى غزاة حنين مع النبى ﷺ[٣].

وفى الطيوريات عن سليمان المخزومى، قال: أذن معاوية للناس إذنًا عامًا، فلما احتفل المجلس قال: أنشدونى ثلاثة أبيات لرجل من العرب، كل بيت منها قائم بمعناه، فسكتوا، ثم طلع عبد الله بن الزبير - رضى الله تعالى عنهما - فقال معاوية: هذا مِقْوَلُ العرب، وعلّامتها أبو خبيب، فقال: مَهْيَم، قال معاوية: أنشدنى ثلاثة أبيات لرجل من العرب كل بيت قائم بمعناه، قال بثلاثمائة ألف، قال: أو تساوى؟ قال: أنت بالخيار فأنت واف كاف، قال: هات، فأنشده للأفوه الأودى: [من الوافر]

بَلَوْتُ النـاسَ قرنًا بعد قَرْنٍ فَلَـمْ أَرَ غَيْـرَ خـتـالٍ وَقَـالِـى

فقال معاوية: صدقت، هيه، فقال: [من الوافر]

وَذُقْـتُ مَـرَارَة الأَشْـيَـاءِ طُـرًّا فَـمَـا طَـعْـمٌ أَمَـرّ مِـنَ الـسُّـؤَالِ

قال: صدقت، هيه، فقال: [من الوافر]

وَلَمْ أَرَ فِى الخُطُوبِ أَشَدَّ وقعًا وَأَصْـعَـبَ مِـنْ مُـعَـادَاةِ الـرِّجَـالِ

قال معاوية: صدقت، ثم أمر له بثلاثمائة ألف.[٤]

---

(١) في المروج: مأسوكة. وفي ط: مركومة. والمثبت من هامش المروج من نسخة للمروج ولعله الصواب.
(٢) في المروج: نتناظر.
(٣) ينظر: مروج الذهب (٣/ ٤٢).
(٤) ذكره السيوطي في «تاريخ الخلفاء» (ص١٦١) وعزاه للطيوريات.

قال العلامة الدميرى فى حياة الحيوان الكبرى: لما تزوَّج معاوية ميسون بنت بحدل الكلبية أم يزيد بن معاوية، واتصلت به، وكانت ذاتَ جمالٍ باهرٍ وحسنٍ غامرٍ، أعجب بها معاوية وهيأ لها قصرًا مشرفًا على الغوطة، وزينه بأنواع الزخارف، ووضع فيه من الأوانى الفضة والذهب ما يضاهيه، ونقل إليه من الديباج الرومى الملون والفرش ما هو لائق به، ثم أسكنها مع وصائف لها؛ كأمثال الحور العين، فلبست يومًا أفخر ثيابها وتطيبتْ وتزينَتْ بما أعدَّ لها من الحلى والجواهر التى لايوجد مثلها، ثم جلست فى روشنها وحولها الوصائف ونظرَتْ إلى الغوطة وأشجارها وأنهارها، وتجاوب الطير فى أوكارها، واشتمَّتِ الأزهارَ والرياحينَ والنُّوَّارَ، فتذكرت نجدًا، وحنَّتْ إلى أترابها وأناسها، وذكرت مسقط رأسها، فبكت وتنهدت، فقال لها بعض حظاياها: مايبكيك، وأنت فى ملك يضاهى ملك بلقيس؟! فتنفست الصعداء، ثم أنشدت: [من الوافر]

لَبَيْتٌ تَخْفُقُ الأَرْوَاحُ فِيهِ ... أَحَبُّ إِلَىَّ مِنْ قصرٍ مُنِيفِ
وَلُبْسُ عباءةٍ وتَقَرَّ عينى ... أَحَبُّ إِلَىَّ مِنْ لبسِ الشُّفوفِ
وأَكل كسيرةٍ فى ظلِّ بيتى ... أحبُّ إِلَىَّ مِنْ أكلِ الرَّغيفِ
وأصواتُ الرياحِ بكلِّ فَجٍّ ... أحبُّ إلىَّ مِنْ نقرِ الدُّفوفِ
وكَلْبٌ ينبحُ الطُّرَّاقَ دونى ... أَحَبُّ إلَىَّ مِنْ قِطٍّ أَلُوفِ
وَبَكْرٌ يتبعُ الأظعَانَ صَعْبٌ ... أحبُّ إلَىَّ مِنْ بَغْلٍ زَفُوفِ
وخرق مِنْ بنى عَمى نَحِيفٌ ... أَحَبُّ إِلَىَّ مِنْ عِلْجٍ عَنُوفِ

فلما دخل معاوية، عرَّفته الحظية بما قالت، وقيل: إنه سمعها وهى تنشد ذلك، فقال: ما رضيتْ بنت بحدل حتى جعلتنى علجًا عنوفًا، هى طالق ثلاثًا، مروها فلتأخذ جميع ما فى القصر، فهو لها، ثم سيَّرها إلى أهلها بنجد، وكانت إذ ذاك حاملاً بيزيد، فولدته بالبادية، وأرضعته سنتين، وليتها لم تلد ولم ترضع !! ثم أخذه معاوية منها بعد ذلك.

وذكر العلامة أبو القاسم الحريرى فى درة الغواص أن عبيد بن شرية الجرهمى عاش ثلاثمائة سنة وأدرك الإسلام، فأسلم ودخل على معاوية بالشام، وهو خليفة، فقال له معاوية: حدثنى بأعجب ما رأيت؟ فقال: مررت بقوم يدفنون ميتًا لهم، فلما

انتهيت إليه، اغرورقت عيناى بالدموع؛ فتمثلت بقول الشاعر: [من البسيط]

يَا قَلْبُ إنكَ من أسماءَ مغرورُ ... فاذْكُرْ ولَنْ يَنْفَعَنْكَ اليَوْمَ تذكيرُ
قَدْ بُحْتَ بالحُبِّ ما تُخْفِيهِ مِنْ أَحَدٍ ... حَتَّى جَرَتْ لَكَ أَطْلَاقٌ مَحَاضِيرُ
فَلَسْتَ تَدْرِى وَمَا تَدْرِى أَعَاجِلُهَا ... أدنَىٰ لِرُشْدِكَ ذَا أَمْ فِيهِ تَأْخِيرُ ؟!
فَاسْتَقْدِرِ الله خَيْرًا وارضَيَنَّ به ... فَبَيْنَمَا العُسْرُ إذْ دَارَتْ مياسيرُ
وبينما المرءُ فِى الأَحْيَاءِ مغتبطٌ ... إذْ قَدْ هَوَى الرَّمْسَ تَعْفُوهُ الأَعَاصِيرُ
يَبْكِى الغَرِيبُ عَلَيْهِ لَيْسَ يَعْرِفُهُ ... وَذُو قَرَابَتِهِ فى الحَىِّ مَسْرُورُ

فقال لى شخص: أتعرفُ مَنْ يقول هذه الأبيات؟ قلت: لا والله، إلا أنى أرويها منذ زمان، فقال: والذى يُحْلَفُ به، إن قائلها هو صاحبنا الذى دفناه الساعة ! وأنت الغريبُ الذى يبكى عليه وليس يعرفه ! وهذا الذى خرج من قبره أَمَسُّ الناس به رحمًا، وهو أسرُّهُمْ بموته كما وصف.

فتعجب معاوية من هذا الاتفاق الغريب، ووصله بمال عظيم.

وذكر أن أبا الأسود الديلىّ من شيعة على دخل على معاوية خاليًا، فتحادثا طويلًا، فحبق أبو الأسود، فقال لمعاوية: إنها فلتة، فاكتمها على، فقال معاوية: أفعل ذلك، فلما خرج من عنده، دخل على معاوية عمرو بن العاص، فأخبره عن ضرطة أبى الأسود، ثم خرج عمرو فلقى أبا الأسود بالسوق، فقال له: مافعلت ضرطتك يا أبا الأسود؟! فقال أبو الأسود: كل ذى جوف ضروط، ثم غدا على معاوية فقال له: إن امرأً لم يؤمن على ضرطة حقيق ألاَّ يؤمن على إمرة المؤمنين.

قال العلامة الذهبى - فى دول الإسلام، عند ذكر عبيد الله بن زياد المعروف أبوه بزياد ابن أبيه عند الناس، وعند بنى أمية بزياد بن أبى سفيان -: روى عن معاوية أنه كتب إلى زياد: أوفد علَّى ابنك عبيد الله، ففعل، فما سأله معاوية عن شيء إلا أنفذه فيه، حتى سأله عن الشعر، فلم يعرف منه شيئًا، فقال له معاوية: ما منعك من رواية الشعر؟ قال: كرهت أن أجمع كلام الله وكلام الشيطان فى صدرى، فقال: اغرب، والله لقد وضعتُ رِجْلىَّ فى الركاب يوم صفين مرارًا مايمنعنى من العزيمة إلا أبيات ابن الإطنابة حيث يقول: [من الوافر]

أَبَتْ لِى عِفَّتِى وَأَبَىٰ حَيَائِى ... وأَخْذِى الحَمْدَ بالثَّمَنِ الرَّبِيحِ

وَإِعْطَائِى على الإعدام مَالِى   وإِقْدَامِى عَلَى البَطَلِ المُشِيحِ
وَقَوْلِى كُلَّمَا جَشَأَتْ وطَاشَتْ:   مَكَانَكِ تُحْمَدِى أَوْ تَسْتَرِيحِى

وكتب إلى أبيه فروَّاه الشعر، فما سقط عليه منه بعدُ شيء.

قلت: وإنما ذكرتها ههنا لتعلقها بمعاوية؛ إذ الكلام فيه هنا.

قال معاوية يومًا على المنبر: أيها الناس، إن الله فضل قريشًا بثلاث؛ فقال لنبيه: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، ونحن عشيرته الأقربون، وقال: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [الزخرف: ٤٤]، ونحن قومه، وقال ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴾ [قرش: ١] ونحن قريش، فقال له رجل من الأنصار: على رسلك يامعاوية؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ [الأنعام: ٦٦] وأنتم قومه، وقال: ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ [الزخرف: ٥٧] وأنتم قومه، وقال: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٣٠] وأنتم قومه، ثلاث بثلاث، ولو زدتنا لزدناك.

قال سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت: دخل رهط من الأنصار على معاوية، فقال لهم: يا معشر الأنصار، قريش خير لكم منكم لهم، فإن يكن ذلك لقتلَىٰ أُحُد، فقد نلتم يوم بدر، وإن تكن للأثرة، فوالله ماجعلتم إلى صلتكم سبيلاً: خذلتم عثمان يوم الدار، وقتلتم أنصاره يوم الجمل، وصليتم بالأمر يوم صفين، فقال رجل منهم: يا أمير المؤمنين، أما قولك عن قتلى أحد، فإن قتيلنا شهيد، وحيّنا فائز. وأما قولك: الأثرة، فإن رسول الله ﷺ أمرنا بالصبر عليها. وأما قولك: إنا خذلنا عثمان يوم الدار، فإنِ الأمر فى عثمان إلا جَفَلَىٰ.

وأما قولك: إنا قتلنا أنصاره يوم الجمل، فذاك ما لا نعتذر منه، وأما قولك: إنا صلينا الأمر يوم صفين، فإنا كنا مع رجل لم نأله خيرًا، فإن لمتنا فرب ملوم لا ذنب له، ما مددت لنا شبرًا من عذر إلا مددنا لك باعًا من خير، وإنك جدير بأن تستصفى قلوبنا من كدرها بفَضْلِ حلمك، فقال: أفعلُ وكرامة، ثم أدناهم وأجزل حباءهم. كذا فى المحاسن للبيهقىّ.

وعن محمد الخزاعى قال: دخلتْ بكارة الهلالية على معاوية، وكانت قد كبرت وغشى على بصرها، وضعفت قوتها، فسلمت وجلست، فرد عليها معاوية السلام،

وقال لها: كيف أنت يا خالة؟ قالت: بخير يا أمير المؤمنين، قال: غَيَّرَكِ الدهْرُ، قالت: هو كذا؛ من عاش كبر، ومن مات قُبِر، فقال عمرو بن العاص: هى القائلة يا أمير المؤمنين: [من الكامل]

يَا زَيْدُ دُونَكَ فَاحْتَفِرْ فِي أَرْضِنَا سَيْفًا حُسَامًا فى التُّرابِ دَفِينَا
قَدْ كُنْتُ أَخْبَؤُهُ لِيَوْمِ مُلمَّةٍ وَالْيَوْم أَبْرَزَهُ الزَّمَانُ مَصُونا

فقال مروان: هى والله القائلة - أيضًا - يا أمير المؤمنين: [من الكامل]

أَتُرَى ابْنَ هِنْدٍ للخِلَافةِ مَالِكًا هَيْهَاتَ ذَاكَ وَإِنْ أراهُ بَعِيدُ
مَنَّتْكَ نَفْسُكَ فِي الخَلَاءِ ضَلَالَةً أَقْوَال عَمْرٍو وَالشَّقِىُّ سَعِيدُ

وقال سعيد بن العاص: هى والله القائلة أيضًا: [من الكامل]

قَدْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ أَمُوتَ وَلاَ أَرَىٰ فَوْقَ المَنَابِرِ مِنْ أُمَيَّةَ خَاطِبَا
أَللهُ أَخَّرَ مُدَّتِى فَتَطَاوَلَتْ حَتَّىٰ رَأَيْتُ مِنَ الزَّمَانِ عَجَائِبَا

فقالت: يا معاوية، إن هؤلاء جماعة حسنة، وأنا والله القائلة هذا جميعه، وما خفى عنك أكثر، فضحك معاوية، وقال لها: ليس يمنعنا ذلك من أداء حقك، وقضاء حوائجك، فما كان لك من حاجة فأبديها، قالت: أما فى المجلس فلا، وانصرفت، فأرسل خلفها واسترضاها، وأعطاها عشرة آلاف درهم.

وعن سهل التيمى قال: حج معاوية فسأل عن امرأة من بنى كنانة يقال لها: دارمة الحجازية الكنانية، فأخبروه بسلامتها، فأمر بإحضارها، فلما حضرت، وكانت سوداء، فقال لها: كيف أنت، يابنة حام؟ قالت: لست بابنة حام، إنما أنا امرأة من بنى كنانة، قال: أتدرين لم أرسلت إليك؟ قالت: لا يعلم الغيب إلا الله، قال: أردت أن أسألك لم أحببت عليًّا وأبغضتنى وواليتِه وعاديتِنى؟ قالت: أحببت عليًّا؛ لعدله فى الرعية وقسمته بالسوية، وأبغضتك؛ لقتالك من هو أولى بالخلافة منك، وطلبك ما ليس بحق لك. وواليت عليًّا؛ لما عقد له رسول الله ﷺ من الولاية، ولحبه المساكين، وإعظامه لأهل الدين، وعاديتك بسفك الدماء، وجورك فى القضاء، وحكمك بالهوى. فقال لها معاوية: ورأيتِ عليًّا؟ قالت: نعم، قال: كيف رأيتِه ؟ قالت: رأيته ما فتنه الملكُ الذى فتنك، ولم تشغله النعمة التى شغلتك، قال: فهل سمعت من كلامه شيئًا؟ قالت: نعم، كان كلامه يجلو القلوب من

العمى؛ كما يجلو القين الصدى، قال: فهل لك من حاجة؟ قالت: نعم، أعطنى مائة ناقة حمراء فيها فحولها ورعاتها، قال: فما تصنعين بها؟ قالت: أغذى بلبنها الصغار، وأستحيى بها الكبار، وأكتسب بها المكارم، وأصلح بها بين العشائر، قال: فإذا دفعتها لك، أكون عندك فى منزلة على؟ قالت: لا والله، فقال معاوية: [من الطويل]

إِذَا لَمْ أَجُدْ بِالحِلْمِ مِنِّى عَلَيْكُمُ ... فَمَنْ ذَا الَّذِى بَعْدِى يُؤَمَّلُ لِلْحِلْمِ ؟!
خُذِيهَا هَنِيئًا واذْكُرِى فِعْلَ ماجِدِ ... جَزَاكِ عَلَى حَرْبِ العداوةِ بِالسِّلْمِ

ثم قال لها: والله لو كان على حيًّا ما أعطاك منها ناقة، قالت: لا والله، ولا وَبرَةً؛ لأنها من مال المسلمين.

واستأذنت أم البراء بنت صفوان على معاوية، فأذن لها، فدخلت وسلمت، وكان عليها ثلاثة دروع تسحب خلفها، ثم جلست، فقال لها: كيف أنت يابنة صفوان ؟ قالت: كسلت بعد نشاط، وضعفت بعد قوة، فقال: شتَّان بين لسانك اليوم وبين قولك: [من الكامل]

يَا زَيْدُ دُونَكَ صَارِمًا ذَا رَوْنَقٍ ... عَضْبَ المحزة لَيْسَ بالخَوَّارِ
أسرجْ جَوَادَكَ مُسْرعًا ومُشَمِّرًا ... لِلحَرْبِ غَيْر معوّدٍ لِفِرَارِ
أَجِبِ الإمامَ وَذبَّ تَحْتَ لوائِهِ ... وَالْقَ العَدُوَّ بِصَارِمٍ بَتَّارِ
يا ليتنى أَصْبَحْتُ غَيْرَ قعيدةٍ ... فَأذبَّ عَنْهُ عَسَاكِرَ الفُجَّارِ

قالت: قد كان ذلك، ولكن عفا الله عما سلف، ومن عاد، فينتقم الله منه، قال: هيهات! أما والله لو عاد لعدتِ، ولكنه اخترم، قالت: أجل، والله، إنى على بينة من ربى، وهدى من أمرى، فقال بعض جلسائه: وهى القائلة ترثى عليًّا: [من الكامل]

يَا لَلرِّجَالِ لهوْلِ عُظْمِ مُصِيبَةٍ ... حَلَّتْ فَلَيْسَ مُصَابها بالحَائِلِ
ألشَّمْسُ كاسفَةٌ لِفَقْدِ إمَامِنَا ... خَيْرِ الخلائِقِ والإمَامِ العَادِلِ
صِهْرَ النبىِّ لَقَدْ نَفَذْتَ فؤادنا ... وَالحَقُّ أَصْبَحَ خَاضِعًا للبَاطِلِ

فقال لها معاوية: قاتلك الله، ما أبقيت لنا من قول! ثم خرجت، فبعث لها معاوية بجائزة سنية.

وأخباره بمثل ذلك كثيرة شهيرة.

قيل: ذكر أنه جلس يومًا فى مجلس كان له بدمشق، وكان ذلك المجلس مفتح الجوانب يدخل منه النسيم من سائر جهاته، فبينما هو جالس ينظر، وكان يومًا شديد الحر، لا نسيم فيه، وكان وسط النهار؛ إذ نظر إلى رجل يمشى نحوه، وهو يتلظى من حر الرمضاء، ويحجل فى مشيته راجلاً حافيًا، فتأمله وقال لجلسائه: هل خلق الله رجلاً أشقى ممن يحتاج إلى الحركة فى مثل هذه الساعة؟ فقال بعضهم: لعله يقصد أمير المؤمنين، فأوصى حاجبه: إن طلبنى هذا الأعرابى، فلا تمنعه من الدخول علىَّ، فكان كذلك، فأدخله، فقال له معاوية: ممن الرجل؟ فقال: من تميم، قال: ما الذى جاء بك فى هذا الوقت؟ قال: جئتُ شاكيًا، وبك مستجيرًا، قال: ممن؟ قال: من مروانَ بنِ الحكم بما ملك، وأنشد: [من الطويل]

مُعَاوِىَ يا ذا الحِلْمِ والجودِ والفَضْلِ ... وَيَا ذا النَّدَىٰ وَالعِلْمِ وَالرُّشْدِ وَالنُّبْلِ
أَتيتُكَ لمَّا ضَاقَ فِى الأَرْضِ مَذْهَبِى ... فَيَا غَوْثُ لاَ تَقْطَعْ رَجَائِى مِنَ العَدْلِ
وَجُدْ لِى بِإِنْصَافٍ مِنَ الجَائِرِ الذى ... بَلاَنِى بِشَىءٍ كانَ أَيْسَرُهُ قَتْلِى
سَبَانِىَ سُعْدَىٰ وانبَرَىٰ لخُصُومَتِى ... وَجَارَ ولم يَعْدِلْ وَغَاصَبَنِى أَهْلِى
وَهَمَّ بقتلى غَيْرَ أَنَّ مَنِيَّتِى ... تَنَاءَتْ ولم أَسْتَكْمِلِ الرِّزْقَ مِنْ أَجْلِى

فلما سمع معاوية إنشاده والنار تتوقد من فيه، قال: مهلاً يا أخا العرب، اذكر قصتك، وأبِنْ عن أمرك، فقال: يا أمير المؤمنين، كانت لى زوجة وكنت لها محبًا، وبها كلفًا، وكانت لى صرمة من إبل نستعين بها على قيام حالى، فأصابتنا سنة سَنْتَاءُ حُطَمَة شديدة أذهبتِ الخفَّ والحافر؛ فبقيت لا أملك شيئًا. فلما ذهب ما بيدى، بقيت مهانًا ثقيلاً على الناس، فلما علم أبوها ما بى من سوء الحال، أخذها منى وحجرنى وطردنى وأغلظ على، فأتيتُ إلى عاملك مروان راجيًا لنصرته، فلما أحضر أباها، سأله عن حالى، فقال: ما أعرفه قبل اليوم، فقلت: أصلح الله الأمير، إنْ رَأَىٰ أن يحضرها ويسألها عن قول أبيها فليفعل، فبعث خلفها وأحضَرَهَا، فلما حضرت بين يديه، وقعَتْ منه موقع الإعجاب، فصار لى خصمًا، وعليَّ منكرًا، وأظهر لى الغضب، وبعث بى إلى السجن، فبقيت كأنما خررت من السماء، واستهوت بى الريح فى مكان سحيق، ثم قال لأبيها: هل لك أن تزوِّجها منى على ألف دينار وعشرة آلاف درهم لك، وأنا ضامن لك خلاصها من هذا الأعرابى ؟ فرغب أبوها

فى المال، وأجابه إلى ذلك.

فلما كان من الغد، بعث إليَّ وأحضرنى، ونظر إلى كالأسد الغضبان، وقال: يا أعرابى، طلق سعدى، فقلت: لا، فسلط عليَّ جماعة من غلمانه، فأخذونى يعذبونى أنواع العذاب، فلم أجد بُدًّا من طلاقها، فأعادنى إلى السجن، فمكثت فيه إلى أن انقضت عدتها، فتزوجها، ودخل بها وأطلقنى، وقد أتيتك مستجيرًا إليك ملتجئًا، وأنشد: [من المجتث]

فِى القَلْبِ مِنِّىَ نَارُ ... وَالنَّارُ فِيهَا اسْتِعَارُ
وَالجِسْمُ مِنِّى سَقِيمٌ ... فِيهِ الطَّبِيبُ يَحَارُ
وفى فؤادِيَ جَمْرٌ ... والْجَمرُ فِيهِ شَرارُ
والعَيْنِ تنهلُّ دمعًا ... فَدَمْعُهَا مِدْرَارُ
وَلَيْسَ إلاَّ بِرَبِّي ... ثُمَّ الأَمِيرِ انْتِصَارُ

ثم اضطرب واصطكَّتْ لحياه، وصار مغشيًا عليه، وأخذ يتلوى كالحية المقتولة، فلما سمع كلامه معاوية وإنشاده، قال: تعدى وظلم ابن الحكم فى حدود الدين، واجترأ على حرم المسلمين، ثم قال: والله يا أعرابى، لقد أتيتنى بحديث لم أسمع بمثله، ثم دعا بدواة وقرطاس، وكتب إلى مروان بن الحكم: قد بلغنى أنك ظلمت واعتديت، وينبغى لمن كان واليًا أن يكفَّ بصره عن شهواته، ثم كتب إليه بعد كلام، فقال: [من البسيط]

وَلِيتَ وَيْحَكَ أمرًا لَسْتَ تُدْرِكُهُ ... فَاسْتَغْفِرِ اللَّه مِنْ فِعْلِ امرِئٍ زَانى
وَقَدْ أَتَانَا الفَتَى الْمِسْكِينُ مُنْتَحِبًا ... يَشْكُو إِلَيْنَا بِبَثٍّ ثُمَّ أَحْزَانِ
أُعْطِى الإِلَهَ يَمِينًا لا أُكَفِّرُهَا ... نَعَمْ وَأَبْرأُ من دينِي وَدَيَّانِي
إن أَنْتَ خالَفْتَنِى فيما كَتَبْتُ به ... لأَجْعَلَنَّكَ لَحْمًا بَيْن عقْبَانِ
طَلِّقْ سُعَادَ وعَجِّلْهَا مُجهَّزَةً ... مع الكُمَيْتِ ومَعْ نَصْرِ بن ذبيانِ

ثم طوى الكتاب، وطبعه بخاتمه، واستدعى بالكميت ونصر بن ذبيان، وكان يستنهضهما للمهمات لأمانتهما، فأخذا الكتاب، وقدما المدينة، وأسلما الكتاب إلى مروان، فجعل يقرأ ويرتعد ويبكى، وأخبر سعدى وطلقها، وجهزها وصحبها الرجلان، وكتب إلى معاوية فصلاً يقول فيه: [من البسيط]

لا تعجَلنَّ أميرَ المؤمنينَ فقَدْ أوْفى بنذْرِكَ فى رفْقٍ وإحسانِ
وما أتَيْتُ حَرَامًا حينَ أعجبني فكَيْفَ أُدْعَىٰ بإِسْمِ الخائِنِ الزاني ؟!
أُعْذُرْ فإنَّكَ لو أبصَرْتَهَا لَجَرَتْ مِنْكَ الأمانِى على تِمْثَالِ إنسانِ
وَسَوْفَ تَأْتِيكَ شَمْسٌ لَيسَ يَعْدِلُهَا عند الحقيقةِ مِنْ إنْسٍ وَلاَ جَانِ

وختم الكتاب ودفعه إلى الرسولين، وسلم إليهما الجارية، فوصلوا إلى معاوية، فقرأ الكتاب ثم قال: لقد أحسن فى الطاعة، ثم أمر بإحضار الجارية، فلما رآها، رأى صورة لم ير مثلها، فخاطبها فوجدها فصيحة اللسان عذبة المنطق، فقال: عَلَيَّ بالأعرابى، فأتى به وهو على غاية من سوء الحال، فقال: يا أعرابى، هل لك عنها من سلوّ، وأعيضك عنها ثلاث جوار نُهَّدٍ أبكارٍ، مع كل جارية ألف دينار، وأقسم لك من بيت المال فى كل سنة ما يكفيك، فقال الأعرابى: استجرت بعدلك من مروان، فبمن أستجير من جورك، ثم أنشد: [من البسيط]

لاَ تَجْعَلنِّى جَزَاكَ اللَّه مِنْ مَلِكٍ كَالمُسْتَجِيرِ مِنَ الرَّمْضَا إلَى النَّارِ
أُرْدُدْ سُعَادَ عَلَىٰ حرَّانَ مُكْتَئِبٍ يُمْسى ويُصْبح فى هَمٍّ وَتَذْكَارِ
أَطْلِقْ وَثَاقى وَلاَ تَبْخَلْ عَلَيَّ بها فَإِنْ فَعَلْتَ فإِنى غَيْرُ كَفَّارِ

واللَّه يا أمير المؤمنين لو أعطيتنى ما حوته الخلافة ما أخذته دون سعاد، وأنشأ يقول: [من الطويل]

أَبَى القلبُ إلاَّ حُبَّ سُعْدَىٰ وَبُغِّضَتْ إلَـيَّ نـسـاءٌ مَـا لَـهُـنَّ ذُنُـوبُ

فقال معاوية: يا أعرابى، إنك مقر أنك طلقتها، ومروان طلقها، ونحن نخيِّرها، فإن اختارت سواك زوجناها، قال: افعل، فقال معاوية: ما تقولين، أيُّما أحبُّ إليك: أمير المؤمنين فى عِزِّهِ وشرفه وسلطانه، أو مروان بن الحكم فى عسفه وجوره، أو هذا الأعرابى فى جوعه وفقره ؟ فأنشدت: [من البسيط]

هَذَا وَإِنْ كَانَ فِى جُوعٍ وَإِضْرَارِ أَعَزُّ عِنْدِيَ مِنْ قَوْمِى ومِنْ جارِي
وَصَاحِبِ التَّاجِ أو مَرْوَانَ عَامِلِهِ وَكُلِّ ذِى دِرْهَمٍ عِنْدِى وَدِينَارِ

ثم قالت: والله يا أمير المؤمنين، ما أنا بخاذلته لحادثة الزمان، ولا لغدرة الأيام؛ فإن لى معه صحبةً قديمةً لا تُنْسَى، ومحبةً لا تبلَىٰ، فأنا أحق من صبر معه فى الضراء؛ كما تنعمت معه فى السراء. فعجب معاوية من عقلها ومروءتها وموافاتها،

وأمر لها بعشرة آلاف درهم، وردها إلى الأعرابى بعقد صحيح. انتهت.

قال ابن سعد فى الطبقات افتخر الحسن بن على فى مجلس معاوية، فقال: أنا ابن ماء السما، وعروق الثرى، وابن من ساد أهل الدنيا، بالحسب الثاقب، والشرف الفائق، والقدم السابق، أنا ابن من لرضاه رضى الرحمن، ثم رد وجهه للخصم، فقال: هل لك أب كأبى، أو قديم كقديمى، فإن تَقُلْ: لا، تُغْلَبْ، وإن تقل: نعم، تكذب، فقال الخصم: لا؛ تصديقًا لقولك، فقال سيدنا الحسن: [من الكامل]

أَلْحَقُّ أَبْلَجُ لاَ تَزِيغُ سَبِيلُهُ وَالحَقُّ تَعْرِفُهُ أُولُو الأَلْبَابِ

وقال معاوية يومًا وعنده أشراف الناس من قريش وغيرهم: أخبرونى بأكرم الناس أبًا وأمًّا، وعمًّا وعمَّة، وخالاً وخالةً، وجدًّا وجدةً ؟! فقام مالك بن العجلان، وأومأ إلى الحسن فقال: ها هو ذا ابن على بن أبى طالب، وأمه فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وعمه جعفر الطيار، وعمته أم هانئ بنت أبى طالب، وخاله القاسم ابن رسول الله ﷺ، وجده رسول الله، وجدته خديجة بنت خويلد، فسكت القوم ونهض الحسن. فقام رجل من بنى سهم، فأَنَّبَ ابن العجلان على مقالته، فقال ابن العجلان: ما قلتُ إلا حقًّا، وما أحد من الناس يطلب مرضاة مخلوق بمعصية الخالق، إلا لم يعطه اللّه أمنيته فى دنياه، ولم يختم له إلا بالشقاء فى أخراه. بنو هاشم أرواكم عودًا، وأوراكم زندًا، كذلك يا معاوية ؟ فقال: اللهم نعم.

عهد معاوية لابنه يزيد بالخلافة

ذكر ابن الجوزيِّ[1] بسنده قال: قَدِمَ المغيرة بن شعبة على معاوية، فشكا إليه الضعف واستعفاه فأعفاه، وأراد أن يولى سعيد بن العاص، وقال أصحاب المغيرة للمغيرة: إن معاوية قلاك، فقال لهم: رويدًا، ونهض إلى يزيد، وعرض له بالبيعة، وقال: ذهب أعيان الصحابة وكبراء قريش وذَوُو أسنانهم، وإنما بقى أبناؤهم وأنت منى أفضلهم وأحسنهم رأيا وسياسة، وما أدرى ما يمنع أمير المؤمنين من العَقْدِ لك، فأَدْلَى ذلك يزيد إلى أبيه، فاستدعاه وفاوضه فى ذلك، فقال: قد رأيت ما كان من الاختلاف وسفك الدماء بعد عثمان، وفى يزيد ابنك خلف، فاعقد له يكون كهفًا للناس بعدك، فلا يكون فتنة ولا سفك للدماء، وأنا أكفيك الكوفة، ويكفيك زياد

(١) ينظر: المنتظم (٥/ ٢٨٥، ٢٨٦).

البصرة، فرد معاوية المغيرة إلى الكوفة وأمره أن يعمل فى بيعة يزيد، فقدم الكوفة وذكر من يرجع إليه من شيعة بنى أمية، فأجابوا، وأوفد منهم جماعة مع ابنه موسى ابن المغيرة، فدعوا معاوية إلى بيعة يزيد، فقال: وقد رضيتموه ؟ قالوا: نعم، نحن ومن وراءنا، فقال: ننظر ما قدمتم له، ويقضى الله أمره، والأناة خير من العجلة.

ثم كتب إلى زياد يستشيره، فنكر زياد ذلك وأعظم أن يكاتب فيه، واستدعى عبد الله بن كعب النميرى، وكانت له صحابة وله به ثقة، وقال له: دعوتك لأمر اتهمت عليه بطون الصُحُفِ، إن معاوية كتب إلى أن أجمع الناس على بيعة يزيد، وهو يتخوَّف نفرة الناس ويرجو مطابقتهم ويستشيرنى، وعلاقة أمر الإسلام وضمانه عظيم، ويزيد صاحب رسلة وتهاون فيما أولع به من الصيد، فالق معاوية مؤديًا عنى، وأخبره عن فعلات يزيد، وقل له: رويدك بالأمر، فقمنٌ أن يتم لك ما تريد ولا تعجل، فقال له عبيد الله بن كعب: لا تفسد على معاوية رأيه، ولا تمقتْ إليه ابنه، وأنا ألقى يزيد فى سر من معاوية، فأخبره عنك بكتاب معاوية إليك يستشيرك فى بيعته، وأنك تتخوف خلاف الناس لما ينقمون عليك، وأنك ترى له ترك ما ينقمون عليه لتستحكم الحجة على الناس ويسهل الأمر، وفى ذلك نصح يزيد، ورضا معاوية، والسلامة عن درك الأمة.

فقال له زياد: لقد رميت الأمر بحجره، اشخص علَىٰ بركة الله، وكتب زياد إلى معاوية يأمره بالتؤدة وألاَّ يعجل، فقبل ذلك معاوية، وبلغ عبيد الله بن كعب وصية زياد إلى يزيد، فكف عن كثير مما كان يصنع.

فلما مات زياد، اعتزم معاوية على العهد ليزيد، وقرأ كتابه على الناس باستخلافه يزيد إن حدث به حدث المَوْت، فيزيد ولى عهده، فاستوثق له الناس على البيعة ليزيد غير خمسة نفر: الحسين بن على، وابن عمر، وابن الزبير، وابن عباس، وعبد الرحمن بن أبى بكر.

فحج معاوية سنة إحدى وخمسين، فلما قدم مكة، بعث عن الحسين، وقال: يا بن أخى، قد استوثق الناس لهذا الأمر غير خمسة نفر، أنت تقودهم، فما إربك[1] إلى هذا الخلاف ؟ قال الحسين: أرسل إليهم، فإن بايعوا فأنا منهم، ولا تعجل

---

(١) في ط: رأيك، والمثبت من المنتظم، ومعناه: فما حاجتك .

عليّ، فعاهده معاوية على الكتمان.

ثم بعث عن ابن الزبير فأجابه بمثل ما أجاب الحسين، وطلبه العهد فأبى وخرج، ثم بعث عن ابن عمر، فأجابه بمثل كلامهما وألان له القول بعض اللين؛ بأن قال: أخاف أن أدع الأمة كالضأن لا راعى لها، فقال له ابن عمر: أبايعك على أنى أدخل بعدك فيما تجتمع عليه الأمة، فوالله لو اجتمعوا بعدك على عبد حبشى، لدخلْتُ معهم، وخرج فأغلق بابه، ولم يأذن لأحد.

ثم بعث معاوية عن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق، فقال له: بأيّة يد أو رجل تُقْدِمُ على معصيتى ؟ فقال عبد الرحمن: أرجو أن يكون ذلك خيرًا لى، فقال معاوية: والله لقد هممتُ أن أقتلك، قال عبد الرحمن: لو فعلت لأخذك [الله] فى الدنيا والآخرة، ولم يذكر ابن عباس[1].

وقد ذكر فى كيفية هذا الحديث طريق غير هذا ذكره الذهبى فى تاريخه دول الإسلام، أحببت إيراده؛ لاشتماله على زيادة علم، ونصه: روى النعمان بن راشد، عن الزهرى، عن ذكوان مولى عائشة، قال: لما أجمع معاوية على أن يبايع لابنه يزيد، حج فقدم مكة فى نحو من ألف رجل، فلما دنا من المدينة، خرج ابن عمر وابن الزبير وعبد الرحمن بن أبى بكر، فلما قدم معاوية المدينة، صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم ذكر ابنه يزيد، فقال: من أحق بهذا الأمر منه ؟ ثم ارتحل فقدم مكة، فقضى طوافه ودخل منزله، فبعث إلى ابن عمر، فتشهد، وقال: أما بعد، يا بن عمر، إنك كنت تحدثنى أنك لا تحب تبيت ليلة سوداء ليس عليك فيها أمير، وأنا أحذر [ك] أن تشق عصا المسلمين أو تسعى فى فساد ذات بينهم.

فقام ابن عمر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإنك كانت قبلك خلفاء لهم أبناء ليس ابنك بخير من أبنائهم، فلم يروا فى أبنائهم ما رأيت فى ابنك، ولكنهم اختاروا للمسلمين حيث علموا الخيار، وإنك تحذرنى أن أشقّ عصا المسلمين، ولم أكن لأفعل، إنما أنا رجل من المسلمين، فإذا اجتمعوا على أمر، فإنما أنا رجل منهم. فقال معاوية: يرحمك الله، فخرج ابن عمر، ثم أرسل إلى ابن أبى بكر، فتشهد ثم أخذ فى الكلام، فقطع عبد الرحمن عليه كلامه، فقال: إنك والله لوددت

---

(١) ينظر: المنتظم (٥/ ٢٨٥، ٢٨٦).

أنا وكلناك فى أمر ابنك إلى الله، وإنا والله لا نفعل، والله لتردنَّ هذا الأمر شورى فى المسلمين، أو لنردنها عليه جذعة، ثم وثب ومضى، فقال معاوية: اللهم، اكفنيه بما شئت، ثم قال: على رسلكَ أيها الرجلُ لا تشرفنَّ على أهل الشام؛ فإنى أخاف أن يسبقونى بنفسك حتى أخبر العشيرة أنك قد بايعْتَ، ثم كُنْ بعدُ علَىٰ ما بدا لك من أمرك.

ثم أرسل إلى ابن الزبير فقال: يا بن الزبير، إنما أنت ثعلب رواغ، كلما خرج من جحر دخل آخر، وإنك عمدت[1] إلى هذين الرجلين فنفخت فى مناخيرهما، وحملتهما على غير رأيهما، فقال ابن الزبير: إن كنت قد مللت الإمارة، فاعتزلها، وهلم ابنك فلنبايعه، أرأيت إذا بايعنا ابنك معك، لأيكما نسمع ونطيع ؟! لا نجمع البيعة لكما أبدًا.

ثم راح وصعد معاوية المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إنا وجدنا أحاديث الناس ذات عوار، زعموا أن ابن عمر وابن أبى بكر وابن الزبير لم يبايعوا يزيدَ، وقد سمعوا وأطاعوا وبايعوا، فقال أهل الشام: والله لا نرضَىٰ حتى يبايعوا على رءوس الأشهاد، وإلا ضربنا أعناقهم، فقال معاوية: سبحان الله ! ما أسرع الناس إلى قريش بالشرِّ، لا أسمع هذه المقالة من أحد منكم بعد اليوم، ثم نزل، فقال الناس: بايع ابن عمر وابن الزبير وابن أبى بكر، وهم يقولون: لا والله، ما بايعنا، فيقول الناس: بلى، وارتحل معاوية فلحق بالشام[2].

وقال جويرية بن أسماء: سمعتُ أشياخَ المدينةِ يحدِّثون أن معاوية لما رحل عن مرّ داخلاً مكة، قال لصاحب حرسه: لا تدع أحدًا يسير معى إلا من حملته أنا، فخرج يسير وحده حتى إذا كان وسط الأراك، لقيه الحسين بن على - رضى الله تعالى عنهما - قال: فوقف، وقال: مرحبًا وأهلاً بابن ابنة رسول اللَّه ﷺ، وسيد شباب المسلمين، دابة لأبى عبد الله يركبها، فأتى ببرذون، فتحول عليه، ثم طلع عبد الرحمن بن أبى بكر، فقال معاوية: مرحبًا وأهلاً بشيخ قريش وسيدها وابن صديق الأمة، دابة لأبى محمد، فأتى ببرذون فركب، ثم طلع ابن عمر فقال: مرحبًا

(١) في ط: عهدت. والمثبت من تاريخ الاسلام.
(٢) ينظر: تاريخ الإسلام، حوادث سنة إحدى وخمسين.

وأهلاً بصاحب رسول الله ﷺ وابن الفاروق، فدعا له بدابة فركبها، ثم طلع ابن الزبير، فقال: مرحبًا بابن حواريِّ رسول الله ﷺ وابن عمة رسول الله ﷺ، ثم دعا بدابة فركبها، ثم أقبل معاوية يسير بينهم لا يسايره غيرهم حتى دخل مكة.

ثم كانوا أول داخل عليه، وآخر خارج، وليس لهم صباح إلا ولهم[1] حباء وكرامة، ولا تعرَّض لهم بذكر شيء حتى قضى نسكه وترحلت أثقاله وقرب مسيره، فأقبل بعض القوم على بعض، فقال: أيها القوم، لا تخدعوا، إنه والله ما صنع بكم ما صنع لحبكم، ولا لكرامتكم ولا صنعه إلا لما يريد، فأعدوا له جوابًا، فأقبلوا على الحسين، فقالوا: أنت يا أبا عبد الله، فقال: وفيكم شيخ قريش وسيدها هو أحق بالكلام، فقالوا لعبد الرحمن: يا أبا محمد، قال: لست هناك، وفيكم صاحب رسول الله ﷺ وسيد المسلمين، فقالوا لابن عمر: أنت، قال: لست بصاحبكم، ولكن، ولوا الكلام ابن الزبير، قال: نعم، إن أعطيتمونى عهودكم ألاَّ تخالفونى، كفيتكم الرجل، قالوا: ذاك لك.

قال: فأذن لهم معاوية، فدخلوا، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: قد علمتم مسيرى فيكم، وصلتى لأرحامكم، وصفحى عنكم، ويزيد أخوكم وابن عمكم وأحسن الناس فيكم رأيًا، وإنما أردت أن تقدموه باسم الخلافة، وتكونون أنتم الذين تنزعون وتؤمرون وتقسمون، فسكتوا، فقال: ألا تجيبونى ؟ فسكتوا، فأقبل على ابن الزبير، فقال: هات يا بن الزبير؛ فإنك لعمرى صاحبُ خطبة القوم، قال: نعم، يا أمير المؤمنين، نخيرك ثلاث خصال، أيها ما أخذت فهو لك، قال: لله أبوك اعرضهُنَّ، قال: إن شئت، اصنع ما صنع رسول الله ﷺ، وإن شئت اصنع ما صنع أبو بكر، وإن شئت اصنع ما صنع عمر، قال معاوية: ما صنعوا ؟ قال ابن الزبير: قبض رسول الله ﷺ ولم يعهد عهده ولم يستخلف أحدًا، فارتضى المسلمون أبا بكر، فقال معاوية: إنه ليس فيكم اليوم مثل أبى بكر؛ فإن أبا بكر رجل تقطع دونه الأعناق، وإنى لست آمن عليكم الاختلاف، قال ابن الزبير: صدقت، والله ما تحب أن تدعنا، فاصنع ما صنع أبو بكر، قال معاوية: لله أبوك، ما صنع أبو بكر ؟

---

(١) هذه العبارة في تاريخ الإسلام هكذا: «وليس في الأرض صباح إلا أولاهم».

قال: عهد[١] إلى رجل من قاصية قريش، ليس من رهطه فاستخلفه، فإن شئت أن تنظر أى الرجل من قريش ليس من بنى عبد شمس فترضى به.

قال معاوية: فالثالثة ما هى ؟ قال: تصنع ما صنع عمر، قال: وما صنع ؟ قال: جعل الأمر شورى فى ستة ليس فيهم أحد من ولده ولا من بنى أبيه ولا من رهطه، قال معاوية: فهل عندك غير هذا ؟ قال: لا، قال: فأنتم ؟ قالوا: ونحن أيضًا، فقال: أما إنى قد أحببت أن أتقدم إليكم أنه قد أعذر من أنذر، وأنه كان يقوم القائم منكم إليَّ فيكذبنى على رءوس الناس فأحتمل ذلك له، وإنى قائم بمقالة إن صدقت فلى صدقى، وإن كذبت فلى كذبى، وإنى أقسم بالله، لئن رد على إنسان منكم كلمة فى مقامى هذا لا ترجع إليه كلمته حتى يسبق إِليّ رأسه، فلا يَرْعَيَنَّ رجل إلا على نفسه، ثم دعا صاحب حرسه، فقال: أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين، فإن ذهب رجل يرد على كلمة فى مقامى هذا، فليضربا عنقه. ثم خرج وخرجوا معه حتى رقى المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم لا يُسْتَبَدُّ بأمر دونهم ولا يقضى أمر إلا عن مشورتهم، وإنهم قد رضوا وبايعوا ليزيد ابن أمير المؤمنين من بعده، فبايعوا باسم الله، قال: فضربوا على يده بالمبايعة، ثم جلس على رواحله، وانصرف الناس[٢].

وفاة معاوية بن أبى سفيان

ذكر غير واحد: أنه لما ثقل فى الضعف، وتحدث الناس أنه الموت، قال لأهله: احشوا عينى إثمدًا وأوسعوا رأسى دهنًا، ففعلوا وبرقوا وجهه بالدهن، ثم مهدوا له مجلسًا وأسندوه، فأذن للناس فدخلوا وسلّموا عليه قيامًا، فلما خرجوا من عنده، أنشد قائلاً: [من الكامل]

وَتَجَلُّدِى لِلشَّامِتِينَ أُرِيهِمُ ... أَنِّى لِرَيْبِ الدَّهْرِ لاَ أَتَضَعْضَعُ

فسمعه رجل من العلويين، فأجابه يقول: [من الكامل]

وَإِذَا المَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا ... أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لاَ تَنْفَعُ[٣]

---

(١) في تاريخ الإسلام: عمد.

(٢) ينظر: تاريخ خليفة (٢١٥-٢١٧)، وتاريخ الإسلام حوادث سنة إحدى وخمسين.

(٣) ينظر: تاريخ الطبري (٥/ ٣٢٦).

وكان قد خطب الناس قبل موته، فقال: إنى كزرع مستحصد، وقد طالت إمارتى عليكم حتى مللتكم ومللتمونى، وتمنيت فراقكم وتمنيتم فراقى، ولن يأتيكم بعدى إلا من أنا خير منه كما كان من قبلى خيرًا منى، وقد قيل: من أحب لقاء الله، أَحَبَّ الله لقاءه، اللهم إنى قد أحببتُ لقاءك، فأحبِبْ لقائى، وبارك لى فيه.

فلم يمض قليل حتى ابتدأ به مرضه، فدعا ابنه يزيد، وقال: يا بنى، إنى قد كفيتك الرحلة، ووطأت لك الأمور، وأخضعت لك رقاب العرب، وجمعت لك ما لم يجمع أحد، وإنى لا أخاف عليك أن ينازعك هذا الأمر الذى استتبَّ لك إلا أربعة نفر من قريش: الحسين بن على، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن أبى بكر، فأما ابن عمر: فرجل قد وقذته العبادة، وإذا لم يبق غيره بايعك، وأما الحسين: فإن أهل العراق لن يدعوه حتى يخرجوه، فإن خرج عليك، فظفرت به، فاصفح عنه؛ فإن له رحمًا ماسَّة وحقًّا عظيمًا، وأما ابن أبى بكر: فإن رأى أصحابه صنعوا شيئًا صنع مثله، وليس له همة إلا فى النساء، وأما الذى يجثم لك جثوم الأسد، ويراوغك روغان الثعلب، فإذا أمكنته فرصة وثب، فذاك ابن الزبير، فإن هو فعلها بك، وقد فزت عليه، فقطعه إربًا إربًا. هذا حديث الطبرى عن هشام[1].

وله عن هشام من طريق آخر قال: لما حضرتْ معاوية الوفاة سنة ستين، كان يزيد غائبًا ببيت المقدس، فدعا بالضحاك بن قيس الفهرى، وكان صاحب شرطته، ومسلم بن عقبة المرّيّ، فقال: « أبلغا يزيد وصيتى: انظر أهل الحجاز؛ فإنهم أصلك، وأكرم من قدم عليك منهم، وتعاهد من غاب، وانظر أهل العراق، فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملاً فافعل، فإن عزل عامل أخفُّ من أن يشهر عليك مائة ألف سيف، وانظر أهل الشام، فليكونوا بطانتك وعيبتك، وإن رابك[2] شيء من عدوك، فانتصر بهم، فإذا أصبتم، فاردد أهل الشام إلى بلادهم؛ فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم، تغيرتْ أخلاقهم، ولست أخاف عليك من قريش إلا ثلاثة - ولم يذكر فى هذا الطريق عبد الرحمن بن أبى بكر، فنقص ذكره من الأربعة السابق ذكرهم -

---

(١) أخرجه الطبري في تاريخه (٥/ ٣٢٢-٣٢٣)، وينظر كتاب المعمرين لابن أبي حاتم (ص١٥٥).
(٢) في الطبري: نابك.

وقال فى ابن عمر: قد وقذه الدين، فليس بملتمس شيئًا قبلك، وقال فى الحسين: ولو أنى صاحبه عفوت عنه، وأنا أرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه، وقال فى ابن الزبير: إذا شخص إليك، فالبد له إلا أن يلتمس منك صلحًا، فاقبل، واحقن دماء قومك ما استطعت[(١)].

وكانت وفاة معاوية منتصف رجب سنة ستين، وقيل جمادى الآخرة لتسع عشرة سنة وأشهر من ولايته[(٢)].

وكان على خاتمه عبد الله بن حصين الحميرى، وهو أول من اتخذ « ديوان الخاتم »، وكان سببه أنه أمر لعمرو بن الزبير بمائة ألف درهم، وكتب بذلك كتابًا إلى زياد بالعراق، ففض عمرو الكتاب وصير المائة مائتين، فلما رفع زياد حسابه، أنكر معاوية وأخذ عمرًا بردها وحبسه، فأدَّاهَا عنه أخوه عبد الله بن الزبير، فأحدث عند ذلك ديوان الخاتم[(٣)].

صفة معاوية

كان رجلاً أبيض جميلاً، إذا ضحك انقلبت شفته العليا، وكان يخضب بالصفرة.

قال أبو عبد رب الدمشقى: رأيت معاوية يصفر لحيته كأنها الذهب[(٤)].

وعن إبراهيم بن عبد الله بن قارظ قال: سمعت معاوية على منبر المدينة يقول: أين فقهاؤكم يأهل المدينة ؟ سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن هذه القصة، ثم وضعها على رأسه أو خده، فلم أر على عروس ولا على غيرها أبهَىٰ منها على معاوية[(٥)].

ذكر مناقبه

ذكر المفضل الغلابى؛ أن زيد بن ثابت كان كاتب وحى رسول الله ﷺ، وكان معاوية كاتبه فيما بينه وبين العرب؛ كذا قال[(٦)].

---

(١) ينظر تاريخ الطبري (٥/ ٣٢٣) والمعمرين (ص١٥٦).
(٢) هكذا جزم المصنف، وفيه خلاف ينظر في تاريخ الطبري (٥/ ٣٢٣، ٣٢٤).
(٣) ينظر: تاريخ الطبري (٥/ ٣٣٠).
(٤) ينظر: تاريخ الإسلام وفيات سنة ستين، ترجمة معاوية بن أبي سفيان.
(٥) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٩/ ٣٤٧) رقم (٨٠٥) من طريق الزهري عن عمر بن عبد العزيز عن إبراهيم بن عبد الله بن قارظ عن معاوية.
(٦) ينظر تاريخ الإسلام وفيات سنة ستين، ترجمة معاوية.

وقد صح عن ابن عباس قال: « كنت ألعب، فدعانى رسول الله ﷺ وقال: ادع لى معاوية، وكان يكتب الوحى »[(١)].

وقال معاوية بن صالح، عن العرباض بن سارية سمعت رسول الله ﷺ وهو يدعونا إلى السحور: « هلم إلى الغداء المبارك »، ثم سمعته يقول: « اللهم، علم معاوية الكتاب والحساب، وقه العذاب » رواه أحمد فى مسنده[(٢)].

وروى عن عبد الرحمن بن أبى عميرة المزنى، وكان من أصحاب النبى ﷺ؛ أن النبى ﷺ قال لمعاوية: « اللهم، علمه الكتاب والحساب، وقه العذاب »[(٣)].

وروى عبد الرحمن بن أبى عميرة - أيضًا - يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول لمعاوية: « اللهم، اجعله هاديًا مهديًّا، واهده واهد به » رواه الوليد [بن] مسلم وأبو مسهر عن سعيد نحوه. ورواه الترمذى، عن الذهلى، عن أبى مسهر[(٤)].

وروى نعيم بن حماد، بسنده، عن يونس بن ميسرة، عن عبد اللّٰه بن بسر؛ أن رسول الله ﷺ استأذن أبا بكر وعمر فى أمر، فقال: أشيرا عَلَيَّ، فقالا: الله ورسوله أعلم، فقال: « ادْعُوَا معاوية وأحضراه أمركما؛ فإنه قوى أمين »[(٥)].

وروى عن وحشى بن حرب بن وحشى، عن أبيه، عن جده قال: أردفَ رسول الله ﷺ معاوية بن أبى سفيان خلفه فقال: ما يلينى منك ؟ قال: بطنى، قال: « اللهم، املأه علمًا »، وقال خليفة: جمع عمر لمعاوية الشام كله، ثم أقره عثمان[(٦)].

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٤٠، ٣٣٨) ومسلم (٩٦/ ٢٦٠٤) من طريق أبي حمزة القصاب عن ابن عباس.
(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٢٧) وابن حبان (٢٢٧٨) والبزار (٣/ ٢٦٧) رقم (٢٧٢٣) من حديث العرباض بن سارية.
(٣) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٥/ ٢٤٠، ٧/ ٣٢٧) وابن الأثير في أسد الغابة (٣/ ٤٧٩) وابن الجوزي في العلل المتناهية (١/ ٢٧٥-٢٧٦) من طريق أبي مسهر ثنا سعيد بن عبد العزيز عن ربيعة بن يزيد عن عبد الرحمن بن أبي عميرة المزني، به.
وذكره الألباني في الصحيحة (١٩٦٩) وعزاه أيضًا لعباس الترفقي في حديثه وابن عساكر في تاريخ دمشق.
(٤) أخرجه الترمذي (٣٨٤٢) والخطيب في تاريخه (١/ ٢٠٧-٢٠٨).
وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب وينظر الصحيحة (١٩٦٩).
(٥) ذكره الذهبي في تاريخ الإسلام عند ترجمة معاوية وقال: هذا من مناكير حماد وهو صاحب أوابد.
(٦) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٨/ ١٨٠) من طريق وحشى. وقال الذهبي: قال صالح جزرة: لا تشتغل بوحشي ولا بأبيه.

وقال مسلم بن جندب، عن أسلم مولى عمر، قال: قدم علينا معاوية وهو أَبَضُّ[١] الناس وأجملهم، فحج مع عمر، وكان عمر ينظر إليه فيعجب له، ثم يضع إصبعه على متنه، ويرفعها عن مثل الشراك، ويقول: بخ بخ نحن إذن خير الناس أن جمع لنا خير الدنيا، والآخرة، فقال معاوية: يا أمير المؤمنين، سأحدثك، إنا بأرض الحمامات والريف، فقال له عمر: سأحدثك ما بك إلطافك نفسك بأطيب الطعام، وتضحّيك حتى تضرب الشمس منكبيك[٢]، وذوو الحاجات وراء الباب.

قال أسلم: فلما جئنا ذا طوى، أخرج معاوية حلة، فلبسها فوجد عمر منها رائحة طيبة، فقال عمر: يعمد أحدكم يخرج حاجًا تَفِلاً حتى إذا جاء أعظم بلدان الله، أخرج ثوبيه؛ كأنهما كانا فى الطيب فيلبسهما، فقال معاوية: إنما لبستهما لأَدْخُلَ فيهما على عشيرتى، والله لقد بلغنى أذاك[٣] ههنا وبالشام، الله يعلم أنى لقد عرفت الحياء فيه، ونزع معاوية الثوبين، ولبس ثوبيه اللذين أحرم فيهما[٤].

وقال أبو الحسن المدائنى: كان عمر إذا نظر إلى معاوية، قال: هذا كسرى العرب[٥].

وقال مجاهد، عن الشعبى، عن على قال: لا تكرهوا إمرة معاوية، فإنكم لو فقدتموه رأيتم الرءوس تندر عن كواهلها[٦].

وروى علقمة بن أبى علقمة، عن أمه، قالت: قدم معاوية المدينة، فأرسل إلى عائشة - رضى الله تعالى عنها - أن أرسلى إِلىَّ بأنبجانية رسول الله ﷺ وشعره، فأرسلت بذلك معى أحمله، فأخذ الأنبجانية، فلبسها وغسل الشعر بماء، فشرب منه، وأفاض على جلده[٧].

---

(١) أبض: من بض البدن بضاضة وبضوضة أي: امتلأ ونضُر، ويقال: بشرة بضة وبضيضة، أي: رقيقة نضرة. ينظر الوسيط (بضض).
(٢) في تاريخ الإسلام: متنيك.
(٣) في ط: أناك. والمثبت من تاريخ الإسلام.
(٤) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٢٠٢-٢٠٣) رقم (٥٧٦). وذكره الذهبي في تاريخ الإسلام في ترجمته رضي الله عنه.
(٥) ينظر البداية والنهاية (٨/ ١٢٥)، وتاريخ الإسلام، ترجمة معاوية.
(٦) ينظر تاريخ الإسلام ترجمة معاوية.
(٧) ينظر المصدر السابق.

وروى أبو بكر الهذلى، عن الشعبى، قال: لما قدم معاوية المدينة عام الجماعة - يعنى: عام أربعين من الهجرة - تلقته رجال قريش، فقالوا: الحمد لله الذى أعزَّ نصرك، وأعلى أمرك، فما رد عليهم جوابًا حتى دخل المدينة، فعلا المنبر، ثم حمد الله، وقال: « أما بعد، فإنى والله ما وليت أمركم إلا وأنا أعلم أنكم لا تسرون بولايتى ولا تحبونها، وإنى لعالم بما فى نفوسكم، ولكنى خالستكم بسيفى هذا مخالسة، ولقد رمت نفسى على عمل ابن أبى قحافة، فلم أجدها تقوم بذلك، وأردتها على عمل عمر، فكانت عنه أشدَّ نفورًا، وحاولتها على مثل سنيَّاتِ عثمان فأبت على، وأين مثل هؤلاء. هيهات أن يدرك أحد فضلهم من بعدهم، غير أنى سلكت بها طريقًا لى فيه منفعة، ولكم فيه مثل ذلك، ولكل فيه مؤاكلة حسنة ومشاربة جميلة، ما استقامت السيرة، وحسنت الطاعة، فإن لم تجدونى خيركم، فأنا خيرٌ لكم، والله لا أحمل السيف على من لا سيف معه، ومهما تقدم مما قد علمتموه فقد جعلته دبر أذنى، وإن لم تجدونى أقوم بحقكم كله، فارضوا منى ببعضه؛ فإنها لقائبة قوبها[1] وإن السيل إذا جاء تترى وإن قل أغنى، وإياكم والفتنة فلا تهموا بها؛ فإنها تفسد المعيشة وتكدر النعمة وتورث الاستئصال، وأستغفر اللّه لى ولكم. ونزل[2].

قال الحافظ الذهبى فى دول الإسلام: قال جندل بن والق وغيره: حدثنا محمد ابن بشر، حدثنا مجالد، عن أبى الوداك، عن أبى سعيد، قال: قال رسول الله ﷺ: إذا رأيتم معاوية على منبرى فاقتلوه. مجالد ضعيف[3].

وقد رواه الناس عن على بن زيد بن جدعان، وليس بالقوى، عن أبى نضرة، عن أبى سعيد، فذكره.

وروى عن أبى بكر بن داود، قال: هو معاوية بن تابوه رأس المنافقين، حلف أن

---

(١) القائبة: البيضة والقُوب: الفرخ أيضًا أو فلق الطير بيضه ويقال في المثل: تخلصت قائبة من قُوب، أو: قابة من قوب: أي بيضة من فرخ. يضرب لمن انفصل من صاحبه. ينظر ترتيب القاموس (قوب).

(٢) ينظر البداية والنهاية (٨/ ١٤١) وتاريخ الإسلام ترجمة معاوية.

(٣) أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٦/ ٢٤١٦) من طريق مجالد عن أبي الوداك عن أبي سعيد، به. ومجالد بن سعيد ضعيف.

يتغوَّط فوق المنبر الشريف[١].

وقال بسر بن سعيد، عن سعد بن أبى وقاص، قال: ما رأيتُ أحدًا بعد عثمان أقضَىٰ بحق من صاحب هذا الباب، يعنى: معاوية[٢].

وعن أبى بكر بن أبى مريم، عن ثابت مولى أبى سفيان؛ أنه سمع معاوية يخطُبُ ويقول: إنى لست بخيركم، وإن فيكم من هو خير منى عبد الله بن عمر، وعبد الله ابن عمرو، وغيرهما من الأفاضل، ولكنى حسبت أن أكونَ أَنْكَاكم فى عدوكم، وأنفعكم ولاية، وأحسنكم خلقًا.

قال همام بن منبه: سمعت ابن عباس يقول: ما رأيتُ رجلًا كان أخلق للملك من معاوية؛ كان الناس يردون منه على أرجاء وادٍ رحب، لم يكن بالضيق الحصر العصعص[٣] المتعصب. يعنى ابن الزبير.

وقال أبو أيوب، عن أبى قلابة إن كعب الأحبار قال: لن يملك هذه الأمة أحد ما ملك معاوية[٤].

قلت: صدق كعب فيما قاله؛ فإن معاوية بقى خليفة عشرين سنة لا ينازعه أحد الأمر فى الأرض جميعًا؛ بخلاف عبد الملك بن مروان وأبى جعفر المنصور وهارون الرشيد وغيرهم؛ فإنهم كان لهم مخالف وخرج عن حكمهم بعض الممالك[٥].

وروى ضمام بن إسماعيل، قال: سمعت أبا قبيل حيى بن هانئ يخبر عن معاوية، وصعد المنبر يوم جمعة، فقال: أيها الناس، إن المال مالنا، والفيء فيئنا، من شئنا أعطينا، ومن شئنا منعنا. فلم يجبه أحد. فلما كانت الجمعة الأخرى، قال مثل ذلك، فلم يجبه أحد. فلما كانت الجمعة الثالثة، قال مثل ذلك، فقام إليه رجل فقال: كلا، إنما المال مالنا، والفيء فيئنا، من حال بيننا وبينه، حكمناه إلى الله

---

(١) ينظر سير أعلام النبلاء (٣/ ١٥٠).

(٢) ينظر تاريخ الإسلام ترجمة معاوية.

(٣) الضيق والحَصِر البخيل. والعصعص، - كقنفذ -: النكد القليل الخير.

(٤) ذكر هذه الآثار كلها الحافظ الذهبي في تاريخه المسمي بتاريخ الإسلام عند ترجمة معاوية في حوادث سنة ستين.

(٥) وسيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله في محله.

بأسيافنا. فنزل معاوية وأرسل إلى الرجل، فأدخل عليه، فقال القوم: هلك، ففتح معاوية الأبواب، ودخل الناس، فوجدوا الرجل معه على السرير، فقال معاوية: إن هذا أحيانى، أحياه الله، سمعت رسول الله ﷺ يقول: « سيكون أئمة من بعدى يقولون، فلا يرد عليهم قولهم يتقاحمون فى النار تقاحم القردة »، وإنى تكلمت، فلم يرد على أحد، فخشيت أن أكون منهم، ثم تكلمت الجمعة الثانية، فلم يرد على أحد، فقلت فى نفسى: إنى من القوم، ثم تكلمت هذه الجمعة الثالثة، فقام هذا، فرد عليَّ، فأحيانى أحياه الله، فرجوت أن يخرجنى الله منهم. فأعطاه وأجازه[١].

وروى عن خالد بن معدان، قال: وفد المقدام بن معدى كرب، وعمر بن الأسود، ورجل من بنى أسد له صحبة على معاوية، فقال معاوية للمقدام: توفى الحسن، فاسترجع، فقال معاوية: أتراها مصيبة ؟ قال المقدام: ولم لا، وقد وضعه رسول الله ﷺ فى حجره، وقال: « هذا[٢] منى، وحسين من على »، ثم قال معاوية للأسدى: ما تقول أنت ؟ قال: جمرة أطفئَتْ، فقال المقدام: أنشدك الله، هل سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن لبس الذهب والحرير، وعن جلود السباع والركوب عليها ؟ قال: نعم، قال: فوالله، لقد رأيت هذا كله فى بيتك[٣] يا معاوية، فقال معاوية: عرفت أنى لا أنجو منك[٤].

وكان يضرب المثل بحلم معاوية، وقد أفرد ابن أبى الدنيا، وأبو بكر بن أبى عاصم تصنيفًا مستقلاً فى حلم معاوية، فقال: إن رجلاً شارط آخر على أن يضرب معاوية كَفًّا، فلما فعله، التفت إليه معاوية، وقال: اذهب إلى صاحبك، وخذ شرطك، ولا تعد لمثلها. ثم إن هذا الرجل شارط آخر على مثلها فى يزيد، فلما فعله، أمر بقطع يديه، فقال الرجل: إن كان لا بد فواحدة، فقال يزيد: واحدة للضرب، والأخرى للشرط، فقال له الرجل: غَرَّنى حلم معاوية يا يزيد، فقال يزيد: تلك أمة قد خلت.

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٩/ ٣٩٣-٣٩٤) رقم (٩٢٥).
وقال الهيثمي (٥/ ٢٣٩): رجاله ثقات وقال الذهبي في تاريخه: هذا حديث حسن.
(٢) في ط: حسن، والمثبت من تاريخ الإسلام وهو موافق لرواية أحمد وأبي داود.
(٣) في تاريخ الإسلام: في بنيك. والمثبت موافق لرواية أبي داود.
(٤) أخرجه أحمد (٤/ ١٣٢) وأبو داود (٤١٣١) مطولاً. وينظر تاريخ الإسلام ترجمة معاوية.

وعن قبيصة بن جابر قال: صحبت معاوية فما رأيتُ رجلاً أثقل حلمًا ولا أبطأ جهلاً ولا أبعد أناة منه.

وقال جرير، عن مغيرة قال: أرسل الحسن بن على، وعبد اللَّه بن جعفر إلى معاوية يسألانه، فبعث إليهما بمائة ألف دينار، فبلغ ذلك عليًا، فقال لهما: ألا تستحيان من رجل نطعن فيه غدوة وعشية تسألانه المال ؟ قالا: لأنك حرمتنا، وجاد لنا.

وقال مالك: كان معاويةُ ينتف الشيب كذا وكذا سنةً، وكان يخرج إلى الصلاة ورداؤه يحمل وراءه، فإذا دخل للصلاة جعل عليه، وذلك من الكبر.

وذكر غيره؛ أن معاوية أصابته اللقوة قبل أن يموت، وكان اطلع فى بئر عادية فى الأبواء لما حج، فأصابته اللقوة، يعنى: بطل نصفه[(١)].

وعن الشعبى قال: أول من خطب الناس قاعدًا معاويةُ، وذلك حين كَثُرَ شحمه، وعظم بطنه.

وعن ابن سيرين: أصاب معاوية لقوة[(٢)]، فاتخذ لحفًا خفافًا تلقى عليه، فلا يلبث أن يتأذى بها، فإذا أخذت عنه يسأل أن ترد عليه، فقال: قبحك الله من دار مكثت فيك عشرين سنة أميرًا، وعشرين سنة خليفة، ثم صرت إلى ما أرى[(٣)].

وروى عبد الأعلى بن ميمون بن مهران، عن أبيه؛ أن معاوية قال فى مرضه: كنت أوضئ رسول الله ﷺ يومًا، فنزع قميصه وكسانيه فرفعته، وخبأت قلامة أظفاره فى قارورة، فإذا مت فاجعلوا القميص على جلدى، واسحقوا تلك القلامة واجعلوها فى عينى، فعسى [الله أن يرحمنى ببركتها][(٤)].

وقال أبو عمرو بن العلاء: لما حضرت معاوية الوفاة أنشد: [من الطويل]

هُوَ المَوْتُ لاَ يُنْجِىٰ مِنَ المَوْتِ وَالّذِي   نُجَاوِزُ بَعْدَ المَوْتِ أَدْهَىٰ وَأَفْظَعُ

---

(١) تنظر هذه الآثار في تاريخ الإسلام للذهبي، ترجمة معاوية بن أبي سفيان عند حوادث سنة ستين من الهجرة.

(٢) في تاريخ الإسلام: أخذت معاوية قرحة واللقْوة: مرض يعرض للوجه فيميله إلى أحد جانبيه. ينظر النهاية (٤/ ٢٦٨).

(٣) ينظر المصدر قبل السابق.

(٤) ينظر أنساب الأشراف (٤٣١) وتاريخ الطبري (٥/ ٣٢٧).

اللهم، أقل العثرة، واعف عن الزلة، وتجاوز بحلمك عن جهل من لم يرج غيرك، فما وراءك مذهب.

قال أبو مسهر: صلى عليه الضحاك بن قيس الفهرى، ودفن بدمشق بين باب الجابية والباب الصغير[١].

قال العلامة المسعودى[٢]: وقبره يزار إلى الآن، عليه بيت مبنىٌ يفتح كل اثنين وخميس، وله من العمر ثمانون، وقيل: تسعون، وكان أميرًا وخليفةً أربعينَ سنةً، منها أربع سنين فى خلافة عمر، رضى اللّٰه عنه.

بيعة يزيد بن معاوية[٣]

قد مضَىٰ أن معاوية جعل ابنه ولى عهده، وأكره الناس على ذلك، فلما توفى، لم يدخل فى طاعة يزيد الحسين بن على، ولا عبد الله بن الزبير، ولا من يشايعهما.

قال أبو مسهر: حدثنا خالد بن يزيد، حدثنى سعيد بن حريث، قال: لما كانت الغداة التى توفى ليلتها معاوية فزع الناس إلى المسجد، ولم يكن قبله خليفة بالشام غيره، فكنت فيمن أتى المسجد، فلما ارتفع النهار وهم يبكون فى الخضراء، وابنه يزيد غائب، وبعث إليه البريد، وهو ولى عهده، وكان بحوارين، وكان نائبه على دمشق الضحاك بن قيس الفهرى، فدفن معاوية، فلما كان بعد أسبوع، بلغنا أن ابن الزبير خرج بالمدينة وحارب.

وكان معاوية قد غشى عليه مرة، فركب بموته الركبان، فلما بلغ ذلك ابن الزبير، خرج، فلما كان يوم الجمعة، صلى بنا الضحاك، ثم قال: تعلمون أن خليفتكم يزيد قدم، ونحن غدا متلقوه، فلما صلى الصبح ركب فركبنا معه، فسار إلى ثنية العقاب، فإذا بأثقال يزيد، ثم سرنا قليلًا، فإذا بيزيد فى ركب معه أخواله من بنى كلب، وهو

(١) ينظر تاريخ الإسلام ترجمة معاوية.

(٢) ينظر: مروج الذهب (٣/ ١١).

(٣) ينظر: منهاج السنة ٢/ ٢٣٧، سير أعلام النبلاء ٤/ ٣٥-٤٠، المعارف ٣٥١، تاريخ اليعقوبى ٢/ ٢١٥، مروج الذهب ٢/ ٥٦٧، الكامل فى التاريخ ٤/ ١٢٦، تاريخ الإسلام ٣/ ٩١، تاريخ الخميس ٢/ ٣٠٠، شذرات الذهب ١/ ٧١، تهذيب التهذيب ١١/ ٣٦٠، تقريب التهذيب ٢/ ٣٧١، خلاصة تهذيب الكمال ٣/ ١٧٧، تعجيل المنفعة ١١٨٩، لسان الميزان ٦/ ٢٩٣، البداية والنهاية ٨/ ٢٤٨ .

على بختى له رحل وريطة[١] مثنية فى عنقه، ليس عليه سيف ولا عمامة، وقد كان ضخمًا سمينا قد كثر شعره وشعث، فأقبل الناس يسلِّمون عليه ويعزونه وهو ترى فيه الكآبة والحزن وخفض الصوت، والناس يعيبون ذلك منه، ويقولون: هذا الأعرابيُّ الأميُّ ولى أمر الناس، والله سائل عنه، فسار، فقلنا: يدخل من باب توما، فلم يدخل، ومضى إلى باب شرقى، فلم يدخل منه وأجازه، ثم أجاز باب كيسان إلى باب الصغير، فلما وافاه أناخ ونزل، ومشى الضحاك بين يديه إلى قبر معاوية فصففنا خلفه[٢] وكبر أربعًا، فلما خرج من المقابر، أتى ببغلة، فركبها إلى الخضراء، ثم نودى: الصلاة جامعة لصلاة الظهر، فاغتسل ولبس ثيابًا نفيسةً[٣]، ثم جلس على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وذكر موت أبيه، وقال: إنه كان يغزيكم البحر والبر، ولستُ حاملاً أحدًا من المسلمين فى البحر. وإنه كان يشتيكم بأرض الروم، ولست مشتيًا أحدًا بها، وإنه كان يخرج لكُمُ العطاء ثلاثًا، وأنا أجمعه لكم كله. قال: فافترقوا وما يفضلون عليه أحدًا[٤].

وقال أبو بكر بن أبى مريم، عن عطية بن قيس، قال: خطب معاوية، فقال: « اللهم إن كنت إنما عهدت ليزيد لما رأيت من فضله فبلِّغه ما أملت وأعنه، وإن كنت إنما حملنى على ذلك حب الوالد لولده وأنه ليس بأهل، فاقبضه قبل أن يبلغ ذلك ».

وقال حميد بن عبد الرحمن: دخلنا على بشير، وكان صحابيًا، فقلنا: استخلف يزيد فقال: يقولون إن يزيد ليس بخير أمة محمد ﷺ وأنا أقول ذلك، ولكن لأن يجمع الله أمة محمد أحب إلىَّ من أن تفترق. كذا فى الذهبى [٥].

بويع يزيد بعد موت أبيه، وعلى المدينة الوليد بن عتبة بن أبى سفيان، وعلى مكة عمرو بن سعيد بن العاص الشهير بالأشدق، وعلى البصرة عبيد الله بن زياد، وعلى

---

(١) البختى: واحدة البخت، وهى الإبل الخراسانية. والريطة: الملاءة كلها نسج واحد وقطعة واحدة، وهى أيضا: كل ثوب لين رقيق.
(٢) في ط: حوله. والمثبت من تاريخ الإسلام.
(٣) في تاريخ الإسلام: نقيَّة.
(٤) ينظر: تاريخ الإسلام، بيعة يزيد، في حوادث سنة ستين.
(٥) ينظر السابق.

الكوفة النعمان بن بشير.

ولم يكن هم يزيد إلا بيعة النفر الذين أبوا على معاوية بيعته، فكتب يزيد إلى الوليد بن عتبة بموت معاوية، وأن يأخذ حسينًا وابن عمر وابن الزبير بالبيعة من غير رخصة.

فلما أتى الوليد نعى معاوية، استدعى مروان بن الحكم، وكان منقطعًا عنه بما كان يبلغه عنه، فلما قرأ مروان الكتاب بنعى معاوية، استرجع وترحَّم، فاستشاره الوليد فى أمر أولئك النفر، فأشار عليه أن يحضرهم لوقته، فإن بايعوا وإلا قتلتهم قبل أن يعلموا بموت معاوية، فيثب كل رجل منهم فى ناحية، إلا ابن عمر؛ فإنه لايحبُّ القتال ولايحب الولاية، إلا أن يرفع إليه الأمر.

فبعث الوليد لوقته عبد الله بن عمرو بن عثمان - وهو غلام حدث - فجاء إلى الحسين وابن الزبير فى المسجد فى ساعة لم يَكُنِ الوليد يجلس فيها للناس، وقال: أجيبا الأمير، فقالا: انصرف، الآن نأتيه.

ثم حدسا فيما بعث إليهما فلم يَعْدُوَا ما وقع، وجمع الحسين فتيانه وأهل بيته وسار إليه، وأجلسهم بالباب، وقال: إن دعوتكم أو سمعتم صوتى عاليًا، فادخلوا بأجمعكم. ثم دخل، [فسلم] ومروان عنده، فشكرهما الوليد على الصلة بعد القطيعة، ودعا لهما بصلاح ذات البين، فأقرأه الوليد الكتاب بنعى معاوية ودعاه إلى البيعة، فاسترجع وترحَّم، وقال: مثلى لايبايع سِرًّا ولايكتفى بها منى، فإذا ظهرت للناس ودعوتهم، كان أمرنا واحدًا، وكنت أول مجيب. فقال الوليد - وكان يحب المسالمة-: انصرف يا أبا عبد الله. وقال مروان للوليد: لاتقدر منه على مثلها أبدًا حتى تكثر القتلَىٰ بينك وبينه، ألزمه البيعة؛ وإلا اضرب عنقه. فوثب الحسين وقال: أنت تقتلنى أو هو؟ كذبت والله، فانصرف إلى منزله يتهادَىٰ بين مواليه، وهو يقول:

[من الخفيف]

لاَ ذَعَرْتُ السَّوَامَ فِى فَلَقِ الصُّبْـ ... ـحِ مُغِيرًا وَلاَ ذَعَرْتُ يَزِيدَا

يَوْمَ أعطى مَخَافَةَ القَتْلِ ضَيْمًا ... وَالمَنَايَا صَدَدْنَنِى أَنْ أَحِيدَا

وأخذ مروان فى عذل الوليد، فقال: يا مروان، والله ما أحبُّ أن لى ما طلعَتْ عليه الشمس من مال الدنيا وملكها،، وأنى قتلت الحسين أن قال: لا أبايع.

وأما ابن الزبير، فإنه اختفىٰ فى داره، وجمع أصحابه، وألح الوليد فى طلبه، وبعث مواليه فشتموه وتهددوه وأقاموا ببابه فى طلبه، فبعث ابن الزبير أخاه جعفرًا يلاطف الوليد، ويشكو ما أصابه من الذعر ويعده بالحضور من الغداة، وأن يصرف رسله من بابه، فبعث إليهم وانصرفوا. وخرج ابن الزبير من ليلته مع أخيه جعفر وحدهما، وأخذا طريق الفرع إلى مكة، فسرح الوليد الرجال فى طلبه، فلم يدركوه ورجعوا وتشاغل بذلك عن الحسين سائِرَ يومه، ثم أرسل إلى الحسين يدعوه، فقال الحسين: أصبحوا وَتَروْنَ ونَرَىٰ. وسار فى الليلة الثانية ببنيه وبنى أخيه إلا محمد بن الحنفية، وكان قد نصحه، وقال: تنحَّ عن يزيد وعن الأمصار ما استطعت، وابعث دعاتك إلى الناس، فإن أجابوك فاحمد الله، وإن اجتمعوا على غيرك فلم ينقصْ بذلك دينك ولاعقلك ولم تذهب به مروءتك ولافضلك. وأنا أخاف أن تأتى مصرًا أو قومًا؛ فيختلفون عليك؛ فتكون لأول الأسنة، فإذا خير الأمة نفسًا وأبًا أضيعها دمًا وأذلُّها أصلاً. قال له الحسين: فإنى ذاهب، قال له: انزل مكة، فإن اطمأنت بك الدار، فبسبيل ذلك، وإن نأت بك، لحقت بالرمال وشعاب الجبال ومن بلد إلى بلد حتى تنظر مصير أمر الناس وتعرف الرأى. فقال: يا أخى، نصحْتَ وأشفقْتَ، فلحق بمكة، وبعث الوليد إلى ابن عمر ليبايع، فقال: إذا بايع الناس، وقيل: إن ابن عمر وابن عباس كانا بمكة ورجعا إلى المدينة، فلقيا الحسين وابن الزبير فأخبراهما بموت معاوية وبيعة يزيد، فقال ابن عمر: لانفرِّق جماعة المسلمين. وقَدِمَ هو وابن عباس المدينة وبايعا عند بيعة الناس.

ولما دخل ابن الزبير مكة، وعليها عمرو بن سعيد بن العاص الشهير بالأشدق؛ كما تقدَّم ذكره، قال: أنا عائذ بالبيت، ولم يكنْ يصلِّى ولايفيض معهم، ويقف هو وأصحابه ناحية.

ولما بلغ يزيد صنيع الوليد بن عتبة بأمر أولئك النفر وتوانيه فى أمرهم، عزله عن المدينة، وولاها عمرو بن سعيد، فقدمها فى رمضان، واستعمل على شرطته عمرو ابن الزبير بالمدينة لما كان بينه وبين أخيه عبد الله بن الزبير من البغضاء.

قال العلامة ابن [خلدون]: وولى يزيد بن معاوية عمرو بن سعيد بن العاص المدينة ومكَّة، والموسم والطائف، فقدم إلى المدينة سنة ستين فى رمضان قبيل

العتمة، فصلى العتمة بالناس، وقرأ: ﴿ لَمْ يَكُنِ . . .﴾[البينة:١] و ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ [الزلزلة:١]، فلما أصبح، خرج على الناس وعليه قميص أحمر وعمامة حمراء، فصعد المنبر، فرماه الناس بأبصارهم، فقال: يأهل المدينة، ما لكم ترموننا بأبصاركم كأنكم تريدون تقروننا سيوفكم؟! أنسيتم مافعلتم؟! أما لو انتقم منكم فى الأولى ماعدتم إلى الثانية. أغركم إذ قتلتم عثمان، فوجدتم صابرًا حليمًا وإمامًا مواتيًا، فذهب غضبه وذهبت أذاته، فاغنموا أنفسكم، فقد وليكم إمام بالشباب المقتبل، البعيد الأمل، وقد اعتدل جسمه، واشتدَّ عظمه، ورمى الدهر ببصره واستقبله بأسره، فهو إن عض نهش، وإن وطئ فرش، لايقلقله الحصى، ولاتقرع له العصا، فرعف وهو يتكلم على المنبر، فألقى إليه رجل عمامة مسح بها، فقال رجل من خثعم: دم على المنبر فى عمامة، فتنة عمت وعلا ذكرها، ورب الكعبة.

ثم خرج عمرو بن سعيد إلى مكة، فقدمها قبيل التروية بيوم، وخرج الحسين - رضى الله تعالى عنه - فقيل لعمرو: خرج الحسين، فقال: اركبوا كُلَّ بعير بين السماء والأرض فى طلبه، قال: وكان الناس يتعجبون من قوله، فطلبوه فلم يدركوه، فكانت الفتنة المشهورة. انتهى. ذكر ذلك فى ذكر العيافة والزجر والطيرة.

وأحضر نفرًا من شيعة ابن الزبير بالمدينة، فضربهم من الأربعين إلى الخمسين إلى الستين، منهم المنذر بن الزبير، وابنه محمد، وعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث، وعثمان بن عبد الله بن حكيم بن حزام، ومحمد بن عمار بن ياسر، وغيرهم.

ثم جهز البعوث إلى مكة سبعمائة ونحوها، وقال لعمرو بن الزبير: من نبعث إلى أخيك؟ فقال: لاتجد رجلاً أبلى له منى، فجهز معه سبعمائة مقاتل.

وعذل مروان بن الحكم عمرو بن سعيد بن العاص فى غزو مكة، وقال له: اتق الله، ولاتحل حرمه، فقال: والله لنغزونه فى جوف الكعبة.

وجاء أبو شريح الخزاعى إلى عمرو بن سعيد فقال له: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إنما أذن لى بالقتال فيها ساعة من نهار، ثم عادت كحرمتها بالأمس »[1]،

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٣١، ٣٢، ٦/ ٣٨٤، ٣٨٥) والبخاري (١٠٤) ومسلم (٤٤٦/ ١٣٥٤) وأبو داود (٤٥٠٤) والترمذي (٨٠٩) والنسائي (٥/ ٢٠٥) من حديث أبي شريح الخزاعي.

فقال له عمرو بن سعيد: نحن أعلم بحرمتها منك أيها الشيخ.

ويقال: إن الجيش كان عدته ألفَىْ مقاتل، وعلى مقدمته أنيس بن عمير الأسلمى، فلما قاربوا مكة، نزل أنيس بذى طوى، ونزل عمرو بالأبطح، وبعث إلى أخيه عبد الله أن بر يمين يزيد، فإنه حلف ألاَّ يقبل بيعته إلا أن يؤتى به فى جامعة؛ فلا تضرب الناس بعضهم ببعض؛ فإنك فى بلد حرام.

فأرسل عبد الله بن الزبير من اجتمع معه من أهل مكة مع عبد الله بن صفوان بن أمية، فهزموا أنيسًا بذى طوى، وقتل أنيس فى الهزيمة، وتخلف عن عمرو بن الزبير أصحابه، فدخل دار ابن علقمة وأجاره، وقال لأخيه عبد الله بن الزبير: قد أجرته، فأنكر ذلك عليه، وأجاز جواره، وقيل: إنه لم يجز جواره، وضربه بكل من ضربه عمرو بن سعيد بن العاص بالمدينة من جماعته، وحبسه بسجن عارم، ومات تحت السياط.

توجه الحسين بن على إلى الكوفة واستشهاده بكربلاء[1]

لما خرج الحسين من المدينة إلى مكة، لقيه عبد الله بن مطيع، وسأله: أين تريد؟ فقال: مكة، وأستخير الله فيما بعد، فنصحه ألا يقرب الكوفة، وذكَّره قتلهم أباه، وخذلانهم أخاه، وأن يقيم بمكة لايفارق الحرم حتى يتداعى إليه الناس، ورجع عنه.

ونزل الحسين بمكة، فأقام الناس يختلفون إليه، وابن الزبير فى جانب الكعبة يصلى ويطوف عامة النهار، ويأتى الحسين فيمن يأتيه؛ وعلم أن أهل الحجاز لايلتفتون إليه مع الحسين.

ولما بلغ أهل الكوفة بيعة يزيد، ولحاق الحسين بمكة، اجتمعت أهالى الكوفة والشيعة فى منزل سليمان بن صُرَدَ الخزاعى، وكتبوا إليه: إنا حبسنا أنفسنا على بيعتك، ونحن نموت دونك، وإننا لم نبايع للنعمان بن بشير أمير الكوفة، ولانجتمع معه فى جمعة ولا عيد، ولو جئتنا أخرجناه، وبعثوا بالكتاب مع عبد الله بن سميع

---

(١) ينظر تاريخ الطبري (٥/ ٤٠٠-٤٧٠) الطبقات الكبرى (٥/ ١٤٥) الكامل في التاريخ (٤/ ٥٠) تاريخ الإسلام حوادث سنة إحدى وستين، البداية والنهاية (٨/ ١٨٦-١٨٧) ومروج الذهب (٣/ ٦٤-٧٢) أنساب الأشراف (٣/ ٣٧٣- ٤٢٦).

الهمدانى، ثم كتبوا إليه ثانيةً بعد ليلتين نحو مائة وخمسين صحيفة، ثم ثالثة، يستحثونه للحاق بهم، فأجابهم الحسين: فهمت ما قصصتم، وقد بعثت إليكم أخى وابن عمى وثقتى من أهل بيتى مسلم بن عقيل، يكتب إلىّ بأمركم ورأيكم، فإن اجتمع ملؤكم على مثل ما قدمتْ به رسلكم، أقدم عليكم قريبًا، ولعمرى ما الإمام إلا العامل بالكتاب، القائم بالقسط، الدائن بدين الحق.

فسار مسلم ودخل المدينة، وصلى فى المسجد النبوى، وودع أهله واستأجر دليلين من قيس، فضَلاَّ الطريق، وعطش القوم، فمات الدليلان بعد أن أشارا إليهم بموضع الماء، وانتهوا إليه وشربوا ونجوا.

فتطير مسلم بذلك، وكتب إلى الحسين يستعفيه، فكتب إليه الحسين: إنى خشيت ألاَّ يكون حملك على ذلك إلا الجبن، فامض لوجهك، والسلام. فسار مسلم ودخل الكوفة أول ذى الحجة من سنة ستين، واختلفت إليه الشيعة، وقرأ عليهم كتاب الحسين، فبكوا ووعدوه بالنصر.

وعلم النعمان بن بشير أمير الكوفة بمكان مسلم، وكان حليمًا يجنح إلى المسالمة، وكان على الكوفة حين مات معاوية، فلما بلغه خبر مسلم والحسين، قال: لاَبْنُ بنت رسول الله ﷺ أحبُّ إلينا من ابن بنت بَحدَل. فخطب وحذَّر الناس الفتنة وقال: لا أقاتل من لا يقاتِلُنِى، ولا آخذ بالظنة والتهمة، ولكن إن نكثتم بيعتكم وخالفتم إمامكم، فوالله لأضربنكم بسيفى ما دام قائمه فى يدى، ولو لم يكن لى ناصر. وقال له بعض حلفاء بنى أمية: لايصلح ما ترى إلا الغشم، وهذا الذى أنت عليه مع عدوك رأى المستضعفين، فقال: أكون من المستضعفين فى طاعة الله أحبُّ إلىّ من أن أكون من الأَعزِّينَ فى معصية الله. ثم نزل عن المنبر.

فكتب عمارة بن الوليد، وعمر بن سعد بن أبى وقاص، إلى يزيد بالخبر بضعف النعمان، وبقوله: لابن بنت رسول الله. . . إلخ، فابعث إلى الكوفة رجلاً قويًا ينفذ أمرك، ويعمل عملك فى عدوك، فأشار إلى يزيد سرجون الرومى كاتب أبيه بعبيد الله بن زياد، وكان منحرفًا عنه فقال له: إن أباك معاوية ولاَّه قبل موته. فكتب يزيد له بعهده على الكوفة مضافًا إلى البصرة، وبعث إليه مع مسلم بن عمرٍو الباهلي والد قتيبة بن مسلم، وأمره بطلب مسلم بن عقيل وقتله أو نفيه.

وكان الحسين قد كتب إلى أشراف البصرة: الأحنف بن قيسٍ، والمنذر بن الحارث، ومالكِ بن مسمع البكرى، ومسعود بن عمرو، وقيس بن الهيثم، وودّ وعمرو بن عبيد الله بن معمر يدعوهم إلى الكتاب والسنة وإماتة البدعة. وخشى المنذر أن يكون دسيسًا من عبيد الله بن زياد، فأتاه بالرسول والكتاب من بين أصحابه، فقتل الرسول، ثم خطب الناس وأخبرهم بولايته الكوفة، واستخلافه أخاه عثمان بن زياد على البصرة، وتهدَّدهم على الخلاف بالقتل، وأخذ الأدنى بالأقصى، والقريب بقريبه، ثم أَغَذَّ عبيد الله السير يسابق الحسين إلى الكوفة.

قال العلامة ابن خلدون: فى خمسمائة، فتخلفوا عنه شيئًا فشيئًا.

وقال الحافظ الذهبى: فى اثنى عشر رجلاً حتى دخل الكوفة وحده، ومر بالمجالس، فظنوه الحسين، فحيوا ورحبُّوا، وهو يسمع، وساءه ذلك، ثم انتهى إلى القصر فى هجيج الناس يتبعونه، فأغلق النعمان الباب دونه يظنه الحسين، وقال: ما أنا بمسلم أمانتى إليك ولا أقاتلك، فدنا منه عبيد الله، وقال: افتح لا فتحت، فعرف صوته، وفتح له، وتفرق الناس.

ثم خطب لولايته ووعد بالإحسان للمحسن، والشدة على المريب والعاصى، وحذر من المخالفة، ثم أخذ العُرَفَاء بأن يكتبوا له الغرباء والحرورية وأهل الريب، ويضمن كل واحد ما فى عرافته، ومن وجد فى عرافته أحد لم يعرفه صلبه على باب داره. ثم نزل عن المنبر.

وسمع مسلم بن عقيل بذلك، فأتى منزل هانئ بن عروة، وكان الحسين أمره بالنزول عليه، فاستجار به، فآواه على كره لمكانه؛ خشية العاقبة، وأقامت الشيعة تختلف إليه فى دار هانئ. ودعا ابن زياد مولًى له وأعطاه مالاً ودسه عليهم؛ ليأتيه بعلمهم، فأتاه مسلم بن عوسجة الأسدى، وهو يصلى بالمسجد - وكان من كبار دعاتهم- فقال له: أنا من أهل الشام، وأردت لقاء هذا الرجل الذى يبايع للحسين، فاقبض هذا المال وأدخلنى عليه أبايعه، وإلا فخذ أنت بيعتى قبل لقائه؛ فأخذ بيعته وبقى يختلف إليه.

ومرض هانئ بن عروة، فأتاه عبيد الله بن زياد يعوده، وحمل أصحاب هانئ على الفتك بابن زياد، فقال: ما أحب ذلك فى بيتى، ثم مرض شريك بن الأعور،

أو تمارض. فقيل لابن زياد: إن شريكًا شاك يقىء الدم، وكان قد شرب المغرة فجعل يقيئها، فجاء ابن زياد يعوده، وكان قد نزل على هانئ، وكان شديد التشيع شهد صفين مع على، فقال لمسلم بن عقيل: إذا قلت: اسقونى، فاخرج واقتله، ثم اقصد القصر، فلا حائل دونه، وإن برئت من وجعى، كفيتك أمر البصرة.

فلما جاء عبيد الله بن زياد إلى منزل هانئ، جبن مسلم عن قتله، وبقى شريك ينبهه لذلك ويقول: « اسقونى، اسقونى » فأبطأ عليه، فقال: ويحكم اسقونى، ولو كانت فيه نفسى، فلا يجيب، حتى خرج ابن زياد ولم يصنعْ مسلم شيئًا، وكان من أشجع الناس ولكن أخذته كبوة، فاعتذر عن قتله بأن هانئًا يكره ذلك فى بيته، وبأن عليًا حدَّثَ عن النبى ﷺ؛ أن الإيمان قيد الفتك.

ثم قضى شريك بعد ثلاثٍ، وصلى عليه عبيد الله بن زياد، ثم علم بعد ذلك بشأنه، فحلف لايحضر جنازة عراقى.

ثم إن المولى الذى دسه ابن زياد بالمال اختلف إليه مسلم بن عوسجة بعد موت شريك، فأدخله على مسلم بن عقيل، فأخذ بيعته وقبض ماله، وأقام يختلف إليهم ويخبر ابن زياد بأحوالهم حتى تبيّن جلية الأمر، وكان هانئ انقطع عن عبيد الله بن زياد بعذر المرض، فدعا ابن زياد محمد بن الأشعث، وأسماء بن خارجة، وعمرو ابن الحجاج، والزبيدى، وعذل هانئًا فى انقطاعه عنه وأنه بلغه برؤه من المرض، وقال: القوه فمروه ألاَّ ينقطع عنى، فلقيه القوم ولاموه فى ذلك ثم حلفوا عليه واستركبوه معهم، ودخلوا به على ابن زياد، وكان مكرمًا له، فقال له ابن زياد: يا هانئ، ما هذه الأمور التى تربض فى دارك للمسلمين وأمير المؤمنين؟! وأخبره بشأن مسلم بن عقيل، فأنكر، فدعا ابن زياد المولى الذى دَسَّه عليهم، ورآه هانئ فسقط فى يده، ثم قال: والله، مادعوت الرجلَ ولاعلمت بشىء من أمره، وصدقه الخبر عن مجيئه إلى داره، واستجارته به واستحيائه من رده، وقد كان من أمره ما بلغك، وأنا الآن أعطيك عهدًا ورهينة حتى أخرجه من دارى وأعود إليك، فقال له ابن زياد: والله لاتفارقنى حتى تأتينى به، فقال: آتيك بضيفى تقتله ؟! والله لا فعلت. ثم قام إليه مسلم بن عمرو الباهلى، ولم يكن هنالك أعز منه، فاستأذن ابن زياد ودخلا ناحية، ونصحه أن يأتى به؛ فإنه ابن عمهم وليسوا قاتليه ولا ضاربيه،

وليس عليك فى ذلك منقصة، وإنما دفعته إلى السلطان، فأبى ولجَّ. وسمعه ابن زياد، فاستدناه، وقال: لئن لم تأتنى به، لأضربنَّ عنقك، قال هانئ: إذن والله تكثر البارقة.

ويقال إن هانئًا لما رأى الرجل الذى كان عينًا، قال: أيها الأمير، أنت آمن وأهلك، فسِرْ حيث شئت، فأشار ابن زياد إلى مهران مولاه، وهو قائم على رأسه، فأخذ بضفيرتى هانئ، وأخذ ابن زياد القضيب من يد مهران، ولم يزل يضرب وجه هانئ حتى كسر أنفه، ونثر لحم خديه وجبينه على لحيته، ثم أغلق عليه فى بيت. وجاء أسماء بن خارجة منكرًا لذلك؛ لأن هانئًا جاء فى جواره، وأمر به ابن زياد يطرد عنه وحبس، وأظهر محمد بن الأشعث الرضا وجلس، وبلغ عمرو بن حجاج أن هانئًا قتل، فأقبل فى مذحج وأحاطوا بقصر ابن زياد، وأمر ابن زياد القاضى شريحًا أن يعلمهم بحياة هانىء بعد أن أدخله عليه فرآه حَيًّا، فأخبرهم فانصرفوا.

وجاء الخبر إلى مسلم بن عقيل، وكان قد بايعه ثمانية عشر ألفًا، وحوله فى الدار أربعة آلاف، فنادى فيهم، وركب نحو قصر عبيد الله بن زياد، وأحاط به وامتلأ المسجد والسوق من الناس إلى المساء، وضاق بعبيد الله بن زياد أمره، وليس معه فى القصر إلا نحو خمسين رجلًا من أهل بيته ومواليه، وتسلل إليه الأشراف، وأمر كثير بن الحارث أن يخرج فيمن أطاعه من مذحج؛ فيخذِّل عنه الناس، وأمر ابن الأشعث أن يخرج فيمن أطاعه من كندة وحضرموت، ويرفع راية أمان لمن حماه من الناس، وبعث بمثل ذلك القعقاع بن شور الذهلى، وشبيب بن ربعى التميمى، ومجاز بن أبى أبجر العجلى، وشمر بن ذى الجوشن الضبابى، وترك وجوه الناس عنده استئناسًا بهم، وخرج أولئك النفر على الناس فافترقوا عن مسلم بن عقيل إلى أن بقى فى المسجد فى ثلاثين، فخرج واختفى عند عجوز من ذوى ابن الأشعث، وتعرف إليها فأخفته.

وخرج ابن زياد إلى المسجد قبل العتمة ونادى فى الناس، فامتلأ المسجد، وأحضر الحصين بن تميم، وكان على الشرط أن يفتش الدور، وشعر ابن العجوز بمسلم بن عقيل عند أمه، فأتى عبد الرحمن بن محمد الأشعث، فأخبره وأخبر أباه، فأخبر ابن زياد، فقال: ائتنى به الساعة، وبعث معه عمر بن عبيد الله السلمى فى

سبعين من قيس، فلما أتوا الدار، وسمع مسلم بن عقيل الأصوات، خرج بسيفه وما زال يحمل عليهم، وقطعت شفته العليا، وسقطت ثنيتاه، وألقوا عليه النار والقصب وهو يقاتل حتى أثخن وعجز عن القتال، فأمنه ابن الأشعث، وحمله على بغل وانتزعوا سيفه، فقال: هذا أول الغدر وبكَىٰ، فعذله عمرو بن عبيد الله السلمى فقال: إنما أبكى على الحسين وآله.

قلت: خَيَّبَ الله أهل العراق الخونة الفجار، وأحلَّهم الدرك الأسفل من النار.

ثم قال مسلم لابن الأشعث: عساك أن تبعث تخبر الحسين بحالى ليرجع بأهل بيته ولايغترَّ بأهل الكوفة، ففعل ذلك ابن الأشعث، ولقيه الرسول بزبالة، وقد جاءه كتاب مسلم فى الأول يخبره بمن بايعه ويستحثه على السير، فقال الحسين حين قرأ كتاب الأشعث: كُلُّ ماقدر كائن، وعند الله نحتسب أنفسنا وفساد أمتنا.

ثم أدخل محمد بن الأشعث مسلم بن عقيل على ابن زياد، وأخبره بما أعطاه من الأمان، فقال: ما بعثناك لتؤمنه، واستسقى مسلم وهو بباب القصر، فجاءه عمارة بن عقبة بماء بارد، فلم يطق الشرب لما كان يسيل من دم فيه، فتركه ودخل على ابن زياد، فقال له: لتقتلنَّ، فقال: دعنى لأوصى. فالتفت إلى عمر بن سعد بن أبى وقاص، فناجاه بأن يقضى عنه دينه، ويوارى جثته، ويبعث إلى الحسين يرده. ثم حاوره وأساء بعضهما على بعض، ثم أصعد فوق القصر وضربَتْ عنقه، تولى ذلك بكير بن عمران لضربة أصابه مسلم بها فى الجولة عند الدار.

وكان ابن الأشعث قد تشفَّع فى هانىء بن عروة، فوعد باستبقائه، فلما قتل مسلم، أخرج إلى السوق فضربت عنقه، وبعث ابن زياد بالرأسين إلى يزيد، فكتب إليه يزيد يشكره ويأمره بالاحتراس ووضع المراصد، فإن الحسين قد سار إليك.

ثم طلب ابن زياد المختار بن أبى عبيد، وعبيد الله بن الحارث بن نوفل، وكانا جاءا مع مسلم بن عقيل، فحبسهما.

ولما أراد الحسين المسير إلى الكوفة بكتاب مسلمِ السابقِ وأهل العراق جاءه عمرو بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومى وهو بمكة، فقال له: بلغنى أنك تريد العراق، فأنا مشفق عليك، تأتى بلدًا فيه العمال والأمراء وبيوتُ الأموال، والناس عبيد الدينار والدرهم، فلا آمن عليك، فجزاه الحسين خيرًا، وقال: لابدَّ لى

من ذلك، وأتاه ابن عباس بمثل ذلك فعصاهما. ثم ألم عليه ابن عباس وأشار عليه بالخروج إلى اليمن، فقال له الحسين: يا بن عمى، لا أنقض عزمى، قال: فإذ قد عصيتنى، فلا تسر بنسائك ولاصبيانك؛ فإنى أخاف أن تقتل وهم ينظرون كما قتل عثمان، ولقد أقررت عين ابن الزبير بخروجك من الحجاز. ثم التفت إلى ابن الزبير، فإذا هو فى جماعة من قريش قد استعلاهم بالكلام، فجاء حتى ضرب بيده بين عضديه، فقال: أصبحت والله كما قال (فأنشده): [من الرجز]

يَا لَـكِ مِنْ قُـنْبُـرَةٍ بِـمَـعْـمَـرِ خَلَا لَكِ الجَوُّ فَبِيضِى وَاصْفِرِى
وَنَـقِّرِى مَـا شِـئْـتِ أَنْ تُـنَـقِّـرِى قَدْ رُفِـعَ الـفَـخُّ فَـمَـاذَا تَـنْـظُـرِى

خلا الحجاز من الحسين بن على، وأقبلت تهدر فى جوانبها، فغضب ابن الزبير، وقال: والله، إنك لترى أنك أحق بهذا الأمر من غيرك، فقال ابن عباس: إنما يرى ذلك من كان فى حال مثلك، وأنا من ذلك على يقين، فقال ابن الزبير: وبأى شىء تحقق عندك أنك أَوْلَىٰ بهذا الأمر منى ؟ فقال ابن عباس: أنا أحق بمن تدلى بحقه، وبأي شيء تحقق عندك أنك أحق بهذا الأمر من سائر العرب إلا بنا؟! فقال ابن الزبير: تحقق عندى أنى أحق بها منكم لشرفى عليكم قديمًا وحديثًا، فقال ابن عباس: أنت أشرف أم مَنْ شَرُفْتَ به؟! فقال ابن الزبير: إن من شرفْت به زادنى شرفًا إلى شرف قديم كان لى، قال: أفمنِّى الزيادة أم منك؟ قال: بل منك، فتبسم ابن عباس، فقال ابن الزبير: يا بن عباس، دعنى من لسانك هذا الذى تقلِّبه كيف شئت، والله لاتحبوننا يابنى هاشم أبدًا، قال ابن عباس: صدقت؛ نحن أهل بيت مع الله - عز وجلَّ - لانحب من أبغضه الله تعالى، فقال: ما ينبغى لك أن تصفح عن كلمة واحدة؟ فقال: إنما أصفح عمن أقر، وأما عمن هرّ فلا، والفضل لأهل الفضل، قال ابن الزبير: فأين الفضل؟ قال: عندنا أهل البيت، لا نَصْرِفُهُ عن أهله؛ ولانضعه فى غير أهله، فنندم، قال ابن الزبير: فبظلم فلسْت من أهله، قال: بلى، إن نبذت الحسد، ولزمت الحدود، وانقضى حديثهم، وقام القوم فتفرقوا.

وكان خروج الحسين من مكة يوم التروية من سنة ستين، وسار مع أصحابه فلقى بالتنعيم عيرًا مقبلة من اليمن عليها الورس والحلل، بعث بها بجير بن رومان عامل اليمن إلى يزيد فأخذها الحسين وأعطى أصحابه كراهم. ثم سار فرأى الفرزدق

بالصفاح، فقال له: أخبرنى عن الناس خلفك، فقال: القلوب معك - أو قلوبهم معك - وسيوفهم عليك مع بنى أمية، والقضاء ينزل من السماء، فقال الحسين: صدقت لله الأمر يفعل مايشاء، كل يوم هو فى شأن.

ثم لحقه كتاب عبد الله بن جعفر مع ابنيه عون ومحمد يسأله بالله فى الانصراف والرجوع لايهلك نفسه وأهل بيته، وإنى فى إثر كتابى. ثم جاءه كتاب عمرو بن سعيد بن العاص عامل يزيد على مكة مع أخَيه يحيى بن سعيد بالأمان والترغيب، فلم يفعل، واعتذر بأنه رأى رسول الله ﷺ فى المنام يأمره بأمر، وهو ماض له.

ولما بلغ ابن زياد مسير الحسين من مَكَّة، بعث الحصين بن تميم التميمى صاحب شرطته، فنزل القادسية، ثم نظم الخيل ما بينه وبين خفان، وما بينه وبين القطقطانة إلى جبل لعلع، ولقى هنالك قيس بن مسهر الأسدى بكتاب الحسين من الحاجر إلى أهل الكوفة يعرِّفهم بقدومه، فبعث به الحصين إلى ابن زياد، فلما جاءه قال: اصعد القصر، فسبَّ الحسين، فصعد وأدى رسالة أهل الكوفة وأنه فارقه بالحاجر ولعن ابن زياد وأباه واستغفر لعلى وبنيه، فأمر ابن زياد فرمى به من القصر فتقطع، وانتهى الحسين فى مسيره إلى عبد اللَّه بن مطيع، فعذله فيما جاء له،، وناشده الله وحرمة الإسلام والعرب وبنات الرسول لا تأتى الكوفة فتقتلك بنو أمية، فأبى وسار، ولقيه خبر قتل مسلم بن عقيل بالثعلبية، فناشده الله أصحابه فى الرجوع، فقال بنو عقيل: لا والله حتى ندرك ثأرنا، فقال الحسين: لا خير فى العيش بعد هؤلاء.

ثم سار، فكان لا يمر بماء إلا اتبعه من عليه حتى انتهى إلى زبالة، فلقيه مقتل قيس بن مسهر الأسدى الذى ألقاه ابن زياد من أعلى القصر، فأعلم الناس الذين معه بذلك، وقال: قد خذلتنا شيعتنا، فمنْ أحب فلينصرف، وقصده أن يوطنهم على ما يقدمون، فافترقوا عنه ولم يبق معه إلا أصحابه الذين خرجوا معه من مكة، فسار إلى سرف، ثم سار منها إلى منتصف النهار، فلقيهم الحر بن يزيد التميمى، ولما رآه قال له بعض الناس معه: مل بنا إلى ذى جشم تجعله عن يسارك ونستقبل القوم من وجه واحد، ففعل، وسبقهم إلى الجبل فنزل، وجاء الحر فى ألف فارس أرسله الحصين بن تميم من القادسية يستقبل الحسين، فقال الحسين: إنى لم آتِ إلا بكتبكم ورسلكم، فإن تعطونى ما أطمئن إليه من العهد أقدم مِصْرَكُمْ؛ وإلا أرجع من

حيث جئت، ثم حضرت الصلاة فصلى الحسين، وصلى الحر وأصحابه بصلاته.

ثم استقبلهم وأنمى عليهم شأن الكتب وذم الولاة، فقال الحر: والله ما ندرى ما هذه الكتب والرسل، فاستدعى بخرجين مملوءين صحفًا ونشرها، فقال الحر: لسنا من هؤلاء، وإنما أمرنا إذا لقيناك ألاَّ نفارقك حتى نقدمك الكوفة على ابن زياد، فقال الحسين: الموت أدنى من ذلك، ثم أمر أصحابه فركبوا لينصرفوا، فمنعهم الحر، وطال بينهما الكلام، وقال الحر: لم أومر بقتالك، وإنما أمرت ألا أفارقك حتى أقدمك الكوفة فخذ طريقًا غير طريقها، وأكتبُ أنا إلى ابن زياد، واكتب أنت إليه وإلى يزيد، فعسى أن يأتى من الأمور ما يدفع عنى أن أُبتلى بشيء من أمرك.

فتياسر عن طريق العذيب والقادسية، وسار الحر معه، وهو يعظه ويذكِّره حقوق أهل البيت ووجوب طاعتهم، ويقدح له فى ولاته وأمرائه بما كان معهم، ويذكُرُ له كتب أهل الكوفة ورسلهم، والحر يعظه، ويقول له: اتق الله فى نفسك، فلئنْ قاتلت لتقتلنَّ، فيقول: بالموت تخوفنى ؟! ويضرب الأمثال وينشد فى الشجاعة.

فلما رآه الحر كذلك، عدل يسير عنه ناحية حتى انتهوا إلى عذيب الهجانات- سمى بهجان ابن النعمان، كانت ترعى فيه- فإذا هو بأربعة فرسان دليلهم الطرماح بن عدى الطائى، وأجمح الحر حسهم فردهم، فقال الحسين: هم بمنزلة أصحابى وإلا ناجزتك، ثم أخبره بخبر الكوفة وقتل قيس بن مسهر، فبكى وقرأ: ﴿ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ﴾ [الأحزاب:٢٣]، ثم دعا لهم، وقال له الطرماح: ما أرى معك كثير أحد، ولو لم يقاتلك إلا هؤلاء الذين مع الحر، لكانوا أكثر من كفْئِكَ، فكيف بمن سار إليك من الكوفة، فلم تر عيناى جمعًا أكثر منهم، فأنشدك الله ألاَّ تتقدم إليهم شبرًا، وإن أردت، فسر معى، انزل جبلنا أجأ، فقد امتنعنا به والله من ملوك غسان وحمير والنعمان، ومن الأبيض والأحمر، وتجتمع إليك طيئ فى عشرين ألفًا لا يوصل إليك وفيهم عين تطرف، فجزاه خيرًا، وقال: قد عاهدنا هؤلاء القوم الذين معنا، فلا بد من الوفاء لهم، فودعه الطرماح وانصرف.

فسار الحسين ومَرَّ بقصر بنى مقاتل، فرأى فسطاطًا لعبيد الله بن الحر الجعفى، فاستدعاه فقال: والله ما خرجت من الكوفة إلا فرارًا من الحسين، فركب الحسينُ وجاءه ودعاه إلى النصرة، أو أن يكون ممن يكف، فأجابه إلى هذه.

ثم ركبوا من الغد، وأراد أن يفارق الحر، فمنعه؛ وإذا بكتاب من ابن زياد إلى الحر يأمره أن يجعجع بالحسين حتى يجيء كتابه ورسوله ولا ينزله إلا بالعراء فى غير حصن ولا ماء، وقد أمرت الرسول أن يلزمك حتى يأتينى بإنفاذك أمرى، فقرأ الحر الكتاب، وأعلم الحسين وأصحابه بما فيه فقالوا: دعنا ننزل فى الغاضرية، فقال: لا أستطيع، وهذا الرجل قد بعث عينًا عليَّ، فقال زهير بن القين، وكان صحبه من مكة: تعال نحاجز هؤلاء، فهم أهون علينا ممن يأتينا بعدهم، فقال: ما كنت لأبدأهم بالقتال، وذلك لليلتين من المحرم سنة إحدى وستين.

فلما كان الغد، قدم عمر بن سعد بن أبى وقاص من الكوفة فى أربعة آلاف، وكان ابن زياد جهَّزه إلى حرب الديلم، وكتب له عهده على الرى، فلما كان أمر الحسين، دعاه أن يقدم حربه، ثم يرجع إلى عمله، فاستعفاه، فقال: نعم، على أن ترد ولاية الرى، فقال: أمهلنى، واستشار أصحابه فكلهم نهاه، غير ابن أخته حمزة ابن المغيرة بن شعبة، وقال له: تفتدى من دم الحسين بسلطان الأرض لو كان لك، ثم غدا على ابن زياد واستعفاه ثانية، فقال له مثل الأول، قال: فإنى سائر، وأقبل فى الجيوش حتى نزل بالحسين، وبعث إليه يسأله ما جاء به ؟ فقال: كُتُبُ أهل الكوفة، فأما إذ[1] كرهونى، فأنا أنصرف عنهم، فكتب بذلك إلى ابن زياد، فكتب إليه أن يعرض على الحسين البيعة أو يمنعه ومن معه من الماء، فأرسل عمرو بن الحجاج إلى الشريعة[2]، ومنعوهم الماء، واشتدَّ عليهم العطش، فركبوا إلى الماء، وقاتلوا عليه، وملئوا قربهم، ثم بعث الحسين إلى عمر فى اللقاء، فلقيه ليلاً، وتحادثا طويلاً وافترقا.

وكان فيما قال له الحسين: دعونى أرجع إلى المكان الذى جئت منه، أو أذهب فى الأرض العريضة حتى يستقيم أمر الناس. وكتب عمر بذلك إلى عبيد الله بن زياد يبشره بأن الله أطفأ النائرة وجمع الكلمة، فقبل ابن زياد ذلك، وقام إليه شمر بن ذى الجوشن منكرًا لذلك، وقال: تقبل ذلك منه، وقد نزل بأرضك ؟! ولئن رحل ولم

---

(١) في ط: فإن. والمثبت كما في البداية والنهاية، وتاريخ الطبري، وتاريخ الإسلام وهو أنسب وأصوب.

(٢) الشريعة: مورد الإبل على الماء الجارى. ينظر: النهاية (٢/ ٤٦٠).

تضغ يدك فى يده، ليكونن أعز، وتكون أعجز، ولكن لينزل على حكمك.

وقد بلغنى أن الحسين وعمر باتا يتحادثان عامَّة ليلتهما بين العسكرين، فقال ابن زياد: نِعْمَ ما رأيت، اخرج إليه أنت بهذا الكتاب؛ ليعرض على الحسين وأصحابه النزول على حكمى، ويبعث بهم سلمًا، وإن امتنعوا، فليقاتلهم، وإن أبى عمر من ذلك، فأنت الأمير، وابعث إلى برأسه، وكتب إلى عمر بذلك وعنفه على المطاولة والشفاعة، وأن يفعل ما أمره به، وإلا فليعتزل العسكر، ويخلى بين شمر وبينه، وكتب معه أمانًا لبنى على بن أبى طالب من أم البنين بنت حذام، وهم العباس وعبيد الله وجعفر وعثمان، سأله الأمان لهم عبد الله ابن خالهم أبى المحل بن حرام، وكان حاضرًا عند ابن زياد، فردوا أمانه، وقالوا: لا حاجة لنا فيه.

ولما أتى شمر إلى عمر، قال له: يا شمر، أظنك أنت تثنيه عما كتبت به إليه، وأفسدت علينا أمورًا أرجو أن تصلح، والحسين والله لا يستسلم أبدًا. ونهض إليه عشية تاسوعاء، فركب العباس أخو الحسين فى عشرين فارسًا وتلقَّاهم، فأخبروه بما جاء به من أمر ابن زياد، فجاء به إلى الحسين، فقال: ارجع إليهم، ووخرهم إلى الغداة، لنستكثر من الصلاة والدعاء والاستغفار، فوعدهم الحسين إلى الغداة: فإما رضينا، وإلا رددناه.

فشاور عمر أصحابه، فأشار بعضهم بإمهاله، وهو عمرو بن الحجاج الزبيدى. فقال: والله لو كان من الديلم، لوجب إمهاله. وأشار قيس بن الأشعث بالمناجزة، وقال: ليصبحنك بالقتال، فرجع عمر، وجمع الحسين أصحابه، واستشارهم وجزاهم خيرًا، وأذن لهم فى الانطلاق، وقال: هذا الليل قد غشيكم، فاتخذوه جملًا، وافترقوا فى البلاد، والقوم إذا أصابونى، لَهُوا عن غيرى، فأبوا فقال: يا بنى عقيل، حسبكم من القتل بمسلم، واذهبوا فقد أذنت لكم، قالوا: ما تقول الناس ؟! والله، لا نفعل، ولنقاتلن معك حتى نرد موردك، وقام إليه بعض أصحابه من غير عشيرته، فقال: كيف نتخلى عنك، ولم نعذر إلى الله فى حقك، والله لا أفارقك حتى أكسر رمحى وسيفى وأقذفهم بالحجارة دونك حتى أموت.

وتكلم أصحابه بمثل ذلك فجزاهم خيرًا، وسمعن أخواته بذلك فطفقن يعولن ويلطمن، حتى غشى على بعضهن، فجاء إليهن وعزَّاهنَّ برسول الله ﷺ ومَنْ سلف

من قومه وعاهَدْنَ ألا يكثرن الصراخ عليه، ولا يشققْنَ الجيوب، ولا يخمشن الوجوه، ولا يدعين بالويل والثبور.

ثم أمر أن تدخل أطناب البيوت بعضها فى بعض؛ ليستقبلوا العدو من أمامهم، ثم قاموا يصلون ويدعون ويستغفرون حتى أصبح، وذلك يوم عاشوراء.

وركب عمر بن سعد فى التعبئة، وعبأ الحسين أصحابه اثنين وثلاثين فارسًا وأربعين راجلًا، وأعطى رايته أخاه العباس، وضرب للحسين فسطاط أمام أخبيته، فدخل فيه، واستعمل النورة، ثم أميث له المسك فى جفنة، واطلى به، ثم ركب ووْضع المصحف أمامه، وقاتل أصحابه بين يديه وهو يدعو.

ثم تقدم على راحلته ونادى الناس، ووعظ وذكر بحقوقه، وقال: إن كذبتمونى، فعندكم من يخبركم، سلوا جابر بن عبد الله وأبا سعيد وأنسًا وسُهَيْل بن سعد وزيد ابن أرقم يخبروكم بما سمعوا من رسول الله ﷺ فى حقنا أهل البيت، أما فى هذا حاجز يحجزكم عن دمى ؟! تطلبونى بمالٍ أو دمٍ أو قصاصٍ ؟! فلم يجيبوه. فنادى: يا شبيب بن ربعى، يا حجار بن أبجر، يا قيس بن الأشعث، يا زيد بن الحارث، ألم تكتبوا إِليَّ بالقدوم ؟! قالوا: لا، قال: بلى، قد فعلتم، فدعونى أنصرف إلى مأمنى من الأرض، فقال له قيس: أفلا تنزل على حكم ابن زياد، وهو ابن عمك ؟! قال: لا، والله لا أعطى يدى إعطاء الذليل، ولا أقر إقرار العبد، عباد الله، إنى عذت بربى وربكم أن ترجمون، أعوذ بربى وربكم من كل متكبِّرٍ لا يؤمن بيوم الحساب.

ثم أناخ راحلته، ونزل عنها وخرج زهير بن القين، وهو شاكى السلاح، وكان صحب الحسين من مكة، فوقف بين العسكر، ووعظ أهل الكوفة، ونصحهم ودعاهم إلى نصرة ابن رسول الله ﷺ وخذلان ابن زياد، وأفحش فى ذم عبيد الله وأبيه، وقال: يقتلانكم ويقطعانكم ويسملانكم ويقتلان أماثلكم، اذكروا حجر بن عدى، وهانئ بن عروة. فشتموه وأثنوا على ابن زياد، وقالوا: لا نبرح حتى نقتلكم أو نأسركم، فقال لهم: أعيذكم بالله أن تقتلوا ابن فاطمة، خلوا بينه وبين ابن معاوية؛ فإن يزيد يرضى منكم بدون هذا، ثم رماه شمر وشتمه، فتشاتما ساعة، ثم رده الحسين فرجع.

ولما زحف عمر بن سعد نحو الحسين، قال له الحر بن يزيد الذى كان جاء ليلازم الحسين: أمقاتل أنت هذا الرجل ؟ قال: نعم، قال: ولا تقبلون منه واحدة من الخصال التى عرض عليكم ؟! فقال عمر: لو كان الأمر إليَّ، لفعلتُ، ولكن أميرنا أبى ذلك. ثم أقبل يدنو نحو الحسين حتى استراب به أصحابه، ولحق به، وقال: يا بن رسول الله، أنا صاحبك الحر الذى حبستك عن الرجوع، وسايرتك فى الطريق، وجعجعت بك فى هذا المكان، ووالله لو ظننت أنهم لا يقبلون منك واحدة مما عرضت عليهم، أو يبلغون بك هذه المنزلة، ما فعلت الذى فعلت، وقد جئتك تائبًا أموت دونك، أفتراها لى توبة ؟! قال: نعم، يتوب الله عليك ويغفر لك.

ثم انعطف إلى أصحابه وقال: ألا تقبلون من الحسين واحدة مما عرض عليكم؛ فيعافيكم الله من حربه وقتاله ؟! فقال له عمر: قد حرصت على ذلك، وما وجدت إليه سبيلاً، ثم نادى أهل الكوفة ووبَّخهم على أن دعوه وأسلموه، ثم منعوه من التوجه فى بلاد الله العريضة حتى يأمن ويأمن أهل بيته، فأصبح كالأسير لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، ومنعوه وأصحابه ماء الفرات يشربه اليهوديُّ والنصرانيُّ والمجوسيُّ، وتمرغ فيه كلاب السواد وخنازيرهم وهو وأهله صرعى من العطش. بئسما خلفتم محمدًا فى ذريته، ودعا عليهم، فرموه بالنبل فرجع.

ثم تقدم عمر بن سعد برايته، ورمى بسهم، وقال: اشهدوا أنا أول رامٍ، وتبارز الناس، وقتل فى البراز يسار مولى زياد، وسالم مولى عبيد الله بن زياد، قتلهما عبد الله بن عمير الكلبى، وكان قد لحق بالحسين من الكوفة ومعه امرأته، ثم حمل عمرو بن الحجاج على الحسين وأصحابه، فجثوا على الركب وأشرعوا نحوه الرماح، فلم يقدموا، وذهبوا ليرجعوا فأصابوهم بالنبل، فصرعوا منهم رجالاً، وخرج يزيد بن حصين - من أصحاب الحسين - يبارز يزيد بن معقل، فبارزه فقتله آخر دونه.

وخرج عمرو بن قرظة الأنصارى فقاتل وقتل، وقاتل الحر بن يزيد مع الحسين قتالاً شديدًا، وقتل من أصحاب عمرو، وصاح عمرو بن الحجاج بالناس يقاتلون فرسان المصر مستميتين، وهم قليلون وقل ما يبقون ولو رميتموهم بالحجارة لقتلتموهم، ووافقه عمر، فمنع الناس من المبارزة، ثم حمل عمرو بن الحجاج على جانب الحسين، واقتتلوا ساعة، وقتل مسلم بن عوسجة الأسدى، وانصرف عمرو

ومسلم صريع، فجاء إليه الحسين ودعا له، ودنا منه حبيب بن مظاهر، واستوصاه، وقال: أوصى إليك بهذا أن تموت دونه وأشار إلى الحسين، فقال: أفعل، ثم قضى مسلم، وصاحَتْ جاريته، وسمعها شمر بن ربعى، وقد سمع أصحابه يقولون: قتلنا مسلم بن عوسجة، فنكر قتله وتسخط، وقال: أتفرحون لمثل مسلم ؟! وعدد مواقفه، ثم حمل فى الميسرة فثبتوا، ثم حملوا على الحسين وأصحابه من كل جانب وهم يكرهون ولا يحملون على جانب من خيل الكوفة إلا كشفوا.

وبعث عروة بن قيس وهو على خيل الكوفة إلى عمر بن سعد أن ابعث إلينا الرجال والرماة، فقال لشبيب بن ربعى: تقدم، فقال: مثلى لا يبعث فى الرماة، وكان يكره ذلك القتال كله، فقال للحصين بن تميم: تقدم، فرشقوا الحسين وأصحابه بالنبل فعقروا خيولهم وأرجلوهم، وقاتل الحر بن يزيد أشد قتال إلى أن انتصف النهار، ولا يقدرون يأتونهم إلا من وجه واحد لاجتماع مضاربهم، فبعث عمر من يقوض تلك الأبنية.

وكان أصحاب الحسين يتخللون الأبنية فيقتلون الرجل يعرض أو ينهب، فأمر عمر بن سعد فأضرمت نار، ومنعت العدو من الجواز من جانبها، وبلغ شمر فسطاط الحسين ليحرقه بالنار، فصاح به الحسين والنساء، وجاء شبيب بن ربعى فزجره عن ذلك فرجع، واتبعه زهير بن القين فى عشرة فكشفهم عن البيوت، وقتلوا من أصحاب شمر أبا عوزة الضبابى، وعطف عليهم فأصاب منهم.

ثم حضر وقت الصلاة، وذكر أبو ثمامة الأنصارى بالصلاة، فقال الحسين: الإمهال لنصلى، ووقع الكلام فى ذلك بين الحصين بن زيد من أهل الكوفة وحبيب ابن مظاهر من أصحاب الحسين. وقتل الحبيب رجل من بنى تميم، وقتله الحصين. ولما قتل حبيب هد ذلك من الحسين، ثم حمل الحر بن يزيد، فقاتل حتى قتل، ثم صلى الحسين الظهر صلاة الخوف، ثم اشتدَّ القتال بعد الصلاة، وخلصوا إلى الحسين، فاستقدم الحنفى أمامه، واستهدف لهم فرموه حتى سقط، وقاتل زهير بن القين حتى قتل، وأسر يافع بن هلال الجملى بعد أن قتل اثنى عشر منهم، وقتله شمر، فتنافر أصحاب الحسين أن يقتلوا بين يَدَيْهِ، فقتل منهم جماعة، ثم رموا بالحجارة من كل جانب، واستأذنه الضحاك بن عبد الله فى الانصراف والنجاة، فأذن

له وانصرف.

ثم خلص القوم إلى أهل البيت، فقتل على الأكبر بن الحسين بعد أن حمل عليهم مرارًا، فطعنه مرة بن منقذ فصرع، فجاء الحسين فحمله حتى وضعه بين يَدَيْ فسطاطه، ثم رمى عبد الله بن مسلم بن عقيل بسهم فقتل، ثم حمل آخر على عون ابن عبد الله بن جعفر فقتل، ثم على عبد الرحمن بن عقيل فقتل، ثم على جعفر بن عقيل فقتل، ثم على القاسم بن الحسين فقتل، وجالوا عنده جولة وطئته فيها الخيل، ثم انجلت الغبرة والحسين قائم على فرسه وهو يفحص برجَلْيهِ، ثم احتمله فألقاه مع ابنه على وقتلى أهل بيته.

ومكث الحسين طويلاً من النهار والناس يتحاشَوْنَ قتله، ثم جاء مالك بن النُّسير من كندة، فضربه على رأسه بالسيف فأدماه، ودعا الحسين بابنه عبد الله وهو مُتَحَيِّر فأجلسه فى حجره، فرمى بسهم ذبحه، ثم رمى أبو بكر بن الحسين بسهم فقتل، ثم تقدم العباس بن على وإخوته من أمه فقتلوا جميعًا، واشتد عطش الحسين، فجاء ليشرب من الفرات، فرمى حصين بن تميم بسهم فى فمه فجعل يتلقى الدم ويدعو، ثم أقبل شمر بن ذى الجوشن فى عشرة من رجالته، فحالوا بين الحسين وبين أهله، فقال: امنعوا أهلى ورحلى من طغامكم، فقال: ذلك لك، ثم حمل عليهم وحملوا عليه وأحاطوا به من يمينه وشماله.

وخرجت زينب تنادى فلقيت عمر بن سعد، فقالت: يا عمر، يقتل أبو عبد الله، وأنت تنظر ؟! فبكى وزوى عنها وجهه، ثم نادى شمر: ماذا تنتظرون بالرجل ؟! فحملوا عليه، وضرب زرعة بن شريك التميمى كتفه الأيسر وعلى عاتقه فأوهنه، ثم طعنه سنان بن قيس النخعى بالرمح، وقال لخولى بن يزيد الأصبحى: جز رأسه، فأرعد، فنزل إليه سنان فأخذ رأسه ودفعه إلى خولى، وسلب ما كان عليه، فأخذ سراويله بحر بن كعب وقطيفته قيس بن الأشعث، وكانت من خز، وسيفه رجل من دارم، وانتهب الناس ثقله ومتاعه وإبله وسلبوا نساءه.

وانتهوا إلى على بن الحسين وهو مريض، وأراد الشمر قتله فمنعه حميد بن مسلم، وجاء عمر بن سعد وقال: لا يدخلنَّ بيت النبوة أحد، ولا يعرض لهذا الغلام المريض، وليرد عليهم متاعهم. ولم ينج من القوم إلا اثنان. ونادى عمر بن

سعد في أصحابه: من ينتدب للحسين؛ فيوطئه فرسه، وكان ابن زياد أمره بذلك، فانتدب عشرة فداسوه حتى رضوا ظهره وصدره، وكان به ثلاث وثلاثون طعنة وأربع وثلاثون ضربة، وقتل من أصحابه اثنان وسبعون رجلاً، ودفنهم أهل الغاضرة من بنى أسد. وقتلوا من أصحاب عمر بن سعد مائة وثمانين رجلاً، فصلى عليهم ودفنهم.

وبعث برأس الحسين ورءوس أصحابه إلى ابن زياد مع شمر، وقيس بن الأشعث، وعمرو بن الحجاج، وعروة بن قيس، وأحضرها بين يديه، وجعل ينكت بقضيبه بين ثنيتى الحسين، فقال له زيد بن الأرقم: ارفع قضيبك عنها، فلقد رأيت شفتَىْ رسول الله ﷺ على هاتين الشفتين يقبلهما، ثم بكى، فزجره ابن زياد فخرج مغضبًا.

ثم ارتحل عمر بن سعد إلى الكوفة بعد مقتلهم بيومين، ومعه نساؤهم وصبيانهم وبناتهم وعليُّ بن الحسين مريض، ومروا بالحسين وأصحابه صرعى فأعولوا ولطموا.

ولما أدخلوا على ابن زياد، قال عبيد الله: من هذه ؟ يشير إلى زينب، فقيل له: هذه زينب بنت فاطمة، فكلَّمها وأجابته، وأبلغَتْ فأغضبته حتى قال لها: هذه شجاعة ولقد كان أبوك شجاعًا، فقالت: ما للمرأة والشجاعة؟! ثم قال لعلى بن الحسين: ما اسمك ؟ فأخبره، فقال: ألم يقتل الله عليًا ؟! فقال: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٤٥]، فقال: أنت والله منهم، ثم قال: انظروا هل أنبت ؟ فقيل له: نعم، فقال: اقتلوه، فقال: ومن يوكل بهذه النسوة ؟! وتعلقت به زينب، وقالت: يا بن زياد، حسبك، أما رويت من دمائنا ؟! ثم اعتنقته، وقالت: إن قتلته فاقتلنى معه، وقال على: يا بن زياد، إن كان بينك وبينهن قرابة، فابعث معهن من يصحبهن بصحبة الإسلام.

ثم خطب الناس وتعرض للحسين، وشتمه بعض شيعته، وأمر بقتله وصلبه، ثم أمر برأس الحسين، فطيف به فى الكوفة، ثم بعث به وبرءوس أصحابه إلى يزيد مع عمرو بن ذى الجوشن، ويقال: مع زفر بن قيس، وبعث معهم بالنساء والصبيان محمولاتٍ على الأقتاب، والغل فى عنق على بن الحسين ورقبته، فدخل على يزيد

زفر بن قيس، فقال: ما وراءك ؟ قال: أبشر بفتح الله وبنصره، ورد علينا الحسين فى ثمانية عشر من أهل بيته، وستين من شيعته، وسرنا إليهم وسألناهم أن ينزلوا على حكم الأمير عبيد الله أو القتال، فاختاروا القتال، فغدونا عليهم مع شروق الشمس، فأحطنا بهم من كل ناحية حتى أخذت السيوف مأخذها من هام القوم، وجعلوا يهربون إلى غير وزر، ويلوذون بالآكام والحفر؛ كما لاذ الحمام من صقر، فما كان إلا جزر جزور، أو نومة قائل، حتى أتينا على آخرهم، فهاتيك أجسامهم مجردةً وثيابهم مرملةً، وخدودهم معفرةً، تصهرهم الشمس، وتعفر عليهم الريح، زوارهم العقبان والرخم، قال: فدمعت عينا يزيد، وقال: كنت أرضى من طاعتك بدون قتل الحسين، لعن الله ابن سُمَيَّةَ، أما والله، لو أنى صاحبه، لعفوتُ عنه، فرحم الله الحسين.

أقول: بل لعن الله ابن ميسون قبل ابن سمية وبعده إلى يوم يبعثون.

ويقال: إن آل الحسين لما وصلوا إلى الكوفة، حبسهم ابن زياد، وبعث إلى يزيد بالخبر، فأمره بإرسالهم إليه، فبعثهم مع نخفر بن ثعلبة وشمر، ومعهما الثقل والرأس، وأنهما لما وضعا الرأس بين يديه وحدثاه، سمعت حديثهما هند بنت عبد الله بن عامر، وكانت تحت يزيد، فتسفعت بثوبها وخرجت، فقالت: يا أمير المؤمنين، رأس الحسين بن فاطمة بنت رسول الله ﷺ ؟! قال: نعم، فأعولى عليه، عجل عليه ابن زياد، فقتله، قتله الله، ثم دخل عليه الناس والرأس بين يديه، ثم قال: إن هذا وإيانا كما قال الحصين بن الحمام: [من الطويل]

أَبَىٰ قَوْمُنَا أَنْ يُنْصِفُونَا فَأَنْصَفَتْ ... قَوَاضِبُ فِى أَيْمَانِنَا تَقْطُرُ الدِّمَا

تُفَلِّقْنَ هَامًا مِنْ رِجَالٍ أَعِزَّةٍ ... علينا وَهُمْ كانوا أَعَقَّ وَأَظْلَمَا

ويقال: إنه استشهد ببعض أبيات قصيدة عبد الله بن الزبعرى التى قالها فى يوم أحد التى مطلعها قوله: [من الرمل]

يَا غُرَابَ البَيْنِ أَسْمَعْتَ فَقُلْ ... إِنَّمَا تَنْطِقُ شَيْئًا قَدْ فُعِلْ

ومنها قوله:

لَيْتَ أَشْيَاخِى بِبَدْرٍ شَهِدُوا ... جَزَعَ الخَزْرَجِ مِنْ وَقْعِ الأَسَلْ

وإنه نكت فى ثغر الحسين بقضيبه؛ كما فعل ابن زياد، فقال له أبو برزة الأسلمى

ما قال زيد بن أرقم لابن زياد، ثم قال يزيد: يا حسين، والله لو أنى صاحبك ما قتلتك، ثم قال: أتدرون من أين أتى الحسين ؟ قال: أبى خير من أبيه، وأمى فاطمة خير من أمه، وجدى رسول الله خير من جده، وأنا خير منه، فأما أمه وجده فمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يعتقد غير هذا. وأما أبى وأبوه، فقد تحاجا عند الله، وما علم الناس أيهما حكم له؛ ولكنه أتى من قبل الفقه، ولم يقرأ: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ ﴾ [آل عمران: ٢٦]. ثم أدخل نساء الحسين عليه والرأس بين يديه فجعلت فاطمة وسكينة بنتا الحسين تتطاولان تنظران إلى الرأس، ويزيد يتطاول يستر عنهما الرأس، فلما أبصرنه صحْنَ، فصاح نساء يزيد وبنات معاوية، فقالت فاطمة: أبناتُ رسول الله سبايا يزيد، فقال: يا بنة أخى، كنت لهذا أكره، قالت: والله ما ترك لنا من خُرص، قال: أما إنى سأوصل إليكنَّ ما هو أعظم مما أخذ منكن، ثم أخرجن وأدخلن دور يزيد، فلم تبق امرأة فى بيتهنَّ إلا أتتهنَّ وأقمْنَ المأتم، وسأل عما أخذ منهنَّ فأضعفه لهنَّ. وكانت سكينة تقول: ما رأيت عدوًا خيرًا من يزيد بن معاوية.

ثم أدخل على بن الحسين مغلولاً فقال: يا يزيد لو رآنى رسول الله مغلولاً لفكنى، قال: صدقت، وأمر بفكه عنه، فقال: لو رآنا رسول الله على بعد لقربنا، فأمر به فقرب منه، وقال له: يا على، أبوك الذى قطع رحمى، وجهل حقى، ونازعنى سلطانى، فصنع الله به ما رأيته. فقال على: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ. . .﴾ الآية [الحديد: ٢٢]، وقال يزيد: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ ﴾ [الشورى: ٣٠]، ثم سكت عنه وأمر بإنزاله وإنزال نسائه فى دار جده، ثم لم يزل يذم من ابن زياد فعله فى الحسين، ويقول: لعن الله ابن مرجانة، سأله أن يضع يده فى يدى، أو يلحق بثغر حتى يتوفاه الله، فلم يجبه إلى ذلك، وقتله، وبغَّضنى إلى المسلمين، وزرع العداوة لى عند البر والفاجر، مالى ولابن مرجانة، لعنه الله وغضب عليه.

ثم أمر النعمان بن بشير أن يجهِّزهم بما يصلحهم وبعث معهم إلى المدينة رجلًا من أهل الشام فى خيل تسير معهم، ودعا عليًا ليودعه، وقال له: لعن الله ابن مرجانة، والله لو أنى صاحب أبيك ما سألنى خصلة أبدًا إلا أعطيته إياها، ولدفعت

عنه الحيف بما استطعت، ولو بهلاك ولدى، ولكن قضى الله ما رأيت، فكاتبنى بأيَّة حاجة تكون لك، وأوصى بهم ذلك الرسول، فخرج بهم، فكان يسايرهم ليلاً من ورائهم بحيث لا يفوتون نظره عن حوائجهم، حتى دخلوا المدينة، فقالت فاطمة لأختها زينب: لقد أحسن إلينا هذا الرجل، فهل لك أن نصله بشيء ؟! فقالت: ما معنا إلا حلينا، فأخرجتا سوارين ودملجين لهما، فبعثتا بذلك إليه واعتذرتا، فرد الجميع، وقال: لو كان الذى صنعته للدنيا، لكان فى هذا ما يرضينى؛ وإنما صنعته لله، ولقرابتكم من رسول الله ﷺ.

وكان ابن زياد بعث إلى المدينة بخبر الحسين، وبها عمرو بن سعيد، فأعلم الناس وبكى نساء بنى هاشم، فلما سمع عمرو أصواتهنَّ، قال: ناعية بناعية عثمان، وفى الذهبى: قال يزيد اليزدى: حدثنى من شافه الحسين بن على، قال: رأيت أبنية مضروبة فى الفلاة للحسين، فأتيته، فإذا شيخ يقرأ القرآن والدموعُ تسيل على خديه، فقلت: بأبى أنت وأمى، يا بن رسول الله، ما أنزلك هذه البلاد، والفلاة التى ليس بها أحد ؟! فقال: هذه كتب أهل الكوفة إليَّ لأخرج، ولا أُرَاهُمْ إلا قاتلىَّ، فإذا فعلوا ذلك، لم يدعوا لله حرمة إلا انتهكوها، فيسلط الله عليهم من يذلهم حتى يكونوا أذل من قرم الأمة؛ يعنى: مقنعتها.

وروى الزبير بن بَكَّار، عن محمد بن حسن، قال: لما نزل عمر بن سعد بالحسين، وأيقن أنهم قاتلوه، قام فى أصحابه، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: قد نزل بنا ما ترون، وإن الدنيا قد تغيرت وتنكرت حتى لم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء، وإلا خسيس عيش كالمرعى الوبيل؛ ألا ترون الحق لا يعمل به، والباطل لا ينهَىٰ عنه ؟! ليرغب المؤمن فى لقاء الله، وإنى لا أرى الموت إلا سعادة، والحياة مع الظالمين إلا ندمًا.

وقال خالد الحذاء، عن الجريرى: إن الحسين لما أرهقه السلاح، قال: ألا تقبلون منى ما كان رسول الله ﷺ يقبله من المشركين ؟! قيل: وما كان يقبل منهم ؟ قال: كان إذا جنح أحد منهم للسلم، قَبِلَ منه، قالوا: لا؛ قال: فدعونى أرجع، قالوا: لا، قال: فدعونى آتى أمير المؤمنين يزيد، فأضع يدى فى يده، فقال له رجل: أبشر بالنار، فقال الحسين: بل إن شاء الله، برحمة ربى وشفاعة نبيى،

فقاتل، فلما استحرَّ القتل بأهله، فإنهم لا يزالون يقتلون واحدًا بعد واحدٍ، صاح الحسين: أما ذَابٌّ يذبكم عن حريم رسول الله ﷺ ؟! فحينئذ خرج الحر بن يزيد بن الحارث الرياحى، فقاتل معه حتى قتل، وحمل الحسين بمفرده وقتل كثيرًا من شجعانهم وهويقول: [من الطويل]

أَنَا ابْنُ عَلِيٍّ الخَيْرِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ ... كَفَانِيَ هَذَا مَفْخَرًا حِينَ أَفْخَرُ

وَجَدِّى رَسُولُ الله أَكْرَمُ مَنْ مشَىٰ ... ونحنُ سِرَاجُ الله فى النَّاسِ يُزْهِرُ

وفاطِمَةٌ أُمِّى سُلالَةُ أَحْمَدٍ ... وَعَمِّىَ يُدْعَىٰ ذا الجناحَيْنِ جَعْفَرُ

وفِينَا كِتَابُ الله أُنزِلَ صَادِقًا ... وفينا الهُدَىٰ والوَحْيُ والخَيْرُ يُذْكَرُ

وفى رواية: قيل: إنه لما جيء برأسه فى طست، وضع بين يدى ابن زياد، فنكته بقضيبه وقال: من قتله ؟ فقام رجل، قيل: هو الشمر بن ذى الجوشن، وقيل: سنان ابن أنس النخعى وكان قد طعن الحسين فى ترقوته، ثم انتزع الرمح، فطعنه أخرى فى ثوانى صدره، فخر - رضى الله عنه - صريعًا، فقال لخولى بن يزيد: حز رأسه، فأرعدت يده ، فنزل سنان فحز رأسه - لا رحمهم الله، ولا رضى عنهم:- كما تقدَّم ذكر ذلك فقال: أنا. وأنشد: [من الرجز]

أَوْقِرْ رِكَابِى فِضَّةً وذهبا

إنى قَتَلْتُ المَلِكَ المُحَجَّبَا

قَتَلْتُ خَيْرَ الناسِ أُمًّا وأَبَا

ومَنْ يُصَلِّى القبلتَيْنِ فى الصِّبَا

وخَيْرَهُمْ إذْ يُنْسَبُونَ نَسَبَا

وذكر كيفية قتلهم بقوله: غدونا عليهم. . إلى آخر ما تقدم ذكره.

قال: فاسود وجهه فى الحال، فغضب ابن زياد من قوله، وقال له: إذا علمت ذلك، فلم قتلته ؟! والله، لا نلت منى خيرًا، ولألحقنك به، ثم ضرب عنقه.

وقتل مع الحسين - رضى الله تعالى عنه - من إخوته وبنيه، وبنى أخيه الحسن، ومن أولاد جعفر وعقيل تسعة عشرة نفرًا، وقيل: أحد وعشرون[1].

قال الحسن البصرى: ما كان على وجه الأرض يومئذ لهم شبيه، رضى الله عنهم.

---

(١) ينظر تاريخ الطبري (٥/ ٤٦٧-٤٦٩) وتاريخ الإسلام حوادث سنة إحدى وستين.

وروى أبو معشر نجيح، عن بعض مشيخته؛ أن الحسين قال حين نزلوا كربلاء، ما اسمُ هذه الأرض ؟ قالوا: كربلاء، قال: كَرْبٌ وبلاء[١].

وروى شريك، عن مغيرة قال: قالت مرجانة لابنها عبيد الله: يا خبيث، قَتَلْتَ ابن رسول الله ﷺ، لا ترى الجنة أبدًا !![٢].

قال المدائنى: عن على بن مدرك، عن جده قال: احمرت آفاق السماء بعد قتل الحسين ستة أشهر، يرى فيها كالدم، فحدثت بذلك شريحًا، فقال لى: ما أنت من الأسود ؟! قلت: هو جدى أبو أمى، فقال: أما والله إن كان لصدقًا[٣].

قلت: وما أشجَىٰ قول أبى العلاء أحمد بن سليمان، الشهير بالمعرِّى؛ فإنه أشار إلى هذا المعنى، فقال من قصيدة: [من الخفيف]

وَعَلَى الأُفْقِ مِنْ دِمَاءِ الشَّهِيدَيْـ ... ـنِ عَـلِـيٍّ وَنَـجْـلِـهِ شَـاهِـدَانِ
فَهُمَا فِى أَوَاخِرِ اللَّيْلِ فَجْرا ... نِ وَفِـى أُولـيَـاتِـهِ شَـفَـقَـانِ
ثَبَتَا فِى قَمِيصِهِ لِيَجِيءَ الْـ ... ـحَشْرَ مُسْتَعْدِيًا إِلَى الرَّحْمَٰنِ

وكذا روى مثل ذلك سليمان بن حرب، عن حماد، عن ابن سيرين، قال لرجل: تعلم هذه الحمرة فى الأفق مم هى ؟ قال: لا، قال: من يوم قتل الحسين[٤].

وقال جرير بن عبد الحميد، عن يزيد بن زياد، قال: قتل الحسين ولى أربعَ عَشْرَةَ سنةً، فلما قتل، صار الورس الذى فى عسكرهم رمادًا، وكان فى قافلة من اليمن تريد العراق، فوافتهم حين قتله، واحمرت آفاق السماء، ونحروا ناقة فى عسكرهم، وكانوا يرون فى لحمها نارًا[٥].

وقال حماد بن زيد: حدثنى جميل بن مرة، قال: أصابوا إبلًا فى عسكر الحسين يوم قتل، فنحروها وطبخوها، فصارت مثل العلقم[٦].

وقال قرة بن خالد: حدثنا أبو رجاء العطاردى قال: كان لنا جار من بَلْهُجَيْم،

(١) ينظر تهذيب تاريخ دمشق (٤/٣٣٨). ذخائر العقبي في مناقب ذوي القربي ص (١٤٤) تاريخ الإسلام حوادث سنة إحدى وستين، (ص ١٣- ١٤).
(٢) ينظر تاريخ الإسلام حوادث سنة إحدى وستين (ص١٥).
(٣) ينظر المصدر السابق (ص١٥).
(٤) ينظر المصدر السابق (ص١٥).
(٥) ينظر تهذيب تاريخ دمشق (٤/ ٣٤٢) والمصدر السابق (ص١٥).
(٦) ينظر تاريخ الإسلام حوادث سنة إحدى وستين (ص١٦).

فقدم الكوفة، فقال: ما ترون هذا الفاعل ابن الفاعل، قتله الله ؟! يعنى: الحسين، رضى الله تعالى عنهما، قال أبو رجاء: فرماه الله بكوكبين من السماء، فطمسا عينيه، وأنا رأيته(١).

وقال معمر بن راشد: أول ما عرف الزهرى تكلم فى مجلس عبد الملك بن مروان، فقال له: تعلم ما فعلت حجار بيت المقدس يوم قتل الحسين ؟! فقال الزهرى: إنه لم يقلب حجر فيه إلا وجد تحته دم عبيط(٢).

قال جعفر بن سليمان: حدثتنى أم سالم خالتى، قالت: لما قتل الحسين، مطرنا مطرًا كالدم على البيوت والجدر(٣).

وروى حماد بن سلمة، عن عمار بن أبى عمار، عن ابن عباس: رأيت رسول الله ﷺ فى المنام نصف النهار أشعث أغبر، وبيده قارورة فيها دم، فقلت: بأبى أنت وأمى يا رسول الله، ما هذا ؟ قال: هذا دَم الحسينِ وأصحابِهِ، ولم أزل منذ اليوم ألتقطه، فأحصى ذلك اليوم فوجدوه قتل يومئذ(٤).

وقال حماد، عن عمار: سمعت أم سلمة تقول: سمعتُ الجنَّ تبكى على الحسين وتنوح عليه(٥).

وعن أبى جناب الكلبى قال: أتيتُ كربلاء، فقلت لرجل من أشراف العرب بها: بلغنى أنكم تسمعون نوح الجنِّ، فقال لى: ما تلقى أحدًا إلا أخبرك أنه سمع ذلك، فقلت له: فأخبرنى ما سمعت أنت ؟ قال: سمعتهم يقولون: [من مجزوء الكامل]

مَسَحَ الرَّسُولُ جَبِينَهُ ... فَلَهُ بَرِيقٌ فِى الخُدُودِ
أَبَواهُ مِنْ عُلْيَا قُرَيْـ ... ـشٍ جَدُّهُ خَيْرُ الجُدُودِ

رواه ثعلب فى أماليه(٦).

ولما دخل الرأس على يزيد، ووضع بين يديه، وأنشد البيتين المتقدم ذكرهما:

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٨٣٠).
(٢) ينظر تاريخ الإسلام حوادث سنة أحدى وستين (ص١٦).
(٣) ينظر المصدر السابق.
(٤) أخرجه أحمد(١/ ٢٨٣)والطبراني(٢٨٢٢)وابن عساكر(٤/ ٣٤٣-تهذيب)من حديث ابن عباس.
(٥) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٨٦٧)، وذكره الهيثمي في المجمع (٩/ ٢٠٢) وقال: وفيه عمرو بن ثابت بن هرمز وهو ضعيف.
(٦) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٨٦٥، ٢٨٦٦)، وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ٢٠٢): =

[من الطويل]

أَبَىٰ قومُنَا أن ينصفُونَا ... .

قال عبد الرحمن بن الحكم أخو مروان بن الحكم: [من الطويل]

لَهَامٌ بجَنْبِ الطَّفِّ أَوْفَىٰ قَرَابَةً مِنِ ابن زياد العَبْدِ ذى النَّسَبِ الوغلُ

سُمَيَّة أمسَىٰ نَسْلُهَا عَدَدَ الحَصَىٰ وَبِنْتُ رَسُولِ الله لَيْسَ لَهَا نَسْلُ

فضرب يزيد صدره، وقال: اسكت[١].

قال الحافظ الذهبى: روى عن أبى عبيدة، أن يونس بن حبيب حدثه قال: لما قتل الحسين وبنو أبيه، وبعث ابن زياد برءوسهم إلى يزيد، سُرَّ بقتلهم أولاً، ثم ندم ثانيًا، فكان يقول: وما عليَّ لو احتملت الأذى، وأنزلت الحسين منى، وحكمته فيما يريد، وإن كان فى ذلك وهن فى سلطانى؛ حفظًا لرسول الله ﷺ ورعاية لحقه وقرابته، لعن الله ابن مرجانة - يريد عبيد الله بن زياد - فإنه أخرجه واضطره، وقد كان سأله أن يخلى سبيله ويرجع من حيث أقبل، أو يأتينى فيضع يده فى يدى أو يلحق بثغر من الثغور، فأبى ذلك، ورده عليه، فأبغضنى بقتله المسلمون.

قال المسعودى: كان قتل مسلم بن عقيل فى اليوم الذى خرج فيه الحسين من مكة يوم التروية كما تقدَّم ذكره.

قال: لما قتل الحسين، وحمل رأسه إلى ابن زياد، خرجت بنت عقيل فى نساء قومها حواسر حائرات؛ لما ورد عليهنَّ من قتل السادات، وهى تقول شعرًا: [من البسيط]

مَاذَا تَقُولُونَ إِنْ قَالَ النَّبِيُّ لَكُمْ ماذا فعلتُمْ وأنتُمْ آخِرُ الأُمَمِ ؟!

بعترتى وَبِأَهْلِى بَعْدَ مُفْتَقَدِي نِصْفٌ أُسارَىٰ ونصْفٌ ضُرِّجُوا بدَمِ

مَا كَانَ هَذَا جَزَائى إِذْ نَصَحْتُ لَكُمْ أن تَخْلُفونِى بسُوءٍ فِى ذَوِى رَحِمى[٢]

وقال المدائنى، عن إبراهيم بن محمد، عن عمرو بن دينار: حدثنى محمد بن على بن الحسين، عن أبيه، قال: لما قتل الحسين ودخلنا الكوفة، لقينا رجل،

= وفيه من لم أعرفه وأبو جناب مدلس.

(١) ينظر تاريخ الطبري (٥/ ٤٦٠) وتاريخ الإسلام حوادث سنة إحدى وستين (ص١٨).

(٢) ينظر مروج الذهب (٣/ ٧٨).

فدخلنا منزله، فألحفنا فنمت، فلم أستيقظ إلا بحس الخيل فى الأزقة، فحملنا إلى يزيد، فدمعت عيناه حين رآنا، وأعطانا ما شئنا، وقال: إنه سيكون فى قومك أمر، فلا تدخل معهم فى شيء، فلما كان من أهل المدينة ما كان، كتب مع مسلم بن عقبة المُرِّيِّ كتابًا فيه أمانى، فلما فرغ مسلم من الحرة بعث إليَّ، فجئته وقد أيقنتُ بالموتِ، فكتبت وصيتى، فرمى إليَّ الكتاب، فإذا فيه: استوص بعلى بن الحسين خيرًا، فإن دخل معهم فى أمرهم فأَمِّنْهُ واعفُ عنه، وإن لم يكن معهم، فقد أصاب وأحسن[1].

وقال رزق الله بن عبد الوهاب الجبائى فى الحسين - رضى الله عنه - شعرًا: [من الكامل]

رَأْسُ ابنِ بنتِ محمدٍ ووصيِّهِ ... للمسلمينَ عَلَىٰ قَنَاةٍ يُرْفَعُ
والمُسْلِمُونَ بمنظرٍ وبمَسْمَعٍ ... لا جَازِعٌ فيهِمْ ولا مُسْتَرْجِعُ
أيقظْتَ أجفانًا وكنْت أنمتهَا ... وأنمْتَ عينًا لم تَكُنْ لك تَهْجَعُ
مَا رَوْضَةٌ إلاَّ تَمَنَّتْ أنها ... لَكَ تربةٌ ولحظٌ قبركَ موضعُ

وقال أحمد بن عيسى الهاشمى معتذرًا عن الكحل يوم عاشوراء: [من مخلع البسيط]

لَمْ أَكْتَحِلْ فى صَبَاحِ يَوْمٍ ... أُهْرِقَ فيهِ دَم الحُسَيْنِ
إلاَّ لِحُزْنٍ وَذَاكَ أنِّى ... سَوَّدتُّ حتى بَيَاضَ عَيْنِي

وقال بعضهم فى مثل معناه شعرًا: [من مخلع البسيط]

وَلاَئِمٍ لاَمَ فِى اكْتِحَالِي ... يَوْمَ أراقُوا دَمَ الحُسَيْنِ
قُلْتُ: دَعُونِى أَحَقُّ عُضْوٍ ... فِيهِ بِلُبْسِ السَّوادِ عَيْنِي

ومما قال أبو الحسين الجزار فى ذلك شعرًا: [من الكامل]

وَيَعُودُ عَاشُورَاءُ يُذْكِرُنِي ... رُزْءَ الحُسَيْنِ فَلَيْتَ لَمْ يَعُدِ
يَا لَيْتَ عَيْنًا فِيهِ قد كُحِلَتْ ... بِمَرَاوِدٍ لَمْ تَخْلُ مِنْ رَمَدِ
يومٌ سبيلى حينَ أذكُرُهُ ... ألاَّ يدورَ الصَّبْرُ فى خَلَدِي
ويدًا به لشماتةٍ خُضِبَتْ ... مقطوعةٌ مِنْ زَنْدِهَا بِيَدِي
أما وَقَدْ قُتِلَ الحُسَيْنُ به ... فَأَبُو الحُسَيْنِ أحقُّ بالكَمَدِ

---

(١) ينظر سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٢٠-٣٢١) وتاريخ الإسلام حوادث سنة إحدى وستين ص(٢٠-٢١).

مناقب الحسين بن على بن أبى طالب، رضى الله تعالى عنه

هو الحسين بن على بن أبى طالب بن عبد المطلب، وريحانة النبى ﷺ، ولد بالمدينة لخمس خلون من شعبان سنة أربع من الهجرة على الصحيح، وقيل: ست، وقيل: سبع[١].

قال فى الإصابة: وهذا القول الآخر ليس بشيء[٢].

وكانت والدته البتول علقت به بعد أن ولدت أخاه الحسن بخمسين يومًا، وقيل: بطهر واحد[٣].

ألقابه: الرشيد، والطيب، والرضى، والسيد، والزكى، والمبارك، والسبط، والتابع لمرضاة الله.

كان الحسين أشبه الخلق بالنبى ﷺ من سرته إلى كعبه. وروى أبو عمر، عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال: أبصرَتْ عيناى، وسمعَتْ أذناى رسول الله ﷺ، وهو يقول له: تَرَقَّ عينَ بقَّهْ. فرقى الغلام حتى وضع قدميه على صَدْرِ رسول الله ﷺ، ثم قال له رسول الله ﷺ: افتح فاك، ثم قبله، ثم قال: اللهم، إنى أحبه فأحبه[٤].

روى خيثمة بن سليمان بن حيدرة - وقال أبو الحسن بن الهيثمي: رجاله كلهم ثقات - عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال: «أخذ رسول الله ﷺ بيدى، فانطلقنا إلى سوق بنى قينقاع، فلما رجع دخل المسجد، فجلس، فقال: أين لُكَعُ ؟ فجاء الحسين يمشى حتى سقط فى حجره، فجعل أصابعه فى لحية رسول الله ﷺ، ففتح رسول الله ﷺ فمه وأدخل فاه فى فيه، ثم قال: اللهم، إنى أحبه فأحبه، وأحب من يحبه، قال أبو هريرة: فما رأيته قط إلا فاضت عينى دموعًا[٥].

وروى أبو بكر بن أبى شيبة، عن يعلى العامرى؛ أنه خرج مع رسول الله ﷺ إلى

---

(١) ينظر سبل الهدى والرشاد (١١/ ٧١).
(٢) ينظر الإصابة (٢/ ٦٨) والمصدر السابق.
(٣) ينظر الإصابة (٢/ ٦٨) وسبل الهدى والرشاد (١١/ ٧١)، وهو مروى عن جعفر بن محمد أخرجه الطبراني في الكبير كما في المجمع (٩/ ٨٨) وقال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح إلا أن محمد بن على لم يدرك ذلك.
(٤) ذكره الصالحى في سبل الهدى والرشاد (١١/ ٧١) وعزاه لأبي عمر عن أبي هريرة.
(٥) ذكره الهيثمي في «المجمع» (٩/ ١٨٣- ١٨٤) وقال: رواه الطبراني ورجاله ثقات، =

طعام دعى إليه، فإذا حسين مع غلمان يلعبون فى طريقه، فاستهوى رسول الله أم القوم ثم بسط يده، فطفق الصبى يفر ههنا مرة، وههنا مرة، وجعل رسول الله ﷺ يضاحكه، ثم أخذه رسول الله ﷺ، فجعل إحدى يديه تحت ذقنه، والأخرى تحت قفاه، ثم أقام رأسه، فوضع فاه على فيه، وقال: « حسين منى، وأنا من حسين، رحم الله من أحبَّ حسينًا، حسين سبط من الأسباط »(١).

وروى ابن أبى عاصم، عن أنس - رضى الله تعالى عنه - قال: لما قتل الحسين، وجيء برأسه إلى ابن زياد، فجعل ينكت بقضيب على ثناياه، وكان حسن الثغر، فقلت فى نفسى: لأسوءنك؛ لقد رأيت رسول الله ﷺ يقبل موضع قضيبك من ثنيته(٢).

وروى عن أبى ظبيان قال: والله إن كان رسول الله ﷺ يفرج رجليه، يعنى: الحسين، ويقبل زبيبته(٣).

وروى ابن حبان، عن أبى هريرة - رضى الله تعالى عنه - قال: كان رسول الله ﷺ يدلع لسانه للحسين، فيرى الصبى حمرة لسانه، فيهش إليه، فقال عيينة بن حصن بن بدر الفزارى: أراك تصنع هذا بهذا، فوالله ليكون لى الولد قد خرج وجهه وما قبلته، فقال رسول الله ﷺ: « من لا يرحم لا يرحم »(٤) رواه أبو عبيدة. وعنده: فإذا رأى الصبى حمرة لسانه، هش إليه.

وروى [أبو] الحسن [بن] الضحاك، عن أبى هريرة - رضى الله تعالى عنه - قال: رأيتُ رسول الله ﷺ يمص لعاب الحسين كما يمص الرجل التمرة(٥).

= وينظر سبل الهدي والرشاد (١١/ ٧١).

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١٢/ ١٠٢-١٠٣) وأحمد في مسنده (٤/ ١٧٢) وفي الفضائل (١٣٦١) والحاكم (٣/ ١٧٧)، وابن حبان (٦٩٧١) والطبراني في الكبير (٢٢/ رقم ٧٠٢) من حديث يعلى العامري وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي وهو عند الترمذي مختصرا (٣٧٧٥)، وقال: هذا حديث حسن.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٧٧٨) والقطيعي في زوائد الفضائل (١٣٩٤) وابن حبان (٦٩٧٢) والطبراني في الكبير (٢٨٧٩) من حديث أنس وقال الترمذي: حسن صحيح غريب.

(٣) ينظر سبل الهدي والرشاد (١١/ ٧٢).

(٤) أخرجه ابن حبان (٦٩٧٥) وأبو الشيخ في أخلاق النبي ﷺ (ص٨٦).

(٥) ذكره الصالحي في سبل الهدي والرشاد (١١/ ٧٢) وعزاه لأبي الحسن بن الضحاك.

وروى ابن حبان، وابن سعد، وأبو يعلى، وابن عساكر، عن جابر - رضى الله تعالى عنه - قال: من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة، وفى لفظ: إلى سيد شباب الجنة، فلينظر إلى الحسين بن على، وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك[١].

وروى أبو القاسم البغوى، عن محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى، قال: خلونا عند رسول الله ﷺ إذْ أقبل الحسين، فجعل ينزو على ظهر رسول الله ﷺ، وعلى بطنه، فبال، فقمنا إليه، فقال - عليه الصلاة والسلام -: دعوه، ثم دعا رسول الله ﷺ بماء فصبه على ثوبه[٢].

وروى سعيد بن منصور، والترمذى، وحسنه، عن يعلى بن مرة العامرى - رضى الله تعالى عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: « حسين منى، وأنا من حسين، أحب الله من أحبَّ حسينًا، حسين سبط من الأسباط »[٣].

وروى الإمام أحمد، عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: « الحسنُ والحسيْنُ سِبطانِ من الأسْبَاطِ ».

وروى الطبرانى فى الكبير، عن على - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: « مَنْ أحَبَّ هذا - يعنى الحسين - فقد أحبنى »[٤].

وروى الحاكم، عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: « اللهمَّ، إِنى أحبه فأحبه » يعنى: الحسين[٥].

وروى أبو القاسم البغوى بسنده، قال: خرج رسول الله ﷺ من بيت عائشة، فمر على باب فاطمة - رضى الله تعالى عنها - فسمع حسينًا يبكى، فقال رسول الله ﷺ: « أما تعلمين أن بكاءه يؤذينى »[٦].

---

(١) أخرجه أبو يعلى (١٨٧٤) وابن حبان (٦٩٦٦) وذكره الهيثمي في المجمع (٩/ ١٩٠) وقال: رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح غير الربيع بن سعد وهو ثقة.

(٢) ذكره الصالحى في سبل الهدي والرشاد (١١/ ٧٢)، وعزاه لأبي القاسم البغوى.

(٣) تقدم تخريجه قريبا.

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٦٤٣)، وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ١٨٩): وفيه الحارث الأعور وهو ضعيف.

(٥) أخرجه الحاكم (٣/ ١٦٩، ١٧٧، ١٧٨) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٦) ذكره الصالحى في سبل الهدى والرشاد (١١/ ٧٣) وعزاه لأبي القاسم البغوي.

وروى الطبرانى فى الكبير، وابن سعد، عن عائشة -رضى الله تعالى عنها - أن رسول الله ﷺ قال: « أخبرنى جبريل أن ابنى الحسين يقتل بأرض الطفّ، وجاءنى بهذه التربة، وأخبرنى أن فيها مضجعه »[1].

وروى الإمام أحمد، عن ثابت، عن أنس - رضى الله تعالى عنه - قال: استأذن ملك المطر[2] أن يأتى النبى ﷺ فأذن له، فقال - عليه الصلاة والسلام [لأم سلمة: « احفظى][3] علينا الباب لا يدخل أحد »، فجاء الحسين فوثب حتى دخل، فجعل يصعد على منكب رسول الله ﷺ، فقال [له] ملك المطر: أتحبه ؟ فقال - عليه الصلاة والسلام - نعم، قال: إن أمتك تقتله، وإن شئت أريتك المكان الذى يقتل فيه، قال: فضرب بيده، فأراه ترابا أحمر، فأخذت أم سلمة ذلك التراب، فصرته فى طرف ثوب[ها]، قال: فكنا نسمع بقتله بكربلاء. ورواه البيهقى من حديث وهب بن ربيعة بن زياد، قال: أخبرتنى أم سلمة - رضى الله تعالى عنها - أن رسول الله ﷺ اضطجَعَ ذات يوم، فاستيقظ وهو حائر، ثم اضطجع، فرقد، ثم استيقظ وهو حائر دون ما رأيتُ منه فى المرة الأولى، ثم اضطجع فاستيقظ وفى يده تربة حمراء، وهو يقلبها، فقلت: ما هذه التربة، يا رسول الله ؟! قال: « أخبرنى جبريل؛ أن ابنى هذا يقتل بأرض العراق، قال: فقلت: يا جبريل، أرنى تربة الأرض، فقال: هذه تربتها »[4].

وروى البزار[5] عن ابن عباس - رضى الله تعالى عنهما - قال: كان الحسين جالسًا فى حجره - عليه الصلاة والسلام - فقال له جبريل: أتحبه ؟ فقال: كيف لا، وهو ثمرة فؤادى، فقال: إن أمتك ستقتله؛ ألا أريك موضع قبره ؟! فقبض قبضة وإذا تربة حمراء[6].

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٨١٥) وذكره الهيثمي في المجمع (٩/ ١٩٠) وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.
(٢) في ط: القطر. والمثبت من المسند لأحمد.
(٣) في ط: أغلقي. والمثبت من مسند أحمد.
(٤) أخرجه أحمد (٣/ ٢٤٢، ٢٦٥) من طريق ثابت عن أنس.
(٥) في ط: البراء. وهو تصحيف.
(٦) ذكره الهيثمي في المجمع (٩/ ١٩٤-١٩٥) وقال: رواه البزار ورجاله ثقات وفي بعضهم خلاف.

وروى الإمام أحمد، عن عبد الله بن نجى[(١)]، عن أبيه، أنه سار مع أمير المؤمنين على - كرم الله وجهه - فلما حازَىٰ شط الفرات، قال: صبرًا أبا عبد الله، قلت: وما ذاك، يا أمير المؤمنين ؟ قال: دخلت على النبى ﷺ، وعيناه تفيضان بالدمع، فقلت: مم ذلك يا رسول الله، صلى الله عليك ؟ فقال: قام من عندى جبريل - عليه الصلاة والسلام - وأخبرنى أن ابنى الحسين يقتل بشط الفرات، وقال: هل لك أن أنعمك من تربته ؟ فقلت: نعم، فقبض قبضة من تراب فأعطانيها، فلم أملك عينى أن فاضتا[(٢)].

وروى الإمام أحمد، عن أبى أمامة الباهلى، قال: قال رسول الله ﷺ: لا تدع أحدًا يدخل، فجاء الحسين فمنعته، فبكى فخليته فدخل حتى قعد فى حجره ﷺ، فقال جبريل - عليه الصلاة والسلام -: إن أمتك ستقتله، فقال - عليه الصلاة والسلام -: تقتله، وهم مؤمنون ؟ قال: نعم، وأراه من تربته. وفى رواية: قال رسول الله ﷺ: يا جبريلُ، أفلا أراجع ربِّى عز وجل ؟ قال: لا؛ إنه أمر قد قضى وفُرِغَ منه[(٣)].

وروى الإمام أحمد، عن فاطمة - رضى الله عنها - أن رسول الله ﷺ قال: لقد دَخَلَ جبريل عليَّ البيت، ولم يدخل عليَّ قبلها، فقال: ابنك هذا حسين مقتول، وإن شئت، أريتك التربة التى يقتل بها، فأخرج تربة حمراء[(٤)].

وروى البغوى، عن أنس بن الحارث - رضى الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إن ابنى هذا يقتل بأرض يقال لها كربلاء، فمن شهد ذلك فلينصره »، قال: فخرج أنس بن الحارث إلى كربلاء، فقتل مع الحسين، رضى الله تعالى عنهم أجمعين[(٥)].

وروى الملا، عن أم سلمة؛ أنها قالت: ناولنى رسول الله ﷺ كفًا من تراب

---

(١) في ط: يحيى، والتصحيح من مسند أحمد وهو أبو سلمة الحضرمي صدوق من الثالثة وانظر: التقريب ت (٣٦٨٨).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٨٥).

(٣) ذكره الهيثمي في المجمع (٩/ ١٩٢) وقال: رواه الطبراني ورجاله موثقون وفي بعضهم ضعف.

(٤) لم أجده عن فاطمة رضي الله عنها في مسند أحمد ولعله في الفضائل.

(٥) ذكره الصالحى في سبل الهدى والرشاد (١١/ ٧٥)، وعزاه للبغوي.

أحمر، وقال: إن هذا من تربة الأرض التى يقتل بها ابنى - يعنى: الحسين - فمتى صار دمًا فاعلمى أنه قد قتل. قالت أم سلمة: فوضعته فى قارورة، وكنت أقول: إن يومًا يتحول فيه دمًا ليوم عظيم. وفى رواية: فأصبته يوم قتل الحسين، وقد صار دمًا، قالت أم سلمة: فلما كانت ليلة قتل الحسين، سمعت قائلاً يقول: [من الخفيف]

أَيُّهَا ٱلْقَاتِلُونَ جَهْلاً حُسَيْنًا أَبْشِرُوا بِالْعَذَابِ وَالتَّنْكِيلِ

قالت: فبكيت وفتحت القارورة، فإذا الحصيات قد خرجت دمًا(١).

وأخرج ابن سعد قال: مر على - رضى الله تعالى عنه - بكربلاء عند مسيره إلى صفين، وحاذى نينوى - اسم قرية على الفرات - فوقف وسأل عن اسم هذه الأرض، فقيل له: كربلاء، فبكى حتى بلت دموعه الأرض، ثم قال: هاهنا مناخ ركابهم، هاهنا مهراق دمائهم، فتية من آل محمد يقتلون بهذه العرصة، تبكى عليهم السموات والأرض(٢).

ولما سير برأسه إلى يزيد، فنزلوا أول مرحلة، فجعلوا يشربون والرأس بين أيديهم، فبينما هم كذلك إذْ خرجَتْ عليهم من الحائط يد معها قلم من حديد، فكتب سطرًا بدم، وهو: [من الوافر]

أَتَرْجُو أُمَّةٌ قَتَلَتْ حُسَيْنًا شَفَاعَةَ جَدِّهِ يَوْمَ الْحِسَابِ ؟!

فهربوا وتركوا الرأس. أخرجه منصور بن عمار(٣).

وذكر غير واحد؛ أن هذا البيت وجد بحجر فى دير راهب فى كنيسة بأرض الروم، ولايدرى من كتبه، فسألوه، فقال: هذا مكتوب قبل مبعث نبيكم بثلاثمائة سنة(٤).

وقد تقدم ذكر حمرة السماء.

قال ابن الجوزى: وحكمته أن غضبنا يؤثر حمرة الوجه، والحق تنزه عن الجسمية، فأظهر تأثر غضبه على من قتل الحسين بحمرة الأفق؛ إظهارًا لِعظَم الجناية.

قال: وإذا كان أنين العباس، وهو مأسور ببدر منع رسول الله ﷺ النوم، فكيف

---

(١) ينظر سبل الهدي والرشاد (١١/ ٧٥-٧٦).
(٢) ينظر سبل الهدى والرشاد (١١/ ٧٥).
(٣) ذكره الصالحى في سبل الهدي (١١/ ٧٦) وعزاه لأبي نعيم من طريق ابن لهيعة عن أبي قبيل.
(٤) ينظر سبل الهدى والرشاد (١١/ ٨٠).

بابنه الحسين، ولما أسلم وحشيٌ قاتلُ حمزة، قال له: غيب وجهك عني؛ فإني لا أحب أن أرى من قتل الأحبة، والإسلام يجب ما قبله، فكيف بقلبه ﷺ أن يرى من ذبح الحسين، وأمر بقتله، وحمل أهله على أقتاب الجمال سافرات الوجوه، ناشرات الشعور.

وأخرج أبو الشيخ أن جمعًا يذكرون أنه ما من أحد أعان على قتل الحسين إلا أصابه بلاء قبل أن يموت.

ونقل سبط ابن الجوزى عن السديّ؛ أنه أضافه رجل بكربلاء، فتذاكروا هذا المعنى أى أنه ما من أحد أعان على قتل الحسين، أو شركهم فى دمه بوجه، إلا مات أقبح ميتة، فكذّب المضيف بذلك، وقال: إنه ممن حضر ولم يصبه شيء، فقام ليصلح السراج، فأخذته النار، فذهب ليطفئها بريقه، فالتهب فمه، فجعل ينادى: النارَ النارَ، وانغمس فى الفرات، ومع ذلك دبت النار فى جسده، فأحرقته، قال السدى: وأنا والله، رأيته كالحممة[1].

وحكى سبطه، عن الواقدى؛ أن شيخًا حضر قتله فقط، فعمى، فسئل عن سببه ؟ فقال: إنه رأى النبيَّ ﷺ حاسرًا عن ذراعه، وبيده السيف، وبين يديه نطع، ورأى عشرة من قاتلى الحسين مذبوحين بين يديه، ثم لعنه وسبه بتكثير سوادهم، ثم أكحله بمرود من دم الحسين، فأصبح أعمى.

وأخرج - أيضًا - أن شخصًا منهم علق فى لبب فرسه رأس العباس بن على فرئى بعد أيام ووجهه أشد سوادًا من القار، فقيل: إنك كنت أنضر العرب وجهًا، فقال: ما مرت عليَّ ليلة مذ حملت ذلك الرأس إلا واثنان يأخذان بضبعى، ثم ينهضان إلى نار تؤجج، فيدفعانى فيها، وأنا أنكص فتسفعنى كما ترى، ثم مات على أقبح حالة.

وذكر البارزى، عن المنصور؛ أنه رأى رجلًا بالشام وجهه وجه خنزير، فسأله، فقال: إنه كان يلعن عليًا كل يوم ألف مرة، وفى كل جمعة أربعة آلاف مرة وأولاده معه، فرأيت النبيَّ ﷺ وذكر منامًا طويلًا من جملته أن الحسن شكاه إليه، فلعنه ثم بصق فى وجهه، فصار وجهه وجه خنزير، وصار آية للناس.

وروى البخارى فى صحيحه، والترمذى، عن ابن عمر؛ أنه سأله رجل عن دم

(١) ينظر تهذيب تاريخ دمشق (٤/ ٣٤٣). وسير أعلام النبلاء (٣/ ٣١٣).

البعوض، أطاهر أم لا ؟ فقال له: ممن أنت ؟ قال: من أهل العراق، فقال ابن عمر: انظروا إلى هذا، يسألنى عن دم البعوض، وقد قتلوا ابن النبى ﷺ ؟![١].

قال العلامة سبط ابن الجوزى فى كتابه مرآة الزمان وغيره: المشهور أن يزيد لما وصل إليه الرأس الشريف، جمع أهل الشام، وجعل ينكت الرأس بالقضيب الخيزران، وتمثل بتلك الأبيات.

وقيل: بل ترحم على الحسين، وتنكر لابن زياد؛ لكنه قال: المشهور الأول.

وجمع بأنه أظهر الثانى، وأخفى الأول بقرينة أنه بالغ فى رفعة ابن زياد حتى أدخله على نسائه، وبقرينة قوله البيتين السابق ذكرهما فيه، ثم قال: وليس العجب إلا من ضرب يزيد ثنايا الحسين بالقضيب وحمل آل النبى ﷺ سبايا على أقتاب الجمال موثقين فى الحبال، والنساء مكشفات الوجوه والرءوس. وذكر أشياء من قبيح فعله[٢].

قال: ويقال: إنه بعث بالرأس معهم إلى المدينة حين ردهم إليها.

وقيل: بل كان الرأس فى خزانته؛ لأن سليمان بن عبد الملك رأى النبى ﷺ فى المنام يلاطفه ويبشره، فسأل الحسن البصرى عن تعبير ذلك، فقال له: لعلك صنعت إلى آله معروفًا، قال سليمان: نعم، وجدت رأس الحسين فى خزانة يزيد، فكسوته خمسة أثواب، وصليتُ عليه فى جماعة من أصحابى وقبرته، فقال له الحسن البصرى: إن ذلك سبب رضا النبى ﷺ عليك، فأمر سليمان للحسن بجائزة حسنة[٣].

قلت: رأيت فى الذهبى ما نصه: قال عبد الصمد بن سعيد القاضى: حدثنا سليمان بن عبد الحميد البهرانى، سمعت أبا أمية الكلاعى، سمعت أبا كريب، قال: كنتُ فى القوم الذين توثبوا على الوليد بن يزيد، وكنت فيمن نهب خزانتهم بدمشق، فأخذت سفطًا، وقلت: فيه غنائى، فركبت فرسى وجعلته بين يدى، وخرجت من باب توما، ففتحته، فإذا بحريرة فيها قرطاس مكتوب عليه: هذا رأس الحسين بن

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٨٥، ٩٣، ١١٤، ١٥٣) والبخاري (٣٧٥٣، ٥٩٩٤) والترمذي (٣٨٥٩) والطبراني (٢٨٨٤) من حديث ابن عمر وقال الترمذي: حسن صحيح.
(٢) تقدم ذكر هذه الوقائع.
(٣) ينظر البداية والنهاية (٨/ ٢٢٢).

على، فحفرت له بسيفى، ودفنته، فالله أعلم أيًا كان ذلك[١].

فلما فعل يزيد ما مر كان عنده إذ ذاك رسول قيصر، فقال متعجبًا: إن عندنا فى بعض الخزائن فى دير حافر حمار عيسى، فنحن نحج إليه كل عام من الأقطار، وننذر النذور ونعظمه؛ كما تعظمون كعبتكم، وأنتم تفعلون هذا بابن بنت نبيكم، فأشهد أنكم على باطل.

وقال آخر كان معه: بينى وبين داود سبعون أبًا، وإن اليهود تعظمنى وتحترمنى، وأنتم تفعلون ما تفعلون فى ابن نبيكم، قال: وكانت الحرس على الرأس الشريف، كلما نزلوا منزلاً، رفعوه على رمح وحرسوه، فرآه راهب فى دير، فسأل عنه، فعرفوه به، فقال: بئس القوم أنتم، لو كان للمسيح ولد، لأسكناه فى أحداقنا، بئس القوم أنتم، هل لكُمْ فى عشرة آلاف دينار، وبيبت الرأس عندى هذه الليلة ؟ فقالوا: نعم، فأخذه وغسله وطَيَّبه ووضعه على فخذه، وقعد يبكى إلى الصبح؛ لأنه رأى نورًا ساطعًا من الرأس إلى السماء، ثم خرج عن الدير وما فيه وصار يخدم أهل البيت، فهنيئًا له ثم هنيئًا.

وكان مع أولئك الحرس دنانير أخذوها من عسكر الحسين، ففتحوا أكياسها ليقتسموها، فرأوها خزفًا، وعلى أحد وجهى كل منها: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [إبراهيم: ٤٢] وعلى الآخر: ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

قال أهل السير: لما سيق حريم الحسين إلى الكوفة كالأسارَىٰ، بكى أهل الكوفة، فجعل زين العابدين بن على بن الحسين يقول: إن هؤلاء يبكون من أجلنا، فمن ذا الذى قتلنا؟!

وأخرج الحاكم من طرق متعدِّدة أنه - عليه الصلاة والسلام - قال: قال جبريل: قال الله تبارك وتعالى: إنى قتلتُ بدمِ يحيى بن زكريا سبعينَ ألفًا، وإنى قاتل بدم الحسين بن على سبعين ألفًا [وسبعينَ ألفًا][٢]، وقتل هذه العدة بسببه لايستلزم أنها بقدر عدة القاتلين له، فإنها فتنة أفضت إلى تعصبات ومقاتلات تفى بذلك.

---

(١) ينظر: تاريخ الإسلام حوادث سنة إحدى وستين (ص٢٠).

(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ١٧٨)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي: على شرط مسلم . وما بين المعكوفين زيادة من مستدرك الحاكم.

ولاية الوليد بن عتبة على الحجاز، وعزل عمرو بن سعيد[١]

ولما قتل الحسين، وبلغ خبره إلى مكة، قام ابن الزبير فى الناس فخطبهم، وعظم قتل الحسين، وعاب من تولاه وأمر به، وترحَّم عليه، ولعن قاتله، وتعرض ليزيد بسماع الغناء والحداء وشرب الخمر وكلاب الصيد، وقد كان بويع سرًّا، وأظهر أنه عائذ بالبيت، فقال له أصحابه: أظهر بيعتك، فلم يبق بعد الحسين من ينازعك، فقال: لاتعجلوا. وبلغ يزيد الخبر بأمره، فحلف ليؤتين به إليه فى جامعة فصنع جامعة من فضة وبعث بها إليه؛ لتبرَّ يمينه، فامتنع من رسله، ورجع يزيد، فأغراه بنو أمية بعمرو بن سعيد العامل بالحجاز، وقالوا: لو أراد لبعث به إليك؛ فعزله، وولى مكانه الوليد بن عتبة بن أبى سفيان، فسار إلى الحجاز، ولحق عمرو بيزيد، وبيَّن له مكايدة ابن الزبير، فعذره، وأقام الوليد يحاول غِرَّة ابن الزبير فيجده مستحذرًا ممتنعًا.

ثم كتب ابن الزبير إلى يزيد يعيبُ الوليد بأنه أخرق، لايتجه لرشد، ولايرعوى لعظة، فابعث رجلًا سهل الخلق أرجو أن يسهل به من الأمور ما استوعر ويجمع به ما افترق، فعزل الوليد، وولى عثمان بن محمد بن أبى سفيان.

خلع أهل المدينة يزيد، ووقعة الحرة، وحصار مكة[٢]

لما ولى عثمان بن محمد بن أبى سفيان على أهل الحجاز سنة اثنتين وستين، بعث إلى يزيد وفدًا من أهل المدينة، فيهم عبد الله بن حنظلة الغسيل، وعبد الله بن عمرو بن أبى حفص بن المغيرة، والمنذر بن الزبير، ورجال من أشراف أهل المدينة، فأكرمهم يزيد، وأجازهم بمائة ألف درهم لكل واحد منهم، واستأذنه المنذر فى القدوم على ابن زياد فى العراق، فأذن له، ورجع الوفد إلى المدينة، فقاموا بمعايب يزيد فقالوا: يشرب الخمر، ويضرب بالطنابير، ويلعب بالكلاب، ويسمر عنده الخراب واللصوص، فنكر الناس شأنه، وبايعوا عبد الله بن حنظلة الغسيل على خلعه، وبلغ الخبر يزيد، فبعث إلى ابن زياد بحبس المنذر، وكان

(١) ينظر تاريخ الطبري (٥/ ٤٧٤-٤٧٥).
(٢) ينظر تاريخ الطبري (٥/ ٤٧٨-٤٩٥) تاريخ الإسلام حوادث سنة ثلاث وستين (ص٢٣) وما بعدها والطبقات الكبرى (٥/ ٦٧-٦٨)، البداية والنهاية (٨/ ٢٣٨-٢٤٥) ومروج الذهب (٣/ ٧٩-٨٠).

صديقًا له ولأبيه، فكره ذلك، وأذن له فى الانصراف إلى بلده، فقدم المدينة، وعاب يزيد أعظم من الأولين، وحرض الناس عليه، فبعث يزيد النعمان بن بشير إلى المدينة لردهم عما كانوا فيه من الانتقاص، وأتاهم وخوَّفهم الفتنة، وقال: لاطاقة لكم بأهل الشام، وقال له عبد الله بن مطيع: يا نعمان، تفرق جماعتنا، وتفسد ما أصلح الله من أمرنا؟! فقال له النعمان: والله لكأنى بك لو نزلَتْ بك الجموع، ودارت الحرب، ركبت بغلتك إلى مكة، وتركت هؤلاء المساكين - يعنى الأنصار - يقتلون فى مساكنهم، ومساجدهم، وعلى أبواب دورهم، فعصاه الناس، وانصرف إلى يزيد.

فلما كان سنة ثلاث وستين وقد بايعوا لعبد الله بن الغسيل على خلع يزيد، وأخرجوا عثمان بن محمد بن أبى سفيان عامل يزيد عليهم، فاجتمع له بنو أمية ومواليهم فى ألف رجل، وامتنعوا بدار مروان بن الحكم، وكتبوا إلى يزيد يستحثونه، فأمر عمرو بن سعيد أن يسير إليهم فى الناس، فأبى، وقال: كنت قد ضبطت البلاد، والآن تهراق الدماء بالصعيد، فبعث إلى عبيد الله بن زياد بالمسير إلى المدينة، وحصار ابن الزبير بمكة، فأعظم غزو الكعبة مع ماكان منه من قتل الحسين، فأبى واعتذر، فبعث إلى مسلم بن عقبة المُرّىّ، وأخبره بخبر بنى أمية، فقال: ما يكونون ألف رجل؟ قال الرسول: بلى، قال: فما استطاعوا القتال ساعة من نهار؟! هؤلاء أذلاء، دعوهم حتى يجهدوا فى أنفسهم فى جهاد عدوهم، فقال يزيد: ويحك، لاخير فى العيش بعدهم؛ فاخرج بالناس، ويقال: إن معاوية أوصى يزيد إن حدث بك حدث من أهل المدينة، فارمهم بمسلم بن عقبة.

فتجهز مسلم، ونادى بالعطاء، ومعونة مائة دينار، فاجتمع له اثنا عشر ألفًا، فسار بهم إلى الحجاز، وقال له: ادع القوم ثلاثًا قبل القتال، وإذا ظهرت، فأبحها ثلاثًا بما فيها من مال ورثه وطعام وسلاح، فهو للجند، واكفف عنهم بعد الثلاث، وإن حدث بك حدث، فاستخلف الحصين بن نمير السكونى، واستوص بعلىّ بن الحسين خيرًا، فقد أتانى كتابه، ولم يدخل مع الناس، وقد كان مروان بن الحكم لما أصاب بنى أمية ما أصابهم رَغَّبَ إلى على بن الحسين أن يكون حَرَمُهُ مع حَرَمِهِ، فأجابه وخرج بحرمه، وحرم مروان، ومنهم عائشة بنت عثمان إلى ينبع.

وقيل: بل بعثهم مع ابنه عبد الله إلى الطائف، ثم سار مسلم بالجيش، وبلغ أهل المدينة خبره، فاشتد حصارهم لبنى أمية بدار مروان حتى أنزلوهم على أن يخرجوهم إلى الشام، ولا يظاهروا عليهم، ولا يدلوا على عوراتهم، وبعث أهل المدينة إلى الموارد بينهم وبين الشام، فألقوا فيها القطران، فأرسل الله السماء بالمطر، واستغنى العسكر عن الموارد، ولقى بنى أمية مسلم بن عقبة بوادى القرى، فسأل عمرو بن عثمان بن عفان، واستشاره فقال: أخذوا علينا العهد ألاَّ ندل على عورة، فقال: لولا أنك ابن عثمان، لضربت عنقك، ولا أقيل فيها قرشيًّا بعدك. ثم استدعى مروان بعد، فقال مروان لابنه عبد الملك: ادخل قبلى إليه يجتزئ بك، فدخل، فقال مسلم: هات ما عندك، قال: أرى أن تسير إلى أدنَىٰ نخيلها، فإذا أصبحت، تركت المدينة ذات اليسار، ومضيت حتى تأتيهم من قبل الحرة مشرقًا، ثم تستقبل القوم، فإذا أشرقت الشمس، كانت فى ظهوركم ووجوههم، وترون من أشعة سلاحهم ما لا يرون، ويتأذون بشعاع الشمس، ولا تتأذون ثم قاتلهم، فقال له مسلم: لله أبوك، أى امرئ وَلَدَكَ ؟! ثم دخل مروان، وقال: إذا لقيت عبد الملك، فقد لقيتنى، فقال: ما حملت من رجال قريش.

ثم ارتحل وعمل برأى عبد الملك، وأتاهم من قبل المشرق، ثم دعاهم، وقال: أنتم أصل أمير المؤمنين، وأنا أكره إراقة دمائكم، وإنى أؤجلكم ثلاثًا، فإن راجعتم الحق، قبلت وسرت إلى مكة، وإن أبيتم، كنت قد أعذرت. ولما مضت الثلاث قال: ما تصنعون، يا أهل المدينة ؟ قالوا: نحارب، فلاطفهم فى الطاعة، لينصرف إلى مكة، فقالوا: لا ندعك تأتى بيت الله، وتلحد فيه، وتستحلُّ حرمته. وكانوا قد خندقوا على أنفسهم، وكان عبد الله بن مطيع فى قريش على ربع، وعبد الرحمن بن أزهر بن عوف على ربع، ومعقل بن صنان الأشجعى فى المهاجرين على ربع، وأمير جماعتهم عبد الله بن الغسيل على الأنصار فى أعظم تلك الأرباع[١].

قال الذهبى[٢]: كتب عبد الله بن جعفر إلى المدينة - وكان عندَ يزيد بالشام - ألاَّ يعرضوا لجيشه، فورد مسلم بن عقبة، فمنعوه، ونصبوا له الحرب، ونالوا من يزيد،

(١) ينظر المصادر السابقة.

(٢) ينظر: تاريخ الإسلام حوادث سنة ثلاث وستين (ص٢٤).

فأوقع فيهم، وأباحها ثلاثة أيام.

وقال الواقدى: أنبأنا ابن أبى ذئب، عن صالح بن أبى حسان، أنبأنا إسماعيل ابن إبراهيم المخزومى، قال: لما وثب أهل الحرة، وأخرجوا بنى أمية عن المدينة، واجتمعوا على عبد الله بن حنظلة، وبايعوه على الموت، قال: يا قوم، اتقوا الله فوالله ما خرجنا على يزيد حتى خفنا أن نُرْمَىٰ بالحجارة من السماء.

قال: وكان ابن حنظلة يبيتُ تلك الليالى فى المسجد، وما يزيد على أن يفطر على شربة من سويق ويصوم الدهر(١).

وقال الذهبى(٢): دخل عبد الله بن مطيع ليالى الحرة على ابن عمر، فقال له ابن عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « من نزع يَدًا من طاعة، لم يكن له حجة يوم القيامة، ومن مات مفارقًا للجماعة، فإنه يموت ميتة جاهلية »(٣).

وقال المدائنى: توجه مسلم بن عقبة إلى المدينة فى اثنى عشر ألف رجل، ويقال: اثنى عشر ألف فارس، وخمسة عشر ألف راجل.

قال السهيلى فى روضه: وقعة الحرة كان سببها أن أهل المدينة خلعوا يزيد بن معاوية، وأخرجوا بنى أمية، وأمروا عليهم عبد الله بن حنظلة الغسيل الذى غسلت أباه الملائكة يوم أُحد. ولم يوافق أهلَ المدينة على هذا الخلع أَحَدٌ من أكابر أصحاب رسول الله ﷺ، وصمد مسلم فى العساكر، فانكشف أهل المدينة من كل جانب، ثم حمل ابن الغسيل، فانكشف العساكر، وانتهت إلى مسلم، فنهض فى وجوههم بالرجال، واشتد القتال، ثم جاء الفضل بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب لابن الغسيل، فقاتل معه، ثم انتقى الشجعان يريد قتل مسلم، فحمل على أهل الشام، فانفرجوا، وجثت الرِّجال أمامه على الركب، ومضَىٰ نحو راية مسلم، فقتل صاحبها يظن أنه مسلم بن عقبة، فأخذ مسلم رايته، وسار وشدت

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٥/ ٦٧-٦٨) من طريق الواقدى. وذكره الذهبى في تاريخه عند حوادث سنة ثلاث وستين (ص٢٧).

(٢) ينظر: تاريخ الإسلام حوادث سنة ثلاث وستين (ص٢٥).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٧٠، ٨٣، ٩٣، ٩٧، ١٢٣، ١٣٣، ١٥٤) ومسلم (١٨٥١) وابن حبان (٤٥٧٨) من طريق زيد بن أسلم عن ابن عمر، وهذا لفظ ابن حبان، وأخرجه أحمد (٢/ ١١١) ومسلم (١٨٥١) والحاكم (١/ ٧٧، ١١٧) من طريق نافع عن ابن عمر.

الرجال أمامه، فصرع الفضل بن عباس، وقتل معه زيد بن عبد الرحمن بن عوف.

وتقدمت خيل مسلم إلى ابن الغسيل، ومعه أخوه لأمه محمد بن ثابت بن قيس ابن شماس، وعبد الله بن زيد بن عاصم، ومحمد بن عمرو بن حزم، وأبلى محمد ابن سعد بن أبى وقاص، ثم انهزم الناس، وأباح مسلم المدينة ثلاثًا للقتل والنهب، وأفزع ذلك الصحابة الذين بها، وخرج أبو سعيد الخدرى؛ ليأوى إلى كهف فى الجبل، فاعترضه رجل من العسكر لقتله فعرفه بنفسه، فتركه.

قال السهيلى: لما أرجف أهل المدينة بيزيد، دعا عبد الله بن عمر ببنيه ومواليه، فقال لهم: إنا قد بايعنا هذا الرجل على بيعة الله ورسوله، وإنه والله لا يبلغنى عن أحد منكم أنه خلع يدًا من طاعة إلا كانت الفيصلَ بينى وبينه، ثم لزم بيته.

ولزم أبو سعيد الخدرى بيته، فدخل عليه فى تلك الأيام التى أبيحت المدينة فيها، فقيل له: من أنت أيها الشيخ ؟ فقال: أنا أبو سعيد الخدرى صاحب رسول الله ﷺ، فقالوا: قد سمعنا خبرك، ولنعم ما فعلت حين كففت يدك، ولزمت بيتك، ولكن هات المال، فقال: أخذه الذين دخلوا قبلكم عليَّ وما عندى شيء، فقالوا: كذبت، ثم قالوا: أضجعوه، فأضجعوه، فجعل كل واحد يأخذ من لحيته خصلة، وأخذوا ما وجدوا حتى صوف الفرش، وحتى أخذوا زوجين من حمام كان صبيانه يلعبون بهما[١].

وأما جابر بن عبد الله الأنصارى، فخرج فى ذلك اليوم يطوف فى أزقة المدينة، وهو أعمى، والبيوت تنتهب وهو يعثر فى القتلى، ويقول: تعس من أخاف رسول الله ﷺ، فقال له قائل: ومن أخاف رسول الله ﷺ ؟ فقال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: « من أخاف المدينة، فقد أخاف ما بين جنبيَّ »[٢]، فحملوا عليه ليقتلوه، فأخذه منهم مروان بن الحكم، وأدخله بيته.

وقتل فى ذلك اليوم من وجوه المهاجرين والأنصار ألف وسبعمائة رجل.

وقيل: من أخلاط الناس عشرة آلاف، سوى النساء والصبيان، ونهبوا وأفسدوا، واستحلوا الحرم، وعطلت الصلوات فى مسجده - عليه الصلاة والسلام - ولم يبقَ

(١) ينظر البداية والنهاية (٨/ ٢٤٢).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٣٥٤، ٣٩٣) من طريق زيد بن أسلم عن جابر وأخرجه البخاري في التاريخ الكبير (١/ ٥٣)، وابن حبان (٣٧٣٨) من طريق محمد بن جابر عن جابر رضي الله عنه.

فى المسجد إلا سعيد بن المسيب جعل نفسه ولهانًا خبلًا، فتركوه، وكان يقول: كنت أسمع عند مواقيت الصلاة همهمة من الحجرة المطهرة. وافتض فيها ألف عذراء، وإن مفتضًّها فعل ذلك أمام الوجه الشريف، والتمس ما يمسح به الدم، فلم يجد، ففتح مصحفًا قريبًا منه، ثم أخذ من أوراقه ورقةً، فتمسح بها، نعوذ بالله ما هذا إلا صريح الكفر وأنتنه.

ومن ذلك أن امرأة من الأنصار دخل عليها رجل من أهل الشام، وهى ترضع ولدها، وقد أخذ ما كان عندها، فقال لها: هاتى الذهب، وإلا قتلتك وقتلت ابنك، فقالت: ويحك إن قتلته، فأبوه أبو كبشة صاحب رسول الله ﷺ، وأنا من النسوة اللاتى بايعن رسول الله ﷺ، وما خنت الله فى شيء بايعت رسوله عليه، فأخذ الصبى من حجرها وثديها فى فيه، وضرب به الحائط حتى انتثر دماغه فى الأرض، والمرأة تقول: لو كان عندى شيء أفديك به يا ابنى لفديتك، قال: فما خرج من البيت حتى اسودَّ نصف وجهه، وصار مثلة فى الناس.

قال المؤلف: وأحسب هذه المرأة جدة لهذا الصبيِّ لا أُمًّا له؛ إذ يبعد فى العادة أن تبايع رسول الله ﷺ امرأة، وتكون يوم الحرة فى سن من يُرْضِعُ.

والحرة التى يعرف بها هذا اليوم، يقال لها: حرة زهرة، بقرية كانت لبنى زهرة قوم من اليهود، فقيل للقرية: زهرة، وكانت عامرة فى الزمن الأول، يقال: كان فيها ثلاثمائة صائغ؛ ذكره الزبير بن بكار فى فضائل المدينة.

ويقال: إن مسلمًا لما حارب أهل المدينة، ووقف ابن الغسيل والناس لقتاله، خالفهم بنو حارثة من الأنصار، وأدخلوا أهل الشام من ناحيتهم، فانهزم الناس، وكان من هلك فى الخندق أكثر ممن قتل.

ثم دعا مسلم الناس إلى بيعة يزيد على أنهم خَوَلٌ له يحكم فى دمائهم وأموالهم وأهليهم بما شاء، ومن امتنع قتله، وجيء بعد يوم بيزيد بن عبد الله بن زمعة بن الأسود، ومحمد بن أبى الجهم بن حذيفة، فقالا: لا نبايع إلا على الكتاب والسنة، فقتلهما، وأنكر عليه مروان قتل فريق على أمان، فطعنه بالقضيب فى خاصرته، وقال: والله، لو قلتها أنت لقتلتك.

ثم جيء بمعقل بن سنان، فقال له: والله لأقتلنك، فناشده الله والرحم، فقال:

أما أنت لقيتنى بطبرية ليلة انصرف وفدكم من عند يزيد، فأثنيت عليه شرًّا، وقلت: نرجع المدينة، فنخلع هذا الفاسق ابن الفاسق، ونبايع لرجل من أبناء المهاجرين، وإنى آليت لا ألقاك بحيث أقدر على قتلك إلا قتلتك، ثم أمر به فقتل.

وجيء بيزيد بن وهب، فقال: أبايع على سنة عمر، فقتله، وشفع فيه مروان لصهر بينهما فلم يشفعه.

ثم جاء على بن الحسين بين مروان وعبد الملك، وجلس بينهما فقال: تجيئنى بين هذين لتأمن عندى، والله لو كان الأمر إليهما، لقتلتك، وإنما أمير المؤمنين أوصانى بك وأخبرنى أنك كاتبته، ثم أجلسه معه على السرير، فقال: لعل أهلك فزعوا، فقال: نعم، فرده إلى بيته على دابته، ولم يلزمه البيعة؛ كما ألزم أهل المدينة.

ثم أحضر عبد الله بن عباس للبيعة، وكانت أمه كندية، فقال الحصين بن النمير: لا تبايع ابن أختنا إلا مثل ما بايع على بن الحسين، فتركه.

ثم جاء عمرو بن عثمان بن عفان، ولم يكن خرج مع بنى أمية، فقال: هذا الخبيث ابن الطيب، وأمر به فنتفت لحيته.

وكان ممن قتل فى الحرة زيد بن عاصم الأنصارى، وعبيد الله بن عبد الله بن موهب، ووهب بن عبد الله بن زمعة، وعبد الله بن عبد الرحمن بن عاطب، والزبير ابن عبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب. وكان لليلتين بقيتا من ذى الحجة سنة ثلاث وستين[1].

وأتى خبر الواقعة لابن الزبير مع المسور بن مخرمة، فاستعدَّ هو وأصحابه، وعرفوا أن مسلم بن عقبة نازل، ثم استخلف مسلم على المدينة روح بن زنباع الجذامى - وقيل: عمرو بن محرز الأشجعى - وشخص إلى مكة لقتال ابن الزبير، فمات بالمشلل، وقيل: بثنية هرشى، وأوصى الحصين بن نمير فقال: يا بردعة الحمار، لو كان هذا الأمر إلىَّ، ما وليتك هذا الجند، لكن أمير المؤمنين ولاك، فأسرع السير، وعجل المناجزة، ولا تمكن قريشًا من أذنك، ثم مات.

وسار الحصين بالناس، وقدم مكة لأربع بقين من المحرم، وقد بايع أهلها وأهل

---

(١) ينظر مصادر ذكر وقعة الحرة.

الحجاز لعبد الله بن الزبير، واجتمعوا عليه، ولحق به أهل المدينة، وقدم عليه نجدة ابن عامر الحنفى فى الخوارج لمنع البيت، وخرج ابن الزبير للقاء أهل الشام، وعثرت البغلة بعبد الله فنزل، واجتمع إليه المسور بن مخرمة، ومصعب بن عبد الرحمن بن عوف، وجماعة من أصحابه، فقتلوا جميعًا، وصابرهم ابن الزبير إلى الليل، ثم انصرفوا وأقاموا يقاتلونه شهرًا وبعض شهر، واحترق البيت.

يقال: قذفوه بالنار فى المجانيق[١].

ويقال: كان أصحاب ابن الزبير يوقدون حول الكعبة، فعلقت شرارة منها بثوب الكعبة، واحترق خشب البيت.

والأول أصح؛ لأن البخارى ذكر فى صحيحه: أن ابن الزبير لما احترقت الكعبة، تركها ليراها الناس محترقة؛ فتحزّبهم على أهل الشام[٢].

ثم لم يزل العسكر محاصرين لابن الزبير حتى جاءهم نعى يزيد لأول ربيع الثانى.

وفاة يزيد، وبيعة معاوية ابنه وملكه

ثم مات يزيد منتصف ربيع الأول سنة أربع وستين[٣].

قال العلامة الحافظ الذهبى: روى زحر[٤] بن حصين، عن جده حميد بن منهب، قال: زرت الحسن بن أبى الحسن، يعنى: البصرى، فخلوت به، فقلت: يا أبا سعيد، ما ترى ما الناس فيه ؟ فقال لى: أفسد أمر الناس اثنان:

عمرو بن العاص يوم أشار على معاوية برفع المصاحف، فحملت، وقال: أين القراء، فحكم الخوارج، فلا يزال هذا التحكيم إلى يوم القيامة.

والآخر: المغيرة بن شعبة؛ فإنه كان عامل معاوية على الكوفة، فكتب إليه معاوية: إذا قرأت كتابى، فأقبل معزولاً، فأبطأ عنه، فلما ورد عليه، قال: ما أبطأ بك ؟ قال: أمر كنت أُوَطِّئه وأهَيِّئُهُ، قال: وما هو ؟ قال: البيعة ليزيد من بعدك، قال: أو فعلت ؟ قال: نعم، قال: ارجع إلى عملك، فلما خرج المغيرة، قال له

---

(١) ينظر تاريخ خليفة (٢٥٤-٢٥٥) وتاريخ الطبري (٥/ ٤٩٦-٤٩٧) تاريخ الإسلام حوادث سنة أربع وستين (ص٣٣) وما بعدها.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) ينظر تاريخ خليفة (ص١٩٤) وتاريخ الطبرى (٥/ ٤٩٩)، البداية والنهاية (٨/ ٢٤٨-٢٤٩).

(٤) في ط: ابن حر. والمثبت من تاريخ الإسلام.

أصحابه: ما وراءك ؟ قال: وضعت رجل معاوية فى غرز غيّ لا يزال فيه إلى يوم القيامة، قال الحسن: فمن أجل ذلك بايع هؤلاء لأبنائهم، ولولا ذلك لكانت شورى إلى يوم القيامة(١).

قال محمد بن مروان السعيدي: أنبأنا محمد بن أحمد بن سليمان الخزاعى، عن أبيه، عن جده، عن محمد بن الحكم عن أبى عوانة، قال: كان معاوية يعطى عبد الله بن جعفر كل عام ألف ألف درهم، فلما وفد على يزيد، أعطاه ألفى ألف، فقال عبد الله ليزيد: بأبى أنت وأمى، فأمر له بألف ألف أخرى، فقال له عبد الله: والله، لا أجمعهما لأحد بعدك(٢).

حدثنا محمد بن بشار بندار، حدثنا عبد الوهاب، حدثنا عوف الأعرابى، حدثنا مهاجر أبو مخلد، حدثنى أبو العالية، حدثنى أبو مسلم، قال: قال أبو الدرداء: سمعت النبى ﷺ يقول: « أول من يبدل سنتى رجل من بنى أمية يقال له يزيد » أخرجه الرويانى فى مسنده عن بندار. وفى رواية عن الأوزاعى، عن مكحول، عن أبى عبيدة، قال: قال رسول الله ﷺ: « لا يزال أمر أمتى قائمًا بالقسط حتى يكون أول من يثلمه رجل من بنى أمية، يقال له يزيد »(٣).

وقال ابن مطيع: إن يزيد يشرب الخمر، ويترك الصلاة، ويتعدى حكم الكتاب، قال رجل: ما رأيت منه ما تذكرون، وقد أقمت عنده، فرأيته مواظبًا للصلاة متحريا للخير يسأل عن الفقه، قال: كان ذلك منه تصنعًا لك ورياء(٤).

وقال الزبير بن بكار فى أنساب قريش: أنشدنى عمى ليزيد قوله: [من المديد]

آبَ هَـذَا الـهَـمُّ فَـاكْـتَـنَـعَـا ... وَأَمَـرَّ الـنَّـوْم فَـامْـتَـنَـعَـا

---

(١) ينظر تاريخ الإسلام وفيات سنة أربع وستين (ص٢٧٢).

(٢) ينظر المصدر السابق (ص٢٧٢-٢٧٣).

(٣) اللفظ الثاني أخرجه أبو يعلى (٨٧٠، ٨٧١) وذكره الهيثمي في المجمع (٥/ ٢٤٤) وقال: رواه أبو يعلى والبزار ورجال أبي يعلى رجال الصحيح إلا أن مكحولا لم يدرك أبا عبيدة وذكره الحافظ في المطالب (٤٥٣٢) وعزاه لأحمد بن منيع والحارث وأبي يعلى قال الحافظ: رجاله ثقات إلا أنه منقطع.

وأخرجه أيضا البزار (١٦١٩) من طريق مكحول عن أبي ثعلبة الخشنى عن أبي عبيدة به وسنده ضعيف.

(٤) ينظر البداية والنهاية (٨/ ٢٥٥).

راعيًا للنجم أرقبُهُ فإذا ما كوكبٌ طلعا
حام حتَّى إنَّنِى لأرَىٰ أنه بالغور قد وقعا
ولها بالماطِرُون[1] إذَا أكَلَ النَّمْلُ الَّذِى جَمَعَا
خرفةٌ حتَّىٰ إذا ربعتْ نزلتْ من جِلَّقٍ بِيَعًا[2]
فى قبابٍ وَسْطَ دسكرةٍ حَوْلَهَا الزيتونُ قد ينَعَا[3]

قلت: هذه الأبيات من قصيدة له فى نصرانية تعشَّقها، وافتتَن بها، لعنه الله وإياها، وأساء عقباه وعقباها.

ومن شعره فى الخمر: [من الطويل]

أقولُ لصَحْبٍ ضَمَّتِ الكَأْسُ شَمْلَهُمْ وَدَاعِى صَبَابَاتِ الهَوَىٰ يَتَرَنَّمُ
خُذُوا بنَصِيبٍ مِنْ نَعِيمٍ وَلَذَّةٍ فكُلٌّ وَإِنْ طَالَ المدَىٰ يَتَصَرَّمُ

ومن شعره أيضًا فيها: [من الطويل]

وَدَاعٍ دَعَانِى والثُّرَيَّا كأنَّهَا قلائصُ قد أعنقْنَ خَلْفَ فَنِيقِ
وقالَ: اغتنِمْ من دَهْرنا غَفَلَاتِهِ فَعَقْدُ ذِمَامِ الدَّهْرِ غَيْرُ وَثِيقِ
وناولَنِى كَأْسًا كَأَنَّ بنانَهُ مخضَّبةٌ مِنْ لَوْنِهَا بِخَلُوقِ
إذا ما طغَىٰ فيها الحَيَاءُ حسبتَهَا كَوَاكِبَ دُرٍّ فى سَمَاءِ عَقِيقِ
تَدُبُّ دَبِيبَ النَّمْلِ فى كُلِّ مفصلٍ وتَكْسُو وجُوهَ الشَّرْبِ ثَوْبَ شَقِيقِ
وإنِّىَ مِنْ لَذَّاتِ دَهْرِى لقانعٌ بحلْوِ حَدِيثٍ أَوْ بِمُرِّ عتيقِ
هَمَا مَا هُمَا لَمْ يَبْقَ شيءٌ سِوَاهُمَا حَدِيثُ صَدِيقٍ أَوْ عَتِيقُ رَحِيقِ

ومما ينسب إليه يخاطب أباه معاوية عند نهيه إياه عن شرب الخمر قوله: [من الطويل]

أَمِنْ شَرْبَةٍ من ماءِ كَرْمٍ شَرِبْتُهَا غضبْتَ عليَّ الآنَ طابَ لى السُّكْرُ
سأشرَبُ فاغضَبْ لا رَضِيتَ كلاهما حبيبٌ إلى قَلْبِى عُقُوقُكَ والخَمْرُ

---

(١) الماطرون: موضع بالشام قرب دمشق. ينظر المراصد (٣/ ١٢٢١).

(٢) يروى هذا البيت في البداية والنهاية:

نزهة حتى إذا بلغت نزلت من جلق تبعا.

(٣) ينظر البداية والنهاية (٨/ ٢٥٦-٢٥٧) وتاريخ الإسلام للذهبي (٢٧٤-٢٧٥) حوادث سنة ٦١-٨٠هـ.

توفى كما تقدم فى ربيع الأول سنة أربع وستين، وله تسع وثلاثون سنة، وكانت خلافته ثلاث سنين وتسعة أشهر، ودفن بحوَّارين من أرض دمشق بمقبرة باب الصغر، وفيه يقول القائل: [من الرجز]

يـأَيُّـهَـا الـقَـبْـرُ بِـحَـوَّارِيـنَـا ضَمَمْتَ شَرَّ الناسِ أَجْمَعِينَا

ورثاه شاعرهم الأخطل بقوله: [من الطويل]

لَعَمْرِيَ قَدْ دَلَّى إلى اللَّحْدِ خَالدٌ جَنَازَةَ لاَ نِكْسِ الفُؤَادِ ولا غمرِ
مُقِيمٌ بحوَّارِينَ لَيْسَ يَرِيمهَا سَقَتْكَ الغَوَادِي مِنْ ثَرِيٍّ ومن قَبْرِ

قال فى « الإشاعة لأشراط الساعة » فى الباب الأول، وهو فى الأمارات البعيدة التى ظهرت وانقضت، وهى كثيرة، إلى أن قال:

ومنها ملك بنى أمية يزيد ومن بعده، المشتمل على الفتَن العظام؛ كقطع الليل المظلم.

وعن عمران بن الحصين - رضى الله عنه - قال: أبغض الناس إلى رسول الله ﷺ بنو أمية، وثقيف، وبنو حنيفة.

وعن أبى ذر - رضى الله تعالى عنه -: إذا بلغت بنو العاص أربعين رجلاً، اتخذوا عباد الله خولاً، ومال الله دولاً، وكتاب الله دخلاً.

وعن على - رضى الله تعالى عنه - قال: لكل أمة آفة، وآفة هذه الأمة بنو أمية[1].

وعن عمرو بن مرة الجهنى، قال: استأذن الحَكَمُ بن أبى العاص على رسول الله ﷺ، فعرف صوته، فقال: « ائذنوا له حية ولد حية، لعنة الله عليه وعلى كل من يخرج من صلبه، إلا المؤمن منهم، وقليل ما هم ».

قلت: وهذا الاستثناء إشارة إلى عمر بن عبد العزيز، ومعاوية بن يزيد، ويزيد الناقص، والصالحِ منهم.

وعن ابن عمر: هجَّرْتُ الرواح إلى النبى ﷺ، فجاء أبو الحسن - رضى الله عنه - فقال له - عليه الصلاة والسلام -: « ادنُ »، فلم يزل يدنيه حتى التقم أذنه، فبينما هو يسارُّهُ إذ رفع رأسه كالفزع، فإذا قارع يقرع بسيفه الباب، فقال - عليه الصلاة والسلام - لعلى: « اذهب فقده كما تقاد الشاة إلى حالبها »، فإذا على -

---

(١) قال ابن القيم في المنار (ص١١٧): وكل حديث في ذم بني أمية فهو كذب.

كرم الله وجهه - يدخل الحكم بن أبى العاص آخذًا بأذنه، ولها زنمة حتى أوقفه بين يديه - عليه الصلاة والسلام - فلعنه نبى الله ثلاثًا، ثم قال: أجلسه ناحية، حتى راح إليه قوم من المهاجرين والأنصار، ثم دعاه فلعنه، ثم قال: « إن هذا سيخالف كتاب الله وسنة نبيه، وسيخرج من صلبه فتن يبلغ دخانها السماء »، فقال ناس من القوم: هو أقلُّ وأذلُّ من ذلك، فقال ﷺ: « بلى وبعضكم يومئذ شيعته ».

ثم إنه - عليه الصلاة والسلام - نفاه إلى الطائف، ولم يرده أبو بكر ولا عمر، ورده عثمان حين ولى الخلافة، وكان رده أحد الأمور التى نقمت عليه، رضى الله تعالى عنه.

قلت: وقد ذكرت ذلك وجوابه فيما تقدم فى ترجمة عثمان، رضى الله عنه.

ومن الفتن التى وقعت فى زمن يزيد قتل الحسين، ووقعة الحرة، وخراب المدينة بعد الحرة، ورمى الكعبة بالمنجنيق.

ومنها فى زمن بنى مروان قتل ابن الزبير، وهدم الكعبة، بعد رميها بالمنجنيق أيضًا، وتولية الحجاج، وأنه قتل مائة وأربعة وعشرين ألف نفس حرامًا صبرًا، سوى ما قتله فى المحاربات، ووجد فى حبسه ثمانون ألفًا منهم ثلاثون ألف امرأة، وكان حبسه مبلطًا لا سقف له؛ ليتأذوا بالحر والبرد، وكان حبسه من حبسه ظلمًا صرفًا وهوى نفس، حتى إنه وجد فيه من حبس لبولة بالها فى جنب سور واسط البلد التى اختطَّها الحجاج.

ومنها: قتل زيد بن على بن الحسين، وصلبه، وإحراقه بالنار، وقتل ولده يحيى فى زمانهم، وشربهم الخمر، وصلاتهم بالناس سكارى، وتقديم الجوارى فى المحراب للصلاة بالناس، وغير ذلك من أنواع القبائح.

بل نقل العلامة السيوطى فى تاريخه للخلفاء[1]؛ أن الوليد بن يزيد عزم على الحج؛ لأجل أن يشرب الخمر فوق الكعبة، فقتل قبل أن يبلغ مراده.

وعن المسور بن مخرمة قال: قال عمر بن الخطاب لعبد الرحمن بن عوف: ألم يكن فيما تقرءونه: قاتلوا فى الله آخر مرة كما قاتلتم أول مرة قال: متى ذاك ؟ قال: إذا كانت بنو أمية الأمراء، وبنو مخزوم الوزراء. رواه الخطيب البغدادى، فكانت

(١) ينظر تاريخ الخلفاء للسيوطي (ص٢٠١).

دولتهم لمفاسد كثيرة ومظالم لا تعدُّ ولا تحصى. . . إلى أن قال: وأما بنو يزيد وبنو الحكم، فهم ملعونون على لسان النبى ﷺ؛ ولذا قال الإمام أحمد بن حنبل، حين سأله ابنه عن لعن يزيد ؟ فقال الإمام: إن الله تعالى يقول: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ . . .﴾ الآية [محمد: ٢٢، ٢٣] وأى فساد وقطيعة أشد مما فعله يزيد يا بنى.

وفى تاريخ أبى مخرمة المسمى: « قلادة النحر »، عن الشيخ نصر بن مجلى، وكان من الثقات العباد الصالحين، قال: رأيت على بن أبى طالب فى المنام، فقلت: يا أمير المؤمنين، تفتحون مكة، وتقولون: من دخل دار أبى سفيان فهو آمن، ثم يتم على ولدك الحسين ما تم، فقال لى: أما سمعت أبيات ابن صيفى فى هذا ؟ قلت: لا، قال: اسمعها منه، ثم انتبهت فبادرت إلى دار ابن الصيفى، فذكرت له الرؤيا، فشهق وبكى، وحلف بالله إنها لم تخرج من فيه ولا من خطه إلى أحد، وما نظمها إلا فى ليلته، ثم أنشدنى: [من الطويل]

مَلَكْنَا وكَانَ العفوُ منا سجيَّةً ... فلما ملكْتُمْ سَالَ بالدَّمِ أبطَحُ
وَحَلَّلْتُمْ قَتْلَ الأسَارَىٰ وطَالَمَا ... غَدَوْنَا مِنَ الأَسْرَىٰ نَمُنُّ ونَصْفَحُ
وَحَسْبُكُمُ هَذَا التَّفَاوُتُ بَيْنَنَا ... فكُلُّ إِنَاءٍ بالَّذِى فِيهِ يَنْضَحُ

قلت: اسم ابن الصيفى: سعيد بن محمد أبو الفوارس التميمى، شاعر مشهور، وهو الملقب بحيص بيص، توفى سنة أربع وسبعين وخمسمائةفى القرن السادس.

قال العلامة الدميرى فى « حياة الحيوان »[1]: سئل الإمام أبو الحسن عماد الدين على بن محمد الملقب بالكيا الهراسى من رءوس معيدى إمام الحرمين، عن يزيد بن معاوية. هل هو من الصحابة، وهل يجوز لعنه أم لا ؟ فأجاب: إنه لم يكن من الصحابة؛ لأنه ولد فى زمن عثمان، وأما جواز لعنه: ففيه لكل واحد من الإمام أبى حنيفة ومالك وأحمد قولان: تصريحٌ وتلويحٌ، ولنا قول واحد: التصريح دون التلويح، وكيف لا يكون ذلك، وهو المتصيد بالفهد، واللاعب بالنرد، والمدمن على الخمر. وكتب فصلاً طويلاً أضربنا عن ذكره.

ثم قال: ولو مددت ببياض، لأطلقت العنان، وبسطت الكلام فى مخازى هذا الرجل.

---

(١) ينظر حياة الحيوان للدميرى (٢/ ٢٦٦).

هذا وأما الغزالى فقد أفتى فى هذه المسألة بخلاف ما أفتى به الكيّا، وبسط الكلام فى ذلك.

قال العلامة محمد بن مصطفى كاتى فى تاريخه المسمى: « بغية الخاطر، ونزهة الناظر »: كان ليزيد بن معاوية قرد سماه أبا قيس كان يركبه فوق حمار بسرج فى المواكب، وله زى كزى راكبى الخيل من العمامة والكسوة ويجلسه فى مجالس أنسه، وكان لهذا القرد من الفطنة وإدارك الأمور ما لا يدرك، فأركب مرة على حمار وحشيٍّ، ففرت به، فأنشد يزيد يقول: [من الطويل]

تَمَسَّكْ أَبَا قَيْسٍ بفَضْلِ عِنَانِهِ فلَيْسَ عَلَيْهِ إنْ هَلَكْتَ ضَمَانُ

وبويع بعده ابنه معاوية، فمكث ثلاثة أشهر، ثم خطب الناس، وقال: إنى ضعيف عن أمركم، وطلبت لكم مثل عمر بن الخطاب حين استخلفه أبو بكر، فلم أجده، فطلبت ستة مثل أهل الشورى، فلم أجدهم، فأنتم أولى بأمركم؛ اختاروا له، ودخل منزله، فمات يقال: مسمومًا، وصلى عليه الوليد بن عتبة بن أبى سفيان، وهلك ليومه بالطاعون. وقيل: إن معاوية بن يزيد أوصى الضحاك بن قيس أن يصلى بالناس حتى تجمع الناس على إمام.

قال العلامة ابن السبكى: إن معاوية بن يزيد بن معاوية لما خلع نفسه، صعد المنبر، فجلس طويلاً، ثم حمد الله وأثنى عليه، بأبلغ ما يكون من الحمد والثناء، ثم ذكر النبى ﷺ بأحسن ما يذكر به، ثم قال: أيها الناس، ما أنا بالراغب فى الائتمار عليكم لعظيم ما أكرهه منكم، وإنى أعلم أنكم تكرهونا - أيضًا - لأنا بلينا بكم وبليتم بنا، إلا أن جدى معاوية نازع هذا الأمر من كان أولى به منه ومن غيره، لقرابته من رسول الله ﷺ، وعظيم فضله وسابقيته، أعظم المهاجرين قدرًا، وأشجعهم قلبًا، وأكثرهم علمًا، وأولهم إيمانًا، وأشرفهم منزلة، وأقدمهم صحبة، ابن عم رسول الله ﷺ، وصهره، وأخوه، زوجه ابنته - رضى الله تعالى عنها - وجعله لها بعلاً، باختياره لها، وجعلها له زوجة باختيارها له، أبو سبطيه سيدَيْ شباب أهل الجنة، وأفضل هذه الأمة، تربية الرسول، وابنا فاطمة البتول - رضى الله تعالى عنها - حتى انتظمت لجدى معاوية الأمور، فلما جاءه القدر المحتوم، واخترمته أيدى المنون، بقى مرتهنًا بعمله، فريدًا فى قبره، ووجد ما قدمت يداه،

فرأى ما ارتكبه واعتداه.

ثم انتقلت الخلافة فى أبى يزيد، فتقلد أمركم لهوى كان أبوه هويه فيه، ولقد كان أبى يزيد بسوء فعله وإسرافه على نفسه غَيْرَ خليق بالخلافة على أمة محمد ﷺ، فركب هواه، واستحسن خطاه، وأقدم على ما قدم من جرأته على الله تعالى، وبغيه على من استحل حرمته من أولاد رسول الله ﷺ، فقلَّتْ مدته، وانقطع أثره، وضاجع عمله، وصار حليف حفرته، رهين خطيئته، وبقيت أوزاره وتبعاته، فهل عوقب بإساءته وجوزى بعمله ؟! وذلك ظنى. ثم اختنقته العبرة، فبكى طويلاً، وعلا نحيبه، وحمد الله، ثم قال: وصرت أنا ثالث القوم، والساخطُ عليَّ أكثر من الراضى، وما كنت لأتحمل آثامكم، ولا يرانى الله جلت قدرته متقلدًا أوزاركم، وألقاه بتبعاتكم، فشأنكم وأمركم، فخذوه، ومن رضيتم به عليكم فولوه، فلقد خلعت بيعتى من أعناقكم، والسلام.

فقال له مروان بن الحكم، وكان تحت المنبر: أسنة عمريَّةٌ يا أبا ليلى ؟ فقال: اغدُ عنى، أعن دينى تخدعونى، فوالله ما ذقت حلاوة خلافتكم، فأتجرع مرارتها، ائتنى برجال مثل رجال عمر، على أنه كان حين جعلها شورى وصرفها عمن لا يشك فى عدالته ظلومًا. والله، لئن كانت الخلافة مغنمًا، لقد نال أبى معها مغرمًا ومأثمًا، ولئن كانت شرًّا، فحسبه منها ما أصابه.

ثم نزل، فدخل عليه أقاربه وأمه، فوجدوه يبكى، فقالت له أمه: ليتك كنت حيضة، ولم أسمع بخبرك، فقال: وددت والله ذلك، ثم قال: ويلى إن لم يرحمنى ربى.

ثم إن بنى أمية قالوا لمؤدبه القصوص: أنت علمته هذا، ولقنته إياه، وصددته عن الخلافة، وزينت له حب على وأولاده - رضى الله تعالى عنهم - وحملته على ما وَسَمَنَا به من الظلم، وحسنت له البدع حتى نطق بما نطق، وقال ما قال !! فقال: والله ما فعلته، ولكنه مجبولٌ ومطبوعٌ على حب على وأولاده - رضى الله عنهم - فلم يقبلوا منه ذلك، وأخذوه ودفنوه حيًا حتى مات، رحمه الله.

وتوفى معاوية - رضى الله تعالى عنه - بعد خلعه نفسه بأربعين ليلة - رحمه الله تعالى - وهو المسمى: معاوية الأصغر، وقيل بعد الخلع بتسعين ليلة، وكان عمره ثلاثًا

وعشرين سنة، وقيل: إحدى وعشرين، وقيل: ثمان عشرة، ويقال: إنه لما احتضر، قيل له: ألا تستخلف ؟! فأبى، وقال: ما أصبت من حلاوتها، فلمَ أتحمل مرارتها.

ولم يعقب، رحمة الله عليه ورضوانه(١).

إظهار ابن الزبير للبيعة(٢)

ولما هلك يزيد، بلغ الخبر إلى عبد الله بن الزبير بمكة قبل أن يعلم الحصين بن نمير ومن معه، وكان حصارهم قد اشتد، فناداهم ابن الزبير وأهل مكة: علام تقاتلون، وقد هلك صاحبكم ؟! فلم يصدقوه. فلما بلغ الخبر الحصين، بعث إلى ابن الزبير، وواعده الأبطح ليلاً، فالتقيا، فقال له الحصين: هلم نبايعك، فأنتَ أحقُّ، وهذا الجند الذى معى هم وجوهُ أهْلِ الشام وفرسانُهُمْ، واخرج معنا، فلا يختلف عليك اثنان على أن تؤمن الناس وتهدر لهم ما أصابوا من الدماء، فأبى من إهدارها، وكان الحصين يكلِّمه سرًّا، وهو يجهر، ويقول: والله لا أفعل، فقال الحصين: قَبَّحَ الله من يَعُدُّكَ بعدها داهية، ثم ارتحل إلى المدينة، وراجع ابن الزبير رأيه، فأرسل إليه: لا أسير إلى الشام، ولكن بايعوا لى هناك وأنا مؤمنكم، فقال الحصين: لا يتمُّ إلا بحضورك، فهناك بنو أمية يطلبون الأمر، ومَرَّ الحصين بالمدينة، فكانوا يتخوفون عسكره، وهم حذرون منهم إلى أن بعدوا. ثم وصلوا دمشق.

انتقاض أمر ابن زياد ورجوعه إلى الشام

لما جاء الخبر إلى ابن زياد بالبصرة بمهلك يزيد بن معاوية، ثم معاوية ابنه، واختلاف الناس بالشام، جمع الناس، فخطب ونعى يزيد وثلبه، فنهاه الأحنف، ثم

---

(١) ينظر تاريخ خليفة (٢٥٥) تاريخ الطبري (٥/ ٤٩٩-٥٠٣) سير أعلام النبلاء (٤/ ١٣٩) البداية والنهاية (٨/ ٢٦٠-٢٦٢) تاريخ الخلفاء (ص١٦٨).

(٢) ينظر: البدء والتاريخ ١٨/٦، مجالس ثعلب ٨/ ٣٢، نهاية الأرب ٢١/ ٨٠، مرآة الجنان ١/ ١٤٨، شذرات الذهب ١/ ٤٢، العقد الثمين ١٤١/٥، خلاصة تهذيب التهذيب ١٩٧، فوات الوفيات ٢/ ١٧١، تاريخ الخلفاء ٢١١، تقريب التهذيب ١/ ٤١٥، البداية والنهاية ٨/ ٣٣٢، الوافى بالوفيات ١٧/ ١٧٢، تهذيب الكمال ٥٠٨/١٤، وفيات الأعيان ٣/ ٧١، سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٦٣، حلية الأولياء ١/ ٣٢٩، غاية النهاية ١/ ٤١٩، الإصابة ٢/ ٣٠٩، أسد الغابة ٣/ ١٦١، المعرفة والتاريخ ٣/ ٦٣٥ .

تلطف لأهل البصرة، وقرر وسائله إليهم بالمهاجرة والمولد وحسن الآثار فى الجباية والعسكر وإصلاح السابلة وكف الأذى، وأعلمهم باختلاف الناس بالشام بعد يزيد، وقال: أنتم أعز الناس وأغناهم عن الناس وأوسعهم بلادًا، فاختاروا من تولون، وأنا أول راض به، فقال أهل البصرة: هلمَّ فلنبايعك، فأبى، ثم ألحوا عليه ثلاثًا، فأجاب وبايعوه، ثم انصرفوا، وتناجوا ومسحوا أيديهم بالحيطان، وقالوا: يظن ابن مرجانة أن ننقاد له فى الجماعة والفرقة. ولما بايعوه، أرسل إلى أهل الكوفة يعلمهم ببيعة أهل البصرة ويدعوهم إليها، وكان خليفته على الكوفة عمرو بن حريث، فجمع الناس وذكر لهم رسوله ذلك، فقام يزيد بن الحارث بن رويم الشيبانى، فقال: الحمد لله الذى أراحنا من ابن سميَّة لا نبايعه وحَصَبَهُ، ثم تبعه الناس وحصبوه، ورجع بالخبر إلى ابن زياد، فبدا لأهل البصرة فى بيعته وضعف سلطانه، وأقام لاتنفذ أوامره، ويحال بين أعوانه وبين الخصوم إذا سحبوهم، ثم جاء إلى البصرة سلمة بن ذؤيب التميمى الحضرمى، فنصب لواء فى السوق، ودعا لابن الزبير، فبايعه ناس، وأتى الخبر ابن زياد، فجمع الناس، فقال: بلغنى أنكم مسحتم أيديكم بالحيطان، وقلتم ما قلتم، وأنا الآن ترد أوامرى، ويحال بين أعوانى وبين طلبى، هذا سلمة بن ذؤيب يدعوكم إلى الخلاف فيجيبه منكم مجيبون.

فقال الأحنف: والله، نحن نأتيك بسلمة، فخرجوا ليأتوا به، فإذا جمعه قد كثف والخرق قد اتسع، فبعدوا عن ابن زياد، ولم يرجعوا إليه، فدعا مقاتلة السلطان ليقاتلوا معه، فقالوا: إن أذن قوادنا فى ذلك، وقال إخوته وأصحابه: ليس لنا خليفة نقاتل عنه، وإن كانت علينا هلكنا، وهلكت أموالنا، فعند ذلك أرسل إلى الحارث ابن قيس من بنى جهضم ابن خزيمة بن مالك بن فهم من الأزد، وقال: إن أبى أوصانى بك إن أصابنى الدهر بشىء. فعدَّد عليه قلة المكافأة منه ومن أبيه، وأقام عنده إلى الليل، ثم أردفه خلفه وخرج به. وفرق ابن زياد على مواليه الكثير مما كان فى بيت المال وهو تسعة عشر ألف ألف مرتين. وسير به الحارث والناس يتحارسون خوفًا من الحرورية، ويمر بالناس فيسألونه، فيقول: أنا الحارث بن قيس، إلى أن أنزله بداره فى الجهاضم، فأثنى عليه ابن زياد، وقال: اذهب بنا إلى مسعود بن عمرو؛ فقد علمت شرفه فى الأزد وطاعتهم له؛ فأكون فى داره وإلا فرّق عليك أمر

قومك، فجاء إلى مسعود، فتطير من ابن زياد، ومازال الحارث يلاطفه حتى سكن، وقال له: أفتخرجه من بيتك بعد ما دخله؟! فجعله فى بيت أخيه عبد الغافر بن عمرو، ثم ركب هو والحارث وجماعة من قومه، وطافوا فى الأزد، وقالوا لهم: ابن زياد فُقِدَ ولا نأمن أن يتهمونا به، فأصبحوا بالسلاح.

وقيل: إن الحارث لم يلق مسعود بن عمرو، وإنما جاء بعبيد الله ومعه مائة ألف، وأتى بها امرأة مسعود، فطلب منها الجوار لابن زياد بأن تلبسه ثياب مسعود، فلما جاء مسعود تلطَّفوا به حتى رضى، وأصبح الناس فى البصرة بغير أمير، ثم رفعوا رأيهم إلى قيس بن الهيثم السلمى، وكان أمويًا، وإلى النعمان بن سفيان الراسبى، وكان هاشميًا يؤمران عليهم من يختارانه، فقدم النعمان عليهم عبد الله بن الحارث ابن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، ويلقب بَبَّهُ، فرضيه الناس وبايعوه، وأنزلوه بدار الإمارة فى جمادى الآخرة سنة أربع وستين.

ثم أنفق ابن زياد أموالاً فى جمع ربيعة والأزد، واتفقوا على أن يرد ابن زياد إلى إمارته، وركبوا لذلك، ورئيسهم مسعود بن عمرو، ورئيس ربيعة مالك بن مسمع، وتركوا ابن زياد فى حيهم، وبعث مواليه معهم، وجاء مسعود فدخل المسجد وصعد المنبر، وأخبر الأمير عبد الله بن الحارث بذلك، وقيل له: اركب فى بنى تميم، وأصلح بين الناس، فأبى.

وجاء بنو تميم إلى الأحنف ليركبوه فتعلل ولم يركب، ثم أركب عباد بن حصين فى بنى عمرو بنى تميم، وعيسى بن طلق بن سعيد بن زيد مناة، ومسعود يخطب فاستنزلوه وقتلوه، ثم قتلوا مالك بن مسمع ببيته، وهرب عبيد الله بن زياد فلحق بالشام، ولزم عبد الله بن الحارث بيته.

وكتب أهل البصرة إلى ابن الزبير، فكتب إلى أنس بن مالك يصلى بالناس حتى بعث عمر بن عبيد الله بن معمر بعد ثلاثة أشهر، فحبس عبد الله بن الحارث، فأقام عمرو فى ولايتها شهرًا، ثم جاءه الحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة المخزومى من قبل ابن الزبير، ويلقب القباع، وفى أيامه سار نافع بن الأزرق من البصرة إلى الأهواز.

وأما الكوفة، فلما طرد يزيد بن الحارث بن رويم رسول ابن زياد، اجتمع أهل

الكوفة على عمر بن سعد بن أبى وقاص، ثم عزلوه، واجتمعوا على عامر بن مسعود ابن أمية بن خلف بن حذافة الجمحى، وكتبوا بذلك إلى ابن الزبير، فأقره وأقام عاملاً على الكوفة. وبلغه انتقاض أهل الرى؛ فبعث محمد بن عمير بن عطارد التميمى، فهزمه أهل الرى، فبعث إليهم عتاب بن ورقاء التميمى، فهزمهم، وقتل أميرهم الصرحان، ثم قدم الكوفة من قبل ابن الزبير عبد الله بن زيد الخطمى على الصلاة، وإبراهيم بن طلحة على الخراج، واستعمل محمد بن الأشعث بن قيس على الموصل، فاجتمع لابن الزبير أهل البصرة وأهل الكوفة ومَنْ بالقبلة من العرب، وأهل الجزيرة وأهل الشام إلا أهل الأردن.

بيعة مروان[1]، ووقعة مرج راهط[2]

ولما بويع ابن الزبير بمكة بيعته الظاهرة، ولى على مصر عبد الرحمن بن جحدر الفهرى، وعلى المدينة عبيد الله بن الزبير، وأخرج بنى أمية فلحقوا بالشام، وفيهم مروان بن الحكم، وأقام هناك، فمر به الحصين بن نمير مرجعه من مكة بعد موت يزيد، فأخبره بما دار بينه وبين ابن الزبير، وحرض بنى أمية على طلب الأمر، وكان رأى مروان أن يسير إلى ابن الزبير فيبايع له بالخلافة، فقدم ابن زياد من العراق حين انتقضوا عليه، وأخرجوه، فسفه رأى مروان فى ذلك، وحثه على طلب الأمر لنفسه، فقام لذلك وسار إلى دمشق، والضحاك بن قيس يومئذ قد بايعه أهلها على الصلاة بهم، حتى يجتمع الناس على إمام، وهو مع ابن الزبير، وهو يدعو له فى السر، وزفر بن الحارث الكلابى بِقِنِسرينَ على مثل رأيه، والنعمان بن بشير بحمص

(١) ينظر: تاريخ الطبري (٥/ ٥٣٠) وما بعدها، و(٦١٠)، ومروج الذهب (٣/ ٢٨٥)، والكامل (٤/ ١٩١)، الحلة السيراء (١/ ٢٨)، البداية والنهاية (٨/ ٢٣٩، ٢٥٧)، النجوم الزاهرة (١/ ١٦٤، ١٦٩) سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٧٦) طبقات ابن سعد (٥/ ٣٥)، نسب قريش (١٥٩، ١٦٠)، طبقات خليفة (ت١٩٨٤)، المحبر (٢٢، ٥٥، ٥٨، ٢٢٨، ٣٧٧)، التاريخ الكبير (٧/ ٣٦٨) الجرح والتعديل (٨/ ٢٧١) جمهرة أنساب العرب (٨٧)، الاستيعاب (١٣٨٧) الجمع بين رجال الصحيحين (٢/ ٥٠١)، أسد الغابة (٥/ ١٤٤)، تهذيب الكمال (١٣١٥).

(٢) موقعة مرج راهط، ينظر تاريخ الطبرى (٥/ ٥٣٥-٥٤٤) تاريخ خليفة (ص١٩٩-٢٠٠) مروج الذهب (٣/ ٩٥-٩٧) وتاريخ الإسلام حوادث سنة أربع وستين والبداية والنهاية (٨/ ٢٦٥-٢٦٧).

كذلك، وكان بفلسطين حسان بن مالك بن بحدل الكلبى عامل معاوية، وابنه وهواه فى بنى أمية، فسار إلى الأردن واستخلف على فلسطين رَوْح بن زنباع، فأخرجه نائل ابن قيس وبايع لابن الزبير، وبايع أهل الأردن حسان بن مالك على أن يجنبهم بيعة خالد، وعبد الله ابنى يزيد لصغرهما، وكتب حسان إلى الضحاك يعظم حق بنى أمية، ويذم ابن الزبير بالفتنة، وخلع الأئمة، وكتب مع الرسول نسخة كتابه، وقال: إن لم يقرأ الضحاك على الناس؛ وإلا فاقرأ أنت هذا عليهم، فلما دفع الكتاب إلى الضحاك، حبسه وصعد المنبر، فلم يقرأه، فقرأ الرسول نسخته على الناس، فاضطربوا بين مصدق لحسان ومكذب، وتشاتموا ثم سكتوا، وقضى الضحاك صلاة الجمعة ودخل القصر، ثم خرج إلى المسجد واختلف قبائل قيس وكلب، قيس تدعو لابن الزبير ونصرة الضحاك، وكلب تدعو إلى بنى أمية وهم أخوال عبد الله وخالد ابنى يزيد، فاقتتلوا ثم افترقوا من يومهم.

وبعث الضحاك إلى بنى أمية يعتذر إليهم، ويواعدهم الاجتماع بحسان بن بحدل بالجابية، وكتبوا إليه جميعًا بذلك، وساروا نحو الجابية، ثم ثناه ثور بن معن السلمى عن رأيه فى ذلك خشية أن يميل حسان إلى ابن أختهم خالد بن يزيد، وأشار إليه بالدعاء لابن الزبير، فخرج الضحاك ونزل بمَرْج راهط، واجتمع بنو أمية وحسان بالجابية، وأقام يصلّى بهم أربعين يومًا، وهم يشتورون، وأشار مالك بن هبيرة السكونى على الحصين بن نمير ببيعة خالد؛ لأن أباه يزيد ابن أختهم، فأبى حصين، وقال: تأتينا العرب بشيخ، ونأتيها بصبى؟! فقال مالك: والله لئن ولى مروان، لتكونُنَّ عَبِيدًا له ولقومه؛ فإنه أبو عشرة، وأخو عشرة، وعم عشرة، ثم قام رَوْح بن زنباع، فخطب الناس، وذكر فضل ابن عمر وسابقيته وأشار إلى ضعفه، ثم ذكر ابن الزبير، وأثنى عليه بأبيه وأمه، ثم ذكر دخوله فى الفتنة وسفك الدماء وشق العصا وخلع الأئمة، ومثل هذا لايكون إمامًا، فعليكم بمروان بن الحكم؛ فلا يكون صدعٌ إلا شعبه، ولا تعدلوا عن الكبير إلى الصغير.

ثم اجتمع رأيهم على البيعة لمروان، ثم لخالد بن يزيد، ثم لعمرو بن سعيد بن العاص، على أن إمرة دمشق لعمرو، وإمرة حمص لخالد، وقال حسان لخالد: إن الناس أبوك لصغرك، وما أريد إلا أهل بيتك لكن فعلته؛ نظرًا لكم.

ثم بايعوا مروان أول ذى القعدة سنة أربع وستين، وسار الناس من الجابية إلى الضحاك، وقد بعث النعمان بن بشير بحمص، فأمده بشرحبيل بن ذى الكلاع، وأمده زفر بن الحارث بأهل قنسرين، وقاتل ابن قيس بأهل فلسطين، فاجتمع على مروان كلب وغسان والسكاسك والسكون، وجعل على ميمنته: عمرو بن سعيد، وعلى ميسرته: عبيد الله بن زياد، وثار على الضحاك بدمشق يزيد بن أبى النمس الغسانى، وكان مختفيًا بها، فأخرج عنها عامله، وبايع لمروان، وأمده بالأموال والرجال والسلاح، واقتتل مروان والضحاك بمرج راهط عشرين ليلة وانهزم الضحاك، وقتله دحية بن عبد الله الكلبى، وقتل معه فى المعركة ثمانون من أشراف أهل الشام، واستحكمت قيس بالقتل، وكانت الوقعة آخر سنة أربع وستين، وقيل فى المحرم من سنة خمس، وأتى مروان برأس الضحاك فساءه، وبلغ خبر الهزيمة إلى النعمان بن بشير بحمص مع الفَلِّ؛ فخرج هاربًا بأهله وبنيه. فخرج فى طلبه عمرو بن الخلى الكلاعى، فقتله وجاء برأسه، وهرب زفر بن الحارث من قنسرين، فلحق بقرقيسياء، وعليها عياض الجرشى كان يزيد ولاه فخدعه وغلبه عليها وتحصَّن بها، واجتمعت إليه قيس، وهرب نائل بن قيس الجذامى عن فلسطين، ولحق بابن الزبير بمكة، واستعمل مروان بعده على فلسطين رَوْح بن زنباع، واستوسق[1] الشام لمروان، وتزوَّج أم خالد بن يزيد.

وقيل: إن عبيد الله بن زياد جاء لبنى أمية بتدمر، ومروان مجمع على المسير لابن الزبير، فثناه عن ذلك، وأخذ له البيعة على بنى أمية، وأهل تَدمُر، وساروا إلى الضحاك وهزموه.

فلما ملك مروان الشام، سار إلى مصر، وعليها عبد الرحمن بن جحدر الفهرى يدعو لابن الزبير، فخرج للقائه وبعث مروان عمرو بن سعيد. فخالف عبد الرحمن إلى مصر، فرجع وانتقض أمره، وبايع الناس مروان، وملك مصر ورجع إلى دمشق، فبلغه أن مصعب بن الزبير أقبل فى الجيوش، فبعث إليه عمرو بن سعيد، وحال بينه وبين الشام، وانهزم مصعب ورجع مروان إلى دمشق، فاستقر بها، وبعث عبيد الله بن زياد إلى الجزيرة، وإذا فرغ منها، سار إلى العراق، وبعث حُبَيش بن

---

(١) استوسق له الأمر: أى أمكنه. ينظر الوسيط (وسق).

دلجة القَينى إلى المدينة وعليها جابر بن الأسود بن عوف لعبد الله بن الزبير، فهرب منه جابر، وبعث الحارث بن أبى ربيعة جيشًا من البصرة للقاء حبيش، فسار إليهم.

وبعث عبد الله بن الزبير عباس بن سهل بن سعد أميرًا على المدينة ويسير فى طلب حبيش حتى يوافى عسكر البصرة فيلحقهم بالربوة، وقتل حبيش واعتصم من عسكره بالمدينة خمسمائة فارس، فقتلهم عباس، وكان مع حبيش الحجاج وأبوه يوسف بن الحكم على جمل واحد، وكان عمرو بن سعيد لما رجع من قتال مصعب بفلسطين، أنهَىٰ عنه إلى مروان أنه يقول: الأمر إلىَّ من بعده، فشكا ذلك إلى حسان ابن بحدل، فقام فى الناس وقال: بلغنا أن رجالاً يتمنَّونَ أمانى، قوموا فبايعوا لعبد الملك وعبد العزيز، فبايعوا من عند آخرهم، وولى ابن الزبير أخاه عبيد الله على المدينة، ثم عزله وولى مصعبًا.

مفارقة الخوارج لابن الزبير

كان الخوارج عند استبداد ابن زياد عليهم بالكوفة ومسير العساكر من الشام إلى ابن الزبير، قال لهم نافع بن الأزرق منهم: سيروا بنا إلى ابن الزبير نجاهد معه إن كان على رأينا، وإلا ندافع عن البيت، فجاءوا إليه وقاتلوا معه أهل الشام، ثم أرادوا اختبار رأيه فيهم فسألوه، وقال: ائتونى من الغداة، وجمع أصحابه بالسلاح، فلما جاءوا من الغد ونظر إليهم، فقال لهم ابن الأزرق: إن الرجل مزمع خلافكم، ثم قال عبيدة بن هلال من الخوارج: إن الله بعث محمدًا ﷺ يدعو إلى الدين، فأجابه المسلمون، وعمل فيهم بكتاب الله حتى قبضه الله، واستخلف أبو بكر وعمر، فعملا بالكتاب والسنة، ثم استخلف عثمان، فحمى الحمى، وآثر القربَىٰ، ورفع الدرَّةَ، ووضع السوط، ومزق الكتاب، وضرب منكرى الجور، وآوى طريد الرسول، وضرب السابقين بالفضل، وحَرَمَهُمْ، وأخذ فىء الله الذى أفاء عليهم فقسمه فى فُسَّاق قريش ومُجَّان العرب، فسارت إليه طائفة فقتلوه، فنحن أولياؤهم، ومن ابن عفان وأوليائه بريئون، فما تقول أنت؟ فقال ابن الزبير: أما الذى ذكرتم به النبى ﷺ فهو فوقه، وأما ما ذكرتم به أبا بكر وعمر فقد وُفِّقتم وأصبتم، وأما الذى ذكرتم به عثمان، فلا أعلم أن أحدًا من خلق الله اليوم أعلم بعثمان وأمره مِنِّى: نقموا عليه واستعتبوه فلم يدع شيئًا إلا أعتبهم، ثم جاءوه بكتاب له يأمر بقتلهم يزعمون أنه

كتبه، فقال ماكتبته، وإن لم تكن بينة، حلفت لكم، فوالله ماجاءوا ببينة، ولا استحلفوه، ووثبوا عليه فقتلوه.

وأما ما عبتموه به، فليس كذلك، وأنا أشهدكم ومن حضر أنى ولئ عثمان بن عفان، وعدوٌّ أعدائه، قالوا: فبرىء الله منك، وتفرقوا.

فأقبل نافع بن الأزرق، وعبد الله بن صفار، وعبد الله بن إباض، وحنظلة بن نهيس، وبنو الماحوز عبد الله وعبيد الله والزبير، وكلهم من تميم حتى أتوا البصرة، وانطلق أبو طالوت من بكر بن وائل، وأبو فديك من قيس بن ثعلبة، وعطية بن الأسود من يشكر، فوثبوا مع أبى طالوت، ثم تركوه واجتمعوا على نجدة ابن عامر الحنفى، وكان من خبرهم ما يذكر عند ذكر الخوارج[1].

خروج سليمان بن صُرَدَ فى التوابين من الشيعة[2]

لما قتل الحسين، ورجع ابن زياد إلى الكوفة، تلاوم الشيعة على ما أضاعوه من أمر الحسين، وأنهم ودعوه ولم ينصروه، فندموا، وقالوا: لا كفارة لذلك إلا قتل قاتليه أو الموت دون ذلك؛ كما قال الله لبنى إسرائيل: ﴿ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [البقرة: ٥٤]. واجتمعوا إلى خمسة نفر من رءوسهم سليمان بن صُرَد الخزاعى، وكانت له صحبة، والمسيب بن نجبة الفزارى، وعبد الله بن سعد بن نفيل الأزدى، وعبد الله بن وال التيمى من تيم بكر، ورفاعة بن شداد البجلى، وكانوا من خيار أصحاب على، واجتمعوا فى منزل سليمان بن صرد، وتفاوضوا فى تلك الندامة، واعترفوا بذنبهم، واتفقوا على البيعة لسليمان بن صرد وطاعته، وأخرجوا من أموالهم النفقة على ذى الخلة من أشياعهم، وجعلوا قبض ذلك ونفقته لعبد الله ابن وال، وكتب سليمان إلى سعد بن حذيفة، وهو بالمدائن بما اعتزموا عليه، فقرأ الكتاب سعد على من هناك من الشيعة، وأجابوا بالموافقة والخروج عند الأجل الذى ضرب لهم، وكانوا يدعون إلى ذلك فى السر منذ مقتل الحسين، والناس يجيبونهم نفرًا بعد نفر.

ولما هلك يزيد، دعا بعضهم إلى الوثوب على عمرو بن حريث خليفة ابن زياد

---

(١) ينظر تاريخ الإسلام حوادث سنة أربع وستين.
(٢) ينظر البداية والنهاية (٨/ ٢٧١-٢٧٣).

على الكوفة، ثم رأوا أن الأمر لايستتبُّ لهم بذلك؛ لأن قتلة الحسين هم جماعة الكوفة، فأقصروا عن ذلك، ووثب الدعاة فى النواحى، واستجاب لهم الناس، ثم أخرج أهل الكوفة عمرو بن حريث، وبايعوا لابن الزبير، وقدم عبد الله بن يزيد الخطمى أميرًا على الكوفة من قبله فى رمضان سنة ثلاث وستين، ومعه إبراهيم بن محمد بن طلحة على الخراج، والمختار بن أبى عبيد الثقفى، وبلغ إلى عبد الله بن يزيد الخطمى خبر سليمان وأصحابه التوابين، وأشير عليه بحبسهم، وخُوِّف عاقبة أمرهم، فقال: نحن تاركوهم ما تركونا، وهم يطلبون قتلة الحسين ولسنا منهم، ثم خطب بمثل ذلك، وقال: والله ماقتلنا حسينًا، ولقد أُصِبْنَا بمقتله، وهؤلاء القوم الذين رفع إلينا أمرهم آمنون، فيسيرون إلى قاتلى الحسين، وهو ابن زياد فها هو على جسر مَنْبج، وهو سائر إليكم، فسيروا إليه، وأنا ظهر لكم عليه، ولايقتل بعضكم بعضًا.

فقام إبراهيم بن محمد بن طلحة فقال: يأيها الناس، لاتغرنكم مقالة هذا المداهن، والله من خرج علينا لنقتلنه، ومن علمنا بخروجه، لنأخذن القريب بالقريب، والولى بالولى، والعريف بعرافته حتى يستقيم، فوثب عليه ابن نجبة وعبد الله بن وال وأساءوا إليه، ثم تشاتموا، وأنزل الأمير عن المنبر وخرج أصحاب سليمان يشترون السلاح ويتجهزون، والمختار يسفِّهُ رأيهم فى ذلك ويرى أنه أبصر منهم.

وكان سبب قدوم المختار الكوفة أن الشيعة كانت تسبُّ المختار بما كان منه من أمر الحسين وإشارته على عمه بالمدائن أن يقبض عليه لمعاوية، ولما جاء مسلم بن عقيل إلى الكوفة، نزل داره وبايعه ودعا، ثم جاء يوم خروجه من قريته بظاهر المدينة الكوفة، ففاته أمر ابن عقيل، ووقع فى يد ابن حريث فأمنه، ثم رفع عمارة بن الوليد أمره إلى عبيد الله، فاعتذر بأنه كان مع ابن حريث، وشهد له فضرب عبيد الله وجهه بقضيب شتر عينه وحبسه، حتى قتل الحسين فبعث إلى عبد الله بن عمر؛ أن يشفع فيه إلى ابن زياد، وكان زوج أخته صفية بنت أبى عبيد، فشفعه على ألاَّ يقيم بالكوفة، فخرج إلى الحجاز، وسأل فى طريقه عن ابن الزبير؟ فقيل: إنه عائذ بالبيت ومبايع سرًا، ولو كثر جمعه لظهر، فقال: هذه فتنة، واعتزم المختار على الطلب بدم الحسين من يومئذ.

وقدم إلى ابن الزبير، وأخبره خبر العراق، ودعاه إلى البيعة، فكتم أمره عنه، ففارقه وغاب بالطائف سنة، ثم رجع إلى مكة، ولم يأت ابنَ الزبير، وكان قد ظهر أمره، فدس عليه ابن الزبير عباس بن سهل بن سعد فلقيه وعذله عن تأخره عن ابن الزبير، فقال: كتم عنى وأرانى الاستغناء، فاستغنيت عنه، فحمله على لقائه معه، وحضر عند ابن الزبير ليلاً وقال: أبايعك على ألا تقضى أمرًا دونى، وأكون أول داخل، وتولينى أفضل عملك، فقال ابن الزبير: أبايعك على كتاب الله وسنة رسوله، فقال: لا، فبايعه ابن الزبير على ما أحب، وشهد معه قتال الحصين بن نمير، وأبلى فيه.

فلما هلك يزيد، وأطاع أهل العراق ابن الزبير، فإذا هو لا يستعمله، وبلغه الخبر عن الشيعة بالكوفة، ففارق ابن الزبير إليهم، وقدم الكوفة، ونزل فى داره، واختلفت إليه الشيعة، وجاءه رءوس الناس من كندة وبنى هند، وأخبروه بخبر سليمان بن صرد وأصحابه، وأنهم على المسير، فقال: إن ابن الزبير بعثنى إليكم وأمرنى بقتال الملحدين والطلب بدم أهل البيت، والدفع عن الضعفاء فبايعوه، وبعث إلى الشيعة الذين عند سليمان بن صرد بمثل ذلك ودعاهم إلى طاعته واستمالهم عن سليمان، فمال إليه طائفة منهم، وخرج سليمان نحو الجزيرة لشأنه، وجاء الناس إلى الأمير عبد الله يزيد الخطمى، وصاحبه ابراهيم بن محمد بن طلحة، منهم: شبيب بن ربعى، ويزيد بن الحارث بن رويم، فقالوا لهما: إن المختار يريد أن يثب عليكم وهو أشد من سليمان وجاءوا به، فقال عبد الله: ما كنت لآخذ أحدًا على الظنة، وتولى إبراهيم أمره وحبسه، وقيل: إنما جاء المختار إلى الكوفة بأمر ابن الزبير، وإنه قال له: ابعثنى أستخرج لك جندًا من شيعة على تقاتل بهم أهل الشام، فبعثه حتى إذا اجتمع إليه الناس، وثب على ابن مطيع عامل ابن الزبير بالكوفة، وكتب إليه: إن ابن مطيع داهن، وراسل عبد الملك؛ فأخرجْتُهُ.

وأما سليمان بن صُرَدَ فخرج فى ربيع سنة خمس وستين، ونزل النخيلة، ثم استقبل عدد الناس، وأرسل من نادى فى الكوفة بثأر الحسين، فجاء بعض وتثاقل بعض، والمختار يثبطهم، وأقام بالنخيلة ثلاثًا، ثم سار فى أربعة آلاف ونادى فيهم: من أراد الدنيا ومتاعها فى الفئ والغنيمة فليرجع، وليس معنا إلا سيوفنا وزاد النقلة،

فوافقوه، ثم أشار بعضهم بالرجوع إلى الكوفة ومناجزة قتلة الحسين، فأكثرهم هنالك، فقال سليمان: إنما قتله الذى عَبَّأ الجنود إليه، ومنعه الأمان حتى يستسلم، وهو ابن زياد، ومن بعده أهون منه.

ولحقه أمير الكوفة عبد الله بن يزيد وإبراهيم بن محمد، فعذلاه فى المسير، وأشارا عليه بالرجوع حتى نتجهز جميعًا لهذا العدو، فنلقاه بجمع كثيف، وقد كان بلغهم إقبال عبيد الله بن زياد من الشام فى الجنود، فلم يوافقهما سليمان ولا أصحابه، وساروا لوجههم، وتخلف عنهم كثير من أصحابهم، وفى ذلك يقول عبد الله بن الأحمر يحرض: [من الطويل]

صَحَوْتُ وقد يَصْحُو الصِّبَا والغَوَانِيا ... وقُلْتُ لِأَصْحَابِى: أَجِيبُوا المُنَادِيَا
وقُولُوا لَهُ إذْ قَامَ يَدْعُو إِلَىٰ الهُدَىٰ ... وقَبْلَ الدُّعا: لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ دَاعِيَا
ألا فَانْعَ خيْرَ النَّاس جَدًّا ووالدًا ... حُسَيْنًا إِذَا ما كُنْتَ للدِّينِ نَاعِيَا
لِيَبْكِ حسينًا مجتدٍ ذو خَصَاصةٍ ... عديمٌ وأَيْتَامٌ تشكَّى المواليا
وأضحَىٰ حُسَين للرماحِ دَرِيئَةً ... وغودر ذا دَرْسَيْنِ بالطَّفِّ ثَاوِيَا
فيا لَيْتَنِى إذ ذاكَ كُنْتُ شهدتُهُ ... فضارَبْتُ عنه الشَّامِتِينَ الأعَادِيَا
سَقَى الله أرضًا ضَمَّتِ المجْدَ والثَّنا ... بِغَرْبِيَّةِ الطَّفِّ الغَمَامَ الغَوادِيَا
فَيَا أُمَّة تَاهَتْ وضَلَّتْ سَفاهَةً ... أَنِيبُوا فَأَرْضُوا الوَاحِدَ المُتَعَالِيَا

ثم ساروا يقدمهم من ذكر، وعبد الله بن الأحمر يقول: [من الرجز]

خَرَجْنَ يلمعْنَ بنا أرْسَالاَ ... عوابسًا تَحْمِلُنَا أبْطَالا
نُرِيدُ أَنْ نَلْقَىٰ بِهَا القتالاَ ... ألقاسِطِينَ الغُدَّرَ الضُّلاَّلاَ
وقد رَفَضْنَا الوُلْدَ والأَمْوَالاَ ... والخَفِرَاتِ البِيضَ والحِجَالاَ
نُرْضِي بِهِ ذا النِّعَمِ المِفْضَالا

ثم انتهوا إلى قبر الحسين، فصاحوا وبكوا، وجددوا التوبة من خذلانه، وأقاموا عنده يومًا وليلة، فزادهم ذلك حنقًا، وبلغهم كتاب عبد الله بن يزيد يثنيهم عن المسير، فأبوا واستماتوا، ثم انتهوا إلى قرقيسيا على تعبئة، وبها زفر بن الحارث الكلابى متحصنًا من مروان وقومه، ودخل إليه المسيب بن نجبة يطلبه فى السوق لأصحابه، فأمر ابنه الهذيل فأخرج لهم سوقًا، وبعث إليهم بعلف ودقيق وجزائر،

واستغنوا بها عن السوق إلا فى غير الطعام، وأعطى المسيب ألف درهم وفرسًا، فأخذ الفرس ورد المال، ثم خرج زفر من الغداة يودعهم، وأخبرهم بمن سار من الجيوش إليهم، وأنهم عدد كثير وأن أمراءهم الحصين بن نمير، وشرحبيل الكلابى، وأدهم بن محرز، وحملة بن عبيد الله الخثعمى، وعبيد الله بن زياد، فأقيموا معنا ونلقاهم جميعًا.

فأبى سليمان وأصحابه من ذلك، فأشار عليهم بوجه الرأى فى السير والحرب وودعهم، فساروا مجدِّينَ إلى عين الوردة، فأقاموا بها خمسًا وأراحوا، حتى إذا كانت عساكر الشام على يوم وليلة عنهم فخطبهم سليمان بن صرد وحرضهم، وقال: إن قتلت، فأمير الناس المسيبُ بن نجبة، فإن قتل، فعبد الله بن سعد بن نفيل، فإن قتل، فعبد الله بن وال، فإن قتل، فرفاعة بن شداد.

ثم سرح المسيب فى أربعمائة فارس يشن عليهم الغارة، فإن رأى ما أحب وإلا رجع، فسار يومه وليلته وجاء أصحابه بأعرابى، فسألوه عن العسكر، فقال: أدنى عسكر منكم شرحبيل بن ذى الكلاع على ميل، وقد اختلف هو وحصين بن نمير فى الإمارة، وهما ينتظران أمر ابن زياد، فأغذُّوا إليهم السير، وأشرفوا عليهم، وهم غارُّونَ وحملوا، فانهزم العسكر، وغنم أصحاب المسيب ما فيه ورجعوا إلى أصحابهم موقرين، وسرح ابن زياد الحصين بن نمير مسرعًا حتى نزل فى اثنى عشر ألفًا، ثم تراجعوا على التعبئة، ولما دنا بعضهم من بعض، دعاهم أهل الشام إلى الجماعة إلى مروان، ودعاهم أصحاب سليمان إلى إسلام عبيد الله بن زياد إليهم، وأنهم يخرجون أصحاب ابن الزبير من العراق، ويرد الأمر إلى أهل البيت، ثم اقتتلوا وكان الظهور لسليمان وأصحابه على الحصين، وأمده ابن زياد بثمانية آلاف فاقتتلوا من الغد على السواء، وتحاجزوا عند المساء.

ولما أصبح أهل الشام، أتاهم أدهم بن محرز الباهلى فى عشرة آلاف مددًا، فقاتلوهم يوم الجمعة إلى ارتفاع الضحى، ولما رأى سليمان كثرتهم وما لقى أصحابه منهم، كسر جفن سيفه واستمات، واتبعه ناس منهم، فقتلوا من أهل الشام مقتلة عظيمة، ثم قتل سليمان، وبعده المسيب بن نجبة بعد أن حمل مرارًا، فأخذ الراية عبد الله بن سعد بن نفيل، وقاتل فجاءه، وهو فى القتال الخبر من عبد الله بن سعد

ابن حذيفة بمدد أهل المدائن فى سبعين ومائة ومدد أهل البصرة مع المثنى بن مخرمة فى ثلاثمائة، فقال: لو كان ذلك ونحن أحياء. ثم قتل عبد الله بن سعد، ونادوا عبد الله بن وال، فإذا هو قد اصطلى الحرب، فحمل رفاعة بن شداد حتى كشف عن أهل الشام، وجابَه، فأخذ الراية وقاتل، واستماتوا.

وتولى قتالهم عند المساء أدهم بن مخرمة، فقتل عبد الله بن وال وهو مقبل، وأراد رفاعة بن شداد الانصراف بالناس، فقال له بعض أصحابه: لا تفعل حتى يغشانا الليل، فنسير فى دلجته على مهل، فلما أمسوا رجع أهل الشام إلى معسكرهم وأصحاب رفاعة إلى معسكرهم، وقد قتل عامتهم وفشت الجراحة فيهم وفى خيلهم، فسار بالناس ليلته، وأصبح الحصين فلم يرهم، وانتهوا إلى قرقيسيا وأضافهم زفر ثلاثًا، وزودهم إلى الكوفة، وبلغ سعد بن حذيفة بن اليمان - من أهل المدائن - إلى هيت، فلقيه خبرهم فرجع، ولقيه المثنى بن مخرمة العبدى فى أهل البصرة بصدد، وأقاموا حتى جاء رفاعة وأصحابه فاستقبلوه، وبكوا وافترقوا إلى بلادهم، ودخل رفاعة الكوفة، وبعث إليه المختار بن أبى عبيد، وهو محبوسٌ يدعوه إلى طاعته فى الطلب بدماء أهل البيت وجهاد الملحدين، وأن سليمان لم يكن صاحبكم الذى تنتصرون به، وبلغ الخبر عبد الملك بن مروان بن الحكم، فخطب الناس وأعلمهم بموت سليمان بن صرد وأصحابه. ولأعشى همدان قصيدة طويلة يرثى بها أهل عين الوردة من التَّوَّابين: سليمان بن صرد الخزاعى وأصحابه ويصف ما فعلوه فقال: [من الطويل]

تـوجَّـهَ مِـنْ دُونِ الـثَّـوِيَّـةِ سـائـرًا ... إلى ابْنِ زِيادٍ فى الجموعِ الكَتَائِبِ

فَساروا وَهُمْ مِنْ بَين مُلْتَمِسِ التُّقَىٰ ... وآخَرَ مِمَّا جُمَّ بالأمْسِ تَائبِ

فَلاقَوْا بعيْنِ الوَرْدِ جَيْشًا مشاكلاً ... عليهم بِبِيض قَاطِعَاتٍ قَواضِبِ

فَجَاءَهُمْ جَمْعٌ مِنَ النَّاسِ بَعْدَهُ ... جُمُوعٌ كَمَوْجِ البَحْرِ مِنْ كُلِّ جانبِ

فما بَرِحُوا حَتَى أُبِيدَتْ جُمُوعُهُمْ ... ولَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ ثَمَّ غَيْرُ عَصَائبِ

وغودِرَ أَهْلُ الصَّبْرِ صَرْعىٰ فأصْبَحُوا ... تُعَاوِرُهُمْ رِيحُ الصَّبَا والجَنَائِبِ

وأضحَى الخُزَاعِيُّ الرَّئيسُ مُجَدَّلاً ... كـأنْ لَـمْ يُقَاتِلْ مَرَّةً ويُحَارِبِ

ورأسُ بنى أزدٍ وفارسُ قومِهِ ... جميعًا مع التيميِّ عارى المَنَاكِبِ

وعَمْرُو بنُ عمرو وابْنُ بِشْرٍ وخالدٌ ... وبَكْرٌ وزيدٌ والحُسَين بن غالبِ
أَبَوْا غَيْرَ ضَرْبٍ يُفْلِقُ الهَامَ حَدُّهُ ... وطَعْنٍ بأَطْرَافِ الأَسِنَّةِ لَازِبِ
فيا خَيْرَ جَيْشٍ للعراقِ وأَهْلِهِ ... سُقِيتُمْ روايا كُل أسحَمَ ساكبِ
فَلَا يَبْعَدَنْ فُرْسَانُنَا وحُمَاتُنَا ... إِذَا البِيضُ أبدَتْ عَنْ خدامِ الكَوَاعِبِ
فإن تُقْتَلُوا فالقَتْلُ أكرَمُ مِيتَةٍ ... وَكُلُّ فتى يومًا لإِحْدَى الشَّواعِبِ
وما قُتِلُوا حتى أَصَابُوا عصابةً ... بِحَزِّ نُحُورٍ كالتُّيُوسِ الضَّوَارِبِ

وفى كتاب الأذكياء للحافظ أبى الفرج بن الجوزى[1] قال: كان حويطب بن عبد العزى قد بلغ مائة وعشرين سنة، ستين منها فى الجاهلية، وستين فى الإسلام، فلما ولى مروان بن الحكم دخل عليه، فقال له مروان: ما سنك يا عم ؟ فأخبره، فقال له مروان: تأخر إسلامك أيها الشيخ حتى سبقك الأحداث، فقال حويطب: والله لقد نهضت إلى الإسلام غير مرة كل ذلك يعوقنى أبوك عنه وينهانى، ويقول: لا تَدَعْ دين آبائك لدين محمد، فأسكت مروان وندم على سؤاله إياه، ثم قال له حويطب: أما أخبرك عثمان بن عفان ما كان لقى من أبيك حين أسلم، فازداد مروان غمًّا إلى غمه.

وحكى عن البخترى بن عبيد، أنه قال: كنت عند معاوية بن أبى سفيان جالسًا، وكان حسان من جلسائه - وليس بحسان بن ثابت الصحابى - فأقبل رجل على ناقة حمراء، وعليه برنس، ثم نزل عنها ومشى، حتى دنا من معاوية، وهو جالس، فسلم عليه، فضم له معاوية رجليه، فجلس الرجل على الطنفسة، ثم أقبل عليه معاوية بالحديث، فلما قام، انكشف البرنس، فرأيت عليه قميص كتان، ورأيت أثر مسح زقاق الزيت على قميصه، فقال حسان لمعاوية: من هذا الذى شغلك حديثه يا أمير المؤمنين ؟ قال: هذا رجل يرجو الخلافة من بعدى، فقال له حسان: ليس هذا الزيات بأهل لذلك يا أمير المؤمنين، قال معاوية: مهلًا يا حسان، هذا مروان بن الحكم !

* * *

(١) ينظر الأذكياء. لابن الجوزى (ص١٦٦).

خلافة عبد الملك بن مروان[١]
بعد وفاة أبيه مروان

كان أبوه مروان عند ولايته تزوَّج أم خالد بن يزيد وهى بنت هاشم بن عتبة، فوقع بين خالد بن يزيد بن معاوية وبين بعض ولد مروان كلام، فقال لخالد: اسكت، فلست والله تُعَدّ لا فى العير ولا فى النفير، فقال له خالد: وهل كان فى العير غير جدى، وفى النفير غير جدى، ولكن لو قلت: حبيلات وغنيمات والطائف، ورحم الله عثمان، قلنا: صدقت. انتهى.

قلت فى قول خالد: « جدى فى العير جدي في النفير » يشير إلى أن جده لأبيه أبا سفيان هو الذى كان فى العير، وجده لأمه هو الذى كان فى النفير، وهو عتبة بن ربيعة بن أمية بن عبد شمس؛ لأن أم جده معاوية هى بنت عتبة.

وأما قوله: « حبيلات » فهى جمع حبلة، وهى أصل الكَرْمِ.

وقوله: « غنيمات والطائف ورحم الله عثمان » يعنى يعيره بكون جده الحكم والد مروان نفاه النبى ﷺ إلى الطائف، فأقام ثمة عنده حبيلات وغنيمات واستمر إلى أثناء خلافة عثمان - رضى الله عنه - فرده إلى المدينة، وكان رده من جملة الأمور المنقومة على عثمان، رضى الله عنه.

وأراد مروان أن يقصر بخالد، لما كان حسان بن بحدل يميل إليه، فدخل خالد يومًا على مروان يمشى بين السماطين، فقال مروان: إنه لأحمق، وقال: تنحَّ يا بن رطبة الاسْتِ يسقطه من عين أهل الشام، فتوجه إلى أمه، فقالت: اكتم خبركَ، وأنا أكفيك؛ فلا تصير تسمعها منه، ودخل عليها مروان، فقال: هل قال لك خالد شيئًا ؟ قالت: هو أشد لك تعظيمًا من هذا، ثم قام عندها يومًا، فغطته بالوسادة، وتحاملت هى وجواريها عليه، فقتلته، وأراد عبد الملك أن يثأر منها، فقيل له: لا

---

(١) ينظر: مروج الذهب (٣/ ٢٩٢)، تاريخ الإسلام (٣/ ٢٧٦) العبر (١/ ١٠٢)، النجوم الزاهرة (١/ ٢١٢)، شذرات الذهب (١/ ٩٧) تهذيب التهذيب (٦/ ٤٢٢)، تقريب التهذيب (١/ ٥٢٣) خلاصة تهذيب الكمال (٢/ ١٨٠)، خلاصة تهذيب التهذيب (٢٤٦)، ميزان الاعتدال (٢/ ٦٦٤)، سير الأعلام (٤/ ٢٤٦)، تاريخ البخاري الكبير (٥/ ٤٢٩)، الثقات (٥/ ١١٩) طبقات ابن سعد (٥/ ٢٢٣)، طبقات خليفة (ت٢٠٦١)، المعارف (٣٥٥)؛ المعرفة والتاريخ (١/ ٥٦٣)، تاريخ اليعقوبي (٣/ ١٤)، تاريخ بغداد (١٠/ ٣٨٨)، العقد الثمين (٥/ ٥١٢).

يسمع أن امرأة قتلت أباك.

ولادته سنة ثنتين من الهجرة، بويع فى رجب سنة أربع وستين، وكانت الشوكة والغلبة لابن الزبير مدته خمسة عشر شهرًا، و قيل: عشرة أشهر، وفاته فى رمضان سنة خمس وستين، عمره ثلاث وستون، وقيل: أربع وستون، وقد كان بايع لولده عبد الملك، ثم بعده لولده الآخر عبد العزيز والد عمر بن عبد العزيز، رضى الله تعالى عنه.

وثوب المختار[1] بالكوفة وأخباره

لما قتل سليمان بن صرد، وقدم الشيعة إلى الكوفة، وكان المختار محبوسًا كما مر، كتب إليهم من السجن يعدهم ويمنيهم ويعرفهم أن الذى بعثه ابن الحنفية لطلب الثأر، فقرأ كتابه رفاعة بن شداد، والمثنى بن مخرمة العبدى، وسعد بن حذيفة بن اليمان، ويزيد بن أنس، وأحمد بن شميط البجلى، وعبد الله بن شداد البجلى، وبعثوا إليه عبيد الله بن كامل منهم: إنا بحيث نسرك، وإن شئت أن نأتيك ونخرجك من الحبس فعلنا، فسر بذلك وأمهلهم.

ثم شفع فيه ابن عمر إلى عبد الله بن يزيد، وإبراهيم بن محمد بن طلحة، فأطلق، واستحلفاه ألاَّ يخرج عليهم، ونزل بداره، واختلفت إليه الشيعة، وبايعوه، وقوى أمره.

ثم عزل ابن الزبير إبراهيم بن محمد بن طلحة، وعبد الله بن يزيد، واستعمل على الكوفة عبد الله بن مطيع، فقدمها فى رمضان سنة خمس وستين، وخطب الناس بأن ابن الزبير أمره ألاَّ يقسم فيئهم فى غيرهم، وأن يسير فيهم بسيرة عمر وعثمان، ثم توعدهم على الخلاف، فقالوا: أما فيئنا، فلا يكون غير ذلك، وأما السيرة: فسيرة عليٍّ التى سار بها فى بلادنا، ولا حاجة لنا فى سيرة عثمان ولا عمر، فقال ابن مطيع: نسير بكل سيرة ترضونها.

ثم بلغه أن المختار يدعو لأهل البيت، وبمن اجتمع له وأشاروا عليه بحبسه،

(١) ينظر عن المختار بن أبى عبيد فى: شذرات الذهب ١/ ٧٤، تاريخ ابن الوردى ١/ ١٧٦، المختصر لأبى الفداء ١/ ١٩٤، سير أعلام النبلاء ٣/ ٥٣٨، البداية والنهاية ٨/ ٢٨٩، وفيات الأعيان ٣/ ٧١، الكامل ٤/ ٢١١، أسد الغابة ٤/ ٣٣٦، العقد الفريد ٧/ ١٤٩، تاريخ خليفة ٢٦٢-٢٦٤، الأخبار الطوال ٢٠٥، المعارف ص ٤٠٠، تاريخ الطبرى ٥/ ٥٦٩، مروج الذهب ٣/ ١٠٦، تاريخ اليعقوبى ٢/ ٢٥٨، المعرفة والتاريخ ١/ ٢١٩، عيون الأخبار ١/ ١٠٣.

فبعث إليه فاعتذر بالمرض.

وارتاب أصحاب المختار فيما بلغهم عن ابن الحنفية، فساروا إليه بمكة يسألونه واستأذنوه فى اتباعه، فقال: وددت أن الله انتصَرَ لنا من عدونا بمن يشاء مِنْ خلقه. فرجعوا وأخبروا بذلك المختار، وقالوا له: قد أمرنا بنصرك، فجمع الشيعة، وأخبرهم بما قدم به أصحابهم من عند ابن الحنفية، وأنه أخبرهم رسوله، وأمركم باتباعى وطاعتى فيما دعوتكم إليه من قتال المحلين، والطلب بدماء أهل البيت، وشهد الوافدون بذلك، فاجتمعت الشيعة ومن جملتهم الشعبى وأبو شرحبيل.

وأشار عليه بعض أصحابه بدعاء إبراهيم بن الأشتر؛ ليقوى أمرهم به، فمضى إليه الشعبى فى جماعة منهم، وذكر تقدُّم أبيه فى ولاية على، ودعاه إلى الطلب بدم الحسين وأصحابه، فقال: على أن تولونى، فقالوا: قد جاء المختار بتولية ابن الحنفية، وقد أمرنا بطاعته، فسكت إبراهيم.

ثم جاء المختار بكتاب ابن الحنفية إلى إبراهيم يسأله النصرة ويعده بالولاية العامة، وفيه: «من محمد المهدى إلى إبراهيم بن مالك الأشتر»، ودفعه إليه الشعبى، وقرأه وقال: مازال ابن الحنفية يكاتبنى، فلا يزيد على اسمه واسم أبيه، فشهد جماعة منهم أنه كتابه، وسكت الشعبى، وسأله إبراهيم بعد انصرافهم فقال: هؤلاء الذين يشهدون سادة القراء، ومشيخة المصر، وفرسان العرب، فكتب أسماءهم عنده، ثم حمل عشيرته على إجابة المختار، وصار يختلف إليه، وتواعدوا للخروج منتصف ربيع الأول سنة ست وستين.

ونما الخبر إلى ابن مطيع، فبعث إلى رءوس الناس فى كل ناحية من الكوفة يوقظهم لذلك وألاَّ يؤتوا من قبلهم، فاستعدوا، فركب إياس بن مضارب فى الشرط، وأحاط بالسوق والقصر، ثم ركب إبراهيم بن الأشتر يريد المختار قبل الموعد بليلتين، وهو مظهر للسلاح، ولقى إياس بن مضارب، فارتاب به، وأراده على الإتيان لابن مطيع، فأبى، وطعنه فقتله، وافترق أصحاب إياس وجاءوا إلى ابن مطيع، وولى مكانه ابن راشد على الشرطة، ومضى إبراهيم إلى المختار وأخبره بالخبر، وبعثوا فى الشيعة وتنادوا بثأر الحسين، ومضَىٰ إبراهيم إلى النخع، فاستركبهم وسار بهم فى المدينة ليلاً، وهو يتجنب المواضع التى فيها الأمراء، ثم

لقيه بعضهم، فهزمهم ثم آخرين كذلك، ثم رجع إلى المختار، فوجد شبيبَ بنَ رَبعى وحجار بن أبجر العجلى يقاتلانه فهزمهما.

وجاء شبيب إلى ابن مطيع، فأشار عليه بجمع الناس والنهوض إلى القوم فقد قوى أمرهم، فركب واجتمع الناس وتوافى إلى المختار نحو أربعة آلاف من الشيعة، وبعث ابن مطيع شبيب بن ربعى فى ثلاثة آلاف وراشد بن إياس فى أربعة آلاف، فسرح إليهم المختار إبراهيم بن الأشتر لراشد فى ستمائة فارس وستمائة راجل، ونعيم بن هبيرة لشبيب فى ثلاثمائة فارس وستمائة راجل، واقتتلوا من بعد صلاة الصبح وقتل نعيم فوهن المختار لقتله، وظهر شبيب وأصحابه عليهم، وقاتل إبراهيم ابن الأشتر راشد بن إياس فقتله، وانهزم أصحابه، فركبهم القتل، وبعث ابن مطيع جيشًا كثيفًا، فهزمهم إبراهيم، ثم حمل على شبيب فهزمه، وزحف المختار فمنعه الرماة من دخول الكوفة، ورجع المنهزمون إلى ابن مطيع، فدهش، فشجعه عمرو ابن الحجاج الزبيدى، وقال له: اخرج واندب الناس، ففعل وقام فى الناس، ووبخهم على هزيمتهم وندبهم، ثم بعث عمرو بن الحجاج فى ألفين، وشمر بن ذى الجوشن فى ألفين، ونوفل بن مساحق فى خمسة آلاف، ووقف هو بكناسة، واستخلف على القصر شبيب بن ربعى، فحمل ابن الأشتر على ابن مساحق، فهزمه وأسره ثم مَنَّ عليه، ودخل ابن مطيع القصر، وحاصره إبراهيم بن الأشتر ثلاثًا ومعه يزيد بن أنس وأحمد بن شميط.

ولما اشتد الحصار على ابن مطيع، أشار عليه شبيب بن ربعى بأن يستأمنَ المختار، ويلحق بابن الزبير وله ما بعده، فخرج عليهم مساء، ونزل دار أبى موسى، واستأمن القوم للمختار، فدخل القصر وغدا على الناس فى المسجد، فخطبهم ودعا إلى بيعه ابن الحنفية، فبايعه أشراف الكوفة على الكتاب والسنة والطلب بدم الحسين، ووعدهم بحسن السيرة.

وبلغه أن ابن مطيع فى دار أبى موسى، فبعث إليه بمائة ألف درهم، وقال: تجهز بهذه، وكان ابن مطيع قد فرق بيوت الأموال على الناس، وسار ابن مطيع إلى وجهه، وملك المختار الكوفة وجعل على شرطته عبد الله بن كامل، وعلى حرسه كيسان أبا عمرة، وجعل الأشراف جلساءه، وعقد لعبد الله بن الحارث بن الأشتر

على أرمينية، ولمحمد بن عمير بن عطارد على أذربيجان، ولعبد الرحمن بن سعيد ابن قيس على الموصل، وإسحاق بن مسعود على المدائن، ولسعد بن حذيفة بن اليمان على حلوان، وأمره بقتال الأكراد وإصلاح السابلة، وولى شريحًا على القضاء.

ثم طعنت فيه الشيعة بأنه شهد على حجر بن عدى، ولم يبلغ عن هانئ بن عروة رسالته إلى قومه، وأن عليًا عزله وأنه عثمانى، وسمع ذلك هو، فتمارض، فجعل مكانه عبد الله بن عتبة بن مسعود، ثم مرض فولى مكانه عبد الله بن مالك الطائى.

مسير ابن زياد إلى المختار وخلاف أهل الكوفة عليه وغلبه إياهم

كان مروان بن الحكم لما استوثق له أهل الشام، بعث جيشين؛ أحدهما: إلى الحجاز مع حنيش بن دلجة القينى، وقد مر شأنه ومقتله، والآخر: إلى الكوفة مع عبيد الله بن زياد، وكان من أمره وأمر التوابين من الشيعة ما تقدَّم، وأقام محاصرًا لزفر بن الحارث بقرقيسيا، وهو مع قومه قيس على طاعة ابن الزبير، فاشتغل بهم عن العراق سنة أو نحوها، ثم توفى مروان، وولى بعده عبد الملك، فأقره على ولايته وأمره بالجد، وأيس من أمر زفر وقيس، فنهض إلى الموصل، فخرج عنها عبد الرحمن بن سعد عامل المختار إلى تكريت، وكتب إلى المختار بالخبر، فبعث يزيد بن أنس الأسدى فى ثلاثة آلاف إلى الموصل، فساروا إليها على المدائن، وسرح ابن زياد للقائه ربيعة بن المختار الغنوى فى ثلاثة آلاف، والتقيا ببابل، وعبأ يزيد أصحابه وهو راكب على حماره وحرضهم، وقال: إن مت فأميركم ورقاء بن عازب الأسدى، وإن هلك فعبد الله بن ضمرة العذرى، وإن هلك فسعد الحنفى.

ثم اقتتلوا يوم عرفة، وانهزم أهل الشام وقتل ربيعة، وسار العسكر غير بعيد، فلقيهم عبد الله بن حملة الخثعمى قد سرحه ابن زياد فى ثلاثة آلاف، فرد المنهزمين وأعاد القتال يوم الأضحى، فانهزم أهل الشام، وأثخنت فيهم أهل الكوفة القتل والنهب، وأسروا منهم ثلاثمائة فقتلوهم، وهلك يزيد بن أنس من آخر يومه، وقام بأمرهم ورقاء بن عازب خليفة، وهاب لقاء ابن زياد بعد يزيد، وقال: نرجع لموت أميرنا قبل أن يظهر علينا أهل الشام بذلك وصرف الناس.

وتقدم الخبر إلى الكوفة، فأرجف الناس بالمختار، وأشيع أن يزيد قتل، وساء المختار رجوع العسكر، فسرح إبراهيم بن الأشتر فى سبعة آلاف، وضم إليه حنيش يزيد، ثم تناجز ابن زياد فساروا لذلك، ثم اجتمع أشراف الكوفة عند شبيب بن ربعى - وكان شيخهم جاهلى إسلامى - وشكوا من سيرة المختار وإيثاره الموالى عليهم، ودعوه إلى الوثوب به، فقال: حتى ألقاه وأعذر إليه، ثم ذهب إليه وذكر له جميع ما ذكروه، فوعده الرجوع إلى رضاهم له، وذكر شأن الموالى وشوكتهم فى الفئ، فقال: إن أعطيتمونى عهدكم على قتال بنى أمية وابن الزبير، تركتهم، فقال: اخرج إليهم بذلك، وخرج فلم يرجع، واجتمع رأيهم على قتاله، وهم: شبيب بن ربعى، ومحمد بن الأشعث، وعبد الرحمن بن سعد بن قيس، وشمر بن ذى الجوشن، وكعب بن أبى كعب الخثعمى، وعبد الرحمن بن مخنف الأزدى، وكان ابن مخنف أشار عليهم بأن يمهلوا لقدوم أهل الشام ومجيء أهل البصرة؛ فيكفونهم أمره قبل أن يقاتلكم بمواليكم وشجعانكم، وهو عليكم أشد، فأبوا رأيه، وقالوا: لا تفسد جماعتنا.

ثم خرجوا وشهروا السلاح، وقالوا للمختار: اعتزلنا، فإن ابن الحنفية لم يبعثك. قال: فتعالوا نبعث إليه الرسل منى ومنكم، وأخذ يعللهم بمثل هذه المراجعات، وكف أصحابه عن قتالهم ينظرون وصول إبراهيم بن الأشتر، وقد بعث إليه بالرجوع، فجاء والقوم مجتمعون ورفاعة بن شداد البجلى يصلى بهم، فلما وصل إبراهيم، عبأ المختار أصحابه، وسرح بين يديه أحمد بن شميط البجلى، وعبد الله بن كامل الشاكرى، فانهزم أصحابهما وصبرا، وأمدهما المختار بالرجال والفرسان فوجًا بعد فَوْج، وصار ابن الأشتر إلى مضر، وفيهم شبيب بن ربعى، وقاتلهم فهزمهم، واشتد ابن كامل على أهل اليمن، فرجع رفاعة بن شداد أمامهم إلى المختار، فقاتل معه حتى قتل، وقتل من أهل اليمن عبد الله بن سعيد بن قيس والفرات بن زفر بن قيس، وعمرو بن مخنف، وجرح أخوه عبد الرحمن، فمات، فانهزم أهل اليمن هزيمة قبيحة وأسر من الوادعيين خمسمائة أسير، فقتل المختار كل من شهد قتل الحسين منهم، وكانوا نصفهم وأطلق الباقين، ونادى المختار بالأمان إلا من شرك فى دماء أهل البيت، وفر عمرو بن الحجاج الزبيدى وكان أشد من

حضر قتل الحسين؛ فلم يوقف له على خبر، وقيل: أدركه أصحاب المختار، فأخذوا رأسه، وبعث فى طلب شمر بن ذى الجوشن، فقتل طالبه، وانتهى إلى قرية الكلتانية، فارتاح يظن أنه نجا، وإذا فى قرية أخرى بإزائه أبو عمرة صاحب المختار بعثه مصلحًا بينه وبين أهل البصرة، فنما إليه خبره، فبعث إليه وألقى شلوه للكلاب، وانجلت الوقعة عن سبعمائة وثمانين قتيلاً أكثرهم من اليمن، وكانت آخر سنة ست وستين.

وخرج أشراف الناس إلى البصرة، وتتبع المختار قتلة الحسين، ودل عليهم عبيد الله بن أسد الجهنى، ومالك بن الأشتر الكندى، وحمل بن مالك المحاربى بالقادسية، فأحضرهم وقتلهم، ثم أحضر زياد بن مالك الضبعى، وعمران بن خالد الغنوى، وعبد الرحمن بن أبى خشكارة البجلى، وعبد الله بن قيس الخولانى، وكانوا نهبوا من الورس الذى كان مع الحسين، فقتلهم، وأحضر عبد الله وعبد الرحمن ابني طلحة، وعبد الله بن وهب الهمدانى، ابن عمرو الأعشى، فقتلهم، وأحضر عثمان بن خالد الجهنى، وابن أسماء بشر بن شميط القابسى، وكانا مشتركين فى قتل عبد الرحمن بن عقيل وفى سلبه، فقتلهما، وحرقهما بالنار، وبحث عن حولى بن يزيد الأصبحى صاحب رأس الحسين، فجيء برأسه وحرق بالنار، ثم قتل عمر بن سعد بن أبى وقاص بعد أن كان أخذ له الأمان من عبد الله بن جعدة بن هبيرة، فبعث أبا عمرة فجاءه برأسه وابنه حفص عنده، فقال: تعرف هذا ؟ قال: نعم، ولا خير فى العيش بعده، فقتله.

وعن الهيثم بن حسن بن عمارة قال: قدم شيخ من خزاعة أيام المختار، فنزل على عبد الله بن أبى أبزى الخزاعى، فلما رأى ما تصنع شيعة المختار به من الإجلال والإعظام، جعل يقول: يا عباد الله أبالمختار يصنع هذا ؟! والله، لقد رأيته يبيع الإماء بالحجاز، فبلغ ذلك المختار، فدعا به وقال: ما هذا الذى بلغنى عنك ؟ قال: الباطل، فأمر بضرب عنقه، فقال: لا والله لا تقدر على ذلك، قال: ولم ؟! قال: أما إنى أنظر إليك وقد فتحتَ مدينة دمشق حجرًا حجرًا وقتلت المقاتلة، وسبيت الذرية، ثم تصلبنى على شجرة على نهر، والله إنى لأعرف الشجرة الساعة، وأعرف شاطئ ذلك النهر، قال: فالتفت المختار إلى أصحابه، فقال لهم: أما إن الرجل قد

عرف السحر، فحبس حتى إذا كان الليل بعث إليه، فقال: يا أخا خزاعة، أو مزاح عند القتل ؟! فقال: أنشدك الله أن أقتل ضياعًا، قال: وما تطلب ههنا ؟ قال: أربعة آلاف درهم أقضى بها دينى، قال: ادفعوها له، وإياك أن تصبح بالكوفة. فقبضها وخرج ليلته.

وعنه قال: كان سراقة البارقى من ظرفاء أهل المدينة، فأسره رجل من أصحاب المختار، فأتى به المختار، وقال: أسرت هذا، فقال سراقة: كذب والله ما أسرنى إنما أسرنى رجل عليه ثياب بيض على فرس أبلق، فقال المختار: أما إن الرجل قد عاين الملائكة، خلوا سبيله فلما أفلت، أنشأ يقول: [من الوافر]

أَلاَ أَبْلِغْ أبا إسْحاقَ عَنِّي ... بأَنَّ البُلْقَ دُهْم مُصْمتَات

أرى عَيْنَيَّ مَا لَمْ تَرْأَيَاهُ ... كِلاَنَا مولَعٌ بِالتُّرَّهَاتِ

كَفَرْتُ بِدِينِكُمْ وجعلتُ نَذْرًا ... عَلَيَّ قِتَالَكُمْ حَتى المَمَات

ويقال: إن الذى بعث المختار على قتلة الحسين أن يزيد بن شراحيل الأنصارى قدم على محمد بن الحنفية، فقال له ابن الحنفية: يزعم المختار أنه لنا شيعة، وقتلة الحسين عنده على الكراسى يحدثونه. فلما سمع المختار ذلك، تتبعهم بالقتل، وبعث برأس عمر وابنه إلى ابن الحنفية، وكتب إليه أنه قتل من قدر عليه وهو فى طلب الباقين، ثم أحضر حكيم بن طفيل الطائى، وكان رمى الحسين وأصاب سلب العباس ابنه، وجاء عدى بن حاتم ليشفع فيه، فقتله ابن كامل والشيعة قبل أن يصل حذرًا من قبول المختار شفاعته.

وبحث عن مرة بن منقذ بن عبد القيس قاتل على بن الحسين، فدافع عن نفسه، ونجا إلى مصعب بن الزبير، وقد شلت يده بضربة.

وبحث عن زيد بن رقاد الجنبى قاتل عبد الله بن مسلم بن عقيل رماه بسهمين، وقد وضع كفه على جبهته يتقى النبل، فأثبت كفه فى جبهته، وقتله بالأخرى، فخرج بالسيف يدافع، فقال لهم ابن الكامل: ارموه بالحجارة، فرموه حتى سقط وأحرقوه حيًّا.

وطلب سنان بن أنس الذى كان يدعى قتل الحسين فلحق بالبصرة.

وطلب عمرو بن صبيح الصدائى، فقتله طعنًا بالرماح.

وأرسل فى طلب محمد بن الأشعث، وهو بقريته عند القادسية، فهرب إلى

مصعب وهدم المختار داره، وطلب آخرين كذلك من المتهمين بأمر الحسين، فلحقوا بمصعب وهدم دورهم.

شأن المختار مع ابن الزبير

كان على البصرة الحارث بن أبى ربيعة، وهو القباع عاملاً لابن الزبير وعلى شرطته عباد بن حسين وعلى المقاتلة قيس بن الهيثم، وجاء المثنى بن مخرمة العبدى، وكان ممن شهد مع سليمان بن صرد، ورجع فبايع المختار وبعثه إلى البصرة يدعو له، فجاءه كثير من الناس، وعسكر لحرب القباع، فسرح إليه عباد بن الحسين، وقيس بن الهيثم فى العساكر، فانهزم المثنى إلى قومه عبد القيس، وأرسل القباع عسكرًا يأتون، فجاءه زياد بن عمرو العتكى، فقال له: لتردن خيلك عن إخواننا، أو لنقاتلنهم ! فأرسل الأحنف بن قيس، وأصلح الأمر على أن يخرج المثنى عنهم فسار إلى الكوفة.

وقد كان المختار لما خرج المطيع من البصرة، كتب إلى ابن الزبير يخادعه ليتمَّ أمره فى الدعاء لأهل البيت، وطلبه المختار بالوفاء لما وعده من الولاية، فأراد ابن الزبير أن يتبين الصحيح من أمره، فولى عمرو بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام على الكوفة، وأعلمه بطاعة المختار وبعثه إليها، وجاء الخبر إلى المختار، فبعث زائدة بن قدامة فى خمسمائة فارس، وأعطاه سبعمائه درهم، وقال: ادفعها إلى عمرو، فهى ضعف ما أنفق وأمره بالانصراف بعد أن تكمن خيلك، فإن أبى فَأَرِهِ الخيل، وكان كذلك، ولما رأى عمرو الخيل، أخذ المال، وسار نحو البصرة، واجتمع هو وابن مطيع فى إمارة القباع قبل وثوب المثنى بن مخرمة.

وقيل: إن المختار كتب إلى ابن الزبير: إنى اتخذت الكوفة دارًا، فإن سوغتنى ذلك وأعطيتنى مائة ألف درهم، سرت إلى الشام، وكفيتك مروان، فمنعه من ذلك، وأقام المختار يصانعه ويوادعه ليتفرَّغ لأهل الشام.

ثم بعث عبد الملك بن مروان عبد الملك بن الحارث بن الحكم بن أبى العاص إلى وادى القرى، فكتب المختار إلى ابن الزبير يعرض عليه المدد، فأجابه أن يعجل بإنفاذ الجيش إلى جند عبد الملك بوادى القرى، فسرح شرحبيل بن ورس الهمدانى فى ثلاثة آلاف أكثرهم من الموالى، وأمره أن يأتى المدينة ويكاتبه بذلك، واتهمه ابن

الزبير فبعث من مكة عباس بن سهل بن سعد فى ألفين، وأمره أن يستنفر العرب، وإن رأى من جيش المختار خيلاً، فناجزهم وأهلكهم. فلقيهم عباس بالرقيم، وهم على تعبئة، وقال: سيروا بنا إلى العدو الذى بوادى القرى، فقال ابن ورس: إنما أمرنى المختار أن آتى المدينة، ففطن عباس لما يريد، وأنزلهم وجاءهم بالعلوفة والزاد وتخير ألفًا من أصحابه وحمل عليهم، فقتل ابن ورس وسبعين معه من شجعان قومه وأمن الباقين فرجعوا إلى الكوفة، ومات أكثرهم فى الطريق. وكتب المختار إلى ابن الحنفية يشكو ابن الزبير ويوهمه أنه بعث الجيش فى طاعته، ففعل ابن الزبير ما فعل، ويستأذنه فى بعث الجيوش إلى المدينة، ويبعث ابن الحنفية عليهم رجلاً من قبله فيعلم الناس أنى فى طاعتك، فكتب إليه ابن الحنفية: قد عرفت قصدك، ووفاءك بحقى، وأحب الأمور إلى الطاعة، فأطع الله وتجنب دماء المسلمين، فلو أردتُ القتال لوجدت الناس إلى سراعًا، والأعوان كثيرًا، لكن اعتزلهم، واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين !.

ثم دعا ابن الزبير محمد ابن الحنفية ومن معه من الشيعة وأهل بيته إلى البيعة، فامتنع، وبعث إليه ابن الزبير، وأغلظ عليه وعليهم، فاستكانوا وصبروا، فتركهم.

وذكر المسعودى[1] عن عمرو بن شيبة، عن مساور بن السائب، أن ابن الزبير خطب أربعين يومًا لا يصلِّى على النبيِّ ﷺ، وقال: ما يمنعنى أن أصلى إلا شمخ رجال بآنافها !.

ودخل عبد الله بن عباس على ابن الزبير، فقال له ابن الزبير: أنت الذى تؤنبنى وتبخلنى[2]؟ قال ابن عباس: نعم، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: « ليس المسلم الذى يشبعُ ويَجُوعُ جاره »[3]، قال ابن الزبير: إنى أكتُمُ بغضَكمْ أهلَ هذا البيت منذ أربعين سنة - وجرى بينهما خطب طويل.

---

(١) ينظر مروج الذهب (٣/٨٨، ٨٩، ٩٠).
(٢) في ط: ترقبني. والمثبت من مروج الذهب.
(٣) في ط: « بئس المسلم يشبع ويجوع غيره » والمثبت من المروج.
والحديث أخرجه الخطيب البغدادى في التاريخ (٥/٣٠٦)، وابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/٥٢٨)، ولفظه: « ليس المسلم من يشبع وجاره طاوٍ »، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/١٦٧): رواه الطبراني والبزار بلفظ: «ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم». وقال: إسناد البزار حسن.

وخطب ابن الزبير فقال: ما بال أقوام يفتون بالمتعة، ويتنقصون حواريَّ رسول الله ﷺ وأم المؤمنين عائشة ؟! ما بالهم أعمى الله بصائرهم كما أعمى أبصارهم - يعرض بابن عباس - فقال ابن عباس لقائده: اهدني إليه[(١)]، فقال له: أما قولك في المتعة، فسل أمك تخبرك؛ فإن أول مجمر سطع للمتعة لمجمر سطع بين أمك وأبيك.

قلت: يريد متعة الحج لا متعة النكاح؛ فإن الزبير تزوَّج أسماء بنت أبي بكر في الإسلام من أبيها معلنًا، فكيف تكونُ متعة نكاح ؟! حمى الله الزبير عن ذلك، وحمى الله ابن عباس عن إرادة ما هنالك. انتهى.

وأما قولك: « أم المؤمنين » فبنا سميت أم المؤمنين، وضرب عليها الحجاب.

وأما قولك: « حواري رسول الله ﷺ » فلقد لقيته في الزحف - يعني حرب يوم الجمل - وأنا مع إمام هدى، فإن يكن على ما أقول، فقد كفر بقتاله[(٢)]، وإن يكن على ما تقول، فقد كفر بهربه.

ثم انصرف ابن عباس يقوده غلامه.

قلت: هذا الكلام عدم صحة معناه دليل على عدم صحة نسبته لابن عباس، رضي الله عنهما.

أما أولاً: فإن الزبير لم يهرب من علي يوم الجمل، وإنما لما ذكره علي - رضي الله تعالى عنه - بقول رسول الله ﷺ: « إنك ستقاتله، وأنت له ظالم »[(٣)] تذكَّر ورجع واستغفر؛ كما تقدَّم ذكر ذلك في وقعة الجمل.

وأما ثانيًا: فلأنه ليس القتال ولا الهرب كفر إن فرض وقوع ذلك؛ إذ غاية ما فيه أن يكون خروجًا عن الإمام العادل لشبهة قامَتْ عند الخارج، وهو ليس بكفر بل معصية وفسوق؛ وتأمل قوله - عليه الصلاة والسلام - للزبير: « وأنت له ظالم » ولم يقل: وأنت كافر؛ وكذلك قوله - عليه الصلاة والسلام - لعمار: « تَقْتُلُكَ الفئة

(١) في مروج الذهب: فقال ابن عباس: يا غلام، اصمدني صَمْدَه فقال: يا ابن الزبير

قد أنصف القارة من راماها إنا إذا ما فِئَة نلقاها
نَـرُدُّ أولاها على أخراها

(٢) في المروج: بقتالنا.

(٣) تقدم تخريجه وينظر موقعة صفين.

الباغيةُ »[١]، وقوله - عليه الصلاة والسلام - فى الحسن مع معاوية وقومه: « وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين »[٢]؛ فسماهم مسلمين مع أنهم خارجون عن الحسن ظالمون له بقتالهم، فتأمل ذلك؛ لكن الراوى لهذه القصة المسعودى وهو من هو، وما هذا بأعجب مما رواه من قوله: أَكْتُمُ بغضكم أهل هذا البيت منذ أربعين سنة![٣]

وروى أن ابن الزبير خطب، فقال فى أثناء خطبته: عذرت بنى الفواطم أن يتكلموا، فما بال ابن الحنفية ؟! فقال محمد ابن الحنفية: يابن أم رومان، ومالى لا أتكلَّم ؟! أليست فاطمة بنت محمد حليلة أبى، وأم إخوتى ؟! أليست فاطمة بنت أسد جَدَّتى ؟! أو ليست فاطمة بنت عمرو بن عائذ جدة أبى ؟! أما والله لولا خديجة بنت خويلد بن أسد ما تركت فى بنى أسد عظمًا إلا هشمته، وإن نالتنى منهم المعايب[٤]، صبرت[٥].

ولما استولى المختار على الكوفة، وأظهرت الشيعة دعوة ابن الحنفية، خاف ابن الزبير أن يتداعى الناس إلى الرضا به، فاعتزم عليهم فى البيعة وتوعدهم بالقَتْل، وحبسهم بزمزم، وضرب لهم أجلًا، وكتب ابن الحنفية إلى المختار بذلك فأخبر الشيعة وندبهم، وبعث أمراء منهم فى نحو ثمانمائة عليهم عبد الله الحذلى، وبعث لابن الحنفية أربعمائة ألف درهم، وساروا إلى مكة، فدخلوا المسجد الحرام وبأيديهم الخشب - كراهة إشهار السيف فى الحرم - وطفقوا ينادون بثأر الحسين حتى انتهوا إلى زمزم، وأخرجوا ابن الحنفية، وقد كان بقى من أجله يومان واستأذنوه فى قتال ابن الزبير، فقال: لا أستحلُّ القتال فى الحرم، ثم جاء باقى الجند، وخافهم ابن الزبير، وخرج ابن الحنفية إلى شعب على، واجتمع له أربعة آلاف رجل، فقسم بينهم المال وامتنع، ولما قتل المختار واستوثق أمر ابن الزبير، بعث إليه بالبيعة،

(١) تقدم تخريجه وينظر موقعة صفين.
(٢) تقدم تخريجه في مناقب الحسن.
(٣) ينظر مروج الذهب (٣/ ٨٩-٩٠).
(٤) في المروج: فيه المصائب.
(٥) ينظر مروج الذهب (٣/ ٨٩).

فخافه على نفسه، وكتب لعبد الملك، فأذن له أن يقدم الشام حتى يستقيم أمر الناس، ووعده بالإحسان فخرج ابن الحنفية وأصحابه إلى الشام، ولما وصل مدين، لقيه خبر مهلك عمرو بن سعيد فندم، وأقام بأيلة وظهر للناس فضله وعبادته وزهده، وكتب له عبد الملك أن يبايعه، فرجع إلى مكة ونزل شعب أبى طالب، فأخرجه ابن الزبير إلى الطائف، وعذل ابن عباس ابن الزبير على شأنه، ثم خرج عنه ولحق بالطائف ومات هناك، فصلى عليه ابن الحنفية وعاش حتى أدرك حصار الحجاج لابن الزبير، ولما قتل ابن الزبير، بايع محمد ابن الحنفية لعبد الملك، وكتب عبد الملك إلى الحجاج بتعظيم حقه وبَسْطِ أمله، ثم قدم الشام، وطلب من عبد الملك أن يرفع عنه، ففعل.

وقيل: إن ابن الزبير بعث إلى ابن عباس وابن الحنفية فى البيعة، فقالا: حتى يجتمع الناس على إمام؛ فإن هذه فتنة، فحبس ابن الحنفية فى زمزم، وضيق على ابن عباس فى منزله، فأراد إحراقهما، فأرسل المختار جيشه كما تقدَّم ونفس عنهما، فلما قتل المختار، قوى ابن الزبير عليهما، فخرجا إلى الطائف.

مقتل ابن زياد(١)

ولما فرغ المختار من قتال أهل الكوفة آخر سنة ست وستين، بعث إلى إبراهيم ابن الأشتر لقتال ابن زياد، وبعث معه بالكرسى الذى يستنصر به، وهو كرسيٌّ قد غشاه بالذهب، وقال للشيعة: هذا فيكم مثل التابوت فى بنى إسرائيل، فكثر السبئية، وأحضره قتال ابن زياد، فكان له الظهور، فازدادت الشيعة فتنة، ويقال: إنه كرسى على بن أبى طالب، وإن المختار أخذه من ولد جعدة بن هبيرة، وكانت أمه أم هانئ بنت أبى طالب، فهو ابن أخت على، ثم أسرع إبراهيم بن الأشتر السير، وأوغل فى أرض الموصل، وكان ابن زياد قد ملكها كما مرَّ، فلما دخل إبراهيم أرض الموصل، عبأ أصحابه، ولما بلغ نهر الخابور، بعث على مقدمته الطفيل بن لقيط

(١) ينظر: [عبيد الله بن زياد] فى البدء والتاريخ ٦/ ١٢، مرآة الجنان ١/ ١٤٢، البداية والنهاية ٨/ ٢٨٣، نثر الدر ٥/ ١٣، وفيات الأعيان ٢/ ٥٠٢، فتوح البلدان ١١٩، جمهرة أنساب العرب ١١٣، العقد الفريد ١/ ١١٧ و١٤٨ و١٤٩، المعارف ١٨٨، المعرفة والتاريخ ١/ ٢١٨، أنساب الأشراف ٣/ ٢٩٨، تاريخ خليفة ص ٢١، تاريخ الطبرى ١٠/ ٣٢٧، تاريخ اليعقوبى ٢/ ٢٣٦، الأخبار الطوال ٢٢٥ و٢٢٧، المحبّر ٣٠٣ .

النخعى، ونزل ابن زياد قريبًا من النهر، وكانت قيس مضطغنة على بنى مروان من وقعة المرج، وجند عبد الملك يومئذ كليب، فلقى عمير بن الحباب السلمى إبراهيم ابن الأشتر، ووعده بأن ينهزم بالميسرة، وأشار عليه بالمناجزة، ورأى عند ابن الأشتر ميلاً إلى المطاولة فثناه عن ذلك، وقال: إنهم ملئوا منكم رعبًا، وإن طاولتهم اجترءوا عليكم، قال: وبذلك أوصانى صاحبى، ثم عبأ أصحابه فى السحر الأول يمشى ويحرض الناس حتى أشرف على القوم، وجاء عبد الله بن زهير السكونى بأنهم خرجوا على دهش وفشل، وابن الأشتر يحرض أصحابه ويذكرهم فعال ابن زياد وأبيه، ثم التقى الجمعان، وحمل الحصين بن نمير من ميمنة أهل الشام على ميسرة إبراهيم، فقتل على بن مالك الخثعمى، ثم أخذ الراية قرة بن على، فقتل، وانهزمت الميسرة كما كانوا، وحملت ميمنة إبراهيم على ميسرة ابن زياد، وهم يرجون أن ينهزم عمير بن الحباب كما وعدهم، فمنعته الأنفة من ذلك وقاتل قتالاً شديدًا، وقصد ابن الأشتر قلب العسكر وسواده الأعظم، فاقتتلوا أشد قتال حتى كانت أصوات الضرب بالحديد كأصوات القَصَّارين، وإبراهيم يقول لصاحب الراية: انغمس برايتك فيهم، ثم حملوا حملة رجل واحد، فانهزم أصحاب ابن زياد، وقال ابن الأشتر: إنى قتلت رجلاً تحت راية منفردة، شممت منه رائحة المسك، وضربته بسيفى فقصمته نصفين فالتمسوه، فإذا هو ابن زياد، فأخذ رأسه وأحرقت جثته.

وحمل شريك بن جدير التغلبى على الحصين من غير سلاح، فاعتنقه وجاء به أصحابه، فقتلوا الحصين، ويقال: إن الذى قتل ابن زياد هو ابن جدير هذا، وقتل شرحبيل بن ذى الكلاع، وادعى قتله سفيان بن يزيد الأزدى، وورقاء بن عازب الأسدى، وعبيد الله بن زهير السلمى، واتبع أصحاب ابن الأشتر المنهزمين، فغرق فى البحر أكثر ممن قتل وغنموا جميع ما فى العسكر، وطير ابن الأشتر البشارة إلى المختار، فأتته بالمدائن، وأنفذ ابن الأشتر عماله إلى البلاد، فبعث أخاه عبد الرحمن إلى نصيبين، وغلب على سنجار ودارة وما والاهما من أرض الجزيرة، وولى زفر ابن الحارث قرقيسيا، وحاتم بن النعمان الباهلى حَرَّان والرُّهَا وسميساط، وعمير بن الحباب السلمى كفر توثا وطور عبدين، وأقام بالموصل، وأنفذ رءوس عبيد الله وقواده إلى المختار.

مسير مصعب(١) إلى المختار وقتله إياه

كان ابن الزبير فى أول سنة سبع وستين - أو آخر سنة ست - عزل الحارث بن أبى ربيعة - وهو القباع - وولى مكانه أخاه مصعبًا، فقدم البصرة، وصعد المنبر، وجاء الحارث فأجلسه مصعب تحته بدرجة، ثم خطب وقرأ الآيات من أول القصص ونزل، ولحق به أشراف الكوفة، حين هربوا من المختار، ودخل عليه شبيب بن ربعى، وهو ينادى: واغوثاه، ثم قدم محمد بن الأشعث بعده، واستحثوه على المسير، وبعث عن المهلب بن أبى صفرة، وهو عامله على فارس ليحضر معه قتال المختار، فأبطأ، واعتلَّ، فأرسل إليه محمد بن الأشعث بكتابه، فقال المهلب: ما وجد مصعب بريدًا غيرك؟! فقال: ما أنا ببريد، ولكن غلبنا عبيدنا على آبائنا وحرمنا، فأقبل معه المهلب بالجموع والأموال، وعسكر مصعب عند الجسر.

وأرسل عبد الرحمن بن مخنف إلى الكوفة سِرًّا ليثبط الناس عن المختار، ويدعو الناس إلى ابن الزبير، وسار على التعبئة، وبعث فى مقدمته عباد بن الحصين الحبطى التميمى، وعلى ميمنته عمر بن عبيد الله بن معمر، وسار ميسرته المهلب، وبلغ الخبر المختار، فقام فى أصحابه وندبهم إلى الخروج مع ابن شميط، وعسكر بحمام أعين، وبعث برءوس الأرباع الذين كانوا مع ابن الأشتر مع ابن شميط، فسار وعلى مقدمته ابن كامل الشاكرى، وانتهى إلى المدار فعسكر قريبًا من مصعب، ثم حمل عباد صاحب مقدمة مصعب على ابن شميط وأصحابه، فثبتوا وحمل المهلب على الميسرة على ابن كامل فثبت، ثم كَرَّ المهلب وحمل حملة منكرة وصبر ابن كامل قليلاً وانهزموا، وحمل الناس جميعًا على ابن شميط، فانهزم وقتل واستحرَّ القتل فى الرجال، وبعث مصعب عبادًا فقتل كل أسير أخذه، وتقدَّم محمد بن الأشعث فى خيل من أهل الكوفة؛ فلم يدركوا منهزمًا إلا قتلوه.

ولما فرغ مصعب منهم، أقبل فقطع الفرات، وسار إلى الكوفة، ولما بلغ المختار

(١) ينظر: طبقات خليفة (٢٤١)، طبقات ابن سعد (٥/ ١٨٢)، التاريخ الكبير (٧/ ٣٥٠)، الأخبار الطوال (١٤٢)، مروج الذهب (٣/ ١٠٦)، العقد الفريد (٧/ ١٥١)، المعرفة والتاريخ (١/ ٢١٤، ٢٢٣، ٦٢٧، ٢/ ٤٧٩، ٧٥٨، ٣/ ٩١، ٣١٣)، الثقات (٥/ ٤١٠)، البداية والنهاية (٨/ ٣١٧)، النجوم الزاهرة (١/ ١٨٧)، الكامل (١٣/ ٣٤٥)، سيرة ابن هشام (١/ ١١٢)، الفتوح لابن أعثم (٦/ ٢٦٠)، الجرح والتعديل (٨/ ٣٣).

خبر الهزيمة ومن قتل من أصحابه، وأن مصعبًا أقبل إليه فى البر والبحر سار إلى مجمع الأنهار - نهر الجزيرة والسلحين والقادسية ونهر يوسف - فكسر الفرات فذهب ماؤه فى الأنهار، وبقيت السفن سفن أهل البصرة فى الطين، فخرجوا إلى الكسر وأزالوه وقصدوا الكوفة، وسار المختار فنزل حروراء[(١)] بعد أن حصن القصر، وأدخل عدة الحصار.

وأقبل مصعب وعلى ميمنته المهلب، وعلى ميسرته سعيد بن منقذ الهمدانى، وعلى الخيل عمرو بن عبد الله النهدى، ونزل محمد بن الأشعث فيمن هرب من أهل الكوفة بين العسكرين.

ولما التقى الجمعان، اقتتلوا ساعة وحمل عبد الله بن جعدة بن هبيرة المخزومى على من بإزائه، فحطم أصحاب المختار حطمة منكرة وكشفوهم، وحمل مالك بن عمرو النهدى فى الرجالة عند المساء على ابن الأشعث حملة منكرة، فقتل ابن الأشعث وعامة أصحابه، وقتل عبيد الله بن على بن أبى طالب، وقاتل المختار، ثم افترق الناس عنه ودخل القصر، وسار مصعب من الغد فنزل السبخة، وقطع عنهم الميرة، وكان الناس يأتونهم بالقليل من الطعام والشراب خفية، ففطن مصعب لذلك فمنعه، وأصابهم العطش، فكانوا يصبون العسل فى الآبار ويشربون.

ثم إن المختار أشار على أصحابه بالاستماتة فتحنط وتطيب وخرج فى عشرين رجلًا منهم السائب بن مالك الأشعرى فعذله، فقال: ويحك يا أحمق، وثب ابن الزبير بالحجاز، وابن نجدة باليمامة، ومروان بالشام، فكنت كأحدهم إلا أنى طلبت بثأر أهل البيت إذ نامت عنه العرب، فقاتل على حسبك إن لم تكن لك نية، ثم تقدم فقاتل حتى قتل على يد رجلين من بنى حنيفة أخوين: طرفة وطراف ابنى عبد الله بن دجاجة.

وكان عبد الله بن جعدة بن هبيرة لما رأى عزم المختار على الاستماتة تدلى من القصر واختفى عند بعض إخوانه، ثم بعث الذين بقوا بالقصر إلى مصعب، ونزلوا على حكمه، فقتلهم أجمعين، وأشار عليه المهلب باستبقائهم، فاعترض أشراف الكوفة ورجع إلى رأيهم، ثم أمر بكف المختار بن أبى عبيد فقطعت وسمرت إلى

(١) حَرَوْرَاء: قرية بظاهر الكوفة، وقيل: موضع على ميلين منها. ينظر المراصد (١/ ٣٩٤).

جانب المسجد، فلم ينزعها من هنالك إلا الحَجَّاج. وقتل زوجته خولة بنت النعمان ابن بشر زعمت أن المختار [رجل كان يقول ربى الله وكان يصوم نهاره ويقوم ليله، وأنه بذل دمه لله ولرسوله فى طلب قتلة الحسين وأهل بيته][1] فاستأذن أخاه عبد الله وقتلها؛ كذا فى تاريخ ابن خلدون.

قال المسعودى[2]: أتى مصعب بحريم المختار، فدعاهنَّ إلى البراءة منه فقبلْنَ[3]، إلا حرمتان؛ إحداهما: فاطمة بنت سمرة بن جندب الفزارى، والأخرى: خولة بنت النعمان بن بشير الأنصارى، فكتب مصعب بخبرهما إلى أخيه عبد الله بن الزبير، فكتب إليه: إن رجعتا عما هما عليه وبرئتا، وإلا فاقتلهما، فلما طلب البراءة منهما، قالتا: كيف نبرأ من رجل [يقول ربى الله][4] كان صائم النهار وقائم الليل، قد بذل دمه لله ورسوله فى طلب قتلة ابن بنت نبيه وأهله وشيعته، فأمكنه الله منهم حتى شفى النفوس، وأبرد الأكباد، فعرضهما مصعب على السيف، فأجابت الفزارية وتبرأت منه ولعنته، وقالت: لو دعوتمونى إلى الكفر مع السيف، لكفرت، وأما ابنة النعمان الأنصارية فأبت، وقالت شهادة أرزقها فأتركها؟! كلا إنها موتة ثم الجنة، وأقدم على رسول الله ﷺ وأهل بيته، اللهم، اشهد أنى متبعة نبيك وابن عمه وأهل بيته، ثم قدمت فقتلت، ففى ذلك يقول عمر بن أبى ربيعة: [من الخفيف]

إِنَّ مِنْ أَعْجَبِ الأَعَاجِيبِ عِنْدِى ... قَتْلَ حَسْنَاءَ غَادَةٍ عُطْبُولِ[5]
قَتَلُوهَا ظُلمًا عَلَى غَيْرِ جُرْمٍ ... إِنَّ لِلَّـهِ دَرَّهَا مِنْ قَتِيلِ
كُتِبَ القَتْلُ والقِتَالُ عَلَيْنَا ... وَعَلَى الغَانِيَاتِ جَرُّ الذُّيُولِ

ثم كتب مصعب إلى إبراهيم بن الأشتر يدعوه إلى طاعته ويعده بالولاية على أعنَّة الخيل، وما غلب عليه من أرض العرب، وكتب إليه عبد الملك بولاية العراق، واختلف إليه أصحابه، وجنح إلى مصعب خشية مما أصاب من ابن زياد وأشراف

---

(١) بياض بالأصل، والزيادة بالمعني من مروج الذهب ليستقيم المعنى.
(٢) ينظر مروج الذهب (٣/ ١٠٧).
(٣) في المروج: ففعلن.
(٤) الزيادة من المروج.
(٥) في المروج: بيضاء حرة عطبول. والعُطْبول: المرأة الفتية الجميلة الممتلئة الطويلة العنق. ينظر ترتيب القاموس (عطبل).

الشام، فكتب إلى مصعب بالإجابة، وسار إليه فبعث على عمله بالموصل والجزيرة وأرمينية وأذربيجان المهلب بن أبى صفرة.

وقيل: إن المختار إنما أظهر الخلاف لابن الزبير عند قدوم مصعب البصرة، وإنه بعث على مقدمته أحمد بن شميط، وبعث مصعب عبادًا الحبطى، ومعه عبيد الله بن على بن أبى طالب، وتوافوا ليلًا، فناجزهم المختار من ليلته، وانكشف أصحاب مصعب إلى عسكرهم، واشتدَّ القتال وقتل من أصحاب مصعب جماعة منهم محمد ابن الأشعث، فلما أصبح المختار وجد أصحابه قد توغلوا فى أصحاب مصعب، وليس عنده أحد، فانصرف ودخل قصر الكوفة، وفقده أصحابه، فلحقوا به، ودخل القصر معه ثمانية آلاف منهم، وأقبل مصعب فحاصرهم أربعة أشهر يقاتلهم بالسيف كل يوم حتى قتل، وطلب الذين فى القصر الأمان من مصعب، ونزلوا على حكمه فقتلهم جميعًا، وكانوا ستة آلاف رجل.

ولما ملك مصعب الكوفة، بعث عبد الله بن الزبير ابنه حمزة على البصرة مكان مصعب، فأساء السيرة، وقصر بالأشراف، ففزعوا إلى مالك بن مسمع، فخرج إلى الجسر وبعث إلى حمزة: الحق بأبيك، وكتب الأحنف إلى أبيه أن يعزله عنهم ويعيد لهم مصعبًا، ففعل، وخرج بالأموال فعرض له مالك بن مسمع، وقال: لا ندعك تخرج بأعطياتنا، فضمن له عمر بن عبيد الله العطاء، فكف عنه.

وقيل: إن عبد الله بن الزبير إنما رد مصعبًا إلى البصرة عند وفادته عليه بعد سنة من قتل المختار، ولمَّا رد إلى البصرة، استعمل عمر بن عبيد الله بن معمر على فارس، وولاه حرب الأزارقة، وكان المهلب على حربهم أيام مصعب وحمزة، فلما أراد أن يولى المهلب الموصل والجزيرة وأرمينية؛ ليكون بينه وبين عبد الملك، فاستقدمه واستخلف على عمله ابنه المغيرة، فلما قدم البصرة، عزله مصعب عن حرب الخوارج وبلاد فارس، واستعمل عليها عمر بن عبيد الله بن معمر؛ فكان له فى حروبهم مانذكره فى أخبار الخوارج.

* * *

خلاف عمرو بن سعيد الأشدق ومقتله[1]

كان عبد الملك بعد رجوعه من قنسرين، أقام بدمشق زمانًا، ثم سار لقتال زفر بن الحارث الكلابى بقرقيسيا، واستخلف على دمشق عبد الرحمن بن أم الحكم الثقفى- ابن أخته - وسار معه عمرو بن سعيد، فلما بلغ بطنان، انتقض عمرو، وأسرى ليلاً إلى دمشق، وهرب ابن أم الحكم عنها، فدخلها وهدم داره، واجتمع إليه الناس فخطبهم ووعدهم، وجاء عبد الملك على أثره، فحاصره بدمشق، ووقع بينهما القتال أيامًا، ثم اصطلحا وكتبا بينهما كتابًا وأمنه عبد الملك، فخرج إليه عمرو، ودخل عبد الملك دمشق فأقام أربعة أيام، ثم بعث إلى عمرو ليأتيه، فقال له عبد الملك بن يزيد بن معاوية وهو صهره وكان عنده: لا تأته؛ فإني أخشى عليك منه، فقال: والله لو كنت نائمًا ما أيقظنى، ووعد الرسول بالرواح إليه.

ثم أتى بالعشى ولبس درعه تحت القباء، ومضىٰ فى مائة من مواليه، وقد جمع عبد الملك عنده بنى مروان، وحسان بن بحدل الكلبى، وقبيصة بن ذؤيب الخزاعى، وأذن لعمرو فدخل، ولم يزل أصحابه يجلسون عند كل باب حتى بلغ غاية الدار وما معه إلا غلام، ونظر إلى عبد الملك والجماعة حوله فأحس بالشر، فقال للغلام: انطلق إلى أخى يحيى، وقل له يأتينى، فلم يفهم عنه، وأعاد عليه فيجيبه الغلام: لبيك؟ وهو لايفهم، فقال له: اغرب عنى، ثم أذن عبد الملك لحسان وقبيصة فلقيا عمرًا، ودخل فأجلسه معه على السرير وحادثه زمنًا، ثم أمر بنزع السيف، فأنكر ذلك عمرو، وقال: إنا لله يا أمير المؤمنين، فقال عبد الملك: أتطمع أن تجلس معى متقلّدًا سيفك؟! فأخذ عنه السيف، فقال له عبد الملك: يا أبا أمية إنك حين خلعتنى حلفتُ بيمين، إن أنا رأيتك بحيث أقدر عليك أن أجعلك فى جامعة، فقال بنو مروان: ثم تطلقه يا أمير المؤمنين، قال: نعم، وما عسيت أن

---

(١) ينظر عن عمرو بن سعيد في: طبقات خليفة (١١، ٢٩٨)، سيرة ابن هشام (١/ ٢٩٢)، الأخبار الطوال (٢٤٤)، المعرفة والتاريخ (٣/ ٣٢٦)، عيون الأخبار (٢/ ١٧١)، مختصر التاريخ (١١٠)، تقريب التهذيب (٢/ ٧٠)، الأصابة (٣/ ١٧٥)، خلاصة تهذيب التهذيب (٢٨٩) الكنى والأسماء (١/ ١١٣)، سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٤٩)، تهذيب الكمال (١٠٣٥)، العقد الفريد (١/ ٧٩)، تاريخ الطبرى (٥/ ٤٧٤)، الكامل في التاريخ (٢/ ٤١٤)، المعارف (١٤٥)، تاريخ خليفة (٩٧)، المحبّر (١٠٤).

أصنع بأبى أمية، فقال بنو مروان: أبر قسم أمير المؤمنين يا أبا أمية، فقال عمرو: قد أبر الله قسمك يا أمير المؤمنين.

فأخرج من تحت فراشه جامعة، وأمر غلامًا فجمعه فيها وسأله أن يخرجه على رءوس الناس، فقال: أمكرًا عند الموت؟! ثم جذبه جذبة أصاب فمه السرير، فكسر ثنيته، ثم سأله الإبقاء، فقال عبد الملك: والله، لو علمتُ أنك تبقى إن أبقيت عليك، وتصلح قريش، لأبقيتك، ولكن لايجتمع رجلان مثلنا فى بلد، فشتمه عمرو، وخرج عبد الملك إلى الصلاة وأمر أخاه عبد العزيز بقتله، فلما قام إليه بالسيف، ذكره الرحم، فأمسك عنه وجلس، ورجع عبد الملك من الصلاة وغلقت الأبواب، فأغلظ على عبد العزيز، ثم تناول عمرًا فذبحه بيده، وقيل: أمر غلامه ابن الزعيزعة فقتله.

وفقد الناس عمرًا مع عبد الملك حين خرج إلى الصلاة، فأقبل أخوه يحيى فى أصحابه وعبيده، وكانوا ألفًا ومعه حميد بن حريث وزهير بن الأبرد، فهتفوا باسمه، ثم كسروا باب المقصورة، وضربوا الناس بالسيوف، وجرحوا الوليد بن عبد الملك، واقتتلوا ساعة، ثم خرج عبد الرحمن بن أم الحكم الثقفى بالرأس، فألقاه إلى الناس، وألقى إليهم عبد العزيز بن مروان بدر الأموال فانتهبوها وافترقوا، ثم خرج عبد الملك إلى الناس، وسأل عن الوليد، فأخبر بجراحته، وأتى بيحيى بن سعيد وأخيه عنبسة، فحبسهما وحبس بنى عمرو بن سعيد، ثم أخرجهم جميعًا، وألحقهم بمصعب حتى حضروا عنده بعد قتل مصعب فأمنهم ووصلهم.

وكان بنو عمرو أربعة: أمية، وسعيد، وإسماعيل، ومحمد، ولما حضروا عنده قال: أنتم أهل بيت ترون لكُمْ على جميع قومكم فضلاً لن يجعله الله لكم، والذى كان بينى وبين أبيكم لم يكن حديثًا، وإنما كان قديمًا فى أنفس أوليائكم على أوليائى فى الجاهلية، فقال سعيد: يا أمير المؤمنين تعد علينا أمرًا كان فى الجاهلية، والإسلام قد هدم ذلك، ووعد جنة، وحذَّر نارًا، وأما عمرو فهو ابن عمك، وقد وصل إلى الله وأنت أعلم بما صنعت، وإن أَخَذْتَنَا بِهِ، فبطن الأرض خير لنا من ظهرها، فَرَقَّ لهم عبد الملك وقال: أبوكم خيَّرنى بين أن يقتلنى أو أقتله، فاخترتُ قتله على قتلى، وأما أنتم فما أَرغبنى فيكم وأوصلنى لقرابتكم. وأحسن جائزتهم.

وقيل: إن عمرًا إنما كان خَلْعُهُ وقتله حين سار عبد الملك لقتال مصعب، طلبه أن يجعل له العهد بعده كما فعل أبوه؛ فلم يجبه إلى ذلك، فرجع إلى دمشق.

وقيل: كان عبد الملك استخلفه على دمشق، فعصى وامتنع بها، وكان قتله سنة تسع وستين.

مسير عبد الملك إلى العراق ومقتل مصعب

ولما صفا الشام لعبد الملك، اعتزم على العراق، وأتته الكتب من أشرافهم يدعونه، فاستمهله أصحابه، فأبى وسار نحو العراق، وبلغ مصعبًا مسيره فأرسل إلى المهلب بن أبى صفرة، وهو بفارس فى قتال الخوارج يستشيره، وقد كان عزل عمر ابن عبيد الله بن معمر عن فارس وحرب الخوارج، وولى المهلب مكانه، وذلك حين استخلف هو على البصرة وجاء خالد بن عبيد الله بن خالد بن أسد إلى البصرة مختفيًا داعية لعبد الملك عند مالك بن مسمع فى بكر بن وائل والأزد، وأمده عبد الملك بعبيد الله بن زياد بن ظبيان، وحاربهم عمر بن عبيد الله بن معمر، ثم صالحهم على أن يخرجوا خالدًا فأخرجوه، وجاء مصعب وقد طمع أن يدرك خالدًا فوجده قد خرج، فسخط على ابن معمر، وسَبَّ أصحابه، وضربهم وهدم دورهم، وخلعهم، وهدم دار مالك بن مسمع، واستباحها، وعزل ابن معمر عن فارس، وولى المهلب وخرج إلى الكوفة، فلم يزل بها حتى سار للقاء عبد الملك.

قلت: هكذا ذكره فى العبر، ورأيت فى المروج ما نصه[1]: كان مصعب حين صفا له العراق بعد قتل المختار وأصحابه، خرج حتى انتهى إلى الموضع المعروف بـ« باجميرا »[2] مما يلى الجزيرة، يريد الشام لحرب عبد الملك بن مروان، فبلغه مسير خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد من مكة إلى البصرة فى عدة من مواليه وولده ناكثًا لبيعة أخيه عبد الله بن الزبير وداعية لعبد الملك، فحاربه مصعب فكسره، فخرج هاربًا ببنيه حتى لحق بعبد الملك.

وهو كما ترى مخالفٌ لقول صاحب كتاب العبر.

---

(١) يُنظر مروج الذهب (٣/ ١١٢).

(٢) في ط: بالحميراء. وهو تحريف والصحيح ما أثبتنا و (باجُمَيْرا): موضع دون تكريت إلى الموصل. ينظر المراصد (١/ ١٤٧).

وجاء مصعب وطمع أن يدرك خالدًا فوجده قد خرج، فسخط على ابن معمر، وسبَّ أصحابه. . . إلى آخره.

قال الذهبى: يروى فى بعض الآثار أن مصعبًا لما سار عن الكوفة عشرة أيام يريد قتال عبد الملك بن مروان، كتب إلى زوجته سكينة ابنة الحسين بن على، رضى الله عنه: [من الطويل]

وَكَانَ عزيزًا أن أَبِيتَ وبَيْنَنَا سِفَارٌ فَقَدْ أصبحْتُ منكِ على عَشْرِ
وأَنْكَاهُمَا للعَيْنِ واللَّهِ فاعْلَمِى إذ ازددتُّ مِثْلَيْهَا فصرْتُ على شَهْرِ
وأَبْكى لعينى منهما اليَوْمَ أننى أَخَافُ بألاَّ نَلْتَقِى آخِرَ الدَّهْرِ

فلما جاءها الخبر بموته، قالت: [من الطويل]

فَإِنْ تقتلوه تقتُلُوا الماجِدَ الذى يرى الموْتَ إلا بالسيُوفِ حَرَامَا
وقبلك ما خَاضَ الحُسَين مَنِيَّةً إلى السيْفِ حتى أوردُوهُ حِمَامَا

وكان معه الأحنف، فتوفى بالكوفة، ولما بعث عن المهلب يسير معه إلى أهل البصرة أن يكون المهلب على قتال الخوارج، فرده، فقال له المهلب: إن أهل العراق قد كاتبوا عبد الملك وكاتبهم؛ فلا نتعدَّىٰ، ثم بعث مصعب عن إبراهيم بن الأشتر، وكان على الموصل والجزيرة، فجعله على مقدمته، وسار حتى عسكر فى مسكن، وسار عبد الملك وعلى مقدمته أخوه محمد بن مروان، وخالد بن عبد الله ابن خالد بن أسيد، فنزلوا قرقيسيا، وحصروا زفر بن الحارث الكلابى، ثم صالحه، وبعث زفر معه الهذيل ابنه فى عسكر وسار عنه، فنزل بمسكن قريبًا من عسكر مصعب، وفر الهذيل من زفر، ولحق بمصعب، وكتب عبد الملك إلى أهل العراق وكتبوا إليه وكلهم يشرط أصبهان، وأتى ابن الأشتر بكتابه مختومًا إلى مصعب، فقرأه، فإذا هو يدعو إلى نفسه، ويجعل له ولاية العراق، فأخبره مصعب بما فيه، وقال: مثل هذا لايرغب عنه، فقال إبراهيم: ماكنت لأتقلَّد الغدر والخيانة، ولقد كتب عبد الملك إلى أصحابك كلهم مثل هذا فأطعنى، واقتلهم أو احبسهم فى أبيض كسرى، فأبى عليه مصعب، وأضمر أهل العراق الغدر بمصعب، وعذلهم قيس بن الهيثم ولامهم فى طاعة أهل الشام، فأعرضوا عنه.

ولما تدانى العسكران بعث عبد الملك إلى مصعب يقول: تعال نجعل الأمر

شورى، فقال مصعب: ليس بيننا إلا السيف، فقدم عبد الملك أخاه محمدًا، وقدم مصعب إبراهيم بن الأشتر، وأمده بالجيش، فأزال محمدًا عن موقفه فأمده عبد الملك بعبد الله بن يزيد، فاشتد القتال، وقتل من أصحاب مصعب مسلم بن عمرو الباهلى والد قتيبة، وأمد مصعب إبراهيم بعتاب بن ورقاء، فساء ذلك إبراهيم، ونكره، وقال: قد أوصيته لايمدنى بعتاب وأمثاله، وكان قد بايع لعبد الملك، فجرَّ الهزيمة على إبراهيم، فقتل وحمل رأسه إلى عبد الملك، وتقدم أهل الشام، فقاتل مصعب ودعا رءوس العراق إلى القتال، فاعتذروا وتثاقلوا، فدنا محمد ابن مروان من مصعب وناداه بالأمان، وأشعره بغدر أهل العراق، فأعرض عنه، فنادى ابنه عيسى بن مصعب، فأذن له أبوه فى لقائه، وبذل له الأمان وأخبر أباه، فقال: أظنهم يَفُونَ لك بذلك، فإن أحببت فافعل، قال: لاتتحدَّث نساء قريش أنى رغبت بنفسى عنك، قال: فاذهب إلى عمك بمكة، فأخبره بصنع أهل العراق، ودعنى، فإنى مقتول، فقال: لا أخبر قرشيًا عنك أبدًا، ولكن الحق أنت بالبصرة، فإنهم على الطاعة، أو بأمير المؤمنين بمكة، فقال: لا تتحدَّث قريش عنى أننى فرزتُ، ثم قال لعيسى: تقدم يا بنى أحتسبك، فتقدم فى ناس وقتل وقتلوا، ولج عليه عبد الملك فى قبول أمانِهِ، فأبى، ودخل سرادقه فتحنَّط ورمى السرداق فخرج، فقاتل، ودعاه عبيد الله بن زياد بن ظبيان إلى البراز، فشتمه وحمل عليه، فضربه فجرحه.

وخذل أهل العراق مصعبًا حتى بقى فى سبعة أنفس، فأثخنته الجراحة، فرجع إليه عبيد الله بن زياد بن ظبيان فقتله، وجاء برأسه إلى عبد الملك، فأمر له بألف دينار، فلم يأخذها وقال: إنما قتلته بثأر أخى، وكان قطع الطريق فقتله صاحب شرطة مصعب، وقيل: إن الذى قتله زائدة بن قدامة الثقفى من أصحاب المختار، وأخذ عبيد الله رأسه وأمر عبد الملك به وبابنه عيسى، فدفنا بدير الجاثليق عند نهر دجيل، وكان ذلك سنة إحدى وسبعين.

قال الذهبى[1]: لما بذل لمصعب الأمان - وقد بقى فى سبعة نفر - أبى وبارز فعرقبت فرسه، وبقى راجلاً فأقبل عبيد الله بن زياد بن ظبيان، وكان قد أثخن

(١) ينظر تاريخ الإسلام (٣٠٤- حوادث سنة ٦١-٨٠هـ).

جراحًا. فاختلفا ضربتين سبقه مصعب بالضربة الأولى إلى رأسه فلم تؤثر ضربته إلا جرحًا، وضربه ابن ظبيان فقتله وأخذ رأسه إلى عبد الملك، فسجد، وقبض عبيد الله بن ظبيان على قائم سيفه، واجتذبه حتى أتى على أكثره، سله ليضرب به عبد الملك حال سجوده، ثم تذمَّم واسترجع، فكان يقول بعد ذلك: ذهب الفتك بين الناس إذ هممت فلم أفعل؛ فأكون قد قتلت عبد الملك ومصعبًا ملكَى العرب فى ساعة واحدة.

وكان قتله يوم الثلاثاء، لثلاث عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى، سنة اثنتين وسبعين من الهجرة النبوية، ودفن هو وابنه بدير الجاثليق كما تقدم آنفًا.

وتمثل عبد الملك عند مجىء رأس مصعب بقوله: [من الطويل]

نُعَاطِى الملوكَ الحقَّ ما قَسَطُوا لنا ... ولَيْسَ علينا قَتْلُهُمْ بِمُحَرَّمِ

ولما رجع عبد الملك إلى الكوفة، ودخل قصر الإمارة، وضع الرأس بين يديه.

حدَّث المنقرى، قال: حدثنى سويد بن سعيد، قال: حدثنا مروان بن معاوية الفزارى، عن محمد بن عبد الرحمن، عن أبى مسلم بن الحنفى: كنت مع عبد الملك بن مروان حين جىء إليه برأس مصعب بن الزبير، فرأى عبد الملك فىَّ اضطرابًا، فسألنى، فقلت: يا أمير المؤمنين، دخلت هذا القصر، يعنى: قصر الإمارة بالكوفة، فرأيت رأس الحسين بين يَدَىْ عبيد الله بن زياد فى هذا الموضع، ثم دخلته فرأيتُ رأسَ ابن زياد بين يَدَى المختار بن أبي عُبَيْدٍ الثقفي، ثم دَخَلْتُهُ فرأيت رأسَ المختار بين يدى مصعب بن الزبير، وهذا مصعبٌ بين يديك، فوثب عبد الملك متطيرًا، وقال: لا أراك الله الخامس، وأمر بهدم القصر حجرًا حجرًا.

ثم دعا عبد الملك جند العراق إلى البيعة فبايعوه، وسار إلى الكوفة، فأقام بالنخيلة أربعين يومًا، وخطب الناس، فوعد المحسن وتوعد المسيء، وطلب يحيى ابن سعيد بن جعفر وكانوا أخواله فأحضروه وأمنه، ثم ولى أخاه بشر بن مروان على الكوفة، ومحمد بن نمير على همذان، ويزيد بن ورقاء بن رويم على الرى، ولم يف لهم بأصفهان؛ كما اشترطوا عليه.

وكان عبد الله بن يزيد بن أسد والد خالد القسرى ويحيى بن مصدق الهمدانى قد لجأا إلى على بن عبيد الله بن عباس، ولجأ هذيل بن زفر بن الحارث، وعمرو بن يزيد الحكمى إلى خالد بن يزيد، فأمنهم عبد الملك، وصنع عمرو بن حريث

لعبد الملك طعامًا، فأحضره بالخورنق، وأذن للناس عامة فدخلوا، وجاء عمرو بن حريث، فأجلسه معه على سريره، وطعم الناس، ثم طاف مع عمرو بن حريث على القصر يسأله عن مساكنه ومعالمه، ولما بلغ عبد الله بن خازم مسير مصعب لقتال عبد الملك قال: أمعه عمر بن معمر؟! قيل: لا، هو على فارس، قال: فالمهلب ؟ وقيل: فى قتال الخوارج، قال: فعباد بن الحصين ؟ قيل: على البصرة، قال: وأنا بخراسان: [من الطويل]

خُذِينِى فَأَجْرِينِى جَعَارِ وَأَبْشِرِى بِلَحْمِ امرِئٍ لم يَشْهَدِ اليَوْمَ نَاصِرهْ

ثم بعث عبد الملك برأس مصعب إلى الكوفة، ثم إلى الشام، فنصب بدمشق، وأرادوا التطواف به، فمنعت من ذلك زوجة عبد الملك عاتكة بنت يزيد بن معاوية، فغسلته ودفنته، وانتهى قتل مصعب إلى المهلب، وهو يحارب الأزارقة، فبايع الناس لعبد الملك بن مروان.

ولما جيء بخبر مصعب لعبد الله بن الزبير، خطب الناس فقال: الحمد الله الذى له الخلق والأمر، يؤتى الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء؛ ألا وإنه لم يذل الله من كان الحق معه، وإن كان الناس عليه.

وقد أتانا من العراق خبر أحزننا؛ فإن لفراق الحميم لوعةً يجدها حميمه عند المصيبة، ثم عبد من عباد الله وعون من أعوانى، ألا وإن أهل العراق أهل الغدر والنفاق، أسلموه وباعوه بأقلِّ الثمن، فإنْ يقتل ثمة[1] فوالله، ما نموت على مضاجعنا كما يموت بنو أبى العاص، فوالله، ما قتل رجل منهم فى الجاهلية ولا فى الإسلام، ولا نموت إلا قعصًا بالرماح وتحت ظلال السيوف؛ ألا إنما الدنيا عارية من الملك الأعلى الذى لا يزول سلطانه ولا يبيد، فإن تقبل، فلا آخذها أخذ الأشر البطر، وإن تدبر، لم أبك عليها بكاء الضرع المهين، أَقُولُ قولى هذا، وأستغفر الله لى ولكم[2].

ولما بلغ خبر مصعب البصرة، تنازع فى ولايتها حمران بن أبان وعبد الله بن أبى بكر، واستعان حمران بعبد الله بن الأهتم، فغلب عليها، وكانت له منزلة عند بنى أمية، فلمَّا تمهد الأمر بالعراق لعبد الملك بعد مصعب، ولى على البصرة خالد بن

(١) فى ط: فمه .
(٢) ينظر مروج الذهب (٣/ ١١٩)، تاريخ الإسلام (ص٣٠٧) (حوادث سنة ٦٢هـ).

عبد الله بن أسيد، فاستخلف عليه عبد الله بن أبى بكر، فقدم على حمران وعزله حتى جاءه خالد، ثم عزل خالدًا سنة ثلاث وسبعين، وولى مكانه على البصرة أخاه بشرًا، وجمع له المصرين، وسار بشر إلى البصرة واستخلف على الكوفة عمرو بن حريث، وولى عبد الملك على الجزيرة وأرمينية بعد قتل مصعب أخاه محمد بن مروان سنة ثلاث وستين، فغزا الروم، ومزقهم بعد أن كان هادن ملك الروم أيام الفتنة على ألف دينار، يدفعها إليه كل يوم.

أمر زفر بن الحارث[1] بقرقيسيا

قد ذكرنا فى وقعة راهط مسير زفر إلى قرقيسيا، واجتماع قيس عليه، وأقام بها يدعو لابن الزبير، ولما ولى عبد الملك، كتب إلى أبان بن عقبة بن أبى معيط، وهو على حمص، بالمسير إلى زفر، فسار وعلى مقدمته عبد الله بن رميث الطائى، فعاجله عبد الله بالحرب، وقتل من أصحابه نحو ثلاثمائة، ثم أقبل أبان، فواقع زفر وقتل ابنه وكيع بن زفر، وأوهنه، ثم سار إليه عبد الملك إلى قرقيسيا قبل مسيره إلى مصعب، فحصره ونصب عليه المجانيق، وقالت كلب لعبد الملك: لا تخلط معنا القيسية؛ فإنهم ينهزمون إذا التقينا مع زفر، ففعل، واشتد حصارهم، وكان زفر يقاتلهم فى كل غداة، وأمره ابن الهذيل أن يحمل حتى يضرب فسطاط عبد الملك، ففعل وقطع بعض أطنابه، ثم بعث عبد الملك أخاه محمدًا بالأمان لزفر وابنه الهذيل على أنفسهما ومَنْ معهما، وأن لهم ما أحبوا، فأجاب الهذيل وداخل أباه فى ذلك، وقال: عبد الملك لنا خير من ابن الزبير، فأجاب على أن له الخيار، وأن ينزل حيث شاء، ولا يعين على ابن الزبير.

وبينما الرسل تختلف بينهم، إذ قيل لعبد الملك: قد هدم من المدينة أربعة أبرجة، فترك الصلح وزحف إليهم، فكشفوا أصحابه إلى عسكرهم، ورجع إلى الصلح، واستقرَّ بينهم على الأمان، ووضع الأموال ألاَّ يبايع لعبد الملك حتى يموت

---

(١) ينظر عن زفر بن الحارث العقد الفريد (١/ ٢١٤)، الوافى بالوفيات (١٤/ ١٩٩) فوات الوفيات (٢/ ٣٨٩)، الأخبار الطوال (١٧٢)، المحبّر (٢٥٥)، تاريخ الطبرى (٤/ ٥٠٥)، تاريخ خليفة (١٩٥)، الفتوح لابن أعثم (٦/ ٢٦)، تاريخ اليعقوبي (٢/ ٢٥١)، الوزراء والكتاب (٣٥)، الولاة والقضاء (٤٢).

ابن الزبير للبيعة التى له فى عنقه وأن يدفع إليه مال نفسه فى أصحابه، وتأخر زفر عن لقاء عبد الملك؛ خوفًا من فعلته بعمرو بن سعيد، فأرسل إليه بقضيب النبى ﷺ، فجاء إليه وأجلسه عبد الملك معه على سريره وزوج ابنه مسلمة الرباب بنت زفر، وسار عبد الملك إلى قتال مصعب، فبعث زفر بن الهذيل معه فى عسكر، فلما قارب مصعبًا، هرب إليه وقاتل مع ابن الأشتر حتى إذا قتلوا، اختفى الهذيل فى الكوفة حتى آمنه عبد الملك؛ كما مر.

مقتل عبد الله بن الزبير(١)

كان عبد الملك لما بويع بالشام، بعث إلى المدينة عروة بن أنيف فى ستة آلاف من أهل الشام، وأمره أن يعسكر بالعرصة، ولا يدخل المدينة، وعامل ابن الزبير يومئذ على المدينة الحارث بن حاطب بن الحارث بن معمر الجمحى، فهرب الحارث، وأقام ابن أنيف شهرًا يصلى بالناس الجمعة بالمدينة ويرجع إلى معسكره، ثم رجع ابن أنيف إلى الشام، فرجع الحارث إلى المدينة، وبعث ابن الزبير سليمان ابن خالد الدورقى على خيبر وفدك، وبعث عبد الملك إلى الحجاز عبد الملك بن الحارث بن الحكم فى أربعة آلاف، فنزل وادى القرى، وبعث سرية إلى سليمان بخيبر وهرب فأدركوه فقتلوه ومن معه، وأقاموا بخيبر وعليهم أبو القمقام، ونكر عبد الملك ذلك واغتم له، وقال: قتلوا رجلًا صالحًا بغير ذنب، ثم عزل ابن الزبير الحارث بن حاطب عن المدينة، وولى مكانه جابر بن الأسود بن عوف الزهرى، فبعث جابر إلى خيبر أبا بكر بن أبى قيس فى ستمائة، فانهزم ابن القمقام وأصحابه أمامهم، وقتلوا صبرًا.

ثم بعث عبد الملك طارق بن عمرو مولى عثمان، وأمره أن ينزل بين أيلة ووادى القرى ويمنع عمال ابن الزبير من الانتشار، ويسد خللًا إن ظهر له بالحجاز، فبعث طارق خيلًا إلى أبى بكر بخيبر، واقتتلوا، فأصيب أبو بكر فى مائتين من أصحابه، وكتب ابن الزبير إلى القباع، وهو عامله على البصرة يستمده ألفَىْ فارس إلى

---

(١) ينظر تاريخ خليفة (ص٢٠٦) تاريخ الطبرى (٦/ ١٩٢) مروج الذهب (٣/ ١٢٠-١٢٢) وتاريخ الإسلام حوادث سنة ثلاث وسبعين والبداية والنهاية (٨/ ٣٦٥-٣٦٧)، والفتوح لابن الأعثم (٦/ ٢٧٨-٢٧٩).

المدينة، فبعثهم القباع، وأمر ابن الزبير جابر بن الأسود أن يسيرهم إلى قتال طارق ففعل، ولقيهم طارق فهزمهم، وقتل مقدمهم وقتل من أصحابه خلقًا، وأجهز على جريحهم، ولم يستبق أسيرهم، ورجع إلى وادى القرى، ثم عزل ابن الزبير جابرًا عن المدينة، واستعمل طلحة بن عبد الله بن عوف، وهو طلحة الندى، وذلك سنة سبعين، فلم يزل على المدينة حتى أخرجه طارق.

ولما قتل عبد الملك مصعبًا، ودخل الكوفة، بعث منها الحجاج بن يوسف الثقفى فى ثلاثة آلاف من أهل الشام لقتال ابن الزبير، وكتب معه الأمان لابن الزبير ومن معه إن أطاعوا، فسار فى جمادى سنة ثنتين وسبعين، فلم يعرض للمدينة، ونزل الطائف، وكان يبعث الخيل إلى عرفة وتلقاهم هناك خيل ابن الزبير، فينهزمون دائمًا، وترجع خيل الحجاج بالظفر، ثم كتب الحجاج إلى عبد الملك يخبره بضعف ابن الزبير وتفرُّق أصحابه، ويستأذنه في دخول الحرم لحصار ابن الزبير ويستمده، فكتب عبد الملك إلى طارق باللحاق بالحجاج، فقدم المدينة فى ذى القعدة سنة ثنتين وسبعين، وأخرج عنها طلحة الندى عامل ابن الزبير، وولى مكانه رجلاً من أهل الشام، وسار إلى الحجاج بمكة فى خمسة آلاف، ولما قدم الحجاج مكة، أحْرَم بحجة ونزل بئر ميمون، وحج بالناس، ولم يطف ولا سعى، وحصر ابن الزبير عن عرفة فنحر بدنه بمكة، ولم يمنع الحجاج من الطواف والسعى، ثم نصب الحجاج المنجنيق على أبى قبيس ورمى به الكعبة، وكان ابن عمر قد حج تلك السنة فبعث إلى الحجاج بالكف عن المنجنيق لأجل الطائفين، ففعل، ونادى منادى الحجاج عقيب الإفاضة: انصرفوا إلى بلادكم، فإنا نعود بالحجارة على ابن الزبير، ورمى المنجنيق على الكعبة وألحّتِ الصواعق عليهم فى يومين، وقتلت من أهل الشام رجالاً، فذعروا، فقال لهم الحجاج: لا تنكروا؛ فهذه صواعق تهامة، وإن الفتح قد حضر فأبشروا، ثم أصابت الصواعق من أصحاب ابن الزبير، فسرى عن أهل الشام، وكانت الحجارة تقع بين يدى ابن الزبير، وهو يصلى فلا ينصرف، ولم يزل القتال بينهم، وغلت الأسعار، وأصاب الناس مجاعة شديدة حتى ذبح ابن الزبير فرسه، وقسم لحمه فى أصحابه، وبيعت الدجاجة بعشرة دراهم، والمُدُّ من الذرة بعشرين، وبيوت ابن الزبير مملوءة قمحًا وشعيرًا وذرةً وتمرًا، ولا ينفق منه إلا ما

يمسك الرمق يقوى به نفوس أصحابه، ثم أجهدهم الحصار.

وبعث الحجاج إلى أصحاب ابن الزبير بالأمان، فخرج إليه منهم نحو عشرة آلاف وافترق الناس عنه، وكان ممن فارقه ابناه حمزة وخبيب، وأقام ابنه الزبير حتى قتل معه، وحرض الحجاج الناس، وقال: قد ترون قلة أصحاب ابن الزبير وما هم فيه من الجهد والضيق، فتقدموا وملئوا ما بين الحجون إلى الأبواب، فدخل ابن الزبير على أمه أسماء، وقال: يا أمه، قد خذلنى الناس حتى ولدى، والقوم يعطوننى ما أردتُّ من الدنيا فما رأيك ؟! فقالت له: أنت أعلم بنفسك، إن كنت على حق، وتدعو إليه، فامض له؛ فقد قتل عليه أصحابك، ولا تمكِّن من رقبتك تلعب بها غلمان بنى أمية، وإن كنت إنما أردتَّ الدنيا، فبئس العبد أنتَ أهلكْتَ نفسك ومن قتل معك، وإن قلت: كنت على حق، فلما وهن أصحابى، ضعفتُ، فليس هذا بفعل الأحرار ولا أهل الدين.

فقال: يا أمه، أخاف أن يمثلوا بى ويصلبونى، فقالت: يا بنيَّ، الشاة لا تألم بالسلخ، فامض على بصيرتك واستعزَّ بالله، فقبل رأسها، وقال: هذا رأيى الذى خرجْتُ به داعيًا إلى يومى هذا، وما ركنت إلى الدنيا، وما أخرجنى إلا الغضب لله، وأن تستحلَّ حرماته، لكن أحببت أن أعلم رأيك، فقد زدتنى بصيرة، وإنى يا أمه فى يومى هذا مقتول، فلا يشتدَّ حزنك وسلِّمى الأمر لله، فإن ابنك لم يتعمد إتيان منكر، ولا عملاً بفاحشة، ولم يخن ولم يغدر، ولم يظلم، ولم يقر على الظلم، ولم يكن عندى آثر من رضا الله تعالى، اللهم، لا أقول هذا تزكية لنفسى، لكن تعزية لأمى حتى تسلو عنى. فقالت: إنى لأرجو أن يكون عزائى فيك جميلاً، إن تقدمتنِى، أحتسبك، وإن ظفرتَ، سررت بظفرك، ثم قالت: اخرج حتى أنظر إلامَ يصير أمرك، فقال: جزاك الله خيرًا، فلا تدعى الدعاء، فدعت له، فودعها وودعته، ولما عانقته للوداع، وقعتْ يدها على الدرع، فقالت: ما هذا صنيعُ مَنْ يريد ما تريد، فقال: ما لبسته إلا لأشد منك، فقالت: إنه لا يشد منى، فنزعها، وقالت له: البس ثيابك مشمرة.

ثم خرج فحمل على أهل الشام حملةً منكرةً، فقتل منهم، ثم انكشف هو وأصحابه، وأشار عليه بعضهم بالفرار، فقال: بئس الشيخ أنا فى الإسلام إن أوقعت

قومًا قتلوا، ثم فررت على مثل مصارعهم.

وامتلأت أبواب المسجد بأهل الشام، والحجاج وطارق بناحية الأبطح إلى المروة، وابن الزبير يحمل على هؤلاء وهؤلاء وينادى أبا صفوان لعبد الله بن صفوان ابن أمية بن خلف، فيجيبه من جانب المعرك.

ولما رأى الحجاج إحجامَ الناسِ عن ابن الزبير، غضب وترجَّل وصمد إلى صاحب الراية بين يديه، فتقدم ابن الزبير إليهم عنه وكشفه، ورجع فصلى ركعتين عند المقام، وحملوا على صاحب الراية، فقتلوه عند باب بنى شيبة، وأخذوا الراية، ثم قاتلهم وابن مطيع معه حتى قتل.

ويقال: أصابته جراحة، فمات منها بعد أيام.

ويقال: إنه قال لأصحابه يوم قتل: يا آل الزبير، لو طبتم لى نفسًا عن أنفسكم، كنا أهل البيت فى العرب اصطلمنا فى الله، فلا يرعكم وقع السيوف، فإن ألم الدواء فى الجراح أشد من وقعها، صونوا سيوفكم عما تصونون وجوهكم، وغضوا أبصاركم عن البارقة، وليشغل كل امرئ قرنه، ولا تسألوا عنى ومن كان عنى سائلاً، فإنى فى الرعيل الأول، ثم حمل حتى بلغ الحَجُون، فأصابته جراحة فى وجهه، فأرعش لها ودمى وجهه، ثم قاتل قتالاً شديدًا، وقتل فى جمادى الآخرة سنة ثلاث وسبعين، وحمل رأسه إلى الحجاج فسجد، وكبَّر أهل الشام، وسار الحجاج وطارق حتى وقفا عليه وبعث الحجاج برأسه، ورأس عبد الله بن صفوان، ورأس عمارة بن عمرو بن حزم إلى عبد الملك، وصلب جثته منكسة على ثنية الحجون اليمنى، وبعثت إليه أسماء فى دفنه فأبى، وكتب إليه عبد الملك يلومه على ذلك، فخلى بينها وبينه.

ولما قتل عبد الله، ركب أخوه عروة، وسبق رسل الحجاج إلى عبد الملك، فرحب به وأجلسه على سريره، وجرى ذكر عبد الله، فقال عروة: إنه كان، فقال عبد الملك: وما فعل ؟! قال: قتل، فخر ساجدًا، ثم أخبره عروة أن الحجاج صلبه، واستوهَبَ جثته لأمه، فقال: نعم، وكتب إلى الحجاج ينكر عليه صلبه، فبعث بجثته إلى أمه، وصلى عليه عروة ودفنه، وماتت أمه بعده بخمسة أيام.

ولما فرغ الحجاج من ابن الزبير، دخل إلى مكة، فبايعه أهلها لعبد الملك، أمر

بكنس المسجد من الحجارة والدم، وسار إلى المدينة، وكانت فى عمله فأقام بها شهرين، وأرسل إلى الحسن بن الحسن، فقال: هات سيف رسول الله ﷺ ودرعه، فقال: لا أفعل، قال: فجاء الحجاج بالسوط والعصا والسيف، وقال: والله لأضربنك بها حتى تبرد أو فأتنى بهما، فقال الناس: يا أبا محمد، لا تتعرض لهذا الجبار، فجاء الحسن بسيف رسول الله ﷺ ودرعه، فوضعهما بين يديه، فأرسل الحجاج إلى رجل من آل أبى رافع، فقال له: هل تعرف سيف رسول الله ﷺ ؟ قال: نعم، فخلطه بأسياف، ثم قال له: أخرجه، فأخرجه، ثم جاء بالدرع، فنظر إليها، فقال: هناك علامة، كانت على الفضل ابن عباس يوم اليرموك، فطعن بحربة فخرقت الدرع، فرفعوها فوجدوا الدرع، كما قال، فقال الحجاج للحسن: أما والله لو لم تجئنى به، وجئت بغيره، لضربت به رأسك، وأساء إلى أهلها، وقال: أنتم قتلة عثمان. وختم أيدى جماعة من الصحابة بالرصاص؛ استخفافًا بهم كما يفعل بأهل الذمة؛ منهم: جابر بن عبد الله، وأنس بن مالك، وسهل بن سعد، ونقلت عنه فى ذم المدينة أقوال قبيحة أمره فيها إلى الله تعالى.

وقيل: إن ولاية الحجاج وما فعل فيها كانت سنة أربع وسبعين، وإن عبد الملك عزل عنها طارقًا، واستعمله، ثم هدم الحجاج بناء الكعبة الذى بناه ابن الزبير، وأخرج الحجر منه وأعاده إلى البناء الذى أقره عليه النبى ﷺ، وهو بناء قريش، ولم يصدق ابن الزبير فى الحديث الذى رواه عن عائشة، فلما صح ذلك عند عبد الملك قال: وددت أنى تركته، وما عمل.

ولاية المهلب[1] حرب الأزارقة

ولما عزل عبد الملك خالد بن عبد الله عن البصرة واستعمل مكانه أخاه بشر بن مروان، وجمع له المصرين، أمره أن يبعث المهلب إلى حرب الأزارقة فيمن ينتخبه من أهل البصرة، ويتركه ورأيه فى الحرب، وأن يبعث من أهل الكوفة رجلًا شريفًا

---

(١) ينظر عن المهلب بن أبي صفرة في: شذرات الذهب (١/ ٩٠)، تهذيب التهذيب (١٠/ ٣٢٩)، النجوم الزاهرة (١/ ٢٠٦)، تذهيب التهذيب (٤/ ٧٥)، تاريخ الإسلام (٣٠٧)، العبر (١/ ٩٥)، وفيات الأعيان (٥/ ٣٥٠)، تهذيب الكمال (ص١٣٨٣)، طبقات ابن سعد (٧/ ١٢٩)، طبقات خليفة (ت ١٦٢٠)، تاريخ البخارى (٨/ ٢٥)، المعارف (٣٩٩)، تاريخ الطبرى (٦/ ٣٥٤).

معروفًا بالبأس والنجدة والتجربة فى جيش كثيف إلى المهلب؛ فيتتبعوا الخوارج حتى يهلكوهم، فأرسل المهلب جديع بن سعيد بن قبيصة ينتخب الناس من الديوان.

وشق على بشر أن إمرة المهلب جاءت من عبد الملك، فقصر به، ودعا عبد الرحمن بن مخنف، فأعلمه بمنزلته عنده، وقال: إنى أوليك جيش الكوفة لحرب الأزارقة، وكُنْ عند حسن ظنى بك، ثم أخذ يغريه بالمهلَّب، وألاَّ يقبل رأيه ولا مشورته، فأظهر له الوفاق، وسار إلى المهلب، فنزلوا رام هرمز ولقى بها الخوارج، فخندق عليه على ميل من المهلب حيث يتراءى العسكران، ثم أتاهم نعى بشر بن مروان لعشر ليال من مقدمهم، وأنه استخلف على البصرة خالد بن عبيد الله ابن خالد، وافترق ناس من أهل المصرين إلى بلدهم، ونزلوا الأهواز، وكتب إليهم خالد بن عبيد الله يتهددهم ويحذِّرهم عقوبة عبد الملك إن لم يرجعوا إلى المهلب فلم يلتفتوا إليه، ومضوا إلى الكوفة واستأذنوا عمرو بن حريث فى الدخول؛ فلم يأذَنْ لهم فدخلوا وأضربوا عن إذنه.

ولاية الحجاج[1] على العراق

وقيل فى سبب ولايته: إنه وفد على عبد الملك ومعه إبراهيم بن طلحة بن عبيد الله التيمى، وكان من رجال قريش علمًا وعملاً وزهدًا ودينًا. وكان الحجاج مسخَّرًا له لايترك من إجلاله شيئًا، فلما قدما على عبد الملك، أذن للحجاج بالدخول، فلما دخل، سلم ولم يبدأ بشىء إلا أن قال: يا أمير المؤمنين، قدمت عليك برجل من أهل الحجاز ليس له نظير فى كمال المروءة والديانة وحسن المذهب والطاعة، مع القرابة ووجوب الحق، فقال عبد الملك: ومن هو؟ قال: إبراهيم ابن طلحة التيمى، فليفعل أمير المؤمنين به مايفعل بأمثاله. فقال عبد الملك: أذكرتنا حقًّا واجبًا ورحمًا قريبة، ثم أذن له، فلما دخل، قرَّبه وأدناه، وقال له: إنَّ أبا محمد ذكرنا

(١) ينظر عن الحجاج بن يوسف الثقفي في: البداية والنهاية (٩/ ١١٧)، تهذيب التهذيب (٢/ ٢١٠)، لسان الميزان (٢/ ١٨٠)، العبر (١/ ١١٢)، المعارف (٣٩٥)، تاريخ البخارى (٢/ ٣٧٣)، البدء والتاريخ (٦/ ٢٧)، تاريخ ابن عساكر (٤/ ١٠٥)، تاريخ الكامل لابن الأثير (٤/ ٥٨٣) شذرات الذهب (١/ ١٠٦)، النجوم الزاهرة (١/ ٢٣٠) خلاصة تذهيب التهذيب (٧٣)، سير أعلام النبلاء ٤/ ٣٤٣) مروج الذهب (٣/ ١٣٢).

مالم نَزَلْ نعرفك به من الفضل وحسن المذهب، فلا تدعنَّ حاجة إلا ذكرتها، فقال إبراهيم: إن أولى الأمور أن تفتتح به الحوائج ماكان فيه لله رضًا، ولحق رسوله أداء، ولجماعة المسلمين نصيحة، قال: وماهو؟ قال: لايمكن القول إلا وأنا خالٍ فأخلنى، قال: أو دون أبى محمد؟ قال: نعم، فأشار عبد الملك إلى الحجاج، فخرج، فقال إبراهيم: يا أمير المؤمنين، إنك عهدت إلى الحجاج مع تغطرسه وتعجرفه وبعده عن الحق وركونه إلى الباطل، فوليته الحرمين، وبهما من أولاد المهاجرين والأنصار من قد علمت يسومهم الخسف ويقودهم بالعنف، ويطؤهم بطغام أهل الشام، ورعاع لاروية لهم فى إقامة حق، ولا فى إزالة باطل، ثم تظن أن ذلك ينجيك من عذاب الله، فكيف بك إذا جاثاك محمد ﷺ للخصومة بين يدَيِ الله تعالى؟! أما والله إنك لن تنجو هنالك إلا بحجة تضمنُ لك النجاة، فاتق لنفسك أو دع.

وكان عبد الملك متكئًا فاستوى، وقال: كذبتَ ومِنْتَ فيما جئتَ به، ولقد ظَنَّ بك الحجَّاجُ ظنًّا لم يجده فيك، فأنت المائن الحاسد، قال: فقام إبراهيم، وهو لايبصر شيئًا، فلما جاوز الستر، لحقه لاحق، وقال للحاجب: امنع هذا من الخروج، وائذن للحجاج، فدخل فلبث مليًا، قال إبراهيم: ولا أشك أنهما فى أمرى، ثم خرج الإذن لى فدخلت، فلما كشف الستر إذا أنا بالحجاج خارج، فاعتنقنى وقبل بين عينى، وقال: إذا جزى الله المتواخيين لفضل تواصلهما، فجزاك الله عنى أفضل الجزاء، والله لئن بقيت، لأرفعنَّ ناظريك، ولأتبعن الرجال غبار قدميك.

قال: قال إبراهيم: فقلت فى نفسى، إنه ليسخر منى، فلما وصلت إلى عبد الملك، أدنى مجلسى كما فعل أولاً، ثم قال: يا بن طلحة هل أعلمت الحجاج بما جرى، أو شاركَكَ أحد فى نصيحتك؟! قلت: لا والله لا أعلم أحدًا أظهر يَدًا من الحجاج، ولو كنت محابيًا أحدًا بدينى لكان هو، ولكنى آثرت الله ورسوله والمسلمين، فقال عبد الملك: قد علمت صدق مقالتك، ولو آثرتَ الدنيا لكان لك فى الحجاج أَمَلٌ، وقد عزلتُهُ عن الحرمين لما كرهتَ من ولايته عليهما، وأخبرته أنك أنت الذى استنزلتنى له عنهما؛ استصغارًا للولاية، ووليته العراق لما هنالك من الأمور التى لايدحضها إلا مثله، وإنما قلت ذلك؛ ليؤدى ما يلزمه من ذمامك،

فاخرج معه فإنك غير ذامٍّ صحبته مع يدك عنده، قال إبراهيم: فخرجت مع الحجاج، فأكرمنى أضعاف إكرامه الأول، واستدل الناس بذلك على مكارم عبد الملك وأخلاقه واعترافه بالحق وتيقظه فى الأمور ودهائه.

ثم ولى عبد الملك الحجاج بن يوسف على الكوفة والبصرة سنة خمس وسبعين، وأرسل إليه وهو بالمدينة يأمره بالمسير إلى العراق، فسار على النجب فى اثنى عشر راكبًا، حتى قدم الكوفة فى شهر رمضان، وقد كان بشر بعث المهلب إلى الخوارج، فدخل المسجد وصعد المنبر، وقال: علىَّ بالناس، وظنوه من بعض الخوارج فهموا به، حتى تناول عمير بن ضابئ البرجمى الحصباء، وأراد أن يحصبه، فلما تكلم، جعلت الحصباء تسقط من يده، وهو لايشعر بها ثم حضر الناس، وخطب خطبة عظيمة أحسنُ من أوردها المبرّد فى الكامل[1]، تهدد فيها أهل الكوفة، وتوعدهم على التخلُّف عن المهلب، ثم نزل.

قلت: هذا ما أورده المبرّد فى كامله، فقال: وفى سنة خمس وسبعين، حج بالناس عبد الملك بن مروان، وخطب على منبر رسول الله ﷺ، وسير على إمرة العراق الحجاج بن يوسف الثقفى، فسار من المدينة إلى الكوفة فى اثنى عشر راكبًا بعد أن وهب البشير بها ثلاثة آلاف دينار، قال الوليد بن مسلم: حدثنى عبيد الله بن يزيد [بن] أبى مسلم الثقفى، عن أبيه، قال: كان الحجاج عاملاً لعبد الملك على مكة، فكتب إليه بولاية العراق، قال: فخرجت معه فى نفر قليلين[2] على النجائب، فلما كنا بماء قريب من الكوفة، نزل فاختضب وتهيّأ، وذلك يوم جمعة، ثم راح معتمًّا قد ألقى عذبة العمامة بين كتفيه متقلدًا سيفه متنكبًا قوسه، حتى نزل عند دار الإمارة عند مسجد الكوفة، وقد أذَّن المؤذن بالأذان الأول، فخرج عليهم وهم لايعلمون، فجمَّع بهم.

ثم صعد المنبر، فجلس عليه، فسكت، وقد اشرأبوا إليه وجثوا على الركب، وتناولوا الحصباء ليحصبوه بها، وقد كانوا حصبوا عاملاً قبله، فخرج عليهم فسكت سكتة أبهتتهم وأحبوا أن يسمعوا كلامه، فكان بدء كلامه أن قال:

يا أهل العراق، يا أهل الشقاق، يا أهل النفاق، والله، إن كان أمركم ليهمنى قبل

---

(١) ينظر الكامل للمبرد (ص١٣٠١) وما بعدها.

(٢) في تاريخ الإسلام: ثمانية أو تسعة.

أن آتى إليكم، ولقد كنت أدعو الله أن يبتليكم بى، فأجاب دعوتى، ألا إنى قد اسريت البارحة، فسقط منى سوطى، فاتخذت هذا مكانه - وأشار إلى سيفه - فو الله، لأجرنه فيكم جر المرأة ذيلها ولأفعلن وأفعلن.

قال يزيد: فرأيتُ الحصباء تتساقَطُ من أيديهم، وقال: قوموا إلى بيعتكم، فقامت القبائل قبيلة قبيلة تبايع، فيقول: من؟ فتقول: بنو فلان، حتى جاءت قبيلة فقال: من؟ قالوا: النخع، قال: منكم كَميل بن زياد؟ قالوا: نعم، قال: فما فعل؟ قالوا: أيها الأمير شيخ كبير، قال: لا بيعة لكم عندى، ولاتقربون حتى تأتونى به، قال: فأتوه به منعوشًا فى سريره حتى وضعوه إلى جانب المنبر فقال الحجاج: لم يبق ممن دخل على عثمان الدار غير هذا، فدعا بنطع وضربت عنقه.

وقال أبو بكر الهذلى: حدثنى من شهد الحجاج حين قدم العراق، فبدأ بالكوفة فنودى: الصلاة جامعة، فأقبل الناس إلى المسجد والحجاج متقلّد قوسًا عربية، وعليه عمامة خز حمراء متلثمًا فقعد، وعرض القوس بين يديه، ثم لم يتكلم حتى امتلأ المسجد، قال محمد بن عمير: فسكت حتى ظننت أنه إنما يمنعه العِیُّ، وأخذت فى يدى كَفًّا من حصباء أردت أن أضرب بها وجهه، فقام فوضع النقاب وتقلّد قوسه وقال: [من الوافر]

أَنـا ابْـنُ جَـلاَ وَطَـلاَّعُ الـثـنـايـا   مَـتَىٰ أَضَـعِ الـعـمـامَـةَ تَـعْـرِفُـونـى

إنى لأرى رءوسًا قد أينعَتْ، وحان قطافها، كأنى أنظر إلى الدما، بين العمائم واللحى، : [من الرجز]

لـيـس بـعـشـك فـادرجـى
قَـدْ شَـمَّـرَتْ عـن سـاقـهـا فَـشَـمِّـرِى

هذا أَوَانُ الحَرْبِ فاشتدِّى زِيَمْ   قد لَفَّهَا الليلُ بسَوَّاق حُطَمْ
لـيـس بـرَاعِـى إِبـل ولا غَـنَـمْ   ولا بـجَـزَّارٍ عـلى ظَـهْـر وَضَـمْ
قَـدْ لَـفَّـهَـا الـلـيـلُ بـعَـصْـلَـبِـىّ   مـهـاجِـر لَـيْـسَ بـأعـرابـىّ

إنى والله ما أغمز غمز التين، ولايقعقع لى بالشنان، ولقد فُررت عن ذكاء، وفتشت عن تجربة، وحذيت من الغابة[1]، وإنكم يا أهل العراق طالما أوضعتم فى

---

(١) في تاريخ الإسلام: وجريت إلى الغاية.

الضلالة، وسلكتم سبيل الغواية، أما والله لألحينكم[(١)] لحى العود، ولأعصبنكم عصب السلمة، ولأقرعنكم قرع المروة، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل، ياعبيد العصا، أنا الغلام الثقفى، لا أعد إلا وفيت، ولا أحلف إلا فريت، إنما مثلكم كما قال الله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل: ١١٢] شاهت الوجوه؛ فإنكم أشباه ذلك، فاستوثقوا واستقيموا. أقسم بالله، لتدعن الإرجاف، ولتقبلن على الإنصاف، ولتنزعنَّ عن القيل والقال، وكان [وكان]، والهبر وما الهبر؟، أو لأهبرنكم بالسيف يدع النساء أيامَىٰ والولدانَ يتامَىٰ، ألا إن أمير المؤمنين نثل كنانته بين يديه، فعجم عيدانها فوجدنى أمرَّها عودًا وأصلبها مكسرًا؛ فوجهنى إليكم، فاستقيموا ولايميلن منكم مائل. واعلموا أنى إذا قلت قولاً وفيت به، من كان منكم من بعث المهلب، فليلحق به، فإنى لا أجد أحدًا بعد ثالثة[(٢)] إلا ضربت عنقه. وإياى وهذه الزرافات، فإنى لا أجد أحدًا يسير فى زرافة إلا سفكت دمه واستحللت ماله. ثم نزل.

هذا ما رواه المبرد، وزاد الذهبى[(٣)] بإسناد عن الثورى: قم يا غلامُ، فاقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين، فقرأ:

بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله عبد الملك أمير المؤمنين إلى من فى الكوفة، سلام عليكم، فسكتوا، فقال الحجاج: اكفف ياغلام، ثم أقبل عليهم، فقال: يسلِّم عليكم أمير المؤمنين، فلا تردون عليه شيئًا؟ هذا أدب ابن نهية[(٤)]، أما والله لأؤدبنكم غير هذا الأدب، أو لتستقيمنَّ، اقرأ ياغلام، فقرأ قوله: السلام عليكم، فلم يبق فى المسجد أحد إلا قال: وعلى أمير المؤمنين أفضل السلام.

قلت: العصلبىُ: الشديد من الرجال، والسواق الحطم: العنيف فى سوقه،

---

(١) في تاريخ الإسلام، وتاريخ الطبري والعقد الفريد: لألحونكم.

(٢) في تاريخ الإسلام: بعد ثلاثة.

(٣) ينظر تاريخ الإسلام للذهبي حوادث سنة خمس وسبعين ص (٣٢٣) وتاريخ الطبري (٦/ ٢٠٨)، الكامل لابن الأثير (٤/ ٣٧٧)، مروج الذهب (٣/ ١٣٦)، الفتوح لابن أعثم (٧/ ١٠).

(٤) في الكامل (٢/ ٤٩٥) «زعم أبو العباس أن نهية رجل كان على الشرطة بالبصرة قبل الحجاج» وينظر مروج الذهب (٣/ ١٣٦)، العقد الفريد (٥/ ١٨).

الوضم: كل ما وقى به اللحم من الأرض، عجمت العود: إذا عضضته بنابك لتعرف أصلب هو أم رخو، الزرافات: الجماعات.

وحضر الناس عنده للعطاء واللحاق بالمهلب، فقام إليه عمير بن ضابئ، وقال: أنا شيخ كبير عليل، وابنى هذا أشد منى، فقال: هذا خير لنا منك، ثم قال: ومن أنت ؟ قال: عمير بن ضابئ، قال: الذى دخل على عثمان فى داره، وداس على ظهره، فكسر ضلعين من أضلاعه؟ قيل: نعم، فقال: ياعدو الله، أفلا بعثت إلى عثمان بدلاً؟ قال: إنه حبس أبى، وكان شيخًا كبيرًا، فقال: إنى لأحسب فى قتلك صلاح المصرين، وأمر به فقتل، وانتهب ماله.

وقيل: إن عتبة بن سعيد بن العاص هو الذى أغرى به الحجاج حين دخل عليه، ثم أمر الحجاج مناديه فنادى: ألا إن ضابئًا تخلف بعد ثالثة من النداء فأمر بقتله، وذمة الله بريئة ممن بات الليلة عن جند المهلب، فتسارع الناس إلى المهلب وهو برامهرمز، وجاءه العرفاء فأخذوا كتبه بموافاة العسكر، وقد كان من أخذ الحصباء بيده يريد أن يحصب بها الحجاج تساقط من يده خوفًا ورعبًا، فثبتت مهابته في قلوبهم، وتحكَّم حينئذ فى رقابهم.

وكان القاسم بن سلام يقول: قاتل الله أهل العراق، أين قبائلهم وعشائرهم وأهل الأنفة، وأين تجبرهم ؟! قتلوا عليًا، وطعنوا الحسن، وقاتلوا المختار، وعجزوا عن قتل هذا الملعون الدميم الصورة، وقد جاءهم فى اثنى عشر راكبًا وهم فى مائة ألف، ولكن ظهر به تصديق قول أمير المؤمنين على بن أبى طالب فى قوله: اللهم سلط عليهم الغلام الثقفى.

ثم بعث الحجاج إلى البصرة الحكم بن أيوب الثقفى، وأمره أن يشتد على خالد ابن عبد الله، وبلغه الخبر، فقسم فى أهل البصرة ألف ألف وخرج عنها.

ويقال: إن الحجاج أول من عاقب على التخلف عن البعوث بالقتل، قال الشعبى: كان الرجل إذا أخلَّ بوجهه الذى يكتب إليه زمن عمر وعثمان وعلى، تنزع عمامته ويقام بين الناس، فلما ولى مصعب، أضاف إليه حلق الرءوس واللحى، فلما ولى بشر، أضاف إليه تعليق الرجل بمسمارين فى يده فى حائط، فيخرق المسمار يده، وربما مات، فلما جاء الحجاج، ترك ذلك كله، وجعل عقوبة من يخل بمكانه

من الثغر أو البعث: القتل.

ثم ولى الحجاج على السند سعيد بن أسلم بن زرعة، فخرج عليه معاوية بن الحارث العلافى، وأخوه، فغلباه على البلاد وقتلاه، فأرسل الحجاج مجاعة بن سعيد التميمى مكانه فغلب على الثغر، وغزا وفتح فتوحات، ومات بمكران لسنة من ولايته.

وثوب أهل البصرة على الحجاج

ثم خرج الحجاج من الكوفة، واستخلف عليها عروة بن المغيرة بن شعبة، وسار إلى البصرة وقدمها، وخطب كما خطب بالكوفة، وتوعد على القعود عن المهلب كما توعَّد، فأتاه شريك بن عمر اليشكرى وكان به فتق، فاعتذر به، وبأن بشر بن مروان قَبِلَ عذره بذلك، وأحضر عطاءه ليرد إلى بيت المال، فضرب الحجاج عنقه، وتتابع الناس متوجهين إلى المهلب، ثم سار حتى كان بينه وبين المهلب ثمانية عشر فرسخًا فقام ليشد ظهره، وقال: يا أهل المصرين، هذا والله مكانكم حتى يهلك الله الخوارج، ثم قطع لهم الزيادة التى زادها مصعب فى الأعطية، وكانت مائة مائة، وقال: لسنا نجيزها، فقال عبد الله بن الجارود: إنما هى زيادة عبد الملك، وقد أجازها أخوه بشر بأمره، فانتهره الحجاج، فقال له: إنى لك ناصح، وإنه قول من ورائى، فمكث الحجاج أشهرًا لا يذكر الزيادة، ثم أعاد القول فيها فرد عليه ابن الجارود مثل الرد الأول فقال له مصقلة بن كرب العبدى: سمعًا وطاعةً للأمير فيما أحببنا وكرهنا؛ فليس لنا أن نرد عليه، فانتهره ابن الجارود وشتمه، وأتى الوجوه إلى عبد الله بن الجارود، فصوبوا رأيه، وقال له الهذيل بن عمران البرجمى، وعبد الله ابن حكيم بن زياد المجاشعى، وغيرهما: إن هذا الرجل مجمع على نقض هذه الزيادة، فتعال نبايعك على إخراجه من العراق، ونكتب إلى عبد الملك أن يولِّى علينا غيره، وإلا خلعناه، وهو يخافنا ما دامت الخوارج، فبايعوه سرًّا وتعاهدوا.

وبلغ الحجاج أمرهم، فاحتاط وحذر، ثم خرجوا فى ربيع سنة ست وسبعين، وركب عبد الله بن الجارود فى عبد القيس على راياتهم، ولم يبق مع الحجاج إلا خاصته وأهل بيته، وبعث الحجاج يستدعيه، فأفحش فى القول لرسوله، وصرح بخلع الحجاج، فقال له الرسول: تهلك قومك وعشيرتك، وأبلغه تهديد الحجاج

إياه، فأمر به فضرب وأخرج، وقال: لولا أنك رسول لقتلتك.

ثم زحف ابن الجارود فى الناس حتى غشى فسطاطه، فنهب ما فيه من المتاع والظهر وأخذوا زوجاته وانصرفوا عنه، وكان رأيهم أن يخرجوه ولا يقتلوه.

وقال الغضبان بن القبعثرى الشيبانى لابن الجارود: لا ترجع عنه، وحرضه على معاجلته، فقال: إلى الغداة.

وكان مع الحجاج عثمان بن قطن، وزياد بن عمرو العتكى صاحب الشرطة بالبصرة، فاستشارهما، فأشار زياد بأن يستأمن القوم ويلحق بأمير المؤمنين، وأشار عثمان بالثبات، ولو كان دونه الموت، ولا تخرج إلى أمير المؤمنين من العراق بعد أن رقاك إلى ما رقاك، وفعلت ما فعلت بابن الزبير، فقبل الحجاج رأى عثمان، وحقد على زياد فى إشارته، وجاءه عامر بن مسمع يقول: قد أخذت لك الأمان من الناس، فجعل الحجاج يغالطه رافعًا صوته عليه ليسمع الناس، ويقول: والله لا أؤمنهم حتى يأتونى بالهذيل بن عمران، وعبد الله بن حكيم، ثم أرسل إلى عبيد بن كعب النميرى أن ائتنى فامنعنى، فقال: إن أتيتنى منعتك، فأبى.

وبعث إلى محمد بن عمير بن عطارد، وعبد الله بن حكيم بمثل ذلك، فأجابوه بمثله، ثم إن عباد بن الحصين الحبطى مَرَّ بابن الجارود والهذيل وعبد الله بن حكيم يتناجون، فطلب الدخول معهم فأَبوا، فغضب وسار إلى الحجاج، وجاءه قتيبة بن مسلم فى بنى أعصر للحمة القيسية، ثم جاءه سبرة بن على الكلابى، وسعيد بن أسلم الكلابى، وجعفر بن عبد الرحمن بن مخنف الأزدى، فثابت إليه نفسه، وعلم أنه قد امتنع، وأرسل إليه مسمع بن مالك بن مسمع: إن شئت أتيتك، وإن شئت أقمت وثبطت عنك، فأجابه أن أقم. فلما أصبح إذا حوله ستة آلاف، وقال ابن الجارود لعبيد الله بن زياد بن ظبيان: ما الرأى ؟ قال: تركته أمس، ولم يبق إلا الصبر.

ثم تزاحفوا، وعبأ ابن الجارود وأصحابه على ميمنته الهذيل، وعلى ميسرته ابن ظبيان، وتعبَّأَ الحجاج على ميمنته قتيبة بن مسلم أو عباد بن الحصين، وعلى ميسرته سعيد بن أسلم، وحمل ابن الجارود حتى جاز أصحاب الحجاج، وعطف الحجاج عليه، فعاد ابن الجارود بظهر، ثم أصابه سهم غرب فوقع ميتًا، ونادى منادى

الحجاج بأمانِ الناس إلا الهذيل وابن حكيم، وأمر ألاَّ يتبع المنهزمون، ولحق ابن ظبيان بعمان، فمات هنالك.

وبعث الحجاج برأس الجارود ورءوس ثمانية عشر من أصحابه إلى المهلب، ونصبت ليراها الخوارج فيتأسوا من الخلاف. وحبس الحجاج عبيد بن كعب، ومحمد بن عمير؛ لامتناعهما من الإتيان إليه، وحبس ابن القبعثرى؛ لتحريضه عليه، فأطلقه عبد الملك.

وكان فيمن قتل مع ابن الجارود: عبد الله بن أنس بن مالك، فقال الحجاج: لا أرى إنسانًا يعين على، ودخل البصرة فأخذ ماله، وجاءه أنس، فأساء عليه، وأفحش فى شتمه، فكتب أنس إلى عبد الملك يشكوه، فكتب عبد الملك إلى الحجاج يشتمه ويغلظ عليه فى التهديد على ما فعل بأنس، وأن يجيء إلى منزله ويتنصَّل؛ وإلا نبعث من يضرب ظهره ويهتك ستره، قالوا: وجعل الحجاج فى قراءته يتغير وجهه ويتمعَّر وجبينه يرشح عرقًا، ثم جاء إلى أنس بن مالك واعتذر إليه.

وفى غضون هذه الواقعة خرج الزنج بفرات البصرة، وقد كانوا خرجوا قبل ذلك فى أيام مصعب، ولم يكونوا بالكثير، وأفسدوا الثمار والزروع، ثم جمع لهم خالد ابن عبد الله، وافترقوا قبل أن ينال منهم، وقتل بعضهم، وصلبهم.

فلما كانت هذه الوقعة، قدموا عليهم رجلاً منهم اسمه رباح، ويلقب شير زنجى، أى: أسد الزنج، وأفسدوا، فلما فرغ الحجاج من ابن الجارود، أمر زياد بن عمرو صاحب الشرطة أن يبعث إليهم من يقاتلهم، فبعث إليهم ابنه حفصًا فى جيش، فقتلوه وانهزم أصحابه، فبعث جيشًا فهزم الزنج وأبادهم.

مقتل ابن مخنف، وحرب الخوارج(١)

كان المهلب وعبد الرحمن بن مخنف واقفَيِن للخوارج برامهرمز، فلما أمدهم الحجاج بالعساكر من الكوفة والبصرة، تأخر الخوارج من رامهرمز إلى كازرون، واتبعهم العسكر حتى نزلوا بهم، وخندق المهلب على نفسه، وقال ابن مخنف وأصحابه: خندقنا سيوفنا، فبيتهم الخوارج وأصابوا الغرة فى ابن مخنف فقاتل

(١) ينظر: تاريخ الطبرى (٦/ ٢١١-٢١٣)، الكامل في التاريخ (٤/ ٣٨٨) نهاية الأرب (٢١/ ١٥٢، ٣٥٣)، تاريخ الإسلام للذهبي حوادث سنة خمس وسبعين (ص٣٢٤).

وأصحابه حتى قتلوا، هكذا حديث أهل البصرة.

وأما أهل الكوفة، فذكروا أنهم لما نهضوا إلى الخوارج، اشتد القتال بينهم، ومال الخوارج على المهلب واضطروه إلى معسكره، وأمده عبد الرحمن بالخيل والرجال، ولما رأى الخوارج مدده، تركوا من شغل المهلب، وقصدوا عبد الرحمن، فقاتلوه، وانكشف عنه الناس وصبر فى سبعين من قومه، فقاتلوا إلىآخر الليل، وقتلوا عن آخرهم.

وبعث الحجاج على عسكر ابن مخنف من أهل الكوفة عتاب بن ورقاء، وأمره أن يسمع للمهلب، فثقل ذلك عليه؛ فلم تحسن بينهما العشرة، وكان يترادَّان فى الكلام، وربَّما أغلظ له المهلب، وأرسل عتاب إلى الحجاج يسأله العود، وكان خرق الخوارج وشبيب قد اتسع عليه، فصادف منه ذلك موقعًا، واستقدمه وأمره أن يترك العسكر مع المهلب، فولى عليهم المهلب ابنه حبيبًا، وأقام يقاتلهم بنيسابور نحوًا من سنة، وتحركت الخوارج على الحجاج من سنة ست وسبعين إلى سنة ثمان، وشغل بحربهم، وأول من خرج منهم صالح بن مسرح من بنى تميم، بعث إليه العساكر فقتل، فولوا عليهم شبيبًا، واتبعه كثير من بنى شيبان، وبعث إليهم الحجاجُ العساكر مع الحارث بن عميرة، ثم مع سفيان الخثعمى، ثم الحرز بن سعيد، فهزموهم، وأقبل شبيب إلى الكوفة، فجاربه الحجاج وامتنع عليه، ثم سرح عليه العساكر، وبعث فى أثرهم عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، فهزموهم، ثم بعث عتاب بن ورقاء، وقتل منهم جماعة؛ كما نذكر ذلك كله فى أخبارهم.

وفى سنة ست وسبعين خرج صالح بن مسرح التميمى، وكان صالحًا ناسكًا مخبتًا، وكان بدارا[1] والموصل وله أصحاب يقرئهم ويفقههم، ويقص عليهم، ولكنه يحط على الخليفتين عثمان وعلى كدأب الخوارج، ويتبرأ منهما، ويقول: تيسروا رحمكم الله لجهاد هذه الأحزاب المتحزبة، وللخروج من دار الفناء إلى دار البقاء، ولا تجزعوا من القتل فى الله؛ فإن القتل أيسر من الموت، والموت نازل بكم، فلم يلبث أن أتاه كتاب شبيب بن يزيد من الكوفة فيه: أما بعد، فإنك شيخ

(١) دارا: بلد بالجزيرة، وهى كذلك قلعة حصينة فى جبال طبرستان، وأيضا: واد في ديار بنى عامر. ينظر المراصد (٢/ ٥٠٤).

المسلمين، ولن نعدل بك أحدًا، وقد دعوتنى، فاستجبت لك، وإن أردت تأخير ذلك، أعلمنى؛ فإن الآجال غادية ورائحة، ولا آمن أن تخترمنى المنية ولم أجاهد الظالمين، فيا له غبنًا، ويا له فضلاً متروكًا، جعلنا الله وإياك ممن يريد بعمله الله ورضوانه.

فرد عليه صالح الجواب، يحضه على المجيء، فجمع شبيب قومه، وقدم على صالح وهو بـ« دارا »، فتصمدوا مائة وعشرة أنفس. ثم وثبوا على خيل لمحمد بن مروان[١]، فأخذوها، وقويت شوكتهم وأخافوا المسلمين، فندب محمد إلى قتالهم عدى بن عدى بن عميرة الكندى، فقاتلهم فهزم عدى، فندب لقتالهم خالد بن جزء السلمى، والحارث العامرى، واقتتلوا أشد القتال، وانجاب صالح إلى العراق، فوجه الحجاج عسكرًا عليهم سورة بن الحر، فاقتتلوا، ثم مات صالح مثخنًا به الجراح فى جمادى الأخرى من السنة المذكورة، وعهد إلى شبيب بن يزيد، فالتقى شبيب هو وسورة فانهزم سورة بعد قتال شديد، ثم سار شبيب، فلقى سعيد بن عمرو الكندى[٢] فاقتتلوا، ثم انصرف شبيب، فهجم الكوفة، وقتل بها أبا سليم مولى عنبسة[٣] بن أبى سفيان والد الليث بن سليم وغيره من المشاهير، ثم خرج عنها، فوجه الحجاج لحربه زائدة بن قدامة الثقفى ابن عم المختار فى جيش كثير، فالتقوا أسفل الفرات، فهزمهم شبيب، وقتل زائدة، فوجه الحجاج لحربه عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث؛ فلم يقاتلهم، وكان مع شبيب امرأته غزالة، وكانت معروفة بالشجاعة، ودخلت مسجد الكوفة تلك المرأة وقرأت وِرْدَهَا فى المسجد، وكانت نذرت أن تصعد المنبر فصعدته.

ثم حار الحجاج فى أمره مع شبيب، فوجه لقتاله عثمان بن قطن الحارثى، فالتقوا فى آخر العام المذكور، فقتل عثمان وانهزم جمعه بعد أن قتل منهم ستمائة نفر، واستفحل أمر شبيب بن يزيد، فنزل المدائن، فندب الحجاج لقتاله أهل الكوفة كلَّهم، وعليهم زهرة بن حوية السعدى شيخ كبير قد باشر الحروب، وبعث إلى زهرة عِبد الملك من الشام سفيان بن الأبرد وحبيبًا الحكمى مددًا بستة آلاف،

(١) في ط: رواد. والمثبت من تاريخ الإسلام، وتاريخ الطبرى.
(٢) في ط: النهدي. والمثبت من تاريخ خليفة، وتاريخ الإسلام للذهبى.
(٣) في ط: عتبة. والمثبت من تاريخ خليفة، وتاريخ الإسلام.

واجتمع جميع الجيش خمسين ألفًا، وعرض شبيب بن يزيد جنوده بالمدائن، فكانوا ألف رجل، فقال: يا قوم، إن الله كان ينصركم، وأنتم مائة أو مائتان، فأنتم اليوم مئون، ثم ركب فأخذوا يتخلَّفون عنه ويتأخرون، فلما التقى الجمعان، لم يثبت معه إلا ستمائة، فحمل شبيب فى مائتين على ميسرة الناس، فانهزموا واشتد القتال، وعتاب بن ورقاء جالس هو وزهرة بن حوية على طنفسة فى القلب، فقال عتاب: هذا يوم كثر فيه العدد وقل فيه الغناء - يعنى: النفع - والهفى على خمسمائة من رجال تميم.

وتفرق عن عتاب عامة الجيش وحمل عليه شبيب فقاتل عتاب ساعة وقتل، ووطئت الخيل زهرة بن حوية فهلك، فتوجع له شبيب لما رآه صريعًا، فقال له رجل من قومه: والله، يا أمير المؤمنين، إنك لتتوجع لرجل من الكافرين، قال: إنك لست أعرف بصلاتهم[1] منى، إنى أعرف من قديم أمرهم مالا تَعْرِفُ، لو ثبتوا عليه كانوا إخواننا. ثم قال شبيب لأصحابه: ارفعوا عنهم السيف، ودعا الناس إلى طاعته وبيعته فبايعوه ثم هربوا ليلاً، وهذا كله قبل أن يقدم جيش الشام الذى بعثه عبد الملك، فتوجَّه شبيب نحو الكوفة، وقد دخلها عسكر الشام، فشدوا ظهر الحجاج، وانتعش بهم، واستغنى عن عسكر الكوفة، وقال: يا أهل الكوفة، لا أعز الله من أراد بكم العز، الحقوا بالحيرة مع اليهود والنصارى، ولا تقاتلوا معنا، وحنق عليهم. وهذا ممايزيدهم فيه بغضًا.

ثم إنه وجه الحارث بن معاوية الثقفى فى ألف فارس فى الكشف، فالتمس شبيب غفلتهم، فالتقوا، فحمل شبيب على الحارث فقتله، وانهزم من معه، ثم جاء شبيب فنازل الكوفة، وحفظ الناس السِّكك، وبنى شبيب مسجدًا بطرف السبخة، فخرج إليه أبو الورد مولى الحجاج فى عدة غلمان فقاتل حتى قتل، ثم خرج طهمان مولى الحجاج - أيضًا - فى طائفة، فقتله شبيب.

ثم إن الحجاج خرج من قصر الكوفة، فركب بغلاً وخرج فى جيش الشام، فلما التقى الجمعان، نزل الحجاج وقعد على كرسى، ثم نادى: يا أهل الشام، أنتم أهل السمع والطاعة، والصبر واليقين، لا يغلبنَّ باطل هؤلاء حقكم، غضوا الأبصار،

(١) في تاريخ الإسلام، وتاريخ الطبري: بضلالتهم.

واجثوا على الركب، وأشرعوا [إليهم][١] الأسنة. وكان شبيب فى الستمائة، فجعل مائتين معه كردوسًا، ومائتين مع سويد بن سليم، ومائتين مع المحلل بن وائل، فحمل سويد عليهم حتى إذا غشى أطراف الأسنة، وثبوا فى وجوههم يطعنونهم قدمًا قدمًا، فانصرفوا، فأمر الحجاج بتقديم كرسيه وصاح بأصحابه، فحمل عليهم شبيب، فثبتوا وطال القتال، فلما رأى شبيب صبرهم نادى: يا سويد، احمل على أهل هذه السكة، لعلك تزيل أهلها عنها، فتأتى الحجاج من ورائه، ونحن من أمامه، فحمل سويد بن سليم على أهل السكة، فرمى من فوق البيوت، فرد[٢].

قال أبو مخنف: فحدثنى فروة بن لقيط الخارجى من قوم شبيب، قال: فقال لنا شبيب يومئذ: يا أهل الإسلام، إنما شرينا الله، ومن شرى الله، لم يكثر عليه ما أصابه شدة، كشداتكم فى مواطنكم المعروفة، وحمل على الحجاج، فوثب أصحاب الحجاج طعنًا وضربًا، فنزل شبيب وقومه فصعد الحجاج على مسجد شبيب فى نحو عشرين رجلًا، وقال: إذا دنوا فارشقوهم بالنبال، فاقتتلوا عامة النهار أشد قتال فى الدنيا حتى أقر كل فريق للآخر.

ثم إن خالد بن عتاب بن ورقاء قال للحجاج: ائذن لى فى قتالهم؛ فإنى موتور - لأنه قتل أبوه عتاب بن ورقاء -وممن لا يتهم فى نصيحته، فأذن له، فخرج فى عصابة، ودار من ورائهم فقتل مصادا[٣] أخا شبيب وغزالة امرأة شبيب، وأضرم النيران فى عسكره، فوثب شبيب وأصحابه على خيولهم، فقال الحجاج: احملوا عليهم، فقد ارتعبوا، فشدوا عليهم فهزموهم، وتأخر شبيب فى خاصّة قومه، فذكر من كان مع شبيب: أنه كان ينعس، ويخفق برأسه، وخلفه الطلب، قال: فقلت: يا أمير المؤمنين، التفت فانظر من خلفك، فالتفت غير مكترث، ثم أكب يخفق، ثم قلت: إنهم دنوا، فالتفت، ثم أقبل يخفق، وبعث الحجاج إلى خيله أن دعوه فى حرق النار، فتركوه ورجعوا[٤].

---

(١) المثبت من تاريخ الإسلام.
(٢) ينظر: تاريخ الطبرى (٦/ ٢٢٤ - ٢٧٠)، وتاريخ الإسلام (٣٢٧ - ٣٢٩) حوادث سنة (٧٦هـ)، وتاريخ خليفة ص (٢١٠ - ٢١١).
(٣) فى ط: مضاء، والتصحيح من تاريخ الإسلام وتاريخ الطبرى.
(٤) ينظر: تاريخ الطبرى (٦/ ٢٥٤)، وتاريخ الإسلام (٣٣٣ - حوادث ٧٦هـ).

ومَرَّ أصحاب شبيب بعامل للحجاج على بلد بالسواد، فقتلوه، ثم أتوا بالمال على دابة، فشتمهم شبيب على مجيئهم بالمال، وقال: قد اشتغلتم بالدنيا، ثم رمى بالمال فى الفرات.

ثم سار بهم إلى الأهواز، وبها محمد بن موسى بن طلحة بن عبيد الله، فخرج لقتاله، وسأله محمد المبارزة، فبارزه شبيب فقتله، ومضىٰ إلى كرمان، فأقام شهرين ورجع إلى الأهواز، فندب له الحجاج مقدمى جيش الشام سفيان بن الأبرد الكلبى، وحبيب بن عبد الرحمن الحكمى(١)، فالتقوا على جسر دجيل، فاقتتلوا حتى حجز بينهم الليل، ثم ذهب شبيب، فلما صار على جسر دجيل، قطع الجسر فوقع شبيب وغرق.

وقيل: قفز به فرسه فألقاه فى الماء وعليه الدرع، فقال له رجل: أغرقًا يا أمير المؤمنين ؟ قال: ذلك تقدير العزيز العليم، وألقاه دجيل إلى ساحله ميتًا، وأتى به الحجاج.

قال أبو مخنف: فسمعتهم يقولون: إنه شق بطنه، فأخرج قلبه، وكان مجتمعًا صلبًا كأنه صخرة، وأنه كان يضرب به الأرض، فيثب قامة الإنسان(٢).

قلت: لله أبو هذا البطل القرم الذى بارز الأقران، فكسرهم، وشتت شملهم وقهرهم يظفر فى ستمائة على خمسين ألفًا، هو شبيب بن يزيد بن نعيم بن قيس بن عمرو بن الصلت الشيبانى(٣)، خرج بالموصل كما تقدَّم، فبعث إليه الحجاج خمسة قواد قتلهم واحدًا بعد واحد، ثم سار إلى الكوفة، وحاصر الحجاج بها، وقاتله، وكانت امرأته غزالة من الشجاعة والفروسية قريبًا منه، هرب الحجاج منها فى بعض حروبه، فعيَّره بعض الناس: [من الكامل]

أَسَدٌ عَلَيَّ وَفى الحُرُوبِ نَعَامَةٌ فَتْخَاءُ تَنْفِرُ مِنْ صَفِيرِ الصَّافِرِ
هَلاَّ بَرَزْتَ إِلَيْ غَزَالَةَ فِى الوَغَىٰ بَلْ كان قلبُكَ فى جَنَاحَيْ طَائِرِ

---

(١) فى ط: التميمى. والتصحيح من تاريخ الإسلام، وتاريخ خليفة.

(٢) ينظر: تاريخ الطبرى (٦/ ٢٧٠ - ٢٨١) وتاريخ الإسلام حوادث سنة سبع وسبعين والبداية والنهاية (٩/ ١٧ - ٢٧).

(٣) ينظر: فى أخبار شبيب بن يزيد مروج الذهب ٣/ ٣٤٦ وما بعدها، تاريخ الطبرى ٦/ حوادث ٧٦ و٧٧، المعارف ٤١٠، البداية والنهاية ٩/ ١٩، النجوم الزاهرة ١/ ١٩٦، وفيات الأعيان ٢/ ٤٥٤ .

وكانت أمه تسمى جهيزة، تشهد الحروب كذلك.

قال بعضهم: رأيت شبيبًا وقد دخل المسجد، وعليه جبة طيالسة عليها نقط من أثر المطر، وهو طويل أشمط، جعد، آدم اللون، فبقى فى المسجد يرتج.

ولد سنة ست وعشرين من الهجرة، وغرق بدجيل سنة سبع وسبعين.

ولما حمل إلى عبد الملك عتبان الحروريّ من أصحاب شبيب، قال له عبد الملك: ألست القائل: [من الطويل]

فإنْ كان مِنْكُمْ كان مَرْوَانُ وابنُهُ وعَمْرٌو ومنْكُمْ هاشمٌ وحبيبُ
فمنا حُصَيْن والبطين وقَعْنَبٌ ومنا أَمِير المؤمنينَ شَبِيبُ

فقال عتبان: يا أمير المؤمنين، إنما قلت: « ومنا أميرَ المؤمنين » - ونصب على النداء - فاستحسن قوله وأطلقه.

وجهيزة أم شبيب هى التى يضرب بها المثل فى الحمق، لأنها لما حملت، قالت: فى بطنى شيء ينفر[1]، فقيل: أحمق من جهيزة. وروى عنها ما يدل على عدم الحمق؛ فإن عمرو بن شبيب قال: حدثنى خلاد بن يزيد الأرقط قال: كان شبيبٌ نُعِىَ إلى أمه، فيقال لها: إنه قد قتل، فلا تقبل، فلما قيل لها: إنه قد غرق، قبلت ذلك، وقالت: إنى رأيتُ حين ولدته أنه خرج منى شهاب نار، فعلمت أنه لا يطفئه إلا الماء. كذا فى دول الإسلام للحافظ الذهبى[2].

وفى سنة ثمان وثمانين: بنى الحجاج مدينة واسط المدينة المعروفة؛ وذلك أن الحجاج كان ينزل أهل الشام إذا ورد الكوفة على أهل الكوفة، فضرب البعث عن أهل الكوفة إلى خراسان وعسكروا قريبًا من الكوفة حتى يستتموا، فرجع منهم ذات ليلة فتى حديث عهد بعرس بابنة عمه، فطرق بيته فدق الباب فلم يفتح له إلا بعد هنيهة.

وإذا سكران من أهل الشام يستأذن وشكت عليه ابنة عمه مراودته إياها، فقال لها: ائذنى له، فأذنت له، فجاء فقتله الفتى الكوفى، وخرج إلى العسكر وقال: ابعثى إلى الشاميين، وادفعى إليهم صاحبهم، ففعلت، فأحضروها عند الحجاج فأخبرته،

---

(١) فى تاريخ الإسلام: ينقز.
(٢) ينظر: تاريخ الإسلام حوادث سنة ست وسبعين وسبع وسبعين (٤١٨ - ٤١٩).

فقال: صدقت، وقال للشاميين: لا قود له ولا عَقْلَ؛ فإنه قتيل الله إلى النار، ثم نادى منادٍ: لا ينزل أحد على أحد. وبعث الرواد فارتادوا له مكان واسط، ووجد هنالك راهبًا ينظف بقعة من النجاسات، فقال: ما هذه ؟ قال: نجد فى كتبنا أنه يبنى ههنا مسجد للعبادة، فاختطَّ الحجاج مدينة واسط هنالك، وبنى المسجد فى تلك البقعة.

وفى تاريخ ابن خلكان[١]: أن ابن الزبير لمَّا ولى الخلافة بمكَّة ولى أخاه عبيد الله ابن الزبير المدينة، ولم يزل يقيم للناس الحج من سنة أربع وستين إلى سنة اثنتين وسبعين، فلما ولى عبد الملك، منع أهل الشام من الحج من أجل ابن الزبير؛ لأنه كان يأخذ الناس بالبيعة إذا حجوا، فضجَّ الناس لما منعوا من الحج، فبنى عبد الملك قبة على صخرة بيت المقدس ومساجد الأمصار.

وقيل: إن أول من سن التعريف بالبصرة عبد الله بن عباس - رضى الله عنهما - لما كان عاملاً عليها لعلى - رضى الله تعالى عنهما - وبمصر عبد العزيز بن مروان أخو عبد الملك، وببيت المقدس عبد الملك بن مروان.

ولما قتل عبد الملك مصعب بن الزبير، وأراد الرجوع، جاء إليه الحجاج، فقال: إنى رأيت فى منامى أنى أخذت عبد الله بن الزبير، فسلخته، فولنى قتاله، فبعثه فى الجيش المتقدِّم ذكره، فحصره أكثر من خمسين يومًا، وقيل: خمسة أشهر، وفعل ما فعل، وأرسل برأسه إلى عبد الملك، فأرسل عبد الملك بالرأس إلى عبد الله بن حازم السلمى، وهو عامل ابن الزبير على خراسان، وما والاها، وكان عبد الله بن حازم هذا من الأبطال والفرسان المعدودين المشهورين. ولقد سمعت عبارة فى وصفه بالشجاعة، لم أسمعْ نظيرها فى غيره، فما أحقها أن تكون فى أمير المؤمنين على بن أبى طالب؛ فإنها غاية فى المدح ما خلفها غاية، وهى قول بعض العرب فيه: ما استحيا شجاع قط أن يفر من عبد الله بن حازم السلمى. فتأملها بالذوق، تجدها تجذب المحامد بالطوق.

الشيء بالشيء يذكر: قال فى العقد[٢]: فرسان الحروب فى الجاهلية ربيعة بن مكدم من بنى فراس بن غنم بن مالك بن كنانة.

(١) ينظر: وفيات الأعيان لابن خلكان (٣/ ٧١، ٧٢).
(٢) ينظر: العقد الفريد (١/ ١٠٥).

قلت: هو صاحب الواقعة مع عمرو بن معدى كرب التى تقدَّم ذكرها، كان يعقر على قبره فى الجاهلية، ولم يعقر على قبر أحد قبله. وبنو فراس من الذين قال فيهم على بن أبى طالب - رضى الله تعالى عنه - يمدحهم، ويذم أهل الكوفة: « يا معشر الكوفة، من فاز بكم، فاز بالسهم الأخيب، أبدلكم الله بى من هو شر لكم، وأبدلنى بكم من هو خير منكم، وددت والله أن لى بجمعكم وأنتم مائة ألف ثلاثمائة من بنى فراس بن غنم بن مالك بن كنانة ».

وعنترة بن شداد العبسى، وعتبة بن الحارث بن شهاب، وأبو [براء][(١)] عامر بن مالك ملاعب الأسنة، وزيد الخيل، وبسطام بن قيس، والأحيمر السعدى، وعامر ابن الطفيل، وعمرو بن عبد ود العامرى، وعمرو بن معدى كرب الزبيدى.

وأما فى الإسلام: فعلى بن أبى طالب، والزبير، وطلحة، ورجال من الأنصار، منهم: أبو دجانة الأنصارى، وعاصم بن ثابت بن أبى الأقلح، وقيس بن سعد بن عبادة، وعباد بن الحصين، والأشتر بن مالك النخعى، وعبد الله بن الزبير، ومسلمة ابن عبد الملك بن مروان، وعمير بن الحباب، وقطرى بن الفجاءة، والحريش بن هلال السعدى، وشبيب الحرورى الخارجى، وعبد الله بن حازم السلمى المذكور.

وكان عبد الله بن حازم هذا عاملاً لابن الزبير على خراسان وما والاها؛ كما تقدم ذكره، فلما أرسل إليه عبد الملك بن مروان برأس ابن الزبير، أرسله مع رجل من بنى عامر بن صعصعة يدعوه إلى طاعته، وأن تكون له خراسان طعمة سبع سنين لا يسأل عن شيء منها، قال ابن حازم للرسول: لولا أن الرسل لاتقتل - وفى رواية: لولا خشية الفتنة من بنى عامر وبنى سليم - لضربت عنقك، ولكنْ كُلْ كِتَابَ صاحبك، فأكله، ثم أمر بالرأس فغسَّله وقَبَّله ودفنه.

وقيل: إنه بعثه إلى آل الزبير بالمدينة، فدفنوه مع جثته، حيث دفنت[(٢)].

وعبد الملك أول من سمى بعبد الملك فى الإسلام[(٣)]، كان مشدود الأسنان بالذهب، حازمًا يقظا لا يكلُ أمره إلى سواه، شديد البخل يلقب: رشح الحجر؛ لبخله، ويلقب - أيضًا - بأبى الذباب، لبخر كان فى فيه؛ كذا قيل، مقدمًا على

(١) المثبت من تاريخ الإسلام.
(٢) تقدم الكلام على هذا عند حادث قتل ابن الزبير.
(٣) ينظر: تاريخ بغداد (١٠/ ٣٨٩ - ٣٩٠).

سفك الدماء.

أوصى ابنه الوليد لما ثقل مرضه، فقال: يا وليد، لا ألفينك إذا وضعتنى فى حفرتى تعصر عينيك كالأمة الوكعاء، بل شمر وائتزر، والبس جِلْد النمر، وادع الناس إلى البيعة، فمن قال برأسه كذا - أى: لا - فقل بالسيف كذا، أى: اضرب عنقه، ومن سكت، مات بدائه.

وكان عبد الملك يلقب قبل ذلك بحمامة المسجد لقبه به عبد الله بن عمر، وجاءته الخلافة وهو يقرأ فى المصحف، فطبقه، وقال: سلام عليك، هذا فراق بينى وبينك[١].

وقيل لابن عمر: رأيتَ لو تفانوا أصحاب رسول الله ﷺ، فمن نسأل بعدهم؟ قال: سلوا هذا الفتى، يعنى: عبد الملك بن مروان[٢].

عن يونس بن ميسرة، عن عبد الملك؛ أنه قال وهو على المنبر: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: « ما من امرئ لا يغزو فى سبيل الله، أو يجهز غازيًا، أو يخلفه بخير، إلا أصابه الله بقارعة قبل الموت »[٣].

وقال النضر بن محمد، وذكر سندًا إلى سحيم مولى أبى هريرة، عن أبى هريرة؛ أن عبد الملك بن مروان دخل عليهم، وهو غلام شاب، فقال أبو هريرة: هذا يملك العرب.

وقال جرير بن حازم، عن نافع: لقد رأيت المدينة وما بها شابٌّ أشد تشميرًا، ولا أنسك، ولا أقرأ لكتاب الله من عبد الملك بن مروان[٤].

وعن ابن عمر قال: ولد الناس أبناء، وولد مروان أبًا.

قال مالك: سمعت يحيى بن سعيد يقول: أول من صلى فى المسجد ما بين الظهر إلى العصر عبد الملك بن مروان، وفتيان كانوا معه إذا صلى الإمام الظهر، قاموا فصلوا إلى العصر، فقيل لسعيد بن المسيب: لو قمنا فصلينا كما يصلى هؤلاء، فقال سعيد بن المسيب: ليست العبادة بكثرة الصلاة والصوم، إنما العبادة التفكر فى أمر الله، والورع عن محارم الله.

---

(١) ينظر: تاريخ بغداد (١٠/ ٣٩٠).
(٢) ينظر: تاريخ بغداد (١٠/ ٣٨٩).
(٣) أخرجه أبو داود (٢٥٠٣)، وابن ماجه (٢٧٦٢)، والدارمى (٢/ ٢٠٩) من حديث أبى هريرة
(٤) ينظر: تاريخ بغداد (١٠/ ٣٨٩).

وروى إسماعيل بن أبى خالد، عن الشعبى: ما جالست أحدًا إلا وجدت لى الفضل عليه إلا عبد الملك بن مروان؛ فإنى ما ذاكرته حديثًا إلا زادنى فيه، ولا شعرًا إلا زادنى فيه[١].

وقال أحمد بن إبراهيم بن هشام بن يحيى الغسانى، حدثنا أبى، عن أبيه، قال: لما نزل مسلم بن عقبة المرى المدينة، دخلت المسجد النبوى، فجلست إلى جنب عبد الملك، فقال لى: أمن هذا الجيش أنت ؟ قلت: نعم، قال: ثكلتك أمك، أتدرى إلى من تسير، إلى أول مولود ولد فى الإسلام.

قلت: مراده بالمدينة، فقد صح أن عبد الله بن الزبير أول مولود ولد بها، قيل: بقباء، وقيل: بالمدينة نفسها، ففرح المسلمون فرحًا شديدًا، لأن اليهود تفوهوا بأنا سحرنا محمدًا وأصحابه؛ فلا يولد لهم، فكان أول مكذب لهم، رضى الله عنه. انتهى.

وإلى ابن حَوَارِيِّ رسول الله ﷺ، وإلى ابن ذات النطاقين، وإلى من حنكه رسول الله ﷺ، أما والله إن جئته نهارًا، وجدته صائمًا، وإن جئته ليلًا لتجدنه قائمًا، فلو أن أهل الأرض أطبقوا على قتله لأكبَّهم الله جميعًا فى النار. فلما صارت الخلافة إلى عبد الملك، وجهنا مع الحجاج حتى قتلناه.

قال الأصمعى: حدَّثنا عباد بن مسلم بن زياد، عن أبيه، قال: ركب عبد الملك ابن مروان بكرًا، فأنشأ قائده يقول: [من الرجز]

يَـأَيُّـهَـا الـبَـكْـرُ الـذى أَرَاكَـا
غَـلَبْتَ أهلَ الأرضِ فى مَمْشَاكا[٢]
وَيْـحَـكَ هَـلْ تـعـلَـمُ مَـنْ عَـلاَكَـا
خـلـيـفَـةُ الـلَّـهِ الـذى امْـتَـطَـاكَـا
لَـمْ يَـحْـبُ بَـكْـرًا مِـثْـلَ مـا حَـبَـاكَـا

فلما سمعه عبد الملك قال: إيهًا يا هناه، قد أمرت لك بعشرة آلاف درهم[٣].

ومما نقلته من العقد لابن عبد ربه القرطبى[٤] قال: مدح جرير الحجاج بأبيات

---

(١) ينظر: تهذيب الكمال (١٨/ ٤١١).
(٢) هذا الشطر فى البداية والنهاية، وتاريخ الإسلام هكذا: عليك سهل الأرض فى ممشاكا.
(٣) ينظر: البداية والنهاية (٩/ ٧٨)، وتاريخ الإسلام حوادث سنة ٨١هـ (ص ١٤٠).
(٤) ينظر: العقد الفريد (١/ ٣٣٠، ٣٣١).

منها قوله: [من الوافر]

دَعَا الحَجَّاجُ مِثْلَ دعاءِ نُوحٍ فأسمَعَ ذا المعارِجِ فَاسْتَجَابَا

فقال له الحجاج: إن الطاقة تَعْجِزُ عن مكافأتك، ولكنى موفدك على أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، فسر بكتابى هذا إليه فسار إلى عبد الملك، فأنشده القصيدة التى مطلعها: [من الوافر]

أَتَصْحُو أَمْ فؤادُكَ غَيْرُ صَاحٍ ؟! ... ...

فقال عبد الملك: بل فؤادك يا ابن الفاعلة، حتى انتهى إلى قوله فيها: [من الوافر]

تَعَزَّتْ أمُّ حَزْرَةَ ثُمَّ قَالَتْ: رأيتُ الوارِدِينَ ذَوِى امتِيَاحِ

ثِقِى باللّهِ لَيْسَ له شريكٌ ومِنْ عندِ الخليفةِ بالنجاحِ

سأشكُرُ إن رَدَدتَ إِلَيَّ ريشِي وأثبتَّ القَوَادِمَ مِنْ جَنَاحِي

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المطايا وأندى العَالَمينَ بُطُونَ راحِ ؟!

فلما قال هذا البيت استوى عبد الملك جالسًا، وكان متكئًا، ثم قال: من مدحنا فبمثل هذا فليمدح، ثم قال: يا جرير، أترى أم حزرة ترويها مائة ناقة من نعم كلب ؟! فقال: إذا لم تروها، فلا أرواها الله، وقال: يا أمير المؤمنين، إن الإبل أباق، ونحن مشايخ، وليس بأحدنا فضل عن راحلته، فلو أمرت بالرعاة لها، فأمر له بثمانية أعبد، قال: وكانت بين يدى عبد الملك صحاف من فضة يقرعها بقضيب فى يده، فقال جرير: والمحلب يا أمير المؤمنين، وأشار إلى صحفة، فنبذها إليه بالقضيب، وقال: خذها، ففى ذلك يقول: [من البسيط]

أَعْطَوْا هُنَيْدَةَ يَحْدُوها ثمانيَةٌ ما فى عطائِهِمُ مَنٌّ ولا سَرَفُ

وروى هشام بن الكلبى، عن أبيه قال: دخل أعرابى إلى عبد الملك بن مروان، فمدحه وأحسن، وعنده جرير والفرزدق والأخطل، فقال له عبد الملك: أتعرف أهجَىٰ بيت فى الإسلام ؟ قال: نعم؛ قول جرير: [من الوافر]

فَغُضَّ الطَّرْفَ إنكَ من نُمَيْرٍ فلا كَعْبًا بَلَغْتَ ولا كِلَابا

قال: أصبتَ، فهل تعرف أرقَّ بيت قيل فى الإسلام ؟ قال: نعم، قول جرير أيضًا: [من البسيط]

إِنَّ العُيُونَ التى فى طَرْفِهَا حور(١) قتلْنَنَا ثم لم يُحْيِينَ قَتْلَانا

(١) فى ط: مرض. والمثبت من العقد الفريد.

يَصْرَعْنَ ذا اللبّ حتى لا حراكَ به   وهُنَّ أضعَفُ خَلْقِ اللّه أركانا

قال عبد الملك: أحسنت، ثم قال: فهل تعرفُ أمدح بيت فى الإسلام ؟ قال: نعم، قوله فيك يا أمير المؤمنين: [من الوافر]

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المطايا   وأَنْدَى العالَمينَ بُطُونَ رَاحِ ؟!

قال: أحسنت، فهل تعرف جريرًا ؟ قال: لا، والله، وإنى إلى رؤيته لمشتاق، فقال: هذا جرير، وهذا الفرزدق، وهذا الأخطل، فأنشأ الأعرابى يقول: [من المتقارب]

فَحَيَّا الإلهُ أَبَا حَزْرَةٍ   وَأَرْغَمَ أنفَكَ يا أَخْطَلُ

وَجَدُّ الفرزدقِ أَتْعِسْ به   وَدَقَّ خياشيمَكَ الجَنْدَلُ

فأنشأ الفرزدق يقول: [من البسيط]

بَلْ أَرْغَمَ اللّهُ أنفًا أنتَ حامِلُهُ   يا ذا الخَنَا ومقَالِ الزُّور والخَطَلِ

ما أَنْتَ بالحَكَمِ التُّرْضَىٰ حكومتُهُ   ولا الأَصِيلِ وَلاَ ذِى الرأيِ والجَدَلِ

فغضب جرير، وأنشأ يقول: [من البسيط]

أَتَشْتُمَانِ سفَاهًا خَيْرَكُمْ حَسَبًا ؟!   فَفِيكُمَا وإلهى الزُّورُ والخَطَلُ

شَتَمْتُمَاهُ عَلَىٰ رَفْعِى وَوَضْعِكُما   لا زِلْتُمَا فى سِفَالٍ أيها الرَّجُلُ

ثم نهض، فقبل يدى عبد الملك، وقال: يا مولاَىَ، جائزتى لجرير، فقال عبد الملك: وله منى مثلها. انتهى

وحكى الهيثم بن عدى؛ أن عبد الملك بن مروان بَعَثَ إلى عمر بن أبى ربيعة المخزومى، وإلى جميل بن معمر العذرى صاحب بثينة، وإلى كثير عزة - وهو كثير ابن عبد الرحمن بن الأسود الخزاعى المدنى - وأوقر ناقة ذهبًا وفضة، ثم قال: لينشد كل واحد منكم ثلاثة أبيات، فأيكم كان أغزل شعرًا، فله الناقة وماعليها، فقال عمر بن أبى ربيعة: [من الطويل]

فَيَا ليتَ أنى حِينَ تَدْنُو منيَّتِى   شَمَمْتُ الذى ما بَين عينيكِ والفَمِ

وَلَيْتَ طهورى كَانَ رِيقكِ بَعْدَهُ   ولَيْتَ حَنُوطِى مِنْ مُشَاشِكِ والدَّمِ

وَلَيْتَ سُلَيْمَىٰ فِى المنامِ ضَجِيعَتِى   لَدَى الجَنَّةِ الخضراءِ أو فى جَهَنَّمِ

وقال جميل: [من الطويل]

حَلَفْتُ يمينًا يا بثينَةُ صادقًا   فإنْ كُنْتُ فيها كاذبًا فَعَمِيتُ

حلفتُ لها بالبُدْنِ تدمى نحورُهَا   لقد شَقِيَت نَفْسِي بكُمْ وعنِيتُ

ولو أنَّ رَاقي المَوْتِ يَرْقي جنازتى بمَنْطِقِهَا فى الناطِقِينَ حَيِيتُ

وقال كثير عزة: [من الكامل]

بِأَبِى وأُمِّى أَنتِ مِنْ معشوقةٍ ظَفِرَ العدوُّ بها فَغَيَّرَ حالَهَا

ومشَىٰ إلىَّ بعَيْبِ عزَّةَ نسوةٌ جعل المليكُ خدودَهُنَّ نِعَالَهَا

ولو انَّ عزَّةَ حاكَمَتْ شَمْسَ الضحَىٰ فى الحُسْنِ عند موفَّقٍ لَقَضَىٰ لها

فقال عبد الملك: خذ الناقة ياصاحب جهنم.

وكان يقال: من أراد رِقَّة الغزل، فعليه بشعر عمر بن أبى ربيعة المخزومي، ومن شعره مارواه ابن الأنبارى: [من الكامل]

لبثوا ثَلاَث منى بمَنْزِلِ قلعةٍ وَهُمُ عِلى عرضٍ لَعمْرُكَ ما هُمُ

متجاورينَ بغَيْرِ دارِ إقامةٍ لو قد أجَدَّ رحيلهم لم يَقْدَمُوا

ولَهن بالبَيْتِ العتيقِ لبانَةٌ والبيتُ يعرفُهُنَّ لو يتكلَّمُ

لَو كان حَيًّا قبلهنَّ ظعائنًا حَيًّا الحطيمُ وجوهَهُنَّ وزَمْزَمُ

لكنَّهُ مما يطيفُ برُكْنِهِ منهنَّ صماء الصَّدَىٰ مُسْتَعْجمُ

وكأنهنَّ وقد صدزنَ عشيَّةً بيضٌ بأكنافِ الخيامِ منظَّمُ

وفى كتاب أنساب قريش للزبير بن بكار لعمر بن أبى ربيعة قوله: [من الطويل]

نَظَرْتُ إليها بالمحصَّبِ من مِنًى ولى نَظَرٌ لولا التحرُّمُ عازمُ

فقلْتُ أشمسٌ أم مصابيحُ بيعَةٍ بَدَتْ لكَ تحت السُّجْفِ أَمْ أنتَ حَالِمُ ؟!

بعيدة مَهْوَى القُرْطِ إما لنوفَلٍ أَبُوهَا وإمَّا عَبْدُ شَمْسٍ وهَاشِمُ

فلم أستطِعْهَا غَيْرَ أَنْ قَدْ بَدَا لَنَا عشيَّةَ راحَتْ وَجْهُهَا والمَعَاصِمُ

وقال الزبير بن بكار: أنشد ابن أبى عتيق سعيدَ بن المسيب قول عمر بن أبى ربيعة: [من الخفيف]

أيها الراكبُ المجدُّ ابتِدَارًا قد قَضَىٰ مِنْ تِهَامَةَ الأوطارا

إن يكُنْ قلبُكَ الغدَاةَ جَلِيدًا ففؤادى بالحُبِّ أمْسَىٰ مُعَارا

ليت ذا الدَّهرَ كان حَتْمًا علينا كُلَّ يومَين حِجَّةً واعتِمَارا

فقال سعيد بن المسيب: لقد كلف ابن أبى ربيعة المسلمين شططًا.

وروى الأصمعى، عن صالح بن أسلم، قال: قال عمر بن أبى ربيعة: إنى قد

أنشدت من الشعر مابلغك وبلغ غيرك، ولكن وربِّ هذه البِنِيَّة - يشير إلى الكعبة - ماحللت إزارى على فرج حرام قط.

حضر مجلس عبد الملك يومًا قوم من وجوه العرب، فقال لهم عبد الملك: أيُّ المناديل أفضل؟ فقال بعضهم: مناديل مصر، كأنها [غِرقِئ](1) البيض، وقال بعض: مناديل اليمن كأنها أنوار الربيع، فقال عبد الملك: ماصنعتم شيئًا، أفضلها ما قاله عبدة بن الطبيب حيث يقول: [من البسيط]

لَمَّا نزلْنَا ضربْنَا ظِلَّ أخبيةٍ ... وفَارَ بالغَلْيِ للقَوْمِ المراجيلُ
ورد وأشْقَر لا يُؤْنيه طابخُهُ ... ما قارَبَ النضْجَ منها فهو مأكولُ
ثم انثنينا عَلَىٰ عُوجٍ مسوَّمةٍ ... أعرافُهُنَّ لأيدينا مَنَادِيلُ

ثم قال: وما أطربنى لقول طفيل الخيل: [من البسيط]

إنى وإنْ قَلَّ مالى لا يُفَارِقُنِى ... مِثلُ النعامةِ فى أوصالهَا طُولُ
تقريبُهَا المَرطَىٰ والجَوْزُ معتدلٌ ... كأنه سبدٌ بالماءِ مغسُولُ
أو ساهم الوجهِ لم تقطَعْ أباجلُهُ ... يُصَانُ وَهْوَ بيوم الروعِ مبذولُ

قلت: وفى حفظى لابن المعتز فى مثل هذا المعنى من وصف الفرس ما يعجب سماعه، ويحسن فى الطروس إيداعه قوله: [من الكامل]

ولقد وَطِئْتُ الغيثَ يَحْمِلُنِى ... طِرْفٌ كلونِ الصبحِ حينَ وقدْ
يمشِى ويعرضُ فى العِنَانِ كما ... صَدَفَ المعشَّقُ بالدَّلاَلِ وصَدّ
طارَتْ به رجلٌ موقعةٌ ... رجَّامةٌ لحَصَى الطريقِ وَيَدْ
وكأنه مَوْجٌ يسيلُ إذا ... أطلقتَهُ، وإذا حبست جَمَدْ

وقول زيد الخيل: [من الرمل]

يا بنى الصيداء رُدُّوا فَرَسى ... إنما يُصنَعُ هذا بالذَّلِيلِ
لا تذيلوه فإنى لم أكُن ... يا بنى الصَّيْدَا لِمُهْرِى بالمُذِيلِ
عَوِّدُوهُ كَالَّذِى عَوَّدْتُهُ ... دلج الليْلِ وَإِيطَاء القَتِيلِ

قيل: وفدت عزة على عبد الملك بن مروان، فلما دخلت سلَّمَتْ، فرد عليها السلام، ورحب بها، وقال: ما أقدمك يا عزة؟ قالت: شدة الزمان، وكثرة الألوان،

(١) الغرقئ: قال فى « القاموس »: همزته زائدة . . . وغرقَأتِ الداجاجة بيضتها: باضتها وليس لها قشر يابس . ينظر: ترتيب القاموس (غرق) .

واحتباس القطر، قال: هل تروين لكثير: [من الطويل]

وَقَدْ زعَمَتْ أنّى تغيَّرْتُ بعدها ... ومَنْ ذا الذى يَا عَزُّ لا يتغيَّرُ ؟!

قالت: أَزْوِي له هذا، ولكنى أَرْوِي قوله فى قصيدة له: [من الطويل]

كأنّى أُنَادِى صَخْرَةً حِينَ أَعْرَضَتْ ... مِنَ الصُّمِّ لو تمشِى بها العُصْمُ زَلَّتِ

قال: ماكنت لتصيرين إلى حاجته، أو تهبين نفسك لى، فأزوجك منه، قالت: الأمر إليك يا أمير المؤمنين، ماكنت لأزهد فى هذا الشرف الباقي لى ما دامت الدنيا أن يكون أمير المؤمنين وليي، فعظم بذلك قدرها عنده، وأمر لها بمال، وكتب إلى كثير وهو بالكوفة؛ أن اركب البريد وعجل؛ فإنى مزوجك عزة، وأتاه الكتاب وهو مضنى من الشوق إليها، فرحل وأقبل نحوها، فلما كان ببعض الطريق إذا هو بغراب على شجرة بانة ينتف ريشه ويطايره، وكان كثير شديد الطيرَة، فلما رآه تَطَيَّر وهَمَّ بالانصراف، ثم غلبه شوقه، فمضى وهو مكروبٌ لما رأى، حتى أتى ماء لبنى نهد، فإذا هو برجل يسقى إبله، فنزل كثير عن راحلته واستظلَّ بشجرة هناك، فأبصره النهديُّ وأتاه، وسأله عن اسمه ونسبه، فانتسب، فرحَّبَ به، فأخبره كثير عما رأى فى طريقه، فقال: أما الغراب فغربة، وأما البانة فبين، وأما نتف ريشه ففرقة.

فتطير من ذلك ومشَىٰ، حتى دنا من دمشق، فإذا بجنازة فاستعبر، وقال: أسأل الله خير ما هو كائن، فسأل عن الميت فإذا هى عزة، فخر مغشيًّا عليه، فعُرِفَ، وصب عليه الماء، فكان مجهوده أن بلغ القبر، فلما دفنت، انكبَّ على القبر، وهو يقول: [من الطويل]

سِرَاجُ الدُّجَىٰ صفْرُ الحَشَا منتهى المنى ... كَشَمْسِ الضحَىٰ نَوَّامة حينَ أُصْبِحُ

إذا مامشتْ بين البيوتِ تخزَّلت ... ومالَتْ كما مال النزيفُ المرنَّحُ

تعلَّقتُ عزا وهيَ رود شبابها ... علاقة حُبٌ كاد بالقَلْبِ يرجحُ

أقولُ ونِضْوِى واقفٌ عند رَمْسِها ... عليكِ سلامُ اللهِ والعَيْن تسفَحُ

فهلا فَدَاكِ الموتُ مَنْ أنتِ دونه ... ومَنْ هو أسوا منكِ دلاً وأقبحُ

علـى أمّ بكـرٍ رحمـةٌ وتـحيَّةٌ ... لها منك والنائى يودُّ وينصحُ

منعمة لو يدرج النمْلُ بينها ... وبين حواشِى بردها كَادَ يجرحُ

وما نظَرَتْ عينى إلى ذِى بشاشةٍ ... من الناسِ إلا أنْتِ فى العينِ أملحُ

ثم بكى حتى غشى عليه فأفاق، وهو يقول: [من الطويل]

ما أَعْيَفَ النَّهْدِيَّ لا دَرَّ دَرُّهُ   وأزجَرَهُ للطَّيْرِ لا طَارَ طائِرُهْ
رأيتُ غرابًا واقِعًا فَوْقَ بَانَةٍ   يُنَتِّفُ أعلَىٰ ريشِهِ ويطايرُهْ
فقال غرابٌ: ذا اغترابٌ من النوَىٰ   وبانَة بَيْن مِنْ حَبِيبٍ تُعَاشِرُهْ

ثم لم ير ضاحكًا بعدها حتى أدركه الموت. انتهى

وقيل: كان جوثة الضمرى صديقًا لعبد الملك بن مروان، ثم خرج عليه مع ابن الزبير، فلما استأمن الناس، قال عبد الملك لجوثة: أكنتُ مستحقًّا منك أن تعين ابن الزبير عليَّ مع مابينى وبينك؟! فقال: يا أمير المؤمنين، لاتعجلنَّ عليَّ حتى تسمعَ عذرى، قال: هاته، قال: هل رأيتنى قطُّ فى حرب أو سباق أو نضال إلا والفئة التى أنا معها مغلوبة مهزومة بسوء بختى وشؤمى؟! وإني خرجت مع ابن الزبير ليقتل على رسمى، فضحك منه عبد الملك وعفا عنه، وأحسن إليه.

وقال عبد الملك: كلكم يرشح نفسه لهذا الأمر، يعنى: الخلافة، ولايصلح له منكم إلا من كان له سيف مسلول، ومال مبذول، وعدل تطمئن إليه القلوب والعقول.

وقال لابنه الوليد: يابنى، اعلم أنه ليس بين السلطان وبين أن يملك الرعية أو تملكه الرعية، إلا حزم أو توان.

واصطبح فى يوم شديد البرد، فدعا بزوج سمور وعمامة خز، فلبسهما، وأمر بكَوَانِينِ النارِ فأضرم فيها الفحم بين يديه، ثم دعا بمُضَحِكٍ له يُدعَى أبا الزعيريرة، فقال له عبد الملك: اخرج إلى الشتاء، فقل له: أرعد وأبرق كيف شئت، قد استعددنا لك. فخرج إلى صحن الدار، ثم عاد فقال: قد أديتُ رسالتَكَ إليه، فقال: أمَّا أمير المؤمنين، فلا سبيل إليه، ولكنْ والله لأضربنَّ ضبب أبى الزعيريرة ضربًا يدخله فى حِرِ أمه، فضحك منه ووصله وخلع عليه من ثيابه.

وكان يقول: خلتان لاتدعوهما إن قدرتم: تعلم العربية، ولباس الثياب الفاخرة؛ فإنهما الزينة والمروءة الظاهرة.

وعن عوانة قال: جرى بين عروة بن الزبير، وبين عبد الملك بن مروان كلام أغلظ له عروة فيه، وكان الحجاج حاضرًا فقال له: يا ابن العمياء، أتكلم أمير المؤمنين بمثل هذا ؟! فقال له عروة: وما أنت وذاك يا ابن المتمنية؟. فضحك

عبد الملك، وقال للحجاج: قد كنت غنيًا عن هذا. وإنما أراد عروة: أن أم الحجاج وهى الفارعة بنت همام قالت: [من البسيط]

هَلْ مِنْ سَبِيلٍ إِلَىٰ خَمْرٍ فَأَشْرَبَهَا ؟! أَمْ هَلْ سَبِيلٌ إِلَىٰ نَصْرِ بنِ حَجَّاجِ؟!

وكان نصر بن حجاج هذا من أجمل أهل المدينة.

قلت: ذكروا أن عمر بن الخطاب خشى من وقوع الفتنة به، فنفاه من المدينة بعد أن حلق لمة كانت له؛ ففيه يقول الشاعر: [من الخفيف]

حَلَقُوا رَأْسَهُ لِيَزْدَادَ قُبْحا غِيرَةً مِنْهُمْ عليه وشُحًّا

كان صُبْحًا عليه لَيْلٌ بهيمٌ فَمَحَوْا لَيْلَهُ وأَبقَوْهُ صُبْحَا

وعن المدائنى: جرى بين عبد الملك وعمرو بن سعيد بن العاص منازعةٌ، فأغلظ له عمرو، فقال له خالد بن يزيد: ياعمرو، أمير المؤمنين لايكلَّم بمثل هذا، فقال له عمرو: اسكت، فوالله لقد سلبوك ملكَكَ، ونكَحُوا أمك، فما هذا النصح الموشح بغشٍّ؟! أنت كما قال الشاعر: [من الطويل]

كَمُرْضِعَةٍ أولادَ أُخْرَىٰ وضيعَتْ بنيها فَلَم ترقع بذلك مَرْقَعَا

وقدم الحجاج على عبد الملك بن مروان، فمر بخالد بن يزيد بن معاوية، وعنده رجل من أهل الشام، فقال الشامى لخالد: من هذا؟ يشير إلى الحجاج، فقال له خالد كالمستهزىء: هذا عمرو بن العاص، فعدل إليه الحجاج وقال: إنى والله ما أنا بعمرو بن العاص، ولا ولدت عمرًا ولا ولدنى، ولكنى ابن الغطاريف من ثقيف، والعقائل من قريش، ولقد ضربت بسيفى هذا أكثَرَ من مائة ألف، كلهم يشهد أنك وأباك وجدك من أهل النار، ثم لم أجد لذلك جزاءً ولا شكرًا، وانصرف عنه وهو يقول: عمرو بن العاص، عمرو بن العاص !

وكان عبد الملك إذا دخل عليه رجل من أفق من الآفاق، قال له: أعفنى من أربع، وقل بعدها ماشئت؛ لا تكذبنى؛ فإن المكذوب لا رأى له، ولا تجبنى عما لم أسألك؛ فإن فيما أسألك غنية عنه، ولاتطرنى؛ فإنى أعلم بنفسى منك، ولاتحملنى على الرعية؛ فإنى إلى الرفق بهم أحوج.

ذكر ابن خلكان[1]؛ أن عبد الملك بن مروان لما عزم على الخروج لمحاربة

---

(١) ينظر : وفيات الأعيان (٤/١٠٨) .

مصعب بن الزبير، ناشدته زوجته عاتكة بنت يزيد بن معاوية ألاَّ يخرج بنفسه، وأن يستنيب غيره، وألحت عليه فى المسألة. فلما لم يسمع منها، بكت وبكى من حولها من جواريها وحشمها، فقال عبد الملك: قاتل الله كثيرًا كأنه رأى موقفنا هذا حين قال: [من الطويل]

إذا ما أَرَادَ الغزْوَ لم يَثْنِ هَمَّهُ حَصَانٌ عليها نَظْمُ دُرٍّ يَزِينُهَا
نهتْهُ فلمَّا لم تَرَ النَّهىَ عاقَهُ بكَتْ فبكَىٰ مما شجاها قَطِينُهَا

ثم عزم عليها أن تقصر وخرج.

وروى جرير بن عبد الحميد لعبد الملك: [من الطويل]

لَعَمْري لقد عُمِّرْتُ فى الدهْرِ بُرْهَةً ودانَتْ لِىَ الدُّنيا بِوَقْعِ البَوَاترِ
فَأَضحَى الذى قد كَانَ ممَّا يَسُرُّنِى كلمحٍ مَضَىٰ فى المزمناتِ الغوابرِ
فيا ليتنى لَمْ أَغْنَ فى الملك ساعةً ولَم أَلْهُ فى لذاتِ عيشٍ نواضِرِ
وكنتُ كذى طِمْرَيْنِ عاشَ ببُلْغَةٍ من الدَّهْرِ حتَّىٰ زارَ ضَنْكَ المَقَابرِ

وعن يحيى الغسانى قال: كان عبد الملك كثيرًا مايجلس إلى أم الدرداء فى مؤخر المسجد بدمشق، فقالت له مرة: بلغنى يا أمير المؤمنين؛ أنك شربت الطلا بعد النسك والعبادة، فقال: إى والله، والدماء.

وقال على بن محمد: لما أيقَنَ عبد الملك بالموت، دعا مولاه أبا علاقة، فقال: والله، لوددت أنى كنت منذ ولدت إلى يومى هذا جمالاً.

ولم يكن له من البنات إلا واحدة وهى فاطمة، وكان قد أعطاها قرطى مارية والدرة اليتيمة، وقال: اللهم، إنى لم أخلف شيئًا أهم إلىَّ منها فاحفظها، فتزوجها عمر بن عبد العزيز.

ثم أوصى بنيه بتقوى الله، ونهاهم عن الفرقة والاختلاف، وقال: انظروا مسلمة، واصدروا عن رأيه - يعنى أخاهم - فإنه مجنكم الذى تجتنون به، ونابكم الذى عنه تفترون، وكونوا بنى أم بررة، وكونوا فى الحرب أحرارًا، واحلولوا فى مرارة، ولينوا فى شدة، وكونوا كما قال ابن عبد الأعلى الشيبانى: [من الكامل]

إنَّ القِدَاحَ إذا اجتمعْنَ فَرَامَهَا بالكَسْرِ ذو حَنَقٍ وبطْشٍ أَيِّدِ
عَزَّتْ فلم تُكسَرْ، وإنْ هِىَ بُدِّدَتْ فالكَسْرُ والتوْهِينُ للمتبدِّدِ

يا ولدى، اتق الله فيما أخلفك فيه، واحفظ وصيتى، وخذ بأمرى، وانظر أخى معاوية؛ فإنه ابن أمى، وقد ابتلى فى عقله بما علمتَ، ولولاك لآثرته بالخلافة، فصل رحمه، واحفظنى فيه، وانظر أخى محمد بن مروان، فأقره على الجزيرة ولا تعزله، وانظر أخاك عبد الله، فلا تؤاخذه، وأقرره على عمله بمصر، وانظر الحجاج، فأكرمه؛ فإنه هو الذى وطأ لكم المنابر، وهو سيفك ياوليد، ويدك على من ناوأك؛ فلا تسمعن فيه قول أحد، وأنت إليه أحوج منه إليك، ثم تمثل: [من الوافر]

فَهَلْ مِنْ خالدٍ إمَّا هَلَكْنَا ؟! وهَلْ بالمَوْتِ يا للناسِ عَارُ ؟!

ولادته فى شهر رمضان، سنة خمس وعشرين من الهجرة، وجلوسه فى شهر رمضان سنة خمس وستين، مدته إحدى وعشرون سنة وشهران، وفاته يوم الخميس نصف شوال سنة ست وثمانين، عمره إحدى وستون سنة.

خلف سبعة عشر ذكرًا، وأنثى واحدة، ولى الخلافة منهم أربعة: الوليد، وسليمان، وهشام، ويزيد، وكان منهم ولد اسمه معاوية مشهور بالعِيِّ والبلادة، طار يومًا باز من يده، فقال: أغلقوا أبواب المدينة حتى لايخرج البازى، ووقف يومًا على باب طحان، فنظر إلى حمار له يدور بالرحى، وفى عنقه جلجل، فقال للطحان: لم جعلت هذا الجلجل فى عنق هذا الحمار؟! فقال الطحان: ربما أدركتنى سآمة، أو نمت، فإذا لم أسمع الجلجل، علمت أنه واقف، فصحت عليه، فقال له: أرأيت إن وقف الحمار، وحرك رأسه بالجلجل؟! فقال الطحان: من لى بحمار يكون عقله مثل عقل ابن أمير المؤمنين. وكان أبوه عبد الملك منع أن يمشى أحد بالليل بعد العشاء الأخيرة، فخرج ذات ليلة مع الشرط يدور فى الطرق، فوجدوا رجلًا، فلما رآهم الرجل، قعد على روث فرس، فقالوا له: لم خرجتَ؟ قال: خرجت لأقضى الحاجة، فتلُّوه من يده، فإذا تحته روث فرس، فقالوا له فى ذلك؟! فقال: لا عليكم ألاَّ تبحثوا عن ذلك، يخرى كل إنسان ما أراد. فقال معاوية ابن عبد الملك: صدق والله، أطلقوه، فأطلقوه بعد أن استغربوا ضحكًا.

وكان عبد الملك يروم خلع أخيه عبد العزيز من ولاية العهد الذى كان عهده أبوه مروان لعبد الملك بن مروان، ثم من بعده لأخيه عبد العزيز بن مروان، والبيعة لابنه

الوليد، وكان قبيصة ينهاه عن ذلك، ويقول: لعلَّ الموت يأتيه، وتدفع العار عن نفسك.

وجاءه رَوْح بن زنباع ليلة، وكان عنده عظيمًا، ففاوضه فى ذلك، فقال: لو فعلته، ما انتطح فيه عنزان، فقال: نصبح إن شاء الله، وأقام روح عنده، ودخل عليهما قبيصة بن ذؤيب من جنح الليل، وهما نائمان - وكان لايحتجب عنه، وإليه الخاتم والسكة - فأخبره بموت عبد العزيز أخيه فقال عبد الملك لروح: كفانا الله مانريد، ثم ضم مصر إلى ابنه عبد الله بن عبد الملك.

ويقال: إن الحجاج كتب إلى عبد الملك يزين له البيعة للوليد، فكتب عبد الملك إلى عبد العزيز: إنى رأيت أن يصير الأمر إلى ابن أخيك، فكتب له عبد العزيز: إنى أرى فى ابنى أبى بكر ماترى فى الوليد، فكتب عبد الملك إلى عبد العزيز أن يحمل خراج مصر، فكتب إليه: إنى وإياك يا أمير المؤمنين، قد أشرفنا على عمر أهل بيتنا، ولاندرى أينا يأتيه الموت فلا تفسد علىَّ بقية عمرى. فَرَقَّ له عبد الملك وتركه.

ولما جاء الخبر بموته - وذلك سنة أربع وثمانين - أمر الناس بالبيعة لولديه الوليد ابن عبد الملك، وسليمان بن عبد الملك، وكتب بالبيعة لهما إلى البلدان، وكان على المدينة هشام بن إسماعيل المخزومى، فدعا الناس إلى البيعة، فأجابوا، إلا سعيد بن المسيب، فضربه ضربًا مبرحًا، وطاف به فى الأسواق، وكتب عبد الملك إلى هشام يلومه، ويقول: إن سعيدًا ليس عنده شقاق ولاخلاف، وقد كان ابن المسيب امتنع من بيعة ابن الزبير، فضربه جابر بن الأسود عامل المدينة لابن الزبير ستين سوطًا، وكتب ابن الزبير يلوم جابرًا.

خلافة الوليد بن عبد الملك(١)

قال الثعالبى: قال عبد الملك بن مروان: ولدت فى شهر رمضان، وفطمت فيه، وبلغت الحلم فيه، ووليت الخلافة فيه، وختمت القرآن فيه، وأظن موتى فيه، فلما

---

(١) ينظر: ترجمته فى شذرات الذهب (١/ ١١١)، النجوم الزاهرة (١/ ٢٢٠)، العقد الثمين (٧/ ٣٨٩)، العبر (١/ ١١٤)، فوات الوفيات (٤/ ٢٥٤)، البداية والنهاية (٩/ ٧٠)، تاريخ الطبرى (٦/ ٤٩٥)، تاريخ اليعقوبى (٣/ ٢٧)، المعارف ص (٣٥٩)، مروج الذهب (٣/ ٣٦٥)، عنوان المعارف (١٥)، الكامل (٥/ ٨) وما بعدها، تاريخ الخلفاء (٢٢٣)، تاريخ الخميسى (٢/ ٣١١)، الذهب المسبوك للمقريزى (٢٩)، سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٤٧).

دخل شوال، أمن الوفاة فتوفى فى شوال فى سنة ست وثمانين؛ كما تقدم ذكره.

ولما دفن قال الوليد: إنا لله وإنا إليه راجعون، والله المستعان على مصيبتنا بأمير المؤمنين، والحمد لله على ما أنعم به علينا من الخلافة، فكان أول من عزى نفسه وهنأها، ثم قام عبد الله بن همام السلولى فقال: [من الرجز]

أَللَّهُ أعْطَاكَ التى لا فَوْقَهَا   وَقَدْ أَرَادَ المُلْحِدُونَ عَوْقَهَا
عَنْكَ ويَأْبَى الله إلا سَوْقَهَا   إلَيْكَ حتى قَلَّدُوكَ طَوقَهَا

وبايعه ثم بايعه الناس بعده.

ثم صعد الوليد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، لامقدم لما أخر الله، ولا مؤخر لما قدمه الله. وقد كان من قضاء الله وسابق علمه ماكتب على أنبيائه وحملة عرشه الموت، وقد صار أبى إلى منازل الأبرار، وولى هذه الأمة بالذى يحق الله عليه من الشدة على المذنب[١]، واللين لأهل الحق والفضل، وإقامة ما أقام الله من منازل[٢] الإسلام وأعلامه؛ من حج البيت، وغزو الثغور، وشن الغارة على أعداء الله؛ فلم يكن عاجزًا ولا مفرطًا. أيها الناس، عليكم بالطاعة، ولزوم الجماعة، فإن الشيطان مع المفرد. أيها الناس، من أبدى لنا نفسه، ضربنا الذى فيه عيناه، ومن سكت، مات بدائه، ثم نزل[٣].

عمارة المسجد النبوى[٤]
على يد عامله على المدينة عمر بن عبد العزيز

كان الوليد عزل هشام بن إسماعيل المخزومى عن المدينة سنة سبع وثمانين، وولّىٰ عليها ابن عمه عمر بن عبد العزيز بن مروان، فقدمها ونزل دار مروان، ودعا عشرة من فقهاء المدينة، فيهم الفقهاء السبعة المعروفون، فجعلهم أهل مشورته لايقطع أمرًا دونهم، فأمرهم أن يبلغوا الحاجات، والظلامات إليه، فشكروه وجزوه خيرًا، ودعا له الناس.

---

(١) فى تاريخ الطبرى: المريب.
(٢) فى تاريخ الطبرى: منار.
(٣) ينظر: تاريخ الطبرى (٦/ ٤٢٣ - ٤٢٤).
(٤) ينظر: تاريخ خليفة (٣٠١) ومروج الذهب (٣/ ١٦٦) وتاريخ الإسلام حوادث سنة سبع وثمانين.

ثم كتب إليه الوليد سنة ثمانين أن يدخل حجر أمهات المؤمنين فى المسجد، وأن يشترى مافى نواحى المسجد من الدور حتى يجعله مائتى ذراعٍ فى مثلها، ويقدم القبلة، ومن أبى أن يعطيك ملكه، فقومه قيمة عدل، وادفع إليه الثمن، واهدم عليه الملك، ولك فى عمر وعثمان أسوة فى ذلك. فأعطاه أهل الأملاك ما أحب منها بأثمانها، وبعث الوليد إلى ملك الروم: إنى أريد بناء المسجد النبوى، فبعث إليه ملك الروم بمائة ألف مثقال من الذهب، ومائة من الفعلة، وأربعين حملاً من الفسيفساء، فبعث بذلك كله إلى عمر بن عبد العزيز، واستكثر معهم من فعلة الشام، وشرع فى عمارته فعمره عمر بن عبد العزيز، ولم يغير شيئًا من مكانه الذى كان عليه فى زمنه ﷺ حتى إنه يأتى الجذع القائم فيقلعه، ثم يضع موضعه أساس الأسطوانة ويرفع البناء عليها؛ فلذا ترى بعض الأساطين متسعًا مابينها، وبعضها متضايقًا؛ لأنها كانت كذلك فى بناء عمر بن الخطاب الذى هو على بنائه عليه الصلاة والسلام.

ورزق الفقهاء والفقراء والضعفاء، وحرم عليهم سؤال الناس، وفرض لهم مايكفيهم وضبط الأمور أتم ضبط.

ثم ولى سنة تسع وثمانين على مكة خالد بن عبد الله القسرى[١]، قال العبشمى، عن أبيه: كان الوليد دميمًا سائل الأنف طويلاً أسمر، به أثر جدرى، أفطس، وبمقدم لحيته شمط، ليس فى رأسه ولحيته غيره، إذا مشى يتبختر فى مشيته، كان أبواه يترفانه، فشَبَّ بلا أدبٍ ولا علمٍ[٢].

وروى يحيى الغسانى؛ أن روح بن زنباع قال: دخلت يومًا على عبد الملك وهو مهموم، فقال لى: فكرت فيمن أوليه أمر العرب فلم أجده، فقلت: أين أنت عن الوليد؟ قال: إنه لايحسن النحو، قال: فقال لى عبد الملك: رُحْ إلى العشية؛ فإنى سأظهر كآبة فسلنى، قال: فرحت إليه والوليد عنده، فقلت له: لا يسوءك الله، ماهذه الكآبة؟ قال: فكرت فيمن أوليه أمر العرب، فلم أجده، فقلت: أين أنت عن ريحانة قريش وسيدها الوليد؟ فقال لى: يا أبا زنباع، إنه لايلى العرب إلا من تكلّم

(١) ينظر: تاريخ خليفة (٣٠٢)، تاريخ الطبرى (٦/ ٤٤٠)، الكامل فى التاريخ (٤/ ٥٣٦)، تاريخ الإسلام حوادث سنة تسع وثمانين، والبداية والنهاية (٩/ ٩١).

(٢) ينظر تاريخ الإسلام وفيات سنة ست وتسعين ونهاية الأرب (٢١/ ٣٣٦).

بكلامهم، قال: فسمعها الوليد، فقام من ساعته، وجمع أصحاب النحو، وجلس معهم فى بيت، وطبق[١] عليه ستة أشهر، ثم خرج وهو أجهل مما كان، فقال عبد الملك: أما إنه قد أعذر؛ كذا قاله الحافظ الذهبى فى الدول[٢].

وروى سعيد بن عامر الضبعى، عن كثير أبى الفضل الطفاوى، قال: شهدت الوليد بن عبد الملك صلى الجمعة والشمس على الشرف، ثم صلى العصر[٣].

وبنو أمية معروفون بتأخير الصلوات عن أول أوقاتها؛ قال فى مسامرة الأخبار: قال ابن الأنبارى: حدثنا أبو عكرمة الضبى؛ أن الوليد بن عبد الملك قرأ على المنبر: ﴿ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴾ [الحاقة: ٢٧] وضم التاء، وتحت المنبر عمر بن عبد العزيز، وسليمان بن عبد الملك أخوه، فقال عمر بن عبد العزيز: وددتها والله عليك[٤].

وعن أبى الزناد، قال: كان الوليد لحانًا كأنى أسمعه على منبر النبى ﷺ يقول: يا أهل المدينة.

وكان الوليد جبارًا ظالمًا، لكنه أقام الجهاد فى أيامه، وفتحت فى خلافته فتوحات عظيمة، وكان يختن الأيتام، ويرتب لهم المؤدبين، ويرتب للزمنَىٰ من يخدمهم، وللأضراء من يقودهم من رقيق بيت المال، وعمَّر مسجده - عليه الصلاة والسلام - ووسَّعه، وكان يبر حملة القرآن، ويقضى ديونهم.

وبنى الجامع الأموى فى ذى القعدة سنة ست وثمانين؛ قال العلامة محمد بن مصطفى الشهير بكاتى فى تاريخه بغية الخاطر: إن الوليد بنى بدمشق الجامع المشهور بجامع بنى أمية، وشرع فى بنائه أواخر سنة ست وثمانين، وحين شرع، أحضر العملة من كل جهة، وعدتهم اثنا عشر ألف رجل، وأنفق فى عمارته أربعمائة صندوق، فى كل صندوق من الذهب العين ثمانية وعشرون ألف دينار ذهبًا أحمر، وامتد بناؤه عشر سنين، وفيه عمود من المرمر يميل إلى الحمرة اشتراه بألف وخمسمائة دينار.

---

(١) فى تاريخ الإسلام: وطيَّن.
(٢) ينظر: تاريخ الإسلام وفيات سنة ست وتسعين، وفوات الوفيات (٤/ ٢٥٤).
(٣) ينظر: تاريخ الإسلام المصدر السابق.
(٤) ينظر: المصدر السابق، وفيه: فقال سلمان وددتها والله.

قال فى خريدة العجائب: وفى محرابه عمودان صغيران من المرمر الأخضر، حصله من عرش بلقيس الملكة ابنة الهدهاد زوجة سليمان بن داود - عليهما السلام - وجعل فى المسجد طاقات على عدد أيام السنة، تدخل الشمس فى كل يوم من طاق من تلك الطاقات، وكانت فيه ستمائة سلسلة من ذهب للقناديل، ومازالت إلى أيام عمر بن عبد العزيز بعد سليمان بن عبد الملك، فجعلها فى بيت المال، واتخذ عوضها صفرًا وحديدًا.

قال الذهبى: قال ضمرة، عن على بن أبى عبلة[1] سمع عبد الله بن عبد الملك ابن مروان قال: قال لى الوليد: كيف أنت والقرآن؟ قلت: يا أمير المؤمنين، أختمه فى كل جمعة، قلت: فأنت يا أمير المؤمنين؟ قال: وكيف مع الاشتغال، قلت: على ذلك؟ قال: فى كل ثلاث، قال على: فذكرت ذلك لإبراهيم بن أبى عبلة فقال: كان يختم فى رمضان سبع عشرة ختمة.

وقال ضمرة: سمعت إبراهيم بن أبى عبلة يقول: رحم الله الوليد، وأين مثل الوليد ؟! فتح الهند والسند، والأندلس وغيرها، وبنى مسجد النبى ﷺ ووسّعه، وبنى مسجد دمشق، وكان يعطينى قصاع الفضة أقسمها على قراء بيت المقدس[2].

غريبة: قال عمرو بن عبد الواحد الدمشقى، عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن أبيه، قال: خرج الوليد بن عبد الملك من الباب الأصغر، فوجد رجلاً عند الحائط عند المئذنة الشرقية يأكل وحده، فجاء حتى وقف على رأسه، فإذا هو يأكل خبزًا وترابًا، فقال له الوليد: ما شأنك انفردت عن الناس؟ قال: أحببت الوحدة، قال: فما حملك على أكل التراب، أما فى بيت مال المسلمين مايجري عليك؟ قال: بلى، ولكن رأيت القنوع، قال: فرجع الوليد إلى مجلسه، ثم أحضره، فقال: إن لك لخبرًا لتخبرنى به، وإلا ضربت عنقك[3]، قال: نعم، كنت جمالاً ومعى ثلاثة أجمال موقرة طعامًا حتى أتيت مرج الصفر، فقعدت فى خربة أبول، فرأيت البول ينصب فى شق فأتبعته حتى كشفته، فإذا غطاء على حفير، فنزلت فإذا مال صبيب،

(١) فى ط: جميلة. والمثبت من تاريخ الإسلام.
(٢) ينظر: تاريخ الإسلام وفيات سنة ست وتسعين، ووفيات الوفيات (٤/ ٢٥٤).
(٣) فى تاريخ الإسلام: ما فيه عيناك.

فأنخت رواحلى، وحللت[١] أعكامى، ثم أوقرتها ذهبًا، وغطيت الموضع، فلما سرت عنه غير يسير، وجدت معى مخلاة فيها طعام، فقلت: أنا أترك الكسرة؟![٢] ففرغتها، ورجعت لأملأها فخفى على الموضع، وأتعبنى الطلب، فرجعت إلى الجمال فلم أجدها ولم أجد الطعام الذى أخرجته من المخلاة، فآليت على نفسى ألاَّ آكل شيئًا إلا الخبز بالتراب، فقال الوليد: كم لك من الولد؟ فذكر عيالاً، قال: يجرى عليك من بيت المال، ولاتستعمل فى شىء، فإن هذا هو المحروم، قال ابن جابر: فذكر لنا أن الجمال جاءت إلى بيت مال المسلمين، فأناخت عنده، فأخذها أمين الوليد، فطرحها فى بيت المال. رواته ثقات؛ قاله الكنانى[٣].

وعن نمير بن عبد الله الصنعانى، عن أبيه، قال: قال الوليد: لولا أن الله ذكر آل لوط فى القرآن، ماظننت أن أحدًا يفعل هذا[٤].

وعن يزيد بن المهلب قال: لما ولانى سليمان بن عبد الملك خراسان، روَّعنى[٥] عمر بن عبد العزيز، فقال لى: يا يزيد، اتق الله؛ فإنى حين وضعت الوليد فى قبره إذا هو يركضُ فى أكفانه، يعنى: يضرب الأرض برجليه[٦].

دخل جرير على الوليد بن عبد الملك، وعنده عدى بن الرقاع العاملى، فقال الوليد لجرير: أتعرف هذا؟ قال: لا يا أمير المؤمنين، قال: هذا عدى بن الرقاع، فقال جرير: شر الثياب الرقاع، فممنْ هو؟ قال: من عاملة، قال جرير: الذين يقول الله تعالى فيهم: ﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴾ [الغاشية: ٣، ٤] ثم قال: [من الطويل]

يُقَصِّرُ باعُ العامِلِىِّ عن العُلاَ ... ولـكـنَّ أَيْـرَ الـعـامِـلِـىِّ طـويـلُ

فقال له عدى: [من الطويل]

أأمُـكَ كَـانَـتْ خَـبَّـرَتْـكَ بِـطُـولِـهِ ... أَمَ انْتَ امْرُؤٌ لَمْ تَدْرِ كَيْفَ تَقُولُ؟!

---

(١) فى تاريخ الإسلام: وأفرغت.
(٢) فى تاريخ الإسلام: أنزل الكسوة.
(٣) ينظر: تاريخ الإسلام وفيات سنة ست وتسعين، ووفيات الوفيات (٤/ ٢٥٤).
(٤) ينظر السابق.
(٥) في: تاريخ الإسلام: ودَّعنى.
(٦) ينظر: تاريخ الإسلام وفيات سنة ست وتسعين، ووفيات الوفيات (٤/ ٢٥٤).

فقال: لا؛ بل أنا امرؤ لم أدر كيف أقول، فوثب عدى إلى رِجْل الوليد يقبلها، ويقول: أجرنى منه، فقال الوليد لجرير: لئن ذكرته فى شعرك لأسرجنك وألجمنك حتى يركبك فتعيرك بذلك الشعراء.

قال المدائنى: أتى الوليد بن عبد الملك برجل من بنى عبس قد ذهبت عينه، فسأله عن سبب ذلك، فقال: يا أمير المؤمنين، ماكان فى بنى عبس أكثر منى مالاً وولدًا، فأتى السيل فاجترف مالى وولدى، وبقى لى ولد صغير وبعير، فحملت الصبى ونَدَّ البعير، فوضعت الصبى وتبعته فنفحنى برجله، ففقأ عينى، فرجعت إلى ابنى، فإذا الذئب يَلَغُ فى دمه، فقال الوليد: اذهبوا به إلى عروة بن الزبير؛ ليعلم أن فى الدنيا من هو أعظم مصيبة منه. انتهى

قلت: ومصيبة عروة بن الزبير فى رجله وولده شهيرة.

وفاة الحجاج[1]

هو الحجاج بن يوسف بن الحكم بن أبى عقيل بن مسعود الثقفى أمير العراق أبو محمد. ولد سنة أربعين، أو إحدى وأربعين، كان فصيحًا بليغًا مفوهًا، فاسقًا ظلومًا، غشومًا سفاكًا للدماء، روى أنه لم يرضع الثدى حتى قال بعض الكهان: اذبحوا له ثلاث جدى، وألعقوه بعض دمها، وغسلوه بالدم، ففعلوا؛ فلذلك أتى يحب سفك الدم.

وولد بغير مخرج فَغُوِّرَ له مخرج بالحديد.

قال أبو عمرو[2]: مارأيت أحدًا أفصح من الحجاج، والحسن بن على، والحسن أفصحهما، وستأتى عدة من قتله صبرًا، ومن كان فى سجنه.

وقيل فى سبب ولاية الحجاج ماذكر بعض المؤرخين: أن الحجاج لم يزل فى كنف أبيه، وكان أبوه رجلاً نبيلاً جليلَ القدر، إلى أن اتصل بروح بن زنباع من أمراء عبد الملك، ثم به، ولم يزل يترقى إلى أن ولى العراق والمشرق، وطار ذكره وعظم سلطانه.

وأول ماعلم من شهامته وجوره: أن أباه خرج من مصر يريد عبد الملك، ومعه

---

(١) ينظر: تاريخ خليفة (٢٤٠)، تاريخ الطبرى (٦/ ٤٩٣)، جمهرة أنساب العرب (٢٦٧)، وفيات الأعيان (٢/ ٢٩ - ٥٤)، سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٤٣)، البداية والنهاية (٩/ ١٣٦ - ١٤٣).
(٢) ينظر: تهذيب تاريخ دمشق (٤/ ٥٢).

ابنه الحجاج، فأقبل سليم بن عمرو القاضى، وكان من أورع الناس وأتقاهم، فقام إليه أبوه يوسف، فسلم عليه، وقال له: ألك حاجة إلى أمير المؤمنين؟ فقال: نعم، أن تسأله يعزلنى عن القضاء، فقال يوسف: لوددت أن قضاة المسلمين كلَّهم مثلك، فكيف أسأله ذلك؟ ثم انصرف، فقال الحجاج لأبيه: من هذا الذى قمت إليه؟ فقال: هذا سليم بن عمرو قاضى مصر وقاصُّهم، فقال: يغفر الله لك يا أبت، أنت ابن عقيل تقوم إلى رجل من كندة؟! فقال: والله إنى لأرَى الناس مايرحمون إلا بهذا وأشباهه، فقال والله، مايفسد على أمير المؤمنين إلا هذا وأشباهه، يقعدون وتقعد إليهم أحداث، فيذكرون سيرة أبى بكر وعمر؛ فيخرجون على أمير المؤمنين، فوالله لو أضيف إلَىَّ هذا الأمر، لسألت أمير المؤمنين أن يجعل لى السبيل، فأقتل هذا وأشباهه، فقال له: اتق الله يابنى، والله إنى لأظنُّ أن الله خلقك شقيًا.

وأول ما أعجب به عبد الملك منه: أنه كان قد اتصل بروح بن زنباع، وصار من جملة شرطته، وكان روح بن زنباع بمنزلة نائب عبد الملك. توجه إلى الجزيرة لقتال زفر بن الحارث عندما عصَىٰ عليه بقرقيسيا، فأمر روح بن زنباع جماعة من أصحاب شرطته يحثون المتأخرين من العسكر فى كل منزل، وكان الحجاج من جملتهم، فمر يومًا بعد رحيل العسكر بجماعة من خواصِّ روح فى خيمة يأكلون، فأمرهم بالرحيل، فسخروا منه أولاً لمحلهم، وثانيًا لمحلِّ سيدهم، وقالوا له: انزل كُلْ واسكُتْ، فضرب بسيفه أطناب الخيمة، فسقطت عليهم، وأطلق فيها نارًا، فأحرقت أثاثهم، فقبضوا عليه، وأتوا به روح بن زنباع، وسمع عبد الملك الخبر، وطلبه وقال: من فعل هذا بغلمان روح ؟ فقال: أنت يا أمير المؤمنين، أمرتنا بالاجتهاد فيما وليتنا، ففعلنا ما أمرت، بهذه الفعلة يرتدعُ من بقى من العسكر، وما على أمير المؤمنين أن يعوضهم ما احترق، وقد قامت الحرمة وتم المراد. فأعجب عبد الملك ذلك، وقال: إن شرطيكم لجلد. ثم أقرّه على ما هو عليه.

ولما طال الحصار والقتال بينه وبين زفر بن الحارث، أرسل عبد الملك رجاء بن حيوة وجماعة منهم الحجاج إلى زفر يدعوه إلى الصلح، فأتوا بالكتاب وقد حضرت الصلاة، فقام رجاء، فصلى مع زفر، وصَلَّى الحجاج وحده، فسئل عن ذلك ؟ فقال: لا أصلى مع منافق خارج عن أمير المؤمنين، وبارز عن طاعته، فسمع ذلك

عبد الملك، فزاده عجبًا بالحجاج، ورفع قدره، وولاه تبالة، وهى أول ما وَلِي، فخرج إليها، فلما قرب، سأل عنها، فقيل له: إنها وراء هذه الأكمة، فقال: أف لبلد تسترها أكمة، ورجع، فقيل فى المثل: أهون على الحجاج من تبالة، ثم وصل إلى ما وصل إليه.

وزعم بعض الرواة أن أول أمر الحجاج أنه كان معلمًا للصبيان، وكان يسمى كليبًا، وفيه يقول الشاعر: [من المتقارب]

أَيَنْسَىٰ كُلَيْبٌ زَمَانَ الهُزَالِ ... وتَعْلِيمَهُ سُورَةَ الكَوْثَرِ
رَغِيفٌ لَهُ فَلَكٌ مَا يُرَىٰ ... وَآخَرُ كَالقَمَرِ الأَزْهَرِ

يشير إلى أن خبز المعلّمين يختلف فى الصغر والكبر بحسب اختلاف بيوت الصبيان، ثم صار دباغًا؛ ويستدل على ذلك بحكايته مع كعب الأشقرى؛ وذلك أن المهلب بن أبى صفرة لما أطال قتال الأزارقة، وكان الحجاج أرسله لذلك، كتب إليه يستبطئه فى تأخير مناجزتهم، فقال المهلب لرسوله: قل له: إن الشاهد يَرَى ما لا يَرَى الغائب، فقال كعب الأشقر، وكان من جند المهلب: [من الكامل]

إنَّ ابْنَ يوسُفَ غَرَّهُ مِنْ غَزْوِكُم ... خَفْضُ المقامِ بجَانبِ الأَمْصَارِ
لو عَايَنَ الصَّفَّين حِينَ تَلَاقَيَا ... ضَاقَتْ عليه برُحْبِهَا الأَقْطَارُ
ورأَىٰ معاوَدَةَ الدباغ غنيمَةً ... أيامَ كَانَ مُحَالِفَ الإِقْتَارِ

فبلغت أبياته الحجاج، فكتب إلى المهلب بإشخاصه، فأشخصه المهلب إلى عبد الملك، وكتب إليه يستوهبه منه، فقدم كعب برسالة المهلب إلى عبد الملك، فاستنشده، فأعجبه ما سمع، وكتب إلى الحجاج يقسم عليه أن يعفو عن كعب، فلما دخل كعب على الحجاج، قال: إيه يا كعب « ورأى معاودة الدباغ غنيمة »، فقال: أيها الأمير، لوددت فى بعض ما شاهدته فى تلك الحروب، وما يرده المهلب من خطرها أن أنجوَ منها وأكون حجامًا أو حائكًا، فقال له الحجاج: أولى لك، لولا قسم أمير المؤمنين، لما نفعك ما أسمع، فالحَق بصاحبك.

وروى ابن الكلابى، عن عوانة بن الحكم قال: سمع الحجاج تكبيرًا فى السوق، وهو فى الصلاة، فلما انصرَفَ، صعد المنبر، فقال: يا أهل العراق، يا أهل الشقاق والنفاق، ومساوئ الأخلاق. قد سمعت تكبيرًا ليس بالتكبير الذى يراد به الله فى

الترغيب، ولكنه الذى يراد به الترهيب، إنها عجاجة تحتها قَصْف. أى بنى اللكيعة، وعبيد العصا، وأولاد الإماء، ألاَ يربأ الرجل منكم على ظلعه، ويحسن حمل رأسه، وحقن دمه؛ فيبصر موضع قدمه؛ والله ما أرى الأمور تنتقل بى وبكم حتى أوقع بكم وقعة تكون نكالاً لما قبلها، وتأديبًا لما بعدها(١).

وقال سيار أبو الحكم: سمعتُ الحجاج على المنبر يقول: أيها الرجل، وكلُّكم ذلك الرجل، رجل خطم نفسه فزمها فقادها بخطامها إلى طاعة(٢) الله تعالى، وعنجها بزمامها عن معاصى الله(٣).

قال مالك بن دينار: سمعت الحجاج يخطب فيقول: امرؤ زود نفسه قبل أن يكون الحساب إلى غيره، امرؤ نظر إلى ميزانه، امرؤ عقل عن الله أمره، امرؤ أفاق واستفاق، وأبغض المعاصى والنفاق، وكان إلى ما عند الله بالأشواق. فما زال يقول ذلك حتى أبكانى(٤).

وروى أنه خطب، فقام إليه رجل فقال له: ما أصفق وجهك، وأقلَّ حياءك، تفعل ما تفعل، ثم تقول هذا ؟! فأخذوه، فلما نزل، دعا به فقال له، لقد اجترأت ! ! فقال: يا حجاج، أنت تجتريء على الله؛ فلا تنكره فى نفسك، وأجترئ أنا عليك، فتنكره عليَّ ! فخلى سبيله(٥).

وقال شريك، عن عبد الملك بن عمير قال: قال الحجاج يومًا: من كان له بلاء، فليقم، فلنعطه على بلائه، فقام رجل، فقال: أعطنى على بلائى، قال: وما بلاؤك ؟ قال: قتلت الحسين، قال: وكيف قتلته ؟ قال: دسرته بالرمح دسرًا، وهبرته بالسيف هبرًا، وما أشركت معى فى قتله أحدًا، قال: أما إنك وإياه لن تجتمعا فى موضع واحد. وقال له: اخرج(٦).

وروى صالح بن موسى الطلحى، عن عاصم بن بهدلة؛ أنهم ذكروا الحسين -

(١) ينظر: تهذيب تاريخ دمشق (٤/ ٦٢، ٦٣)، تاريخ الإسلام ت ٢٣٣ ص٣١٨ .
(٢) المثبت من تاريخ الإسلام.
(٣) ينظر: تهذيب تاريخ دمشق (٤/ ٦٣)، تاريخ الإسلام ت ٢٣٣ ص٣١٨ .
(٤) ينظر السابق.
(٥) ينظر: تهذيب تاريخ دمشق (٤/ ٦٣)، وفيات الأعيان (٢/ ٣١)، تاريخ الإسلام ت ٢٣٣ ص (٣١٩)
(٦) ينظر: تهذيب تاريخ دمشق (٤/ ٦٣، ٦٤)، تاريخ الإسلام ت ٢٣٣ ص٣١٩ .

رضى الله عنه - عند الحجاج فقال: لم يكن من ذرية النبى ﷺ، فقال له يحيى بن يعمر: كذبت أيها الأمير، فقال له الحجاج: لتأتينى على ما قلت ببينة من كتاب الله تعالى أو لأقتلنك، فقرأ قوله تعالى: ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ ﴾ [الأنعام: ٨٤، ٨٥]، ثم قال: أخبرنا الله أن عيسى من ذرية إبراهيم بأمه، فقال الحجاج: صدقت، فما حملك على تكذيبى فى مجلسى ؟ قال: أخذ الله على الأنبياء(١) ليبيننه للناس ولا يكتمونه، قال: فنفاه الحجاج إلى خراسان(٢).

قال أبو بكر بن عياش: سمعت الحجاج وذكر هذه الآية: ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ ﴾ [التغابن: ١٦]، قال: هذه لعبد الله أمين الله وخليفته ليس فيها مثنوية(٣)، والله لو أمرتُ رجلاً أن يخرج من باب هذا المسجد فأخذ من غيره لحل لى دمه وماله، والله لو أخذت ربيعة بمضر لكان لى حلالاً، يا عجبًا من عبد هذيل، يزعم أنه يقرأ قرآنًا من عند الله ما هو إلا رجز من رجز الأعراب، والله لو أدركت عبد هذيل، لضربت عنقه. رواها واصل بن عبد الأعلى شيخ مسلم عن أبى بكر، فقال: قاتل الله الحجاج، ما أجرأه على الله، كيف يقول هذا فى العبد الصالح الصحابىِّ الجليل عبد الله بن مسعود ؟! قال أبو بكر بن عياش: ذكرت قوله هذا للأعمش ؟ فقال: قد سمعته منه(٤).

ورواها محمد بن يزيد عن أبى بكر، فزاد قوله: ولا أجد أحدًا يقرأ على قراءته إلا ضربتُ عنقه، ولأحكنَّها من المصحف، ولو بضلع خنزير.

قال ضمرة بن شوذب: ربما دخل الحجاج على دابته حتى يقف على حلقة الحسن البصرى، فيستمع إلى كلامه، فإذا أراد الانصراف يقول: يا حسن، لا تملَّ الناس، فيقول له الحسن: أصلح الله الأمير، إنه لم يبق إلا من لا حاجة له.

قال الأصمعى: قال عبد الملك بن مروان للحجاج: إنه ليس أحد إلا وهو يعرف عيبه، فَعِبْ نفسك، فقال الحجاج: أعفنى يا أمير المؤمنين، فأبى عليه، فقال: أنا

---

(١) فى ط: العلماء، والمثبت من تاريخ الإسلام.
(٢) ينظر: تهذيب تاريخ دمشق (٤/ ٦٨)، تاريخ الإسلام ت ٢٣٣ ص ٣١٩ .
(٣) فى تاريخ الإسلام: مثوبة.
(٤) ينظر: تهذيب تاريخ دمشق (٤/ ٧٢)، تاريخ الإسلام ت ٢٣٣ ص ٣٢٠ .

لجوجٌ حقودٌ حسودٌ، فقال عبد الملك: ما فى الشيطان أقبحُ مما ذكرت.

وقال يزيد بن هارون: أنبأنا العوام بن حوشب، حدثنا حبيب بن أبى ثابت، قال: قال على - كرم الله وجهه - لرجل: لا متّ حتى تدرك فتى ثقيف، قيل: يا أمير المؤمنين، ما فتى ثقيف ؟ قال: ليقالنَّ له يوم القيامة: اكفنا زاوية من زوايا جَهنَّمَ، رجل يملك عشرين سنة[1] لا يدع معصية لله إلا ارتكبها.

وقال جعفر بن سليمان: حدثنا مالك بن دينار، عن الحسن؛ أن عليًا كان على المنبر فى العراق، فقال: اللهم، إنى ائتمنتهم فخانونى، ونصحتهم فغشونى، اللهم فسلِّطْ عليهم غلام ثقيف يحكم فى دمائهم وأموالهم بحكم الجاهلية.

وقد كوشف الإمام على - كرم الله وجهه - بما سيقع من الحجاج، فقال ما قال؛ فكان كما قال.

قال أبو عاصم النبيل: حدثنى جليس هشام بن أبى عبد الله، قال: قال عمر بن عبد العزيز لعنبسة بن سعيد: أخبرنى ببعض ما رأيت من عجائب الحجاج، قال: كنا جلوسًا عنده ليلة، فأتى برجل، وكان قد نهى عن المشى بالليل بعد العشاء الأخيرة، فقال: ما أخرجك هذه الساعة، وقد قلت: لا أجد فيها أحدًا إلا فعلت به ؟! قال: أما والله لا أكذب الأمير، أغمى على أمى منذ ثلاث، وكنت عندها، فلما أفاقت الساعة، قالت: يا بنى، أعزم عليك إلا رجعت إلى أهلك؛ فإنهم مغمومون بتخلفك عنهم، فخرجت، فأخذنى الطائف، فقال الحجاج: ننهاكم وتعصوننا ؟! يا غلام، اضرب عنقه، ثم أتى برجل آخر فقال: ما أخرجك هذه الساعة ؟ قال: والله لا أكذبك، لزمنى غريمٌ، فلما كانت الساعة أغلق الباب وتركنى على بابه، فجاءنى الطائف فأخذنى، فقال: اضربوا عنقه، ثم أتى بآخر، فقال: ما أخرجك هذه الساعة ؟ قال: كنت مع شَرْبٍ أشرب فعربدوا، فخفت على نفسى فخرجْتُ، ففكَّر الحجاج ساعة، ثم قال: رجل أحب المسالمة يا عنبسة، ما أراه إلا صادقًا فأخلوا سبيله.

فقال عمر بن عبد العزيز لعنبسة: فما قلتَ للحجاج شيئًا فى ذلك ؟ قال عنبسة: لا، فقال عمر لآذنه: لا تأذن لعنبسة إلا أن يكون فى حاجة.

---

(١) فى تاريخ الإسلام: أو بضعًا وعشرين سنة.

وقال بسطام بن مسلم، عن قتادة قال: قيل لسعيد بن جبير: خرجت على الحجاج ؟! قال: إنى والله ما خرجت عليه حتى كفر[(١)].

قال هشام بن حسان: أحصوا ما قتل الحجّاج صبرًا، فبلغ مائة وأربعة وعشرين ألفًا.

وقال عباد بن كثير: أطلق سليمان بن عبد الملك فى غداة واحدة أحدًا وثمانين ألف أسير، وعرضت السجون بعد موت الحجاج، فوجدوا فيها ثلاثة وثمانين ألفًا، منها ثلاثون ألفًا من النساء لم يجبْ على أحد منهم قطع ولا صلب.

وعن عمر بن عبد العزيز: لو تخابثت[(٢)] الأمم وجئنا بالحجاج لغلبناهم، ما كان يصلح لدنيا ولا لآخرة.

قال العباس الأزرق، عن السرى بن يحيى قال: مَرَّ الحَجَّاج فى يوم جمعة، فسمع استغاثة فقال: ما هذا ؟ قيل: أهل السجون يقولون: قتلنا الحر، فقال: قولوا لهم: ﴿ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، قال: فما عاش بعد ذلك إلا أقلَّ من جمعة.

وبنى واسطًا فى سنتين؛ قاله الأصمعى، وشرع فيها سنة ست وثمانين، قال فى المحاسن: وهو أول من ابتنى مدينة فى الإسلام، وهى واسط، وأول من قعد على سرير فى الحرب، وأول من اتخذ المحامل، فقال فيه حميد الأرقط: [من الرجز]

أَخْـــزَى الإِلَـــهُ عَـــاجِـــلاً وآجِـــلاَ
أَوَّل عَـبْـدِ عَـمِـلَ الـمَـحَـامِـلاَ
عَـبْــدَ ثـقـيــفِ ذَاكَ أَزلاً آزلاَ

قال مسلم بن إبراهيم: حدَّثنا الصلت بن دينار، قال: مرض الحجاج فأرجف به أهل الكوفة، فلما عوفى، صعد المنبر، وهو يتثنى على أعواده، فقال: يا أهل الشقاق والنفاق والمراق، نفخ الشيطان فى مناخركم، فقلتم: ماتَ الحجاج، فمه ؟ والله ما أرجو الخير إلا بعد المَوْت. وما رضى الله الخلود لأحد من خلقه إلا لأهونهم عليه إبليس، وقد قال العبد الصالح سليمان: ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا

(١) ينظر: تهذيب تاريخ دمشق (٤/ ٨٢)، تاريخ الإسلام ت ٢٣٣ ص ٣٢٣ .
(٢) فى ط: تحاسبت. والمثبت من تاريخ الإسلام، وهو الصواب.

يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓ ﴾ [ص: ٣٥]. فكان ذلك، ثم اضمحل، فكأن لم يكُنْ. يأيها الرجل، وكلكم ذلك الرجل، كأنى بكلٍّ حى ميت، وبكل رطب يابس، وكل امرئ فى ثياب طهور إلى بيت حفرته، فحد له فى الأرض خمسة أذرع طولاً فى ذراعين عرضًا، فأكلت الدود[1] لحمه، ومصت من صديده ودمه.

قال محمد بن المنكدر: كان عمر بن عبد العزيز يبغضُ الحجاج، فنفس عليه بكلمة قالها عند الموت: « اللهم اغفر لى؛ فإنهم يزعمون أنك لا تفعل »[2].

وقال الأصمعى: أَنْشَدَ الحجاج لما احتضر: [من البسيط]

يَا رَبِّ قَدْ حَلَفَ الأَعْدَاءُ وَاجْتَهَدُوا   بِأَنَّنِى رَجُلٌ مِنْ سَاكِنِي النارِ
أيحلفُونَ عَلَىٰ عمياءَ ؟! وَيْحَهُمُ   ما عِلْمُهُمْ بعظيمِ العَفْوِ غَفَّارِ[3]

فأخبر الحسن بذلك، فقال: إن نجا فبهما.

وروى أن الحسن حين أخبر بموت الحجاج، سجد شكرًا لله.

وقال ابن سيرين: إنى لأرجو للحجاج ما أرجو لأهل لا إله إلا الله، فبلغ قوله الحسن - يعنى البصرى - فقال: أما والله ليخلفنَّ الله رجاءه فيه.

قال ابن شوذب عن أشعث الحدانى قال: رأيت الحجاج فى منامى [بحال سيئة][4] فقلت له: ما صنع اللهبك ؟ قال: ما قتلت أحدًا قتلة إلا قتلنى بها قتلة، ما عدا سعيد بن جبير؛ فإنى قتلت به سبعين قتلة، قلت: ثم مه ؟ قال: ثم أمر بى إلى النار، قلت: ثم مه ؟ قال: ثم أرجو ما يرجو أهل لا إله إلا الله.

قال ابن خلكان[5]: مات بـ« واسط »، وعَفِيَ قبره، وأجرى عليه الماء.

قال العلامة الذهبى[6]: وعندى مجلد فى أخبار الحجاج فيه عجائب، لكن لا أعرفُ صحتها.

توفى سنة خمس وتسعين قبل موت الوليد بسنة، ولما حضرته الوفاة، استخلف

---

(١) فى تاريخ الإسلام: الأرض.
(٢) ينظر: تاريخ الإسلام ت٢٣٣ ص ٣٢٥، تهذيب تاريخ دمشق ٤/ ٨٥ .
(٣) فى تاريخ الإسلام: ستار.
(٤) المثبت من تاريخ الإسلام.
(٥) ينظر: وفيات الأعيان ٢/ ٥٣ .
(٦) ينظر: تاريخ الإسلام ت ٢٣٣ ص ٣٢٧ .

على الصلاة ابنه عبد الله، وعلى عرب الكوفة والبصرة يزيد بن أبى كبشة، وعلى خراجهما يزيد بن أبى مسلم، وكتب إلى قتيبة بن مسلم الباهلى، وكان قد ولاه على خراسان: قد عرف أمير المؤمنين بلاءك وجِدَّك وجهادك أعداء المسلمين، وأمير المؤمنين رافعك، وصانع بك الذى تحب. فأتمَّ مغازيك، وانتظر ثواب ربك، ولا تغيب عن أمير المؤمنين كتبك، حتى كأنى أنظر إلى بلادك والثغر الذى أنت فيه.

قيل: أصيب الحجاج بمصيبة، وعنده رسول عبد الملك بن مروان، فقال الحجاج: ليت أنى قد وجدت إنسانًا يخفف عنى ما أنا فيه، فقال له الرجل الرسول: أقول، أيها الأمير ؟ قال له: قل، فقال: كل إنسان يفارقه صاحبه بموت أو بصلب أو يقع من فوق البيت أو يقع عليه البيت أو يغشى عليه أو يكون شيء لا نعرفه. فضحك الحجاج وقال: مصيبتى فى أمير المؤمنين أعظم، حيث وجه مثلك رسولاً.

وكان الحجاج مهيبًا جدًا لجرأته وإقدامه على سفك الدماء واشتداد عضده بمن أقامه أميرًا؛ فكان يهابه عماله والخاصّة والعامّة؛ فمن ذلك ماذكره فى المروج[1]: كتب عبد الملك بن مروان إليه: أنت عندى كسالم، والسلام. فلم يفهم الحجاج مراد عبد الملك بذلك، فكتب إلى قتيبة بن مسلم عامله على خراسان، وبعث كتاب عبد الملك مع الرسول إليه، فلما ورد الرسول عليه، ناوله الكتاب، ففزع، واضطرب قتيبة، فضرط فخجل واستحيا، فقرأ الكتاب، ثم أراد أن يقول للرسول: اقعد، فقال: اضرط، فقال الرسول: قد فعلت، فاستحيا قتيبة حياءً أكثَرَ، وقال له: ما أردت أقول لك إلا اقعد، فغلطت، فقال الرسول: قد غلطت أنا وأنت [قال قتيبة][2] ولا سواء، أغلط من فمى، وتغلط من استك. ثم قال قتيبة: أعلم الأمير أن سالمًا كان عبدًا لرجل، وكان عنده أثيرًا عزيزًا، وكان يسعى به إليه كثيرًا؛ فقال: [من الطويل]

يُدِيرُونَنِى عَنْ سَالِمٍ وَأُدِيرُهُمْ وَجِلْدَةُ بَين العينِ والأَنْفِ سَالِمُ

فلما أتى الحجاج بالرسالة، سُرَّ بذلك، وكتب له به عهدًا على خراسان بالتأييد.

قلت: ورأيت فى تاريخ الصفدى ما نصه: قال نافع مولى ابن عمر: كان ابن عمر

---

(١) ينظر: مروج الذهب ٣/ ١٢٧ .
(٢) المثبت من المروج.

يلقى سالمًا ابنه فيقبله، ويقول: شيخ يقبل شيخًا.

وقال خالد بن أبى بكر: بلغنى أن عبد الله بن عمر كان يلام فى حب ابنه سالم، فيقول: [من الطويل]

يَلُومُونَنِى فِى سَالِمٍ وَأَلُومُهُمْ وَجِلْدَةُ بين العَينِ والأنفِ سَالِمُ

ورواه بعضهم: « يديرونني وأديرهم ».

قال الصفدى: اشتهر هذا البيت كثيرًا، وروسل به، وكتب به عبد الملك إلى الحجاج. انتهى.

قلت: تفسير قتيبة ذلك بأن سالمًا كان عبدًا لرجل وكان عنده... إلى آخره لا يوافق ما ذكره الصفدى؛ أن البيت لعبد الله بن عمر فى ابنه سالم بن عبد الله بن عمر، والأصح التفسير الثانى لرواية نافع له عن عبد الله بن عمر، إلا أن يكون عبد الله متمثلاً به لا ناظمه؛ فيمكن ما قاله قتيبة.

وصَحَّف الجوهرى، بل حرَّف فى صحاحِه، فقال: يقال للجلدة التى بين العين والأنف سالم، وأورد البيت.

قال الصفدى: وأنا شديد التعجب من صاحب الصحاح كونه ما فهم المعنى من البيت، وأن الكلام جارٍ على التشبيه، وأن سالمًا عند أبيه بمنزلة هذه الجلدة من المكان المذكور لعزته.

قال الخطيب التبريزى: تبع الجوهرى خاله إبراهيم الفارابى[١] صاحب « ديوان الأدب » فى غلط هذا الموضع. انتهى.

ولم يغير الوليد بعد موت الحجاج أحدًا من عماله؛ بل أبقاهم حتى كان سليمان ابن عبد الملك، فعزلهم جميعًا، واستعمل غيرهم.

قال ابن حمدون فى تذكرته: ذكر أن وضاح اليمن كان من أحسن الناس شكلاً، وأجملهم وجهًا، وكان يتبرقع فى المواسم من العين، فحجت أم البنين زوجة الوليد ابن عبد الملك، فرأت هذا، فهويته واستقدمته بمدح، فقدم ومدح الوليد بقصيدة فأجازه، وكانت أم البنين تأتى به إلى قصرها وتجلس معه، وإذا خافت، خبأته فى صندوق، فأُهدِيَ إلى الوليد جوهر، فاستدعى بخادم، وأرسله به إلى أم البنين،

(١) فى ط: القازانى. والصواب ما أثبتنا.

فأتاها فجأة، ووضّاح عندها، فرآها الخادم وهى تواريه فى الصندوق، فطلب منها من الجوهر حجرًا، فانتهرته وأبت، فأتى الوليد وأخبره بما رأى وعلم له الصندوق، فكذّبه ونهره وضَرَبَ عنقه فى الحال، وقام مسرعًا إلى أم البنين، وهى فى مقصورتها تمتشطُ.

فجلس على الصندوق الذى أخبره به الخادم، وقال لها: ما أحب هذا البيت إليك دون البيوت ؟! قالت: لأنه يضم حوائجى جميعًا، فقال: أريد أن تهبى لى صندوقًا من هذه الصناديق، قالت: دونك الجميع، فقال: ما أريد إلا واحدًا، قالت: ارسم الذى تقصده، فقال: هذا الذى جلست عليه، قالت: خذ غيره؛ فإن لى فيه حوائج أحتاجها، قال: ما أريد غيره، قالت: خذه، فأمر الخادم بحمله إلى مجلسه، وحفر بئرًا عظيمة، وأعمق فيها حتى وصل الماء، ودنا من الصندوق، فقال: يا صندوق، إنه بلغنا عنك خبر، فإن كان حقًّا، قد كُفيناك، ودفناك، وانقطع خبرك، وإن كان باطلاً، فإنما دفنا الخشب، وأهون به، ثم قذف به فى البئر، وهال التراب عليه، وردت البسط على حالها، ولم ير الوليد ولا أم البنين فى أحد منهما أثرًا ولا تغيَّرَتْ مودة أحدهما للآخر، حتى فرق الموت بينهما، ولم ير وضاح بعدها أبدًا.

قلت: فمن أين اتصل نبأ هذا الخبر والحالة هذه ؟! وقد اختلف العقلاء فى فعل الوليد هذا: هل يعد به من أهل المروءة والحياء والكرم؛ فبه يمدح، أم من أهل الدناءة والوقاحة والعار الذى يذم به؛ فبه يقدح ؟ ذهب إلى كل منها عقلاء؛ لكنى أرجح كونه ثانيًا لا أولاً؛ إذ الشهم لا يبقى على صفحة عرضه الغبار، ولا يرضى بلباس العيب، ولو كان فوقه ألف دثار.

ومن شعر وضاح فى جارية قد شَبَّبَ بها قوله: [من السريع]

قَالَتْ: أَلاَ لا تَلِجنْ دَارَنَا ... إِنَّ أَبَانَا رَجُلٌ غَائِرُ

قُلْتُ: فإنى طالبٌ غِرَّةً ... وإنَّ سيفى صارِمٌ باتِرُ

قالتْ: فَإِنَّ البابَ ذو منعةٍ ... قلتُ: فإنى واثبٌ كاسرُ

قالتْ: فإنَّ النَّاسَ مِنْ دوننا ... قلتُ: فإنى كاتمٌ ماهرُ

قالت: فإنَّ القصْرَ مِنْ دوننا ... قلْتُ: فإنى فوقه طائرُ

قالتْ: فإنَّ البَحْرَ من دوننا ... قلْتُ: فإنى سابحٌ ماهرُ

قالت: فَحَوْلِى إخوةٌ سَبْعَةٌ قلتُ: فإنى لَهُمُ حاذرُ
قالت: فليثٌ رابضٌ دوننا قلتُ: فإنى أَسَدٌ ظافرُ
قالت: فإنَّ الله مِنْ فوقنا قلتُ: فَرَبِّى راحمٌ غافرُ
قالت: لقد أَعْيَيْتَنَا حجةً فائتِ إذا ما هَجَعَ السامِرُ
واسقُطْ علينا كسُقُوطِ النَّدَى لَيْلَةَ لا نَاهٍ ولا آمِرُ

وقال أبو عمر الضرير: توفى الوليد نصف جمادى الآخرة، سنة ست وتسعين بدير مرَّان، وحمل على أعناق الرجال؛ فدفن بباب الصغير، وكان عمره إحدى وخمسين سنة، ومدة خلافته تسع سنين وثمانية أشهر، وصلى عليه عمر بن عبد العزيز، وخلَّف أربعة عشر ولدًا[1].

خلافة سليمان بن عبد الملك[2]

قال ابن خلدون: أراد الوليد أن يمنع أخاه سليمان، ويبايع لولده عبد العزيز بن الوليد، فأبى سليمان، فكتب إلى عماله ودعا الناس إلى ذلك؛ فلم يجبه إلا الحجاج، وقتيبة بن مسلم، وبعض خواصِّه، واستقدم سليمان، ثم استبطأه، فأجمع المسير إليه ليخلعه، فمات دون ذلك، ولما مات، بويع سليمان من يومه، وهو بالرملة، فعزل عمال الحجاج جميعهم، وأمر يزيد بن المهلب بنكبة آل عقيل قوم الحجاج وبنى أبيه وبسط العذاب عليهم، فولى يزيد بن المهلب أخاه عبد الملك بن المهلب على ذلك، ففعله، ثم عزل قتيبة وقتله، وأتى إليه برأسه، وكان ذلك منه لموافقتهما الوليد على خلعه.

بويع بالخلافة فى جمادى الآخرة سنة ست وتسعين بعد الوليد بالعهد المذكور من أبيهما، كان من خيار بنى أمية، فصيحًا مفوهًا، مؤثرًا للعدل، محبًّا للغزو، وجهز

(١) ينظر: فوات الوفيات (٤/ ٢٥٤)، تاريخ الإسلام وفيات سنة ست وتسعين.
(٢) ينظر: فى أخبار سليمان بن عبد الملك فى: مروج الذهب ٣/ ١٨٣، الكامل ٥/ ٣٧، العبر للذهبى ١/ ١١٥، سير أعلام النبلاء ٥/ ١١١، دول الإسلام للذهبى ١/ ٦٩، نهاية الأرب للنويرى ٢١/ ٣٥٣، تاريخ ابن خلدون ٣/ ٧٤، مرآة الجنان ١/ ٢٠٧، الوافى بالوفيات ١٥/ ٤٠٠، تاريخ الخلفاء للسيوطى ٢٢٥، أخبار الدول للقرمانى ١٣٧، تاريخ الطبرى ٦/ ٥٤٦، المعرفة والتاريخ ١/ ٢٢٣، البدء والتاريخ ٦/ ٤١، تاريخ خليفة ٣١٦، التاريخ الكبير للبخارى ٤/ ٢٥، الجرح والتعديل ٤/ ١٣٠، وفيات الأعيان ٢/ ٤٢٠، فوات الوفيات ٢/ ٦٨، خلاصة الذهب المسبوك للإربلى ١٣، الأخبار الطوال ٣٢٩، تاريخ اليعقوبى ٢/ ٢٩٣ .

الجيوش مع أخيه مسلمة بن عبد الملك؛ لحصار القسطنطينية. وقالت امرأة: رأيته أبيض، عظيم الوجه، مقرون الحاجبين، يضرب شعره منكبيه، ما رأيت أجمل منه[١].

وقال الوليد بن مسلم: حدثني غير واحد أن البيعة أتت لسليمان وهو بمشارف البلقاء، فأتى إلى بيت المقدس، وأتته الوفود، فلم يروا وفادة كانت أهنأ من الوفادة إليه، كان يجلس فى قبة فى صحن المسجد مما يلى الصخرة، ويجلس الناس على الكراسى، ويقسم الأموال، ويقضى الأشغال[٢].

وقال سعيد بن عبد العزيز: ولي سليمان وهو إلى الشباب والتَرَفُّه ما هو، فقال لعمر بن عبد العزيز: يا أبا حفص، إنا ولينا ما قد ترى ولم يكن لنا بتدبيره عِلْم، فما رأيت من مصلحة العامَّة فَمُرْ به، فكان من ذلك عزل عمال الحَجَّاج، وإخراج من فى سِجْنِ العراق، ومن ذلك كتابه: « إن الصلاة قد أميتت فأحيوها وردوها إلى أول وقتها » مع أمور حسنة كان يسمع من عمر فيها[٣].

وعن الشعبى: لمَّا حج سليمان بن عبد الملك سنة سبع وتسعين، فرأى الناس بالموسم، قال لعمر بن عبد العزيز: أما ترى هذا الخلق الذى لا يُحْصِي عددهم إلا الله تبارك وتعالى، ولا يسع رزقهم غيره ؟ قال: يا أمير المؤمنين، هؤلاء اليوم رعيتك، وغدًا هم خصماؤك، فبكى سليمان بكاء شديدًا، ثم قال: بالله أستعين[٤].

وعن ابن سيرين قال: رحم الله سليمان بن عبد الملك، افتتح خلافته بخير، وختمها بخير، افتتحها بإحياء الصلوات لمواقيتها، واختتمها باستخلاف عمر بن عبدالعزيز[٥].

وفى الذهبى: قيل: كان من الأكلة المذكورين، فذكر محمد بن زكريا الغلابى[٦]، وليس بثقة، قال: حدثنا

---

(١) ينظر: تاريخ الإسلام وفيات سنة تسع وتسعين، ترجمة سليمان بن عبد الملك .
(٢) ينظر السابق .
(٣) ينظر السابق .
(٤) ينظر السابق .
(٥) ينظر السابق .
(٦) فى ط: العلائى. والتصحيح من تاريخ الإسلام .

محمد بن عبد الرحمن القرشى، عن أبيه، عن هشام بن سليمان قال: أكل سليمان بن عبد الملك أربعين دجاجة تشوى له على النار على صفة الكباب، وأكل أربعًا وثمانين كلوة بشحومها وثمانين جردقة(١).

وقال محمد بن عبد الحميد الرازى، عن ابن المبارك: إن سليمان لما حَجَّ أتى الطائف، فأكل سبعين رمانة، وخروفًا، وستين دجاجة، وأتى بمكوك زبيب طائفى، فأكله أجمع.

وعن عبد الله بن الحارث قال: كان سليمان بن عبد الملك أكولاً(٢).

وقال إبراهيم بن هشام [ابن يحيى بن يحيى: ثنا أبى عن أبيه قال]: جلس سليمان بن عبد الملك فى بيت أخضر، على وطاء أخضر، عليه ثياب خضر، ثم نظر فى المرآة، فأعجبه شبابه وجماله، فقال: كان محمد ﷺ نبيًّا، وكان أبو بكر صديقًا، وكان عمر فاروقًا، وكان عثمان حييًّا، وكان معاوية حليمًا، وكان يزيد صبورًا، وكان عبد الملك سائسًا، وكان الوليدُ جَبَّارًا، وأنا الملك الشابُّ، فما دار عليه الشهر حتى مات(٣).

وروى محمد بن سعيد الدارمي، عن أبيه، قال: كان سليمان بن عبد الملك ينظر فى المرآة من فرقه إلى قدمه، ويقول: أنا الملك الشاب، فلما نزل بمرج دابق، حُمَّ وفشت الحُمَّىٰ فى عسكره، فنادى بعض خدمه، فجاءت بطست، فقال لها: ما شأنك ؟ قالت: محمومة، قال: فأين فلانة ؟ قالت: محمومة، فما ذكر أحدًا إلا قالت: محموم، فالتفت إلى خاله الوليد بن القعقاع العبسى، وقال: [من الكامل]

قَرِّبْ وَضُوءَكَ يَا وَلِيدُ فَإِنَّمَا ... هَـذِى الـحَـيَـاةُ تَـعِـلَّـةٌ وَمَـتَـاعُ

فقال الوليد: [من الكامل]

فاعمَلْ لنَفْسِكَ فى حَيَاتِكَ صالحًا ... فـالـدَّهْـرُ فـيـه فُـرْقَـةٌ وجـمَـاعُ

ومات فى مرضه ذاك(٤).

قال الدميرى فى حياة الحيوان(٥): لما استقل بالخلافة، اتخذ ابن عمه عمر بن

---

(١) ينظر: تاريخ الإسلام وفيات سنة تسع وتسعين، ترجمة سليمان بن عبد الملك .
(٢) ينظر السابق .
(٣) ينظر السابق .
(٤) ينظر السابق .
(٥) ينظر: حياة الحيوان (١/ ٩٦) .

عبد العزيز وزيرًا ومشيرًا، ثم إنه أراد أن يستكتب يزيد بن أبى مسلم وزير الحجاج، فقال له عمر: سألتك بالله يا أمير المؤمنين، لا تحيي ذكرى الحجاج باستكتابك يزيد، فقال له سليمان: يا عمر، إنى لم أجد عنده خيانة فى درهم ولا دينار، فقال: يا أمير المؤمنين، إن إبليس أعفُّ منه فى الدرهم والدينار، قد أغوى الخلق، فأضرب سليمان عما عزم عليه.

وفى الكامل لأبى العباس محمد بن يزيد الملقَّب بالمبرد النحوى المشهور(١): أنه دخل على سليمان بن عبد الملك يزيد بن أبى مسلم وزير الحجاج، وكان يزيد قبيحًا دميمًا، فقال له سليمان: قبح الله رجلاً أجرَّك رسنه، وشركك فى أمانته - يعرض بالحجاج - فقال يزيد: يا أمير المؤمنين، لا تقل هذا، قال سليمان: ولم؟ قال: لأنك رأيتنى، والأمر عنى مُدْبِرٌ، ولو رأيتنى والأمرُ عليَّ مقبل، لاستحسنت منى ما استقبحت، ولاستعظمت ما استصغرت. فقال له سليمان: ويحك، وقد استقر الحجاج فى قعر جهنم بَعْدُ أم لا؟ فقال: يا أمير المؤمنين، لا تقل ذلك فى الحجاج، قال: ولم؟ قال: لأن الحجاج وطأ لكم المنابر، وذلَّل لكم الجبابرة، وإنه يأتى يوم القيامة عن يمين أبيك عبد الملك، ويسار أخيك الوليد، فحيث ما كانا كان.

ولَّى سليمان بن عبد الملك أخاه مسلمة بن عبد الملك - وكان يلقب بالجرادة الصفراء - أرمينية وأذربيجان غير مرة، وإمرة العراقين، وسيره فى مائة وعشرين ألفًا إلى القسطنطينية؛ كماتقدَّم.

وروى مسلمة، عن عمر بن عبد العزيز، وهو مذكور فى سنن أبى داود سليمان ابن الأشعث السجستانى.

من الفوائد عن مسلمة: أنه لما حصر عمورية، حصل له صداع، فلم يركب فى الحرب، فقال أهل عمورية للمسلمين: ما لأميركم لم يركب اليوم؟ فقالوا: عرض له صداع، فأخرجوا له برنسًا، وقالوا: ألبسوه له يزل عنه ما يجد، فلبسه مسلمة، فشفى لوقته، ففتشوه فلم يجدوا فيه شيئًا، ثم فتقوا أزراره، فإذا فيها بطاقة مكتوب فيها هذه الآيات آيات التخفيف: ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ... ﴾ الآية

(١) ينظر: الكامل للمبرد ص ٧٣٠ .

[الأنفال: ٦٦]، ﴿... ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ ...﴾ الآية [البقرة: ١٧٨]، ﴿ حمٓ عٓسٓقٓ ﴾ [الشورى: ١، ٢]، ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي ...﴾ الآية [البقرة: ١٨٦]، ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ ... ﴾ الآية [الفرقان: ٤٥]، ﴿ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ...﴾ الآية [الأنعام: ١٣]، فقال المسلمون: من أين لكم هذا، وإنما أنزل على نبينا محمد ﷺ ؟ قالوا: وجدناه منقورًا فى حجر فى كنيسة قبل أن يبعث نبيكم بسبعمائة عام.

ومما يحكى من محاسن سليمان: أنه دخل عليه رجل، فقال: يا أمير المؤمنين، أنشدك الله والأذان، فقال له سليمان: أما أنشدك الله، فقد عرفناه، فما الأذان ؟ فقال الرجل: قوله تعالى: ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٤٤] فقال له: ما ظلامتك ؟ قال: ضيعتى فلانة غلبنى عليها عاملك فلان، فنزل سليمان عن سريره، ورفع البساط، ووضع خده فى الأرض، وقال: والله لا رفعته حتى يكتب له برد ضيعته، فكتب الكتاب وهو واضعٌ خده بالأرض، رحمه الله وعفا عنه.

ومما يحكى عنه: أنه قال لطلحة بن مصرف: ما تقول فى أبى بكر ؟ قال: ما أدركت دهره ولا أدرك دهرى، ولقد قال الناس فيه فأحسنوا، وهو إن شاء الله كذلك، فقال: ما تقول فى عمر ؟ فقال مثل ذلك، قال: ما تقول فى عثمان ؟ قال: ما أدركت دهره ولا أدرك دهرى، ولقد قال فيه الناس فأحسنوا، وقال فيه ناس وأساءوا، وعند الله علمه، قال: ما تقول فى على ؟ فقال مثل ذلك، قال: سُبَّ عليًا، فقال طلحة: لا أسبه، قال: والله لتسبنه أو لأضربن عنقك، قال: والله لا أسبه، فأمر بضرب عنقه، فقام إليه رجل بيده سيف فهزه، فقال طلحة: ويلك يا سليمان، أما ترضى بما رَضِيَ به من هو خير منك فيمن هو شر من عليٍّ ؟ قال: وما ذاك ؟ قال: فإن الله عز وجل رضى من عيسى، وهو خير منك؛ إذ قال فى بنى إسرائيل، وهم شر من على: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ... ﴾ الآية [المائدة: ١١٨]؛ فسكن غضبه وخلى سبيله، فخرج طلحة يختال فى مشيته.

ودخل سالم بن عبد الله بن عمر، على سليمان بن عبد الملك، وعليه ثياب غليظة خشنة رثة، فأقعده سليمان معه على السرير، وكان عمر بن عبد العزيز حاضرًا، فقال له رجل: ياعمر، ما استطاع خالك - يعنى سالم بن عبد الله - أن

يلبس ثيابًا فاخرةً يدخل بها على أمير المؤمنين - وعلى المتكلم ثياب فاخرة - فقال له عمر: ما رأيتُ ثيابه وضعته، ولا رأيتُ ثيابَكَ هذه رفعتك إلى مكانه، فسكت الرجل، ولم يحر جوابًا.

ويروى أنه لما حم، خرج لصلاة الجمعة، فوجد حظية له فى صحن الدار، فأنشدته: [من الخفيف]

أَنْتَ نِعْمَ المَتَاعُ لو كُنْتَ تبقَىٰ غَـيْـرَ أن لا بَـقَـاءَ لـلإنـسـانِ
لَيْسَ فيِمَا بَدَا لنا مِنْكَ عَيْبٌ عـابَهُ النَّـاسُ غَـيْرَ أنـكَ فَـانِـي

فلما فرغ من الصلاة، دخل داره، ودعا بتلك الحظية، فقال لها: ما قلت لى فى صحن الدار ؟ فقالت: والله ما قلتُ لك شيئًا ولا رأيتك، وأنى لى بالخروج إلى صحن الدار ؟ فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، نعيت إليَّ نفسى، فما دارت عليه جمعة أخرَىٰ إلا وهو فى قبره.

تُوُفِّي رحمه الله فى صفر سنة ثمان وتسعين، وقيل: تسع، بمرج دابق، وله تسع وثلاثون سنة، وكانت خلافته سنتين وثمانية أشهر، وصلى عليه عمر بن عبد العزيز.

خلافة عمر بن عبد العزيز[1]
رضى الله عنه وأرضاه

قال الوليد بن مسلم بن عبد الرحمن بن حسان الكنانى: لما مرض سليمان بمرج دابق، قال لرجاء بن حَيْوَةَ كاتبه ووزيره: من لهذا الأمر بعدى ؟ أستخلف ابنى، فقال له رجاء: ابنك غائب فى القسطنطينية، ولا تدرى حياته أو موته، فقال: أستخلف ابنى داود الآخر، فقال: إنه صغير، قال: فمن ترى ؟ قال: استخلف عمر ابن عبد العزيز، قال: أتخوف إخوتى لا يرضون، قال رجاء: فولٍّ عمر، ثم بعده

---

(١) ينظر ترجمة عمر بن عبد العزيز فى: سيرة عمر بن عبدالعزيز لابن الجوزى، سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، تاريخ الطبرى ٦/ ٥٦٥، تهذيب الكمال ٢/ ١٠١٦، الكامل لابن الأثير ٥/ ٥٤، خلاصة الذهب المسبوك ١٨، الكاشف ٢/ ٢٧٥، تذكرة الحفاظ ١/ ١١٨، العبر ١/ ١٢٠، البداية والنهاية ٩/ ١٩٢، مرآة الجنان ١/ ٢٠٨، العقد الثمين ٦/ ٣٣١، غاية النهاية ١/ ٥٩٣، تاريخ الخلفاء ٢٢٨، شفاء الغرام ٢/ ٤٢٠، تاريخ اليعقوبى ٢/ ٣٠١، أنساب الأشراف ١/ ١٦، الجرح والتعديل ٦/ ١٢٢، الأغانى ٩/ ٢٥٤، نهاية الأرب ٢١/ ٣٥٥، مروج الذهب ٣/ ١٩٢، النجوم الزاهرة ١/ ٢٤٦، سير أعلام النبلاء ٥/ ١١٤ .

أخاك يزيد بن عبد الملك، وتكتب كتابًا وتختم عليه وتدعوهم إلى البيعة لمن فيه مختومًا، فقال سليمان: لقد رأيتُ ما رأيتَ، ائتنى بقرطاس، فكتب فيه العهد على ما ذكر، ودفعه إلى رجاء، وقال: اخرج إلى الناس، فليبايعوا لمن فى هذا الكتاب، قالوا: ومن فيه ؟ قال: هو مختوم لا تخبرون بمن فيه حتى يموت، قالوا: لا نبايع، ورجع رجاء إليه فأخبره، فقال: انطلق إلى صاحب الشرط والحرس، فاجمع الناس، وأمرهم بالبيعة، فمن أبى، فاضرب عنقه، ففعل، فبايعوا لمن فيه.

قال رجاء بن حيوة: فبينما أنا راجع إذ سمعت جلبة موكب[١]، فإذا هشام بن عبد الملك، فقال لى: يا رجاء قد علمت موقعك منا، وإن أمير المؤمنين صنع شيئًا ما أدرى ما هو، وأنا أتخوف أن يكون قد أزالها عنى، فإن يكن قد عدلها[٢] عنى، فأعلمنى ما دام فى الأمر نفس حتى أنظر، قال رجاء: فقلت له: سبحان الله يستكتمنى أمير المؤمنين أمرًا، فأطلعك عليه ! لا يكون هذا أبدًا، قال: فأدارنى وألاحنى، فأبيت عليه، فانصرف، فبينما أنا أسير؛ إذ سمعت جلبة خلفى، فإذا عمر ابن عبد العزيز، فقال لى: يا رجاء، إنه وقع فى نفسى أمر كبير من هذا الرجل، أتخوَّف أن يكون قد جعلها إلىَّ، ولست أقوم له بهذا الشأن، فأعلمنى ما دام فى الأمر نفس، لعلى أتخلَّص منه ما دام حيًا، فقلت: سبحان الله، يستكتمنى أمير المؤمنين أمرًا، وأطلعك عليه ! قال: وثقل سليمان، فلما مات، أجلسته مجلسه وأسندته وهيأته، وخرجت إلى الناس، فقالوا: كيف أصبح أمير المؤمنين ؟ قلت: ساكنًا، وأحب أن تسلموا عليه، وتبايعوا بين يديه على ما فى الكتاب.

فدخلوا، وأنا قائم عنده، فلما دنوا، قلت: إنه يأمركم بالوقوف، ثم أخذت الكتاب من عنده، وتقدمت إليهم وقلت: إنه يأمركم أن تبايعوا لمن فى هذا الكتاب، فبايعوا وبسطوا أيديهم، فلما بايعتهم وفرغت، قلت: آجركم الله فى أمير المؤمنين، قالوا: فمن ؟ ففتحت الكتاب، فإذا فيه العهد لعمر بن عبد العزيز، فتغيَّرَتْ وجوه بنى عبد الملك، وقال هشام: لا نبايعه أبدًا، فقال له رجاء: والله نضرب عنقك، فقام آسفًا يجر رجليه، فلمَّا سمعوا: « وبعده يزيد بن عبد الملك » كأنهم تراجعوا،

---

(١) فى ط: فركبت. والتصحيح من تاريخ الإسلام.
(٢) فى ط: عهد بها. والمثبت من تاريخ الإسلام.

فقالوا: أين عمر ؟ فطلبوه، فإذا هو فى المسجد، فأتوه، فسلَّموا عليه بالخلافة، فعقر به، ولم يستطع النهوض حتى أخذوا بضبعيه، فدنوا به إلى المنبر، وأصعدوه، فجلس طويلاً لا يتكلَّم، فقال رجاء: ألا تقومون إلى أمير المؤمنين، فتبايعوه ؟! فنهض القوم إليه، فبايعوه رجلاً رجلاً، ومَدَّ يده إليهم، ثم صعد إليه هشام بن عبد الملك، فلما مد يده إليه، قال هشام: إنا لله وإنا إليه راجعون، أسفًا لما فاته وأخطأه، فقال له عمر: إنا لله وإنا إليه راجعون؛ لما وقع فيه من ولاية أمر الأمة.

ثم قام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إنى لست بفارضٍ ولكنى منفِّذ، ولست بمبتدع ولكنى متبعٌ، وإن من حولكم من الأمصار والبلدان والمدن، إن هم أطاعوا كما أطعتم فأنا واليكم، وإن أبوا، فلست لهم بوال.

ثم نزل، فأتاه صاحب المراكب، فقال: ما هذا ؟ قالوا: مركب الخلافة[١]، قال: لا حاجة لى به، ائتونى بدابتى، فأتوه بدابته، فانطلق إلى منزله، ثم دعا بدواة، فكتب بيده إلى الأمصار، قال رجاء: كنت أظن أنه يَضْعُفُ، فلما رأيت صنعه فى الكتاب، علمت أنه سيقوى[٢].

وقال عمر بن مهاجر: صلى عمر بن عبد العزيز المغرب، ثم صلى على جنازة سليمان بن عبد الملك.

ولما بلغ عبد العزيز بن الوليد، وكان غائبًا، موت سليمان بن عبد الملك، ولم يعلم ببيعة عمر، عقد لواء ودعا لنفسه، وجاء إلى دمشق، ثم بلغه عهد سليمان إلى عمر بن عبد العزيز، فجاء إليه واعتذر، وقال: أنا فعلت ما فعلت لما بلغنى أن سليمان لم يعهد إلى أحد، فخشيت على الأموال أن تنتهب، فقال له عمر بن عبد العزيز: لو قمت بالأمر، لقعدتُ فى بيتى، ولم أنازعك، فقال له عبد العزيز: والله لا أجيبُ لهذا الأمر.

فأول ما بدأ به عمر بن عبد العزيز لما استقرَّتِ البيعة له: أنه رد ما كان لفاطمة بنت عبد الملك بن مروان زوجته من المال والحلى والجواهر إلى بيت المال،

---

(١) فى تاريخ الإسلام: الخليفة .

(٢) ينظر: تاريخ الطبرى ٦/ ٥٥٠ - ٥٥٣، حلية الأولياء ٥/ ٢٩٥ - ٢٩٦، الطبقات الكبرى ٢٥٠ - ٢٥١، المعرفة والتاريخ ١/ ٥٧٤، سيرة عمر لابن الجوزى ص ٥٦، تاريخ الإسلام: الطبقة الحادية عشر ص ١٩٤ .

وقال: لا أجتمع أنا وأنت وهو فى بيت واحد، فردته جميعًا، ولما ولى أخوها يزيد من بعده رده عليها، فأبت، وقالت: ما كنت لأطيعه حيًا وأعصيه ميتًا، ففرقه يزيد على أهله.

وكتب إلى مسلمة بن عبد الملك، وهو بأرض الروم، يأمره بالقفول بالمسلمين.

هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس ابن عبد مناف بن قصى، أمير المؤمنين، أبو حفص القرشى الأموى.

قال الإمام محمد بن إدريس الشافعى: هو خامس الخلفاء الراشدين، رضى الله تعالى عنه وأرضاه.

ولد بالمدينة، وقيل: بحلوان من أعمال مصر، سنة ستين، عام وفاة معاوية، أو بعدها بسنة.

أمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب.

روى عن أبيه وأنس وعبد الله بن جعفر بن أبى طالب وغيرهم.

صفته: كان - رضى الله عنه - أبيضَ اللون، رقيق الوجه، جميلاً، نحيف الجسم، حسن اللحية، غائر العينين، بجبهته أثر حافر دابة - ولذلك سمى أشج بنى أمية - قد وخطه الشيب.

قال ثروان مولاه: دخل عمر إلى إصطبل أبيه، وهو غلام فضربه فرس فشجه، فجعل أبوه يمسح عنه الدم، ويقول: إن كنت أشج بنى أمية، إنك لسعيد، رواه ضمرة عن ثروان(١).

وعن ضمام بن إسماعيل، عن أبى قبيل؛ أن عمر بن عبد العزيز بكى وهو غلام، فقالت أمه: ما يبكيك ؟ قال: ذكرت الموت - وكان قد جمع القرآن وهو غلام صغير - فبكت أمه(٢).

وعن سعيد بن عفير، عن يعقوب، عن أبيه؛ أن عبد العزيز بن مروان أمير مصر بَعَثَ ابنه [عمر بن] عبد العزيز إلى المدينة يتأدَّب بها، وكتب إلى صالح بن كيسان؛ أن يتعاهده، وكان يختلف إلى عبيد الله بن عبد الله بن عتبة يسمع منه العلم، فبلغه أن

---

(١) ينظر: تهذيب الكمال (٢١/ ٤٣٧).
(٢) ينظر المصدر السابق.

عمر ينتقصُ عليًا، فقال له: متى بلغك أن الله سَخِطَ على أهل بدر بعد أن رَضِيَ عنهم ؟ ففهم، وقال: معذرة إلى الله وإليك، لا أعود.

وقال غيره: لما مات عبد العزيز، طلب عبد الملك بن مروان عمر إلى دمشق، فزوجه ابنته فاطمة بنت عبد الملك، وكان الذين يعيبون عمر من حساده لا يعيبونه إلا بالإفراط فى التنعُّم والاختيالِ فى المشية؛ هذا قبل الإمرة.

قال أبو زرعة عبد الأحد بن الليث القينانى: سمعت مالكًا يقول: أتى فتيان إلى عمر بن عبد العزيز، فقالوا: إن أبانا تُوفيَ وترك لنا مالاً نحو عمنا حميد الأمجى، فأحضره عمر، وقال له: أنت القائل: [من المتقارب]

حُـمَـيْـدُ الـذى أمـج داره   أَخُو الخَمْرِ ذى الشيْبَةِ الأَصْلَع
أَتَـاهُ الـمَشِـيبُ علَىٰ شـربـهـا   وكَـانَ كَـريـمًـا فَـلَـمْ يَـنْـزِعِ

قال: نعم، قال: ما أرانى إلا حادكَ إذ أقررت بشربها، وأنك لم تنزع عنها، قال: أين يذهب بك ؟ ألم تسمع الله يقول: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ. . . ﴾ الآية [الشعراء: ٢٢٤]، قال عمر: أَولَى لك يا حميد، ما أراك إلا قد تفلت، ويحك يا حميد، كان أبوك رجلاً صالحًا وأنت رجل سوء، قال: أصلحك الله، وأينا يشبه أباه ؟ أما كان أبوك رجل سوء، وأنت رجل صالح ؟ قال: إن هؤلاء زعموا أن أباهم تُوُفِّيَ وترك مالاً عندك، قال: صدقوا، وأحضره بختم أبيهم، ثم قال: إن أباهم مات سنة كذا وكذا، وكنت أنفق عليهم من مالى، وهذا مالهم، فقال عمر: ما أحد أحق أن يكون عنده منك. فامتنع.

وقال زيد بن أسلم، قال أنس - رضى الله تعالى عنه-: ما صليت وراء إمام بعد رسول الله ﷺ أشبه صلاة برسول الله ﷺ من هذا الفتى، يعنى: عمر بن عبد العزيز، وكان عمر أميرًا على المدينة، قال زيد بن أسلم: كان يتم الركوع والسجود، ويخفف القيام والقعود.

وقال عمر بن قيس الملائى: سئل محمد بن على بن الحسين، عن عمر بن عبد العزيز؟ فقال: هو نجيبة بنى أمية، ولكل قوم نجيبة، وإنه يبعث يوم القيامة أمة وحده !

وقال سفيان الثورى: كان العلماء مع عمر بن عبد العزيز تلامذة[1].

---

(١) تنظر هذه الأقوال فى مصادر ترجمة عمر بن عبد العزيز وقد تقدم ذكرها .

قال الترمذى فى تاريخه، بسند رفعه إلى جويرية، عن نافع: بلغنا أن عمر بن الخطاب قال: إن مِنْ ولدى رجلاً بوجهه شجة[١]، يلى فيملأ الأرض عدلاً. قال: هو عمر بن عبد العزيز.

وعن السرى بن يحيى، عن رياح بن عبيدة، قال: خرج عمر بن عبد العزيز إلى الصلاة وشيخ متوكئ على يده، فقلت فى نفسى: إن هذا الشيخ لجافٍ، فلما صلى، لحقته، فقلت: أصلح الله الأمير، من الشيخ الذى كان متكئًا على يدك ؟ قال: يا رياح رأيته ؟ قلت: نعم، قال: ما أحسبك إلا رجلاً صالحًا ؟ ذاك أخى الخضر أتانى فأعلمنى أنى سألى أمر هذه الأمة، وأنى سأعدل فيها[٢]. رواته ثقات.

قال جرير، عن مغيرة: جمع عمر بن عبد العزيز بنى مروان حين استخلف، فقال: إن رسول الله ﷺ كان له فدك ينفق منها، ويعود منها على صغير بنى هاشم، ويزوج منها أيمهم، وإن فاطمة سألته أن يجعلها لها فأبى، وكانت كذلك حياة أبى بكر، ثم عمر، ثم اقتطعها مروان، ثم صارت إلىَّ، فرأيت أمرًا منعه رسول الله ﷺ ليس لى بحَقٍّ، وإنى أشهدكم أنى قد رددتها على ما كانت عليه أيام رسول الله ﷺ[٣].

وفى كتاب المحاسن والمساوى للعلامة إبراهيم البيهقى ما نصه: وحدث إسماعيل بن أبى خالد، قال: أتى الوليد بن عبد الملك برجل من الخوارج، وعنده عمر بن عبد العزيز، وخالد بن الريان، فقال له الوليد: ما تقول فى أبى بكر ؟ فقال: صاحب رسول الله ﷺ، وثانى اثنين، رحمه الله تعالى وغفر له، قال: فما تقول فى عمر بن الخطاب ؟ قال: هو الفاروق، رحمه الله تعالى وغفر له، قال: فما تقول فى عثمان بن عفان ؟ قال: كان سُنَيات من خلافته ملازمًا للعدل، قال: فما تقول فى مروان بن الحكم ؟ قال: لعن الله ذاك، قال: فما تقول فى عبد الملك ؟ قال: ذاك ابن ذاك، لعن الله ذاك، فقال: فما تقول فيَّ ؟ قال: ابن ذينك، وأنت شر الثلاثة، فقال الوليد: يا عمر، ما تقول فيما تسمع ؟ قال: يا أمير المؤمنين، ما أحد أعلم

(١) فى تاريخ الإسلام: شين .
(٢) ينظر: المعرفة والتاريخ ١/ ٥٧٧، حلية الأولياء ٥/ ٢٥٤، سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ٣٢، البداية والنهاية ١/ ٣٣٣ .
(٣) ينظر: تهذيب الكمال (٢١/ ٤٤٣) وأخرجه أبو داود برقم (٢٩٧٢) .

بهذا منك، فألح عليه؛ والله لتقولن، فقال: أما إذ أبيت إلا أن أقول، فسب أباه كما سَبَّ أباك، ﴿ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

فقال: ليس إلا هذا ؟ فقال: لا يا أمير المؤمنين، إلا أن تداخلك جبرية، فأما فى الحق، فليس إلا هذا، فالتفت إلى خالد بن الريان، وهو قائم على رأسه، ثم قام وهو غضبان، فقال خالد: والله يا عمر، لقد نظر إليَّ أمير المؤمنين نظرةً كنت أظن أنه يأمرنى بضرب عنقك، قال: لو أمركَ أكنت تفعل ؟ فقال: إى والله، قال: أما إنه كان يكون شرًا لكما وخيرًا لى، ثم سكت عمر عنه، وبقى ذلك فى قلبه، ولما قام الوليد من مجلسه، دخل على زوجته أم البنين بنت عبد العزيز أخت عمر، فقال لها: أخوكِ الحروريُّ، والله لأقتلنه، فمكث عمر أيامًا فى منزله لا يحضُرُ الباب ولا يلتمس المعذرة، فأتاه رسول الوليد وقت القائلة فدعاه، فلما دخل باب القصر، عدل به إلى بيت، فأدخل فيه وطين عليه الباب، فرجع صاحب دابته إلى أهله، فأخبرهم، فأخبروا أخته، فبحثت عن خبره فعلمته، فدخلت على الوليد، وناشدته الرحم، وقبلت يده، فقال: قد وهبته لك، إن أدركته حَيًّا، قال: ففتحوا عنه الباب، فوجدوه قد انثنى عنقه، فحملوه إلى منزله وعالجوه، فلما توفى الوليد - وكان سليمان بعده، فهلك، وتولى عمر الخلافة - جاء خالد بن الريان فى اليوم الذى استخلف فيه عمر متقلدًا سيفه، يريد الوقوف على رأسه، فقال عمر: يا خالد، انطلق بسيفك هذا، فضعه فى بيتك واقعد فيه، لا حاجة لنا فيك، أنت رجل إذا أُمِرْتَ بشيء فعلته، لا تنظر لدينك. فلما ولى خالد ذاهبًا، نظر عمر إلى قفاه، فقال: اللهم يا رب، إنى قد وضعته لك فلا ترفعه أبدًا، فما لبث إلا جمعة حتى ضربه الفالج فقتله. انتهى.

قال عبد الله بن صالح: حدثنى الليث قال: لما ولى عمر، بدأ بلحمته وأهل بيته، وأخذ ما بأيديهم، وسمى أموالهم مظالم، ففزعت بنو أمية إلى عمته فاطمة بنت مروان، فأتته ليلاً فأنزلها عن دابتها، فلما أخذت مجلسها، قال: يا عمة، أنت أولَىٰ بالكلام فتكلَّمى، قالت: تكلم يا أمير المؤمنين، قال: إن الله بعث نبيه رحمة للأمة، ثم اختار له ما عنده فقبضه الله، وترك لهم نهرًا شربهم سواء، ثم قام أبو بكر، فترك النهر على حاله، ثم ولى عمر، فعمل عمل صاحبه، ولم يزل النهر يشق منه يزيد

ومروان وعبد الملك والوليد وسليمان حتى أفضَى الأمر إلى وقد يبس النهر الأعظم، ولن يروى أصحاب النهر الأعظم حتى يعود إلى ما كان عليه، فقالت: حسبك، قد أردت كلامك ومذاكرتك، فأما إذا كانت مقالتك هذه، فلست بذاكرة لك شيئًا، فرجعت إليهم، فأبلغتهم كلامه(١).

وعن محمد المروزى قال: أخبرت أن عمر بن عبد العزيز لما ولى الخلافة، جاء صاحب الشرطة ليسير بين يده بالحربة - جريًا على عادة الخلفاء قبله - فقال له عمر: تنحَّ عنى، مالى ولك، إنما أنا رجل من المسلمين، ثم سار مختلطًا بالناس حتى دخل المسجد، فصعد المنبر، واجتمع الناس إليه، فحمد الله وأثنى عليه، وذكر النبى ﷺ، ثم قال: أيها الناس، إنى ابتليت بهذا الأمر من غير رأيٍ منى فيه ولا طلبٍ ولا مشورةٍ وإنى قد حللت(٢) ما فى أعناقكم من بيعتى، فاختاروا لأنفسكم غيرى، فصاح المسلمون صيحة واحدة، قد اخترناك يا أمير المؤمنين، ورضينا بك أميرنا باليمن والبركة، فلما سكتوا، حمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبى ﷺ، ثم قال: أوصيكم بتقوى الله؛ فإن تقواه خلف من كل شيء، وليس من تقوى الله خلف، وتعجلوا لآخرتكم؛ فإن من عجل لآخرته، كفاه الله أمر دنياه وآخرته، وأصلحوا سرائركم يصلح الله علانيتكم، وأكثروا ذكر الموت، وأحسنوا له الاستعداد قبل أن ينزل؛ فإنه هادم اللذات، وإنى والله لا أعطى أحدًا باطلاً، ولا أمنع أحدًا حقًّا [ثم رفع صوته فقال](٣): أيها الناس، من أطاع الله وجبت طاعته، ومن عصى الله فلا طاعة له، أطيعونى ما أطعت الله، فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم. ثم نزل.

ودخل دار الخلافة، فأمر بالستور فهتكت، وبالبسط فرفعت، وأمر ببيع ذلك وإدخال أثمانها فى بيت مال المسلمين، ثم ذهب يتبوأ مقيلاً، فأتاه ابنه عبد الملك، فقال له: ما تريد أن تصنع يا أبت ؟ فقال: أى بنى، أقيل، فقال: أتقيل ولا ترد المظالم [إلى أهلها] (٤)؟ قال: أى بني، إنى سهرت البارحة فى أمر عمك سليمان،

---

(١) ينظر: تاريخ الإسلام الطبقة الحادية عشرة وفيات سنة إحدى ومائة ترجمة عمر بن عبد العزيز، وسير أعلام النبلاء (٥/ ١٢٩) .
(٢) فى البداية والنهاية: خلعت .
(٣) المثبت من البداية والنهاية .
(٤) المثبت من البداية والنهاية .

فإذا صليت الظهر، رددت المظالم، فقال: يا أمير المؤمنين، من أين لك أن تعيش إلى الظهر ؟ فقال: ادن منى، فدنا منه، فقبل بين عينيه، وقال: الحمد لله الذى أخرج من ظهرى[١] من يعيننى على دينى، فخرج ولم يقل، فأمر مناديًا أن ينادى: ألا من كانت له مظلمة فليرفعها، فتقدَّم إليه ذمى من أهل حمص، فقال: أسألك كتاب الله، قال: وما ذاك ؟ قال: إن العباس بن الوليد اغتصبنى أرضى، والعباس جالس، فقال عمر: ما تقول يا عباس ؟ قال: إن الوليد أقطعنى إياها، هذا كتابه، فقال عمر: ما تقول يا ذمى ؟ قال: يا أمير المؤمنين، أسألك كتاب الله، فقال عمر: كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد، اردد عليه أرضه[٢] ياعباس، فردها عليه، ثم جعل لايدع شيئًا مما كان فى يد أهل بيته من المظالم إلا رَدَّها مظلمة مظلمة.

فلما بلغ الخوارج سيرة عمر - رضى الله تعالى عنه - وما رد من المظالم، اجتمعوا وقالوا: ماينبغى لنا أن نقاتل هذا الرجل.

ولما بلغ عمر بن الوليد رد الضيعة على الذمى، كتب إلى عمر بن عبد العزيز كتابًا فيه: « إنك قد أزريت على من كان قبلك من الخلفاء، وعبت عليهم فعلهم، وسرت بغير سيرتهم بغضًا لهم وشينًا لمن بعدهم من أولادهم، قطعت ما أمر الله به أن يوصل؛ إذ عمدت إلى أموال قريش ومواريثهم، وأدخلتها بيت المال جورًا وعدوانًا، ولن تترك على هذا الحال، والسلام ».

فلما قرأ عمر بن عبد العزيز كتاب عمر بن الوليد، كتب إليه: « بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر بن عبد العزيز إلى عمر بن الوليد، السلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، أما بعد، فقد بلغنى كتابك، أما أول شأنك يا ابن الوليد، فأمك بنانة أمة السكون، كانت تطوف فى سوق حمص، وتدخل فى حوانيتها، ثم الله أعلم بها، ثم اشتراها ذبيان من بيت مال المسلمين، فأهداها لأبيك فحملت بك، فبئس المولود أنت، ثم نشأت فكنت جبارًا عنيدًا، تزعم أنى من الظالمين؛ إذ حرمتك وأهل بيتك مال الله الذى فيه حق القرابة والمساكين والأرامل، وإنَّ أَظْلَمَ منى وأترك لعهد الله: مَن استعملك صبيًّا سفيهًا على جند المسلمين، تحكم فيهم

---

(١) فى البداية والنهاية: صلبى.
(٢) فى البداية والنهاية: ضيعته.

برأيك، ولم يكن له فى ذلك نية إلا حب الوالد لولده، فويل لأبيك، ما أكثر خصماءه يوم القيامة، وإن أظلم منى وأترك لعهد الله من استعمل الحجاج يسفك الدماء ويأخذ المال الحرام، وإن أظلم منى وأترك لعهد الله من استعمل أعرابيًا جافيًا على مصر، وأذن له فى المعازف وآلات اللهو والشرب. وإن أظلم منى وأترك لعهد الله من جعل لغالية البربرية فى خُمْس العرب نصيبًا. فرويدًا يابن بنانة، فلو التقت حلقتا البطان، ورد الفىء إلى أهله، لتفرغتُ لك ولأهل بيتك فوضعتهم فى المحجة البيضاء، فطالما تركتم الحق، وأخذتم فى الباطل، ومن وراء ذلك ما أرجو أن أكون رائيه من بيع رقبتك، وقسم ثمنك بين اليتامى والأرامل؛ فإن لكلٍّ فيك حقًّا. والسلام على من اتبع الهدى، ولاينال سلامُ الله القوم الظالمين »[١].

وفى الذهبى: كتب عمر بن عبد العزيز إلى سالم بن عبد الله بن عمر، يكتب إليه بسيرة عمر بن الخطاب فى الصدقات، فكتب إليه بالذى سأل، وكتب إليه: «إنك إن عملت بمثل عمل عمر فى زمانه ورجاله فى مثل زمانك ورجالك، كنت عند الله خيرًا من عمر »[٢].

وعن ميمون بن مهران، سمعت عمر بن عبد العزيز يقول: لو أقمت فيكم خمسين عامًا، ما استكملت العدل فيكم، إنى لأريد الأمر، فأخاف ألا تحمله قلوبكم، فأخرج منه طمعًا من طمع الدنيا، فإن أنكرت قلوبكم هذا سكنت إلى هذا[٣].

وعن سعيد بن عامر، حدثنا جويرية قال: دخلنا على فاطمة بنت على بن أبى طالب، فأثنت على عمر بن عبد العزيز خيرًا، وقالت: لو كان بقى لنا ما احتجنا بَعْدُ إلى أحد.

وعن عطاء بن أبى رباح قال: حدثتنى فاطمة امرأة عمر بن عبد العزيز؛ أنها

---

(١) ينظر: البداية والنهاية (٩/ ٢٣٨ - ٢٣٩).

(٢) ينظر: تاريخ الإسلام: الطبقة الحادية عشرة ص ١٩٥ و سير أعلام النبلاء (٥/ ١٢٧) وقد تعقب الذهبى هذا الكلام فقال: هذا كلام عجيب أنى يكون خيرًا من عمر؛ حاشا وكلا ولكن هذا القول محمول على المبالغة وأين عز الإسلام بإسلام عمر وأين شهوده بدرًا وأين فرق الشيطان من عمر وأين فتوحات عمر شرقًا وغربًا.

(٣) ينظر: تاريخ الإسلام الطبقة الحادية عشرة ترجمة عمر بن عبد العزيز، وسير أعلام النبلاء (٥/ ١٢٩ - ١٣٠).

دخلت عليه وهو جالس فى مصلاه تسيلُ دموعه على لحيته، فقالت: يا أمير المؤمنين، أشىء حدث؟ قال: يا فاطمة، إنى تقلدت من أمر أمة محمد ﷺ أسودها وأحمرها، فتفكرت فى الفقير الجائع، والمريض الضائع، والعارى المجهود، والمظلوم المقهور، والغريب الأسير، والشيخ الكبير، وذى العيال الكثير، والمال القليل، وأشباههم فى أقطار الأرض وسائر البلاد، فعلمت أن ربى سائلى عنهم يوم القيامة، فخشيت ألاَّ تثبت لى حجة، فبكيت.

وعن الأوزاعى؛ أن عمر بن عبد العزيز كان جالسًا فى بيته وعنده أشراف بنى أمية، فقال: تحبون أن أولى كل رجل منكم جندًا؟ فقال رجل منهم: لم تعرض علينا ما لا تفعله؟ فقال: ترون بساطى هذا؟ إنى لأعلم أنه سيصير إلى بلاء وفناء، وإنى أكره أن تدنسوه بأرجلكم، فكيف أوليكم دينى وأوليكم أعراض المسلمين وأسارهم[1]؟! هيهات، فقالوا: أما لنا قرابة؟! أما لنا حق؟! قال: ما أنتم وأقصى رجل من المسلمين فى هذا الأمر عندى إلا سواء، إلا رجل من المسلمين حبسه عنى طول شقته[2].

حدثنا معاوية بن صالح الحمصى، حدثنى سعيد بن سويد؛ أن عمر بن عبد العزيز صلَّى بهم الجمعة، ثم جلس وعليه قميص مرقوع الجيب من بين يديه ومن خلفه، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين، إن الله قد أعطاك، فلو لبست، فنكس رأسه مليًا، ثم رفعه، فقال: أفضل القصد عند الجدة، وأفضل العفو عند المقدرة[3].

وحدث إبراهيم بن هشام، عن أبيه، عن جده، عن مسلمة بن عبد الملك، قال: دخلت على عمر بن عبد العزيز، فإذا عليه قميص وسخ، فقلت لزوجته - وهى أختى فاطمة بنت عبد الملك: اغسلوا قميص أمير المؤمنين، فقالت: نفعل، ثم عدت، فإذا بالقميص على حاله، فقلت لها، فقالت: والله ماله قميص غيره، رضى الله تعالى عنه وأرضاه[4].

---

(١) فى تاريخ الإسلام: وأبشارهم.
(٢) ينظر حلية الأولياء (٥/ ٢٧٠ - ٢٧١)، وسير أعلام النبلاء (٥/ ١٣٢)، وتاريخ الإسلام الطبقة الحادية عشرة.
(٣) ينظر الطبقات الكبرى (٥/ ٤٠٢)، والسير (٥/ ١٣٣ - ١٣٤)، وتاريخ الإسلام الطبقة الحادية عشرة.
(٤) ينظر: سيرة عمر لابن عبد الحكم (٥٠)، وسيرته لابن الجوزى (١٥٣)، صفة الصفوة (٢/ ١٢٠)، الطبقات الكبرى (٥/ ٢٩٧)، سير أعلام النبلاء (٥/ ١٣٤).

وعن إسماعيل بن عياش، عن عمر بن مهاجر: كانت نفقة عمر بن عبد العزيز كل يوم درهمين[١].

وعن عون بن المعتمر قال: دخل عمر بن عبد العزيز على زوجته ذاتَ يومٍ فقال: عندك درهم نشترى به عنبًا؟ قالت: لا، أنتَ أمير المؤمنين لا تقدر على درهمٍ؟ قال: هذا أهون على من معالجة الأغلال فى جهنم[٢].

قال يحيى بن معين: كان عمر بن عبد العزيز يلبس الفروة الكبل، وكان سراج بيته على ثلاث قصبات فوقهن طين، وكان يسرج عليه الشمعة ماكان فى حوائج المسلمين، فإذا فرغ من حوائجهم أطفأها، ثم أسرج عليه سراجه[٣].

وعن عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز قال: قال لى رجاء بن حَيْوَة: ما أكمل مروءة أبيك عمر، سمرت عنده ليلة فعشى السراج، فقال لى: أما ترى السراج قد عشى؟ قلت: بلى، قال: وإلى جانبه وصيف راقد، قلت: ألا أنبهه؟ قال: لا، قلت: أفلا أقوم؟ قال: ليس من مروءة الرجل استخدامه ضيفه، فقام إلى بطة الزيت، وأصلح السراج، ثم رجع، وقال: قمت وأنا عمر بن عبد العزيز، ورجعت وأنا عمر بن عبد العزيز[٤].

وعن سليمان بن حرب: قالت لى فاطمة زوجة عمر: كان عمر إذا صلى العشاء، قعد فى مسجده، ثم رفع يديه، فلم يزل يبكى حتى تغلبه عيناه، ثم ينتبه فلا يزال يدعو ربه رافعًا يديه يبكى؛ حتى تغلبه عيناه، يفعل ذلك ليله أجمع[٥].

وعن ميمون بن مهران، قال: قال لى عمر: حدثنى، فحدثه حديثًا، فبكى منه بكاءً شديدًا، فقلت: يا أمير المؤمنين، لو علمتُ لحدثتك حديثًا ألين منه، قال: ياميمون، إنا نأكل هذه الشجرة العدس، وهى ماعلمت مرقة للقلب، مغزرة للدمعة، مذلة للجسد[٦].

---

(١) ينظر: سير أعلام النبلاء (٥/ ١٣٤) تاريخ الإسلام الطبقة الحادية عشرة.
(٢) ينظر: حلية الأولياء (٥/ ٢٥٩)، السير (٥/ ١٣٤ - ١٣٥) تاريخ الإسلام الطبقة الحادية عشرة.
(٣) ينظر: المعرفة والتاريخ (١/ ٥٧٩)، وتاريخ الإسلام الطبقة الحادية عشرة.
(٤) ينظر: المعرفة والتاريخ (١/ ٥٧٧ - ٥٧٨)، والسير (٥/ ١٣٦).
(٥) ينظر: الزهد لابن المبارك رقم (٨٨٤)، والحلية (٥/ ٢٦٠)، والسير (٥/ ١٣٧).
(٦) ينظر السير (٥/ ١٣٧).

قلت: صدق - رضى الله عنه - فإن من خواص العدس ماذكره، والسبب الخفى فى ذلك البكاء إنما هو رقة فى قلبه من خوف الله تعالى وخشيته، لكنه وجد سبيلاً إلى إسناده إلى العدس لما قيل: إن فيه خاصية ذلك؛ كأنه قصد البعد عن مظان الرياء، رضى الله تعالى عنه.

قال مجاهد: قال لى عمر بن عبد العزيز: ماتقول الناس فى؟ قلت: يقولون: مسحور، قال: ما أنا بمسحور والله، ولكنى بخوف ربى مسحور.

قال: وكانت بنو أمية قد تبرمَتْ بعمر؛ لكونه شدَّد عليهم وانتزع كثيرًا مما فى أيديهم مما غصبوه، وكان قد أهمل التحرز، فدسوا له غلامًا سقاه السمَّ، ثم دعا الغلام، وقال: ويحك، ماحملك على أن تسقينى السم؟ قال: ألف دينار أُعْطيتها، وعلى أن أعتق، قال عمر: هاتها، فألقاها فى بيت مال المسلمين، وقال: اذهب حيث لايراك أحد(١).

وروى أنه وقع غلاء عظيم فى زمنه، فقدم عليه وفد من العرب، فاختاروا رجلاً منهم لخطابه، فتقدم إليه، وقال: يا أمير المؤمنين، إنا قد وفدنا إليك من ضرورة عظيمة، وحقنا فى بيت المال، وماله لا يخلو: إما أن يكون لله أو لعباد الله أو لك: فإن كان للَّه فإن الله غنىٌ عنه، وإن كان لعباد الله فآتهم إياه، وإن كان لك فتصدق علينا؛ إن الله يحب المتصدقين. فاغرورقت عينا عمر بالدموع، وقال: هو كما ذكرت، وأمر بحوائجهم فقضيت، فهمَّ الأعرابى بالانصراف، فقال له عمر: أيها الرجل، كما أوصلت حوائج عباد الله إلىَّ، فأوصل حاجتى، وارفع فاقتى إلى الله عز وجل، فقال الأعرابى: اللهم، اصنع بعمر بن عبد العزيز كصنعه فى عبادك، فما استتم كلامه حتى ارتفع غيم عظيم، وهطلت السماء، فجاء فى المطر بردة، فوقعت على حجر، فانكسرت، فخرج منه كاغد مكتوب فيه: « هذه براءة من الله العزيز الجبار، لعمر بن عبد العزيز من النار »(٢).

وقال رجاء بن حيوة: كان عمر بن عبد العزيز من أعظم الناس وألينهم وأعلمهم وأجملهم فى مشيته ولبسه، ولما استخلف قومَتْ ثيابه وعمامته وقميصه وقباؤه

---

(١) ينظر: البداية والنهاية (٧/ ٢٣٤ - ٢٣٥)، وسير أعلام النبلاء (٥/ ١٤٠) .
(٢) ينظر: سير أعلام النبلاء (٥/ ١٤٣ - ١٤٤) وتاريخ الإسلام الطبقة الحادية عشرة .

وخُفَّاه ورداؤه، فإذا هن يعدلْنَ اثنَى عشر درهمًا.

وعن زوجته فاطمة؛ أنها قالت: ما اغتسل والله عمر من جنابة منذ ولى هذا الأمر، كان نهاره فى أشغال المسلمين ورد المظالم، وليله فى عبادة ربه(١).

قال الحافظ: كان لعمر بن عبد العزيز رأفة بالخَلْق عامة، وبأولاد النبى ﷺ خاصَّة، من ذلك قصة زيد بن الحسن السبط - رضى الله عنهما - وذلك أن عمر بن عبد العزيز كتب فى حقه حين كان واليًا على المدينة الشريفة من قبل الوليد إلى الوليد: أما بعد، فإن زيد بن الحسن شريف بنى هاشم، فأدوا إليه صدقات رسول الله ﷺ وأعنه ياهذا على ما استعانك عليه فأمر له بذلك.

قال عبد الله بن وهب: حدثنى يعقوب قال: بلغنى أن الوليد كتب إلى زيد بن الحسن يسأله أن يبايع لابنه، ويخلع سليمان بن عبد الملك من ولاية العهد الذى عهده له أبوه عبد الملك إلى الوليد، ففرق زيد، وأجاب الوليد، فلما استخلف سليمان، وَجدَ كتاب زيد بذلك إلى الوليد فكتب إلى أبى بكر بن حزم أميره: ادع زيدًا، فاقرأ عليه كتابه، فإن عرفه فاكتب إلى، وإن أنكره فحلفه. قال: فخاف الله، واعترف بذلك، وأشار عليه القاسم بن محمد، وسالم بن عبد الله بن عمر، فكتب بذلك ابن حزم إلى سليمان بن عبد الملك، وكان جواب سليمان أن اضربه مائة سوط، ودرِّعه عباءة ومشه حافيًا. قال: فحبس عمر بن عبد العزيز الرسول فى عسكر سليمان، وقال: حتى أكلم أمير المؤمنين فيما كتب به، ومرض سليمان فمات، فحرق عمر بن عبد العزيز الكتاب، جزاه الله تعالى فى فعله أفضل الجزاء.

وقال - رضى الله تعالى عنه -: لو كنت فى قتلة الحسين، وأمرت أن أدخل الجنة، ما فعلتُ؛ حياء أن تقع عليَّ عين رسول الله ﷺ.

وأتى الوليد بن عبد الملك برجل من الخوارج فقال: ما تقول فى الحجاج ؟ قال: ما عساى أن أقول فى الحجاج، وهل الحجاج إلا خطيئة من خطاياك وأبيك، وشَرَرٌ من نارك وناره؟! فلعنة الله عليك وعلى الحجاج معك، وأقبل يشتمهما، فالتفت الوليد إلى عمر بن عبد العزيز، فقال: ما تقول فى هذا ؟ قال عمر: ما أقول

---

(١) ينظر سيرة عمر لابن عبد الحكم (٥٢)، وسيرته لابن الجوزى (٥٨)، والزهد لابن المبارك رقم (٨٩٠)، وحلية الأولياء (٥/ ٢٥٩)، والسير (٥/ ١٣٥ - ١٣٦).

فى هذا! هذا رجل يشتمكم؛ فإما أن تشتموه كما يشتمكم أو تعفون، فغضب الوليد، وقال: ما أظنك إلا خارجيًا، فغضب عمر، وقال: ما أظنك إلا مجنونًا، وقام وخرج مغضبًا ولحقه خالد بن الريان، فقال له: ما حملك على ما أجبت به أمير المؤمنين ؟ والله لقد ضربْتُ يدى على قائم سيفى أنتظره متى يأمرنى بضرب عنقك، فقال له عمر: وكنتَ فاعلاً لو أمرك ؟ قال: نعم، فلما استخلف عمر بن عبد العزيز، جاء خالد بن الريان فقام على رأسه؛ كما كان يقوم على رأس من كان قبله من الخلفاء، وكان رجل من الكتَّاب يضرُّ وينفع بقلمه، فجاء حتى جلس مجلسه الذى يجلس فيه بين يدى الخلفاء، فنظر عمر إلى خالد بن الريان، فقال له: يا خالد، ضع سيفك؛ فإنك تطيعنا فى كل ما أمرناك به، وضع أنت يا هذا قلمك؛ فقد كنت تضر وتنفع، وقال: اللهم، إنى قد وضعتهما فلا ترفعهما، قال: فوالله ما زالا وضيعين بشرٍّ حتى ماتا.

قلت: قد تقدمت هذه الرواية على نوع مخالفة لما هنا.

وروى أنه - رضى الله تعالى عنه - صعد المنبر ذات يوم بمكة، فقال: أيها الناس، من كانت له ظلامة فليتقدم، فتقدم على بن الحسين بن على - كرم الله وجهه - فقال: إن لى ظلامة عندك، فقال: وما ظلامتك ؟ فقال: مقامك هذا الذى أنت فيه، فقال: إنى لأعلم ذلك، ولكن لو علمت أن الناس يتركونه لك والله لتركته.

وروى عن الإمام جعفر الصادق بن محمد الباقر قال: كان العبد الصالح أبو حفص عمر بن عبد العزيز يهدى إلينا الدراهم والدنانير فى زقاق العسل؛ خوفًا من أهل بيته.

قال الكلبى: لما أفضت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز، وقدمت عليه الشعراء كما كانت تقدم على الخلفاء، فأقاموا ببابه أيامًا، لم يؤذن لهم فى الدخول، حتى قدم عدى بن أرطاة - وكانت له منه مكانة - فتعرض له جرير، وسأله أن يستأذن لهم، فقال: يا أمير المؤمنين، الشعراء ببابك لهم أيام لا يؤذن لهم، وأقوالهم نافذة وسهامهم مسمومة، فقال عمر: يا عدى، مالى وللشعراء ؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إن النبيَّ ﷺ مُدِحَ، وأعطَى، وفيه أسوة لكل مسلم، فقال: ومن مدحه ؟ قال:

العباس بن مرداس السلمى، فكساه حلة، وقال: يا بلال، اقطع لسانه عنى، قال: أتروى قوله ؟ قال: نعم، قال عمر: قل، فأنشد: [من الطويل]

رَأَيْتُكَ يا خَيْرَ البريةِ كلَّهَا بخيرِ كتابٍ جِئْتَ بالحَقِّ مُعْلِمَا
وقَرَّرْتَ بالإسلام أمرًا مدمَّسًا وأطفَأْتَ بالبرهانِ جمرًا مُضَرَّمَا
فَمَنْ مُبْلِغٌ عنى الرسُولَ محمَّدًا فكُلُّ امرئٍ يُجْزَىٰ بما قد تَكَلَّما
أقمت سَبِيلَ الحَقِّ بعد اعوجاجِهِ وكان قديمًا وَجْهُهُ قد تَجَهَّمَا
تعالَىٰ عُلوًّا فوق عَرْشِ إلٰهنا وكان جَلَالُ الله أعْلَىٰ وأعظَمَا

قال عمر: فمن بالباب من الشعراء ؟ قال عدى: يا أمير المؤمنين، عمر بن أبى ربيعة القرشى المخزومى، فقال: لا قرَّبه الله ولا حياه، أليس هو القائل: [من الطويل]

أَلاَ لَيْتَ أنى حينَ تدنُو منيتي شَمَمْتُ الذى ما بَين عينيكِ والفَمِ
وباتَتْ سُلَيْمَىٰ فى المنامِ ضجيعَتِى هُنَالِكَ أو فى جَنَّةٍ أو جَهَنَّمِ

فليته عدو الله تمناها فى الدنيا، ثم رجع إلى العمل الصالح، والله لا يدخل علىَّ، فمن بالباب غيره ؟ فقال: كثير عزة، قال: أو ليس هو القائل: [من الكامل]

رُهْبَانُ مَدْيَنَ والذين عَهِدتُّهُمْ يَبْكُونَ من حَرِّ العذابِ قُعُودا
لو يسمَعُونَ كما سَمِعْتُ كلامَهَا خَرُّوا لِعزَّةَ رُكَّعًا وسُجُودا

عَدِّ عن ذكره، من بالباب غيره ؟ قال: الأحوص الأنصارى، قال: أبعده الله وأسحقه، أليس هوالقائل، وقد أفسد على رجل جاريته، حتى أَبَقَتْ من سيدها: [من المنسرح]

أللَّهُ بَيْنِى وَبَين سَيِّدِهَا يَفِرُّ مِنِّى بِهَا وَأَتْبَعُهُ

لا يدخل على، من بالباب غيره ؟ قال: الفرزدق همام بن غالب التميمى، قال: أليس هو القائل يفتخر بالزنىٰ: [من الطويل]

هُمَا دَلَّيَانِى مِنْ ثمانينَ قَامَةً كَمَا انْقَضَّ بازٍ أَقْتَمُ الريشِ كاسِرُهْ
فَلَمَّا استَوَتْ رِجلَايَ فى الأرْضِ قالتا أَحَيٌّ يُرَجَّىٰ أم قتيلٌ نُحَاذِرُهْ ؟!

لا يدخل على، من بالباب غيره ؟ قال عدى: الأخطل التغلبى، قال: هو الكافر والقائل: [من الوافر]

وَلَسْتُ بصائمٍ رمَضَانَ عمري ولَسْتُ بآكِلٍ لَحْمَ الأضاحي

ولستُ بزَاجِرٍ جَمَلاً بكورًا إلَىٰ بطحاءِ مكَّةَ للنجاحِ
ولَسْتُ بِقَائِم كَالْعَيْرِ يَدْعُو قُبَيْلَ الصُّبْحِ: حَيَّ عَلَىٰ الفَلاَحِ
ولكنِّى سأشْرَبُهَا شمولاً وأسجُدُ عند مبتلجِ الصباحِ

والله لا وطئ لى بساطًا، من بالباب غيره ؟ قال عدى: جرير بن عطية الخطفى، قال: هو القائل: [من الكامل]

لولا مراقبَةُ العيونِ أَرَيْنَنَا جِدَقَ المَهَا وَسَوالِفَ الآرامِ
طَرَقَتْكَ صائدَةُ القلوبِ ولَيْسَ ذا وَقْتُ الزيارة فارْجِعِى بسَلامِ

فإن كان ولا بد، فائذن لجرير، فخرج عدى فأذن له، فدخل وهو يقول: [من الكامل]

وَسِعَ الخلائِقَ عَدْلُهُ ووقارُهُ حتَّى ارعَوَىٰ وأقامَ مَيْلَ المائِلِ
إنِّى لأَرْجُو مِنْكَ خَيْرًا عاجلاً فالنَّفسُ مُولَعَةٌ بحُبِّ العاجِلِ

فلما حضر بين يديه، قال له: اتق الله ولا تقل إلا حقًّا، فقال: [من البسيط]

كَمْ باليمامة مِنْ شعثاءَ أرملةٍ ومِنْ ضعيفٍ سقيمِ الصوتِ والنَّظَرِ
مِمَّنْ يَعُدُّكَ تكفى فَقْدَ والدِهِ كالفَرْخِ فى العُشِّ لم يدرُجْ ولم يَطِرِ
إنا لنَرْجُو إذا ما الغيْثُ أخلَفَنَا مِنَ الخليفةِ ما نَرْجُو من المَطَرِ
نَالَ الخلافَةَ إذْ كانَتْ له قَدَرًا كما أَتَىٰ رَبَّهُ موسَىٰ على قَدَرِ
هذى الأرامِلُ قد قَضَّيْتَ حاجتها فَمَنْ لحاجةِ هذا الأرْمَلِ الذَّكَرِ ؟!

وهى طويلة، فقال: والله يا جرير، ما ملك عمر سوى مائة درهم، يا غلام، ادفعها له، ودفع له حلى سيفه، فخرج جرير إلى الشعراء، فقالوا: ما وراءك ؟ قال: ما يسوءكم، رجل يعطى الفقراء، ويمنع الشعراء، وأنا عنه راض، وأنشأ يقول: [من الطويل]

رَأَيْتُ رُقَى الشيْطَانِ لا تستفزُّهُ وقد كَانَ شَيْطَانِى مِنَ الجِن رَاقيا

وفى الطبقاتِ لابن سعد، عن عمر بن قيس: لما ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة، سمع صوت لا ندرى قائله يقول: [من الطويل]

مِنَ الآنَ قَدْ طَابَتْ وَقَرَّ قرارُهَا عَلَىٰ عُمَرَ المَهْدِيِّ قَامَ عَمُودُهَا

وكان عمر عفيفًا زاهدًا ناسكًا عابدًا مؤمنًا ورعًا تقيًّا صادقًا، وهو أول من اتخذ

دار المضيف من الخلفاء، وأول من فرض لأبناء السبيل، وأزال ما كان بنو أمية تذكر به عليًا على المنابر، وكتب إلى الآفاق بتركه، وجعل مكان ذلك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ...﴾ الآية [النحل: ٩٠]، فامتدحه الشعراء بذلك: [من الطويل]

وَلِيتَ فَلَمْ تَشْتُمْ عليًّا ولم تُخِفْ ... بَرِيًّا ولم تتبعْ سجيَّةَ مُجْرِمِ
وقُلْتَ فَصَدَّقْتَ الذى قُلْتَ بالذي ... فعَلْتَ وأضحَىٰ راضيًا كُلُّ مسلِمِ
فما بَين شرقِ الأرضِ والغَرْبِ كلِّها ... منادٍ ينادى مِنْ فصيحٍ وأعجمِ
يقولُ: أمير المؤمنينَ ظَلَمْتَنِي ... بِأَخْذِكَ دينارى ولا أَخْذِ درهمِي
فَأَرْبِحْ بها مِنْ صفقةٍ لمبايعٍ ... وأكْرِمْ بها مِنْ بَيْعَةٍ ثمَّ أَكْرِمِ

وكتب إلى عماله ألاَّ يقيد مسجون بقيد؛ فإنه يمنع من الصلاة، وكتب - أيضًا - إلى عماله: « إذا دعتكم قدرتكم إلى ظلم الناس، فاذكروا قدرة الله عليكم، ونفاد ما تأتون إليهم، وبقاء ما يأتى إليكم من العذاب بِسَبَبِهِمْ ».

ومزاياه كثيرة، ومن أرادها، فعليه بالحلية وغيرها مما أفرد لذلك.

وكان مرضه بدير سمعان بحمص، ولما احتضر قال: إلهى، أنا الذى أمرتنى فقصرت، ونهيتنى فعصيت، ولكن لا إله إلا الله، فتوفى لخمس مضين من شهر رجب، سنة إحدى ومائة، وهو ابن تسع وثلاثين سنة وأشهر، وقيل: أربعين، مدته سنتان وخمسة أشهر وأربعة عشر يومًا، رحمه الله ورضى الله تعالى عنه وأرضاه.

ومما رثى به - رحمه الله - قول الشريف الرضيِّ الموسوى نقيب الأشراف ببغداد أبو القاسم، على بن الحسين بن موسى بن إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن موسى بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب - رضى الله تعالى عنه وعنهم - قوله فيه، وقد جرى ذكر عمر بن عبد العزيز، وما تفرد به عن أهل بيته من الصلاح والعدل وجميل السيرة، وما كان منه من قطع سب على على المنابر - رضى الله تعالى عنه، وكرم وجهه - إذ عمر بن عبد العزيز توفى بعد تمام المائة الأولى بسنة، والشريف الرضى توفى أواخر القرن الرابع، أو أول الخامس، فلم يدرك وفاته، وإنما قال هذه القصيدة لما جرى ذكره بما ذكر فقال: [من الخفيف]

يَابْنَ عَبْدِ العزيزِ لَوْ بَكَتِ العَيْـ ... ـنُ فَتًـى مِنْ أُمَيَّـةٍ لَبَكَيْتُكْ

غَيْرَ أنى أَقُولُ إنَّكَ قد طِبْـ ـتَ وَإنْ لم يَطِبْ ولم يَزْكُ بَيْتُكْ
أَنْتَ نَزَّهْتَنَا عَنِ السَّبِّ والقَذْ فِ فلو أَمْكَنَ الجَزَا لَجَزَيْتُكْ
وَلَوَ انِّى رَأَيْتُ قَبْرَكَ لاسْتَحْـ ـيَيْتُ مِنْ أن أُرَىٰ وما حَيَّيْتُكْ
وَقَلِيلٌ أَنْ لو بَذَلْتُ دِمَاءَ الـ ـبُدْنِ صِرْفًا على الثَّرَىٰ وسَقَيْتُكْ
دَيْرُ سمعانَ لا أَغبَّكَ غادٍ خَيْرُ ميتٍ من آلِ مرْوَانَ مَيْتُكْ
أَنْتَ بالذُّكْرِ بين عَيْنِى وقلبي إنْ تَدَانَيْتُ مِنْكَ يَوْمًا أَتَيْتُكْ
وإذَا حركَ الحَشَا خَاطِرٌ مِنْـ ـكَ تَوَهَّمْتُ أَنَّنِى قَدْ رَأَيْتُكْ
قَرُبَ العَدْلُ مِنْكَ لَمَّا نَأَى الجَوْ رُ بِهِمْ فاجْتَوَيْتَهُمْ وَاجْتَبَيْتُكْ
وَلَوَ انِّى مَلَكْتُ دفعًا لما نَا بَكَ مِنْ طَارِقِ الرَّدَىٰ لَفَدَيْتُكْ

رحمه الله تعالى.

خلافة يزيد بن عبد الملك[1]

ابن مروان بن الحكم أمير المؤمنين أبو خالد الأموى، ولى الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز بعهد من أخيه سليمان معقود فى تولية عمر بن عبد العزيز؛ كما ذكرناه.

وأمه عاتكة بنت يزيد بن معاوية، ولد سنة إحدى أو اثنتين وسبعين، وكان جسيمًا أبيض مدوَّر الوجه أفقم لم يشب.

وقيل لعمر بن عبد العزيز حين احتضر: اكتب ليزيد فأوصه بالأمة، فقال: بماذا أوصيه؟ إنه من بنى عبد الملك، ثم كتب:

أما بعد، فاتق الله يا يزيد، وإياك أن تدركك الصرعة بعد الغفلة حين لا تُقَال العثرة، ولا تقدر على الرجعة؛ إنك تترك ما تترك لمن لا يحمدك، وتصير إلى من لا يعذرك، والسلام.

ولما ولى يزيد، عمل بسيرة عمر بن عبد العزيز أربعين يومًا، فدخل عليه من

---

(١) ينظر ترجمته فى: شذرات الذهب ١/ ١٢٨، فوات الوفيات ٤/ ٣٢٢؛ البداية والنهاية ٩/ ٢٣١، خلاصة الذهب المسبوك ٣٠، معجم بنى أمية ٢٠١، سير أعلام النبلاء ٥/ ١٥٠، العبر ١/ ١٢٨، تاريخ الطبرى ٧/ ٢١، مروج الذهب ٣/ ٢٠٧، تاريخ اليعقوبى ٢/ ٣١٠، المعارف ٣٦٤، تاريخ خليفة ٣٣١، الكامل لابن الأثير ٥/ ١٢٠، تاريخ الإسلام الطبقة الحادية عشرة ص ٢٧٩ .

الذين أضلَّهم الله على علم أَرْبَعُونَ نفرًا من الشيوخ من أهل دمشق، وحلفوا له بالله ما على الملك من سؤال ولا عذاب فى لَذَّات نفسه؛ لأنه مشتغل بأمور الناس- نعوذ بالله مما سيلقى الظالمون من شديد العذاب الأليم! وخدعوه بذلك، فانخدع لهم، وكان كلامهم موافقًا لهواه، فانهمك فى اللذات واللهو والطرب، ولم يراقب الله، ولم يخشه.

وروى أن ابن شهاب عبد الله بن مسلم الزهرى، دخل عليه، فقال له يزيد: ههنا حديث حدَّثنا به أهل الشام، فقال: وما هو يا أمير المؤمنين ؟ قال: حدثوا أن الله تعالى إذا استرعى عبدًا عباده، كتب له الحسنات، ولم يكتب عليه السيئات ؟ فقال ابن شهاب: كذبوا يا أمير المؤمنين، أنبى خليفةٌ أقرب عند الله أم خليفة غير نبى ؟ فقال: بل نبىٌ خليفة أقرب، قال: أحدثُكَ بما لا تشكُّ فيه، قال الله تعالى: ﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ... ﴾ الآية [ص: ٢٦]، يا أمير المؤمنين، هذا فى حق خليفة نبى، فما ظنك بخليفة غير نبى ؟!

يحكى عن مؤدب يزيد هذا؛ أنه قال له فى صغره وقت تعلمه، وقد لحن: لم لحنت ؟ فقال: الجواد قد يعثر، فقال له المؤدب: إى والله، ويضرب حتى يستقيم، فقال يزيد: وربما يرمح سائسه، فيكسر أنفه(١).

وفى تاريخ ابن عساكر: ذكر أن يزيد بن عبد الملك كان قد اشترى فى أيام أخيه سليمان بن عبد الملك جاريةً من عثمان بن سهل بن حنيف الأنصارى بأربعة آلاف دينار، وكان اسمها حَبَّابة - بتشديد الباء الأولى- وأحبها حبًّا شديدًا، فبلغ أخاه سليمان ذلك، فقال: لقد هممت أن أحجر على يزيد، فبلغ ذلك يزيد، فباعها؛ خوفًا من أخيه سليمان، فلما أفضت الخلافة إليه بعد سليمان، قالت له زوجته: يا أمير المؤمنين، هل بقى فى نفسك من الدنيا شيء ؟ قال: نعم، قالت: ما هو ؟ قال: حَبَّابة، فاشترتها له وهو لا يعلم، وزينَتْهَا وأجلستها من وراء الستر، ثم قالت له: يا أمير المؤمنين، هل بقى فى نفسك من الدنيا شيء ؟ قال لها: أوما أعلمتك أنها حبابة، فرفعت الستر، وقالت: ها أنت وحَبَّابة، وتركته وإياها، فحظيت عنده وغلبت على عقله، ولم ينتفع به فى الخلافة.

---

(١) ويروى هذا أيضًا عن يزيد بن معاوية وقد تقدم .

وأنه قال يومًا: بعض الناس يقولون: إنه لن يصفو لأحد من الملوك يوم كاملٌ من الدهر، وإنى أريد أن أكذبهم فى ذلك، وأقبل على لذَّاته واختلَىٰ مع حبابة، وأمر أن يحجب عن سمعه وبصره كل خبر يُكْرَهُ، فبينما هو فى تلك الحال فى صفو عيش وزيادة فرح وسرور، إذ تناولت حَبَّابة حَبَّة رمان، وهى تضحك، فغصَّتْ بها، فماتت، فاختلَّ عقل يزيد، وتكدر عيشه، وذهب سروره، ووجد عليها وجدًا شديدًا، وتركها أيامًا لم يدفنها، بل يقبِّلها ويرتشفها حتى أنتنت، وجافت، فأمر بدفنها، ثم نبشها من قبرها، فلم يعشْ بعدها إلا خمسة عشر يومًا، وكان مرضه بالسُّلِّ، ومما قال فيها: [من الطويل]

فَإِنْ تَسْلُ عنكِ النَّفْسُ أَوْ تَدَعِ الهَوَىٰ ... فباليَأْسِ تَسْلُو عَنْكِ لا بالتَّجَلُّدِ
وَكُلُّ خلِيلٍ زَارَنِى فَهْوَ قَائِلٌ ... مِنَ اجلِكِ هَذَا هَامَة اليَوْم أَوْ غَدِ[1]

قال أبو مسهر: مات يزيد بأربد بمرض السُّل، وقال غيره: مات لخمس بقين من شعبان، سنة خمس ومائة، وكانت خلافته أربع سنين وشهرًا، عمره خمس وأربعون، وقيل: تسع وعشرون[2].

خلافة هشام بن عبد الملك[3]

كان ذا دهاء وحزم، وفيه حلم وتدبير لأحوال المملكة، ونظر لأحوال الرعية، وقلة شَرَهٍ، وكان مجتنبًا لسفك الدماء؛ لكنه قتل الإمام زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب، وكفَى بقتله سفكًا للدماء.

قام بتدبير المملكة أتم قيام، وكان يجمع الأموال ويوصف بالبخل والحرص، يقال: إنه جمع من الأموال ما لم يجمعه خليفة قبله، فلما مات احتاط الوليد بن يزيد على ما تركه وأمر الخزان، فغلقوا الخزائن، وما كفنه إلا مملوك من مماليكه.

(١) ينظر: تاريخ الإسلام الطبقة الحادية عشرة، وسير أعلام النبلاء (٥/ ١٥٠ - ١٥١).
(٢) ينظر: تاريخ الإسلام، الطبقة الحادية عشرة.
(٣) ينظر ترجمته فى: شذرات الذهب ١/ ١٦٣، مرآة الجنان ١/ ٢٦١، تنبيه الطالب ١/ ٦٠٧، تاريخ الخلفاء ٣٤٧، فوات الوفيات ٤/ ٢٣٨، خلاصة الذهب المسبوك ٢٦، نسب قريش ١٦٧، سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٥١، الكامل لابن الأثير ٥/ ٩٦، الطبرى ٧/ ٢٠٠، اليعقوبى ٣/ ٥٧، ابن خلدون ٣/ ٨٠، المسعودى ٣/ ٢١٦، الأعلام ٨/ ٨٦، مختصر تاريخ العرب لسيد أمير على ١١٨ - ١٣٥، تاريخ الإسلام للذهبى الطبقة الثالثة عشرة ص ٢٨٢ . ، تاريخ الخميس ٢/ ٣١٨ .

وكان هشام أحول العين، حُكِيَ أنه خرج يومًا فلقى رجلاً أعور، فأمر بضربه وحبسه، فقال له الأعور: ما ذنبى ؟ فقال هشام: تشاءمتُ بك، فقال الأعور: شؤم الأعور على نفسه، وشؤم الأحول على غيره؛ ألا ترى أنى استقبلتك فلم يصبك منى شيء، وأنت استقبلتنى فنالنى منك السوء ؟ فخجل هشام ووصله.

وقيل: عرض هشام الجند بحمص، فمر به رجل من أهل حمص، وهو على فرس نفور، فقال هشام: ما حملك على أن تركب فرسًا نفورًا ؟ فقال الحمصى: لا والله يا أمير المؤمنين، ليس بنفور، ولكنه أبصر حولتك، فظن أنك عزون البيطار، فنفر، فقال هشام: تنح؛ عليك وعلى فرسك لعنة الله، وكان عزون البيطار رجلاً أحول.

حكى الزبير بن بكار: قال هشام لأبى النجم الفضل بن قدامة العجلى: صف لى إبلاً، قال أبو النجم: فذهب بى الروى إلى أن قلت: [من الرجز]

وَصَارَتِ الشَّمْسُ كَعَيـنِ الأَحْـوَلِ

فغضب هشام، فقال: أخرجوا هذا، ثم بعد مدة أدخلت عليه، فقال: هل لك أهل ؟ قلت: نعم، وابنتان، قال: زوجتهما ؟ قلت: إحداهما، قال: فما أوصيتها ؟ قلت: [من الرجز]

أَوْصَيْتُ مِنْ بَرَّةَ قَلْبًا حُرًّا بِالكَلْبِ خَيْرًا والحمَاةِ شَرًّا
لاَ تَسْأمِى خَنْقًا لَهَا وَجرًّا وَالحَيَّ عمَّيهِمْ بِشَرٍّ طُرًّا
وإنْ حَبَوْكِ ذَهَبًا وَدُرًّا حَتَّىٰ يَرَوْا حُلْوَ الحياةِ مُرًّا

فضحك هشام، واستلقى، وقال: ما هذه وصية يعقوب بنيه، قلت: يا أمير المؤمنين، ولا أنا مثل يعقوب، عليه السلام، قال: فما زدتها ؟ قلت: [من الرجز]

سُبِّى الحمَاةَ وَابْهَتِى عَلَيْهَا وإنْ نَأَتْ فَأزلفِى إليها
واقرعِى بِالوُدِّ مِرْفَقَيْهَا مظاهر اليد بِهِ عليها

قال: فما فعلت أختها ؟ قلت: درجت بين أبيات الحى، فنفعتنا، قال: فما قلتَ فيها ؟ قال: قلت: [من السريع أو الرجز]

كَأَنَّ ظَلاَّمَة أَخْتَ شَيْبَانْ يتيمَةٌ وَوَالِدَاهَا حَيَّانْ
أَلرَّأْسُ قَمْلٌ كُلُّهُ وَصُؤْبَانْ وَلَيْسَ فِى الرِّجْلَينِ إلا خَيْطَانْ

فَهْيَ الَّتِى يَذْعَرُ منها الشَّيْطَانْ

فوصلنى هشام بدنانير، وقال: اجعلها فى رجلى ظلامة، وهذا أبو النجم هو القائل: [من الرجز]

أَنَا أَبُو النَّجْمِ وَشِعْرِي شِعْرِي

ومن العقد لابن عبد ربه[١]: كان الكميت الشاعر المشهور مادِح أهل البيت يمدح بنى هاشم، ويعرِّضُ ببنى أمية، فطلبه هشام بن عبد الملك، فهرب عنه، فكان مطردًا عشرين سنة لا يستقرُّ له قرار؛ خوفًا من هشام، وكان مسلمة بن عبد الملك أخو هشام له حاجة على هشام يقضيها له كل سنة، ولا يرده فيها كائنةً ما كانت، فخرج مسلمة إلى بعض حروبه، ثم أتى، فأتاه الناس يسلمون عليه، وأتاه من جملتهم الكميت بن زيد، فقال: السلام عليك أيها الأمير، أما بعد: [من مجزوء الكامل]

... ... قِفْ بِالدِّيَارِ وُقُوفَ زَائِرْ

حتى انتهى إلى قوله:

يَا مُسْلِمٌ يَا بْنَ الوَلِيـ د لميِّت إنْ شِئْتَ نَاشِرْ
عَلِقَتْ حبالِى مِنْ حِبَا لِكَ ذِمَّةَ الرَّجُلِ المُجَاوِرْ
فَالآنَ صِرْتُ إِلَىٰ أُمَيـ يَةَ وَالأُمُورُ لَهَا مَصَايِرْ
وَالآن كُنْت بِهِ المصيـ ب لمهتدِ بالأَمْسِ حَائِرْ

فقال مسلمة: سبحان الله، من هذا [الهندكي الجلحاب الذي أقبل][٢] من أخريات الناس، فبدأ بالسلام، ثم أما بعد، ثم الشعر ؟ قيل له: الكميت، فأعجب به وبفصاحته، فذكر له الكميت بعد أن تَمَّ إنشاده رعبه من هشام، وطول تشرده، فضمن له مسلمة أمانه، وتوجَّه حتى أدخله على هشام، وهو لا يعرفه، فقال الكميت: السلام عليك يا أمير المؤمنين، الحمد لله، فقال هشام: نعم، الحمد لله يا هذا، فقال الكميت مبتدئ الحمد ومبتدعه، واستمر فى خطبة طويلة بديعة فيها

(١) ينظر: العقد الفريد ٢/ ٥٦ .
(٢) فى ط: الهيلمانى الخلجان الذى بدا. المثبت من العقد الفريد، والهندكى الجلحاب: الهندى الشيخ الكبير .

قوله: « تهت فى حيرة، وحرت فى سكرة، ادلأَمَّ بى خَطَرُهَا، وأهاب بى داعيها، فأجابنى غاويها، [فاقطوطيت إلى الضلالة][١] وتسكعت فى الظلمة والجهالة، جائرًا عن الحق، قائلاً بغير الصدق، فهذا مقام العائذ، ومنطق التائب اللائذ، ومصير الهداية بعد العمى، يا أمير المؤمنين، كم من عاثر أَقَلتُم عثرته، ومجترم عفوتم عن جرمه. . . إلى آخر ما قال، فقال هشام: ويحك مَنْ سَنَّ لك الغواية، وأهاب بك فى الغيابة ؟! فقال الكميت: الذى أخرج أبى من الجنة، فَنَسِى ولم يجد له عزمًا، وهو مترصد لبنيه، فعفا عنه هشام.

وفى ربيع الأبرار: تنسب إلى الفرزدق مكرمة يُرجَىٰ له بها الجنة، هى أنه لما حج هشام بن عبد الملك فى أيام أبيه، مدحه الفرزدق، فلما طاف بالبيت، جهد أن يصل إلى الحجر الأسود ليستلمه، فلم يقدر على ذلك؛ لكثرة الزحام، فنصب له كرسى، وجلس عليه ينظر إلى الناس، ومعه جماعة من أعيان أهل الشام، فبينما هو كذلك إذ أقبل زين العابدين بن على بن الحسين، وكان من أجمل الناس وجهًا، وأطيبهم أرجًا، وبين عينيه سجدة، فلما انتهى إلى الحجر تنحَّىٰ عنه الناس هيبةً وإجلالاً حتى استلم الحجر، فغاظ ذلك هشامًا، فقال له رجل من أهل الشام: من هذا الذى هابه الناس هذه الهيبَةَ ؟! فقال هشام: لا أعرفه؛ مخافة أن يرغَبَ فيه أهل الشام، وكان الفرزدق حاضرًا، فقال: أنا أعرفه، فقال الشامى: مَنْ هو، يا أبا فراس ؟ قال:

[من البسيط]

هَذَا ابْنُ خَيْرِ عِبادِ اللَّهِ كُلِّهِمُ ... هَذَا التَّقِيُّ النَّقِيُّ الطَّاهِرُ العَلَمُ

هَذَا الذى تَعْرِفُ البطحَاءُ وَطْأَتَهُ ... والبيتُ يَعْرِفُهُ والرُّكْنُ والحَرَمُ

إذا رَأَتْهُ قريشٌ قَالَ قائلُهَا: ... إلى مكارِمِ هذا يَنْتَهِى الكَرَمُ

يَنْمِى إلى ذِرْوةِ العزِّ التى قَصُرَتْ ... عَنْ نَيْلِها عَرَبُ الإسلامِ والعَجَمُ

يكادُ يُمْسِكُهُ عرفانَ راحَتِهِ ... رُكْنُ الحَطِيمِ إذا ما جَاءَ يَسْتَلِمُ

فى كَفِّهِ خَيْزُرَانٌ ريحُهُ عبقٌ ... مِنْ كَفِّ أَرْوَعَ فى عِرْنينه شَمَمُ

يُغْضِى حياءً ويُغْضَىٰ مِنْ مَهَابَتِهِ ... فَمَا يُكَلَّمُ إلاَّ حينَ يَبْتَسِمُ

---

(١) فى ط: فامطرطأت. والمثبت من العقد الفريد. واقطوطيت: يقال: اقطوطى الرجل فى سيره: أى: قارب فى مشيه مع سرعة . ينظر القاموس (قطو)

يَنشَقُّ نُورُ الهُدَىٰ مِنْ نُورِ غُرَّتِهِ ... كالشَّمْسِ تنجَابُ عَنْ إشراقها الظُّلَمُ
مُنْشقةٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ نَبْعَتُهُ ... طَابَتْ عَنَاصِرُهُ والْخيمُ والشِّيَمُ
هذا ابن فاطمةٍ إنْ كُنْتَ تَجهَلُهُ ... بِجَدِّهِ أنبياءُ اللَّهِ قد خُتِمُوا
أَللَّهُ شَرَّفَهُ قِدْمًا وعَظَّمَهُ ... جَرىٰ بذاك له فى لَوْحِهِ القَلَمُ
ولَيْسَ قولُكَ: مَنْ هذا ؟ بضائرِهِ ... ألعُرْبُ تعرفُ مَنْ أنكَرْتَ والعَجَمُ
كِلْتَا يَديْهِ غِيَاثٌ عَمَّ نَفْعُهُمَا ... يَسْتَوكِفَانِ ولا يَعْرُوهُما العَدَمُ
سَهْلُ الخليقةِ لا تُخْشَىٰ بوادِرُهُ ... يَزِينُهُ اثنانِ: حُسْنُ الخُلْقِ والشِّيَمُ
حَمَّالُ أثقالِ أقوامٍ إذا فدحوا ... حلْوُ الشمائِلِ تَحْلُو عنده النِّعَمُ
ما قال لا قَطُّ إلاَّ فى تَشهُّدِهِ ... لَوْلاَ التَّشَهُّدُ كانَتْ لاؤهُ نَعَمُ
عَمَّ البريَّةَ بالإحسانِ فانقَشَعَتْ ... عنها الغَيَابَةُ والإملاقُ والعَدَمُ
مِنْ مَعْشَرٍ حُبُّهُمْ دِينٌ وبغضُهُمْ ... كُفْرٌ وقُرْبُهُمْ مَنْجًى ومُعْتَصَمُ
إنْ عُدَّ أهلُ التُّقَىٰ كانوا أئِمتَهُمْ ... أو قِيلَ: مَنْ خَيْرُ أهلِ الأرضِ؟ قِيلَ: هُمُ
لا يستطيعُ جَوَادٌ بُعْدَ غايتِهم ... ولا يُدَانيهِمُ قَوْمٌ وإنْ كَرمُوا
هم الغُيُوثُ إذا ما أزمةٌ أَزَمَتْ ... والأُسْدُ أُسْدُ الشَّرَىٰ إيَّاكَ تحتذمُ
لا يَنْقصُ العُسْرُ بَسْطًا من أكُفِّهِمُ ... سِيَّان ذلك إن أثرَوا وإنْ عدمُوا
مُقَدَّمٌ بَعْدَ ذِكْرِ الله ذِكْرُهُمُ ... فى كُلِّ بَدْءٍ ومختوم به الحكمُ
أَيُّ الخلائِقِ ليسَتْ فى رِقَابِهِمُ ... لِأوليَّةِ هذا أو له نعمُ
مَنْ يَعْرِفِ اللهَ يَعْرِفْ أَوَّلِيَّةَ ذا ... فَالدِّينُ مِنْ بَيْتِ هَذَا نَالَهُ الأُمَمُ

فغضب هشام، وقال للفرزدق: أو رافضيٌّ أنت يا فرزدق ؟ فقال: إن كان حُبُّ آل البيت رفضًا فنعم، فحرمه هشام جائزته، فتحمَّل عليه الفرزدق بأهل بيته، فأبىٰ أن يعطيه شيئًا، فقال له عبد الله بن جعفر بن أبى طالب: كم كنتَ تؤمل أن يعطيك هشام ؟ فقال الفرزدق: ألف دينار فى كل سنة، قال: فكم تؤمل أن تعيش ؟ قال: أربعين سنة، قال: يا غلام، عليَّ بالوكيل، فدعاه، فقال: أعط الفرزدق أربعين ألف دينار، فقبضها منه، ثم أمر هشام بحبس الفرزدق، فحبس، فأنفذ إليه على زين العابدين اثنى عشر ألف درهم، وقال: هذا عاجل برِّنا ولك المزيد، فردَّها الفرزدق، وقال: مدحته لله لا للعطاء، فأرسل إليه زين العابدين، وقال له: إنا أهل بيت إذا

وهبنا شيئًا لا نستعيده، والله تعالى عالم بنيتك ومُثيبك عليها، فشكر الله لك سعيك، فلما بلغته الرسالة قبلها، وكان حبس هشام للفرزدق بعسفان بين مكة والمدينة؛ ففى ذلك يقول الفرزدق: [من الطويل]

أَتَحْبِسُنِى بَين الـمَدِينَةِ والتي إِلَيْهَا رقابُ النَّاسِ يَهْوى مُنِيبُهَا ؟!
يُقَلِّبُ رَأْسًا لم يكُنْ رَأْسَ سيِّدٍ وَعَيْنًا له حَوْلاَءَ بَادٍ عُيُوبُـهَا

قال مصعب الزبيرى: زعموا أن عبد الملك رأى فى المنام كأنه بال فى محرابه ﷺ أربع مرات، فدسَّ إلى سعيد بن المسيب من يسأله تعبير ذلك ؟ فقال: يملك من صُلْبِ هذا الرائى أربعة، وكانوا كذلك: الوليد بن عبد الملك، يزيد بن عبد الملك، سليمان بن عبد الملك، وهشام بن عبد الملك وهو آخرهم، توفى ثانى عشر ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة؛ وعمره أربع وخمسون سنة وثلاثة أشهر وثمانية أيام، خلافته تسع عشرة سنة وثمانية أشهر وسبعة عشرة يومًا.

قال الصفدى[1] فى تذكرته: من أولاد هشام: سعيد بن هشام بن عبد الملك بن مروان، كان منهمكًا فى لذات الدنيا مغرًى بحب النساء، وفيه يقول القائل مخاطبًا أباه هشامًا: [من البسيط]

أَبْلِغْ هِشَامًا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَدْ أَغـظْـتَـنَـا بـأمـيـرِ غَـيْـرِ عِـنِّـيـنِ
طَوْرًا يشارِكُ هذا فِى حَلِيلَتِهِ وتـارَةً لا يُرَاعِى حُرْمَةَ الدِّينِ

قال: فحبسه أبوه هشام، فقال أبو محمد السلمى، وكان هذا السلمى فى حبس هشام: إن سعيدًا كان فى بيت علَىَّ حِدَة، وكنت أسمع من بيته صوت العود، فخرجت يومًا إليه، فإذا هو قد أخذ جفنة فنقبها، وعلق فيها أوتارًا، فقلت: ويحك على هذه الحال، تفعل هذا ! فقال: لا أبا لك لولا هذا متنا غمًّا، وهو القائل: [من الرجز]

أَرْسَلْتُ كَلْبِى طالبًا ما يأكُلُهْ مَـنِ الَّـذِى يَـرُدُّهُ أو يَـجْـهَـلُـهْ

وبلغ أباه هشامًا ما صنعه، فأمر بإخراجه، وقال له: لعنك الله، أفسقًا كفسق العوامِّ، هلا فسقًا كفسق الملوك ؟ فقال له ابنه: وهل للملوك فِسْقٌ يمتازون به ؟! قال: نعم، قال: وما هو ؟! قال أن تحيي هذا، وتقتل هذا، وتأخذ مال هذا، فتعطيه

---

(١) ينظر: تاريخ الصفدى «الوافى بالوفيات» ١٥/ ٢٦٩ - ٢٧٠ .

هذا، ومن شعر سعيد هذا قوله: [من الرمل]

آلُ مَرْوَانَ أَرَاهُمْ فِى عَمَى غضب العَيْش عليهِمْ وَالفَرَحْ
كُلُّهم يَسْعَىٰ لما يُتْعِبُهُ وأنا أَسْعَىٰ لِأُنْسٍ وَقَدَحْ

وفى درة الغواص: قال حماد الراوية: كان انقطاعى إلى يزيد بن عبد الملك فى خلافته، وكان أخوه هشام يحسدني لذلك، فلما مات يزيد وولى هشام، خفته، ومكثت فى بيتى سنة لا أخرج إلاَّ إلى من أثق به من إخوانى سرًا، فلما لم أسمع أحدًا يذكرنى فى السنة أمنت، فخرجتُ يومًا أصلى الجمعة فى مسجد الرصافة، فإذا بشرطيين واقفين عليَّ، وقالا: يا حماد، أجب الأمير يوسف بن عمر الثقفى - وكان واليًا على العراق لهشام بن عبد الملك - فاستسلمت فى أيديهما، ثم صرت إلى يوسف بن عمر، وهو فى الإيوان الأحمر، فسلمت، فرد على السلام، ورَمَى إلى كتابًا فيه: « بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله هشام بن عبد الملك أمير المؤمنين، إلى يوسف بن عمر الثقفيّ، أَمَّا بعد، إذا قرأت كتابى هذا، فابعث إلى حماد الراوية من يأتيك به من غير ترويع ولا تتعتع، وادفع له خمسمائة دينارٍ وجملاً مهريًا يسير عليه اثنتى عشرة ليلة إلى دمشق »، فأخذت الدنانير، ونظرت فإذا جمل مرحول، فركبت ووضعت رجلى فى الغرز، وسرت حتى وافيت دمشق فى اثنتى عشرة ليلة.

فنزلْتُ على باب هشام، فاستأذنت، فأذن لى، فدخلت إليه فى دارٍ قوراءَ مفروشة بالرخام، وبين كل رخامتين قضيب ذهب، وهشام جالس على طنفسة حمراء، وعليه ثياب حمر من الخز، وقد تضمخ بالمسك والعنبر، فسلمت فردَّ على السلام واستدنانى فدنوْتُ حتى قبلت رجله، فإذا جاريتان لم أر مثلهما قطُّ فى أذن كل منهما حلقتان فيهما لؤلؤتان تتقدان، فقال: كيف أنت يا حماد ؟ فقلت: بخير يا أمير المؤمنين، فقال: أتدرى، لم بعثت إليك ؟ قلت: لا، قال: بعثت إليك بسبب بيت خطر ببالى، ولاأعرفه لمن، قلت: وما هو ؟ قال: [من الخفيف]

وَدَعَوْا بِالصَّبُوحِ يَوْمًا فجاءَتْ قَيْنَةٌ فى يَمِينِهَا إِبْرِيقُ

فقلت: يقوله عدى بن زيد العبادى من قصيدة، فقال: أنشدنيها، فأنشدته: [من الخفيف]

بَكَرَ العاذلُونَ فى وَضَحِ الصُّبْـ ـحِ يقولُونَ لى أَلاَ تَسْتَفِيقُ
وَيَلُومُونَ فِيك يابنةَ عَبْدِ الـ ـلهِ والقَلْبُ عندكُمْ موثُوقُ

لَسْتُ أدرى إذْ أَكْثَرُوا العَذلَ فيها ... أَعَـدُوٌّ يـلـومُـنِـى أمْ صَـدِيـقُ ؟

قال حماد: فأنشدته حتى انتهيت إلى قوله: [من الخفيف]

وَدَعَوْا بالصَّبُوحِ يومًا فجاءَتْ ... قَـيْـنَـةٌ فـى يَـمِـيـنِـهـا إبْـرِيـقُ

قَدَّمَتْهُ على عقارٍ كَعَيْنِ الدْ ... دِيكِ صَفَّى سلافَها الرَّاووقُ

مُـرَّةٌ قَـبْـلَ مَـزجِـهـا فـإذا مـا ... مُزِجَتْ لَذَّ طَعْمهَا مَنْ يَذُوقُ

وطـفـا فَـوْقَـهَـا فـقـاقـيـعُ كَـالـيَـا ... قُـوتِ حُـمْـرٌ يَـزِيـنُـهَـا التصفيـقُ

ثـمَّ كـان الـمـزَاجُ مـاءَ سَـحَـابٍ ... لا صَـرِى آجِـنٌ ولا مَـطْـرُوقُ

فطرب هشام، وقال: أحسنت يا حماد والله، ثم قال: يا حماد، سل حاجتك، فقلت: إحدى هاتين الجاريتين، ثم ذهبت، فلم أعقل حين أصبحت إلا والجاريتان عند رأسى، وإذا عشرة من الخدم مع كل واحد بدرة فيها عشرة آلاف درهم، فقال أحدهم: إن أمير المؤمنين يقرئك السلام، ويقول: خذ هذا، فانتفع به فى سفرك، فأخذت ذلك والجاريتين وعدت إلى أهلى.

خلافة الوليد بن يزيد(١)

لما توفى هشام بالرصافة، ولى بعده الوليد ابن أخيه يزيد، وكان متلاعبًا، وله مجون وشراب وندمان، وأراد هشام خلعه فلم يمكنه، وكان يضرب من يؤخذ فى صحبته، فخرج الوليد فى خاصته ومواليه، وخلف كاتبه عياض بن مسلم؛ ليكاتبه بالأحوال، فضربه هشام وحبسه. ولم يزل الوليد مقيمًا فى البرية حتى مات هشام، وجاءه مولى أبى محمد السفيانى على البريد بكتاب سالم بن عبد الرحمن صاحب ديوان الرسائل بالخبر، فسأل عن كاتبه عياض فقال: إنه لم يزل محبوسًا حتى مات هشام، فأرسل إلى الخزان أن يحتفظوا بما فى أيديهم حتى منعوا هشامًا من كفن، ثم خرج عياض بعد موت هشام من الحبس، وكتب أبواب الخزائن، ثم كتب الوليد من وقته إلى عمه العباس بن عبد الملك أن يأتى الرصافة فَيُحْصِى ما فيها من أموال هشام

---

(١) ينظر ترجمته فى: تاريخ الكامل لابن الأثير ٥/ ٢٦٤، تاريخ ابن خلدون ٣/ ١٠٦، الوزراء والكتاب ٦٨، تاريخ الخميس ٢/ ٣٢٠، خزانة الأدب ١/ ٣٢٨، تاريخ اليعقوبى ٣/ ٧١، تاريخ الطبرى ٧/ ٢٠٩، مروج الذهب ٣/ ٢٢٤، سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٧٠، تاريخ الإسلام الطبقة الثالثة عشرة ص ٢٨٧، نسب قريش ١٦٧ .

وولده وماله وحشمه، إلا مسلمة بن هشام، فإنه كان يراجع أباه هشامًا بالرفق بالوليد، فانتهى لما أمره به الوليد، ثم استعمل الوليد العمال، وكتب إلى الآفاق بأخذ البيعة، فجاءته بيعتهم، وكتب مروان بيعته، واستأذن فى القدوم، ثم عهد الوليد من سنته لابنيه الحكم وعثمان بعده، وجعلهما ولى عهده، وكتب بذلك إلى العراق وخراسان.

قال الذهبى[١]: كان أبوه يزيد بن عبد الملك حين احتضر، عهد بالأمر إلى هشام ابن عبد الملك وأخيه بأن يكون العهد من بعده لولده الوليد بن يزيد، فلما مات هشام، بويع له بالخلافة يوم موت عمه هشام، وهو إذ ذاك بالبرية فارًا من عمه هشام؛ لأنه كان بينه وبين عمه هشام منافسة؛ لأجل استخفافه بالدين، وشربه الخمر، واشتهاره بالفسق والفجور، فهمَّ هشام بقتله ففرَّ وصار لا يقيم بأرض خوفًا من هشام، فلما كان الليلة التى قدم عليه البريد فى صبحها بالخلافة، قلق تلك الليلة قلقًا شديدًا، فقال لبعض أصحابه: ويحك قد أخذنى الليلة قلق، فاركَبْ بنا حتى نتبسط، فسار مقدار ميلين، وهما يتحادثان فى أمر هشام، وما يكتب إليه من التهديد والوعيد، ثم نظرا فرأيا فى البعد رهجًا وصوتًا، فقالا: اللهم، أعطنا خيرهم، فلما قدم البريد، وأثبتوا الوليد معرفة، ترجلوا وجاءوا فسلموا عليه بالخلافة، فبهت، ثم قال: ويحكم أمات هشام ؟ قالوا: نعم، ثم أعطوه الكتب فقرأها. وسار مِنْ فوره إلى دمشق، فأقام على اشتهاره بالمنكرات، وتظاهر بالكفر والزندقة.

قال ابن عساكر وغيره[٢]: انهمك الوليد فى شرب الخمر ولذاته ورفَض الآخرة وراء ظهره، وأقبل على القصف واللهو والتلذذ مع الندماء والمغنين، وكان يضرب بالعود، ويوقع بالطبل، ويمشي بالدف، وكان قد انتهك محارم الله حتى قيل له: الفاسق، وعرف بذلك، ومع هذا: كان أكمل بنى أمية أدبًا وفصاحَة وظرفًا وأعرفهم باللغة والنحو والحديث، وكان جوادًا مفضالاً، ولم يكن فى بنى أمية أكثر منه إدمانًا للشراب والسماع، ولا أشد مجونًا وتهتكًا منه، واستخفافًا بالدين وأمر الأمة، يقال: إنه واقع جارية وهو سكران وجاءه المؤذنون يؤذنونه بالصلاة، فحلف ألاَّ يصلى

(١) ينظر: سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٧١، وتاريخ الإسلام الطبقة الثالثة عشرة ص ٢٨٩ .
(٢) ينظر: تاريخ ابن عساكر ١٧/ ٤٦١ .

بالناس إلا هى، فلبست ثيابه وصلَّتْ بالمسلمين، وهى جنب سكرَىٰ، وقيل: إنه صنع بركة، فملأها خمرًا، وكان إذا طرب، ألقى نفسه فيها ويشرب منها حتى يظهر النقص فى أطرافها.

وحكى الماوردى فى كتاب أدب الدين والدنيا، عنه: أنَّه تفاءل ذات يوم فى المصحف، فخرج له قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ [إبراهيم: ١٥]، فأمر بالمصحف فنصب ورماه بالسهام حتى مزقه، وهو يقول: [من الوافر]

أَتُـوعِـدُ كُـلَّ جَـبَّـارٍ عَـنِـيـدٍ فَـهَـا أَنَـا ذَاكَ جَـبَـارٌ عَـنِـيـدُ
إذا مَا جِئْتَ رَبَّكَ يَوْمَ حشْرٍ فقُلْ يا ربِّ مَزَّقَنِى الـوَلِـيـدُ

وقد جاء فى الحديث: « يكون فى هذه الأمة رجل يقال له الوليد هو شر من فرعون »[1]، فتأوله العلماء بالوليد بن يزيد هذا، فخلعه أهل دمشق لما ذكر، وقتله يزيد ابن عمه الوليد فى جمادى الآخرة سنة ست وعشرين ومائة، وكانت خلافته سنة واحدة.

قال العلامة ابن خلدون: ولقد ساءت المقالة فيه كثيرًا، وكثير من الناس نفوا عنه ذلك، وقالوا: إنها شناعات الأعداء ألصقوها به.

قال المدائنى: دخل ابنه المعمر بن يزيد على الرشيد هارون، فسأله: ممن أنت ؟ فقال: من قريشٍ، فقال الرشيد: من أيها ؟ فسكت ووجم، فقال له الرشيد: قل، وأنت آمن، ولو أنك مروان، فقال: أنا المعمر بن يزيد، فقال: رحم الله عمك، ولعن يزيد الناقص، فإنه قتل خليفة هو مجمع عليه؛ ارفع حوائجك، فرفعها إليه وقضاها.

وقال شبيب بن شبة: كنا جلوسًا عند المهدى، وذكر الوليد، فقال المهدى: كان زنديقًا، فقام ابن علاثة الفقيه فقال: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى أعدل من أن يولى

---

(١) أخرجه أحمد فى «المسند» (١/ ١٨) وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده ضعيف لانقطاعه فسعيد بن المسيب لم يدرك عمر إلا صغيرًا فروايته عنه مرسلاً .
والحديث أخرجه أيضا ابن الجوزى فى الموضوعات رقم (٣٣٠) وتعقبه الحافظ ابن حجر فى القول المسدد (ص ٤) وكذا السيوطى فى اللآلئ (١/ ١٠٦ - ١١٠) بما يخرجه عن حد الوضع، وينظر تنزيه الشريعة (١/ ١٩٨ - ١٩٩) والتعقبات على الموضوعات (ص ٣٧) .

خلافة النبوة، وأمر الأمة زنديقًا؛ إنه أخبرنى عنه من كان يشهده فى ملاعبه وشربه بمروءة فى طهارته وصلاته، فكان إذا حضرت الصلاة، يطرح الثياب التى عليه المطيَّبة المصبغة، ثم يتوضَّأ فيحسن الوضوء، ويؤتى بثياب بيض نظيفة، فيلبسها ويصلى فيها، فإذا فرغ، عاد إلى تلك الثياب فلبسها واشتغل بشربه ولهوه؛ أترى هذا من فعال من لا يؤمن بالله ؟! فقال له المهدى: بارك الله فيك يا بن علاثة، وإنما كان الرجل محسدًا فى خلاله، ومزاحمًا بكبار عشيرته، وأهل بيته من عمومته، مع لهو كان يصاحبه أوجَدَ لهم السبيل على نفسه، فكان من خلاله قرض الشعر الوثيق، ونظم الكلام البليغ.

قال يومًا لهشام يغريه فى مسلمة: إن عقبى من بقى لخوف من مضى، وقد أمكن بعد مسلمة الصيد لمن رمى، واختل الثغر فهوى، وعلى أثر من سلف يمضى من خلف، فتزودوا؛ فإن خير الزاد التقوى. فأعرض هشام وسكت القوم.

وأما حكاية مقتله: فإنه لما تعرض له بنو عمه، ونالوا من عرضه، أخذ فى مكافأتهم، فضرب سليمان ابن عمه هشام مائة سوط، وحلقه وغربه إلى معان من أرض الشام، فحبسه إلى آخر دولته، وحبس أخاه يزيد بن هشام، وفرق بين روح بن الوليد وبين امرأته، وحبس عدة من ولد الوليد، وطعنوا عليه فى تولية ابنيه الحكم وعثمان العهد مع صغرهما، وكان أشد الناس عليه يزيد بن الوليد؛ لأنه يتنسك؛ فكان الناس إلى قوله أميل؛ فخرج عليه يزيد بن الوليد المذكور الملقب بالناقص، وتغلب على دمشق.

خلافة يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان(١)

لما خلع أهل دمشق الوليد بن يزيد بن الوليد المذكور، ثم جهز يزيد الجيش إلى الوليد بمكانه من البادية، فإنه كان غائبًا بها، فجهز إليه الجيش مع عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك، ومع منصور بن جمهور، وقد كان الوليد حين بلغه الخبر،

---

(١) ينظر ترجمته فى: النجوم الزاهرة ١/ ١٢٦، تاريخ الخميس ٢/ ٣٢١، البداية والنهاية ١٠/ ١١، تاريخ اليعقوبى ٣/ ٧٤، تاريخ ابن خلدون ٣/ ١٠٦، تاريخ خليفة ٣٦٨، تاريخ الطبرى ٧/ ٢٣١، تاريخ الكامل لابن الأثير ٥/ ٢٩١، سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٧٤، خلاصة الذهب المسبوك ٤٥، تاريخ الإسلام الطبقة الثالثة عشرة ص ٣١١ .

بعث عبد الله بن يزيد بن معاوية إلى دمشق، فأقام بطريقه قليلاً، ثم بايع ليزيد، وأشار على الوليد وأصحابه أن يلحق بحمص؛ فيتحصن بها، قال له ذلك يزيد بن خالد بن يزيد، وخالفه عبد الله بن عنبسة، وقال: ما ينبغى للخليفة أن يدع عسكره وحرمه قبل أن يقاتل، فسار إلى قصر النعمان بن بشير، ومعه أربعون من ولد الضحاك وغيرهم، وجاءه كتاب العباس بن الوليد بأنه قادم، ولما وصل عبد العزيز ومنصور اللذان أرسلهما يزيد صحبة الجيش، بعث إليه وإلى أصحابه زياد بن الحصين الكلبى يدعوانهم إلى الكتاب والسنة، فقتله أصحاب الوليد فقاتلوهم حينئذ، واشتد القتال بينهم، وبعث عبد العزيز بن منصور بن جمهور لاعتراض العباس بن الوليد فى أن يأتى الوليد، فجاء به منصور كرهًا إلى عبد العزيز، وألزمه البيعة لأخيه يزيد، ونصبوا راية باسمه فتفرق الناس عن الوليد، واجتمعوا على العباس وعبد العزيز، وأرسل الوليد إلى عبد العزيز بخمسين ألف دينار وولاية حمص ما بقى على أن ينصرف فأبى، ثم قاتل الوليد قتالاً شديدًا؛ حتى سمع النداء بقتله وسبه من جوانب الحومة، فدخل القصر وأغلق الباب، وطَلَبَ الكلام من أعلى القصر، فكالمه يزيد بن عنبسة السكسكى، فذكَّره بحقوقه وفعاله فيهم، وزيادته فى أرزاقهم، فقال ابن عنبسة: ما ننقم عليك فى أنفسنا، وإنما ننقم عليك فى انتهاكك ما حرم الله تعالى، وشرب الخمر، ونكاح أمهات أولاد أبيك، واستخفافك بأمر الله تعالى.

فقال: حسبك يا أخا السكاسك، لقد أكثرت وأغرقْتَ، فيما أحل الله سعة عما ذكرْتَ، ثم رجع إلى الدار فجلس وأخذ المصحف يقرأ، وقال: يوم كيوم عثمان، فتسوَّروا عليه، وأخذ يزيد بن عنبسة بيده يقيه لا يريد قتله، وإذا بمنصور بن جمهور فى جماعة معه ضربوه، واحتزوا رأسه وساروا به إلى يزيد، فأمر بنصبه، فتلطَّف له يزيد بن فروة فى المنع من ذلك، وقال: هذا ابن عمك وخليفة، وإنما تنصب رءوس الخوارج، ولا آمن أن يغضب له أهل بيته، فلم يجبه يزيد إلى ذلك، وأطافه بدمشق على رمح [وبعثه] إلى أخيه سليمان بن يزيد، وكان معهم عليه. وكان قتله فى جمادى الآخرة سنة ست وعشرين ومائة؛ كما تقدم ذكر ذلك.

ولما قتل، خطب يزيد بالناس فذمه وثلبه، وأنه قتله لأجل ذلك، ثم وعدهم بحسن النظر والاقتصار عن النفقة فى غير حاجاتهم وسد الثغور والعدل فى العطاء

والأرزاق، ورفع المظالم، وإلا فلكم ما شئتم من الخلع، وكان يسمى الناقص؛ لأنه نقص الزيادة التى زادها الوليد فى أعطيات الجند وهى عشرة عشرة، وردها كما كانت أيام هشام، وقيل: لنقصان كان فى أصابع رجليه، وأول من سماه بذلك مروان ابن محمد.

ولما قتل الوليد، كان مروان بن محمد بن مروان بن الحكم على أرمينية، وكان على الجزيرة عبدة بن رباح الغسانى، وكان الوليد قد بعث بالصائفة أخاه، فبعث معه مروان بن عبد الملك، فلما انصرفوا من الصائفة، لقيهم بحران خبر مقتل الوليد، فسار عبدة عن الجزيرة إلى الشام، فوثب عبد الملك بالجزيرة وحران، فضبطهما وكتب إلى أبيه مروان بأرمينية يستحثه طالبًا بدم الوليد بعد أن أرسل إلى الثغور من يضبطها، وكان معه ثابت بن نعيم الجذامى من أهل فلسطين، وكان صاحب فتنة، وكان هشام قد حبسه على إفساد الجند بإفريقية عند مقتل كلثوم بن عياض، وتشفع فيه مروان، فأطلقه واتخذ عنده يدًا، فلما سار من أرمينية، دخل ثابت بن نعيم إلى أهل الشام فى العود إلى الشام من وجه الفرات، واجتمع له الكثير من جند مروان وناهضه القتال، ثم غلبهم وانقادوا له، وحبس ثابت بن نعيم وأولاده، ثم أطلقهم من حران إلى الشام، وجمع نيفًا وعشرين ألفًا من الجزيرة يسير بهم إلى يزيد، وكتب إليه بشرط ما كان عبد الملك ولى أباه محمدًا من الجزيرة وأرمينية والموصل وأذربيجان، فأعطاه يزيد ولاية ذلك، وبايع له مروان وانصرف، وأقام يزيد فى الخلافة والأمور مضطربة عليه، وكان مظهرًا للنسك وقراءة القرآن وأخلاق عمر بن عبد العزيز، وكان ذا دين وورع.

قال الشافعى[1]- رضى الله تعالى عنه - ولي يزيد بن الوليد، وكان قدريًا، فدعا الناس إلى القدر وحملهم عليه، وبايع لأخيه إبراهيم بن الوليد بالعهد ومن بعده لعبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك؛ حمله على ذلك أصحابه القدرية لمرض أصابه، ثم توفى يزيد آخر سنة ١٢٦ ست وعشرين ومائة، وكانت خلافته خمسة أشهر وعشرين يومًا، [و] عمره تسع وثلاثون سنة، وقيل: أربعون.

---

(١) ينظر: تاريخ الإسلام للذهبى الطبقة الثالثة عشرة ص ٣١٢ .

خلافة إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك بن مروان[(١)]

بويع له بعد موت يزيد، وكان إبراهيم قليل العقل قليل التدبير، فانتقض الناس عليه، ولم يتم له أمر، وكان يسلم عليه تارة بالخلافة، وتارة بالإمارة، وقال فيه الشاعر: [من الطويل]

نُبَايِعُ إبراهيمَ فى كُلِّ جمعةٍ ألا إنَّ أَمْرًا أَنْتَ وَالِيهِ ضَائِعُ

وأقام على ذلك نحوًا من ثلاثة أشهر، ولم يبايعه مروان بن محمد، وقام عليه وخلعه، ثم بعد خلعه بثلاثة أيام قتله، وقيل: صلبه، وكان يلقب: صلبان، وهو اسم مجنون بدمشق.

وقال ابن خلدون: لم يقتله؛ بل عاش إلى أن هلك سنة اثنتين وثلاثين ومائة.

خلافة مروان بن محمد بن مروان بن الحكم[(٢)]

لما مات يزيد بن الوليد، وجلس فى مكانه إبراهيم أخوه، لم يبايعه مروان، وتعلل بأشياء، ونهض للخلافة، وبويع فى خامس عشر شهر صفر سنة سبع وعشرين ومائة. وكان قبل ذلك واليًا على أرمينية؛ كما تقدَّم ذكره، وصار سلطانه فى الشام ومصر فقط، وكان زمانه زمان حرب وفتن واختلاف، فاضطربت أموره، فسار إلى دمشق، فلما انتهى إلى قنسرين، وكان عليها بشر بن الوليد عاملاً لأخيه يزيد، ومعه أخوهما مسرور، فدعاهما مروان إلى بيعته، ومال إليه يزيد بن عمر بن هبيرة، وخرج بشر للقاء مروان، فلما تراءى الجمعان، مال ابن هبيرة وقيس إلى مروان، وأسلموا بشرًا وسرورًا، فأخذهما مروان وحبسهما، وسار بأهل قنسرين ومن معه إلى حمص، وكانوا قد امتنعوا من بيعة إبراهيم فوجه إليهم عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك فى جند أهل دمشق، وكان يحاصرهم، فلما دخل مروان، رحل

---

(١) ينظر: تاريخ ابن الأثير ٥/ ٣٠٨ وما بعدها، تاريخ الطبرى ٧/ ٢٩٩، تاريخ اليعقوبى ٣/ ٧٥، البداية والنهاية ١٠/ ٢١، سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٧٦، تهذيب ابن عساكر ٢/ ٣٠٦، تاريخ الخلفاء ٢٥٣، الوافى ٦/ ١٦٣، المعرفة والتاريخ ٢/ ٨٢٨ .

(٢) ينظر ترجمته فى: تاريخ الخلفاء ٢٥٤، معجم بنى أمية ١٦١ و ١٦٢، المعرفة والتاريخ ٢/ ٣٩٦، تاريخ الإسلام للذهبى الطبقة الرابعة عشرة ص ٥٣٣ - ٥٣٧، تاريخ خليفة ٤٠٣، كتاب المجروحين والضعفاء ٣/ ١٤، البداية والنهاية ١٠/ ٢٢، سير أعلام النبلاء ٦/ ٧٤، تاريخ الطبرى ٧/ ٣١١، الكامل لابن الأثير ٥/ ٣٢٣ .

عبد العزيز عنهم وبايعوا مروان، وخرج للقائه سليمان بن هشام فى مائة وعشرين ألفًا، ومروان فى ثمانين ألفًا، فدعاهم إلى الصلح، وترك الطلب بدم الوليد على أن يطلقوا ابنيه الحَكَم وعثمان وليى عهده، فأبوا وقاتلوه، وسرب عسكرًا جاءوهم من خلفهم فانهزموا، وأثخن فيهم أهل حمص، فقتلوا منهم نحوًا من خمسة عشر ألفًا، وأسروا مثلها، ورفع مروان القتل، وأخذ عليهم البيعة للحكم وعثمان ابني الوليد، وكان ممن شهد مقتل الوليد، وهرب يزيد بن خالد القسرى إلى دمشق، فاجتمع مع إبراهيم وعبد العزيز بن الحجاج، وتشاوروا فى قتل الحكم وعثمان؛ خشية أن يطلقهما مروان؛ فيثأران كل منهما، وولوا ذلك يزيد بن خالد، فبعث مولاه أبا الأسد فقتلهما، وأخرج يوسف بن عمر فقتله، واعتصم أبو محمد السفيانى ببيت فى الحبس؛ فلم يطيقوا فتحه، وأعجلتهم خيل مروان، وأنهب سليمان بن هشام بيت المال، وخرج من المدينة، وعمر مولى الوليد بن يزيد إلى دار عبد العزيز بن الحجاج فقتلوه ونبشوا قبر يزيد بن الوليد، وصلبوه على باب الجابية، وجاء مروان فدخل دمشق وأُنبِئ بابن الوليد ويوسف بن عمر مقتولين فدفنهما، وأتى بأبى محمد السفيانى فى قيوده، فسلم عليه بالخلافة، وقال: إن وليَّيِ العهد جعلاها لك، ثم بايعه، وسمع الناس فبايعوه، وكان أولهم بيعة معاوية بن يزيد بن حصين بن نمير وأهل حمص، ثم رجع مروان، واستأمن له إبراهيم بن الوليد وسليمان بن هشام، وقدما عليه، وكان قدوم سليمان بمن معه من إخوته وأهل بيته ومواليه، فبايعوا لمروان فى سنة تسع وعشرين ومائة فى رمضان منها.

قيام أبى مسلم الخراساني[1]
بالدعوة لبنى العباس بخراسان

ظهر بها فى مدينة مرو، فدانت له البلاد، وهزم الأحزاب المروانية، وكان أبو مسلم داعيًا لإبراهيم بن محمد الإمام بن على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب أخى

(١) ينظر ترجمته فى: شذرات الذهب ١/ ١٧٩، تاريخ بغداد ١٠/ ٢٠٧، العبر ١/ ٣٨٦، ميزان الاعتدال ٢/ ٥٨٩، لسان الميزان ٣/ ٤٣٦، سير أعلام النبلاء ٦/ ٤٨، تاريخ الطبرى ٧/ ٤٧٩، المعارف ٣٧٠، البدء والتاريخ ٦/ ٧٨، تاريخ الإسلام للذهبى الطبقة الرابعة عشرة ص ٥٨١، وفيات الأعيان ٣/ ١٤٥، الكامل لابن الأثير ٥/ ٣٦٦ .

السفاح عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس، وكان إبراهيم المذكور بالقرية المعروفة بالكرار والحميمة والكتب من أبى مسلم تصل إليه بما اتفق من الفتوحات، وكان قبله نصر بن سيار عاملاً على خراسان لمروان، فحاصره أبو مسلم حتى خرج متخفيًا، فكتب نصر إلى مروان يستنجده بهذه الأبيات يقول: [من الوافر]

أَرَى خَلَلَ الرمادِ وميضَ نَارٍ ... وَيوشِكُ أَنْ يكُونَ لها ضِرَامُ
فإِنَّ النارَ بالعيدان[1] تُذْكى ... وإنَّ الحَربَ أوَّلها كَلاَمُ
فَإِنْ لم تُطفِئوها تُخرِجُوهَا ... مُسَجَّرَةً يشيبُ لها الغُلاَمُ[2]
أقولُ من التعجُّبِ لَيْتَ شعري ... أأيقاظٌ أُمَيَّةُ أَمْ نِيَامُ ؟!
فَإِنْ يكُ قومنا أضحَوْا[3] نيامًا ... فقلْ قُومُوا فَقَدْ حَانَ القيامُ
تعَزي عَنْ رجالِكِ ثُمَّ قولي ... عَلَى الإسلامِ والعَرَبِ السلامُ

فوجده الرسول مشغولاً بحرب الضحاك بن قيس، فكتب إليه الجواب: « الشاهد يرى ما لا يرى الغائب، فاحسم الثؤلول قبلك »، فقال نصر لأصحابه: أما إن صاحبكم قد أعلمكم أن لا نصر عنده، وصادف وصول كتاب نصر إلى مروان عثور مروان على كتاب إبراهيم الإمام ابن محمد لأبى مسلم يوبِّخه حيث لم ينتهز الفرصة من نصر؛ إذ أمكنته، ولا يطاوله فى المحاصرة، ويأمره ألا يدع بخراسان متكلمًا بالعربية. فلما قرأ مروان الكتاب، بعث إلى الوليد بن معاوية بن عبد الملك وهو يومئذ عامله على دمشق يأمره أن يكتب إلى عامل البلقاء أن يسير إلى الحميمة للقبض على إبراهيم الإمام، فقبضه عامل البلقاء وشدَّه وثاقًا، وكان القبض عليه فى مسجد الحميمة، وأرسل به إلى الوليد، وأرسل به الوليد إلى مروان، فحبسه بحران ثم قتله.

وكان إبراهيم قد عهد بالوصية إلى أخيه عبد الله بن محمد الملقَّب بالسفاح ابن الحارثية، وأرسل إليه بالجامعة وأمره أن يسير على ما ذكر فيها؛ فإن الأمر صائر إليه، وإن بنى العباس موطدة لا محالة، فلما اشتهر قتل إبراهيم الإمام، بايع

---

(١) فى ط: بالعودين. والمثبت من البداية والنهاية.
(٢) البيت فى البداية والنهاية:

فإن لم يطفها عقلاء قوم ... يكون وقودها جثث وهام

(٣) فى البداية والنهاية: فإن كانوا لحينهم.

أبو مسلم وغيره من الدعاة أبا العباس عبد الله السفَّاح ابن محمد بن على بن عبد الله ابن عباس، فبث دعوته فى سائر الأمصار، وأظهر لبس السواد، وسير أبا عون عبد الملك بن يزيد الأزدى إلى شهر زور، فقتل عثمان بن سفيان، وأقام بناحية الموصل، وسار مروان بن محمد إليه من حران فى مائة وعشرين ألف قارح، ونزل بالزاب - اسم نهر قرب الموصل - وبعث السفاح سلمة بن محمد فى ألفين، وعبد الله الطائى فى ألف وخمسمائة، وعبد الحميد بن ربعى الطائى فى ألفين، وورس بن نضلة فى خمسمائة كل ذلك إمداد لأبى عون.

ثم ندب أهل بيته إلى السير إلى أبى عون، فأرسل عبد الله بن على[1] بن عبد الله ابن عباس، فسار وقدم على أبى عون، فتحول له عن سرادقه بما فيه، ثم أمر عنبسة ابن موسى فى خمسة آلاف، فعبر النهر من الزاب فى أول جمادى الآخرة سنة اثنتين وثلاثين ومائة، وقاتل عساكر مروان إلى المساء، فرجع فعقد مروان الجسر من الغد، وقدم ابنه عبد الله فعبر، فبعث عبد الله بن على عم السفاح المذكور المخارق ابن غفار فى أربعة آلاف نحو عبد الله بن مروان، فسرح ابن مروان الوليد بن معاوية ابن مروان بن الحكم، فانهزم أصحاب المخارق، وأسر هو وجيء به إلى مروان مع رءوس القتلى، فقال له: أنت المخارق ؟ قال: لا، قال: فتعرفه فى هذه الرءوس ؟ قال: نعم، هو ذا، فخلى سبيله.

وقيل: بل أنكر أن يكون فى الرءوس؛ فخلى سبيله.

ثم عاجلهم عبد الله بن على بالحرب، وعلى ميمنته أبو عون، وعلى ميسرة مروان الوليد بن معاوية، فأرسل إليه مروان فى الموادعة، فأبى، وحمل الوليد بن معاوية وهو صهر مروان على ابنته، فقاتل أبا عون حتى انهزم إلى عبد الله بن على، فأمر الناس عبد الله بن على فترجلوا، ومشى قدمًا ينادى: يالثارات إبراهيم، وبالشعار: يا محمد يا منصور، وأمر مروان القبائل أن يحملوا فتخاذلوا واعتذروا حتى صاحب شرطته، ثم ظهر له الخلل فأباح الأموال للناس على أن يقاتلوا، فأخذوها من غير قتال، فبعث ابنه عبد الله يصدهم عن ذلك، فتنادوا بالفرار، فانهزموا، فقتل منهم خلق كثير، وقطع مروان الجسر فغرق منهم أكثر ممن قتل.

---

(١) في ط: فأرسل محمد عبد الله .

قال الكاتى فى تاريخه: قيل: كان سبب هزيمته أنه نزل عن فرسه فى الحرب ليزيل حقنه، فهرب الفرس إلى وسط العسكر، فتوهموا أنه قتل، فقيل: ذهبت الدولة بالبولة.

وكانت الهزيمة يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة سنة اثنتين وثلاثين ومائة.

ومضى مروان فى هزيمته، ونظر إلى أصحابه مع كثرة عَددهم وقوة عُددهم ولِمَا قد ظَهَرَ فيهم من الفشل، وما حل بهم من الجزع والوجل، فقال: إذا انقضت المدة، لم تنفع العدة.

فأقام عبد الله بن على فى عسكره سبعة أيام، واجتاز عسكر مروان بما فيه، وكتب بالفتح إلى ابن أخيه عبد الله السفاح، وسار مروان منهزمًا إلى مدينة الموصل، وعليها هشام بن عمرو التغلبى وبشر بن خزيمة الأسدى، فقطعا الجسر ومنعاه العبور إليهم، وقيل لهم: هذا أمير المؤمنين، فتجاهلوا، وقالوا: أمير المؤمنين لا يفرُّ، ثم أسمعوه الشتم والقبائح، فسار إلى حران، وبها أبان ابن أخيه يزيد بن محمد، فأقام بها نحوًا من عشرين ليلة، وسار عبد الله بن على المذكور على أثره إلى الموصل، فملكها، وعزل هشامًا التغلبيَّ، وولى مكانه محمد بن صول، ثم سار فى أتباع مروان إلى حران، فخرج منها مروان، وترك عليها أبان ابن أخيه، وسار إلى حمص، وجاء عبد الله إلى حران، فلقيه أبان مفردًا، فآمنه وملك الجزيرة.

ولما بلغ مروان حمص، أقام بها ثلاثًا وارتحل، فاتبعه أهلها، لينهبوه فقاتلهم وهزمهم، وأثخن فيهم، وسار إلى دمشق، وعليها الوليد ابن عمه، فأوصاه بقتال عروة، وسار إلى فلسطين، فنزل نهر أبى فطرس، وقد غلب على فلسطين الحكم بن ضبعان الجذامى، فأرسل مروان إليه عبد الله بن يزيد بن روح بن زنباع الجذامى، فأجاره، ثم سار عبد الله بن على فى أثره من حران بعد أن هدم الدار التى حبس فيها مروان أخاه إبراهيم الإمام، وقدم عليه أخوه عبد الصمد بن على بعثه السفاح مددًا فى أربعة آلاف، فسار إلى قنسرين فأطاعوه، ثم إلى حمص كذلك، ثم إلى بعلبك، ثم لما نزل مزة دمشق من قرى الغوطة، قدم عليه أخوه صالح بن على بعثه السفاح مددًا فى ثمانية آلاف، وأقام عبد الله بن على خمس عشرة ليلة، وارتحل يريد

فلسطين، فأجفل مروان إلى النيل، ثم إلى الصعيد، ونزل صالح بن على الفسطاط، يعنى: مصر، فتقدمت عساكره، فلقوا خيلًا لمروان فهزموهم وأسروا منهم، ودلوهم على مكانه ببوصير.

ذكر العلامة الدميرى فى حياة الحيوان[1]: أن مروان لما أن وصل إلى « أبو صير »، وهى قرية عند الفيوم، قال: ما اسم هذه القرية ؟ قيل له: أبو صير، فقال: وإلى الله المصير، ثم دخل كنيسة، فبلغه أن خادمًا نم عليه، فأمر به فقطع رأسه، وسل لسانه، وألقى على الأرض، فجاءت هرة، فأكلته، ثم سار إليه أبو عون وعامر بن إسماعيل المذحجى، فأدركوه ببوصير، ثم هجم على الكنيسة التى كان نازلاً بها عامر بن إسماعيل المذحجى، فخرج مروان من باب الكنيسة وفى يده السيف، وقد أحاطت به الجنود، وصفت حوله الخيول، فتمثل ببيت العجاج بن حكيم السلمى: [من الكامل]

مُتَقَلِّدِينَ صَفَائِحًا هِنْدِيَّةً ... تَتْرُكْنَ مَنْ ضَرَبُوا كَأَنْ لَمْ يُولَدِ

ثم قاتل حتى قتل، فأمر عامرٌ برَأْسه، فقطع فى ذلك المكان، وسل لسانه، وألقى على الأرض، فجاءت تلك الهرة بعينها، فخطفته وأكلته، فقال عامر: لو لم يكن فى الدنيا عجب إلا هذا، لكان كافيًا، لسان مروان فى فَمِ هرةٍ، وفى ذلك يقول شاعرهم: [من البسيط]

قَدْ يَسَّرَ اللَّهُ مِصْرًا عَنْوَةً لكُمُ ... وأهْلَكَ الظَّالِمَ الجَبَّارَ إِذْ ظَلَمَا

فَلَاكَ مِقْوَلَهُ هِرٌّ يُجَرْجِرُهُ ... وَكَانَ عَامِرُ مِنْ ذِى الظُّلْمِ منْتَقِمَا

وبعث عون بالرأس إلى صالح بن على، فبعث به صالح إلى السفاح، ووجد عامر بن إسماعيل المذكور نساء مروان وبناته فى كنيسة بوصير، وقد وكل بهن خادمًا يقتلهنَّ بعده، فبعث بهنَّ إلى صالح، ولما دخلن عليه سألنه فى الإبقاء عليهنَّ على قتلاهم عند بنى أمية، ثم عفا عنهنَّ وحملهن إلى حران يبكينَ، ودخل عامر بعد قتل مروان الكنيسة، فجلس على فرش مروان، وكان مروان يتعشَّىٰ، فلما سمع الوجبة، وثب عن عشائه فخرج فقتل، فجلس عامر على ذلك الطعام، وجعل يأكل منه، ودعا بابنة لمروان، وكانت أسن بناته، فقالت: يا عامر، إن دهرًا أنزل مروان عن

(١) ينظر: حياة الحيوان للدميرى (٢/ ٣٩٩، ٤٠٠).

فرشه، وأقعدك عليه، حتى تعشيت بعشائه، واستصبحت بمصباحه، ونادمت ابنته- لقد أبلغ فى موعظتك، وأجمل فى إيقاظك، فاستحيا عامر، وصرفها.

قال ابن زنبل فى تاريخه: قتل مع مروان ابنه عبيد الله، وهرب ابنه الآخر عبد الله حتى انتهىٰ إلى ملك النوبة، فلما وصل إليها، وصل إليه ملك البلاد، وما رضى بالجلوس فوق الفرش بل جلس فوق التراب، فقال للترجمان: قل للملك، لم فعلت ذلك ؟ فقال له: إنى ملك، وحق على كل ملك أن يكون متواضعًا لعظمة الله تعالى، ثم أقبل ينكث فى الأرض بإصبعه، ثم رفع رأسه، وقال له: كيف سُلبتم نعمة الملك، وأنتم أقرب الناس إلى نبيكم ؟ ! فقال: جاء من هو أقربُ منا إليه، وقتلنا وطردنا، وجئتُ أنا مستجيرًا إليك، ثم قال: كيف كنتم تشربون الخمر، وهى محرمة عليكم فى كتابكم ؟ ! فقال: فعله عبيدنا وأتباعنا من العجم وغيرهم، لما دخلوا فى ملكنا من غير علمنا، ثم قال: فلم كنتم تركبون على دوابكم بآلة الذهَبِ والفضةِ والديباج، وهو محرم عليكم ؟ ! فقال له مثل الأول، ثم قال: فلم كنتم إذا خرجتم لصيد طائر لا خَطَرَ له، هجمتم فى أهل القرى، وكلفتموهم الضيافة، وما لا قدرة لهم عليه، وأفسدتم مزارعهم بدوابكم، والفساد محرم فى دينكم ؟ ! فتعذَّر بمثل الأول، وقال: كرهنا مخالفتهم؛ لأن مماليكنا تمكنوا فى البلاد، فهز رأسه، وقال: لا والله، ولكنكم استحللتم ما حرِّم عليكم، وارتكبتم ما نهاكم عنه وأحببتم الفساد والظلم، وكرهتم العدل، فسلبكم الله تعالى العِزَّ وألبسكم الذل. والنقمة إذا نزلت عمت، والبلية إذا حلت شملت، وإن لله فيكم نقمة لن تبلغ غايتها، فاخرج من بلدى؛ وإلا قتلتك ومن معك. قال: فخرج من بلاده ملومًا مدحورًا.

قال ابن خلدون: بقى عبد الله بن مروان المذكور إلى أيام المهدى العباسى، فأخذه عامل فلسطين، وسجنه إلى أن مات فى السجن. وكان مروان بطلاً شجاعًا مهيبًا، كانوا يعدونه فى مقابلة ألف مقاتل، أبيض اللون ربعة أشهل العين ضخمًا كثَّ اللحية، كان حاكمًا سائسًا لقب بالجعديِّ، قال العلامة السيوطى فى تاريخه[1]: نسبة إلى مؤدبه الجعد بن درهم؛ لتمسكه بمذهبه، كان يقول بخلق القرآن، ويتزندق، أمر هشام بن عبد الملك خالدًا القسرى بقتله لذلك فقتله، ويلقب مروان

(١) ينظر: تاريخ الخلفاء للسيوطى ٢٠٥ .

بالحمار - أيضًا - لأنه كان لا يجفُّ له لبد فى محاربة الخارجين عليه، كان يصل السرى بالسرى، ويصبر على مكاره الحرب، ويقال فى المثل: فلان أصبر من حمار، أو لأن العرب تُسَمِّى كل مائة سنة حمارًا، فلما قارب ملك بنى أمية فى زمنه مائة سنة، لقبوه بالحمار.

قال مروان: وا لهفتاه على دولة ما نصرت، وكف ما ظفرت، ونعمة ما شكرت، فقال له خادمه وكان من أولاد عظماء النصارى: من أهمل الصغير حتى يكبر، والقليل حتى يكثر، والخفيَّ حتى يظهر، أصابه مثل هذا.

مدة خلافته خمس سنين وعشرة أشهر، وعمره خمسون سنة، وقيل: سبع وخمسون، وقيل: ثمان، وقيل: ستون.

وفى روض الأخبار: ذهبت الدولة من بنى أمية فى عهد ثلاثة من الرجال: مروان ابن محمد، وصاحب عسكره يزيد بن عمر بن هبيرة، وكان خطيبًا شجاعًا يضرب بشجاعته المثل، ووزيره وكاتبه عبد الحميد، وكان يقال: بدئت الكتابة بعبد الحميد، وختمت بابن العميد.

قال المطرزى فى شرحه على المقامات الحريرية: كان لمروان عبد الحميد كاتبًا، والبعلبكى مؤذنًا، وسلامة الحادى حاديًا، فأحضروا إلى السفاح بعد قتل مروان، فقال سلامة الحادى: استبقنى يا أمير المؤمنين، فإنى أحسن الحداء، قال: وما بلغ من حدائك ؟ قال: تعمد إلى إبل ظمئت ثلاثًا، ثم توردها، فإذا بدأت تشرب، رفعت صوتى بالحداء، فترفع رءوسها، وتدع الشرب، ثم لا تشرب حتى أسكت. فأمر بإبل ظماء، فقرب منها الماء، ثم حدا، فرفعت رءوسها، فلم تزل رافعةً حتى سكت من حدائه. فاستبقاه وأجازه.

ثم قال البعلبكى: إنى مؤذِّن منقطع النظير، قال: وما بلغ من أذانك ؟ فقال: تأمر جارية فتقدِّم لك طستًا، وتأخذ إبريقًا بيدها، وأشرع فى الأذان، فتدهش ويذهب عقلها حتى تلقى الإبريق من يدها، وهى لا تعلم، فأمر بذلك فوجده صحيحًا، فاستبقاه وأجازه.

وقال عبد الحميد: استبقنى يا أمير المؤمنين؛ فإنى فريد الدهر فى الكتابة والبلاغة، فقال: ما أعرفنى بك ؟ ! فأنت الذى فعلت بنا الأفاعيل، وعملت بنا

الدواهى، فقطعت يداه ورجلاه وضرب عنقه.

ودخل سديف يومًا على السفاح، وعنده سليمان بن هشام وقدامة فقال: [من الخفيف]

لاَ يَغُرَّنْكَ مَا تَرَىٰ مِنْ رجالٍ إنَّ تَحْتَ الضلوعِ داءً دَوِيًّا
فَضَعِ السيْفَ وارْفَعِ السَّوْطَ حتَّىٰ لا تَرَىٰ فَوْقَ ظَهْرِها أُمَوِيًّا

فأمر السفاح بسليمان فقتل، ودخل شبل بن عبد الله مولى بنى هاشم على السفاح، وعنده ثمانون أو تسعون نفسًا من بنى أمية قد أمنهم فهم على الكراسى، فأنشد: [من الخفيف]

أَصْبَحَ المُلْكُ ثابتَ الآساسِ بالبهاليلِ مِن بَنى العَبَّاسِ
طَلَبُوا وتْرَ هاشمٍ فَشَفَوْهَا بعدَ مَيْلٍ مِنَ الزمَانِ وَباسِ
لا تُقِيلَنَّ عبد شمْسٍ عثارًا واقْطَعَنْ كلَّ رقْلَةٍ وغِرَاسِ
أقْصِهِمْ أيها الخليفَةُ واقْطَعْ عنكَ بالسَّيْفِ شأْفَةَ الأَرْجَاسِ
ذلُّهَا أَظْهَرَ التودُّدَ منها وبهَا مِنْكُمُ كَحَرِّ المَوَاسِى
ولَقَدْ ساءنى وسَاءَ سَوائي قُرْبُهَا مِنْ مَنَابِرٍ وكراسِي
أَنْزِلُوهَا بحَيثُ أَنْزَلَهَا اللـ ـهُ بدَارِ الهَوَانِ والإتْعَاسِ
واذكُرُوا مَصْرَعَ الحُسَيْنِ وَزَيْدٍ وقَتِيلاً بجَانِبِ المِهْرَاسِ
والقتيلَ الذى بحرَّانَ أضْحَىٰ ثَاوِيًا بَيْنَ غُرْبَةٍ وَتَنَاسِي

فقال السفاح: أنتم بين يَدَيَّ على الكراسى، ودماء أسلافى تقطر من أسيافكم، فأمر بهم، فشدخوا بعمد الحديد، وبسط فوقهم الأنطاع، فأكل عليها الطعام، وأنينهم يسمع، وإن الطعام فى صحون المائدة ليختلج لاختلاجهم، وقال: والله ما أكلت طعامًا ألذَّ من طعامى هذا، يوم بيوم الحسين، ولا سواء. وكان كبير منهم جالسًا إلى جانب السفاح، فقال له السفاح: كأن هذا لم تطبْ به نفسك ؟ فقال: نعم، والله، قال: أفتحب اللحاق بهم ؟ قال: نعم، وإنى إلى ذلك لمشتاق، فلا خير فى العيش بعدهم، فأمر به، فسحب وشدخ كما شدخوا.

وقيل: إن القائل للشعر الثانى هو سديف صاحب البيتين الأولين، لا شبل بن عبد الله.

ثم تتبعوا بنى أمية بالقتل، فقتل سليمان بن على بن عبد الله بن العباس عم السفاح

بالبصرة جماعة منهم، ورموا بأشلائهم فى الطريق، فأكلتها الكلاب، ونبش عبد الله ابن على عم السفاح أيضًا قبور الخلفاء منهم، فلم يجدوا فى القبور إلا شبه الرماد، وخيطًا فى قبر معاوية، وجمجمة فى قبر عبد الملك، وربما وجدوا فيها بعض الأعضاء، إلا هشام بن عبد الملك، فإنه وجد كما هو لم يبل، فضربه بالسياط، ثم صلبه وحرقه وذراه فى الريح.

قال ابن خلدون: كذا قيل، والله أعلم بصحة ذلك.

واستقصوا فى تتبعهم قتلًا، ولم يفلت إلا الرضعاء، أو مَنْ هرب إلى الأندلس مثل عبد الرحمن الملقَّب بالداخل؛ لأنه أول من دخل إلى بلاد المغرب، وهو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، وغيره ممن تبعه من قرابته.

وفى ربيع الأبرار للزمخشرى: انقرضت دولة بنى أمية، وكانوا أربعة عشر نفرًا: معاوية، يزيد بن معاوية، ومعاوية بن يزيد الذى يقال له: معاوية الأصغر - رضى الله عنه - مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية، عبد الملك بن مروان، الوليد بن عبد الملك، سليمان بن عبد الملك، عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية - رضى الله عنه وأرضاه - يزيد بن عبد الملك بن مروان، هشام بن عبد الملك بن مروان، الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان الفاسق ممزِّق المصحف بالسهام، ومقدِّم الجارية تؤم الناس فى صلاة الصبح جنبًا سكرى، يزيد ابن الوليد بن عبد الملك، إبراهيم بن الوليد أخى يزيد المذكور قبله، يليه مروان بن محمد بن مروان بن الحكم المنبوز بالحِمَارِ.

وفى أكثر التواريخ: ذكروا أن مدة ملكهم ألف شهر؛ لأن الحسن بن على - رضى الله تعالى عنهما - حين تكلموا عليه فى تسليم الأمر إلى معاوية قال: ﴿ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ [القدر: ٣]، وذلك ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر، فقول الحسن - رضى الله عنه - كان تقريبًا لا تحديدا، ويمكن أن يكون تحديدًا على بعض الحساب؛ نظرًا إلى تمكنهم وانهزامهم، وقتلهم من تداخل السنين والشهور، وهى يسيرة.

فأما على ظاهر الحساب: أن معاوية بن أبى سفيان بويع بعد وفاة على بن أبى طالب فى ثانى عشر ذى الحجة فى سنة أربعين من الهجرة، وبويع عبد الله السفاح

العباسى فى ثالث عشر ربيع الأول سنة اثنتين وثلاثين ومائة، فإن أخرجنا من هذه المدة مدة ابن الزبير تكون مدة ملكهم إلى أن مات مروان ثلاثًا وثمانين سنة وشهرين وثلاثة وعشرين يومًا؛ لأن مدة ابن الزبير تسع سنين وأشهر بويع سنة أربع وستين، وقيل: ثلاث وسبعين سنة.

وإن حسبتها من اليوم الذى صالح فيه الحسن معاوية، تكون بعد إخراج مدة ابن الزبير ثلاثًا وثمانين سنة وشهرًا واحدًا، وستة وعشرين يومًا، والله أعلم.

وفى سراج الملوك: سئل بعض العلماء ما الذى أذهب ملك بنى أمية ؟ فقال: تحاسد الأكفاء، وانقطاع الأخبار، وذلك أن يزيد بن عمر بن هبيرة وزير مروان كان يحبُّ أن يضَعَ نصر بن سيار أمير خراسان لمروان، فكان لا يمده بالرجال، ولا يرفع إلى مروان ما يرد من الأخبار.

وسئل بعض بنى أمية عن سبب زوال ملكهم ؟ فقال: استعمال الصغار من الرجال، على الكبير من الأعمال، وتقديم الأرذال والأنذال، على أهل الدين والكمال، وذوى النجدة من الرجال، فآل أمرنا إلى ما آل.

وقال بعضهم - وقد سئل عن مثل ذلك - فقال: نوم الغدوات، وشرب العشيات، والاجتراء بإعلان الفجور وترك النهْيِ عن المنكرات. ولا شيء أضيع للملك وأهلك للرعية من شدة الحجاب، وعدم القبول لقول العقلاء؛ لأنهم قالوا: من تم سروره قصرت شهوره، والحزم أسد الآراء، والغفلة أضر الأعداء، ومن قعد عن حيلة تدبير الملك أقامته شدائد الفتن، ومن نام عن عدوه نبهته المكائد والمحن، ومن أعجبته آراؤه غلبته أعداؤه، ومن استضعف عدوه اغتر، ومن اغتر ظفر به عدوه، ومن طالت عداوته زالت سلطته، ومن كثر ظلمه واعتداؤه قرب هلكه وفناؤه، ورأس الحكمة التودد إلى الناس.

قلت: صدق فيما به نطق، فسبحان من لا يزول ملكه ولا يتحول سلطانه ! !.

ورأيت فى تاريخ العلامة محمود بن على بن أحمد البهوتى المسمى بتاريخ الخلائف ما نصه: قد كان لبنى أمية ألقاب تلقبوا بها، فمعاوية بن أبى سفيان يلقب بالتَّامّ لدين الله، ويزيد يلقب بالمنتصر على أهل الزيغ، ومعاوية بن يزيد يلقب بالراجع إلى الله، ومروان بن الحكم يلقب بالمؤتمن بالله، وعبد الملك بن مروان

بالموفَّق لأمر الله، والوليد بن عبد الملك بالمنتقِم لله، وسليمان بن عبد الملك بالداعِي إلى الله، وعمر بن عبد العزيز بالمعصوم باللَّهِ، ويزيد بن عبد الملك بالقادر بصُنْع الله، وهشام بن عبد الملك بالمنصور بالله، والوليد بن يزيد بالمكتفى بالله، ويزيد بن الوليد بالشاكر لأنعم الله، وإبراهيم بن الوليد بالمعتز بالله، ومروان بن محمد بالقائم بحق الله، وعبد الله بن الزبير بالعائذ ببيت الله، فسبحان مغيِّر الدول ومفنى الأمم، لا رب غيره سبحانه ! ! فليس العباسية أبا عذرتها، فليعلم ذلك !

* * *

الباب الثاني
فى الدولة العباسية [١]

اعلم أن أمر الإسلام لم يزل جميعًا ودولته واحدة أيام الخلفاء الأربعة وبنى أمية من بعدهم؛ لاجتماع عصبية العرب.

(١) جاء التحول فى الدعوة العباسية من العمل سرا إلى العمل علنًا فى عهد آخر الخلفاء الأمويين وهو مروان بن محمد . وقد استطاع زعيم تلك الدعوة فى خراسان وهو أبو مسلم الخراسانى أن يجتذب إليه الموالى هناك، وأن يوسع الفرقة بين سكان خراسان من العرب . ولم يلبث أن استولى على مرو عاصمة خراسان . وقد أسرع الوالى الأموى على خراسان وهو نصر بن سيار إلى إرسال استغاثة إلى مروان الثانى، يشرح فيها خطورة ما يجرى فى ولايته ويطلب الإمدادات . وجاءت هذه الاستغاثة فى شعر بليغ، ما زال مضرب الأمثال إلى اليوم، وفيها يقول الوالى الأموى إلى السلطات الأموية فى دمشق:

أرى خلل الرماد وميض نار ... ويوشك أن يكون لها ضرام

فإن النار بالعودين تذكى ... وأن الحرب مبدؤها كلام

فقلت من التعجب ليت شعرى ... أأيقاظ أمية أم نيام

وكان الأمويون طوال هذه المدة لا يعلمون بمن يدعو إليه العباسيون، حتى وقع فى يد الخليفة مروان بن محمد كتابٌ من الإمام إبراهيم العباسى يحمل بعض التعليمات الخاصة بالدعوة وتنظيمها . فأرسل مروان إلى السلطات بدمشق للقبض على الإمام إبراهيم بالحميمة، وإلقائه فى السجن . ولما علم الإمام إبراهيم بما سيؤول إليه مصيره أوصى إلى أخيه أبى العباس بالإمامة، وأمره أن يرحل مع أهله من الحميمة إلى الكوفة . ونزل أبو العباس على داعى العباسيين بالكوفة، وهو أبو سلمة الخلال . وبقى مختفيًا عن رقابة السلطات الأموية .

وحاول أبو سلمة الخلال، الذى اشتهر باسم «وزير آل محمد» أن ينتهز اختفاء أبى العباس، ويعمل على تحويل الخلافة إلى أحد العلويين، ولكن أبا العباس بادر بإبلاغ أبى مسلم الخراسانى فى خراسان بهذه المؤامرة التى يبيتها أبو سلمة الخلال . وكان أبو مسلم قد استطاع السيطرة على مرو عاصمة خراسان وصار القائد الأعلى للجيوش العباسية هناك، وأرسل أبو مسلم إلى الكوفة نفرًا من قادة العباسيين، وقابلوا أبا العباس وبايعوه بالخلافة . واضطر أبو سلمة الخلال إلى أن يبايع هو أيضًا بخلافة أبى العباس .

وخطب أبو العباس خطبة فى مسجد الكوفة، وذلك أثر مبايعته بالخلافة فى الثانى عشر من شهر ربيع الأول سنة ١٣٢هـ/ ٧٥٠م . وجاءت هذه الخطبة بمثابة الإعلان الرسمى عن قيام الدولة العباسية .

وقد وجه أبو العباس السفاح جهوده عقب مبايعته بالخلافة للقضاء على مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين . إذ كان الأمويون يستعدون فى عجل لضرب العباسيين وهم ما زالوا فى طلائع سلطانهم . ولكن شمس الأمويين كانت قد آذنت بالمغيب، وشمس العباسيين =

ثم ظهر من بعد ذلك أمر الشيعة، وهم الدعاة لأهل البيت، فغلبت دعاة بنى العباس على الإمامة، واستقلوا بخلافة الملة، ولحق فل بنى أمية بالأندلس، فقام بأمرهم فيها عبد الرحمن الداخل ابن معاوية بن هشام بن عبد الملك ومن تبعه من مواليهم ومن العرب، فلم يدخلوا فى دعوة بنى العباس، وانقسمت لذلك دعوة بنى العباس، وانقسمت بذلك دولة الإسلام بدولتين؛ لافتراق عصبية العرب.

ثم ظهر دعاة أهل البيت بالمغرب والعراق من العلوية، ونازعوا خلفاء بنى العباس، واستولوا على القاصية من النواحى؛ كالأدارسة بالمغرب الأقصى، والعبيديين بالقيروان ومصر، والقرامطة بالبحرين، والداعى بطبرستان والديلم، والأطروش فيها ومن بعده، وانقسمت دولة الإسلام بذلك دولاً متفرقة.

ذكر الشيعة ومبادئ دولهم
وكيف انساقت إلى العباسية من بعدهم إلى آخر دولهم

كان مبدأ هذه الدولة، أعنى دولة الشيعة: أن أهل البيت لما توفى رسول الله ﷺ كانوا يرون أنهم أحق بالأمر، وأن الخلافة لهم دون من سواهم من قريش. وفى الصحيح، أن العباس قال لعلى فى وجع رسول الله ﷺ الذى توفى فيه: « اذهَبْ بنا إليه نسأله فى هذا الأمر، فإن كان فينا علمناه، وإن كان فى غيرنا أوصى بنا، فقال على: إن سألناه فمنعناها لا يعطيناها الناس »[1] وفى الصحيحين- أيضًا - عن رسول الله ﷺ قال فى مرضه الذى توفى فيه: « هلموا أكتب لكم كتابًا لن تضلوا بعده أبدًا »، فاختلفوا فى ذلك عنده، وتنازعوا ولم يتم الكتاب، وفى رواية قال:

= فى الصعود. إذ التقت جيوش العباسيين الوافرة العدد بقيادة عم الخليفة نفسه، وهو عبد الله ابن على بجيوش الأمويين بقيادة مروان بن محمد. وذلك عند نهر الزاب الأعلى وهو أحد فروع دجلة بالقرب من الموصل. ودارت رحى معركة حامية الوطيس فى آخر شهر جمادى الآخر سنة ١٣٢هـ/ يناير ٧٥٠م انتهت بهزيمة مروان بن محمد وفراره إلى دمشق. وتابع عبد الله العباسى مطاردة مروان بن محمد، فاستولى على مدن الشام الواحدة بعد الأخرى، وسلمت له دمشق نفسها، إيذانًا بانتهاء عهدها كعاصمة للدولة الإسلامية. وانتهى الأمر بإلقاء القوات العباسية القبض على مروان بن محمد الذى فر إلى مصر، وذلك عند قرية بوصير قرب الفيوم، وقتلته فى شهر ذى الحجة سنة ١٣٢هـ/ ٧٥٠م. وتم إرسال رأس مروان بن محمد ومعها شارات الخلافة إلى أبى العباس السفاح، اعترافًا بقيام الدولة العباسية الجديدة. ينظر: تاريخ العالم الإسلامى (١٨١ - ١٨٣).

(١) أخرجه البخارى (٤٤٤٧).

« قوموا عنى »، وكان ابن عباس يقول: « إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين ذلك الكتاب، لاختلافهم ولغطهم »[١]، حتى قد ذهب كثير من الشيعة إلى أن النبى ﷺ أوصى فى مرضه ذلك لعلى، ولم يصح ذلك من وجه يعول عليه. وكما نقلوه عن أهل الآثار؛ أن عمر قَالَ يومًا لابن عباس: إن قومكم - يعنى قريشًا - ما أرادوا أن يجمعوا لكم بين النبوة والخلافة، فتتبجحوا عليهم، وأن ابن عباس أنكر ذلك، وطلب من عمر إذنه فى الكلام، فتكلم بما غضب له عمر، وظهر من محاورتهما أنهم كانوا يعلمون أن فى نفوس أهل البيت شيئًا من أمر الخلافة والعدول عنهم بها، مما الله تعالى أعلم بصحته وعدمها.

قصة الشورى

أنَّ جماعة من الصحابة كانوا يتشيَّعون لعلى، ويرون استحقاقه على غيره، فلما عدل بها إلى سواه، أنفوا من ذلك، وأسفوا له؛ مثل الزبير، وسعد، وعمار بن ياسر، والمقداد بن الأسود، وغيرهم؛ إلا أن القوم لرسوخ قدمهم فى الدين وحرصهم على الألفة بين المسلمين لم يزيدوا فى ذلك على النجوى بالتأفف والأسف.

ثم لما فشا النكير على عثمان، والطعن فى الآفاق، كان عبد الله بن سبأ، ويعرف بابن السوداء، من أشد الناس خوضًا فى التشيع لعلى بما لا يرضاه من الطعن على عثمان وعلى الجماعة فى العدول إليه عن على، وأنه ولى بغير حق، فأخرجه عبد الله بن عامر عامل عثمان على البصرة منها إلى مصر، فاجتمع إليه جماعة من أمثاله جنحوا إلى الغلو فى ذلك وافتجار المذاهب الفاسدة فيه؛ مثل خالد بن ملجم، وسودان بن حمران، وكنانة بن بشر، وغيرهم، ثم كانت بيعة على ووقعة الجمل وصفين وانحراف الخوارج عليه بما أنكروا من التحكيم فى الدين، وتمحضت شيعته للاستماتة معه فى حرب معاوية.

ثم لما قتل على وبويع ابنه الحسن - رضى الله تعالى عنهما - فخرج عن الأمر لمعاوية سخط ذلك شيعة على منه، وأقاموا يتناجون فى السر باستحقاق أهل البيت

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٢٤ - ٣٢٥، ٣٣٦) والبخارى (٤٤٣٢، ٥٦٦٩، ٧٣٦٦) ومسلم (١٦٣٧/ ٢٢) وابن حبان (٦٥٩٧) من طريق الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس، به .

والميل إليهم، وسخطوا من الحسن ما كان منه من النزول لمعاوية، وكتبوا إلى الحسين بالدعاء له فامتنع، وواعدهم إلى هلاك معاوية، فساروا إلى محمد بن الحنفية، وبايعوه فى السر على طلب الخلافة متى ما أمكنه، وولى على كل بلد رجلًا، وأقاموا على ذلك، ومعاوية يكف بسياسته من غربهم، ويقلع الداء إذا تعين له منهم؛ كما فعل بحجر بن عدى وأصحابه، وقد تقدَّم ذكر قتلهم عند ذكر خلافته، ويروض من شماس أهل البيت، ويسامحهم فى دعوى تقدمهم واستحقاقهم، ولا يهيج أحدًا منهم بالتثريب عليه فى ذلك، إلى أن مات، وولى يزيد، فكان من خروج الحسين وقتله ما هو معروف، وكانت من أشنع الوقائع فى الإسلام عظمت بها الشحْناء، وتوغل الشيعة فى شأنهم وعظم النكير والطعن على من تولى ذلك وأَمَرَ به، أو قعد عنه، ثم تلاوموا على ما أضاعوا من أمر الحسين، وأنهم لم ينصروه، فندموا، ورأوا أن لا كفارة لذلك إلا الاستماتة دون ثأره، وسَمَّوْا أنفسهم التوابين، وخرجوا لذلك يقدمهم سليمان بن صُرَد الخزاعى، وجماعة معه من خيار أصحاب على، كرم الله وجهه.

وكان ابن زياد قد انتقض عليه العراق، فلحق بالشام ونزل منبج قاصدًا العراق، فزحفوا إليه وقاتلوه حتى قتل سليمان وكثير من أصحابه؛ كما ذكرنا ذلك فيما تقدم، وذلك سنة خمس وستين.

ثم خرج المختار بن أبى عبيد، ودعا لمحمد بن الحنفية كما قدمته.

وفشا التعصب لأهل البيت فى الخاصة والعامة بما خرج بهم عن حدود الحق.

واختلفت مذاهب الشيعة فيمن هو أحقُّ بالأمر من أهل البيت. وبايعَتْ كل طائفة لصاحبها سرًّا، ورسخ الملك لبنى أمية، فطوى هؤلاء الشيعة قلوبهم على عقائدهم فيها وتستروا بها، مع تعدُّد فرقهم وكثرة اختلافهم، وسار زيد بن على بن الحسين، وقرأ على واصل بن عطاء إمام المعتزلة فى وقته، وكان واصل يتردد فى إصابة على فى حرب الجمل وصفين، فلقن ذلك عنه، وكان أخوه محمد الباقر يعذله فى الأخذ عمن يرى تخطئة جده، وكان زيد - أيضًا - مع قوله بأفضلية عليٍّ على الصحابة يرى أن بيعة الشيخين صحيحة، وأن إمامة المفضول جائزة؛ خلاف ما عليه الشيعة، ويرى أنهما لم يظلما عليًّا.

ثم دعته الحال إلى الخروج بالكوفة سنة إحدى وعشرين ومائة، واجتمع له عامة الشيعة، ورجع عنه بعضهم، لما سمعوه يثنى على الشيخين، وأنهما لم يظلما عليًّا، وقالوا له: لم يظلمك هؤلاء، فرفضوا دعوته، وقالوا: نحن نرفضك إذنْ، فقال: اذهبوا فأنتم الرافضة، فسموا الرافضة من أجل ذلك، ثم قاتل يوسف بن عمر فقتله وبعث برأسه إلى هشام بن عبد الملك، وصلب شلوه بالكناسة، ولحق ابنه يحيى بخراسان فأقام بها، ثم دعته شيعته إلى الخروج، فخرج هناك سنة خمس وعشرين ومائة، فسرح إليه نصر بن سيار العساكر، فقتلوه، وبعث برأسه إلى الوليد، وصلب شلوه بالجوزجان، وانقرض شأن الزيدية هنالك.

وأقام الشيعة على شأنهم وانتظارِ أمرِهم، والدعاة لهم فى النواحى على الإجمال للرضا من أهل البيت، ولا يصرحون بمن يدعون له حذرًا عليه من أهل الدولة، وكانت شيعة محمد بن الحنفية أكثر شيعة أهل البيت، وكانوا يرون أن الأمر بعد محمد بن الحنفية لابنه أبى هاشم عبد الله بن محمد، وكان - يعنى أبا هاشم عبد الله ابن محمد - كثيرًا ما يفد على سليمان بن عبد الملك، فمر فى بعض أسفاره بمحمد ابن على بن عبد الله بن عباس بمنزله بالحميمة من أعمال البلقاء، فنزل عليه وأدركه المرض عنده فمات، وأوصى له بالأمر، وقد كان أعلم شيعته بالعراق وخراسان أن الأمر صائر إلى ولد محمد بن على هذا، وهو والد إبراهيم والسفاح، فلما مات أبو هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية، قصدت الشيعة محمد بن على وبايعوه سرًّا، وبعث الدعاة منهم إلى الآفاق على رأس مائة من الهجرة أيام عمر بن عبد العزيز، وأجابه عامة أهل خراسان، وبعث عليهم النقباء.

وتداول أمرهم هنالك، فتوفى محمد سنة أربع وعشرين ومائة، وعهد لابنه إبراهيم، وأوصى الدعاة بذلك، وكانوا يسمونه الإمام، ثم بعث أبا مسلم الخراسانى إلى أهل دعوته بخراسان ليقوم فيهم بأمره، وكتب إليهم بولايته، وذلك فى دولة مروان بن محمد المنبوز بالحمار، فعثر مروان على كتاب من إبراهيم الإمام إلى أبى مسلم الخراسانى، فأمر عامله على دمشق أن يأمر عامل البلقاء بالقبض على إبراهيم الإمام، فقبض عليه، وأوثقه شدًّا، وأرسل به إلى مروان بن محمد، فحبسه بحران ثم قتله؛ كما قدمنا ذكر ذلك قريبًا، وملك أبو مسلم خراسان، وزحف إلى العراق،

فملكها وغلبوا بنى أمية على أمرهم، وانقرضت دولتهم، فقامت دولة بنى العباس، وهذه الدولة من دول الشيعة؛ كما ذكرناه، وفرقتها منهم يعرفون بالكيسانية، وهم القائلون بإمامة محمد بن الحنفية بعد على بن أبى طالب، ثم بعده ابنه أبو هاشم عبد الله بن محمد، ثم بعده محمد بن على بن عبد الله بن عباس بوصيته؛ كما ذكرناه، إلى ابنه إبراهيم الإمام ابن محمد بن على بن عبد الله بن عباس، ثم من بعده إلى أخيه أبى العباس عبد الله السفاح، وهو عبد الله بن الحارثية، هكذا مساقها عند هؤلاء الكيسانية.

قلت: قال المسعودى[١]: هذه نسبة إلى كيسان، وهو المختار بن أبى عبيد الثقفى؛ فإن اسمه كيسان، وإنما نسبوا إليه؛ لأنه أول من دعا لمحمد بن الحنفية.

قال ابن خلدون: ويسمون أيضًا: الخرمانية؛ نسبة إلى أبى مسلم الخراسانى؛ لأنه كان يلقب خرمان.

ولبنى العباس - أيضًا - شيعة يسمون الراوندية من أهل خراسان، يزعمون أن أحق الناس بالإمامة بعد النبى ﷺ عمه العباس؛ لأنه وارثه وعاصبه؛ لقوله تعالى: ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنفال: ٧٥]، والناس منعوه من حقه فى ذلك وظلموه، إلى أن رده الله إلى ولده، ويذهبون إلى البراءة من الشيخين وعثمان، ويجيزون بيعة على؛ لأن العباس قال له: « يا بن أخى، هلم أبايعك فلا يختلف عليك اثنان »، ولقول داود بن على على منبرالكوفة يوم بويع السفاح: يا أهل الكوفة، إنه لم يقم فيكم إمام بعد رسول الله ﷺ إلا على بن أبى طالب، وهذا القائم فيكم، يعنى السفاح.

قال فى الإشاعة لأشراط الساعة فى أماراتها البعيدة: ومنها دولة بنى العباس: عن عمر بن الخطاب - رضى الله تعالى عنه -: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إذا أقبلت رايات ولد العباس من عقبات[٢] خراسان، جاءوا بنعى الإسلام، فمن سار تحت لوائهم لم تنله شفاعتى يوم القيامة » رواه أبو نعيم فى الحلية[٣].

(١) ينظر: مروج الذهب (٣/ ٨٧)

(٢) فى الحلية، والموضوعات: عِقاب، وهما صحيحان . جمع عقبة: عقاب، عقبات . والعقبة: المرقى الصعب من الجبال، والطريق فى أعلى الجبال .

(٣) أخرجه أبو نعيم فى الحلية (٥/ ١٩٢) وابن الجوزى فى الموضوعات (٨٥٢) والجوزقانى =

وعن على - رضى الله تعالى عنه - موصولاً: « مالى ولبنى العباس شيعوا أمتى - أى: صيروهم شيعًا وفرقًا - وسفكوا دماءها، ولبسوا ثياب السواد، ألبسهم الله ثياب النار » رواه الطبرانى[١].

والأحاديث الواردة فى ذمهم كثيرة؛ فلا نطول بذكرها.

فمن الفتن الواقعة فى زمانهم: قتال أهل المدينة، وقتل محمد النفس الزكية ابن عبد الله المحض ابن الحسن المثنى ابن الحسن السبط، وقتل أخيه إبراهيم بن عبد الله، وحبس أبيهما عبد الله المحض، حتى مات فى السجن، وقتل جماعة كثيرة من العلويين، وحبس الإمام جعفر الصادق فى زمن المنصور، وموت الإمام موسى الكاظم فى الحبس بالسمِّ فى زمن الرشيد هارون، وإدخال الفلسفة فى الإسلام، ونصرة أهل الاعتزال، وتكليف العلماء على القول بخلق القرآن[٢]، وقتلُ كثير منهم بسبب ذلك فى زمن المأمون، وضربُ الإمام أحمد بن حنبل فى زمنه، وزمنِ أخيه المعتصم وابنه الواثق، ولم تتفق فى زمانهم الكلمة، ولم تصف لهم الخلافة، وأكثرهم أدعياء، ومنهم ظلمة فسقة، وأحسن من فيهم المتوكل؛ لأنه أول من رجع

= فى الأباطيل (١/ ٢٧٥) من حديث عمر . وقال الجوزقانى: حديث باطل . وقال ابن الجوزى: هذا حديث موضوع بلا شك وواضعه من لا يرى لدولة بنى العباس، وينظر الفوائد المجموعة ص (٤١٠ - ٤١١) .

(١) أخرجه الطبرانى فى الكبير(١٤٢٦) وفيه يزيد بن ربيعة وهو ضعيف، وينظر: المجمع (٥/ ٢٤٧) .

(٢) يطلق القرآن على الكلام النفسى القديم على معنى أنه صفة قديمة قائمة بذاته تعالى، وعلى الكلام اللفظى الذى هو القرآن على معنى أنه خلقه، وليس لأحد فى أصل تركيبه كسبٌ. وعلى هذا المعنى يحمل قول السيدة عائشة: «ما بين دفتى المصحف كلام الله» وإطلاقه عليهما قيل بالاشتراك اللفظى حقيقى فى النفسى، مجاز فى اللفظى، وعلى كل فمن أنكر أن ما بين دفتى المصحف كلام الله فقد كفر، إلا أن يريد أنه ليس هو الصفة القائمة بذاته. ومع كون اللفظ الذى نقرؤه حادثًا لا يجوز أن يقال: القرآن حادث إلا فى مقام التعليم، لأنه يطلق على الصفة القائمة بذاته أيضًا، لكن مجازًا على الأرجح، فربما يتوهم من إطلاق أن القرآن حادث حدوث الصفة القديمة القائمة بذاته تعالى . ولذلك ضُرِب الإمام أحمد بن حنبل وحبس على أن يقول بخلق القرآن، فلم يقبل، وضرب بالسياط حتى غُشى عليه. وامتنع باقى الأئمة من القول بخلق القرآن، وقد وقع فى ذلك امتحان كبير لخلق كثير من أهل السنة، فخرج البخارى فارًا وقال: اللهمّ اقبضنى إليك غير مفتون، فمات بعد أربعة أيام. وسجن عيسى بن دينار عشرين سنة. وسئل الشعبى فقال: أما التوراة، والإنجيل، والزبور، والفرقان، فهذه الأربعة حادثة، وأشار إلى أصابعه فكانت سبب نجاته . واشتهرت أيضًا =

عن الاعتزال، ونصر السنة؛ لكنه كان فى التعصب على جانب عظيم بحيث إنه هَدَمَ

= عن الإمام الشافعى (رضى الله عنه)، ويؤيد هذا قول العلامة اللقانى فى جوهرته:

ونـزه الـقـرآن أى كـلامـه عن الحدوث واحذر انتقامه

فـكـل نـصّ لـلـحـدوث دلا احمل على اللفظ الذى قد دلا

فقوله رضى الله عنه: واحذر انتقامه «أى: وخف وعيد الله وانتقامه منك إن قلت بحدوثه» يؤيِّد هذا ما جاء عن رسول الله ﷺ وهو ما رواه الإمام أبو عبد الله بن بطة العكبرى فى كتابه «الإبانة»، حدثنا أبو بكر محمد بن جعفر بن أيوب الصابونى الحرّانى، حدثنا محمد ابن الحارث الخولانى الوردى، ومحمد بن موسى النسائى، قال: حدثنا أبو جعفر أحمد بن إبراهيم، أخبرنا الوليد بن مسلم، حدثنا الأوزاعى عن حسّان بن عطية عن أبى الدرداء أنه سأل رسول الله ﷺ عن القرآن فقال: «كلام الله غير مخلوق» وشبهة الخصوم فى ذلك ظاهر قوله تعالى: ﴿وخلق كل شىء﴾، والقرآن شىء، فيكون خالقًا له. وكذا قوله تعالى: ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ ﴾ [الأنبياء: ٢] المراد من الذكر هو القرآن. وكذا قوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ [الزخرف: ٣] والجعل والخلق واحد. ومن حيث المعقول قالوا: إن الكلام فى الشاهد من جنس الحروف والأصوات، فيكون فى الغائب كذلك. ويستحيل قيام الحروف والأصوات بذات القديم فى الأزل، فيكون الكلام حادثًا غير قائم بذاته.

ولأن فى القرآن خطابات بالأمر والنهى لأشخاص معينين نحو قوله لموسى: ﴿ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ﴾ [طه: ١٢]، وقوله لموسى وهارون: ﴿ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي اذْهَبَا ﴾ [طه: ٤٢، ٤٣]، وقوله ليحيى: ﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾ [مريم: ١٢]، وكذلك الأوامر والنواهى لغيرهم، وكانوا معدومين فى الأزل، فلو كان أزليًا لكان هذا أمرًا ونهيًا للمعدوم، وإنه سفه. وأيضًا فيه إخبار عن أمور كانت ماضية نحو قوله: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ [نوح: ١]، ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ ﴾ [القصص: ٧]، ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ ﴾ [المؤمنون: ٥٠] وغير ذلك من الآيات، فلو كان أزليًا لكان الإخبار عنها قبل وجودها كذبًا، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

والجواب عن هذه الشبه: أن هذا محمول على اللفظ أى على القرآن بمعنى اللفظ المنزل على نبينا ﷺ المتعبد بتلاوته المتحدى بأقصر سورة منه. ولذلك قال العلامة اللقانى كما سبق:

فـكـل نـصّ لـلـحـدوث دلاً احمل على اللفظ الذى قد دلا

أى احمل على اللفظ الذى دل على الصفة القديمة دلالة الأثر على منشئه. وخلاصة القول فى هذا المقام: أن كل ظاهر من الكتاب والسنة دل على اللفظ المقروء لا على الكلام النفسى. لكن يمتنع أن يقال القرآن مخلوق إلا فى مقام التعليم. والقرآن يطلق على كل من اللفظى والنفسى وإن كان الأكثر إطلاقه على اللفظى. وعلى كل فالقول بالحدوث ربما يوهم الصفة القديمة وهو محال، لذلك امتنع القول بحدوث القرآن سدًا للذرائع. وهذه المسألة قد انقرضت منذ زمن طويل، والحمد لله ولكن أوردناها هنا؛ لإيضاح ما قد يغمض على كثير من القراء الكرام من المراد بمسألة «خلق القرآن». ينظر: تحقيق صفة الكلام لشيخنا/ حافظ محمد مهدى.

قبر الحسين بن على - رضى الله تعالى عنه - وجعله مزرعة، ومنع الناس من زيارته، وقد قال بعض الشعراء فى ذلك: [من الكامل]

تاللَّهِ إنْ كانَتْ أميةُ قد أَتَتْ قَتْلَ ابْنِ بِنْتِ نَبيهَا مَظْلُومَا
فَلَقَدْ أتاه بَنُو أَبِيهِ بمِثْلِهِ هذا لَعَمْرُكَ قَبْرُهُ مَهْدُومَا
أَسِفُوا على ألاَّ يَكُونُوا شَارَكُوا فِى قَتْلِهِ فَتَتَبَّعُوهُ رَمِيمَا

وقال آخر: [من الكامل]

تاللَّهِ ما فَعَلَتْ عُلُوجُ أميَّةٍ مِعْشَارَ ما فَعَلَتْ بَنُو العَبَّاسِ

نعم، كان المهتدى منهم زاهدًا ناسكًا يتأسى بعمر بن عبد العزيز فى هديه، لكنه قتل بعد سنة، ولم تطل أيامه.

خلافة أبى العباس عبد الله بن محمد السفاح(١)

قد قدمت كيف كان أصل هذه الدعوة وظهورها بـ« خراسان » على يد أبى مسلم عبد الرحمن الخراسانى، ثم استيلاء شيعتهم على خراسان والعراق، ثم قتل مروان ابن محمد بـ« بوصير ».

بويع للسفاح هذا بالخلافة يوم الجمعة ثالث عشر ربيع الأول، سنة اثنتين وثلاثين ومائة، وفى المسامرة بويع فى الكوفة يوم الخميس، ومن غد يوم الجمعة لعشرين خلت من ربيع الأول من السنة المذكورة بويع بيعة العامة.

وهو عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم ابن عبد مناف بن قصى، السفاح المشهور بابن الحارثية كان أصغر من أخيه المنصور أبي جعفر عبد الله بن محمد، كان كريمًا جوادًا.

وفي كتاب قلادة النحر لأبي مخرمة: ما حصل في زمانه بينه وبين الطالبيين من الأشراف شيء، ولا قام عليه أحد منهم، بل قربهم وأحسن إليهم، وكانت المحبة صافية بينهم، وقام بأمر الدولة العباسية أبو مسلم الخراساني، وتأطدت له الأعمال

---

(١) ينظر ترجمته فى: شذرات الذهب ١/ ١٨٣ و١٩٥، فوات الوفيات ٢/ ٢١٥ - ٢١٦، البداية والنهاية ١٠/ ٥٢ و٥٨، تاريخ الطبرى ٧/ ٤٢١، تاريخ خليفة ٤٠٩، تاريخ بغداد ١٠/ ٥٣، تاريخ الكامل لابن الأثير ٥/ ٤٠٨، سير أعلام النبلاء ٦/ ٧٧، مروج الذهب ٣/ ٢٦٦، المعارف ٣٧٧، أنساب الأشراف ٣/ ١٨٣، تاريخ الموصل ١٦١، تاريخ بغداد ١٠/ ٥٣، الوافى بالوفيات ١٧/ ٤٣٣، تاريخ الخلفاء ٢٠٦، الذهب المسبوك للمقريزى ٣٦ .

من الشرق إلى الغرب، وحصل عنده برد النبي ﷺ، وأما القضيب والمخصرة، فإن مروان بن محمد لما تيقن بالقتل دفنهما حسدًا، فدل عليهما غلام، فأخرجهما عامر ابن إسماعيل المذحجي الداخل على مروان الكنيسة، وأرسل بهما إلى السفاح، واسم أمه ريطة بنت عبيد الله، من ذرية حارث بن مالك بن ربيعة؛ ولذلك يقال للسفاح ابن الحارثية، وكان بنو أمية يمنعون بني هاشم من نكاح الحارثيات؛ لأنهم كانوا يرون أن زوال ملكهم على يد ابن حارثية، فلما ولى الخلافة عمر بن عبد العزيز، أتاه محمد بن علي والد السفاح فقال: أريد أتزوج ابنة خالي من بني الحارث، فتأذن لي ؟ فقال له عمر: تزوج من شئت، فتزوج ريطة المذكورة، فأولدها السفاح، فانتقلت الخلافة إليه، يفعل الله ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا راد لقضائه، ولا مانع لحكمه.

ولما استقر السفاح في الخلافة، خرج عليه بعض أشياع بني أمية وقوادهم، وكان أول من نقض عليه حبيب بن مرة المري من قواد مروان، كان بحوران والبلقاء، خاف على نفسه وقومه، فخلع وبيض، ومعناه لبس البياض، ونصب الرايات البيض؛ مخالفة لشعار العباسية في ذلك، وتابعه قيس ومن يليهم، والسفاح يومئذ بالحيرة، فزحف إليه عبد الله بن على عم السفاح، وبينما هو في محاربته، بلغه الخبر بأن أبا الورد مجزأة بن الكوثر بن زفر بن الحارث الكلابي نقض بقنسرين، وكان من قواد مروان، فلما انهزم مروان، وقدم على عبد الله بن على، بايعه ودخل في دعوة العباسيين، وكان ولد مسلمة بن عبد الملك مجاورين له ببالس، فبعث بهم وبنسائهم القائد الذي جاءه من قبل عبد الله بن علي، وشكوا ذلك إلى أبي الورد، فقتل القائد، وخلع معه أهل قنسرين، وكاتبوا أهل حمص في الخلاف، وقدموا عليهم أبا محمد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية، وقالوا: هو السفياني الذي يذكر، ولما بلغ ذلك عبد الله بن علي، وادع حبيب بن مرة، وسار إلى أبي الورد بقنسرين، ومر بدمشق فخلف بها أبا غانم عبد الحميد بن ربعي الطائي في أربعة آلاف فارس مع حرمه وأثقاله، وسار إلى حمص فبلغه أن أهل دمشق خلعوا وبيضوا، وأقاموا فيهم عثمان بن عبد الأعلى الأزدي، وأنهم هزموا أبا غانم وعسكره، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وانتهبوا ما خلفه عبد الله بن علي عندهم، فأعرض عن ذلك وسار

للقاء السفياني وأبي الورد، وقدم أخاه عبد الصمد في عشرة آلاف، فانكشف ورجع إلى أخيه عبد الله بن علي منهزمًا، فزحف عبد الله في جماعة القواد، ولقيهم بمرج الأخرم، وهم في أربعين ألفًا فانهزموا. وثبت أبو الورد في خمسمائة من قومه فقتلوا جميعًا، وهرب أبو محمد إلى تدمر وراجع أهل قنسرين طاعة العباسية، ورجع عبد الله بن على إلى قتال أهل دمشق ومن معهم، فهرب عثمان بن عبد الأعلى، ودخل أهل دمشق في الدعوة، وبايعوا لعبد الله بن علي، ولم يزل أبو محمد السفياني بأرض الحجاز متغيبًا إلى أيام المنصور، فقتله زياد بن عبد الحارثي عامل الحجاز يومئذ للمنصور، وبعث رأسه إلى المنصور مع ابنين له أسيرين، فأطلقهما المنصور.

ثم خلع أهل الجزيرة وبيضوا، وكان السفاح بعث إليها ثلاثة آلاف من جنده مع موسى بن كعب من قواده، وأزالهم بحران، وكان إسحاق بن مسلم العقيلي عامل مروان على أرمينية، فلما بلغته هزيمة مروان، سار عنها، واجتمع إليه أهل الجزيرة، وحاصروا موسى بن كعب بحران شهرين، فبعث السفاح أخاه أبا جعفر إليهم، وكان محاصرًا لابن هبيرة بواسط، فسار لقتال إسحاق بن مسلم، وهو بقرقيسيا والرقة، وقد خلعوا وبيضوا، وسار نحو حران، فأجفل إسحاق بن مسلم عنها ودخل الرُّهَا، وبعث أخاه بكار بن مسلم إلى قبائل ربيعة بنواحي ماردين، ورئيسهم يومئذ بريكة من الحرورية، فصمد إليهم أبو جعفر المنصور فهزمهم، وقتل بريكة في المعركة، وانصرف بكار إلى أخيه إسحاق، فخلفه إسحاق بالرها، وسار إلى سميساط، وجاء عبد الله بن علي فحاصره، ثم جاء أبو جعفر المنصور، فحاصروه سبعة أشهر، وهو يقول: لا أخلع البيعة من عنقي حتى أتيقن مَوْتَ صاحبها - يعني مروان بن محمد - فلما تيقن موته، طلب الأمان، فاستأذنوا السفاح، فأمرهم بتأمينه، وخرج إسحاق بن مسلم إلى أبي جعفر؛ فكان من آثر أصحابه وخواصه.

قلت: لله أبو إسحاق بن مسلم هذا ما أوقفه عند عقده، وأوفاه بميثاقه وعهده.

واستقام أهل الجزيرة والشام، وولّى السفاح أخاه أبا جعفر على الجزيرة وأرمينية وأذربيجان؛ فلم يزل عليها حتى جاءته الخلافة بعد وفاة أخيه السفاح، ولقد صدق من قال : [من الكامل]

لاَ يَسْلَمُ الشَّرَفُ الرفيعُ مِنَ الأذَىٰ حَتَّىٰ يُرَاقَ عَلَىٰ جَوَانِبِهِ الدَّمُ

ذكر ابن الأثير[١]؛ أن أبا جعفر المنصور لما أمره أخوه السفاح بحصار ابن هبيرة أحد الناقضين عليه، حاصره بـ« واسط » ، وكان ابن هبيرة خندق على نفسه ، فقال أبو جعفر : إن ابن هبيرة يخندق على نفسه كالنساء، فبلغ ذلك ابن هبيرة، فأرسل إلى أبى جعفر يقول : أنت الذى تقول كذا وكذا، فابرز إليَّ لترى[٢] ، فأرسل إليه المنصور: لم أجد لى ولك مثلاً فى ذلك إلا كالأسدِ لقى خنزيرًا، فقال له الخنزير: بارزنى[٣]، فقال له الأسد: ما أنت لى بكفء، فإن [بارزتك و][٤] نالنى منك سوء كان عارًا عليَّ، وإن قتلتك قتلت خنزيرًا، فلم أحصل على حمد، ولا فى قتلى إياك فخر، فقال له الخنزير: إن لم [تبارزنى] لأُعرفنَّ السباع أنك جبنت عني، فقال له الأسد: احتمال عار كذبك أيسر من تلطخ براثنى بدمك.

قال الحافظ الذهبى فى دول الإسلام[٥]: لما صلى السفاح بالناس أول جمعة، خطب، فقال فى خطبته: الحمد لله الذى اصطفى الإسلام لنفسه، فكرمه وشرفه وعظمه، واختاره لنا وأيده بنا، وجعلنا أهله وكهفه وحصنه والقوام به والذابين عنه. ثم ذكر قرابتهم فى آيات القرآن إلى أن قال: فلما قبض الله نبيه، قام بالأمر أصحابه إلى أن وثب بنو حرب ومروان، فجاروا واستأثروا، فأملى الله لهم حينًا حتى آسفوه[٦]، فانتقم منهم بأيدينا، ورد علينا حَقَّنا ليمنَّ بنا على الذين استضعفوا فى الأرض، وختم بنا كما افتتح بنا، وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله، يا أهل الكوفة، أنتم محل محبتنا، ومنزل[٧] مودتنا، لم تفتروا عن ذلك، ولم يثنكم عنه تحامل أهل الجور، فأنتم أسعد الناس بنا، وأكرمهم علينا، ولقد زدت فى عطياتكم مائة مائة،

---

(١) ينظر: الكامل لابن الأثير ٥/ ٤٣٨ - ٤٣٩، ووفيات الأعيان لابن خلكان ٦/ ٣١٨ .
(٢) فى ط: فذين. والمثبت من وفيات الأعيان .
(٣) فى ط: بادرنى. والمثبت من الوفيات .
(٤) المثبت من وفيات الأعيان .
(٥) ينظر: سير أعلام النبلاء ٦/ ٧٨، الطبرى ٧/ ٤٢١، ابن الأثير ٥/ ٤١١ و٤١٥ .
(٦) فى ط: أمنوه. والمثبت من تاريخ الإسلام.
(٧) فى تاريخ الإسلام: وقبول .

فاستعدوا، فأنا السفاح المبيح، والثائر المبير، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[١].

وفى سنة ست وثلاثين ومائة: استأذن أبو مسلم الخراسانى السفاح فى القدوم عليه للحجِّ، وكان منذ ولى خراسان لم يفارقها، فأذن له فى القدوم بخمسمائة من الجند، فكتب إليه أبو مسلم: إنى قد وترت الناس ولا آمن على نفسى، فأذن له فى ألف، وقال: إن طريق مكة لا يحتمل العسكر، فسار فى ثمانية آلاف فرقهم ما بين نيسابور والرى، وخلف مواليه وخزائنهُ بالرى، وقدم فى ألف، وخرج القواد بأمر السفاح لتلقيه، ودخل على السفاح، فأكرمه وأعظمه، واستأذن فى الحج، فأذن له، وقال: لولا أن أبا جعفر يريد الحجَّ، لاستعملتك[٢] على الموسم، وأنزله بقربه، وكان قد كتب إلى أبى جعفر: إن أبا مسلم استأذننى فى الحج، فأذنتُ له وهو يريد ولاية الموسم، فاسألنى أنت فى الحج، فلا يطمع أن يتقدمك، فقدم أبو جعفر إلى الأنبار. وكان بين أبى جعفر وأبى مسلم - من حين بعث السفاح أبا جعفر إلى خراسان ليأخذ عليه البيعة له ولأبى جعفر من بعده وتولى أبو مسلم على خراسان - شيء، فاستخف أبو مسلم إذ ذاك بأبى جعفر، فلما قدم أبو جعفر الآن، أغرى السفاح بقتل أبى مسلم، فأذن له فى قتله، ثم ندم، فكفه عن ذلك، وسار أبو جعفر إلى الحجِّ، ومعه أبو مسلم[٣].

وفى كتاب الأذكياء لأبى الفرج بن الجوزى حكاية طريفة، عن خالد بن صفوان التميمى؛ أنه دخل على أبى العباس السفاح، وليس عنده أحد فقال: يا أمير المؤمنين، إنى والله ما زلت مذ قلَّدك الله تعالى خلافته، أطلب أن أصير إلى مثل هذه الخلوة، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بإمساك الباب حتى أفرغ، فعل، فأمر السفاح الحاجب بذلك، فقال ابن صفوان: يا أمير المؤمنين، إنى فكرت فى أمرك، وأجلت فكرى فيك، فلم أر أحدًا له قدرة واتساع فى الاستمتاع بالنساء مثلك، ولا أضيق فيهن عيشًا؛ إنك ملكت نفسك امرأة من نساء العالمين فقصرت نفسك عليها، فإن مرضت مرضت، وإن غابت غبت، وحرمت نفسك التلذذ باستطراف الجوارى،

(١) ينظر تاريخ الطبرى (٧/ ٤٢٥)، وتاريخ الإسلام حوادث سنة اثنتين وثلاثين ومائة، بيعة السفاح.
(٢) عبارة الطبرى: لوليتك.
(٣) ينظر: تاريخ الإسلام حوادث سنة ست وثلاثين ومائة، وتاريخ الطبرى (٧/ ٤٦٨ - ٤٦٩).

ومعرفة أخلاقهن والتلذذ بما يشتهى منهنَّ؛ فإن منهن الطويلة التى تشتهى لجسمها، والبيضاء التى تحب لروعتها، والسمراء اللعساء، والصفراء الذهبية ، ومولدات المدينة والطائف واليمامة ذوات الألسن العذبة، والجواب الحاضر، وبنات الملوك، وما يشتهى من نضارتهن ولطافتهن، وتخلل خالد لسانه، فأطنب فى صفات ضروب الجوارى وشوقه إليهن، فلما فرغ من كلامه، قال السفاح: ويلك ! ملأت مسامعى ما أشغل خاطرى، ما سلك فيها أحسن من هذا، فأعدْ على كلامك؛ فقد وقع منى موقعًا، فأعاده خالد بأحسن مما ابتدأه، فقال له السفاح: انصرف، فانصرف، وبقى السفاح مفكرًا، فدخلت عليه أم سلمة زوجته، وكان قد حلف ألاَّ يتخذ معها سرية ووفى، فقالت: إنى أنكرت منك يا أمير المؤمنين، فهل حدث شيء، أو أتاك خبر ارتعت له ؟ قال: لا، فلم تزل به حتى أخبرها بمقالة خالد، فخرجت إلى مواليها وأمرتهم بضرب خالد، قال خالد: فخرجت من الدار مسرورًا بما ألقيت إلى أمير المؤمنين، ولم أشكَّ فى الصلة.

فبينما أنا واقف؛ إذ أقبلوا يسألون عنى فحققت الجائزة، فقلت: لهم: ها أنا، فاستبق أحدهم بخشبة فغمزت برذونى، فلحقنى وضرب عجز البرذون، وركضت فيهم، واستخفيت فى منزلى أيامًا، ووقع فى قلبى أنى أتيت من أم سلمة، فبينا أنا ذات يوم جالس فى المنزل لم أشعر إلا بقوم قد هجموا على، فقالوا: أجب أمير المؤمنين، فسبق فى قلبى أنه الموت، فقلت إنا لله وإنا إليه راجعون، لم أر دم شيخ أضيع من دمى، وركبت إلى دار أمير المؤمنين، فأصبته جالسًا، ولحظت فى المجلس بيتًا عليه ستور رقاق، وسمعت حسًا من خلف الستر، فأجلسنى ثم قال: ويحك يا خالد، وصفت لى صفة فأعدها على، فقلت: نعم يا أمير المؤمنين، أعلمتك أن العرب إنما اشتقت اسْمَ الضرتين من الضرر، وأن أحدًا لم يكن عنده من النساء أكثر من واحدة إلا كان فى ضُرٍّ وتنغيص.

فقال السفاح: لم يكن هذا من كلامك أولاً، قلت: بلى يا أمير المؤمنين، وأعلمتك أن الثلاث من النساء يدخلْنَ على الرجل البؤس، ويشيبن الرأس، فقال السفاح: برئتُ من رسول الله ﷺ؛ إن كنت سمعت هذا منك أو مر فى حديثك لى، قلت: بلى يا أمير المؤمنين، وأخبرتك أن الأربع من النساء شَرٌّ مجموع لصاحبه

يشبنه ويهرمنه، قال السفاح: لا والله ما سمعت هذا منك أولاً، قلت: بلى والله، فقال السفاح: أتكذبنى ؟ قلت: فتقتلنى ؟ ! نعم، والله يا أمير المؤمنين، إن أبكار الإماء رجال إلا أنه ليس لهنَّ خصى، قال خالد: فسمعت ضحكًا من خلف الستر، ثم قلت: والله وأخبرتك أن عندك ريحانةَ قريشٍ، وأنت تطمح بعينيك إلى النساء والجوارى، فقيل لى من وراء الستر: صدقتَ والله يا عماه بهذا حدثته، ولكنه غير حديثك، ونطق بما فى خاطره عن لسانك، فقال السفاح: مالك، قاتلك الله ؟ قال خالد: فانسللت وخرجت، فبعثت لى أم سلمة بعشرة آلاف درهم وبرذون وتخت ثياب، وقالت: الزم ما سمعناه منك.

ويروى أنه سهر ذات ليلة، وعنده أناس من مضر، وفيهم خالد بن صفوان بن أهتم التميمى المذكور، وناس من اليمن فيهم إبراهيم بن مخرمة الكندى، فقال أبو العباس: هاتوا فافلعوا ليلتنا بمحادثتكم، فبدأ إبراهيم بن مخرمة فقال: يا أمير المؤمنين، إن أخوالك هم الناس، وهم العرب الأول الذين كانت لهم الدنيا، وكانت لهم اليد العليا، ما زالوا ملوكًا وأربابًا تداولوا الرياسة كابرًا عن كابر، وآخرًا عن أول، يلبس آخرهم سرابيل أولهم، يعرفون الحمد ومآثر الحمد، منهم النعمانان والحمادان والقابوسان، ومنهم غسيل الملائكة، ومَنِ اهتز لموته العرش، ومنهم مكلِّم الذئب، ومن كان يأخذ كل سفينة غصبًا، ويجرى فى كل نائية نهبًا، ومنهم أصحاب التيجان وكماة الفرسان، ليس من نبل، وإن عظم خطره، وعرف أثره، من فرس رائع، أو سيف قاطع، أو مجن واق، أو درع حصينة، أو درة مكنونة، إلا وهم أربابها وأصحابها. إن حل ضيف قروه، وإن سألهم سائل أعطوه، لا يبلغهم مكاثر، ولا يطاولهم مطاول ولا مفاخر. فمن مثلهم يا أمير المؤمنين، البيت يمان، والحجر يمان، والركن يمان، والسيف يمان.

فقال أبو العباس ما أرى مضر تقول بقولك هذا، وما أظن خالدًا يرضى بما ذكرت.

فقال خالد: إن أذن أمير المؤمنين وأمنت الموجدة، تكلمت.

فقال أبو العباس: تكلَّم ولا ترهب أحدًا.

فقال خالد: يا أمير المؤمنين، خاب المتكلِّم وأخطأ المتقحم؛ إذ قال بغير علم،

ونطق بغير صواب، أو يفخر على مضر، ومنهم النبى ﷺ، والخلفاء من أهل بيته، وهل أهل اليمن إلا دابغ جلد، أو قائد قرد، أو حائك برد ؟ ! دل عليهم هدهد، وغرقهم جرذ، وملكتهم أم ولد. والله يا أمير المؤمنين، ما لهم ألسنة فصيحة، ولا سنة صحيحة، ولا حجة تدل على كتاب، ولا يعرفون بها صواب، وإنهم لبإحدى الخصلتين، إن جازوا قصدوا ما أكلوا، وإن حادوا عن حكمنا قتلوا.

ثم التفت إلى الكندى، فقال: أتفخر بالفرس الرائع، والسيف القاطع، والترس الواقى والدرع الحصينة، وأشباه ذلك ؟ ! أفلا تفخر بأكرم الأنام وخيرهم محمد ﷺ ؟ ! فالمن من الله - عز وجل - عليكم إذ كنتم من أتباعه وأشياعه، فمنا نبى الله المصطفى، وخليفة الله المرتضى، ولنا السؤدد والعلا، وفينا العلم والحجا، ولنا الشرف المقدم، والركن الأعظم، والبيت المكرم، والجناب الأخضر، والعدد الأكثر، والعز الأكبر، ولنا البيت المعمور، والمشعر المشهور، والسقف المرفوع، وزمزم وبطحاؤها، وجبالها وصحراؤها، وحياضها وغياضها، وأحجارها وأعلامها، ومنابرها وسقايتها، وحجابها وسدنة بيتها، فهل يعدلنا عادل، أو يبلغ فخرنا قائل ؟ ! ومنا أعظم الناس، عبد الله بن عباس، أعلم البشر، الطيبة أخباره، الحسنة آثاره، ومنا الوصى وذو النورين، ومنا الصديق والفاروق، ومنا أسد الله وأسد رسوله سيد الشهداء حمزة، ومنا ذو الجناحين جعفر الطيار، ومنا الكماة والفرسان، ومنا الفقهاء والعلماء، ومنا عرف الدين، ومن عندنا أتاكم اليقين، فمن زاحمنا زحمناه، ومن عادانا اصطلمناه، ومن فاخرنا فخرناه، ومن بدل سنتنا قتلناه.

ثم التفت إلى الكندى فقال: كيف علمك بلغات قومك ؟ قال: إنى بها عالم، فقال: ما الجحمة فى لغتكم ؟ قال: العين، قال: فما المبزم ؟ قال: السن، قال: فما الشناتر ؟ قال: الأصابع، قال: فما الصنبارة ؟ قال: الأذن، قال: فما القلوب ؟ قال: الذئب، قال: فما الزب ؟ قال: اللحية، قال: أفتقرأ كتاب الله تعالى ؟ قال: نعم، قال: فإن الله تعالى يقول: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ [يوسف: ٢]، وقال: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء: ١٩٥]، وقال جل ذكره: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ ﴾ [إبراهيم: ٤]، فقال عز وجل: ﴿ السن بالسن والعين بالعين ﴾ [المائدة: ٤٥] ولم يقل: الجحمة بالجحمة،

وقال: ﴿ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم ﴾ [البقرة: ١٩]، ولم يقل: شناترهم فى صنابرهم، وقال: ﴿ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ ﴾ [المائدة: ٤٥]، ولم يقل: المبزم بالمبزم، وقال: ﴿ فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ﴾ [يوسف: ١٧]، ولم يقل: أكله القلوب، وقال: ﴿ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي ﴾ [طه: ٩٤]، ولم يقل: بزبى، وإنى سائلك يا بن مخرمة عن ثلاث خصال، فإن أقررت بها قهرت، وإن جحدتها كفرت، قال: وما هى ؟ قال: أتعلم أن فينا نبى الله المصطفى ﷺ ؟ قال: اللهم نعم، قال: أفتعلم أن فينا كتاب الله المنزَّل ؟ قال: اللهم نعم، قال: أفتعلم أن فينا خليفة الله المرتضى ؟ قال: اللهم نعم، قال: فأى شيء يعدل هذه الخصال ؟ قال أبو العباس: اكفف عنه، فوالله ما رأيت غلبة قطُّ أنكَرَ منها، والله ما فرغت من كلامك يا أخا مضر، حتى توهمتُ أنه سيعْرَجُ بسريرى إلى السماء. ثم أمر لخالد بمائة ألف درهم.

وفى ابن خلكان: أن السفاح نظر يومًا إلى المرآة، وكان من أجمل الناس وجهًا، فقال: اللهم، إنى لا أقول كما قال سليمان بن عبد الملك، ولكنى أقول: اللهم عمرنى طويلاً فى طاعتك ممتعًا بالعافية. فما استتمَّ كلامه حتى سمع غلامًا يقول لآخر: الأجل بينى وبينك شهران وخمسة أيام، فتطير من كلامه، وقال: حسبى الله، ولا قوة إلا بالله، عليه توكلت، وبه استعنت، فما مضت المدة المذكورة حتى أخذته الحمى، ومرض، فمات بعد شهرين وخمسة أيام بالجدرى بالأنبار مدينته التى بناها، وسماها: الهاشمية، وهو ابن إحدى وثلاثين سنة، وقيل: ثلاث وثلاثين، وكانت وفاته يوم الأحد لثلاث عشرة ليلة خلت من ذى الحجة، سنة ست وثلاثين ومائة، ومدة خلافته أربع سنين وتسعة أشهر، وولادته سنة خمس ومائة، وكان أبيض مليحًا جميلاً حسن اللحية والهيئة.

* * *

خلافة أبى جعفر المنصور(١)

هو عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، أخو السفاح عبد الله المتقدم قبله، كان السفاح، ولاَّه الحج سنة ست وثلاثين، ومات السفاح فى ثالث عشر ذى الحجة منها، فأتاه الخبر، وهو عائد من الحج، وأتته الخلافة بمكانٍ يعرف بالصافية، فقال: صفا أمرنا، وكان السفاح قد عهد قبل موته بالخلافة لأخيه أبى جعفر ومن بعده لعيسى ابن أخيهما موسى بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس، وجعل العهد فى ثوب وختمه بخواتيم أهل البيت، ودفعه إلى عيسى، ولما توفى السفاح، وكان أبو جعفر بمكة حاجًا، أخذ له البيعة على الناس عيسى بن موسى، وكتب إليه بالخبر، فجزع واستدعى أبا مسلم، وكان قد حج معه؛ كما تقدَّم ذكره، فأقرأه الكتاب، فبكى أبو مسلم واسترجَعَ، وسكَّن أبا جعفر عن الجزع، وبايع له أبو مسلم والناس، وأقبلا حتى قدما الكوفة، ويقال: إن أبا مسلم كان فى رجوعه من مكة متقدِّمًا على أبى جعفر، وأن الخبر أتاه قبله، فكتب إليه يعزيه ويهنيه بالخلافة، وبعد يوم كتب له ببيعته، فلما قدم أبو جعفر الكوفة، سار منها إلى الأنبار، فسلم إليه عيسى بن موسى بيوت الأموال والدواوين، واستقام أمر أبى جعفر المنصور.

قال ابن خلدون: تولى أبو جعفر المنصور الخلافة فى أول سنة سبع وثلاثين ومائة، وكان أول ما فعل أن قتل أبا مسلم الخراسانى صاحب دعوتهم وممهد دولتهم، وذلك لما كان أبو مسلم يستخفُّ بأبى جعفر من حين بعثه السفاح إلى خراسان؛ ليأخذ البيعة له ولأبى جعفر من بعده؛ كما ذكرت آنفًا، ولأمور أخر حدثت عن أبى مسلم؛ منها: أنه لما حج معه، كان يؤثر نفسه على المنصور، ويتقدم بالإحسان إلى الوفود، وإصلاح الطريق والمياه، وكان الذكر له، ولما صدرا

(١) ينظر ترجمته فى: البداية والنهاية ١٠/ ١٢١ - ١٢٩، العقد الثمين ٥/٢٤٨، تاريخ الخلفاء ٢٥٩ - ٢٧١، شذرات الذهب ١/ ١٨٥ و٢١٣ و٢١٦، المعارف ٣٧٧ - ٣٧٨، مروج الذهب ٣/ ٢٩٤، تاريخ الطبرى ٧/ ٤٦٩، الوزراء والكتاب ٩٦ - ١٤٠، تاريخ بغداد ١٠/ ٥٣، الكامل لابن الأثير ٥/ ٤٦١، العبر للذهبى ١/ ٢٢٨، سير أعلام النبلاء ٧/ ٨٣، دول الإسلام للذهبى ٩٣ - ٩٥، فوات الوفيات ٢/ ٢١٦ - ٢١٧، وفيات الأعيان ٢/ ٢٩٤ - ٢٩٧، تاريخ الإسلام للذهبى الطبقة السادسة عشرة ص ٤٦٥ .

عن الموسم، تقدَّم ولقيه الخبر بوفاة السفاح قبل المنصور، فبعث إلى أبى جعفر يعزيه ولم يهنئه بالخلافة، ولا رجع إليه ولا انتظره، فغضب أبو جعفر وكتب إليه وأغلظ فى العتاب، فكتب إليه يهنئه بالخلافة، وتقدَّم إلى الأنبار قبل أبى جعفر، ودعا عيسى بن موسى أن يبايع له، فأبى عيسى؛ لأن عهده إنما هو بعد موت المنصور، فأراد أبو مسلم رفع الخلافة عن أبى جعفر إلى عيسى، فامتنع عيسى، وقدم أبوجعفر، وقد كان عم المنصور عبد الله بن على الذى كان تولى قتال مروان ابن محمد خلع طاعة المنصور وبايع لنفسه.

وقال: إن السفاح حين أراد أن يبعث الجنود إلى مروان بن محمد، تكاسل عنه بنو أبيه، فقال لهم: من انتدب منكم، فهو ولى عهدى، فلم ينتدب غيرى، وسرت إلى مروان بن محمد، وشهد له أبو حاتم الطائى وخفاف المروروذى وغيرهما من القواد وبايعوه، وكان قد ظفر من أموال بنى أمية بما لا يحصَىٰ من ذخائر وبما لا يستقصى، فسرَّح أبو جعفر المنصور أبا مسلم الخراسانى إلى قتال عمه عبد الله بن على المذكور، فهزمه وجمع الغنائم من عسكره، فبعث أبو جعفر المنصور مولاه أبا الخصيب لجمعها، فغضب أبو مسلم، وقال: أنا أمين على الدعاء، فكيف أخون الأموال ؟ ! وهم بقتل أبى الخصيب، ثم خلى عنه.

وخَشِيَ المنصور أن يمضي أبو مسلم إلى خراسان، فكتب له بولاية الشام، فازداد نفارًا، وخرج من الجزيرة يريد خراسان، وسار أبو جعفر إلى المدائن وكتب إلى أبى مسلم يستقدمه، فأجابه بالامتناع، والتمسك بالطاعة عن بُعْدٍ، والتهديد بالخلع إن طلب سوى ذلك، فبقى أبو جعفر المنصور حائرًا بعد أن هَمَّ بقتله بين الاستبداد برأيه فى أمر أبى مسلم وبين الاستشارة فيه، فقال يومًا لسلم بن قتيبة ما ترى فى أبى مسلم ؟ ! فقال ابن قتيبة: يا أمير المؤمنين، لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا، فقال المنصور: حسبك يابن قتيبة، لقد أودعتها أذنًا واعية.

ثم كتب المنصور إلى أبى مسلم ينكر عليه هذا الشرط، وأنه لا يحسن معه طاعة، وبعث إلى عيسى بن موسى برسالة يؤانسه، وقيل: بل كتب إليه أبو مسلم يعرض له بالخلع، وأنه تاب إلى الله مما جناه من القيام بدعوتهم، وأخذ أبو مسلم طريق حلوان، وأمر المنصور ابن عمه عيسى بن موسى فى مشيخة بنى هاشم بكتاب إلى

أبى مسلم يحرضونَهُ على التمسك بالطاعة، ويحذرونه عاقبة البغى ويأمرونه بالرجوع، وبعث الكتاب مع مولاه حميد المرورذى، وأمره بملاينته والخشوع له بالقول حتى ييأس منه، فإذا يئس من موافقته يخبره بقسم أمير المؤمنين: لا وكلت أمرك إلى غيرى، ولو خضت البحرِ لخضته وراءك، ولو اقتحمت النار لاقتحمتهاحتى أقتلك أو أموت.

فأوصل حميد الكتب وتلطَّف له فى القول مؤمنًا، واحتجَّ عليه بما كان منه فى التحريض على طاعتهم، فاستشار أبومسلم مالك بن الهيثم، فأبى له من الإصغاء إلى القول، وقال: والله، لئنْ أتيته ليقتلنك، ثم بعث أبو مسلم إلى ميزك صاحب الرى يستشيره، فأبى له من ذلك، وأشار عليه بنزول الرى وخراسان من ورائه؛ ليكون أمكن لسلطانه، فأجاب أبو مسلم حميدًا رسول أبى جعفر بالامتناع، فلما يئس حميد منه، أبلغه مقالة المنصور، فوجم طويلاً ورعب من ذلك القول وأكبره، وكان المنصور قد كتب إلى عامل أبى مسلم بخراسان يرغبه فى الانحراف عنه بولاية خراسان، فأجاب سِرًّا، وكتب إلى أبى مسلم بخراسان يحذِّره الخلاف والمعصية، فزاده على ذلك رعبًا، وقال لحميد قبل انصرافه: قد كنت عزمت على المضى إلى خراسان، ثم رأيت أن أوجه أبا إسحاق إلى أمير المؤمنين يأتينى برأيه؛ فإنى أثق به، فبعث به إلى المنصور، فلما قدم أبو إسحاق، تلقاه بنو هاشم وأهل الدولة بكل ما يحبُّ، وداخله المنصور فى صرف أبى مسلم عن وجهة خراسان ووعده بولايتها، فرجع أبو إسحاق إلى أبى مسلم وأشار عليه بلقاء المنصور، فاعتزم على ذلك، واستخلف مالك بن الهيثم بعسكره بحلوان، وقدم المدائن على المنصور فى ثلاثة آلاف.

وخشى أبو أيوب وزير المنصور أن يحدث منه عند قدومه فتك، فدعا بعض إخوانه، وأشار عليه بأن يأتى أبا مسلم، ويتوسل به إلى المنصور فى ولاية كسكر يصيب فيها مالاً عظيمًا، وأن يشرك أخاه فى ذلك، ويجعل ذلك أبو مسلم فى حوائجه، وأن أمير المؤمنين عازم على أن يوليه ما وراء بابه وينزع نفسه، واستأذن له المنصورَ فى لقاء أبى مسلم، فأذن له، فلقى ذلك البعض أبا مسلم، وتوسل إليه وأخبره الخبر، فطابت نفسه، وذهب عنه الحزن، واستبشر بتولية المنصور إياه ما وراء بابه.

ولما قرب أبو مسلم، أمر الوزير أبو أيوب الناس بتلقيه، ثم دخل على المنصور، فقبَّلَ يده، ثم انصرف ليريح ليلته، ودعا المنصور من الغد حاجبه عثمان بن نهيك، وأربعة من الحرس - منهم شبيب بن واج، وأبو حنيفة حرب بن قيس - وأجلسهم خلف الرواق، وأمرهم بقتل أبى مسلم إذا صفق بيديه، واستدعى أبا مسلم، فلما دخل سأله عن سيفين أصابهما لعمه عبد الله بن على، وكان أبو مسلم متقلدًا أحدهما، فقال أبو مسلم: هذا أحدهما، فقال المنصور: أرنيه، فانتضاه أبو مسلم وناوله إياه، فأخذ يقلِّبه بيده ويهزه، ثم وضعه تحت فراشه، وأقبل يعاتبه فقال: كتبتَ إلى السفاح تنهاه عن الموات كأنك تعلِّمه، فقال أبو مسلم: ظننت أنه لا يحلُّ، ثم اقتديتُ بكتاب السفاحِ، وعلمتُ أنكم معدن العلم، قال: فتقدمك عنى بطريق مكة ؟ ! فقال: كرهت مزاحمتك على الماء، قال: فامتناعُكَ عن الرجوع إليَّ حين بلغك موت السفاح، وامتناعُكَ من الإقامة حتى ألحقك ؟ !

قلت: قد تقدَّم أن أبا مسلم حال عودهما من الحج كان متقدِّمًا على المنصور، فبلغه خبر موت السفاح قبله، ولم يرجع إلى المنصور للتعزية والتهنئة له بالخلافة، ولم يقمْ فى مكانه إلى أن يصل إليه المنصور بل استمرَّ سائرًا حتى دخل الكوفة قبله؛ فلذلك يؤنبه بذلك.

فقال أبو مسلم: طلبت الرفق بالناس والمبادرة إلى الكوفة، قال: فجارية عمى عبد الله أردتَّ أن تتخذها لنفسك ؟ ! قال: لا، وإنما وكلْتُ بها من يحفظها، قال: فمراغمتك وسيرك إلى خراسان ؟ ! قال: خفت منك، فقلت: آتى خراسان، وأكتُبُ بعذرى، فأذهب ما فى نفسك منى، قال: فالمال الذى جمعته بحران ؟ ! قال: أنفقته على الجند تقويةً لكم، قال: ألست الكاتب إليَّ تبدأُ بنفسك وتخطب آمنة بنت على بن عبد الله بن عباس، وتزعم أنك من ذرية سليط بن عبد الله بن عباس ؟ ! لقد ارتقيت لا أُمَّ لك مرتقًى صعبًا، ثم قال له: وما الذى دعاك إلى قتل سليمان بن كثير مع أثره فى دعوتنا، وهو أحد نقبائنا من قبل أن ندخلك فى هذا الأمر ؟ ! قال: أراد الخلافة فقتلته، ثم قال أبو مسلم: كيف يقال لى هذا بعد بلائى وما كان منِّى ؟ ! قال: يا ابن الخبيثة، لو كانت أَمَةٌ مكانك، لَأَغْنَتْ؛ إنما ذاك بدولتنا وريحِنا؛ فأَكَبَّ أبو مسلم يقبل يدى المنصور ويعتذر، فازداد المنصور

غضبًا، فقال أبو مسلم: دع هذا، فقد أصبحت لا أخاف إلا الله وحده، فشتمه المنصور، وصفَّق بيده، فخرج الحرس، وضربه عثمان بن نهيكٍ، فقطع علابيه، فقال أبو مسلم: يا أمير المؤمنين استبقنى لعدوك، فقال: لا أبقانى الله إذن، وأى عدو أعدى منك ؟ ! وأخذه الحرس بسيوفهم حتى قتلوه، وذلك لخمس بقين من شعبان سنة سبع وثلاثين ومائة.

وخرج الوزير أبو الجهم، فصرف الناس والجند، وقال: الأمير قائل عند أمير المؤمنين، فانصرفوا، وأمر لهم بالجوائز، وأعطَى أبا إسحاق مائة ألف.

ودخل عيسى بن موسى على المنصور بعد قتله، فسأله عنه، وأخذ فى الثناء على طاعته وبلائه وذكر رأى الإمام إبراهيم فيه، فقال المنصور: والله، لا أعلم على وجه الأرض عدوًا أعدى لكم منه، هو ذا فى البساط، فاسترجع عيسى، فأنكر عليه المنصور، وقال: وهل كان لكم ملك معه ؟ ! ثم دخل على المنصور جعفر بن حنظلة، فاستشاره فى قتل أبى مسلم، فأشار بقتله، فقال له المنصور: وفقك الله، ثم نظر إليه قتيلاً، فقال: عُدَّ خلافتك من هذا اليوم، ثم دعا أبا إسحاق، وعذله على متابعة أبى مسلم، وقال: تكلم بما أردت وأخرجه قتيلاً، فسجد أبو إسحاق، ثم رفع رأسه يقول: الحمد لله الذى آمننى بك، والله ما جئته قَطُّ إلا وتكفنْتُ وتحنطْتُ، ورفع ثيابه وأراه كفنه وحنوطه، فرحمه المنصور، وقال: استقبل طاعتك، واحمد الله الذى أراحك.

وكتب المنصور بعد قتل أبى مسلم إلى نصر بن الهيثم - الذى استخلفه أبو مسلم على خراسان، حال سيره إلى المنصور - كتابًا على لسان أبى مسلم يأمره بحمل أثقاله، وقد كان أبو مسلم أوصاه: إن جاءك كتابى بخاتمى تامًّا، فاعلم أنى لم أكتبه، فلما رآه نصر بن الهيثم كذلك، فطنَ وانحدر إلى همذان يريد خراسان، فكتب له المنصور بولاية شهرزور، وكتب إلى زهير بن التركى بهمذان بحبس نصر، فمر نصر بهمذان، وخادعه زهير، ودعاه إلى طعامه وحبسه، وجاء كتاب العهد بشهرزور لنصر، فأطلقه زهير، ثم جاءه بعد ذلك كتاب، فقال: جاءنى كتاب عهده، فخليت سبيله، ثم قدم نصر على المنصور، فعذله فى استشارته على أبى مسلم بالامتناع من السير إليه، فقال نصر: نعم، يا أمير المؤمنين، اصطنعنى فنصحتُ له، وإن

اصطنعنى أمير المؤمنين، نصحت وشكرت، فاستعمله المنصور على الموصل، ثم أقبل المنصور على من حضر، وأبو مسلم طريح بين يديه، وأنشده: [من السريع]

زَعَمْتَ أَنَّ الدَّيْنَ لاَ يُقْتَضَىٰ   فَاسْتَوْفِ بالكَيْلِ أبا مُجْرِمِ
إِشْرَبْ بِكَأْسٍ كُنْتَ تسقى بِهَا   أَمَرَّ فِى الحَلْقِ مِنَ العَلْقَمِ

وكان يقال له: أبو مُجْرم، وفيه يقول أبو دلامة: [من الطويل]

أَبَا مُجْرِمٍ ما غَيَّرَ الله نعمَةً   على عَبْدِهِ حتى يغيِّرَهَا العَبْدُ
أَفِى دَوْلَةِ المَنْصُورِ حاوَلْتَ غدرةً   ألا إن أَهْلَ الغَدْرِ آباؤُكَ الكُرْدُ؟!
أبا مجرِمٍ خَوَّفْتَنِى القَتْلَ فانْتَحىٰ   عليكَ بما خوفْتَنِى الأَسَدُ الوَرْدُ

ولما قتله المنصور، خطب الناس، فذكر أن أبا مسلم أحسن أولاً وأساء آخرًا، ثم قال فى آخر خطبته: وما أحسن قول النابغة الذبياني للنعمان بن المنذر: [من البسيط]

فَمَنْ أَطَاعَكَ فَانْفَعْهُ بِطَاعَتِهِ   كَمَا أَطَاعَكَ وَادْلُلْهُ عَلى الرَّشَدِ
وَمَنْ عَصَاكَ فعاقِبْهُ معاقبَةً   تَنْهى الظَّلُومَ ولا تَقْعُدْ على ضَمَدِ

الضمد بفتح الضاد المعجمة والميم: الحقد.

وفى ابن خلكان وغيره(١): كان أبو مسلم قد سمع الحديث وروى عنه، وأنه خطب يومًا فقام إليه رجل، فقال: ما هذا السواد الذى أرى عليك ؟ فقال أبو مسلم: حدثنى [أبو] الزبير، عن جابر بن عبد الله - رضى الله تعالى عنهما - أن النبى ﷺ دخل مكة يوم الفتح، وعلى رأسه عمامة سوداء(٢)، وهذه ثياب الهيبة وثياب الدولة، يا غلام، اضرب عنقه.

قلت: حديث جابر هذا فى صحيح مسلم، ومن ثم كان شعار بنى العباس فى الخطبة السواد.

وكان أبو مسلم فصيحًا عالمًا بالأمور شجاعًا فاتكًا، ولم يُرَ قطُّ مازحًا، ولا يظهر عليه سرور ولا غضب، ولا يأتى النساء إلا مرة واحدة فى السنة، وكان يقول:

---

(١) ينظر: وفيات الأعيان لابن خلكان ٣/ ١٤٨، تاريخ الإسلام الطبقة الرابعة عشرة ص ٥٨٢ .
(٢) أخرجه مسلم (١٣٥٨/ ٤٥١)، الترمذى (١٦٧٩)، وفى الشمائل (١١٥)، والنسائى (٥٣٤٥)، وأحمد (٣/ ٣٨٧)، والدارمى (٢/ ٧٤) من حديث جابر .

النكاح جنونٌ، ويكفى العاقل أن يجنَّ فى السنة إلا مرة واحدة.

وأحصى من قتله أبو مسلم صبرًا، وفى حروبه، فكانوا ستمائة ألف ونيفًا[١].

وفى المحاسن قال: قال ابن المعافى لأبى مسلم: أيها الأمير، لقد قمت بأمرٍ لا يقصر بك ثوابه عن الجنة فى إقامة دولة بنى العباس، فقال: خوفى من النار والله أولى من طمعى فى الجنة؛ إنى أطفأت من بنى أمية جمرة، وألهبت من بنى العباس نيرانًا، فإن أفرح بالإطفاء فواحسرتا من الإلهاب.

وحدث أبو نميلة، عن أبيه قال: سمعت أبا مسلم بعرفات يقول فى الموقف باكيًا: اللهم، إنى أتوب إليك مما أظن أنك لن تغفره لى، فقلت: أيها الأمير، أيعظم على الله تعالى غفران ذنب ؟ ! فقال: إنى نسجت ثوبًا من الظلم لا يبلى ما دامت الدولة لبنى العباس، فكم صارخٍ وصارخةٍ تلعننى عند تفاقم هذا الأمر، فكيف يغفر الله تعالى لمن هذا الخلق خصماؤه ؟ ! انتهى.

واختلف فى نسبته، فقيل: من العرب، وقيل: من العجم، وقيل: من بنى أمية، وقيل: من الأكراد، وقيل له: ما كان سبب خروج الدولة عن بنى أمية ؟ فقال: لأنهم أبعدوا أصدقاءهم ثقةً بهم، وأدنوا أعداءهم تألفًا لهم، فلم يصر العدوُّ صديقًا بالتأليف، وصار الصديق عدوًّا بالإبعاد.

وفى سنة ثمان وثلاثين ومائة: دخل عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان الأموى المسمى بالداخل؛ لأنه أول من دخل المغرب، فدخل الأندلس واستولى عليها، وامتدت أيامه، وبقيت الأندلس فى يد أولاده إلى بعد الأربعمائة[٢].

وكان عبد الرحمن هذا من أهل العلم والعدل، وكانت سيرته حميدة فى الدين، وكان يجاهد الكفار على إعلاء كلمة الدين، فقيل للإمام مالك بن أنس - رضى الله تعالى عنه -: إن بالمغرب ملكًا قائمًا بالشرائع يلبس الصوف، ويأكل الشعير، ويجاهد أعداء الدين من المشركين المجاورين له، فقال: ما أحوج بلدتنا إلى واحد مثله تتزيَّن به، فوصلت كلمة مالك إليه بالأندلس، فجمع الناس فى مملكته ونادى

---

(١) ينظر تاريخ الإسلام حوادث سنة سبع وثلاثين ومائة .

(٢) ينظر تاريخ الإسلام حوادث سنة ثمان وثلاثين ومائة .

ألاً يدان إلا بمذهب مالك؛ فمن ثم كان أهل المغرب على مذهب الإمام مالك، رضى الله تعالى عنه.

ثم سمع المنصور بذلك، فحصلت منه إساءة إلى الإمام مالك؛ بسبب ذلك القول.

وأمه بربرية، وكذلك أم المنصور؛ فكانوا يقولون: ملك الدنيا ابنا بربريتين: المنصور، وعبد الرحمن بن معاوية.

هذا، وفى سنة أربعين ومائة، حج المنصور فنزل فى دار الندوة، وكان يخرج فيطوفُ سحرًا بالبيت، فخرج ذات ليلة، فبينما هو يطوف إذ سمع قائلاً يقول: اللهم، إنى أشكو إليك ظهور البغى والفساد فى الأرض، وما يحول بين الحق وأهله من الطمع، فهرول المنصور حتى ملأ مسامعه، ثم رجع إلى دار الندوة، وقال لصاحب الشرطة: إن بالبيت رجلاً يطوف صفته كذا، فائتنى به، فخرج فوجد رجلاً عند الركن اليمانى، فقال: أجب أمير المؤمنين، فلما دخل عليه، قال له المنصور: ما الذى سمعتك آنفًا تشكوه إلى الله تعالى من ظهور البغى والفساد... إلى آخره ؟ ! فوالله لقد حشوتَ مسامعى ما أمرضنى ! فقال: يا أمير المؤمنين، إن الذى دخله الطمع، وحال بين الحق وأهله أنتَ، فقال له المنصور: ويحك ! كيف يدخلنى طمع، والصفراء والبيضاء ببابى، وملك الأرض فى قبضتى ؟ ! فقال الرجل: سبحان الله يا أمير المؤمنين، وهل دخل أحدًا من الطمع ما دخلك ؟ ! إن الله تعالى استرعاك أمور المسلمين وأموالهم، فأهملت أمورهم، واهتممت بجمع أموالهم، واتخذت بينك وبينهم حجابًا من الجصّ والآجُرّ، وحجبة تمنعهم البلاغ، وأمرت ألاً يدخل عليك إلا فلان وفلان، ثم استخلصتهم لنفسك، وآثرتهم على رعيتك، ولم تأمر بإيصال المظلوم ولا الجائع ولا العارى، ولا أحد إلا وله فى هذا المال حَقٌّ.

فلما رآك هؤلاء الذين استخلصتهم لنفسك وآثرتهم على رعيتك تجمَعُ الأموالَ ولا تقسِّمها، قالوا: هذا قد خان الله ورسوله، فمالنا لا نخونه ؟ ! فاجتمعوا على ألاً يصل إليك من أموال الناس إلا ما أرادوا، فصاروا شركاءك فى سلطانك، وأنت غافل عنهم، وإذا جاء المظلوم إلى بابك، وجدك قد أوقفت ببابك رجلاً ينظر فى المظالم؛ فإن كان الظالم من بطانتك، علَّل المظلوم وسوَّف به من وقت إلى وقت،

فإذا اجتهد وظهرت أنتَ، فصرخ بين يديك، ضرب ضربًا مبرحًا ليكون نكالاً لغيره، وأنت ترى ذلك فلا تنكره. ولقد كانت الخلفاء من قبلك إذا انتهت إليهم الظلامة، أزيلَتْ فى الحال. ولقد كنت أسافر إلى الصين، فقدمتُ مرة إليه، فوجدت الملك الذى به فَقَدَ سَمْعَهُ فبكى، فقال وزراؤه: ما يبكيك ؟ فقال: ما بكيت لمصيبة نزلت بى، إنما أبكى لمظلوم يصرخ بالباب فلا أسمعه، ثم قال: إن ذهب سمعى، فلم يذهب بصرى، نادوا فى الناس: لا يلبس أحد أحمر إلا مظلومًا. وكان يركب الفيل ويذهب فى البلد لعلَّه يجد لابس ثوب أحمر فينصفه؛ فهذا يا أمير المؤمنين رجلٌ مشرك بالله، غلبت رأفته على شح نفسه بالمشركين.

فكيف بك وأنت مؤمن بالله وابن عم رسول الله ؟ ! يا أمير المؤمنين، إنما يجمع المال لإحدى ثلاث: إن قلتَ: إنما أجمع المال للولد، فقد أراك الله عبرة فى الطفل؛ إذ يسقط من بطن أمه وليس له على وجه الأرض من مال، وما من مال إلا ودونه يد شحيحة تحويه، فلم يزل لطف الله تعالى بذلك الطفل حتى تعظم رغبة الناس فيه، وحوى ما حوته تلك اليد الشحيحة، ولست بالذى تعطى، وإنما الله سبحانه وتعالى المعطِى. وإن قلت: إنما أجمعه لمصيبة تنزل بى، فقد أراك الله تعالى عبرة فى الملوك والقرون الذين خلوا من قبلك، ما أغنى عنهم ما أعدوا من الأموال والذخائر والكُرَاع حين أراد الله تعالى ما أراد. وإن قلت: إنما أجمعه لغاية هى أحسن من الغاية التى أنت فيها، فوالله ما فوق غايتك إلا منزلة لا تدرك إلا بالعمل الصالح. فبكى المنصور بكاءً شديدًا، ثم قال: كيف أعمل، والعلماءُ قد فرَّتْ منى، والصالحون لم يدخلوا على ؟ ! فقال: يا أمير المؤمنين، افتح الباب، وانتصر للمظلوم من الظالم، وخذ المال مما حل، واقسمه بالحق والعدل، وأنا ضامن من هرب منك أن يعود إليك.

ثم خرج الرجل، فقام المنصور للصلاة، فلما صلى، طلب الرجل فلم يجده، فذهب إليه الشرطى، فوجده عند الركن اليمانى، فقال: أجب أمير المؤمنين، فقال الرجل: ليس إلى ذلك سبيل، قال الشرطى: إذنْ يضرب عنقى، قال: لا، ولا إلى ضرب عنقك سبيل، ثم أخرج ورقًا مكتوبًا فقال: خذه معك، فإن فيه دعاء الفرج، وذكر له فضلاً عظيمًا، فأخذه الشرطى، وأتى إلى المنصور، فلما رآه قال: ويحك ؟

أتحسن السحر ؟ ! قال: لا والله، ثم قصَّ عليه القصة، فأمر المنصور بنقله، وأمر للشرطى بألف دينار، وهو هذا:

« اللهم، كما لطفت فى عظمتك وقدرتك دون اللطفاء، وعلوت بعظمتك على العظماء، وعلمتَ ما تحت أرضك كعلمك بما فوق عرشك، فكانت وساوس الصدور عندك كالعلانية، وعلانية القول كالسر فى علمك، فانقاد كل شيء لعظمتك، وخضع كل ذى سلطان لسلطانك، وصار أمر الدنيا والآخرة كله بيدك، اجعل لى من كل هم وغم أصبحتُ أو أمسيتُ فيه فرجًا ومخرجًا، اللهم، إن عفوك عن ذنوبى، وتجاوزك عن خطيئتى، وسترك على قبيح عملى أطمعنى أن أسألك ما لا أستوجبه منك بما قصرت فيه، فصرت أدعوك آمنًا، وأسألك مستأنسًا؛ فإنك المحسن، وأنا المسيء إلى نفسى فيما بينى وبينك، تتودَّد إليَّ بنعمتك، وأتبغض إليك بالمعاصى، ولكن الثقة بك حملتنى على الجرأة عليك، فَعُدِ اللهمَّ بفضلك وإحسانك عليَّ؛ إنك أنت الرءوف الرحيم ».

وكان هذا الرجل هو الخضر - عليه السلام - وهذا الدعاء مشهور بأنه دعاء الخضر، وهو عظيم الفوائد، جم العوائد.

وفى سنة ست وأربعين ومائة: بنى مدينة بغداد، سببها ثورة الراوندية عليه بالهاشمية، ولأنه كان يكره أهل الكوفة، ولا يأمن على نفسه منهم، فتجافى عن جوارهم، وسار إلى مكان بغداد اليوم، وجمع من كان هناك من البطارقة، وسألهم عن أحوالهم ومواضعهم فى الحر والبرد والمطر والوحل والهوام، واستشارهم فأشاروا عليه بمكانها، وقالوا: تجيئك الميرة فى السفن من الشام، والرقة ومصر والمغرب إلى الصراة، ومن الصين والهند والبصرة وواسط وديار بكر والروم والموصل فى دجلة، ومن أرمينية وما اتصل بها من تامرا تتصلُ بالزاب، يعنى: نهر الموصل، وأنت بين أنهار كالخنادق لا تعبر إلا على القناطر والجسور، وإذا قطعتها لم يكن لعدوك مطمع فى أرضك، وأنت متوسِّط بين البصرة والكوفة وواسط والموصل قريب من البر والبحر والجبل، فشرع المنصور فى عمارتها، وكتب إلى الشام والكوفة وواسط والبصرة فى الصناع والفعلة، واختار من ذوى الفضل والعدالة والعفة والأمانة والمعرفة بالهندسة، فأحضرهم لذلك، وأمر بخطها بالرماد، فشكلَتْ

أبوابها وفصلاتها وطاقاتها ونواحيها، وجعل على الرماد حبّ القطن، فأضرم نارًا، ثم نظر إليها، وهى تشتعل فعرف رسمها، وأمر أن تحفر الأسوس على ذلك الرسم. ووكل بها أربعة من القواد يتولى كل واحد منهم ناحية، ووكل الإمام الأعظم أبا حنيفة بن ثابت - رضى الله عنه - بِعَدِّ الآجُرِّ واللبن، وقد كان أراده على القضاء والمظالم، فأبى فحلف ألاَّ يقلع عنه حتى يعمل له عملاً؛ فكان هذا.

وأمر المنصور أن يكون عرض أساس السور من أسفله خمسين ذراعًا ومن أعلاه عشرين ذراعًا، ووضع بيده أول لبنة، وقال: بسم الله، والحمد لله، والأرض لله، يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين، ثم قال: ابنوا على بركة الله.

واستشار خالدًا البرمكيَّ فى نقض المدائن وإيوان كسرى، فإنه بالمدائن، فقال: لا أرى لك؛ لأنه من آثار الإسلام وفتوح العرب، وفيه مصلى على بن أبى طالب، فاتهمه المنصور بعصبية العجم؛ لأن خالدًا أصله من العجم، وأمر بنقض القصر الأبيض، فإذا الذى ينفق عليه أكثر من ثمن الجديد، فأقصر المنصور عنه، فقال له خالد: أما الآن فلا أرى إقصارك عنه لئلاَّ يقال: عجزوا عن هدم ما بناه غيرهم، والهدم أَيْسَرُ من البناء، فأعرض عنه، ونقل الأبواب إلى بغداد من واسط ومن الشام ومن الكوفة، وجعل المدينة مدوَّرة، وجعل قصره وسطها؛ ليكون الناس منه على حد سواء، وجعل المسجد الجامع إلى جنب القصر، وجعل لها سورين والداخل أعلى من الخارج، وكان زنة اللبن الذى يبنى به كل لبنة مائة رطل وسبعة عشر رطلاً، وطولها ذراع في ذراع، وكان مقدار النفقة عليها بالجامع والقصر والسورين والفنادق والأبواب والأسواق أربعة آلاف ألف، وثمانمائة ألف وثلاثة وثلاثين ألف درهم.

وفى سنة ثمان وأربعين: توطأت الممالك كلها للمنصور، وجلت هيبته فى النفوس، ودانت له الأمصار، ولم يبق خارجًا عنه سوى جزيرة الأندلس؛ فإنه غلب عليها عبد الرحمن بن معاوية بن هشام؛ كما قدمت ذكره.

وفى سنة تسع وأربعين: فرغ من بناء بغداد.

وفى سنة خمسين: بنى الرصافة وشيدها.

وفى سنة ثلاث وخمسين: ألزم المنصور رعيته لبس القلانس الطوال، وكانوا يعملونها بالقصب والورق ويلبسونها، فقال أبو دلامة فى ذلك: [من الطويل]

وَكُنَّا نـرجِّـى مـن إمـام زيـادةً فزاد الإمَامُ المصطَفَىٰ[1] فى القَلاَنِسِ
تَرَاهَا على هَامِ الرجالِ كَأَنَّهَا زُنَارُ يَهُودٍ جُلِّلَتْ بِالبَرَانِسِ[2]

وكان أبو جعفر المنصور مهيبًا سفاكًا ذا دهاءٍ وحزمٍ وتدبيرٍ لأمور الرعية، وكان يغلب عليه الصمت، وعلى ظاهر أحواله الصلاح.

أمه، يقال لها: سلامة، بربرية، يقال: إنها قالت: لما حملتُ به، رأيتُ كأن أسدًا خرج منى، فأقعى وزأر وضرب بذيله الأرض، فأقبلت إليه الأسود من كل ناحية، فكلما انتهى أسد منها إليه سجد.

كانت ولادته سنة خمس وتسعين، وهى السنة التى توفى فيها الحجاج بن يوسف.

يحكى أنه رتب أوقاته لأموره: كان بعد أن يصلى الصبح إلى وقت صلاة الظهر: يدبر أحوال البلاد، ويرفع المظالم عن العباد، ويقضى حوائج الناس، ومن الظهر إلى وقت العصر: يدبر أحوال نفسه، ومن العصر إلى المغرب: يتقيد بأمور خواصّ أهل بيته، وبعد المغرب إلى العشاء: يشتغل بالقراءة، وبعد العشاء إلى مضى الثلث الأول من الليل: يجتمع إليه ندماؤه، ويتحدَّثون بالسير والأخبار والأشعار المتضمنة للحكم والشجاعة، فإذا تفرقوا من عنده: رقد الثلث الأوسط، فإذا دخل الثلث الأخير: قام وتوضأ وتهجد وقرأ القرآن إلى الصبح.

وفى ربيع الأبرار: سأل المنصور بعض بطانة هشام بن عبد الملك الأموى عن تدبير هشام فى حروبه، فقال ذلك البعض: فعل كذا - رحمه الله - وصنع كذا - رحمه الله - فقال المنصور: لعنك الله وإياه، تطأ بساطى وتترحَّم على عدوى، أخرجوه عنى، فقام الرجل وهو يقول: والله، لنعمة عدوك قلادة فى عنقى لا ينزعها إلا غاسلى، فقال المنصور: ردوه عليَّ، فَرُدَّ، فقال له المنصور: يا شيخ، أشهد أنك نتيجة حر، وثمرة شريف، ودعا له بمال، فقال الرجل: لولا افتراض طاعتك ما قبلت بعده لأحد نعمة، فقال له المنصور: كفيت قومك فخرًا، كن أول داخل عليَّ، وآخر خارج عنى.

(١) فى البداية والنهاية: المرتجى .
(٢) ينظر: البداية والنهاية (١١٨/١٠)، وتاريخ الإسلام (ص ٣٥٦) حوادث سنة ثلاث وخمسين ومائة .

ودخل بعض الهاشميين عليه، فجعل يحدِّثه ويكثر من ذكر أبيه والترحم عليه، فيقول: كان أبى رحمه الله، وفعل أبى رحمه الله، فقال له الربيع حاجب المنصور: كم تترحَّم على أبيك بحضرة أمير المؤمنين، فقال له الهاشمى: أنت معذورٌ فإنك لا تعرف حلاوة الآباء، فخجل منه أشد الخجل، وذلك أن الربيع كان لقيطًا لا يعرف له أب.

وكان المنصور - مع هذه الصفات الحميدة - يوصف بالبخل الشديد، ولذا لقب بالدوانيقى(١).

ذكر ابن خلدون: أنه حاسب القواد الذين جعلهم على بناء بغداد عند الفراغ منها، فألزم كُلًّا بما بقى عنده، حتى إنه أخذ من خالد بن الصلت منهم خمسة عشرة درهمًا بعد أن حبسه عليها.

ومما يحكى عنه من الشح: أنه قال للمسيب بن زهير: أحضرنى بناء حاذقًا الساعة، فأحضره فأدخله إلى بعض محالِّه، وقال: ابن لى بإزائه طاقًا يكون شبيهًا بالبيت، فلم يزل يؤتى بالحصى والآجر حتى بناه وجوَّده، فنظر إليه المنصور واستحسنه، وقال للمسيب: أعطه أجره، فقال: أعطيه خمسة دراهم، فاستكثرها، وقال: لا أرضى بذلك، فلم يزل حتى نقصه درهمًا، ففرح بذلك، وابتهج كأنه أصاب مالاً.

وحكى - أيضًا - أنه لدغ، فدعا مولى له يقال له: أسلم، رقاء، فأمره أن يرقيه، فرقاه فبرئ، فأمر له برغيف، فأخذ الرغيف فثقبه وصيَّره فى عنقه، وجعل يقول: رقيت مولاى، فبرئ فأمر لى بهذا الرغيف، فبلغ المنصور ذلك، فقال له: لم أبرك أن تشنع على، فقال: لم أشنع؛ إنما أخبرت بما أمرتَ، فأمر أن يصفع ثلاثة أيام كل يوم ثلاث صفعات.

قلت: وعندى، والله، فى صحة هذا القول عشرون شكًّا، والله أعلم بالحقائق.

وحكى عن الأوزاعى قال: بعث إلىَّ المنصور فقال: لمَ تبطئ عنا ؟ ! قلت: وما تريد منا ؟ ! فقال: لآخذ عنكم وأقتبس منكم، فقلت له: مهلاً؛ فإن عروة بن رويم أخبرنى أن نبى الله ﷺ قال: « من جاءته موعظة من ربه فقبلها، شكر الله له ذلك،

---

(١) ينظر: سير أعلام النبلاء (٧/ ٨٣).

ومن جاءته فلم يقبلها، كانت حجة عليه يوم القيامة »، مهلًا، فإن مثلك لا ينبغي له أن ينام، إنما جعلت الأنبياء رعاة لعلمهم بالرعية، يجبرون الكسير، ويسمنون الهزيل، ويؤوون الضالة، فكيف من يسفك دم المسلمين، ويأخذ أموالهم ؟ ! أعيذك بالله أن تقول: إن قرابتك من رسول الله ﷺ تدعوك إلى الجنة، إن رسول الله ﷺ كانت فى يده جريدة يستاك بها، فضرب بها قورة أعرابى، فنزل جبريل فقال: يا محمد، إن الله تبارك وتعالى لم يبعثك مؤيسًا مقنطًا، تكسر قرون أمتك، ألق الجريدة من يدك، فدعا الأعرابى إلى القصاص من نفسه، فكيف بمن يسفك دماء المسلمين ؟ ! إن الله عز وجل أوحى إلى من هو خير منك داود - عليه السلام - ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ. . . ﴾ الآية [ص: ٢٦]، وأوحى إليه: « يا داود، إذا أتاك الخصمان فلا يكون لأحدهما على صاحبه الفضل، فأمحوك من ديوان نبوتى »، اعلم أن ثوبًا من ثياب أهل النار لو علق بين السماء والأرض، لمات أهل الأرض من نتن ريحه، فكيف بمن يتقمصه، ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبال الدنيا، لذابت كما يذوب الرصاص حتى تنتهى إلى الأرض السابعة، فكيف بمن تقلدها، فبكى حتى خضبت دموعه لحيته ووجهه.

العهد للمهدى وخلع عيسى بن موسى(١)

كان السفاح قد عهد إلى عيسى ابن أخيه موسى أن يكون خليفةً بعد أبى جعفر المنصور، وولاه على الكوفة، فلم يزل عليها. فلما كبر المهدى بن أبى جعفر المنصور، أراد المنصور أبوه أن يقدمه فى العهد على عيسى، وكان يكرمه فيجلسه عن يمينه، والمهدى عن يساره، فكلمه فى التأخر عن المهدى فى العهد، فقال: يا أمير المؤمنين، كيف بالأيمان التى عليَّ وعلى المسلمين، وأبى من ذلك، ولم يرض بتقدُّم المهدى عليه، فتغير له المنصور وباعده بعض الشئ، وصار يأذن

(١) ينظر [عيسى بن موسى] فى: العبر للذهبى ١/ ٢٥٣، شذرات الذهب ١/ ٢٦٦، الكامل لابن الأثير ٥/ ١٤١ وما بعدها، الوزراء والكتاب ١٢٦ - ١٢٧، تاريخ الطبرى ٧/ ٤٥٨ وما بعدها . سير أعلام النبلاء للذهبى ٧/ ٤٣٤، تاريخ خليفة ٤١١ وما بعدها، المعرفة والتاريخ ١/ ١١٧ وما بعدها، تاريخ اليعقوبى ٢/ ٣٥٠ وما بعدها، العقد الفريد ١/ ٣٦، وفيات الأعيان ٢/ ٣٨٨، مرآة الجنان ١/ ٣٥٦، جمهرة أنساب العرب ٣٢ و ٣٣ .

للمهدى قبله، ولعميه عيسى بن على وعبد الصمد، ثم يدخل عيسى بن موسى، فيجلس تحت المهدى، واستمر المنصور على التنكُّر لعيسى، وعزله عن الكوفة، ثم راجع عيسى رأيه، وخلع نفسه فبايع المنصور للمهدى بالعهد وجعل عيسى من بعده.

ويقال: أنه أعطاه أحد عشر ألف درهم، وأشهد جماعة عليه بالخلع.

قال فى بغية الخاطر للعلامة محمد بن مصطفى الشهير بكاتى: ذكر أن أبا جعفر المنصور قال لعمرو بن عبيد: عظنى، قال: بما رأيتُ، أو بما سمعتُ ؟ فقال: بل بما رأيتَ، فقال: توفى عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - وخلف أحد عشر ابنًا، وبلغتِ قيمة تركته سبعة عشر دينارًا، فكفن بخمسة دنانير واشترى له موضع قبره بدينارين وأصاب كل واحد من أولاده ثمانية عشر قيراطًا. ومات هشام بن عبد الملك، وخلف أحد عشر ابنًا، فحصل لكل واحد من ورثته مما خلفه عشرة آلاف دينار، فرأيت رجلاً من أولاد عمر بن عبد العزيز قد حمل على مائة فرس فى سبيل الله، ورأيت رجلاً من أولاد هشام يسأل الناس.

وفى سنة ثمان وخمسين: توفى المنصور محرمًا بالحج، وكانت وفاته ببئر ميمون السادس من ذى الحجة من السنة المذكورة، وبئر ميمون على ثلاثة أميال من مكة، ودفن قبل بئر الحجون وبين بئر ميمون، وحفر له مائة قبر ودفن فى أحدها؛ خوفًا أن تنبشه الأعداء.

قال ابن خلدون: دفن بمقبرة المعلاة بعد أن صلى عليه عيسى بن موسى، وقيل: إبراهيم بن يحيى، وكانت مدة خلافته اثنتين وعشرين سنة، وعمره اثنتان وستون سنة وأحد عشر شهرًا وستة أيام، وقيل: أربع وستون.

صفته: قال ابن الأثير فى كامله(١): كان طويلاً أسمر خفيف اللحية رَحْبَ الصدر، كأن عينيه لسانان ناطقان، صارمًا مهيبًا ذا جرأة وسطوة وحزم وعزم ورأى وشجاعة وكمال عقل ودهاء وعلم وحلم وفقه، وخبرة فى الأمور تقبله النفوس وتهابه الرجال، كان يخلط الملك بزى النسك، وكان بخيلاً بالمال إلا عند النوائب.

(١) ينظر: الكامل لابن الأثير (٦/ ٢٢)، سير أعلام النبلاء ٧/ ٨٣ .

قلت: ورأيتُ فى الذهبيّ[1] أنه كان أغرى بسفيان الثورى، فأضمر قتله حال فراغه من المناسك، وأعد خشبة مع الخشابين ليصلبه عليها، فجاء الخبر إلى سفيان الثورى - رضى الله عنه - وهو مضطجع بالحجر، ورأسه فى حجر الفضيل بن عياض، ورجلاه فى حجر سفيان بن عيينة، فقيل له: إن أبا جعفر المنصور قارب مكة، فانج بنفسك واختفِ، فقام إلى أثواب البيت الشريف ودعا طويلاً، ثم قال: برئت من رب هذه البنية، إن دخلها أبو جعفر المنصور إلا ميتًا، فكان الأمر كذلك.

ولما سار المنصور إلى الحجّ، أوصى ولده المهدى عند وداعه، فقال له: لم أدعْ شيئًا إلا تقدمت إليك فيه، وسأوصيك بخصال، وما أظنك تفعل واحدة منها - وكان له سفط فيه دفاتر عمله وعليه قفل لا يفتحه أحد غيره - فقال للمهدى: انظر لهذا السفط، فاحتفظ به، فإن فيه علم آبائك ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة، فإن حزبك أمر، فانظر فى الدفتر الكبير، فإن أصبت فيه ما تريد وإلا ففى الثانى والثالث حتى بلغ سبعة، فإن ثقل عليك، فالكراسة الصغيرة؛ فإنك واجد ما تريد فيها وما أظنك تفعل. وانظر هذه المدينة وإياك أن تستبدل بها غيرها. وقد جمعت لك فيها من الأموال ما لو انكسر عليك الخراج عشر سنين، كفاك لأرزاق الجند والنفقات والذرية ومصالح البيت، فاحتفظ بها؛ فإنك لا تزال عزيزًا ما دام بيت مالك عامرًا، ولا أظنك تفعل. وأوصيك بأهل بيتك أن تظهر كرامتهم وتحسن إليهم وتقدمهم وتوطئ الناس أعقابهم وتوليهم المنابر، فإنَّ عزك عزهم وذكرهم لك، وما أظنك تفعل. وانظر مواليك، فأحسن إليهم وقربهم واستكثر منهم، فإنهم مادتك لشدتك إن تنزل بك يومًا، وما أظنك تفعل وأوصيك بأهل خراسان خيرًا؛ فإنهم أنصارك وشيعتك الذين بذلوا دماءهم وأموالهم فى دولتك، ولا تخرج محبتك من قلوبهم، أحسن إليهم وتجاوز عن مسيئهم، واخلف من مات منهم فى ولده وأهله بخير، وما أظنك تفعل.

وإياك أن تبنى مدينة الشرقية؛ فإنك لا تتمُّ بناءها، وأظنك ستفعل.

وقيل: قال: إنى قد ولدت فى ذى الحجة، ووليت فى ذى الحجة، وقد هجس فى نفسى أنى أموت فى ذى الحجة من هذه السنة، فاتق الله فيما أعهد إليك من أمور المسلمين بعدى يجعل لك فيما حزبك فرجًا ومخرجًا، ويرزقك السلامة وحسن

---

(١) ينظر: سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٥١ .

العاقبة من حيث لا تحتسب. يا بنى، احفظ محمدًا ﷺ فى أمته يحفظك الله ويحفظ عليك أمورك، وإياك والدم الحرام؛ فإنه حوب عند الله عظيم، وعار فى الدنيا لازم مقيم، والزم الحدود؛ فإن فيها صلاحك العاجل والآجل، ولا تعتد فيها فتبور؛ فإن الله تعالى لو علم شيئًا أصلح منها لدينه وأزجر عن معاصيه لأمر به فى كتابه. واعلم أن من شدة غضب الله لسلطانه أَمَرَ بتضعيف العذاب والعقاب على من سعى فى الأرض فسادًا مع ما ذخر له من العذاب الأليم، فقال: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ... ﴾ الآية [المائدة: ٣٣]، فالسلطان، يا بنيَّ، حبل الله المتين، وعروته الوثقى، ودينه القويم، فاحفظه وحصنه وذب عنه وأوقع بالملحدين فيه والمارقين منه واقتل الخارجين عنه ولا تجاوز ما أمرك الله به فى محكم القرآن، واحكم بالعدل، ولا تشطط؛ فإن ذلك أقطع للشغب، وأحسم للعدو، وأنجع فى الدواء، واعف عن الغى، فليس بك إليه حاجة مع ما أخلفه لك.

وافتتح بصلة الرحم وبر القرابة، وإياك والتبذير لأموال الرعية، واشحن الثغور بالمصالح، واضبط الأطراف، وأمن السبل، وسكِّن العامة، وأدخل المرافق عليهم، وادفع المكاره عنهم، وأعد الأموال واخزنها، وإياك والتبذير؛ فإن النوائب غير مأمونة وهى من شيم الزمان، وأعد الكراع والجُنْدَ ما استطعت، وإياك وتأخير عمل اليوم إلى غد؛ فتتداول الأمور ويضيع حدسك فى إحكام الأمور النازلات لأوقاتها، وأَعِدَّ رجالا بالليل لمعرفة ما يكون بالنهار، ورجالاً بالنهار لمعرفة ما يكون فى الليل، وباشر الأمور ولا تضجر ولا تكسل، واستعمل حسن الظن بالله، وأسئ الظن بعمالك، وكتابك، وخُذْ نفسك بالتيقظ وتفقدْ من يبيت على بابك، وسَهِّلْ إذنك للناس. وانظر فى أمر النُّزَّاع إليك، ووكل بهم عينًا غير نائمة، ونفسًا غير لاهية، ولا تنم؛ فإن أباك لم ينم منذ ولى الخلافة، ولا دخل عليه الغمض إلا وقلبه متيقظ. هذه وصيتى إليك، والله خليفتى عليك.

ثم ودعه وسار إلى الكوفة فأحرم منها قارنًا. وساق الهدى وأشعره وقلَّده لأيام خلت من ذى القعدة.

ولما سار منازل، عرض له وجعه الذى مات منه، وهو البطن، ولما قرب من

مكة رأى على جدار خرب سطرين هما: [من الطويل]

أَبَا جَعْفَرٍ حانَتْ وفاتُكَ وانْقَضَتْ سِنُوكَ وَأَمْر اللَّهِ لا بُدَّ واقعُ
أبا جعفرٍ هل كاهِنٌ أو منجِّمٌ لك اليَوْمَ من رَيْبِ المنيةِ دافعُ

فلما قرأها، تيقن انقضاء أجله. ثم اشتد به وجعه، فجعل يقول للربيع، وكان عديله: بادر بى إلى حرم ربِّى هاربًا من ذنوبى. فلما وصل إلى بئر ميمون، مات سحرًا ليلة السادس من ذى الحجة؛ كما تقدَّم ذكره.

ولم يحضره إلا خدمه والربيع مولاه فكتموا الأمر، ثم غدا أهل بيته على عادتهم، فدعا الأكابر وذوى الأسنان، ثم عامتهم، فبايعهم الربيع للمهدى، ثم بايع القواد وعامة الناس.

وسار العباس بن محمد، ومحمد بن سليمان إلى مكة، فبايعا الناس للمهدى بين الركن والمقام.

وذكر على بن محمد النوفلى، عن أبيه، وهو من أهل البصرة، كان يختلف إلى المنصور قال: جئت من مكة صبيحة موته إلى العسكر، فإذا موسى بن المهدى عند عمود السرادق والقاسم بن المنصور فى ناحية، فعلمت أنه قد مات، ثم أقبل الحسن ابن زيد العلوى والناس حتى ملئوا السرادق، وسمعنا همس البكاء، ثم خرج أبو العنبر الخادم مشقوق الأقبية وعلى رأسه التراب وهو يستغيث، وقام القاسم فشق ثيابه، ثم خرج الربيع فى يده قرطاس، فقرأه على الناس وفيه:

بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله المنصور أمير المؤمنين إلى من خلف من بنى هاشم وشيعته من أهل خراسان وعامة المسلمين. ثم بكى وبكى الناس، ثم قال: البكاء أمامكم، فأنصتوا رحمكم الله، ثم قرأ: أما بعد، فإنى كتبت كتابى هذا، وأنا فى آخر يوم من أيام الدنيا، أقرأ عليكم السلام، وأسأل الله ألاَّ يفتنكم بعدى، ولا يلبسكم شيعًا يذيق بعضكم بأس بعض.

ثم أخذ فى وصيتهم بالمهدى، وبعثهم على الوفاء بعهده، ثم تناول الحسن بن زيد وقال: قم نبايع موسى بن المهدى لأبيه فقام فبايعه، ثم بايع الناس الأول فالأول، ثم دخل بنو هاشم على المنصور، وهو فى أكفانه مكشوف الرأس لمكان الإحرام، فحملوه من مكانه الذى مات فيه على ثلاثة أميال من مكة فدفنوه، وكان

عيسى بن موسى لما بايع الناس، أَبَىٰ من البيعة؛ لأنه كان ولى العهد بعد أبى جعفر، وإنما أخَّره أبو جعفر، وقدم ابنه المهديَّ عليه، وجعل له العهد بعد المهدى، فقال له على بن عيسى بن ماهان: والله لتبايعنَّ أو لأضربنَّ عنقك، فبايع ثم بعث موسى ابن المهدى والربيع بالخبر والبردة والقضيب وخاتم الخلافة إلى المهدى، وخرجوا من مكة.

خلافة المهدي[1]

محمد بن أبى جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس القرشى الهاشمى.

لما وصل الخبر إلى المهدى منتصف ذى الحجة من سنة ثمان وخمسين ومائة، اجتمع أهل بغداد فبايعوه. قال السيوطى فى تاريخه: أول من هنأ المهديَّ بالخلافة وعزاه بأبيه المنصورِ أبو دلامة، فقال: [من الكامل]

عَيْنَـاىَ واحـدَةٌ تُـرَىٰ مسـرورةً ... بأميرِهَا جَذْلَىٰ، وأخرَىٰ تَذْرِفُ
تَبْكِي وتضحَكُ تَارَةً ويَسُوءُهَا ... ما أنكَرَتْ ويَسُرُّهَا ما تَعْرِفُ
فيسُوءُهَا مَوْتُ الخليفةِ مُحْرِمًا ... ويَسُرُّهَا أنْ قَامَ هـذَا الأرأفُ
ما إنْ رَأَيْتُ كما رأيتُ ولا أَرَىٰ ... شَعْرا أسرِّحُهُ وآخَر أَنْتِفُ[2]
هَلَكَ الخليفةُ يَالَدِينِ محَّمدٍ ... وأتاكُمْ مِنْ بعده مَنْ يَخْلُفُ
أَهْدَىٰ لهذا اللَّهُ فَضْلَ خلافةٍ ... ولذاكَ جَنَّاتِ النعيمِ تزخرفُ[3]

وذكر الصولى أن امرأةً اعترضت المهدى، فقالت: يا عصبة رسول الله، انظر

---

(١) ينظر ترجمة المهدى فى: شذرات الذهب ١/ ٢٦٦ - ٢٦٩، تاريخ الخلفاء ٢٧١، الوافى بالوفيات ٣/ ٣٠٠ - ٣٠٢، العبر للذهبى ١/ ٢٣٠ - ٢٣١، الوزراء والكتاب ١٤١ - ١٦١، سير أعلام النبلاء ٧/ ٤٠٠، تاريخ بغداد ٥/ ٣٩١، الطبرى ٨/ ١١٠، المعارف ٣٧٩، الكامل لابن الأثير ٦/ ٣٢ - ٣٤ و ٨١ - ٨٧، البداية والنهاية. ١/ ١٢٩ - ١٣١، مروج الذهب ٣/ ٣١٩، المحبر ٣٥ - ٧٠، أنساب الأشراف ٣/ ٨٠، تاريخ خليفة ٤٢٣، نسب قريش ٥٤ وما بعدها، مرآة الجنان ١/ ٣٥٦ - ٣٥٨، تاريخ الزمان ١١ و١٢، تاريخ الخلفاء ٢٧١ - ٢٧٩، العبر للذهبى ١/ ٢٣٠، المختصر فى أخبار البشر ٢/ ١٠، أخبار الدول ١٤٨ .

(٢) فى تاريخ الإسلام والبداية والنهاية: ينتف .

(٣) ينظر الشعر فى: تاريخ بغداد (٥/ ٣٩٢)، والبداية والنهاية (١٠/ ١٦٢) .

فى حالى، فقال المهدى: ما سمعتها من أحد قطُّ، اقضوا حاجتها وأعطوها عشرة آلاف درهم.

وكان أول ما فعله أن أطلق من كان فى حبس أبيه المنصور، إلا من كان حبسه فى دم أو مال أو ممن سعى بالفساد، وكان حليمًا جوادًا فصيحًا سلك مع الناس سيرة مرضية، فأحبه الناس، وإن كان منهمكا فى اللهو، فقد أراح الناس من تعب الظلم والجور والاعتساف، لما أضاف إلى ذلك من الحلم والجود والإنصاف، حتى اطمأن به العباد والبلاد، وكانت أيامه كالأعياد.

ولادته سنة سبع وعشرين ومائة. وفى سنة ستين: حج المهدى، واستخلف على بغداد ابنه الهادى، واستصحب ابنه هارون وجماعة من أهل بيته. ولما وصل إلى مكة، اهتم بكسوة الكعبة، فكساها بأفخر الكسوة بعد أن أتاه بنو شيبة، فقالوا: قد تكاثرت الكساوى على الكعبة، ونحن نخشَى من ثقلها على الكعبة، فأمر بنزع جميع ما كان عليها، وكانت فيها كسوة هشام بن عبد الملك من الديباج الثخينِ، وقسم مالاً عظيمًا هناك فى مصارف الخير؛ فكان منه ما جاء به من العراق ألف ألف درهم، ووصل إليه من مصر ثلاثمائة ألف دينار، ومن اليمن مائة ألف دينار، ففرق ذلك كله، وفرق مائة ألف ثوب وخمسين ألف ثوب، ووسع المسجد الحرام؛ وذلك لأنه رأى الكعبة ليست فى وسط المسجد لضيق جانبه من جهة اليمن؛ فأمر الصناع والمهندسين بتوسيعه من تلك الجهة واشترى دورًا هنالك وهدمها، فنهاه المهندسون، وقالوا: يدخل السيل إن فعلتَ ذلك إلى المسجد لضيق مجراه حينئذ، فقال: لا بدَّ من ذلك، وإن دخل السيل، ولو أنفقت فى ذلك جميع بيوت المال، وصعد المهندسون على ظهر الكعبة، ونصبت الرماح بعضها إلى بعض، ومدَّتْ من أعلى الكعبة إلى الجهات الأربع حتى كانت مستوية متوسطة فى المسجد نسبة الجهات الأربع إليها على السواء، فجزاه الله خيرًا وشكر سعيه .

قال الفاكهى: كان بعد جدار المسجد من الجانب الجنوبى عن الكعبة تسعة وأربعين ذراعًا لا غير، ولبيان مثل هذه الأمور كتب مفردة.

ولما رجع أمر ببناء القصور بطريق مكة، أوسع من قصور أبيه المنصور من القادسية إلى زبالة، وأمر باتخاذ المصانع فى كل منهل وبتحديد الأميال، وحفر

الآبار، وذلك على يد يقطين بن موسى. وأمر بالزيادة فى مسجد البصرة وتقصير المنابر إلى مقدار منبر النبى ﷺ.

وفى سنة ثلاث وستين: ظهر عطاء المقنع شيخ لعين خراسانى كان يعرف السحر والسيميا، فربط الناس بالخوارق والمغيبات، وادعى الربوبية، وكان يقول بالتناسخ، أى: أن الله تعالى تحول إلى صورة آدم، ولذلك أمر الملائكة بالسجود له، ثم تحول إلى صورة نوح ثم إلى صورة إبراهيم وغيرهم من الأنبياء والحكماء والفلاسفة، ويقرأ: ﴿ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار: ٨] ثم إنه تحول سبحانه وتعالى إلى صورة أبى مسلم الخراسانى صاحب الدعوة العباسية، ثم مِنْ بعدِ أبى مسلم إلى صورة نفسه، فعبده خلائق من الجهلة، وكان مشوهًا أصور أعور العين قصيرًا، فكان لا يكشف وجهه، بل اتخذ له وجهًا من الذهب؛ ولذلك قيل له: المقنَّع، ومما أضل الناس به من المخاريق: أنه أظهر لهم قمرًا يرونه فى السماء من مسيرة شهرين مع قمر السماء، وفى ذلك يقول ابن سناء الملك من قصيدة أخرج فيها ذكره مخرج الغزل فقال: [من الطويل]

إِلَيْك فَمَا بَدْرُ المُقَنَّعِ طَالِعًا ... بأَسْحَرَ مِنْ أَلْحَاظِ بَدْرِ المُقَنَّعِ

ولأبى العلاء المعرى: [من الطويل]

أَفِقْ أيها البَدْرُ المُعَمَّمُ رَأسَهُ ... ضَلاَلٌ وَغيٌّ مِثْل بَدْرِ المُقَنَّعِ

ولما استفحل شرُّ عطاء - لعنه الله - جهز المهديُّ عسكرًا لحربه، فقصدوه وحصروه فى قلعته ببلسام من أعمال بخارى، فلما عرف أنه مأخوذ جمع نساءه فسقاهنَّ السُّمَّ فهلكْنَ، ثم تناول هو السُّمَّ، فمات وهو يتحسَّاه فى نار جهنم خالدًا، ثم أخذت القلعة وقتل رءوس أتباعه - لعنه الله - وبعث برأسه ورءوسهم إلى المهديِّ، فوصلَتْ إليه بحلب، وهو ذاهب لغزو الروم[(١)].

وفى سنة أربع وستين ومائة: خلع المهدى ابن عمه عيسى بن موسى عن ولاية العهد إلى ابنه موسى الهادى ابن المهدى.

وفى سنة ست وستين أخذ البيعة لابنه الآخر هارون بعد ابنه الهادى ولقبه بالرشيد[(٢)].

---

(١) ينظر: تاريخ خليفة (٤٣٧) وتاريخ الطبرى (٨/ ١٤٤) دول الإسلام (١/ ١٠٩) تاريخ ابن خلدون (٣/ ٢٠٧) تاريخ الإسلام حوادث سنة ثلاث وستين ومائة .

(٢) تاريخ الطبرى (٨/ ١٥٤) .

فالحاصل: أن المهدى محمدًا عهد إلى ولديه الهادى وهارون الرشيد، على أن يكون الهادى بعده قبل الرشيد.

ثم فى سنة تسع وستين: اعتزم على خلع ابنه الهادى، والبيعة للرشيد، وتقديمه على الهادى، وكان الهادى بجرجان فبعث إليه بذلك واستقدمه، فضرب الهادى الرسول وامتنع، فسار إليه المهدى، فلما بلغ ماسبذان، توفي هنالك يقال مسمومًا من بعض جواريه، يقال: سمَّت إحداهما الأخرى فى كمثرى، فغلط المهدى، فأخذها فأكلها، فما جسرت أن تقول له: إنها مسمومة.

ويقال: سبب موته أنه طرد صيدًا، فدخل وراءه إلى خربة، فدق باب الخربة ظهره، فأدخل قربوس السرج فى صدره.

وكان موته فى المحرم من السنة المذكورة سنة تسع وستين، ولم يوجد له نعش يحمل عليه فحمل على باب، ودفن تحت شجرة جوز.

وكانت مدة خلافته عشرين سنة وشهرًا، وله من العمر ثلاث وأربعون سنة، وكان جوادًا ممدحًا سخيًا إلى الرعية حسن الخلق والخلق[١].

يقال: إن أباه خلف فى الخزائن مائة ألف ألف دينار، وستين ألف ألف درهم، ففرقها المهدى.

وقد قيل: ما جاء فى بنى العباس أكرم من المهدى، ولا أبخل من أبيه المنصور.

دخل على المهدى شريك القاضى، فقال له المهدى: يا شريك، ما تقول فى على بن أبى طالب؟ قال: ما قال فيه جدك العباس وعبد الله ابنه، فقال: ما قالا فيه؟ قال: أما العباس فمات، وعلى عنده أفضلُ الصحابة، وقد كان يرى كثيرًا من المهاجرين الأولين يسألونه عما ينزل بهم من النوازل وما احتاج هو إلى أحد منهم حتى لحق إلى كرامة الله تعالى. وأما عبد الله ابنه، فكان يضرب بين يديه بسيفَين، وكان فى حروبه رأسًا متبعًا وسيدًا مطاعًا، فلو كانت إمامة عليٍّ جورًا، لكان أول من قعد عنه جدك عبد الله؛ لعلمه بدين الله وفقهه فى أحكام الله، فأطرق المهدى رأسه ساعة، ثم عزلَ شريكًا عن القضاء بعد أيام قليلة.

---

(١) تاريخ الطبرى (٨/ ١٦٩ - ١٧٠)، الكامل فى التاريخ (٦/ ٨٢)، البدء والتاريخ (٦/ ٩٨)، تاريخ الإسلام حوادث سنة تسع وستين ومائة .

ودخل عليه ابن الخَيَّاط وامتدحه، فأمر له بخمسين ألف درهم، فسأله أن يقَّبل يده فقبَّلها، ثم خرج، فما انتهى إلى الباب حتى فرقها جميعًا، فعوتب على ذلك فقال: [من الطويل]

لَمَسْتُ بكَفِّى كَفَّهُ أَبْتَغِى الغِنَىٰ وَلَمْ أَدْرِ اَنَّ الجُودَ مِنْ كَفِّهِ يُعْدِي
فَلاَ أَنَا منه ما أَفَادَ ذَوُو الغِنَىٰ أَفَدتُّ، وَأَعْدَانِى فَأَتْلَفْتُ[١] ما عِنْدِي

فبلغ المهدى ذلك، فأمر له بخمسين ألف دينار.

وقال سَلْمٌ الخاسرُ يرثى المهدى : [من الوافر]

وَبَاكيةٍ على المَهْدِيِّ عَبْرَىٰ كَأَنَّ بها - وما جُنَّتْ - جُنُونا
وقد خَمَشَتْ محاسِنَهَا وأبْدَتْ غدائِرَهَا وأَظْهَرَتِ القُرُونَا
لَئِنْ بلى الخليفةُ بعد عِزٍّ لقدْ أَبْقَىٰ مساعِىَ مَا بَلينَا
سَلاَمُ اللَّهِ غُدْوَةَ كلَّ يوم على المهديِّ حيثُ ثَوَىٰ رَهينَا
تركْنَا الدِّينَ والدُّنْيَا جميعًا بحَيثُ ثَوَىٰ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَا

وفى كتاب الأذكياء لابن الجوزى: أن أبا دلامة دخل على المهدى، فأنشده قصيدة، فقال له المهدى: سلنى حاجتك، فقال: يا أمير المؤمنين، تهب لى كلب صيد، فغضب، وقال: أتسأل كلب صيد، وأنا أقول لك ما أقول ؟! فقال: يا أمير المؤمنين، الحاجة لى أم لك ؟! فقال له: بل لك، قال: فإنى سائلك إياه، فأمر له بكلب صيد، فقال: يا أمير المؤمنين، هبنى خَرَجْتُ إلى الصيد، فأعدو على رجلى ؟! فأمر له بدابَّةٍ، فقال: يا أمير المؤمنين، فمن يقومُ عليها ؟ فأمر له بغلام، فقال: يا أمير المؤمنين، هبنى صدت صيدًا فمن يطبخه ؟ فأمر له بجارية، فقال: يا أمير المؤمنين، هؤلاء أين يبيتون ؟ فأمر له بدار، فقال: يا أمير المؤمنين، قد صار فى عنقى عيال، فمن أين لى ما يقوت هؤلاء؟ قال: قد أقطعتك ألف جريب عامر.

وعن عبد الله بن هارون قال: حدثنى عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الله عن المغيرة قال: دخل المغيرة بن عبد الرحمن المخزومى وأبو السائب والعثمانى[٢] وابن أخت الأحوص على المهدى، وهو بالمدينة فقال: أنشدونى، فأنشده المغيرة:

---

(١) فى تاريخ الإسلام: فبددت .
(٢) في ط: ابن. ثم بياض.

[من الطويل]

وللنَّاسِ بَدْرٌ فى السماءِ تَرَوْنَهُ وأَنْتَ لنا بَدْرٌ على الأرضِ مُقْمِرُ
فَبِاللَّهِ يا بَدْرَ السماءِ وصِنْوَهُ تُرَاكَ تُكَافى عُشْرَ ما لَكَ مُضْمَرُ
وما البَدْرُ إلا دُونَ وَجْهِكَ فى الدُّجَىٰ يغيبُ فَتَبْدُو حِينَ غَابَ فَتُقْمِرُ
وما نَظَرَتْ عينى إِلَى البَدْرِ ماشيًا وأَنْتَ فتمشِى فى الثِّيَابِ فَتَسْحَرُ

ثم أنشده ابن أخت الأحوص فقال: [من البسيط]

قَالَتْ كلابة مَنْ هذا فقلْتُ لها هذا الذى أَنْتِ مِنْ أعدائِهِ زَعَمُوا
إِنِّى امرؤٌ لَجَّ بى حُبٌّ فأَحْرَضَنِي حَتَّىٰ بَلِيتُ وحتَّىٰ شَفَّنِى السَّقَمُ

ثم أنشده المخزومي: [من الطويل]

رَمَى القَلْبُ مِن قلبِى السوَادَ فأَوْجَعَا وَصَاحَ فصيحٌ بالرَّحيلِ فَأَسْمَعَا
وغَرَّدَ حادِى البَينِ وانشقَّتِ العَصَا فأَصْبَحْتُ مَسْلُوبَ الفُؤَادِ مُفَجَّعَا
كفَىٰ حَزَنًا مِنْ حادِثِ الدَّهرِ أنني أَرَى البَينَ لا أَسْطِيعُ للبَينِ مَدْفَعَا
وقد كُنْتُ قَبْلَ اليومِ بالبَيْنِ جَاهِلًا فيا لَكَ بينًا ما أَمَرَّ وأَوْجَعَا

ثم أنشده أبو السائب يقول: [من الطويل]

أَصِيخَا لداعي حُبِّ ليلَىٰ فَيِمَّمَا صُدُورَ المطايا نَحْوَهَا فتَسَمَّعَا
خليليَّ إنْ ليلَىٰ أقامَتْ فَإِنَّنِي مُقِيمٌ، وإنْ بانَتْ فبينا بِنَا مَعَا
وإنْ أثبتتْ لَيْلَىٰ بربْعٍ يحوزها أعيذُكُمَا باللَّه أَنْ تَتَزَعْزَعَا

ثم أمر لهم بصلات جسيمة.

وحدث إدريس بن سليمان بن يحيى بن يزيد بن أبى حفصة: كان سبب اتصال مروان بخلفاء بنى العباس، وكان - والله أعلم - من شعراء بنى أمية، أن جارية يمانية أهديت إلى أبى جعفر المنصور، فأنشدته شعرًا لمروان يمدح فيه السرى بن عبد الله، يذكر فيه وراثة العباس، فسألها المنصور عن الشعر ؟ فقالت: هو لمروان، فوافاه بالربذة حاجًا، وبالمنصور العلة التى مات بها، فلقى مروان الربيع حاجب المنصور، فقال له: كن قريبًا حتى يدعو بك، فلم تزل العلة بالمنصور تشتدُّ حتى مات قبل أن يصل إليه مروان فقال له الربيع: الْحَقْ بالمهديِّ ولا تتخلف عنه، فانصرفَ مروان إلى اليمامة فجعلها طريقًا وعليها بشر بن المنذر واليًا، فأوفده بشر

على المهدى فيمن أوفد، فقدم مروان على المهدى وقد مدحه بأربع قصائد مطلع الأولى: [من الطويل]

صَحَا بَعْدَ جُهْدٍ فاستَرَاحَتْ عواذلُهْ وأَقْصَرْنَ عنه حِينَ أَقْصَرَ بَاطِلُهْ

والثانية: [من الكامل]

طَافَ الخَيَالُ فَحَيِّهِ بسَلَامِ أَنَّىٰ أَلَمَّ، ولَيْسَ حين مَنَامِ

وفيها يقول:

أَنَّى يكُونُ ولَيْسَ ذاكَ بكَائِنٍ لِبَنِي البَنَاتِ وِرَاثَةُ الأَعْمَامِ ؟ !

والثالثة: [من الكامل]

إغْصِ الهَوَىٰ وَتَعَزَّ عَنْ سُعْدَاكَا فَلِمِثْلِ حِلْمِكَ عَنْ هَوَاكَ نهاكا

والرابعة: [من الطويل]

بَرى العَين شَوْقٌ حَالَ دُونَ التجلُّدِ ففاضَتْ بأَسْرَابٍ مِنَ الدَّمْعِ حُشَّدِ

قال إدريس: فأعطى المهدى مروان إجازة سبعين ألف درهم، فقال مروان يمدحه فى قصيدة، ويذكرها: [من الطويل]

بِسَبْعِينَ أَلْفًا رَاشَنِى مِنْ حِبَائِهِ وما نَالَهَا فى الناسِ مِنْ شَاعِرٍ قبلي

رحم الله أهل الكرم.

وحدث أحمد بن أبى بكر الباهلى قال: حدثنى حاجب المهدى قال: قال لى المهدى يومًا نصف النهار: اخرج فانظر من فى الباب، فخرجت فإذا شيخ واقف، فقلت: لك حاجة ؟ فقال: لا أخبر بحاجتى أحدًا غير أمير المؤمنين، فأخبرت المهدى بخبره وبقوله، فقال: ائذن له، ومُرْهُ بالتخفيف، فخرجت، وقلت له: ادخل وخفِّفْ، فدخل وسلَّم بالخلافة، ثم قال: يا أمير المؤمنين، إنا قد أمرنا بالتخفيف: [من الطويل]

فإنْ شئْتَ خَفَّفْنَا فكنَّا كَرِيشَةٍ متَىٰ تَلْقَهَا الأنفاسُ فى الجَوِّ تَذْهَبِ

وإن شئْتَ ثَقَّلْنَا فكُنَّا كصخرةٍ متى تُلْقِهَا فِى حَوْمَةِ البَحْرِ تَرْسُبِ

وإن شئْتَ سلَّمنا فكُنَّا كراكبٍ متى يَقْضِ حَقًّا من سلامِكَ يَغْرُبِ

فضحك المهدى، وقال: بل تكرم وتقضى حاجتك، فقضى حاجته، ووصله بعشرة آلاف درهم.

كان معن بن زائدة الشيبانى من أمراء المنصور أبى المهدى، ثم أبقاه المهديُّ واليًا على أذربيجان على ما كان من والده المنصور، وهو أحد الأجواد المشهورين والشجعان المذكورين، قَدِمَ عليه قوم من أهل الكوفة مستميحين، فنظر إليهم فى هيئة رثة، فأنشأ يقول: [من الطويل]

إذا نَوْبَةٌ نَابَتْ صديقَكَ فاغْتَنِمْ مَرَمَّتَهَا فالدَّهْرُ بالناسِ قُلَّبُ
فأَحْسَنُ ثوبَيْكَ الذى أنتَ لابسٌ وأَمْهَرُ مُهْرَيْكَ الذى هُوَ يُرْكَبُ

وقال: يا غلام، أعطهم لكلٍّ واحد أربعة آلاف، فقال أحدهم: يا سيدى، دنانير أو دراهم ؟ فقال معن: والله، لا تكونُ همتك أرفع من همتى، يا غلام، صفرها لهم.

وأتاه أعرابى ومعه مولود فقال: [من البسيط]

سَمَّيْتُ طِفْلِيَ مَعْنًا ثم قلْتُ له هذا سَمِيُّ فَتًى فى الناسِ محمودِ
أمسَتْ يمينُكَ مِنْ جُودٍ مُصَوَّرَةً لا بَلْ يمينُكَ منها صُورَةُ الجُودِ

فأمر له بثلاثمائة دينار.

روى أن المهدى خرج يومًا يتصيَّد، فلقيه الحسين بن مطير الأسدى فأنشده: [من البسيط]

أضحَتْ يمينُكَ مِنْ جُودٍ مصوَّرَةً لا بَلْ يمينك منها صُورَةُ الجودِ
مِنْ حُسْنِ وجهِكَ تُضحِي الأرضُ مشرقَةً ومِنْ بنانِكَ يَجْرِى الماءُ فى العُودِ

فقال له المهدى: كذبتَ يا فاسقُ، وهل تركْتَ فى شعرك موضعًا لأحد مع قولك فى معن بن زائدة: [من الطويل]

أَلِمَّا بِمَعْنٍ ثُمَّ قولا لِقَبْرِهِ سَقَتْكَ الغَوَادِى مَرْبَعًا ثُمَّ مَرْبَعَا
فَيَا قَبْرَ مَعْنٍ كَيْفَ وارَيْتَ جُودَهُ وقَدْ كَانَ منه البَرُّ والبَحْرُ مُتْرَعَا
ولكنْ حَوَيْتَ الجُودَ والجُودُ مَيِّتٌ ولو كَانَ حيًّا ضِقْتَ حتى تَصَدَّعَا
ولما مَضَىٰ مَعْنٌ مَضَى الجُودُ والنَّدَىٰ وأَصْبَحَ عِرنينُ المَكَارِمِ أَجْدَعَا

فأطرق الحسين، ثم قال: يا أمير المؤمنين، وهل مَعْنٌ إلا حسنة من حسناتك ؟! فرضى عنه، وأمر له بألف دينار .

* * *

خلافة الهادي[(١)]

موسى بن المهدى محمد بن المنصور عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم. كان شجاعًا كريمًا، وكان فى صغره لا يزال فاتحًا فمه خلقةً، فوكل أبوه غلامًا ينبهه على إطباق فمه كلما رآه فاتحه، فيقول له: موسى أَطبقْ، فكان يقال له لذلك فى صغره موسى أطبق.

كانت ولادته سنة ست وأربعين ومائة. وقال سلم الخاسر جامعًا بين التهنئة للهادى بالخلافة والعزاء بأبيه المهدى محمد فقال: [من الطويل]

لَقَدْ قَامَ مُوسَىٰ بِالخِلَافَةِ والهُدَىٰ   وَمَاتَ أَميرُ المؤمنين مُحَمَّدُ
فَمَاتَ الذى عَمَّ البريَّة فَقْدُهُ   وقَامَ الذى يَكْفِيكَ مَنْ تتفقَّدُ

وقال مروان بن أبى حفصة: [من الطويل]

لَقَدْ أَصْبَحَتْ تختالُ فى كُلِّ بلدةٍ   بقَبْرِ أميرِ المؤمنينَ المَقَابِرُ
ولو لم تُسَكِّنْ بابنه بَعْدَ موتِهِ   لَمَا بَرحَتْ تَبْكِى عَلَيْهِ المنابرُ
ولو لم يَقُمْ موسَىٰ عليهَا لَرجَّعَتْ   حَنِينًا كَمَا حَنَّ الصفايا العَشَائِرُ

بويع بالخلافة بعد موت أبيه، وكان الهادى مقيمًا بجرجان يحارب أهل طبرستان، وكان الرشيد لما توفى المهدى والعسكر معه بماسبذان، نادى فى الناس بالعطاء؛ تسكينًا لهم وقسم فيهم، فلما استوفوها، تنادوا بالرجوع إلى بغداد، وتسابقوا إليها، واستيقنوا موت المهدى، فأتوا باب الربيع وأحرقوه وطالبوه بالأرزاق وفتقوا السجون، وقدم الرشيد بغداد فى أثرهم، فبعثت الخيزران إلى الربيع ويحيى، فامتنع يحيى خوفًا من غيرة الهادى، وأمر الربيع بسنتين للجند فسكنوا، وكتب الهادى إلى الربيع يتهدَّده، فاستشار يحيى فى أمره، وكان يثق بوده، فأشار عليه بأن يبعث ابنه الفضل يعتذر عنه ويصحبه الهدايا واللطف، ففعل، فرضى الهادى عنه،

---

(١) ينظر [الهادى] فى: شذرات الذهب ١/ ٢٦٦ - ٢٧١، تاريخ الخلفاء ٢٧٩ وما بعدها، العبر للذهبى ١/ ٢٥٧، تاريخ بغداد ١٣/ ٢١ - ٢٥، الوزراء والكتاب ١٦٧ - ١٧٥، مروج الذهب ٣/ ٣٣٤، البداية والنهاية ١٠/ ١٣١، المعارف ٣٨٠ - ٣٨١، سير أعلام النبلاء ٧/ ٤٤١، تاريخ ابن خلدون ٣/ ٢١٤ - ٢١٧، مرآة الجنان ١/ ٣٥٨، خلاصة الذهب المسبوك ١١٣ - ١١٥، البدء والتاريخ ٦/ ٩٩، العقد الفريد ١/ ١٨٠، المحبّر ٣٧، تاريخ اليعقوبى ٢/ ٣٨٦، الأخبار الطوال ٣٨٦، الفتوح لابن أعثم ٨/ ٢٤١، الطبرى ٨/ ٦٠، أنساب الأشراف ٣/ ٩٥، نسب قريش ٥٤ .

فأخذت البيعة ببغداد للهادى، وكتب الرشيد بذلك إلى الآفاق، وبعث نصر إلى الهادى بجرجان، فركب البريد إلى بغداد.

قال الصولى: ولا يعرف خليفة رَكِبَ خيل البريد إلا الهادى من جرجان إلى بغداد، فقدمها فى عشرين يومًا، واستوزر الربيع، وهلك لمدة قليلة من وزارته، واشتد الهادى فى طلب الزنادقة وقتلهم.

وفى سنة تسع وستين: كان ظهور حسين المقتول بفخ، وهو الحسين بن على بن الحسن بن [الحسن بن](١) الحسن بن على بن أبى طالب، وقصته معروفة(٢).

وكان للهادى بغض بالرشيد بما كان المهدى أبوهما يؤثره عليه أخيرًا، وكان رأى أنه دفع إليهما قضيبين، فأورق قضيب الهادى من أعلاه، وأورق قضيب الرشيد كله، وتأول ذلك بقصر مدة الهادى وطول مدة الرشيد وحسنها، فلما ولى الهادى أجمع على خلع أخيه الرشيد والبيعة لابنه جعفر بن الهادى مكانه، وفاوض فى ذلك قُوَّاده، فأجابه إلى ذلك يزيد بن مزيد، وعلى بن عيسى، وعبد الله بن مالك، ووضع الشيعة على الرشيد ينتقصونه، ويقولون: لا نرضى به، ونهى الهادى أن يسار بين يديه بالحربة، فاجتنبه الناس، وكان يحيى بن خالد يتولَّى أموره، فاتهمه الهادى بمداخلته، وبعث إليه وتهدده، فحضر عنده مستميتًا وقال: يا أمير المؤمنين، إن حملت الناس على نكث الأيمان فيه، هانت عليهم فيمن توليه، وإن بايعت لجعفر بعده، كان ذلك أوثق للبيعة، فصدقه وكف عنه، وعاد أولئك الذين خلعوه من القواد والشيعة فأغروه بيحيى، وأنه الذى منع الرشيد من خلع نفسه، فحبسه الهادى، فطلب الحضور للنصيحة، فأحضره من الحبس، فقال: يا أمير المؤمنين، أتظنُّ الناس يسلمون الخلافة لابنك جعفر وهو صبيٌّ، ويرضون به لصلاتهم وحَجِّهم وغزوهم، وتأمن أن يسمو إليها عند ذلك أهل بيتك، فتخرج من ولد أبيك، والله، لو لم يعقده له المهديُّ، لكان ينبغى أن تعقده أنت له حذرًا من ذلك، إنى أرى أن تقر العهد لأخيك، فإذا بلغ ابنك، أتيتك بأخيك فخلع نفسه وبايع له، فقبل الهادى قوله وأطلقه.

---

(١) المثبت من تاريخ الإسلام، والبداية والنهاية.

(٢) تنظر قصته فى: تاريخ الطبرى (٨/ ١٩٢ - ١٩٣) وتاريخ الإسلام حوادث سنة تسع وستين ومائة، والبداية والنهاية (١٠/ ١٦٨).

ولم يقنع القواد ذلك؛ لأنهم كانوا حذرين من الرشيد، فأرسل إلى الرشيد وضيق عليه، واستأذنه فى الصيد، ومضىٰ إلى قصر مقاتل، فنكره الهادى وأظهر جفاءه، وبسط الموالى فيه ألسنتهم، ثم خرج الهادى إلى حديثة الموصل، فاشتد مرضه هنالك، واستقدم العمال شرقًا وغربًا.

ولما ثقل، تآمر القوم الذين بايعوا جعفرًا فى قتل يحيى بن خالد، ثم أمسكوا خوفًا من الهادى، ثم توفى الهادى فى شهر ربيع سنة سبعين ومائة، وقيل: إنما توفى بعد أن عاد من حديثة الموصل.

ويقال: إن أمه الخيزران دسَّت بعض الجوارى عليه، فقتلنه؛ لأنها كانت أول خلافته تستبد عليه بالأموال، فعكف الناس على بابها، واختلفت المواكب إليها، فوجد الهادى من ذلك، فكلمته يومًا فى حاجة فلم يجبها، فقالت: قد ضمنتها لعبد الله بن مالك، فغضب الهادى وشتمه وحلف لا قضيتها، فقامت وهى مغضبة، فقال: مكانك، والله، وإلا انتفيت من قرابتى من رسول الله ﷺ، لئن بلغنى أن أحدًا من قُوَّادى وخاصَّتى وقف ببابك، لأضربن عنقه، ولأقبضنَّ ماله. ما للمواكب تغدو وتروح عليك، أما لك مغزل يشغلك، أو مصحف يذكرك، أو بيت يصونك ؟! إياك إياك، لا تفتحى بابك لمسلم ولا ذمى، فانصرفت وهى لا تعقل. ثم قال لأصحابه: أيكم يحب أن يتحدث الرجال بخبر أمه؛ فيقال: فعلت أم فلان، وصنعت ؟ ! فقالوا: لا نحب ذلك، قال: فما بالكم تأتون أمى، فتتحدَّثون معها؟![1]

ويقال: إنه لمَّا جَدَّ فى خلع الرشيد، خافت عليه منه، فلما ثقل فى مرضه، دسَّت بعض الجوارى، فجلس على وجهه، فمات.

وحكى فى بغية الخاطر: أن الهادى كان يدور يومًا فى بستانه ومعه خواصُّه، وهو راكب على حمار، وليس معه سلاح، فدخل عليه حاجبه، فأخبره أن رجلاً من الخوارج جيء به أسيرًا، وكان الهادى حريصًا على الظفر به، فأمر بإدخاله، فأدخل بين رجلين قد أمسكا بيديه، فلما رأى الخارجيُّ وجه الهادى، جذب يديه من

---

(١) ينظر: تاريخ الطبرى (٨/ ٢٠٥)، والكامل فى التاريخ (٦/ ٩٩)، ودول الإسلام (١/ ١١٣)، وتاريخ الإسلام حوادث سنة سبعين ومائة .

الرجلين، واخترط سيف أحدهما، ووثب نحو الهادى، فلما رأى ذلك من حول الهادى، فروا جميعًا، وبقى الهادى وحده، وثبت على حماره بركابه وعزم، حتى إذا قرب الخارجيُّ منه وكاد أن يعلوه بالسيف، قال الهادى: اضرب عنقه يا غلام، فالتفت الخارجيُّ حين سمع ذلك وهمًا منه، فوثب الهادى عن حماره، وانتزع السيف من يده، فذبحه به ذبحًا، ثم عاد على ظهر حماره من فوره، وتراجع إليه حاشيته، وقد ملئوا رعبًا وجبنًا، فما خاطبهم فى ذلك بكلمة واحدة، ولم يكن بعد ذلك يفارقه السيف ولا يركب إلا الخيل[١].

وفى مروج الذهب[٢]: أنه رفع إلى الهادى أن رجلًا من بلاد المنصورة من أرض السند من أشرافهم ربى غلامًا سنديًا [أو هنديا][٣]، وأن الغلام هوى مولاته، فراودها عن نفسها فأجابته، فدخل مولاه، فوجدها معه، فَجَبَّ ذكر الغلام [وخصاه][٤]، ثم عالجه إلى أن برئ، فأقام مدة، وكان لمولاه ابنان، فصعد بهما الغلام السندى إلى أعلى سور الدار، فرأى سيده ابنيه مع الغلام، فقال: يا غلام، عرَّضْتَ ابنيَّ للهلاك، فقال الغلام: دع عنك هذا، فوالله لئن لم تَجُبَّ نفسك بحضرتى الآن لأرمينَّ بهما، فقال: الله الله فيَّ وفى ابنيَّ ! فقال الغلام: دع عنك هذا، فوالله ما هى إلا نفسى، وإنى لأسمح بها من شربة ماء. فأهوى ليرمِيَ بهما، فأسرع مولاه فأخذ المدية، فَجَبَّ نفسه، فلما رأى الغلام أنه قد فعل، رمى بالصبيين فتقطَّعا، ثم قال: هذا الذى فعلْتُ بفعلك فيَّ، وقتل هذين الولدين زيادة، فأمر الهادى [بالكتاب إلى صاحب السند][٥] بقتل الغلام السندى وتعذيبه بأنواع العذاب، وأمر بإخراج كل سندى من مملكته، فَرَخُصُوا فى أيامه حتى كانوا يتداولون فى ذلك الزمان بأبخس ثمن، وقد قيل فى مثل هذا المعنى: [من البسيط]

لاَ تأمنَنَّ فتى أسكَنْتَ مهجَتهُ ... غَيْظًا وتَحْسِبُ أن الغَيْظَ قد ذَهَبَا
لاَ تقطَعَنْ ذَنَبَ الأفعَىٰ وتُرْسِلُهَا ... إنْ كُنْت شَهْمًا فَأتْبِعْ رأْسَهَا الذَّنَبَا

(١) ينظر: مروج الذهب (٣/ ٣٣٥) .
(٢) ينظر: مروج الذهب (٣/ ٣٣٥، ٣٣٦) .
(٣) المثبت من مروج الذهب .
(٤) المثبت من مروج الذهب .
(٥) المثبت من مروج الذهب .

وفى العقد لابن عبد ربه[١]: ذكر عن عبد الله بن الضحاك، عن الهيثم بن عدى قال: إن سيف ابن معدى كرب الزبيدى البطل المشهور المسمى بالصمصامة دخل فى يد المهدى، فأعطاه لولده الهادى، فأخرج ذلك السيف الهادى يومًا فى مجلسه، ووضعه بين يديه، ودعا بمكتل دنانير، وقال لحاجبه: ائذن للشعراء، فلما دخلوا، أمرهم أن يقولوا فى السيف، فبدأهم ابن يامين البصرى فقال: [من الخفيف]

حَازَ صمصامَةَ الزبيديِّ مِنْ دُو[٢] ... نِ جَمِيعِ الأَنَامِ مُوسَى الأَمِينُ
سَيْفَ عَمْرٍو وكَانَ فيما سَمِعْنَا ... خَيْرَ ما أُغْمِدَتْ عليه الجُفُونُ
أَخْضَرُ المَتْنِ بين خَدَّيْهِ نُورٌ ... مِنْ فِرِنْدٍ تَمِيدُ فيه العُيُونُ
أَوْقَدَتْ فوقه الصواعِقُ نارًا ... ثم ساطَتْ بِهِ الذُّعَاف المَنُونُ[٣]
فإذا ما سَلَلْتَهُ بَهَرَ الشمْـ ... ـسَ ضياءً فلم تَكُنْ تَسْتَبِينُ
وكأَنَّ الفِرِنْدَ والرونَقَ الجَا ... رِيَ فِى صَفْحَتَيْهِ مَاءٌ مَعِينُ
وكأَنَّ المَنُونَ نِيطَتْ إلَيْهِ ... فَهْوَ فى كُلِّ جانِبَيْهِ منونُ
ما يُبَالِى مَنِ انتضَاهُ لِحَرْبٍ ... أَشِمَالٌ سَطَتْ به أَمْ يَمِينُ

فقال الهادى: دونك السيف والمكتل فخذْهُمَا. ففرق ابن يامين المكتل والدنانير على الشعراء، وقال: فى السيف عوضٌ، ثم انصرف، فبعث إليه الهادى فاشترى منه السيف بخمسين ألف دينار، هكذا هكذا.

قلت: وتعجبنى أبيات أربعة لابن الرومى فى وصف السيف حيث يقول: [من الخفيف]

خَيْرُ ما اسْتَعْصَمَتْ بِهِ الكَفُّ غضبٌ ... ذَكَرٌ جسُّهُ أَنِيثُ المَهَزِّ
مَا تَأَمَّلْتَهُ بِعَيْنَيْكَ إلاَّ ... أرعدتْ صَفْحَتَاهُ من غَيْرِ هَزِّ
مِثْلُهُ أَفْزَعَ الشجَاعَ إِلى الدِّرْ ... عِ فَغَالَىٰ بِهِ عَلَىٰ كُلِّ بَزِّ
مَا يُبَالى أَصممت شَفْرَتَاهُ ... فى مَحَزٍّ أم جَازَتَا عَنْ مَحَزِّ

قال الحافظ الذهبى[٤]: وعن مصعب الزبيرى، عن أبيه قال: دخل مروان بن أبى

(١) ينظر: العقد الفريد (١/ ١٥٣) .
(٢) فى العقد الفريد: عمرو .
(٣) فى العقد الفريد: القيون. والذعاف: السم.
(٤) ينظر: سير أعلام النبلاء (٧/ ٤٤٢)، تاريخ بغداد (١٣/ ٢٣)، البداية والنهاية (١٠/ ١٥٩)، وفيات الأعيان (٥/ ١٩٠) .

حفصة الشاعر على الهادى بن المهدي فأنشده قصيدة: [من الطويل]

تَشَابَهَ يَوْمَا بَأْسِهِ وَنَوَالِهِ فَمَا أَحَدٌ يَدْرِى لِأَيِّهِمَا الفَضْلُ
أَيَوْمُ عَطَاهُ الجَمِّ أَمْ يَوْمُ بَأْسِهِ ... ...

فلما فرغ من إنشادها، قال له: أيما أحب إليك، ثلاثون ألفًا معجلة، أم مائة ألف تدون فى الدواوين ؟ فقال مروان: تعجل الثلاثون ألفًا، وتدوَّن المائة ألف؛ فتلك من الهادى قليل. قال الهادى: بل يعجَّلَانِ لك جميعًا، احملوا إليه مائة وثلاثين ألفًا.

قال نفطويه: قيل: إن الهادى قال لإبراهيم الموصلى: إن أطربتني فاحتكم، فغنَّاه: [من الهزج]

سُلَيْمَىٰ أَزْمَعَتْ بَيْنَا فَأَيْنَ لِقَاؤُهَا أَيْنَا

فى أبيات يسيرة، فأعطاه سبعمائة ألف درهم.

قال الذهبى(١): كان الهادى يتناول المسكر، ويلعب، ويركب حمارًا فارهًا - يعنى قبل تلك الواقعة التى ذكرتها قريبًا - وكان فصيحًا قادرًا على الكلام، أديبًا تعلوه هيبة، وله سطوة وشهامة، وكان طويلًا جسيمًا أبيضَ، شفته العليا تقلص؛ فلا يزال مفتوح الفم، فوكل به أبوه خادمًا كلما رآه مفتوحَ الفم قال له: « موسى أطبق »، فيفيق على نفسه، ويطبق شفتيه؛ كما تقدم ذكر ذلك.

مات فى ربيع الآخر سنة سبعين ومائة وسِنُّهُ ثلاث وعشرون سنة، ومدة خلافته سنة وشهران.

وقيل فى سبب موته غير ما تقدَّم؛ وهو أنه دفع نديمًا له من جرف على أصول قصب قد قطع، فتعلَّق النديم به فوقع، فدخلت قصبة فى مخرجه، فكانت سبب موته، فماتا جميعًا(٢).

* * *

(١) ينظر: سير أعلام النبلاء (٧/ ٤٤٢).
(٢) ينظر: سير أعلام النبلاء (٧/ ٤٤٢)، وفي موته أخبار أخرى. ينظر: الطبري (٨/ ٢٠٥) وما بعدها.

خلافة هارون الرشيد[١]

ابن المهدى بن المنصور بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس، وكان فصيحًا بليغًا يحجُّ عامًا ويغزو عامًا، وربما جمع بينهما فى عام واحد، ويصلى كل يوم مائة ركعة لا يتركُهَا إلا لعلة، ويتصدق كل يوم بألف درهم، ويحب العلماء، ويظهر حرمات الإسلام، ويتفقد الصلحاء، ومع ذلك كان منهمكًا فى اللهو، وله فى ذلك نوادر وحكايات لا تحصر بحدٍّ، ولا تحصى بعَدٍّ.

بويع ليلة الجمعة لأربع عشرة ليلة خلت من ربيع الأول، سنة مات أخوه الهادى سنة سبعين ومائة، وولد له المأمون فيها، وكانت ليلة عجيبة، فيها وفاة خليفة، وولاية خليفة، وولادة خليفة.

ولما بويع الرشيد استوزر يحيى بن خالد البرمكى، فقال إبراهيم الموصلى: [من الطويل]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الشمْسَ كانَتْ مريضَةً[٢] ... فلمَّا أَتَىٰ هارُونُ أَشْرَقَ نُورُهَا

تَلَبَّستِ الدُّنْيَا جَمَالاً بِمُلْكِهِ[٣] ... فَهَارُونُ وَالِيهَا وَيَحْيَىٰ وَزِيرُهَا

فأعطاه هارون مائة ألف، وأعطاه يحيى خمسين ألفًا.

وكان يحيى يصدر عن رأى الخيزران أم الرشيد، ولداود بن رزين الواسطى قوله فيه: [من الطويل]

بِهَارُونَ لَجَّ[٤] النُّورُ فِى كُلِّ بلدةٍ ... وقامَ بِهِ فى عَدْلِ سِيرَتِهِ النَّهْجُ

---

(١) ينظر [هارون الرشيد] فى: شذرات الذهب ١/ ٣٣٤، تاريخ ابن خلدون ٣/ ٢١٧، أخبار الدول للقرمانى ١٤٩، تاريخ الخلفاء ٢٨٣، النجوم الزاهرة ٢/ ١٤٢، سير أعلام النبلاء ٩/ ٢٨٦، دول الإسلام ١/ ١١٣، الكامل لابن الأثير ٦/ ١٠٦، وفيات الأعيان ١/ ٣٣١ - ٣٣٩، خلاصة الذهب المسبوك ٧٧ و٩٩، سراج الملوك ٥١، تاريخ بغداد ١٤/ ٥ - ١٣ رقم ٧٣٤٧، الفتوح لابن أعثم ٨/ ٢٤٣ - ٢٨٦، عيون الأخبار ١/ ١٧، البدء والتاريخ ٦/ ١٠١ - ١٠٧، نثر الدر ٢٩ - ٣٧، تاريخ خليفة ٤٣٧، أنساب الأشراف ٣/ ٩٤، تاريخ الطبرى ٨/ ٢٣٠، المعارف ٣٨١، الأخبار الطوال ٣٨٦، تاريخ اليعقوبى ٢/ ٣٨٧، المعرفة والتاريخ ١/ ١٦١ .

(٢) فى تاريخ الطبرى: سقيمة .

(٣) ويروى هذا الشطر فى تاريخ الطبرى هكذا: بيمن أمين الله هارون ذى الندى: . . .

(٤) فى تاريخ الطبرى: لاح .

إمامٌ بِذَاتِ اللهِ أَصْبَحَ شُغْلُهُ ... فأَكْثَرُ مَا يُعْنَى به الغَزْوُ والحَجُّ
تَضِيقُ عيونُ الخَلْقِ عن نُورِ وَجْهِهِ ... إذا ما بَدَا لِلنَّاسِ مَنْظَرُهُ البلْجُ
تَفَسَّحَتِ الآمالُ فِي جُودِ كَفِّهِ ... وَأَعْطَى الذى يرْجُوهُ فَوْقَ الذى يَرْجُو[١]

وفى سنة خمس وسبعين ومائة: كان خُرُوجُ يحيى بن عبد الله بن الحسن المثنى فى الديلم، وهو أخو المهدى محمد الملقب بالنفس الزكية، واشتدت شوكته، وكثر جمعه، وأتاه الناس من الأمصار، فندب إليه الرشيد الفضل بن يحيى فى خمسين ألفًا، وولاه جرجان وطبرستان والرى، وما يليها وحمل معه الأموال، فسار ونزل بالطالقان، وكاتب يحيى وحذره وبسط أمله، وكتب إلى صاحب الديلم فى تسهيل أمر يحيى على أن يعطيه ألف ألف درهم، فأجاب يحيى على الأمان بخط الرشيد وشهادة الفقهاء والقضاة وجلة بنى هاشم ومشايخهم، وعين عبد الصمد بن على أن يكون منهم، فكتب له الرشيد بكل ما أحبَّ وأفاضَ عليه العطاء، وعظُمَتْ منزلة الفضل عنده. ثم إن الرشيد حبس يحيى إلى أن هلك فى محبسه[٢].

وفى سنة ست وثمانين: حج الرشيد، فسار من الأنبار ومعه أولاده الثلاثة: محمد الأمين، وعبد الله المأمون، والقاسم الملقب بالمؤتمن، وكان قد ولى الأمين العهد، وولاه العراق والشام إلى آخر المغرب، وولى المأمون العهد بعده وسلم إليه من همدان إلى آخر المشرق، وبايع لابنه القاسم بعد موت المأمون، ولقبه المؤتمن، وجعل خلعه وإثباته للمأمون، وضم إليه الجزيرة والثغور والعواصم، ومَرَّ بالمدينة فأعطى فيها ثلاثة أعطية: عطاء منه، وعطاء من الأمين، وعطاء من المأمون، فبلغ ألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار، ثم سار إلى مكة، فأعطى مثلها، وأحضر الفقهاء والقضاة والقواد، وكتب كتابًا أشهد فيه على الأمين بالوفاء للمأمون، وآخر على المأمون بالوفاء للأمين، وعلَّق الكتابين فى الكعبة الشريفة، وجدَّد عليهما العهود بذلك، قال إبراهيم الحجبي: لما أردت تعليق كتاب العهد بالكعبة، سقط منى المعلاق؛ فكان فألاً بسرعة نقضه.

---

(١) رواية هذا البيت فى الطبرى هكذا:

وإن أمين الله هارون ذا الندى ... ينيل الذى يرجوه أضعاف ما يرجو

(٢) ينظر تاريخ الطبرى (٨/ ٢٤١ - ٢٤٤) الكامل فى التاريخ (٦/ ١٢٢ - ١٢٥) تاريخ ابن خلدون (٣/ ٢١٨)، تاريخ الإسلام حوادث سنة خمس وسبعين ومائة .

ولما صير الرشيد ولده الأمين ولى عهده بعهده، قال سلم الخاسر قصيدة فى ذلك يقول فيها: [من الكامل]

قُلْ للمنازلِ بالكَثِيبِ الأَعْفَرِ سُقِّيتِ غَادِيَةَ السماءِ المُمْطِرِ
قَدْ بايَعَ الثَّقَلَانِ مَهْدِيَّ الهُدَىٰ لمحمدِ ابنِ زُبَيْدَةَ ابْنَةِ جَعْفَرِ
قَدْ وَفَّقَ اللَّهُ الخليفَةَ إذْ بَنَىٰ بَيْتَ الخلافةِ لِلْهِجَانِ الأَزْهرِ
فَهُوَ الخليفَةُ عَنْ أَبِيهِ وَجَدِّهِ شَهِدَا عليه بِمَنْظَرٍ وبِمَخْبَرِ

فحشت زبيدة فاه جواهر، قيل: باعة بعشرين ألف دينار.

قلت: ومن شعر سلم قوله: [من مخلَّع البسيط]

بَانَ شَبَابِي فَمَا يَحُورُ وطَالَ مِنْ لَيْلِيَ القَصِيرُ
أَهْدى لِيَ الشَّوْقَ وَهْوَ حُلْوٌ أَغَنُّ فِى طَرْفِهِ فُتُورُ
وَقَائِلٍ حِينَ شَبَّ وَجْدِي وَاشْتَعَلَ المُضْمَرُ السَّتِيرُ
لَوْ شِئْتُ أَسْلَاكَ عَنْ هَوَاهُ قَلْبٌ لِأَشْجَانِهِ ذَكُورُ
فَقُلْتُ لا تَعْجَلَنْ بِلَوْمِي فَإِنَّمَا يُنْبِئُ الخَبِيرُ
عَذَّبَنِى والهَوَىٰ صَغِيرُ فَكَيْفَ بِى والهَوَىٰ كَبِيرُ
مَنْ رَاقَبَ النَّاسَ مَاتَ غَمًّا وَفَازَ بِاللَّذَّةِ الجَسُورُ

وسلم هذا اسمه: سلم بن عمرو البصرى أحد الشعراء المحسنين، وهو غلام بشار بن برد، مدح المهدى والرشيد والبرامكة، وكان عاكفًا على المعاصى، ثم تزهد وتنسك مدةً مديدة، ثم مرق وعاد إلى اللهو وباع مصحفه، واشترى بثمنه ديوان شعر، فلقب لذلك « الخاسر ».

ومن غريب ما اتفق لهارون الرشيد: أن أخاه موسى الهادى لما ولي الخلافة قبله، سأل عن خاتم عظيم القدر كان لأبيه المهدى، فبلغه أن الرشيد أخذه، فطلبه منه فامتنع فألحَّ عليه فيه، فشقَّ على الرشيد أخذه، فطلبه ومر على جسر بغداد فرماه فى دجلة، فلما مات الهادى وولى الرشيد الخلافة، أتى إلى ذلك المكان بعينه ومعه خاتم رصاص، فرماه فيه، وأمر الغطاسين أن يلتمسوه ففعلوا، فاستخرجوا الخاتم الأول، فعد ذلك من سعادة الرشيد.

وفى سنة سبع وثمانين: كانت نكبة الرشيد بالبرامكة.

اعلم أن البرامكة يقال: أصلهم من جيل من العجم كانوا مجوسًا، وأولهم فى التقرب إلى الخلفاء خالد بن برمك، وكان من كبار الشيعة، وله قدم راسخ فى الدولة، وكان يلى الولايات العظام: ولاه المنصور على الموصل وأذربيجان، وولى ابنه يحيى على أرمينية، ووكله المهدى بكفالة الرشيد، فأحسن تربيته، ودفع عنه أخاه الهادى، لما أراده على الخلع وتولية ابنه العهد، وحبسه الهادى لذلك، فلما ولى الرشيد، استوزر يحيى، وفوض له أمور ملكه، وكان أولاً يصدر عن رأى الخيزران أم الرشيد، ثم استبدَّ بالرأى فى الدولة، وكان بيتهم معمورًا بالرجال من العمومة والقرابة، وكان بنوه جعفر والفضل ومحمد قد ساهموا أباهم فى حمل الدولة، واستولَوْا على حظٍّ من تقريب السلطان واستخلاصه، وكان الفضل أخا للرشيد من الرضاع؛ أرضعت أمه الرشيد وأرضعته الخيزران، وكان يخاطب يحيى يا أبت، واستوزر الفضل وجعفرًا، وولى جعفر على مصر وخراسان، وبعث الفضل لاستنزال يحيى بن عبد الله العلوى من الديلم، ودفع ولده المأمون لما ولاه العهد إلى كفالة جعفر بن يحيى؛ فحسنت آثارهم فى ذلك كله، ثم عظم سلطانهم واستيلاؤهم على الدولة، وكثرت السعاية فيهم، وعظم حقد الرشيد على جعفر منهم. فلما كثرت فيهم السعاية بسبب استيلائهم على الخليفة فمن دونه، تحيل أعداؤهم من البطانة فيما دسوه للمغنين من الشعر احتيالاً على إسماعه للخليفة، ولتحريك حفائظه عليهم، ومن ذلك بيتان هما: [من الرمل]

لَيْتَ هِنْدًا أنجزتْنَا ما تَعِدْ ... وشَفَتْ أَنْفُسَنَا مِمَّا نَجِدْ

واستَبَدَّتْ مَرَّةً واحدة ... إنما العَاجِزُ مَنْ لا يَسْتَبِدّ

فلما سمعها الرشيد قال: إى والله عاجز، فبعثوا بذلك كامن غيرته، وسلَّطوا عليه انتقامه؛ نعوذ بالله من غلبة الرجال وسوء الحال؛ ذكر هذا ابن عبد ربه القرطبى فى «العقد»، فتنكر لهم الرشيد.

ودخل عليه يومًا يحيى بن خالد بغير إذن، فأنكر ذلك عليه، وخاطب طبيبه جبريل بن بختيشوع منصرفًا به عن مواجهته، وكان حاضرًا، فقال يحيى: أما هى عادتى يا أمير المؤمنين، وإذ قد نكرت منى، فسأكون فى الطبقة التى تجعلنى فيها، فاستحيى هارون وقال: ما أردت ما تكره.

وكان الغلمان يقومون بباب الرشيد، يعنى: إذا دخل يحيى، فتقدم لهم مسرور الخادم بالنهى عن ذلك؛ فصاروا يعرضون عنه إذا أقبل، وأقاموا على ذلك زمانًا، فلما حج الرشيد سنة سبع وثمانين، ورجع من حجه، ونزل الأنبار، أرسل مسرورًا الخادم فى جماعة من الجند ليلاً، فأحضروا جعفرًا بباب الفسطاط، وأعلم الرشيد، فقال: ائتنى برأسه، فطفق جعفر يتذلل ويسأل مسرورًا المراجعة فى أمره؛ فدخل إلى الرشيد يكلِّمه فيه؛ فحذفه الرشيد بِعَصًا كانت فى يده وتهدده، فخرج وأتاه برأسه، وحبس يحيى وابنه الفضل من ليلته وبعث من احتاط على منازل يحيى وولده وجمع موجودهم، وكتب فى ليلته إلى سائر النواحى بقبض أموالهم ورقيقهم، وبعث من الغد بشلو جعفر، وأمر بأن يقسم بقطعتين، وينصبا على الجسر، وأعفى محمد بن خالد من النكبة، ولم يضيق على يحيى وابنه الفضل.

قال فى المروج[١]: واختلف فى سبب إيقاعه بهم، فأما الظاهر: فاحتجار[٢] الأموال؛ فإنهم كانوا ليس للرشيد معهم أمرٌ، حتى كان يحتاج لليسير من المال؛ فلا يقدر عليه.

وقيل: إن سبب ذلك أن الرشيد لما وجه يقطين بن موسى إلى إفريقية لإصلاحها، وكان يقطين من كبار الشيعة، وممن كان مع إبراهيم الإمام فقال: يا أمير المؤمنين، اكشف لى عن جسدك أقبله؛ لأكون قبلت بضعة من رسول الله ﷺ، ثم قال: يا أمير المؤمنين، حدثنى مولاى إبراهيم الإمام أن الخامس من خلفاء بنى العباس تغدر به كُتَّابه، فإن لم يقتلهم قتلوه، فقال له الرشيد: آلله، حدثك الإمام بهذا ؟ قال: نعم، فكان ذلك السبب فى قتلهم؛ لأنه هو الخامس من خلفاء بنى العباس.

وقيل: إن سبب قتل جعفر أنه رفع إلى الرشيد رقعة لم يدر رافعها، وفيها: [من السريع]

قُلْ لأمِينِ اللَّهِ فِى أَرْضِهِ ... ومَنْ إِلَيْهِ الحَلُّ والعَقْدُ
هذا ابْنُ يَحْيَى قد غَدَا مَالِكًا ... مِثْلَكَ ما بَيْنَكُمَا حَدُّ

---

(١) ينظر مروج الذهب للمسعودى ٣/ ٣٧٧ .
(٢) فى المروج: احتياز .

أَمْـرُكَ مَـرْدُودٌ إِلَـىٰ أَمْـرِهِ   وَأَمْـرُهُ لَـيْـسَ لـه رَدُّ
وقَدْ بَنَى الدَّارَ التى ما بَنَىٰ   مِـثَـالَـهَـا الـفُـرْسُ ولا الْـهِـنْـدُ
أَلـدُّرُّ والـيَـاقُـوتُ حَـصْـبَاؤهـا   وتُـرْبُـهَـا الـعَـنْـبَـرُ والـنَّـدُّ
ونَـحْـنُ نـخْـشَـىٰ أنـه وَارِثٌ   مُـلْـكَـكَ إِنْ غَـيَّـبَـكَ الـلَّـحْـدُ
ولَـنْ يُـبَـاهِـى الـعَـبْـدُ أربـابَـهُ   إلاَّ إذا مـا بَـطِـرَ الـعَـبْـدُ

فلما وقف عليها الرشيد أوقع به.

وقيل: سببه أن الرشيد لما استنزل يحيى بن عبد الله العلوى عند جعفر، وكان يخافه على الخلافة، وكان جعفر يرى سرور الرشيد بموت من يموت فى حبسه من هؤلاء الأصناف، فقال له: يا أمير المؤمنين، إن يحيى بن عبد الله قد مات، فَسُرَّ سرورًا، وأخبر أباه يحيى بذلك، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، إن تركناه تلفنا، وإن قتلناه فالنار لنا. ثم خيل له أن كتب إلى على بن موسى بن ماهان والى خراسان، وكان متزوجًا بنت يحيى، فعرفه ما جرى، وفزع إليه فى أن يكون يحيى عنده مكرمًا إلى أن يقضى الله قضاءه، وكان الكتاب بخط يحيى، ولم يكن يحيى يعلم ما بين على بن عيسى وبين ولديه الفضل وجعفر من العداوة، فلما وصل الكتاب إلى على بن عيسى بن ماهان، وصل يحيى بن عبد الله قال: هذا من حيل الفضل وجعفر عليَّ، فأجاب يحيى بأنه يفعل ما أراد، وأنفذ الكتاب إلى الرشيد؛ فأعلمه أن يحيى بن عبد الله عنده، فكتب إليه الرشيد يحسن فعله ويعلمه فساد أمر البرامكة لديه، وأمره ببعث يحيى بن عبد الله إليه من غير أن يعلم أحدًا، فلما وصل يحيى إلى الرشيد، أوقع بالبرامكة بعد مدة من ذلك الوقت.

وقيل: أرادت البرامكة الزندقة وإفساد الملك، فقتلهم.

وقيل: سبب ذلك أن الرشيد كان لا يصبر عن جعفر، ولا عن أخته عباسة، ومتى غاب أحدهما عنه، لا يتم سروره، فقال لجعفر: أزوجكها ليحلَّ لك النظر إليها ولا تمسها، وكانا يحضران مجلسه، وربما فارقهما فيمتلئان من الشراب، وهما شابان، فجامعها جعفر، فحملت منه. وفى كمامة الزهر أن العباسة عشقت جعفرًا، فراودته، فأبى خوفًا على نفسه، ورأت أن النساء إلى الخديعة أقرب، فبعثت إلى أم جعفر عتابة، وكانت عتابة ترسل إلى ابنها فى كل جمعة بِكْرًا، وكان لا يطؤها حتى يأخذ

شيئًا من النبيذ، فقالت العباسة: أرسلينى لجعفر كجارية من اللواتى ترسلينها إليه، فأبت، فقالت لها: إن لم تفعلى، أخبرت الرشيد أنك كلمتنى فى كيت وكيت، وإن اشتملتُ على ولد، زاد فى شرف ابنك، وما عسى أن يفعل أخى بعد اشتمالى على ولد، فطمعت عتابة فى ذلك ووعدت ولدها بجارية من هيئتها كذا وكذا، فطالبها جعفر بها، فمطلته أيامًا، ثم قالت للعباسة: تَهَيَّئي فى هذه الليلة ففعلت، وأدخلتها على جعفر، وكان لا يعرفها لأنه كان يجلس معها هو والرشيد، فلا يجسر أن يرفع طرفه إليها خوفًا، فلما قضى منها وطره، قالت له: كيف رأيت خديعة بنات الملوك، فقال: وبنت أى ملك أنت ؟ قالت: أنا مولاتك العباسة، فطار السكر من رأسه، وقال لأمه: بعتينى والله رخيصًا. فكان هذا هو السبب.

ويقال: إن علية بنت المهدى قالت للرشيد: ما رأيت لك يا سيدى يوم سرور منذ قتلت جعفرًا، فلأى شيء قتلته ؟ فقال لها: يا حيائى، لو علمت أن قميصى يعلم السبب، لأحرقته(١).

وفى ربيع الأبرار: لم أر أبر من الفضل بأبيه يحيى؛ بلغ من بره أنه لما كانا محبوسين، وكان يحيى لا يتوضأ إلا بماء مسخن، فمنع السجان الوقود فى ليلة باردة، فلما أخذ يحيى مضجعه، قام الفضل إلى قمقم، فأدناه إلى المصباح فلم يزل قائمًا وهو فى يده حتى أصبح، فتوضأ به أبوه يحيى، فشعر السجان بذلك، فلما كانت الليلة الثانية، غيب السجان المصباح، فبات الفضل متأبطًا القمقم، يدفئه لأبيه ليله أجمع.

ومات يحيى بالسجن فى الرقة سنة تسع وثمانين ومائة بعد قتل جعفر بثلاث سنين؛ وبقى الفضل بعده فى السجن، ثم مات، وكانت دولتهم منذ استخلف هارون إلى أن قتل جعفر سبع عشرة سنة وسبعة أشهر وخمسة عشر يومًا.

وقد رثتهم الشعراء وأكثروا، ومن ذلك قول على بن معاذ: [من السريع]

يَـأَيُّـهَـا الـمُـغْـتَـرُّ بِـالـدَّهْـرِ وَالدَّهْرُ ذُو صَرْفٍ وَذُو غَدْرِ
إِنْ كُنْتَ ذَا جَهْلٍ بِتَصْرِيفِهِ فَانظُر إِلَى المَصْلُوبِ بِالجسْرِ

---

(١) ينظر وفيات الأعيان (١/ ٣٣٦) نهاية الأرب (٢٢/ ١٤٣)، مرآة الجنان (١/ ٤١١)، الوافى بالوفيات (١١/ ١٦٣)، البدء والتاريخ (٦/ ١٠٥) .

فبينما جَعْفَرُ فى مُلْكِهِ عشيَّةَ الجمعَةِ بالغَمْرِ
إذْ عَثَرَ الدهرُ به عثرَةً يا وَيْلَتِى مِنْ عَثْرَةِ الدَّهْرِ

وقال سلم الخاسر: [من الطويل]

هَوَتْ أنجُمُ الجَدْوَى وشَلَّتْ يد النَّدَىٰ وغَاضَتْ بِحَارُ الجُودِ بَعْدَ البَرَامِكِ
هوتْ أنجُمٌ كانَتْ لآل ابْن بَرْمَكٍ بها يَعْرِف الجارِى قَوِيمَ المَسَالِكِ

وقال منصور النميرى: [من مخلع البسيط]

أُنْدُبْ بَنِى بَرْمَكٍ لِدُنْيَا تَبْكِى عَلَيْهِمْ بكُلِّ نَادِى
كانتْ بهمْ بُرْهَةً عَرُوسًا فأضحَتِ الآنَ فِى حِدَادِ

وقال دعبل الخزاعى: [من الطويل]

ألم تر صَرْفَ الدَّهْرِ فى آلِ بَرْمَكٍ وآلِ نهيكٍ والقُرُونِ الَّتى خَلَوْا
لقد غَرَسُوا غَرْسَ النخيلِ تكرُّمًا فما حصدُوا إلا كما تحصدُ البَقْلُ

وقال أبو عذرة الأعرابى: [من الخفيف]

ما رَعَى الدَّهْرُ آلَ بَرْمَكَ لَمَّا أَنْ رَمَىٰ ملكَهُمْ بأمْرٍ بديعِ
إنَّ دهرًا لم يَرْعَ حقًّا ليحيى غَيْرُ راعٍ حَقًّا لآلِ الرَّبِيعِ

قلت: آل الربيع هو حاجب هارون الرشيد، كأنه يهددهم بهذا القول ويخوفهم.

ولبعضهم: [من المديد]

يَا بَنِى بَرْمَكَ وَاهًا لَكُمْ ولأَيَّامِكُمُ المُقْبِلَهْ
كَانَتِ الدنيا عَرُوسًا بِكُمْ وَهِيَ اليَوْمَ عَجُوزٌ أَرْمَلَهْ

وفى ابن خلكان[1]: عن محمد بن عبد الرحمن الهاشمى، قال: دخلت على والدتى فى يوم عيد النحر[2]، فوجدت عندها امرأة عجوزًا[3] فى ثياب رثة، فقالت لى والدتى: أتعرف من هذه ؟ قلت: لا، قالت: هذه عتابة أم جعفر البرمكى. فأقبلت عليها بوجهى وأكرمتها، وتحادثنا زمانًا، ثم قلت: يا أمه، ما أعجب ما رأيت ؟ قالت: يا بنى، لقد أتى على هذا العيد وعلى رأسى أربعمائة وصيفة، وإنى أعد أن ابنى عاق لى، ولقد أتى على العيد اليوم وما مناى إلا جلد شاتين أفرش

(١) ينظر: وفيات الأعيان (١/ ٣٤١) .
(٢) فى وفيات الأعيان: يوم نحر .
(٣) فى وفيات الأعيان: برزة .

أحدهما وألتحف بالآخر. قال: فدفعت لها خمسمائة دينار[1]، فكادت تموت فرحًا.

وههنا مكاتبة من يحيى بن خالد حال كونه فى السجن إلى الخليفة هارون نثر ونظم، أحببت ختم قصتهم بها، هى:

إلى أمير المؤمنين، وإمام المسلمين، وخلف المهديين، وخليفة رب العالمين. من عَبْدٍ أسلمته ذنوبه، وأوبقته عيوبه، وخذله شقيقه، ورفضه صديقه، وزل به الزمان، وناح عليه الحدثان، فسار إلى الضيق بعد السعة، وعالج البؤس بعد الدعة، وافترش السخط بعد الرضى، واكتحل السهر، وافتقد الهجوع، فساعته شهر، وليلته دهر، قد عاين الموت، وشارف الفوت، جزعًا يا أمير المؤمنين، وحجة الله على فقدك لما أصيب به من بُعدك لا لمصيبتى بالحال والمال؛ فإنَّ ذلك كان بك ولك عارية فى يدى منك، ولا بد أن تستردَّ العوارى، فإن كانت المحنة فى جعفر، فبجرمه أخذته، وبجريرته عاقبته، وما أخاف عليك زلة فى أمره، ولا مجاوزة به فوق ما يستحقه، فاذكر يا أمير المؤمنين خدمتى، وارحم ضعفى وسنى، ووهن قوتى، وهب لى رِضًى عنى، فمن مثلى الزلل ومنك الإقالة، ولست أعتذر ولكنى أقرّ، وقد رجوت أن يظهر منك الرضى من وضوح عُذْرى، وصدق قولى، وظاهر طاعتى ومليح حجتى، ما يكتفى به أمير المؤمنين، ويرى الجلية فيه ويبلغ المراد منه، إن شاء الله تعالى.

ثم كتب تحتها شعرًا يقول: [من مجزوء الكامل]

قُلْ لِلْخَلِيفةِ ذى الصنَا ... ئِعِ والعطايا الفَاشِيَهْ
وابنِ الخلائفِ مِنْ قريْـ ... شٍ والملوكِ الهَادِيَهْ
رأسِ الملوك وخَيْرِ مَنْ ... ساسَ الأمورَ الماضيَهْ
إنَّ البرامكَةَ الذيـ ... ن رُمُوا لَدَيْكَ بداهِيَهْ
عَمَّتْهُمُ لَكَ سخطةٌ ... لم تُبْقِ مِنْهُمْ باقِيَهْ
فَكأنَّهُمْ مما بِهِمْ ... أَعْجَازُ نَخْلٍ خاويَه
صُفْرُ الوجوهِ عَلَيْهِمُ ... خِلَعُ المذَلَّةِ باديَهْ

---

(١) فى وفيات الأعيان: درهم.

مستضعفونَ مُطَرَّدُو ... نَ بكُلِّ أرضٍ قاصِيَهْ
من دون ما يَلْقَوْنَ مِنْ ... عَتْبٍ يشِيبُ النَّاصيَهْ
أضحَوْا وجُلُّ مناهُمُ ... منكَ الرضا والعافِيهْ
بَعْدَ الوزارةِ والإما ... رةِ والأمورِ العاليَهْ
أُنظُرْ إلى الشيخِ الكبيـ ... ـرِ فنَفْسُهُ لك راجيَهْ
أوَ مَا سَمِعْتَ مقالتي ... يا ذا الفروعِ الزاكيَهْ
ما زلْتُ أرجو راحَةً ... فاليومَ حَانَ رجائيَهْ
اَلْيَوْمَ قد سَلَبَ الزما ... نُ كرامتي وبَهائِيَهْ
ألقَى الزمَانُ جِرَانِيَهْ ... مستثبتًّا بفنائيَهْ
ورمَى سواءَ مَقاتِلِي ... فأصاب حِينَ رمانيَهْ
يا مَنْ يَوَدُّ لِيَ الرَّدَيٰ ... يكفيكَ ويَحْكَ ما بِيَهْ
يكفيكَ أنِّي مستبا ... حٌ مَعْشَرِى ونِسَائِيَهْ
يكفيك ما أَبْصَرْتَ مِنْ ... ذلي وذُلِّ مكانيَهْ
إن كان لا يَكْفِيكَ إلْـ ... ـلاَ أنْ أَذُوقَ حِمَامِيَهْ
فلقدْ رَأَيْتُ المَوْتَ مِنْ ... قبل المماتِ عَلاَنِيَهْ
وفُجِعْتُ أَعْظَمَ فجْعَةٍ ... وفَنِيْتُ قَبْلَ فَنَائِيَهْ
أُنظُرْ بعينِكَ هَلْ تَرَىٰ ... إلاَّ قُصُورًا خاليَهْ
وذخائرًا موروثَةً ... قُسِّمْنَ قَبْلَ مَمَاتِيَهْ
ومصارعًا وفجائعًا ... ومصائبًا متواليهْ
أَخَلِيفَةَ اللَّهِ الرِّضَا ... لا تُشْمِتَنْ أعدائيَهْ
واذكُرْ مُقَاسَاتِى الأمُوْ ... رَ وخِدْمَتِى وعَنَائِيهْ
إرْحَمْ جُعِلْتُ لك الفدا ... كِبَرِى وشِدَّةَ حَالِيَهْ
وارحَمْ أخاكَ الفَضْلَ والْـ ... ـبَاقِينَ مِنْ أولادِيَهْ
أخليفةَ الرحمنِ إنْـ ... ـنَكَ لو رَأَيْتَ بَنَاتِيَهْ
وبُكَاءَ فاطمةَ الكبـ ... ـيرةِ والمَدَامِعَ جاريهْ
ومقالَهَا بتوجُّعٍ ... يا شِقْوَتِى وبَلاَئِيَهْ

ما لى وقد غَضِبَ الإما ... مُ عَلىَ جميع رِجَالِيَهْ
يا نظرةَ المَلِكِ الرِّضَا ... عودى إلَيْنَا ثَانِيَهْ

فلما رأى الرشيد هذه الأبيات، وقَّع تحتها قوله: [من مجزوء الكامل]

أَجْرَى القَضَاءُ عَلَيْكُمْ ... ما جِئْتُمُوهُ عَلاَنِيَهْ
مِنْ تَرْكِ نُصْحِ إمامِكُمْ ... عند الأُمُورِ البَادِيَهْ
يا آلَ بَرْمَكَ إنَّمَا ... كُنْتُمْ ملوكًا عادِيَهْ
فكَفَرْتُمُ وعَصَيْتُمُ ... وجحدتُّمُ نَعْمَائِيَهْ
هَذِى عُقُوبَةُ مَنْ عَصَىٰ ... معبودَهُ وعَصَانِيَهْ

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً... ﴾ الآية [النحل: ١١٢].

سأل الرشيد موسى الكاظم بن جعفر، فقال له: لم زعمتم أنكم أقرب إلى رسول الله ﷺ منا ؟ فقال: يا أمير المؤمنين، لو أن رسول الله ﷺ أنشر، فَخَطَبَ إليك هل كنت تجيبه ؟ فقال: سبحان الله، وكنت أفخر بذلك على العرب والعجم، فقال موسى: لكنه لا يخطب إليّ ولا أزوِّجه؛ لأنه ولَدَنَا ولم يَلِدْكُمْ. ودخل عليه يومًا، فعثر بهدب البساط، فوقع، فضحك الرشيد، فالتفت إليه موسى فقال: يا أمير المؤمنين، إنه ضعف صوم، لا ضعف سكر.

وكان الرشيد قد حمل موسى معه سنة أن حَجَّ، حمله معه من المدينة إلى بغداد، وحبسه غير مضيق عليه إلى أن توفى.

قال الذهبى: بلغنا أنه بعث إلى الرشيد رسالة يقول: إنه لن ينقضى عنى يوم من البلاء إلا انقضى عنك معه يوم من الرخاء، ثم نقضى جميعًا إلى يوم ليس له انقضاء، يخسر فيه المبطلون[1].

قال عبد الرحمن بن صالح الأزدى: لما رأى الرشيد قبره - عليه الصلاة والسلام - فقال: السلام عليك يا رسول الله، يا ابن عم - يفتخر بذلك - فتقدَّم موسى بن جعفر فقال: السلام عليك يا أبت، فتغيَّر وجه الرشيد، وقال: هذا الفخر حقًّا، قال: ولعل الرشيد ما حمله إلى بغداد وحبسه إلا لقوله: السلام عليك يا أبتِ؛

(١) ينظر: تاريخ الإسلام للذهبى حوادث سنة (٢٠٠هـ)، تاريخ بغداد ١٣/ ٣٢، صفة الصفوة ٢/ ١٨٧ .

فإن الخلفاء لا يحتملون مثل هذا(١).

حكى الإمام محمد بن ظفر قال: كان الرشيد مع ظلمه، وعظيم مُلْكه، وجبروته يعتريه خَوْفُ الله، فمن ذلك أن خارجيًا خرج عليه، فقتل أبطاله، وانتهب أمواله مرارًا، ثم إنه جهز إليه جيشًا كثيفًا، فقاتلوه فغلبوه بعد جهد، وأتوا به الرشيد، فجلس مجلسًا عامًا وأمر بإدخاله عليه، فلما مثل بين يديه قال: يا هذا، ما تريد أن أصنَعَ بك ؟ قال: ما تريدُ أن يَصْنَعَ الله بك إذا وقفْتَ بين يديه، فعفا عنه وأمر بإطلاقه.

فلما خرج، قال بعض جلسائه: يا أمير المؤمنين، رجلٌ قَتَلَ أبطالك، وانتهب أموالك، تطلقه بكلمة واحدة ؟ هذا مما يُجَرِّئُ عليك أهلَ الشرِّ، فقال الرشيد: ردوه، فعلم الرجل أنه قد تكلَّم فيه، فقال: يا أمير المؤمنين، لا تطعهم، فلو أطاع الله الناس فيك، ما ولاك طرفة عين، قال: صدقت، ثم أمر له بصلة.

وفي كتاب روض الأخبار: أن الرشيد خرج إلى الصيد، فانفرد عن عسكره، والفضل بن الربيع خلفه، فإذا شيخ راكب على حمار، فنظر إليه، فإذا هو رطب العين، فغمز الفضل عليه، فقال له الفضل: أين تريد يا شيخ ؟ قال: حائطًا لي، فقال: هل أدلك على شيء تداوى عينيك، فتذهب هذه الرطوبة ؟ فقال الشيخ: ما أحوجني إلى ذلك، فقال له الفضل: خذ عيدان الهواء وغبار الماء وورق الكمأة، فصيره في قشر جوزة، واكتحل به؛ فإنه يذهب رطوبة عينيك. فاتكأ الشيخ على حلس حماره، وضرط ضرطة طويلة، ثم قال: هذه أجرة وصفك، فإن نفعنا الكحل زدناك، فضحك الرشيد حتى كاد أن يسقط [من] على ظهر فرسه.

قال النضر بن شميل إمام اللغة: حدثني الفراء، عن الكسائي، قال: دعاني الرشيد وليس عنده إلا حاشيته وابناه المأمون والأمين، فقال: يا علي، مازلت ساهرًا مفكرًا في معاني أبيات قد خفيت علي. قلت: إن رأى أمير المؤمنين أن ينشدنيها، فأنشد: [من الرجز]

قد قُلْتُ قولاً للغُرَابِ إذْ حَجَلْ
عَلَيْكَ بالقُودِ المسانيفِ الأُوَلْ

---

(١) ينظر تاريخ الإسلام للذهبي حوادث سنة (٢٠٠هـ) تاريخ بغداد ١٣/ ٣١، الكامل لابن الأثير ٦/ ١٦٤، الأئمة الإثنا عشر ٩٠، ٩١ .

تَغَدَّ ما شِئْتَ عَلَىٰ غَيْرِ عَجَلْ

قلت: نعم يا أمير المؤمنين، إن العير إذا فصلَتْ من خيبر، وعليها التمر، يقع الغراب على آخر العير، فطرده السائق يقول: يا هذا، تقدم إلى أوائل العير، فكل على غير عجل. والقود: جمع أقود، وهو الطويل العنق، والأنثى قوداء، والمسانيف: المتقدمة.

ثم أنشدنى: [من الطويل]

لَعَمْرِى لَئِنْ عَشَّرْتُ مِنْ خشْيَةِ الردَىٰ نُهَاقَ الحميرِ إِنَّني لَجَهُولُ

فقلت: نعم يا أمير المؤمنين، كان الرجل من العرب إذا وصل إلى خيبر، أكبَّ على أربعة، وعشَّر تعشير الحمار، وهو أن ينهق عشر نهقات متتابعات يفعل ذلك؛ فيدفع عن نفسه حمى خيبر.

ثم أنشدنى قول الآخر: [من البسيط]

أجاعلٌ أَنْتَ بَيْقُورًا مُضَرَّمَةً ذريعَةً لَكَ بين اللَّهِ والمَطَرِ

قلت: نعم يا أمير المؤمنين، كانت العرب إذا أبطأ المطر، شدت العشر والسلع - وهما ضربان من النبت - فى أذناب البقر، وألهبوا فيها النار، وشردوا بالبقر؛ تفاؤلاً بالبرق والمطر.

ثم أنشدنى: [من الطويل]

لعمركَ ما لامَ الفَتَىٰ مِثْل نَفْسِهِ إذا كانَتِ الأحياءُ تَعْرَىٰ ثيابُهَا
وآذَنَ بالتصْفِيقِ مَنْ سَاءَ ظَنُّهُ فلم يَدْرِ مِنْ أيِّ اليدَيْنِ جوابُهَا

فقلت: نعم يا أمير المؤمنين، كان الرجل منهم إذا ضَلَّ فى المفازة، قلب ثيابه، وصاح كأنه يومئ إلى إنسان، ويشتد شدة ويصفق بيديه، فيهتدى الطريق.

ثم أنشدنى: [من مجزوء الكامل]

قَوْدَاء تَمْلِكُ رَحْلَهَا مِثْلَ اليَتِيمِ مِنَ الأَرَانِبْ

فقلت: نعم، يقول: هذه ناقة مثل اليتيم من الآكام، واليتيم الواحد من كل شيء، والأرانب: الآكام.

ثم أنشدنى لآخر: [من الطويل]

إِلى اللَّهِ أشكو هَجْمَةً هجريَّةً تعاورها أَمر السِّنِين الغَوَابِرِ

فعادَتْ روايا تَحْمِلُ الطِّينَ بَعْدَ ما تَكُونُ قِرًى للمُعْتَفِينَ المَفَاقِرِ[١]

قلت: نعم، هذا رجل فى بستانه نخيل أتى عليها الدهر، فجفت، فقطعها وصيرها أجذاعًا، وسقف بها البيوت، فقال: هذه الأجذاع كانت تحمل الرطب فنأكل ونطعم الأضياف، فجفت، فقطعتها وسقفت بها، فهى الآن تحمل الطين والتراب وغير ذلك.

ثم أنشدنى: [من الطويل]

وَسِرْبِ مِلَاحٍ قد رأيتُ وجوهَهُمْ إِنَـاثٌ دَوَانِـيـهِ، ذُكُـورٌ أواخِـرُهْ

قلت: نعم، يعنى: الأضراس.

ثم أنشدنى قول الآخر: [من الطويل]

فَإِنِّى إذن كَالثَّوْرِ يُضْرَبُ جَنْبُهُ إِذَا لَمْ يَعَفْ يَوْمًا وَعَافَتْ صَوَاحِبُهْ

قلت: نعم، كانت العرب إذا وردت البقر الماء، فشربت الثيران، وأبت البقر، ضربت الثيران فتشرب البقر، وهو كما قال الشاعر الآخر: [من البسيط]

إِنِّى وَقَتْلِى سُلَيْكًا ثُمَّ أَعْقِلَهُ كَالثَّوْرِ يُضْرَبُ لَمَّا عَافَتِ البَقَرُ

ثم أنشدنى قول الآخر: [من الطويل]

وَمُنْحَدِرٍ مِنْ رَأْسِ بَرْقَاءَ حَطَّهُ مَخَافَةَ بَينٍ أَوْ حَبِيبٍ مُزَايِلِ

قلت: نعم، يعنى: الدموع، والبرقاء: العين؛ لأن فيها بياضًا وسوادًا. حطه: أساله.

قال: فوثب الرشيد، فجذبنى إلى صدره، وقال: لله در أهل الأدب، ثم دعا بجارية: فقال: احملى إلى منزل الكسائى خمس بدر على أعناق خمسة أعبد يلزمون خدمته.

ثم قال لى: استنشدهما - يعنى ابنيه - فأنشدنى محمد الأمين فقال: [من الطويل]

وَإِنِّى لَعَفُّ الفَقْرِ مُشْتَرَكُ الغِنَىٰ وَتَارِكُ شَكْلٍ لاَ يُوَافِقُهُ شَكْلِي

وَشَكْلِيَ شَكْلٌ لا يَقُومُ لِمِثْلِهِ مِنَ الناسِ إِلاَّ كُلُّ ذي ثِقَةٍ مِثْلِي

ولى نيقةٌ فى المَجْدِ والبَذْلِ لم يَكُنْ تَأَنَّقَهَا فيما مَضَىٰ أَحَدٌ قَبْلِي

وأجعلُ مالى دُونَ عِرْضِيَ جُنَّةً لِنَفْسِى وأَسْتَغْنِى بِمَا كَانَ مِنْ فَضْلِ

وأنشدنى عبد الله المأمون: [من الكامل]

بَكَرَتْ تلومُكَ مَطْلَعَ الفَجْرِ ولـقَـدْ تـلـومُ بَـغـيـر مـا تَـدْرِي

(١) المعتفي: كل طالب رزق أو فضل والمفاقر: جمع فقر على غير قياس. ينظر: ترتيب القاموس (عفو)، واللسان (فقر).

ما إنْ مَلَكْت مُصِيبَةً نَزَلَتْ إذْ لا تحكُمُ طائعًا أمْرِى
مَلِكُ المُلوكِ عَلَىَّ مُقْتَدِرٌ يُعْطى إذا ما شاء مِنْ يُسْرِ
فَلَرُبَّ مغتبطٍ تمدُّ له ومفَجَّعٍ بنوائِبِ الدهْرِ
ومكاشِحٍ لى قد مَدَدتُ له نَحْرًا بلا ضرَعٍ ولا غمْرِ
حتى يَقُولَ لنَفْسِهِ لَهَفٌ فِى أىِّ مذهَبِ غايةٍ أجْرِى
ويَرَىٰ قَنَاتِى حِينَ يَغْمِزُهَا غَمْزَ الثِّقَافِ بطيئَةَ الكَسْرِ

فقال الرشيد: يا على، كيف تراهما ؟ فقلت: [من الطويل]

أَرَىٰ قَمَرَىْ أُفْقٍ وَفَرْعَىْ بشامَةٍ يَزِينُهُمَا عِرقٌ كريمٌ ومَحْتِدُ
يَسُدَّانِ آفاقَ السماءِ بشيمةٍ يؤَيِّدُهَا حَزْمٌ وعَضْبٌ مُهَنَّدُ
سليلَىْ أمِيرِ المؤمنينَ وَحَائِزَىْ مواريثِ ما أبْقَىٰ النَّبِيُّ محمَّدُ

ثم قلت: يا أمير المؤمنين، فرع زكا أصله، وطاب مغرسه، وتمكّنت عروقه، وعذبت مشاربه. غذاهما ملك أغر، نافذ الأمر، واسع العلم، عظيم الحلم. فأسأل الله أن يزيد بهما الإسلام تأييدًا وعزًّا، ويمتع أمير المؤمنين بهما ويمتعهما بدوام سلطانه وقدرته، ما دجا ليل وأضاء نهار. ثم انقضى المجلس وخرجت جذلاً مسرورًا.

وفى كتاب الأذكياء: ذكر أبوجعفر أحمد بن جعفر البلخى؛ أن الرشيد جمع بين الكسائى وأبى محمد اليزيدى، يتناظران فى مجلسه، فسألهما الكرمانى عن قول الشاعر: [من مجزوء الرمل]

ما رَأَيْنَا خَرِبًا يَنْـ قر عنه البَيْضَ صَقْرُ
لاَ يَكُونُ العَيْرُ مُهْرًا لا يكون؛ المُهْرُ مُهْرُ

فقال الكسائى: يجب أن يكون المهر منصوبًا على أنه خبر كان، ففى البيت على هذا إقواء. فقال اليزيدى: الشعر صوابٌ؛ لأن الكلام قد تم عند قوله: « لا يكون » الثانية، ثم استأنف، فقال: المهر مهر، ثم ضرب بقلنسوته على الأرض، وقال: أنا أبو محمد. فقال له يحيى: أتكتنى بحضرة أمير المؤمنين ؟ فقال الرشيد: والله، إنَّ خَطَأَ الكسائي مع حسن أدبه لأحب إلى من صوابك مع سوء أدبك. فقال: يا أمير المؤمنين، إن حلاوة الظفر أذهبت عنى التحفظ فأمر بإخراجه.

واجتمع الكسائى، ومحمد بن الحسن الشيبانى صاحب الإمام أبى حنيفة - رضى الله تعالى عنهما - فقال الكسائى: من تبحر فى علم النحو، اهتدى إلى سائر العلوم، فقال له محمد: ما تقول فيمن سها فى سجود السهو، هل يسجد مرة أخرى ؟ قال: لا، قال: لم ذا ؟ قال: لأن النحاة يقولون: المصغَّر لا يصغر، قال محمد: فما تقول فى تعليق العتق بالملك ؟ قال: لا يصح، قال: لم ؟ قال: لأن السيل لا يسبق المطر.

وتعلم الكسائى النحو على كبر سنه، وسببه أنه مشى يومًا حتى أعيا، فجلس وقال: عييت، فقيل له: لحنت، قال كيف ؟ قيل: إن كنت أردت التعب، فقل أعييت، وإن كنت أردت انقطاع الحيلة، فقل: عييت، بغير همز. فأنف من قولهم: « لحنت »، واشتغل بالنحو حتى مهر وصار إمام وقته. وكان يؤدب الأمين والمأمون، وصارت له اليد العظمى والوجاهة التامة عند الرشيد وولديه.

وتوفي محمد بن الحسن والكسائى فى يوم واحد سنة سبع وثمانين ومائة، ودفنا فى مكان واحد، فقال الرشيد: ههنا دفن العلم والأدب.

وقصة الكسائى مع سيبويه فى مسألة: « فإذا هو هى، أو إياها » شهيرة لا نطول بذكرها.

وقال المبرد: حدثنى محمد بن عباد الحنفى قال: أخبرنى العباس بن الأحنف ببغداد قال: لم أدر ذات يوم إلا والمسودة قد أحاطت بى، فمضى بى إلى دار الخلافة هارون الرشيد، فصرت إلى خالد بن يحيى فقال: ويحك يا عباس، إنما اخترتك من ظرفاء الشعراء لقرب مأخذك وحسن تأتيك، وإن الذى ندبتك له من شأنك، وقد عرفت خطرات الخلفاء، وإنى أخبرك أن ماردة هى الغالبة على أمير المؤمنين، وقد جرى بينهما عتب، وهى بِعِزَّة دالَّة المعشوق تأبى أن تعتذر، وهو بِعِزَّةِ الخلافة وشرف الملك يأبى، وقد رمت الأمر من قبلها فأعيانى، وهو أحرى أن تستقيده الصبابة، فقل شعرًا تسهل به هذا السبيل.

فلما قضى كلامه دعاه أمير المؤمنين، فصار إليه وأعطيت ورقًا ودواة، فاعترانى الدمع ونفر عنى كل شيء، ثم انفتح لى شيء من الأشياء، والرسل من الخليفة ما تغبنى، فجاءتنى أربعة أبيات رضيتها، وقعت صحيحة المعنى سهلة الألفاظ

ملائمة لما طلب منى، فقلت لأحد الرسل: أبلغ الوزير أنى قد قلت أربعة أبيات، فإن كان، فَفِيهَا مقنع. وفى مدة ذهاب الرسول ومجيئه حضرنى بيتان من غير ذلك الروى، فكتبت الأربعة فى صدر الرقعة، وعقبتها بالبيتين، وذلك قولى: [من الكامل]

أَلْعَاشِقَانِ كِلاَهُمَا متغضِّبُ ... وكلاهما متوحِّدٌ متجنِّبُ
صَدَّتْ مُغَاضِبةً وصَدَّ مُغَاضِبًا ... وكلاهُما ممَّا يُعَالِجُ مُتْعَبُ
رَاجِعْ أَحِبَّتَكَ الَّذينَ هَجَرْتَهُمْ ... إنَّ المتيَّمَ قَلَّمَا يتجنَّبُ
إن التجنُّبَ إنْ تطاوَلَ منكُمَا ... دَبَّ السُّلُوُّ له فَعَزَّ المَطْلَبُ

ثم البيتان وهما: [من السريع]

لاَ بُدَّ للعاشِقِ من وَقْفَةٍ ... تَكُونُ بين الوَصْلِ والصَّرْمِ
حَتَّىٰ إذا الهَمُّ تمادَىٰ به ... رَاجَعَ مَنْ يَهْوَىٰ عَلَىٰ رَغْمِ

قال: ثم وجهت بالرقعة فدفعها إلى الرشيد، فقال: والله، ما رأيت شعرًا أشبه بما نحن فيه من هذا، والله لكأنى قصدت به، فقال يحيى: فأنت والله المقصود، يا أمير المؤمنين، هذا يقوله العباس بن الأحنف فى هذه القصة. فلما قرأ البيتين، وأفضى إلى قوله: « راجع من يهوى على رغم » استغرق ضحكًا ثم قال: إنى والله أراجعها على رَغْم، يا غلام، نعلى. فنهض وأذهله الجذل والسرور عن أن يأمر لى بشيء، فدعانى يحيى، وقال: إن شعرك قد وقع بغاية الموافقة. ثم جاء إنسان، فسارَّهُ بشيء، فنهض ونهضت لنهوضه، فقال: يا عباس، أمسيت أنبل الناس، أتدرى ما سارَّنى به هذا الرسول ؟ قلت: لا، قال: ذكر أن ماردة تلقت أمير المؤمنين لما علمت بمجيئه، فقالت له: كيف كان هذا يا أمير المؤمنين ؟ فأعطاها الشعر، وقال: هذا الذى جاء بى، قالت: من يقوله ؟ فقال: العباس بن الأحنف، قالت: فبكم كوفئ ؟ فقال الخليفة: ما فعلت شيئًا، قالت: إذن والله لا أجلس حتى يكافأ. وأمير المؤمنين قائم لقيامها، وأنا قائم لقيامهما، وهما يتناظران فى صِلَتِكَ، هذا كله لك. قلت: ما لى من هذا إلا القبلة، فضحك، وقال: هذا أحسن من شعرك، فأمر لى الخليفة بمالٍ وأمرتْ هى لى بمال دونه، وأمر لى الوزير بمال دون ما أمرت به، وحملت المال على بغلة. انتهى.

وروى عن المبرد قال: حدثنى من أثق به أن مسلم بن الوليد الأنصارى المسمَّىٰ

بصريعِ الغوانى كان يمدحُ من دون الخليفة، وكان يقول: إن نفسى تذوب حسرات من أنْ يحويِ جوائز الخلفاء من لا يقاربنى فى الأدب، ولا يوازينى ولا يصلح أن يكون شعره خادمًا لشعرى. فخرج ذات يوم، فلقى يزيد بن منصور الحميرى بباب الرشيد، فسلم عليه، وسأله أن يقربه من الخليفة، فوعده ذلك، فدخل الحميرى، فأصاب أمير المؤمنين لقس النفس قد اشتمل عليه الفكر فى سرعة تقضى الأمور، وأنه لا يتشبث منها بشيء إلا كان كالظل الحائل، والسراب الخادع. فقال له جعفر: يا أمير المؤمنين، إنما هذا الذى أنت فيه عارض لك، وكانت الحكماء تقول: الهم مفسدة للنفس، مضلة للفهم، مشدهة للقلب، وقالت أيضًا: بالسرور يطيب العيش، ومع الهم يتمنى الموت.

قال: وكأن الرشيد نشط واندفع عنه ما اعتراه من ذلك الفكر، فتقدم الحميرى وقال: يا أمير المؤمنين، خلفت بالباب آنفًا رجلًا من أخوالك الأنصار، متقدمًا فى شعره وأدبه وظرفه، أنشدنى قصيدة يذكر فيها أنسه ولهوه ومحادثة إخوانه، ويذكر مجالس اتفقت بأبلغ قول وأحسن وصف، يبعث والله على الصبابة والفرح ويباعد من الهم والترح. وكأنه وفق بيمن أمير المؤمنين وسعادة جده لأن يكون زائدًا فى سرور أمير المؤمنين. قال: فاستفزه السرور والقلق إلى دخوله عليه واستماع قصيدته، فجعل الخليفة يتابع الرسل إليه، فدخل مسلم، فسلَّم بالخلافة، ثم أمهل حتى سكن، ثم أذن له فى الجلوس والانبساط، واستدعى منه الشعر فانبرى ينشد:

[من الطويل]

أَدِيرَا عَلَيَّ الكَأْسَ لاَ تَشْرَبَا قبلي ... وَلاَ تَطْلُبَا مِنْ عِنْدِ قَاتِلَتِى ذَحْلِي

فما جَزَعِى أَنِّى أموتُ صَبَابَةً ... ولكنْ على مَنْ لا يَحِلُّ لها قَتْلِي

أحبُّ التى صَدَّتْ وقالَتْ لِتِرْبِهَا ... دَعِيهِ الثريا مِنْهُ أَقْرَبُ مِنْ وَصْلِي

بَلَىٰ ربما وَكَّلْتُ عَيْنى بنظرةٍ ... إليها تزيدُ القَلْبَ خَبْلًا على خَبْلِ

كَتَمْتُ تباريحَ الصبَابَةِ عَاذِلِي ... فلم يَدْرِ ما بى واستَرَحْتُ مِنَ العَذْلِ

ومانحَةٍ شرَّابَها المَلْك قَهْوَةً ... يهوديةَ الأَصْهَارِ مُسْلِمَةَ البَعْلِ

رَبِيبَةَ شَمْسٍ لم تُهَجَّنْ عُروقُهَا ... بِنَارٍ ولم يُجْمَعْ لها سَعَفُ النَّخْلِ

بعثنا لها مِنا خَطِيبًا لِبُضْعِهَا ... فجاء بها يَمْشِى العِرَضْنَةَ فى مَهَلِ

قَدِ استودعَتْ دَنًّا لها فَهْوَ قائِمٌ بها شفقًا بين الكروم على رِجْلِ
فوافَىٰ بها عَذْرَاءَ خلّ أخو نَدًى جَزِيلُ العطايا غَيْرُ نِكْسٍ ولا وَغْلِ
مُعَتَّقَةً لا تَشْتَكِى دَمَ عاصِرٍ حروريَّةً فِى جَوْفِهَا دَمُهَا يَغْلِي
أغارَتْ على كَفِّ المُدِيرِ بلونِهَا فصَارَتْ له منها أَنَامِلُ كالذّبْلِ
أماتَتْ نفوسًا من حياةٍ قريبةٍ وماتَتْ فلم تُطْلَبْ بوتر ولا تَبْلِ
شَقَقْنَا لها فى الدَّنِّ عينًا فأسْبَلَتْ كما أخلصَتْ عَين الخَرِيدَةِ بِالكُحْلِ
كأنَّ فنيقًا بازلاً شقَّ نَحرهُ إذا أسفرَتْ منها الشعاعُ على البُزْلِ
ودارَتْ علينا الكَأسُ مِنْ كَفِّ ظَبْيَةٍ مبتَّلةٍ حَوْرَاء كَالرَّشأ الطِّفْلِ
كأنَّ ظباءً عُكَّفًا فى رياضها أباريقُها أو حِينَ قَعْقَعَةِ النَّبْلِ
وحنَّ لنا عودٌ فَبَاحَ بِسِرِّنَا كأنَّ عليه سَاقَ جاريةٍ عُطْلِ
تضاحكُهُ طَوْرًا وتبكيه تارةً خَدَلَّجةٌ هَيْفَاءُ ذَاتُ شَوًى عَبْلِ
إذا ما عَلَتْ منا ذُؤَابَةَ مَاجِد تَمَشَّتْ به مَشْيَ المُقَيَّدِ فى الوَحْلِ
فلا نحن مِتْنَا مَوْتَةَ الدَّهْرِ بغتةً ولا هى عَادَتْ بعد عَلٍّ ولا نَهْلِ
سأنقادُ لِلَّذَّاتِ مُتَّبِعَ الهَوَىٰ لِأُمْضِيَ هَمًّا أو أَصَبْت فَتًى مِثلِي
هَلِ العيشُ إلاَّ أَنْ تَرُوحَ مَعَ الصِّبَا وَتَغْدُوصَرِيعَ الكَأْسِ والأَعْيِنِ النُّجْلِ؟!

قال: فجعل الرشيدُ يتطاوَلُ لها ويستحسنُ جميع ما حكاه، وأمر له بمال جزيل، وأن يتخذ له مجلس يتحول إليه، وجعل الرشيد وأصحابه يتناشدون قصيدته هذه، وسمَّاه يومئذ بآخر بيت فى القصيدة: « صَرِيعَ الغوانى »؛ فالرشيد هو الذى سماه بهذا الاسم، فلزمه. انتهى. كذا فى المحاسن لإبراهيم البيهقى.

وأدخل الفضل بن يحيى أبا نواس إلى عند الرشيد، فقال له الرشيد: أنت القائل: [من مجزوء الرمل]

عتقَتْ فِى الدَّنِّ حَتَّىٰ هِىَ فِى رِقَّةِ دِينِى ..

أحسبك زنديقًا. قال: يا أمير المؤمنين، قد قلت ما يشهد لى بخلاف ذلك، قال: وما هو؟ فقال: [من السريع]

أَيَّةُ نَارٍ قَدَحَ القَادِحُ وَأَيُّ جِدٍّ بَلَغَ المازحُ؟!
لِلَّهِ دَرُّ الشَّيْبِ مِنْ واعظٍ ونَاصِحٍ لو قُبِلَ الناصِحُ

فاغْدُ فَمَا فى الحَقِّ أُغْلُوطَةٌ وَرُحْ لِمَا أَنْتَ لَهُ رَائِحُ
مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ فَذَاكَ الَّذِي سِيقَ إِلَيْهِ المَتْجَرُ الرَّابِحُ
لا يَجْتَلِي الحَوْرَاءَ مِنْ خِدْرِهَا إلاَّ امْرُؤٌ مِيزَانُهُ رَاجِحُ
فاسْمُ بِعَيْنَيْكَ إِلَىٰ نِسْوَةٍ مُهُورُهُنَّ العَمَلُ الصَّالِحُ

فقال الرشيد: لا أعتبر بهذا الكلام، يا غُلام، اضرب عنقه، فقال أبو نواس: يا أمير المؤمنين، أتقتلنى شهوة لقتلى ؟ قال: بل استحقاقًا، قال: فإن الله تعالى يحاسب، ثم يعفو أو يعاقب؛ فبماذا استحققتُ عند أمير المؤمنين القتل ؟! قال بقولك: [من الطويل]

أَلاَ فَاسْقِنِى خَمْرًا وقُلْ لِى هِيَ الخَمْرُ ولاَ تَسْقِنِى سِرًّا إذا أَمْكَنَ الجَهْرُ

قال: يا أمير المؤمنين، فهل علمت أنه سقانى أو شربْت ؟! قال: أظُنُّ، قال: أفتقتلنى على الظنِّ، وبعض الظن إثم ؟ قال: وقد قلت - أيضًا - ما تستحقُّ به القتل غير هذا، قال: وما هو ؟! قال: قولك فى التعطيل: [من الكامل]

مَا جَاءَنَا أَحَدٌ يُخَبِّرُ أَنَّهُ فِى جَنَّةٍ مَنْ مات أو فى نَارِ

قال: أفجاء أحد يا أمير المؤمنين ؟! قال: لا، قال: أفتقتلنى على الصدق ؟! قال: أولست القائل: [من البسيط]

يَا أَحْمَدُ المُرْتَجَىٰ فِى كُلِّ نائبَةٍ قُمْ سَيِّدِى نَعْصِ جَبَّارَ السَّمَوَاتِ

قال أبو نواس: أفقام أحمد يا أمير المؤمنين، وصار القول فعلاً ؟ قال: لا أعلم، قال: أفتقتلنى على ما لا تعلم ؟! قال: فدع هذا كله، قد اعترفْتَ فى مواضع كثيرة من شعرك بما يوجب عليك القتل، قال: قد علم الله تعالى هذا من قبل علم أمير المؤمنين، فأخبر عنى أنى أقول ما لا أفعل؛ يشير إلى الآية فى الشعراء: ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ [الشعراء:٢٢٦]، فقال الفضل: يا سيدى؛ إنه ليؤمن بالبعث، وإنه يحمله المجون على ذِكْرِ ما لم يعتقده.

ثم إن أبا نواس أنشد الخليفة يقول مدحًا: [من الطويل]

لَقَدْ طَالَ فِى رَسْمِ الديارِ بُكَائِي وقَدْ طال تَرْدَادِى بها وَعَنَائِي
كأنِّى مريعٌ فِى الديارِ طريدَة أَرَاهَا أمامِى مَرَّةً وَوَرَائِي
فَلَمَّا بدا لِى اليَأْسُ عَدَّيْتُ نَاقَتِي عَنِ الدارِ واسْتَوْلَىٰ عَلَىَّ عَزَائِي

إِلَىٰ بَيْتِ حَانٍ لاَ تَهِرُّ كِلاَبُهُ ... عَلَيَّ ولا ينكرْنَ طُولَ ثَوَائي
فما رمتُهُ حتى أتَىٰ دُونَ ما حَوَتْ ... يمينى وحَتَّىٰ رَيْطَتى وحِذَائي
وكأسٍ كمصباح السماءِ شَرِبْتُهَا ... عَلَىٰ قُبْلَةٍ أو مَوْعِدٍ بِلِقَاءِ
أَتَتْ دونها الأَيامُ حتَّىٰ كأنها ... تَسَاقَطُ نورًا مِنْ فُتُوقِ سَمَاءِ
تَرَىٰ ضَوْءَهَا من ظاهرِ البَيْتِ ساطعًا ... عَلَيْك وَلَوْ غَطَّيْتَهُ بِغِطَاءِ
تَبَارَكَ مَنْ سَاسَ الأمورَ بِقُدْرَةٍ ... وفَضَّلَ هَارُونًا على الخُلَفَاءِ
نَرَاكَ بِخَيْرٍ ما انْطَوينا عَلَى التقَىٰ ... وما سَاسَ دُنْيَانَا أبو الأُمَنَاءِ
إِمامٌ يخافُ الله حَتَّىٰ كأنه ... يؤمِّلُ رُؤْيَاهُ صَبَاحَ مَسَاءِ
أَشَمّ طِوَال الساعِدَيْنِ كأنما ... يُنَاطُ نِجَادًا سَيْفُهُ بِلِواءِ

قال: فخلع عليه الرشيد، ووصله بعشرة آلاف درهم، والفضل بمثلها، فنظر إلى جارية تختلف كأنها لؤلؤة، فقال: يا أمير المؤمنين، أنا ميت فى ليلتى هذه، فإذا مت، فمر أن أُدْفَنَ فى بطن هذه الجارية، فقال له الرشيد: خذها لا بارَكَ الله لك فيها، فقال أبو نواس: فانصرفت بمثل الشمس حسنًا، وفى منزلى غلام لى مثل القمر، فلقينى محمد بن بشير الشاعر فقال: أتيتك مهنئًا بما حباك أمير المؤمنين، فقلت: هى نعمة تتبعها نقمة، قال: ولم ذاك ؟ قلت: عندى غلام مثل القمر، وهذه الشمس إن جمعتهما أتخوَّفُ ما تعلم، وإن أفردت الجارية لم آمَنْ عليها وغلامِى لا بُدَّ منه، قال: اجعلها عند بعض إخوانك إلى وقت حاجتك، قلت: فلعلَّ الحارسَ هو المحروس منه، قال: فصَيِّرهَا عند عجوز تثقُ بها، قلت: لعلى أسترعِى الذئب، قال: ثم افترقنا، فالتقى معى بعد ثلاث، فقلت له: يا محمد بن بشير، ما على وجه الأرض شر منك، شاورتك فى أمر فلم تفتح عليَّ فيه شيئًا، فلما فارقتك، ازدحَمَ عليَّ الرأى المصيب، فقال لى: صنعت ماذا ؟ قلت: زوجْتُ الشمْسَ بالقَمَرِ، فحصلتهما لأَقْضِى بهما وطرى، فقال: كان الشيء عليك حلالاً فجعلته حرامًا، فقال أبو نواس: يا أحمق، ما شاورتك فى الحلال والحرام، إنما قلت لك: كيف الرأى فى تحصيلهما عندى ؟ ثم أنشأ يقول: [من السريع]

زَوَّجْتُ هَذَاكَ بِهَذى لِكَيْ ... أَنْكِحَ ثِنْتَينِ فَثِنْتَينِ
أَنْكِحُ هَذَا مَرَّة ثُمَّ ذا ... أُدِيرُ رُمْحًا بين صَفَّيْنِ

مَتَّعْتُ نَفْسِى بِهِمَا لَذَّةً يَا مَنْ رَأَىٰ مَطْلَعَ شَمْسَيْنِ

وذكر أن هارون الرشيد لما قدم المدينة المنورة لزيارة النبى ﷺ، وذلك فى بعض حجاته، وجه يحيى بن خالد البرمكى إلى الإمام مالك بن أنس - رضى الله تعالى عنه -: احمل إليَّ كتابك الذى صنعت - يعنى الموطأ - أسمعه عليك، فقال مالك ليحيى: أَقرِئْهُ السلام، وقل له: العلم يزار، ولا يزور، ويؤتى ولا يأتي، فرجع إلى هارون الرشيد وأخبره، ثم قال يحيى: يا أمير المؤمنين، يبلغ أهل العراق أنك وجهت إلى مالك بأمر فخالفك، اعزم عليه حتى يأتيك، فبينما هم كذلك إذا بمالك قد دخل وليس معه الكتاب، جاء مسلِّمًا على الخليفة، فسلَّم وجلس، فقال له هارون: يبلغ أهل العراق أنى سألتك أمرًا من الأمور سهلاً فأبيت على، فقال مالك: يا أمير المؤمنين، إن الله قد جعلك فى هذا الموضع، فلا تكنْ أول من ضيع العلم؛ فيضيعك الله تعالى، ولقد رأيت من ليس هو فى حسبك ونسبك يعز هذا العلم ويجله، فأنت أحرى أن تجله، ولم يزل يعظه ويعدد عليه حتى بكى، ثم قال مالك: أخبرنى الزهرى، عن خارجة، عن زيد بن ثابت قال: كنت أكتب الوحى عند رسول الله ﷺ: ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾ [النساء: ٩٥]، وابن أم مكتوم عند النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، أنا رجل ضرير، فهل لى رخصة - يعنى فى ترك الجهاد - فقال - عليه الصلاة والسلام-: « لا أدرى »، قال زيد: وقلمى رطب ماجف، حتى غشى النبى ﷺ الوحى، ثم سرى عنه، فقال: « اكتب يا زيد: ﴿ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ ﴾[1] [النساء: ٩٥] »، قال: فحرف واحد يا أمير المؤمنين بعثَ فيه الملك جبريل من مسيرة خمسين ألف عام، حتى نزل على النبى ﷺ، أفلا ينبغى لى أن أعزه وأجله ؟ قال: بلى، ثم إن هارون أتى إلى منزل الإمام مالك، فسمع منه الكتاب، ووفقه الله للصواب.

وقد قيل الدين لسيوف الأمراء وألسن العلماء.

واجتمع القاضى أبو يوسف بالإمام مالك عند الرشيد، فقال له القاضى أبو يوسف: ما تقول فيمن سها بزيادة فى الصلاة ؟ فقال الإمام مالك: يسجد للسهو

(١) تقدم تخريجه فى الجزء الأول .

بعد السلام، فقال: فإن سها بهما، فقال: يسجد قبل السلام، فقال أبو يوسف ملتفتًا إلى الرشيد: الشيخ تارة يخطئ وتارة لا يصيب، فظن الإمام مالك أنه يقول: تارة يخطئ، وتارة يصيب، فقال: على هذا أدركنا مشايخنا من السلف الصالح، ثم نبه الإمام مالك لقول أبى يوسف ومراده، فقال: ما ظننت أن أهل العلم يتكلَّمون بمثل هذا، قلت: رحم الله الإمام مالكًا، ورضى عنه، فما أغفله عن مظان السوء، وما أسلم فطرته، وأخلص نيته، وأصدق طويته حيث لم يخطر بباله ذلك، ولا خطر بباله أن يخطر ببال أهل العلم.

وقد طلب الرشيد من الإمام مالك أن يكتب مذهبه لقصد أن يجمع الأمة على مذهبه فقط، فقال الإمام: لا تفعل هذا؛ فإن الأحاديث النبوية كثيرة، وقد نقلها العلماء فى سائر البلدان وانتشرت، فلا تحجر واسعًا، ودع الأمة على مذاهبها، رضى الله عنه.

قال الأصمعى: وقال لى الرشيد: يا أصمعى، ما أغفلك عنا وأجفاك لنا، قلت: والله يا أمير المؤمنين، ما ألاقتنى بلاد بعدك حتى أتيتك، فسكت، فلما انصرف الناس قال: اجلس، فجلست، فلما لم يبق سوى الغلمان قال: ما معنى ما ألاقتنى ؟ فقلت: قال الشاعر: [من الكامل]

كَفَّاكَ كَفٌّ مَا تُلِيقُ بِدِرْهَمٍ جُودًا وأُخْرَىٰ تُعْطِ بالسَّيْفِ الدّمَا

فقال: أحسنتَ هكذا فكُنْ، وقرنا فى الملا، وعلمنا فى الخلا، وأمر لى بخمسة آلاف دينار رواها أبو حاتم، عنه.

وفى مروج الذهب: رأى الرشيد أن يوصل ما بين بحر الروم وبحر القلزم مما يلى الفرما، فقال له يحيى بن خالد البرمكى: لو فعلت ذلك، كانت الروم تختطف الناس من المسجد الحرام وتدخل مراكبهم إلى الحجاز. فترك ذلك[١].

قال الجاحظ: اجتمع للرشيد ما لم يجتمع لغيره: وزراؤه البرامكة، وقاضيه أبو يوسف، وشاعره مروان بن أبى حفصة، ونديمه العباس بن محمد عم أبيه، وحاجبه الفضل بن الربيع أنبه الناسَ وأعظمهم، ومغنيه أبو إسحاق[٢] الموصلى، وزوجته زبيدة بنت جعفر[٣].

(١) ينظر: سير أعلام النبلاء (٩/ ٢٨٩)، تاريخ الخلفاء (ص ٢٢٩).
(٢) فى تاريخ الإسلام: إبراهيم.
(٣) ينظر: تاريخ بغداد (١٤/ ١١)، تاريخ الإسلام الطبقة العشرون (ص ٤٣٠).

وحكى أنه خلف من الأثاث والعين والورق والجواهر والدواب ما قيمته ألف ألف وخمسة وعشرون ألف دينار. ومن النقد مائة ألف ألف دينار، وله أخبار فى اللهو واللذات المحظورة والنساء، فالله يسامحه.

قال صاحب جواهر العقدين: لما أنشد منصور النميرى هارون الرشيد قصيدته تقربًا للرشيد يغض فيها من الطالبيين منها قوله: [من الوافر]

يُسَمُّونَ النَّبِيَّ أَبًا ويَأبَى مِنَ الأحزاب سَطْرٌ فى السُّطُورِ

يريد بذلك الآية الكريمة ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ... ﴾ الآية. [الأحزاب: ٤٠]، رأى فى ليلته النبيَّ ﷺ وهو يهوى عليه بقضيب من نار، ويقول: أنت الذى تنفى ذريتى منى، فانتبه مرعوبًا، ومال إلى التشيع، وقال فى ذلك ما أوجب أن أمر الرشيد لما وقف عليه بقتله، فنجاه الله ووجدوه قد مات، وهذه الواقعة ذكرها أبو الفرج الأصفهانى فى كتاب الأغانى.

قال أبو محمد بن حزم: أراه كان لا يشرب النبيذ المختلف فيه إلا الخمر المتفق على تحريمها، ثم جاهر بها جهارًا كبيرًا.

قال السيوطى فى تاريخه(١): فى سنة اثنتين وتسعين ومائة: توجه الرشيد نحو خراسان، فذكر محمد بن الصباح أن أباه شيع الرشيد إلى النهروان، فجعل يحادثه فى الطريق، إلى أن قال: يا صباح، لا أحسبك ترانى بعدها، قلت: بل يردك الله سالمًا، ثم قال: ولا أحسبك تدرى ما أجد، فقلت: لاوالله، فقال: تعال أريك، وانحرف عن الطريق، فأومأ إلى الخواصِّ فتنحوا، ثم قال: أمانة الله يا صباح أن تكتم عليَّ وكشف عن بطنه، فإذا عصابة حرير حوالى بطنه فقال: هذه علة أكتمها عن الناس كلِّهم، ولكل واحد من ولدى على رقيب، فمسرور رقيب المأمون، وجبريل ابن بختيشوع رقيب الأمين، وفلان رقيب المؤتمن، ما منهم أحد إلا وهو يحصى أنفاسى ويعدُّ أيامى ويستطيل دهرى، فإن أردت أن تعرف ذلك، فالساعة أدعو ببرذون فيجيئون به أعجَفَ ليزيد فى علتى، ثم دعا ببرذون فجاءوا به كما وصف، فنظر إلى، ثم ركبه، وودعنى، وسار إلى جرجان، ثم رحل منها فى صفر سنة ثلاث وتسعين، وهو عليل إلى طوس، فلم يزل بها إلى أن مات.

---

(١) ينظر: تاريخ الخلفاء (ص ٢٣٢).

قال الذهبى[١]: إن الرشيد رأى منامًا أنه يموت بطوس، فانتبه وبكى، وقال: احفروا لى قبرًا فحفر له، ثم حمل فى قبته على جمل، وسيق به حتى نظر إلى القبر فقال: يا ابن آدم، تصير إلى هذا. وأمر قومًا فنزلوا، فختموا فيه ختمة، وهو فى محفته على شفير القبر، فلما مات، دفن به.

وكانت خلافته ثلاثًا وعشرين سنة وشهرين وتسعة عشر يومًا، وقيل: أربعًا وعشرين، وقيل: خمسًا وعشرين سنة، وعمره أربع وأربعون سنة وخمسة أشهر وثلاثة أيام.

خلافة محمد الأمين[٢]

ابن هارون الرشيد بن محمد المهدى بن عبد الله المنصور بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس، بايع له أبوه الرشيد بولاية العهد فى سنة خمس وسبعين، ولقبه بالأمين، وله يومئذٍ خمس سنين، لحرص أمه زبيدة على ذلك، قال الذهبى[٣]: فكان هذا أول وهن جرى فى دولة الإسلام من حيث الإمامة، ثم لابنه الآخر من بعد الأمين عبد الله، ولقبه المأمون، وولاه ممالك خراسان بأسرها. ثم بايع ابنه الآخر القاسم، ولقبه المؤتمن، وولاه الجزيرة والثغور وهو صبى، فلما قسم الدنيا بين هؤلاء الثلاثة قال بعض العقلاء: قد ألقى بينهم بأسهم، وغائلة ذلك تضرُّ بالرعية، ثم إنه علق نسخة البيعة بالكعبة الشريفة، وفى ذلك يقول إبراهيم الموصلى:

[من مجزوء الكامل]

---

(١) ينظر: تاريخ الإسلام، الطبقة العشرون (ص ١٤) .

(٢) ينظر [الأمين] فى: أنساب الأشراف ٣/ ٩٤، المعرفة والتاريخ ١/ ١٦١، تاريخ الزمان لابن العبرى ١٨ و١٩، تاريخ خليفة ٤٥٧، الكامل فى التاريخ ٦/ ٢٢١، وفيات الأعيان ٤/ ٣٦ وما بعدها، وخلاصة الذهب المسبوك ١٠٧ و١٠٨، البداية والنهاية ١٠/ ٢٢٢، مرآة الجنان ١/ ٤٥٨، تاريخ الخلفاء ٢٣٨، الوافى بالوفيات ٥/ ١٣٥، شذرات الذهب ١/ ٣٥٠، سير أعلام النبلاء ٩/ ٣٣٤، الوزراء والكتاب ٢٩٨ - ٢٩٩، العقد الفريد ٣/ ٢٦١، تاريخ اليعقوبى ٢/ ٤٠٧، ٤١٦ - ٤٢١، دول الإسلام ١/ ١٢٤، العبر ١/ ٣٢٥، المعارف ٣٨١، الأخبار الطوال ٣٩٢ - ٣٩٤ .

(٣) ينظر: تاريخ الإسلام حوادث سنة مائة وخمس وسبعين ص ١١، البداية والنهاية ١٠/ ١٦٥، تاريخ اليعقوبى ٢/ ٤٠٨ .

خَيـرُ الأمـورِ مـغـبَّـةً وأحـقُّ أمـرٍ بـالـتـمـامْ
أمرٌ قضى أحكامَهُ الرّ رَحمنُ فِي البَيْتِ الحَرَامْ

وقال عبد الملك بن صالح: [من البسيط]

حُبُّ الخليفةِ حبٌّ لا يدينُ له عاصِى الإلهِ وشانٍ يَلْقَحُ الفتنا
ألـلَّـهُ قَـلَّـدَ هـارونًـا سـيـاسـتَـهُ لمَّا اصْطَفَاهُ فأحيا الفرضَ والسُّنَنَا
وقـلَّـدَ الأَمْـرَ هـارون لِـرَأْفَـتِـهِ بنا أمينًا ومأمونًا ومؤتمنا

قال بعضهم: وقد زوى الرشيد الخلافة عن ولده المعتصم لكونه أميًّا، فساقها الله إليه، وجعل الخلفاء بعده كلهم من ذريته، ولم يجعل من نسل غيره من أولاد الرشيد خليفة.

بويع الأمين بالخلافة يوم توفى الرشيد بطوس والأمين ببغداد، فورد عليه بها خاتم الخلافة والبردة والقضيب، فلما تمكن من الخلافة خلع أخاه المأمون، وجعل العهد لولده موسى وهو فى المهد، وسماه الناطق بالحق، وقطع ذكر المأمون والمؤتمن، وجعل ولده موسى فى حجر علي بن عيسى، فأرسل إلى الكعبة الشريفة من جاءه بكتاب العهد الذى علقه فيها الرشيد للأمين والمأمون فمزقه، وكان ذلك برأى الفضل بن الربيع وبكر بن المعتمر، فقال بعض الشعراء فى ذلك: [من المتقارب]

أضاعَ الخلافةَ غِشُّ الضَّميرِ وفسقُ الوزيرِ وجهلُ المُشِيرِ
فـفـضْـلٌ وزيـرٌ وبَـكْـرٌ مُـشـيـرٌ يـريدانِ ما فيه حَتْفُ الأميرِ
لـواطُ الـخـلـيـفـةِ أعـجـوبَـةٌ وأعـجـبُ منـه حلاق الـوَزِيـرِ
فـهـذا يـدوسُ وهـذا يُـدَاسُ وهـذا لـعـمـرى خـلافُ الأمـورِ
فـلـو يـسـتـعـفَّـانِ هـذا بـذاكَ لـكـانـا بـعُـرْضَـةِ أمـرٍ يـسـيـرِ
وأعـجـبُ مِـنْ ذا وذا أَنَّـنـا نُـبَـايِـعُ لـلطفْلِ فينا الصغيرِ
ومَنْ ليسَ يُحْسِنُ غَسْلَ استِهِ ولم يخلُ من بولِهِ حجْرُ ظِيرِ

وكان أول من أجاب الأمين إلى خلع المأمون وزيره على بن عيسى بن ماهان، فجهزه الأمين لحرب المأمون فى مائة ألف مقاتل، فلما قرب من الرى قابله طاهر بن

الحسين من قبل المأمون فى أربعة آلاف أو خمسة آلاف، وحمل عليه على حين غفلة، فكانت بينهما وقعة فى ذلك الموضع كانت الدائرة على عليّ بن ماهان وأصحابه، وانجلت عن قتل على بن عيسى، فحز رأسه، وظفر طاهر بجميع خزائنه، وأرسل على الفور إلى ذى الرياستين الفضل بن سهل وزير المأمون بكتاب يقول فيه: « أطال الله بقاءك، وكبت أعداءك، كتبت كتابى هذا إليك ورأس على بن ماهان بين يدى، وخاتمه فى إصبعى ». فسمع المأمون بذلك، وسلم عليه بالخلافة فى ذلك الوقت.

ولما قتل على بن عيسى بعث الأمين عبد الرحمن بن الأنبارى فى عشرين ألف فارس إلى همذان، وولاه عليها وعلى كل ما يفتحه من بلاد خراسان، فسار إلى همذان وحصنها، وجاءه طاهر فبرز إليه ولقيه، وهزمه طاهر إلى البلد، ثم خرج عبد الرحمن ثانية فانهزم إلى المدينة، وحاصره طاهر حتى ضجر منه أهل المدينة وطلب الأمان من طاهر؛ فأمنه وأقام فى أمانه، ثم أصاب عبد الرحمن غرة من طاهر فركب وهجم عليه فى عسكره فقاتله طاهر أشد القتال حتى انهزم أصحاب عبد الرحمن وقتل، ولم يزل طاهر يهزم الجيوش، ويقتل قواد الأمين واحدًا بعد واحد، وهو سائر إلى بغداد يريد الأمين، وفر قائدان من قواد الأمين الكبار هما خزيمة بن خازم ومحمد بن على بن عيسى بن ماهان إلى طاهر بن الحسين، فوثبا على جسر دجلة فى ثامن المحرم فقطعاه وركزا أعلامهما وخلعا الأمين ودعيا للمأمون، فأصبح طاهر ابن الحسين وألح على أصحاب محمد الأمين، ودخل طاهر قسرًا بالسيف، ونادى مناديه: من لزم بيته فهو آمن. ثم أحاط بمدينة المنصور وبقصر زبيدة وقصر الخلد، فثبت على قتال طاهر حاتم بن الصقر والهرش والأفارقة، فنصب طاهر المجانيق خلف السور وعلى القصرين ورماهم، فخرج محمد وأمه وأهله من القصر إلى مدينة المنصور، وتفرق عامة جنده وعلمائه، وقل عليهم القوت والماء، وفنيت خزائنهما على كثرتها.

قال الحافظ الذهبى[١]: ذكر عن محمد بن راشد، أخبرنى إبراهيم بن المهدى أنه كان مع محمد بمدينة المنصور فى قصر باب الذهب، فخرج ليلة من القصر من

(١) ينظر: تاريخ الإسلام حوادث سنة ثمان وتسعين ومائة (ص ٥٥ - ٥٦).

الضيق والضنك فصار إلى قصر القرار[١]، فطلبنى فأتيت، فقال: ما ترى طيب هذه الليلة وحسن القمر وضوءه فى الماء، فهل لك فى الشراب ؟ قلت: شأنك. فدعا برطل من نبيذ فشربه، ثم سقيت مثله، فابتدأت أغنيه من غير أن يسألنى لعلمى بسوء خلقه، فغنيت، فقال: ما تقول فيمن يضرب عليك ؟ فقلت: ما أحوجنى إلى ذلك، فدعا بجارية وكان اسمها ضعف، فتطيرتُ من اسمها. ثم غنت الجارية بشعر النابغة الجعدى: [من الطويل]

كليبٌ لعمرِى كان أكثَرَ ناصرًا وأيْسر ذنبًا منك ضُرِّجَ بالدَّمِ

فتطير الأمين من ذلك وقال لها: غنى غير هذا، فغنت: [من البسيط]

أبكِى فراقَهُمُ عينى فأرَّقها إنَّ التفرُّقَ للأحبابِ بَكَّاءُ
ما زال يَعْدُو عليهِمْ رَيْبُ دهرِهِمُ حتى تفَانَوا ورَيْبُ الدَّهرِ عَدَّاءُ
فاليومَ أبكيهمُ جَهْدِى وأندبُهُمْ حتى أءوب وما فى مُقْلَتى ماءُ

فقال: لعنك الله، أما تعرفين غير هذا ؟ فقالت: ظننت أنك تحبه، ثم غنت: [من المنسرح]

أما وربِّ السكونِ والحركِ إنَّ المنايا كثيرَةُ الشَّرَك
ما اختلَفَ الليلُ والنهارُ ولا دارَتْ نجومُ السماءِ فى الفَلَكِ
إلا لنقلِ السلطانِ من ملكٍ قد زالَ سلطانُهُ إلى مَلِكِ
ومُلْكُ ذى العرشِ دائمٌ أبدًا لَيسَ بفانٍ ولا بمُشْتَرَكِ

فقال لها: قومى لعنك الله فقامت، فعثرت فى قدح بلور له قيمة فكسرته، فقال: ويحك يا إبراهيم، أما ترى ؟ والله ما أظن أمرى إلا قد قرب. فقلت: بلى، يطيل الله عمرك ويعز ملكك. فسمعت صوتًا من دجلة ﴿ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ [يوسف: ٤١]، فوثب محمد مُغْتَمًّا، ورجع إلى موضعه بالمدينة، فقتل بعد ليلة أو ليلتين.

وذكر المسعودى[٢] أن إبراهيم المهدى قال: استأذنت على الأمين وهو فى شدة الحصار، فإذا هو واضع رجله بالشباك[٣]، وكان فى القصر بركة عظيمة يدخل من

(١) فى ط: الغراب. والمثبت من تاريخ الإسلام.
(٢) ينظر: مروج الذهب (٣/ ٤٠٢ - ٤٠٣).
(٣) فى المروج: قد تطلع إلى دجلة بالشباك.

دجلة إليها الماء من ذلك الشباك الحديد، فسلمت وهو مقبل على الماء، والخدم [والغلمان][١] قد انتشروا فى تفتيش الماء وهو كالواله، فقال لى: لا تؤذنى يا عم، فإن مقرطتى قد ذهبت فى البركة إلى دجلة، وإن كوثر - اسم خادم له خصى - قد صاد مقرطتين، ولم أصد أنا شيئًا بعد- والمقرطة سمكة كان قرطها بحلقتى ذهب فيهما جوهرتان عظيمتان- قال إبراهيم: فخرجت وأنا آيس من فلاحه، وقلت: لو ارتدع فى وقت لكان هذا الوقت. وكان مع طاهر هرثمة بن أعين، وعظم الأمر واشتد الحصار والبلاء، حتى خربت بذلك منازل بغداد، ووثب العيارون على أموال الناس فانتهبوها، وأقام الحصار مدة سنة.

ومما عمل فى بغداد من المراثى قَول القائل: [من الوافر]

بكيْتُ دَمًا على بغدادَ لما ... فقدتُّ نضارَةَ العيشِ الأنيقِ

أصابَتْهَا من الحسادِ عَين ... فأفنَتْ أهلها بالمنجنيقِ

وتضايق الأمر على الأمين، وكتب طاهر إلى وجوه أهل بغداد سرًّا يعدهم إن أعانوه، ويتوعدهم إن لم يدخلوا فى طاعته، فأجابوا طاهرًا وفارقوا الأمين، وصرحوا بخلعه، ومنع طاهر الأمين ومن معه من كل شيء، حتى كاد هو وأصحابه أن يموتوا جوعًا وعطشًا. فلما عاين الأمين ذلك كاتب هرثمة بن أعين وطلب منه أن يؤمنه حتى يأتيه؛ فأجابه هرثمة إلى ذلك وبلغ ذلك طاهرًا فشق عليه؛ كراهة أن ينسب الظفر لهرثمة دونه، فلما كان يوم الخميس لخمس بقين من المحرم من سنة ثمان وتسعين ومائة خرج الأمين إلى هرثمة فى حراقة، فركب الأمين ومن معه، وكان طاهر قد أكمن للأمين، فلما صار الأمين فى الحرَّاقة رموه بالنشاب والحجارة، فانكفأت الحراقة وغرق محمد وهرثمة، فسبح محمد حتى صار إلى بستان موسى، فعرفه محمد بن حميد الطاهرى، فصاح بأصحابه فنزلوا ليأخذوه، فبادر محمد الماء، فأخذ برجله وحمله على برذون، وخلفه من يمسكه كالأسير.

قال أحمد بن سلام: كنت مع الأمين فى الحراقة فأخذت وحبست، فبعد هدوء من الليل إذا أنا بحركة الخيل وهم يقولون: بشر زبيدة فأدخل عليَّ رجل عريان عليه سراويل وعمامة ملثم بها، وعلى كتفه خرقة خلقة، فصيروه معى ووكلوا بنا، فلما

---

(١) المثبت من مروج الذهب .

حسر العمامة عن وجهه فإذا هو محمد؛ فاستعبرت واسترجعت فى نفسى، فقال لى: من أنت ؟ قلت: مولاك أحمد بن سلام، قال: أعرفك، كنت تأتينى بالرقة. قلت: نعم. قال: كنت تأتينى وتتلطفنى كثيرًا، لست مولاى؛ بل أنت أخى، ادن منى فإنى أجد وحشة شديدة، قال أحمد: فضممته إلىّ، ثم قال: يا أحمد، ما فعل أخى ؟ قلت: حىٌّ. قال: قبح الله صاحب البريد ما أكذبه، كان يقول لى: قد مات. قلت: قبح الله وزراءك. قال: لا تقل، فما لهم ذنب، ولست أول من طلب أمرًا فلم يقدر عليه. قال: أتراهم يقتلوننى أو يفون لى بأمانهم ؟ قلت: بل يفون لك يا سيدى. وجعل يمسك الخرقة بعضديه فنزعت منطقة[1] علىَّ وقلت: ألقها وخذ هذه. فقال: ويحك دعنى. فهذا من الله لى فى هذا الموضع خير كثير. فلما انتصف الليل دخل الدار قوم من العجم بالسيوف، فقام وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون. ذهبت والله نفسى فى سبيل الله. أما من حيلة ؟ أما من مغيث ؟ فأحجموا عن التقدم. وجعل بعضهم يقول لبعض: تقدم. فقمت وصرت وراء حصر[2] ملففة، وأخذ محمد بيده وسادة وقال: ويحكم أنا ابن عم رسول الله ﷺ، أنا ابن هارون أنا أخو المأمون، الله الله فى دمى.

فوثب عليه خُمَارَوَيه – غلام لقريش الدندانى – فضربه بالسيف على مقدم رأسه، فضربه محمد بالوسادة واتكأ عليه، فأخذ السيف من يده، فصاح خمارويه: قتلنى قتلنى، فتكاثروا عليه فذبحوه من قفاه وذهبوا برأسه إلى طاهر؛ فنصب رأسه على حائط بستان، وأقبل طاهر يقول: هذا رأس المخلوع محمد الأمين، ثم بعث به مع البردة والقضيب والمصلى – وهو من سعف مبطن – مع ابن عمه محمد بن مصعب إلى المأمون، فلما وصل الرأس إليه سجد شكرًا لله تعالى على الظفر، وأمر لمحمد ابن مصعب بألف ألف درهم، وجُرَّت جثته بحبل. ولما بلغ إبراهيم بن المهدى عم الأمين ما وقع للأمين بكى طويلاً وأنشد: [من السريع]

عُوجَا لمغنى طللٍ داثرِ ... بالخُلْد ذات الصَّخْر والآجرِ
والمرمر المسنون يطلى بِهِ ... والباب باب الذَّهَبِ الناضرِ

(١) فى تاريخ الإسلام: مبطنة.
(٢) فى ط: حبر. والمثبت من تاريخ الإسلام.

وأبلغا عنّى مقالاً إلى الـ مَوْلَى عن المأمورِ والآمِرِ
قولا له يا ابْنَ وليّ الهدَىٰ طَهِّرْ بلادَ اللّهِ مِنْ طاهِرِ
لم يكفِهِ أن حَزَّ أَوْداجَهُ ذبح الضَّحَايا(١) بِمُدَى الجازِرِ
حتى أتى يَسْحَبُ أوصالَهُ فى شَطَنٍ يعنَى به السابِرِي(٢)
قد برد الموتُ على عَيْنِهِ(٣) فطرفه منكسرُ الناظِرِ

ولما بلغ هذا الشعر المأمون اشتد عليه ذلك، وندم وحزن وحوقل (٤).

ولخزيمة بن الحسن على لسان زبيدة قصيدة يقول فيها : [من الطويل]

أَتَىٰ طاهرٌ لا طَهَّرَ اللّهُ طاهرًا فما طاهِرٌ فيما أَتَىٰ بُمطَهَّرِ
فأخرجَنِى مكشوفَةَ الوَجْهِ حاسرًا فَأَنْهَبَ أموالى وأحرقَ أَدْوُرِي
يَعزُّ عَلَىٰ هَارُونَ ما قَدْ لَقِيْتُهُ وما مَرَّ بى من ناقِصِ الخلقِ أعورِ
تذكَّرْ أميرَ المؤمنينَ قَرَابتِي فديتُكَ من ذى حُرْمَةٍ مُتَذَكِّرِ

وكان الأمين من أحسن الشباب صورة: أبيض طويلاً جميلاً، ذا قوة مفرطة وبطش وشجاعة معروفة، وفصاحة وأدب وفضل وبلاغة، لكن كان سيء التدبير، ضعيف الرأى، لا يصلح للإمارة. قال ابن جبير: لما ملك محمد الأمين ابتاع الخصيان، وغالى بهم وصيرهم لخلوته، ورفض النساء والجوارى، ووجه إلى البلدان فى طلب الملهين وأجرى لهم الأرزاق، واقتنى الوحوش والسباع والطيور، واحتجب عن أهل بيته وعن أمرائه واستخف بهم، ومحق بيوت الأموال، وضيع الجواهر والنفائس، وبنى عدة قصور فى عدة أماكن، وعمل خمس حرّاقات على صفة أسد وفيل وعقاب وحية وفرس، وأنفق فى عملها أموالاً، فقال أبو نواس: [من الخفيف]

سَخَّرَ اللّهُ للأمينِ مطايا لم تُسَخَّرْ لصاحبِ المحرابِ
فإذا ما ركابُهُ سارَ برًّا سارَ فى الماء راكبًا ليثَ غابِ
أسدًا باسطًا ذراعيهِ يَهْوي أهرت الشِّدْقِ كَالحَ الأنيابِ

---

(١) فى تاريخ الإسلام: الهدايا .
(٢) فى تاريخ الإسلام: يفنى به السائر .
(٣) فى تاريخ الإسلام: جفنه .
(٤) ينظر: تاريخ الإسلام حوادث ١٩١هـ ص (٦١ - ٦٣) .

وهكذا حتى وصفها جميعًا .

ومن شجاعته وقوة بطشه ما نقله المسعودى[١] فقال: حكى أنه اصطبح يومًا فأتى بسبع هائل على جمل فى قفص فوضع بباب القصر، فقال: افتحوا القفص وخلوه، فقيل، يا أمير المؤمنين، إنه سبع هائل أسود كالثور كثير الشعر، فقال: خلوا عنه. ففعلوا. فخرج فزأر وضرب بذنبه الأرض، فتهارب الناس وأغلقت الأبواب، وبقى الأمين وحده غير مكترث، فأتاه الأسد وقصده، فرفع يده فجذبه الأمين وقبض على ذنبه[٢] وغمزه وهزه ورماه إلى خلف، فوقع السبع على صخرة[٣] فخر ميتًا، وجلس الأمين وكأنه لم يعمل شيئًا، وإذا أصابعه قد تخلعت، فشقوا بطن الأسد، فإذا مرارته قد انشقت على كبده.

قال الذهبى[٤]: كتب الأمين إلى طاهر بن الحسين رقعة فيها « يا طاهر، ما قام لنا منذ قمنا قائم بحقنا فكان جزاؤه عندنا إلا السيف، فانظر لنفسك أو دع » قال: فلم يزل طاهر يتبين موقع الرقعة منه. قلت: وكان طاهر قد انتدب لحربه من جهة أخيه المأمون، فكتب له هذه الرقعة[٥] وهى غاية فى التحذير[٦].

ولم يل الخلافة هاشمى ابن هاشمية إلا على بن أبى طالب ومحمد الأمين هذا؛ فإن أم الأول فاطمة بنت أسد هاشمية، وكذا أم الثانى، زبيدة بنت جعفر بن المنصور[٧].

قال الصولى: حدثنا أبو العيناء عن محمد بن عمرو الرومى، قال: خرج كوثر خادم الأمين ليرى الحرب، فأصابته رجمة فى وجهه، فجلس يبكى، وجعل الأمين يمسح الدم عن وجهه ثم قال: [من مجزوء الرمل]

ضَرَبُوا قُرَّةَ عَيْنِي ... وَمِنَ اجْلِى ضَرَبُوهُ
أَخَذَ اللَّهُ لِقَلْبِي ... مِنْ أُنَاسٍ أَحْرَقُوهُ

---

(١) ينظر: مروج الذهب (٣/ ٤٠٣) .
(٢) فى المروج: على أصل أذنيه .
(٣) فى المروج: مؤخره. وفى تاريخ الإسلام: عجزه .
(٤) ينظر: تاريخ الإسلام الطبقة العشرون (ص ٣٨٢) .
(٥) فى تاريخ الإسلام: الورقة .
(٦) فى تاريخ الإسلام: التخذيل .
(٧) ينظر: مروج الذهب (٣/ ٤٠٤، ٤٠٥) .

قال: ثم أحضر عبد الله بن أيوب التيمى الشاعر فقال له: قل عليهما، فقال: [من مجزوء الرمل]

ما لِمَنْ أَهوىٰ شبِيه فبِهِ الدُّنيا تَتِيهُ
وَصْلُهُ حلوٌ ولكنْ هجْرُهُ مُرٌّ كريهُ
مَنْ رأى الناسُ له فضـ ـلًا عليهم حَسَدُوهُ
مثل ما قَدْ حَسَدَ الـ قائمَ بالمُلْكِ أَخُوهُ

فقال الأمين: والله بحياتى أحسنت يا عباسى، أنظر، فإن جاء على ظهر فأوقره له، وإن جاء فى زورق فأوقره له، فأوقر له ثلاثة بغال دراهم هى التى جاء عليها[1].

ومما قيل فى هجو الأمين أقامه مقام الرثاء فقال: [من الرمل]

لِمَ نَبْكِيكَ لماذا للطَّرَبْ يا أبا موسىٰ وتزويج اللّعبْ
ولتَرْكِ الخَمْسِ فى أوقاتِهَا حرصًا منكَ على ماءِ العِنَبْ
وشنيف أنا لا أَبْكِى له وعلى كوثَرَ لا أخشَى العَطَبْ
لم تَكُنْ تصلحُ للمُلكِ ولَمْ تعطك الطاعَةَ بالملْكِ العربْ
لِمَ نبكيكَ لما عَرَّضْتَنَا للمجانيقِ وطَوْرًا للسَّلَبْ

وذكر عن الكسائى أنه قال: لما ولانى الرشيد تأديب ابنيه الأمين والمأمون كنت أشدد عليهما فى الأدب وآخذهما أخذًا شديدًا خصوصًا الأمين، فأتتنى ذات يوم خالصة أمة زبيدة فقالت: إن السيدة تقرئك السلام وتقول لك: حاجتى أن ترفق بابنى محمد، فقلت قولى لها: إن محمدًا مرشح للخلافة بعد أبيه، ولا يجوز التقصير فى حقه. قالت خالصة: إن لرقة السيدة سببًا أنا أخبرك به، إنها فى الليلة التى ولدته فيها أريت فى منامها كأن أربع نسوة أقبلن عليه فاكتنفنه من جهاته الأربع، فقالت التى بين يديه: ملك قليل العمر، ضيق الصدر، عظيم الكبر، واهى الأمر، شديد الغدر. وقالت التى من خلفه: قصاف، مبذر متلاف، قليل الإنصاف، كثير الإسراف. وقالت التى عن يمينه: ملك عظيم الحطم، قليل اللحم، كثير الإثم، قطوع الرحم. وقالت التى عن شماله: ملك غدار، كثير العثار، سريع الدمار. ثم بكت خالصة وقالت: يا كسائى، هل ينفع الحذر مع القدر ؟ قلت: لا والله.

---

(١) ينظر: تاريخ الإسلام: حوادث ١٩١هـ (ص ٣٨٢، ٣٨٣).

وذكر الأصمعى أنه دخل على الرشيد - قال: وكنت قد غبت عنه بالبصرة حولا - فسلمت عليه بالخلافة، فأشار إلى بالجلوس فجلست حتى خفَّ الناس، ثم قال: يا أصمعى، ألا تحب أن ترى محمدًا وعبد الله ابنيَّ ؟ قلت: بلى يا أمير المؤمنين، إنى لأحب ذلك، وقد أردت القصد إليهما لأسلم عليهما. ثم قال الرشيد: على بمحمد وعبد الله، فانطلق الرسول، فأقبلا كأنهما قمرا أفق، قد قاربا خطاهما ورميا ببصرهما الأرض حتى وقفا على أبيهما فسلما عليه بالخلافة، فأومأ لهما فجلس محمد عن يمينه وعبد الله عن شماله، ثم أمرنى بمطارحتهما الأدب، فكنت لا ألقى عليهما شيئا من فنون الأدب إلا أجابا فيه وأصابا. فقال: كيف ترى أدبهما ؟ قلت: يا أمير المؤمنين، ما رأيت مثلهما فى ذكائهما وجودة فهمهما وذهنهما، فأطال الله بقاءهما ورزق الأمة رأفتهما. فضمهما إلى صدره، وسبقته عبرته فبكى حتى تحدرت دموعه على لحيته، ثم أذن لهما فى القيام، فنهضا حتى إذا خرجا قال: يا أصمعى، كيف بهما إذا ظهر تعاديهما وبدا تباغضهما، ووقع بأسهما بينهما، حتى تسفك الدماء، ويود كثير من الأحياء أن لو كان فى الأموات ؟ قلت: يا أمير المؤمنين، هذا شيء قضى به المنجمون عن مولدهما، أو شيء أثرته العلماء فى أمرهما ؟! قال: بل شيء أثرته العلماء عن الأوصياء. قال الصولى: وكان الرشيد يسمع ما يجرى بينهما جميعه من موسى بن جعفر الصادق، ولذلك قال ما قال.

قال فى « قلادة النحر »: إن المأمون مر يومًا على زبيدة أم الأمين فرآها تحرك شفتيها بشيء لا يعرفه، فقال لها: يا أماه أتدعين على أن قتلت ابنك وسلبته، فما كان الباغى إلا ابنك، وإن لكل باغٍ مصرعا. قالت: لا والله يا أمير المؤمنين، قال: فما الذى قلت ؟ قالت: يعفينى أمِير المؤمنين. فألح عليها قال: ولا بد أن تقوليه. قال: قلت: قبح الله اللجاج والملاحَّة. قال وكيف ذلك ؟ قالت: إنى لألعب يومًا مع أمير المؤمنين الرشيد الشطرنج على الحكم والرضا فغلبنى، فأمرنى أن أتجرد من أثوابى وأطوف القصر عريانة، فاستعفيته فلم يعفنى، فتجردت من ثيابى وطفت القصر عارية. ثم عاودنا اللعب فغلبته، فأمرته أن يذهب إلى المطبخ فيطأ أقبح جارية وأشوهها خلقة، فاستعفانى فلم أعفه، فبذل لى خراج مصر والعراق، فأبيت وقلت: والله لتفعلن ذلك فأبى، فألححت عليه وأخذت به، وجئت به إلى المطبخ، فلم

أر جارية أقبح ولا أقذر ولا أنتن ريحًا ولا أشوه خلقة من أمك مراجل، فأمرته أن يطأها فوطئها، فعلقت منه بك، فكنت سببًا لقتل ولدى وسلبه ملكه، فولى المأمون وهو يقول: لعن الله الملاحَّة.

أقول: نعم لعن الله الملاحة؛ إذ إلحاحه على زبيدة كان سبب سماع هذا الكلام المؤلم.

قال الثعالبى فى « المعارف »: كانوا يقولون: لو نشرت زبيدة ضفائرها ما تعلقت إلا بخليفة أو ولى عهد، فإن المنصور جدها، والسفاح أخو جدها، والمهدى عمها، والرشيد زوجها، والأمين ابنها، والمأمون والمعتصم ابنا زوجها. وأما ولاة العهد فكثير. ونظيرتها فى ذلك من بنى أمية عاتكة بنت يزيد بن معاوية بن أبى سفيان: أبوها يزيد بن معاوية، ومعاوية بن أبى سفيان جدها، ومعاوية بن يزيد أخوها، ومروان بن الحكم حموها، وعبد الملك بن مروان زوجها، ويزيد بن عبد الملك ابنها، والوليد بن يزيد ابن ابنها، والوليد وهشام وسليمان بنو زوجها عبد الملك، ويزيد وإبراهيم ابنا الوليد ابنا ابن زوجها.

كانت مدة خلافته أربع سنين وسبعة أشهر وثمانية عشر يومًا، وقيل ثمانية أشهر. وقتل لخمس بقين من المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة، وعمره سبع وعشرون سنة، وقيل: وأربعة أشهر وعشرة أيام، وقيل: ست وعشرون سنة وخمسة أشهر، وقيل: ثلاث وثلاثون سنة وستة أشهر، رحمه الله تعالى وعفا عنه وعن المسلمين، آمين.

خلافة المأمون(١)

عبد الله بن هارون الرشيد بن المهدى محمد بن المنصور بن عبد الله أبو العباس، الهاشمى، ولد سنة سبعين ومائة عندما استخلف أبوه الرشيد، وقرأ العلم فى صغره، وسمع ابن هشيم، وعباد بن العوام، ويوسف بن عطية، وأبا معاوية الضرير،

(١) ينظر ترجمته فى: شذرات الذهب ٢/ ٣٩، فوات الوفيات ٢/ ٢٣٥، تاريخ الخميس ٢/ ٣٣٤، النجوم الزاهرة ٢/ ٢٢٥، تاريخ الخلفاء ٣٠٦، البدء والتاريخ ٦/ ١١٢، الكامل لابن الأثير ٦/ ٢٨٢، المعارف ٣٨٧، الأخبار الطوال ٤٠٠، تاريخ اليعقوبى ٣/ ١٧٢، تاريخ الطبرى ٨/ ٤٧٨، البداية والنهاية ١٠/ ٢٤٤، تاريخ بغداد ١٠/ ١٨٣، سير أعلام النبلاء ١٠/ ٢٧٢، الفهرست ١٢٩، الذهب المسبوك ١٨٦، مروج الذهب ٤/ ٤، المحبر ٤٠، عيون الأخبار ٢/ ٢٥٣ - ٢٥٥، تاريخ خليفة ٤٦٦ - ٤٧٣، دول الإسلام ١/ ١٢٥ - ١٣٢، مرآة الجنان ٢/ ٧٨، الوافى بالوفيات ١٧/ ٦٥٤ .

وطبقتهم. وبرع فى الفقة والعربية وأيام الناس. ولما كبر عُني بالفلسفة وعلوم الأوائل، ومهر فيها؛ فجرَّه ذلك إلى القول بخلق القرآن.

وكان من أتم رجال بنى العباس حزمًا وعزمًا، وحلمًا وعلمًا، ورأيًا ودهاءً، وهيبةً وشجاعةً، وسؤددًا وسماحة. وله محاسن وسيرة طويلة. وبرع فى معرفة التاريخ وفنون الأدب، وكان يضرب المثل بحلمه.

وامتحن العلماء فى زمانه، وكان يجبرهم على القول بخلق القرآن.

قال فى المسامرة: بايع المأمون على الرضا فى شهر رمضان سنة إحدى ومائتين، وجعله ولى عهده من بعده، ولبس الخضرة ونوه بذكره، فغضب بنو العباس بالعراق لهذين الأمرين وخلعوه، وبايعوا عمه إبراهيم بن المهدى ولقبوه المبارك، فحاربه الحسن بن سهل، فهزمه إبراهيم وألحقه بواسط، وأقام إبراهيم بالمدائن. ثم سير المأمون إليه جيشًا آخر فهزموه، فاختفى وانقطع خبره إلى أن ظهر فى وسط خلافة المأمون فعفا عنه، وله سيره مبسوطة مذكورة، ومات على الرضا - رضي الله تعالى عنه - سنة ثلاث ومائتين، فرجع المأمون سنة أربع ومائتين إلى لبس السواد كعادته وعادة آبائه.

قال الحافظ الذهبى[1]: قال ابن أبى الدنيا: وكان المأمون أبيض، ربعة حسن الوجه، تعلوه صفرة، قد وَخَطَهُ الشيب[2] أعين ، طويل اللحية ، دقيقها ، ضيق الجبين ، على خده خال ، وقال الجاحظ : أبيض فيه صفرة، وكان ساقاه دون جسده صفراوين؛ كأنما طليا بالزعفران، أمه أم ولد اسمها مراجل، ماتت أيام نفاسها به، وكان فصيحًا مفوهًا، وكان يقول: معاوية بعمرو، وعبد الملك بحجاجه، وأنا بنفسى. وقد رويت هذه الكلمة عن المنصور. وكان نقش خاتم المأمون عبد الله بن عبيد الله. وروى أنه ختم فى بعض الرمضانات ثلاثًا وثلاثين ختمة.

وقال الحسين بن فهم الحافظ: حدثنا يحيى بن أكثم قال: قال لى المأمون: أريد أن أحدث، قال: ومن أولى بهذا من أمير المؤمنين ؟ فقال: ضعوا لى منبرًا. ثم صعد، فأول حديث حدثنا عن هشيم عن أبى هشيم عن أبى الجهم عن الزهرى عن

---

(١) ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبى ١٠/ ٢٧٣، تاريخ بغداد ١٠/ ١٨٤، فوات الوفيات ٢/ ٢٣٥، النجوم الزاهرة ٢/ ٢٢٥ .

(٢) وخطه الشيب: فشا وانتشر . ينظر : ترتيب القاموس (وخط)

أبى سلمة عن أبى هريرة - فرفع الحديث - قال: « امرؤ القيس صاحب لواء الشعر إلى النار »[١] ثم حدث بنحو ثلاثين حديثًا ثم نزل. فقال لى: كيف رأيت يا يحيى مجلسنا ؟ قلت: أجل مجلس يفقه الخاصة والعامة. فقال: ما رأيت لكم حلاوة، إنما المجلس لأصحاب الخلقان والمحابر[٢].

وقال السراج: حدثنا سهل بن عساكر قال: تقدم رجل غريب بيده محبرة إلى المأمون فقال: يا أمير المؤمنين، صاحب حديث منقطع به. فقال: ما تحفظ فى باب كذا ؟ فلم يذكر الرجل فيه شيئًا، قال: فمازال المأمون يقول: حدثنا هشيم، وحدثنا يحيى، وحدثنا حجاج، فذكر الباب، ثم سأله عن باب آخر فلم يذكر فيه شيئًا، فقال المأمون: حدثنا فلان، وحدثنا فلان، إلى أن قال لأصحابه: يطلب أحدهم الحديث ثلاثة أيام، ثم يقول أنا من أصحاب الحديث ! ! أعطوه ثلاث دراهم[٣]. ومع هذا فكان المأمون مسرفًا فى الكرم جوادًا ممدحًا، جاء عنه أنه فرق فى ساعة واحدة ستة وعشرين ألف ألف درهم. وجاء أنه مدحه أعرابى مرة فأجازه بثلاثين ألف دينار.

وأما ذكاؤه وعلمه فروى محمد بن عون عن أبى عيينة أن المأمون جلس فجاءته امرأة فقالت: يا أمير المؤمنين مات أخى وخلف ستمائة دينار، فأعطونى دينارًا واحدًا، وقالوا: هذا نصيبك. فحسب المأمون وقال أيضًا: هذا نصيبك، هذا أخوك خلف أربع بنات، قالت: نعم، قال: لهن أربعمائة دينار، وخلف والدة لها مائة دينار، وخلف زوجة فلها خمسة وسبعون دينارًا، بالله ألك اثنا عشر أخا ؟ قالت: نعم. قال: لكل واحد ديناران ولك دينار واحد.

وقال ابن الأعرابى: قال لى المأمون: أخبرنى عن قول هند بنت عتبة: [من الرجز]

نَحنُ بناتُ طارقْ   نمشِى على النمارِقْ

من طارق هذا ؟ قال: فنظرت فى نسبها فلم أجده، فقلت: ما أعرف. فقال المأمون: إنما أرادت النجم، انتسبت إليه بحسنها. ثم رمى إلى بعنبرة فى يده فبعتها

(١) أخرجه أحمد (٢/٢٢٨) من حديث أبى هريرة .

(٢) ينظر فوات الوفيات ٢/٢٣٦، والخلقان جمع خَلَق، يقال: ثوب خلق، وملحفة خلقة والجمع خُلقان وفى ط: الحلقات .

(٣) ينظر فوات الوفيات ٢/٢٣٧، تاريخ الخلفاء ٣٣١ - ٣٣٢، سير أعلام النبلاء ١٠/٢٧٦ .

بخمسة آلاف درهم.

وقال أبو معشر المنجم: كان المأمون أمارًا بالعدل، محمود السيرة، ميمون النقيبة، فقيه النفس، يعد من كبار العلماء. وعن الرشيد والده قال: إنى لأعرف فى عبد الله حزم المنصور، ونسك المهدى، وعزة الهادى، ولو أشاء لأنسبه إلى الرابع - يعنى نفسه - لنسبته، وقد قدمت محمدًا عليه وإنى لأعلم أنه ينقاد إلى هواه، مبذر لما حوته يده، يشاركه فى رأيه الإماء والنساء، ولولا أم جعفر - يعنى زبيدة - وميل بنى هاشم إليه لقدمت عبد الله عليه.

وعن المأمون قال: لو عرف الناس حبى للعفو، لتقربوا إلى بالجرائم، وأخاف ألا أوجر فيه. يعنى لكونه طبعًا له. وعن يحيى بن أكثم قال: كان المأمون يحلم حتى يغيظنا. وذكر أن ملاحًا مر به المأمون، فقال الملاح: أتظنون أن هذا نَبل فى عينى وقد قتل أخاه الأمين ؟ لا والله. فسمعها المأمون فتبسم وقال: ما الحيلة حتى أنبل فى عينى هذا السيد الجليل ؟!

وعنه قال: كان المأمون يجلس للمناظرة فى الفقه يوم الثلاثاء، فجاء رجل عليه ثياب قد شمرها، ونعله فى يده، فوقف على طرف البساط وقال: السلام عليكم، فرد المأمون السلام، فقال: أتأذن لى فى الدنو ؟ قال: ادن وتكلم. فقال: أخبرنى عن المجلس الذى أنت فيه، جلسته باجتماع الأمة أم بالمغالبة والقهر؟ قال المأمون: لا بهذا ولا بهذا، بل كان يتولى أمور الناس(١) من عقد لى ولأخى، فلما صار الأمر إلىَّ علمت أنى محتاج إلى اجتماع كلمة المسلمين فى الشرق والغرب على الرضا بى فرأيت أنى متى تخليت عن الأمر اضطرب حبل الإسلام وتنازعوا [ومرج عهدهم](٢) وبطل الجهاد والحج وانقطعت السبل، فقمت حياطة للمسلمين إلى أن يجمعوا على رجل يرضون به فأسلم إليه الأمر، فمتى اتفقوا على رجل خرجت له من الأمر. فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وذهب. فوجه المأمون من يكشف خبره فرجع فقال: يا أمير المؤمنين مضى إلى مسجد فيه خمسة عشر رجلاً فى مثل هيئته، فقالوا له: أتيت(٣) الرجل ؟ قال: نعم، وأخبرهم بما جرى، فقالوا: ما نرى بما قال

---

(١) فى تاريخ الإسلام: أمر المؤمنين.
(٢) المثبت من تاريخ الإسلام.
(٣) فى تاريخ الإسلام: ألقيت.

بأسًا، وافترقوا. فقال المأمون: كفينا مؤنة هؤلاء بأيسر الخطب[1].

وأتى برجل من الخوارج فقال له: ما حملك على الخروج والخلاف ؟ قال ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤]، فقال له المأمون: ألك علم بأنها منزَّلة ؟ قال: نعم. قال: ما دليلك ؟ قال: إجماع الأمة. قال: فكما رضيت بإجماعهم فى التنزيل، فارض بإجماعهم فى التأويل. قال: صدقت، السلام عليك يا أمير المؤمنين.

وعن إسحاق الموصلى قال: كان المأمون قد سخط على الحسين بن الضحاك الملقب بالخليع الشاعر لكونه هجاه عندما قتل الأمين، قال إسحاق: فبينما أنا ذات يوم عند المأمون إذ دخل الحاجب برقعة فاستأذن فى إنشادها فأذن له فقال: [من الطويل]

أَجِزْنِي فإنِّى قد ظَمِئْتُ إلى الوِرْدِ ... متَى تنجزِ الوعدَ المؤكَّد بالعَهْدِ
أعيذُكَ من خُلْفِ الملوكِ فقد ترَىٰ ... تقطُّعَ أنفاسى عَلَيْكَ من الوَجْدِ
أيبخَلُ فردُ الحُسْنِ عنِّى بنائِلٍ ... قَلِيلٍ وقَدْ أفردتُّهُ بهوًى فَرْدِ ؟!

إلى أن قال:

رأى اللَّهُ عَبْدَ اللَّهِ خَيْرَ عبادِهِ ... فملَّكه، واللَّهُ أعلمُ بالعَبْدِ
ألاَ إنما المأمونُ للناسِ عصمةٌ ... مُمَيِّزَةٌ بين الضلاَلَةِ والرشدِ

فقال له: أحسنت. قال: يا أمير المؤمنين أحسن قائلها. قال: ومن هو ؟ قال: عبدك الحسين بن الضحاك. فقال: لا حياه الله ولا بياه، أليس هو القائل: [من الطويل]

فلا تَمَّتِ الأشياءُ بعد محمَّدٍ ... ولا زالَ شمْلُ الملكِ فيها مبدَّدَا
ولا فَرِحَ المأمونُ بالمُلْكِ بعدَهُ ... ولا زالَ فى الدنيا طريدًا مشرَّدَا

هذه بتلك فلا شيء له عندنا. قال الحاجب: فأين عادة عفو أمير المؤمنين ؟ قال: أما هذه فنعم، ائذنوا له. فدخل، فقال: هل عرفت يوم قتلِ أخى هاشمية هتكت ؟ قال: لا. قال: فما معنى قولك: [من الطويل]

ومما شَجَىٰ قَلْبِى وكَفْكَفَ عَبْرَتِي ... محارمُ مِنْ آلِ الرسولِ استُحِلَّتِ

(١) ينظر: تاريخ الإسلام حوادث ٢١١هـ (ص٢٣٤).

ومهتوكة بالجلْدِ عنها سجوفها كعاب كقرنِ الشمسِ حين تبدَّتِ
فلا باتَ ليلُ الشامتِينَ بغبطةٍ ولا بلَغَتْ آمالها ما تمنَّتِ

فقال: يا أمير المؤمنين لوعة غلبتنى، وروعة فاجأتنى، ونعمة سلبتها بعد أن غمرتنى. فإن عاقبت فبحقك، وإن عفوت فبفضلك. فدمعت عينا المأمون وأمر له بجائزة.

حكى الصولى أنه كان يحب اللعب بالشطرنج، واقترح فيه شيئًا، وكان ينهى أن يقول الشخص: تعال نلعب، ويقول: بل نتناقل، ولم يكن به حاذقًا. وكان يقول: أنا أدبر الدنيا وأتسع لها، وأضيق عن تدبير شبرين. وله فيه: [من البسيط]

أرضٌ مُرَبَّعَةٌ حمراءُ مِنْ أَدمٍ مَا بين إِلْفَيْنِ معروفَيْنِ بالكَرَمِ
تذاكرا الحَرْبَ فَاحْتَالاَ لها حِيَلاً مِنْ غيرِ أَنْ يأْثما فيها بِسَفْكِ دَمِ
هذا يُغِيرُ على هذا، وَذَاكَ عَلىٰ هذا يُغِيرُ، وَعَين الحَزْمِ لَمْ تَنَمِ
فَانْظُرْ إلى فِطَنٍ جَالَتْ بِمَعْرِفَةٍ فى عَسْكَرَيْنِ بلا طَبْلٍ ولا عَلَمِ

ونظر المأمون إلى عمه إبراهيم بن المهدى - وكان يلقب بالتنين لسمنه - فقال له: ما أظنك عشقت قط. ثم أنشد: [من السريع]

وَجْهُ الَّذِى يَعْشَقُ مَعْروفُ لِأَنَّهُ أَصْفَرُ مَنْحُوفُ
لَيْسَ كَمَنْ يَأْتِيكَ ذَا جُثَّةٍ كَأَنَّهُ لِلذَّبْحِ مَعْلُوفُ

وعن المأمون قال: ما أعيانى قط جواب إلا جواب ثلاثة: صرت إلى أم ذى الرياستين الفضل بن سهل أعزيها فيه فقلت: لا تأسى عليه، فإنى عوضه لك. قالت: يا أمير المؤمنين، كيف لا أحزن على ولد أكسبنى مثلك ؟!. وأتيت بمتنبىء فقلت له: من أنت ؟ قال: أنا موسى بن عمران. قلت: ويحك! موسى له آيات، فائتنى بها حتى أومن بك. قال: إنما أتيت بهذه المعجزات لفرعون إذ قال: « أنا ربكم الأعلى » فإن قلت ذلك أتيتك بالآيات. قال: وأتى أهل الكوفة يشكون عاملهم، فقال خطيبهم: هو شر عامل؛ أما فى أول سنة فإنا بعنا الأثاث، وفى الثانية بعنا العقار[1]، وفى الثالثة نزحنا عن بلادنا، وأتيناك نستغيث. فقلت: كذبت، بل هو رجل قد حمدت مذهبه، ورضيت دينه فاخترته معرفة بكم، وقد تقدم سخطكم على

---

(١) فى تاريخ الإسلام: الضياع .

العمال غير مرة. قال: صدقت يا أمير المؤمنين، وكذبت أنا، فقد خصصتنا به هذه المدة دون باقى البلاد، فاستعمله على بلد آخر يشملهم من عدله وإحسانه[١] مثل الذى شملنا. فقلت: قم فى غير حفظ الله، قد عزلته عنكم[٢].

وكان قدوم المأمون من خراسان إلى بغداد فى صفر سنة أربع ومائتين، دخلها فى رابع صفر فى أبهة عظيمة وتجمل زائد، فكلمه العباسيون وغيرهم فى العود إلى لباس السواد وترك الخضرة، فتوقف، ثم أجاب إلى ذلك لما قال له بعض أهل بيته: إنك على أثر أولاد على بن أبى طالب، والأمر فيك أقدر منك على برهم والأمر فيهم. قال: إنما فعلت ما فعلت لأن أبا بكر لما ولى لم يول أحدًا من بنى هاشم شيئًا ثم عمر ثم عثمان كذلك، ثم لما ولى على ولي عبد الله بن عباس البصرة، وعبيد الله اليمن، ومعبدًا مكة، وقثم البحرين، وما ترك أحدًا منهم إلا ولاه شيئًا، وكانت هذه فى أعناقنا حتى كافأته فى ولده بما فعلت.

وفى سنة عشر بعد المائتين تزوج المأمون بوران بنت الحسن بن سهل، وقام بخلع للقواد وكلفتهم مدة سبعة عشر يومًا، وكتب رقاعًا فيها أسماء بضياع له، ونثرها على القواد والعباسيين، فمن وقعت فى يده رقعة باسم ضيعة تسلمها، ونثر صينية ملأى جواهر بين يدى المأمون عندما زفت إليه.

وفى سنة إحدى عشرة ومائتين أمر المأمون بأن ينادى: برئت الذمة ممن ذكر معاوية بخير، وأن أفضل الخلق بعد رسول الله ﷺ على بن أبى طالب.

وفى سنة اثنتى عشرة أظهر القول بخلق القرآن، ثم فى سنة ثمان عشرة امتحن العلماء بالقول بخلق القرآن، فكتب إلى نائبه بالعراق إسحاق بن الخزاعى ابن عم طاهر بن الحسين بذلك ليلزم العلماء ويحاجهم فى ذلك.

قال الحافظ الذهبى[٣]: قال إبراهيم بن محمد بن عرفة النحوى فى تاريخه: حكى أبو سليمان بن داود [بن] على، عن يحيى بن أكثم قال: كنت عند المأمون وعنده جماعة من قواد خراسان وقد دعا إلى خلق القرآن حينئذٍ، فقال لأولئك القواد: ما تقولون فى القرآن؟ قالوا: كان شيوخنا يقولون: ما كان فيه من ذكر

(١) فى تاريخ الإسلام: وإنصافه.
(٢) ينظر السابق (ص ١٣٨).
(٣) ينظر: تاريخ الإسلام للذهبى الطبقة الثانية والعشرون ص ٢٣٧، فوات الوفيات ٢/ ٢٣٨.

الحمير والجمال والبقر فهو مخلوق، وما كان فيه من سوى ذلك فهو غير مخلوق. فأما إذا قال أمير المؤمنين غير ذلك[١] فنحن نقول: كله مخلوق. فقلت للمأمون: أتفرح بموافقة هؤلاء ؟ !

ومن كلام المأمون: الناس ثلاثة: فمنهم مثل الغذاء لا بد منه على كل حال، ومنهم كالدواء يحتاج إليه فى حال المرض، ومنهم كالداء مكروه على كل حال. وكان يقول: لا نزهة ألذ من النظر فى عقول الرجال. وكان يقول: غلبة الحجة أحب إلى من غلبة القدرة؛ لأن غلبة الحجة لا تزول، وغلبة القدرة تزول بزوالها. وكان يقول: الملك يغتفر كل شيء إلا ثلاثًا: القدح فى الملك، وإفشاء السر، والتعرض للحرم.

وكان المأمون معروفا بالتشيع؛ روى عنه أبو داود المصاحفى قال: سمعت النضر ابن شميل يقول: دخلت على المأمون فقال لى: إنى قلت اليوم شعرًا فاسمعه، فقلت: هاته. قال: [من المنسرح]

أَصْبَحَ دِينِى الَّذِى أَدِينُ بِهِ وَلَسْتُ مِنهُ الغَدَاةَ مُعْتَذِرَا
حُبّ عَلِيٍّ بَعْدَ النبِىِّ وَلاَ أَشْتُمُ صِدِّيقَهُ وَلاَ عُمَرَا
وابنُ عفانَ فى الجِنَانِ مَعَ الْـ أَبْرَارِ ذَاكَ القَتِيلُ مُصْطَبِرَا
وعائِشُ الْأُمُّ لَسْتُ أَشْتُمُهَا مَنْ يَفْتَرِيهَا فَنَحْنُ منه بَرَا[٢]

ومن شعره: [من المتقارب]

لِسَانِى كَتُومٌ لِأَسْرَارِكُمْ وَدَمْعِى نَمُومٌ لِسِرِّى مُذِيعُ
فَلَوْلاَ دُمُوعِي كتمتُ الهَوَىٰ وَلَوْلاَ الهَوَىٰ لَمْ تَكُنْ لِى دُمُوعُ[٣]

وفى ابن خلكان[٤]: دخل النضر بن شميل على المأمون ليلة فتفاوضا الحديث، فروى المأمون عن هشيم بسنده إلى ابن عباس قوله ﷺ: « إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيه سداد من عوز »[٥] بفتح السين. فقال النضر: يا أمير

---

(١) فى تاريخ الإسلام: هو مخلوق .
(٢) ينظر: فوات الوفيات ٢/ ٢٣٨ .
(٣) ينظر: تاريخ الخلفاء ٣٣٣، تاريخ دمشق ٢٨٠ .
(٤) ينظر: وفيات الأعيان لابن خلكان ٥/ ٣٩٨ - ٣٩٩ .
(٥) ذكره الهندى فى كنز العمال (٤٤٥٢٠) وعزاه للشيرازى فى الألقاب عن على وابن عباس .

المؤمنين صدق هشيم، حدثنا فلان ابن فلان. . . إلى على بن أبى طالب، فذكر الحديث، فقال فيه: « سداد من عوز » وكسر السين، وكان المأمون متكئا فاستوى جالسًا وقال: كيف قلت، سِداد بكسر السين ؟ قلت: لأن السَّداد بالفتح ههنا لحن، فقال: أتلحننى ؟ قلت: إنما لحن هشيم فتبعه أمير المؤمنين، فقال: ما الفرق بينهم. قلت: السداد، بالفتح: القصد فى الدين والسبيل، وبالكسر: البلغة، وكان ما سددت به شيئا فهو سداد. فقال المأمون: أو تعرف العرب ذلك ؟ قلت: نعم، هذا العرجى يقول: [من الوافر]

أَضَاعُونِى وَأَىَّ فَتًى أَضَاعُوا لِيَوْمِ كَرِيهَةٍ وَسِدَادِ ثَغْرِ

فاستوى جالسًا وقال: قبح الله من لا أدب له. ثم أقبل على فقال: أخبرنى بأخلب بيت قالته العرب: قلت: قول ابن بيض فى الحكم بن مروان: [من المنسرح]

تَقُولُ لِى وَالعُيُونُ هَاجِعَةٌ أَقِمْ عَلَيْنَا يَوْمًا فَلَمْ أُقِمِ
مَتَى يَقُلْ صَاحِبُ السُّرَادِقِ هَا ذَا إبْنُ بيض بالبَابِ يَبْتَسِمِ
قَدْ كنت أسلمتُ فِيكَ مُقْتَبلاً فَهَاتِ أدخلْ وأَعْطِنِى سَلَمِي

فقال: لقد أحسن وأجاد، فأخبرنى بأنصف بيت قالته العرب، قلت: قول عروبة: [من الكامل]

إِنِّى وإن كان ابن عَمِّىَ وَاغِرًا لَمُدَاهِن من خلفهِ وَوَرَائِهِ
ومعده نَصْرِى وإن كان امْرأً مُتَبَاعدًا من أَرْضِهِ وَسَمائِهِ
فأكون وَالِى سِرِّهِ وأَصُونُه حَتَّى يحينَ علىَّ وَقْتُ أَدَائِهِ
وَإِذَا الحَوَادِثُ أَحْجَنَتْ بِسَوَامِهِ قَرَّبْتُ جلتَهَا إِلَىٰ جِرْبائِهِ
وَإِذَا دَعَا باسمى لِيَرْكبَ مَرْكبًا صعبًا ركِبْتُ لَهُ على سِيسَائِهِ
وَإِذَا رَأَيْتُ عليه بُرْدًا ناضرًا لَمْ يَلْقَنِى مُتَمنيا لِردَائِهِ

قال: لقد أحسن وأجاد، فأخبرنى عن أغرب بيت قالته العرب، قلت: قول راعى الإبل: [من المنسرح]

أَطْلُبُ مَا يَطْلُبُ الْكريم مِنْ الر رِّزْقِ لِنَفْسِى وَأُجْمِلُ الطَّلَبَا
وَأَطْلُبُ الدُّرَّةَ الصفاءَ وَلاَ أَطْلُبُ فى غَير خلفها جَلَبَا

إنى رأيتُ الفَتَى الكَريمَ إذَا رَغَّبتهُ فِى صَنِيعةٍ رَغِبَا
والنذْلَ لا يطلب العَلاَء وَلاَ يعطيكَ شَيْئًا إلا إذا رَهِبَا
مثلُ الحِمارِ المُوَاقِعِ السُّوءِ لاَ يُحْسِنُ مَشْيًا إلا إذا ضُرِبَا

فقال: والله لقد أحسن وأجاد، ودعا بالدواة فما أدرى ما يكتب. ثم قال: يا نضر كيف تقول فعل الأمر من الإتراب؟ فقلت: أقول أترب القرطاس والقرطاس متروب، قال: فكيف تقول من الطين؟ قلت: أقول طن الكتاب والكتاب مطين، قال: هذه أحسن من الأولى ثم دفَع ما كتب إلى خادم وجهه معى إلى الحسن بن سهل. فلما قرأ الفضل الرقعة قال: يا نضر، قد أمر لك بخمسين ألف درهم، فما كان السبب؟ فأخبرته، فأمر لى بثلاثين ألف درهم أخرى، فأخذت ثمانين ألف درهم بحرف واحدٍ استفيد منى.

وقد نادى المأمون بإباحة المتعة فلم يجسر أحد ينكر عليه، فروى له يحيى بن أكثم حديث الزهرى، عن ابنى الحنفية، عن أبيهما محمد بن على - رضى الله تعالى عنهما - أنه عليه الصلاة والسلام نهى عن متعة النساء يوم خيبر، فلما صح له الحديث رجع إلى الحق ونادى بإبطالها.

وأما مسألة خلق القرآن فصمم عليها ولم يرجع عنها فى سنة ثمان عشرة، وامتحن العلماء بها فعوجل ولم يمهل، توجه فى هذه السنة غازيًا إلى أرض الروم، فلما وصل إلى البذندون مرض واشتد به المرض، فأوصى بالخلافة إلى أخيه المعتصم بن الرشيد، وأما المؤتمن المعقود له العهد بعده فقد كان خلعه قبل حين، وجعل الرضى مكانه فيما تقدم سنة إحدى ومائتين، فلما ورد نزل على عين البذندون فأقام هناك واعتل.

قال المسعودى(١): أعجبه برد ماء العين وصفاؤها وطيب الموضع وكثرة الخضرة، وقد طرح له درهم فى العين فقرأه فيها لفرط صفائها، ولم يقدر أحد أن يسبح فيها لشدة بردها، فرأى سمكة نحو الذراع كأنها الفضة فجعل لمن يخرجها سيفًا، فنزل فراش فاصطادها وطلع، فاضطربت وفرت إلى الماء، فنضح صدر المأمون ونحره وابتل ثوبه، ثم نزل الفراش ثانية فأخذها فقال المأمون: يقلى

---

(١) ينظر: مروج الذهب ٤/ ٤٣ - ٤٥، وانظر نحوه فى الهفوات النادرة ١٨٣ - ١٨٥ .

الساعة، ثم أخذته رعدة وتغطى باللحف وهو يرتعد ويصيح، فأوقدت حوله نار، ثم أتى بالسمكة فما ذاقها لشغله بحاله، ثم أفاق من غمرته فسأل عن تفسير اسم المكان بالعربى فقيل له: مد رجليك، فتطير به، وسأل عن تفسير البقعة قيل: الرقة، وكان فيما علم من مولده أنه يموت بالرقة فكان يتجنب نزول الرقة، فلما سمع هذا من الروم عرف وأيس وقال: يا من لا يزول ملكه، ارحم من زال ملكه، وأجلس المعتصم عنده من يلقنه الشهادة، فرفع الرجل بها صوته، فقال له ابن ماسويه: لا تصح، فوالله ما يفرق الآن بين ربه وبين مانى.

ففتح المأمون عينيه وبهما من عظم الورم والحمرة أمر شديد، وأقبل يحاول بيديه البطش بابن ماسويه، ورام مخاطبته فعجز، فرمز بطرفه نحو السماء وقد امتلأت عيناه دموعًا وقال فى الحال: يا من لا يموت، ارحم من يموت، ثم قضى فى يوم الخميس لاثنتى عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ثمان عشرة ومائتين، فنقله ابنه العباس وأخوه المعتصم إلى طرسوس، فدفن هناك.

ولما ورد خبر وفاته بغداد قال أبو سعيد المخزومى: [من الخفيف]

هَلْ رَأَيْتَ النُّجُومَ أَغْنَتْ عَنِ الْمأْ ... مُونِ يَوْمًا أَوْ ملكه[1] المأسوس

خَلَّفُوهُ بِعَرْصَتَىْ طَرَسُوس ... مِثْلَ مَا خَلَّفُوا أَبَاهُ بِطُوسِ

حدث محمد بن أيوب أمير البصرة للمأمون قال: كان بالبصرة رجل من بنى تميم، شاعر أديب، كنت آنس به، فأردت نفعه فقلت: خليفتنا المأمون أجود من السحاب الحافل والريح العاصف، وإنى موفدك عليه، فدعا لى، فأعطيته نجيبًا ونفقة، ثم عمل أرجوزة لطيفة ذكرنى فيها فاستحسنتها، وخرج إلى الشام والمأمون بـ « سلغوس »[2] ثم أخبرنى بعد ذلك فقال: بينا أنا فى غداة قرة على نجيبى وأنا أريد العسكر، إذا أنا بكهل على بغل فاره ما يقر قراره ولا تدرك خطاه، فتلقانى مواجهة فقال: السلام عليك، بكلام جهورى وقال: قف إن شئت. فوقفت، فتضوعت منه رائحة المسك، فقال: ممن أنت ؟ فقلت: رجل من مضر، فقال: ونحن من مضر، قال: ثم ممن ؟ قلت: من تميم من بنى سعد، فقال: هيه ما أقدمك ؟ قلت: قصدت

---

(١) فى ط: هلكه . والمثبت من المروج.
(٢) سلغوس: حصن فى بلاد الثغور بعد طرسوس . ينظر : المراصد (٢/ ٧٢٨).

هذا الخليفة الذى ماسمعت بمثله أندى راحة ولا أوسع ساحة ولا أطول باعًا ولا أمد يفاعًا، وقد قصدته بشعر يلذ على أفواه الرواة، ويحلو فى آذان المستمعين. قال: فأنشدنيه، فمضيت وقلت: يا ركيك، أخبرك بشعر قلته فى الخليفة ومديح حبرته فيه ؟ فقال: وما تأمل منه ؟ قلت: إن كان على ما ذكر لى فألف دينار. قال: فأنا أعطيك ألف دينار إن رأيت الشعر جيدًا، ومتى تصل إليه وبينك وبينه عشرون ألف رامح ونابل، فقلت له: أمعك مال ؟ قال: بغلى هذا خير من ألف دينار، أنزل لك عن ظهره، فقلت: ما يساوى هذا البغل هذا النجيب ؟ فقال: دع عنك هذا ولك الله أن أعطيك ألف دينار، فأنشدته الأرجوزة وقلت: [من الرجز]

مَأْمُونُ يَا ذَا المِنَنِ الشَّرِيفَهْ وَصَاحِبَ المَرْتَبَةِ المُنِيفَهْ
وَقَائِدَ الْكَتِيبَةِ الْكَثِيفَهْ هَلْ لَكَ فِى أُرْجُوزَةٍ ظَرِيفَهْ
أَظْرَفَ مِنْ فِقْهِ أَبِى حَنِيفَهْ لاَ وَالَّذِى أَنْتَ لَهُ خَلِيفَهْ
مَا ظَلَمَتْ فِى أَرْضِنَا عَفِيفَهْ أَمِيرنَا مُؤْنَتُهُ خَفِيفَهْ
ومَا اجْتَنَىٰ شَيْئًا سِوَى الوَظِيفَهْ فَالذِّئْبُ وَالنَّعْجَةُ فِى سَقِيفَهْ
وَاللِّصُّ وَالتَّاجِرُ فِى قَطِيفَهْ

قال: فوالله ما أتممتها حتى غشينا زهاء عشرة آلاف فارس قد سدوا الأفق يقولون: السلام عليك يا أمير المؤمنين، فأخذنى شبه جنون، فنظر إلى وقال: لا بأس عليك، قلت: أمعذرى أنت ؟ قال: نعم، ثم التفت إلى خادم وقال: أعطه ما معك، فأخرج كيسًا فيه ثلاثة آلاف دينار ذهبًا وقال: هاك، سلام عليك، ومضى. ورجعت إلى بلدى مسرورًا.

فى المسامرة لابن عربى: أشرف المأمون من قصره فرأى رجلاً قائما وبيده فحمة، وهو يكتب بها على حائط قصره، فأمر المأمون بعض خدمه أن يذهب إليه فينظر ما كتب ويأتيه به، فبادر الخادم إلى الرجل مسرعًا وقبض عليه وتأمل الكتاب وإذا هو: [من البسيط]

يَا قَصْرُ جُمِّعَ فيكَ الشُّؤم واللُّومُ مَتَى تُعَشِّشُ فى أَرْجَائِكَ البُومُ
يَوْمَ تُعَشِّشُ فيكَ البُومُ مِنْ فَرَحِي أَكُونُ أَولَ مَنْ يَرْعَاك مَرْغُومُ

ثم إن الخادم قال للرجل: أجب أمير المؤمنين. فقال له: سألتك بالله لا تذهب

بى إليه، فقال الخادم: لا بد من ذلك. فلما مثل بين يديه أعلمه الخادم بما كتبه، فقال له المأمون: ويلك ما حملك على هذا ؟ قال: يا أمير المؤمنين، إنه لن يخفى عليك ما حواه قصرك من خزائن الأموال، والحلى والحلل، والطعام والشراب، والفرش والأوانى، والأمتعة والجوارى، والخدم، وغير ذلك مما يقصر عنه وصفى، ويعجز عنه فهمى، وإنى يا أمير المؤمنين قد مررت عليه الآن وأنا فى غاية الجوع والفاقة، فوقفت مفكرًا فى أمرى، وقلت فى نفسى: هذا القصر عامر عال، وأنا جائع، ولا فائدة لى فيه، ولو كان خرابًا وأنا مررت به لم أعدم منه رخامة أو خشبة أو مسمارًا أبيعه وأتقوت بثمنه. أوَمَا علم أمير المؤمنين ما قال الشاعر ؟! فقال المأمون: وما قال الشاعر ؟ فقال : قال [من الطويل]

إِذَا لم يَكُنْ للمَرْءِ فى دولةِ آمْرِئٍ ... نصيبٌ وَلاَ حَظٌّ تَمَنَّىٰ زَوَالَهَا

وَمَا ذَاكَ مِنْ بُغْضٍ لها، غَيْرَ أَنَّهُ ... يُرَجِّى سِوَاها فَهْوَ يهوىٰ زَوَالَهَا

فقال المأمون: يا غلام، أعطه ألف دينار. ثم قال: هى لك كل سنة ما دام قصرنا عامرًا بأهله. وفى مثل هذا المعنى قال الشاعر: [من الطويل]

إِذَا كنتَ فِى أَمْرٍ فَكُنْ فيه مُحْسِنًا ... فَعَمَّا قَليلٍ أَنْتَ مَاضٍ وَتَارِكُهْ

وَكَمْ دَحَتِ الأَيَّامُ أربابَ دَوْلَةٍ ... وَقَدْ مَلَكُوا أضعافَ مَا أَنْتَ مَالِكُهْ

كانت مدة خلافته عشرين سنة وخمسة أشهر وسبعة وعشرين يومًا، وعمره ثمان وأربعون سنة وأربعة أشهر، ومن شعر المأمون فى آل البيت قوله: [من الوافر]

وَكَمْ غَاوٍ يَعَضُّ عَلَيَّ غَيْظًا ... إِذَا أَدْنَيْتُ أَبْنَاءَ الوَصِيِّ

يحاولُ أَنَّ نورَ الله يُطْفَىٰ ... وَنُورُ اللَّهِ فى حِصْنٍ أَبِيِّ

فقلتُ أَلَيسَ قَدْ أُوتيتَ عِلْمًا ... وَبَانَ لَكَ الرشيدُ مِن الْغَوِيِّ

وَعُرِّفْتَ احتِجَاجى بالمَثَانِي ... وَبِالمَعْقُولِ وَالأَثَرِ القَوِيِّ

بِأَيَّةِ خلَّةٍ وبِأَيِّ مَعْنَى ... تُفَضِّلُ مُلْحِدِينَ عَلَىٰ عَلِيِّ

عليٌّ أَعْظَمُ الثَّقَلينِ حَقًّا ... وأفضَلُهم سِوَىٰ حَقِّ النبيِّ

رحمه الله تعالى !.

* * *

خلافة المعتصم(١)

أمير المؤمنين، أبو إسحاق، محمد بن هارون الرشيد، ولد سنة ثمانين ومائة وأمه أم ولد اسمها ماردة، بويع بعد المأمون بعهد منه إليه فى رابع عشر رجب سنة ثمان عشرة ومائتين، وكان أبيض، أصهب اللحية طويلها، ربع القامة، مشرب اللون، ذا شجاعة وهمة عالية، وقوة مفرطة، قال نفطويه: حدثت أنه أدخل زند رجل بين إصبعيه فكسره، وكان يحمل ألف رطل فيمشى بها خطوات، ويفحص الدينار فيمحو سكّته بواحدة.

وكان أميًّا لا يحسن الكتابة. روى الصولى قال: كان للمعتصم غلام فى الكتاب يتعلم معه فمات ذلك الغلام، فقال له الرشيد أبوه: مات غلامك ؟ قال: نعم يا سيدى، واستراح من الكتاب. فقال الرشيد له: وإن الكتاب ليبلغ منك هذا ؟ دعوه ولا تعلموه. وكان يقرأ ويكتب قراءة وكتابة ضعيفة(٢).

قال العلامة البهوتى: ذكر أبو الفضل الرياشى كتب ملك الروم - لعنه الله - إلى المعتصم يتهدده، فأمر بجوابه. فلما قرئ عليه الجواب لم يرضه، وقال للكاتب اكتب:

بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد، فقد قرأت كتابك، وفهمت خطابك، والجواب ما ترى لا ما تسمع، وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار(٣).

قال أبو بكر الخطيب: غزا المعتصم بلاد الروم سنة ثلاث وعشرين ومائتين،

---

(١) ينظر [المعتصم] في: شذرات الذهب ٢/٦٣، الكامل لابن الأثير ٦/ ٥٢٥، المعارف لابن قتيبة ٣٩٢، الأخبار الطوال ٤٠١، البدء والتاريخ ٦/ ١١٤، تاريخ اليعقوبى ٣/ ١٩٧، تاريخ الطبرى ٩/ ١١٨ - ١٢٣، العبر ١/ ٤٠٠ - ٤٠٢، سير أعلام النبلاء ١٠/ ٢٩٠، تاريخ بغداد ٣/ ٣٤٢، فوات الوفيات ٤/ ٤٨، الذهب المسبوك ٢٢١، النجوم الزاهرة ٢/ ٢٥٠، الوافى بالوفيات ٥/ ١٣٩، البداية والنهاية ١٠/ ٢٩٥، تاريخ بغداد ٣/ ٣٤٢، تاريخ الخلفاء ٣٣٤، تاريخ خليفة ٤٧٥، المحبر ٤٢، نسب قريش ٢٧٢، نثر الدر ٣/ ٤٤، الأذكياء لابن الجوزى ٢٠٢، تاريخ الخميس ٢/ ٣٣٦، تاريخ ابن خلدون ٣/ ٢٥٦ - ٢٧٠، مرآة الجنان ٢/ ٩٤، دول الإسلام ١/ ١٣٧ .

(٢) ينظر: سير أعلام النبلاء ١٠/ ٢٩١، تاريخ بغداد ٣/ ٣٤٣، فوات الوفيات ٤/ ٤٩، تاريخ الخلفاء ٣٣٤ .

(٣) ينظر: تاريخ بغداد ٣/ ٣٤٤، سير أعلام النبلاء ١٠/ ٢٩١، البداية والنهاية ١٠/ ٢٩٦ .

فأنكى فى العدو نكاية عظيمة، ونصب على عمورية المجانيق وفتحها، وقتل ثلاثين ألفًا وسبى مثلها، وكان فى سبيه ستون بطريقًا ثم أحرقها، وهى من أَجَلِّ فتح وقع فى الإسلام. وسبب ذلك - على ما ذكره أهل التواريخ - أن رجلاً وقف على المعتصم حال شربه وقال: يا أمير المؤمنين كنت بعمورية وجارية من أحسن النساء أسيرة قد لطمها على وجهها علج فقالت: وامعتصماه. فقال لها العلج: عساه أن يأتيك على خيل بلق، فلما سمع المعتصم كلامه أمر بالختم على الكأس وقال: وقرابتى من رسول الله ﷺ لا شربته حتى أغزوه فأنتقذها. ثم استجاش وسار إليه على الخيل البلق - كما قال الحافظ الذهبى(١). ولما تجهز المعتصم لفتح عمورية حكم المنجمون أن ذلك الوقت طالع نحس وأنه يكسر، فكان من ظفره ونصره ما لم يخف. فقال فى ذلك أبو تمام الطائى حبيب بن أوس قصيدته البديعة البائية، وهى:

[من البسيط]

أَلسَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءً مِنَ الكُتُبِ ... فِى حَدِّه الحَدُّ بَين الجِدِّ واللعِبِ

بِيضُ الصَّفَائِحِ لاَ سُودُ الصَّحَائِفِ فِي ... مُتُونِهِنَّ جَلاَءُ الشَّكِّ والرِّيَبِ

والعِلْمُ فى شُهُبِ الأَرْمَاحِ لاَمِعَةً ... بَين الخَمِيسَينِ لاَ فى السَّبْعَةِ الشُّهُبِ

أَيْنَ الرِّوَايَةُ بَلْ أَيْنَ النُّجُومُ وَمَا ... صَاغُوهُ مِنْ زُخْرُفٍ فِيهَا وَمِنْ كَذِبِ

تخرُّصًا وَأَحَادِيثًا مُلَفَّقَةً ... لَيْسَتْ بِنَبْعٍ إِذَا عُدَّتْ وَلاَ غَرَبِ

عَجَائِبًا زَعَمُوا الأَيَّامَ مُجْفِلَةً ... عَنْهُنَّ فِى صَفَرِ الأَصْفَارِ أَوْ رَجَبِ

وَخَوَّفُوا النَّاسَ مِنْ دَهْيَاءَ مُظْلِمَةٍ ... إِذَا بدا الكَوْكَبُ الغَرْبِيُّ ذُو الذَّنَبِ

وَصَيَّروا الأَبْرُجَ العلْيَا مُرتبةً ... مَا كَانَ مُنْقَلِبًا أَوْ غيرَ مُنْقَلِبِ

يَقْضُونَ بِالأَمْرِ عَنْهَا وَهْى غَافِلَةٌ ... مَا دَارَ فِى فَلَكٍ مِنْهَا وَفِى قُطُبِ

لَوْ بَيَّنَتْ قَطُّ أَمْرًا قَبْلَ مَوْقِعِهِ ... لَمْ تُخْفِ مَا حَلَّ بالأَوْثَانِ وَالصُّلُبِ

فَتْحِ الفُتُوحِ تَعَالَى أَنْ يُحِيطَ بِهِ ... نَظْمٌ مِنَ الشِّعْرِ أَوْ نَثْرٌ مِنَ الخُطَبِ

فَتْحٌ تَفَتَّحُ أبوابُ السَّماءِ لَهُ ... وَتَبْرُزُ الأَرْضُ فِى أَثْوابِهَا القُشُبِ

يَا يَوْمَ وَقْعَةِ عَمُّورِيَّةَ انْصَرفَتْ ... مِنْكَ المُنَى حُفَّلاً مَعْسُولَةَ الحلب

أَبْقَيْتَ جَدَّ بَنى الإِسْلاَمِ فى صَعَدٍ ... والمُشْرِكِينَ وَدَارَ الحَرْبِ فِى صَبَبِ

---

(١) ينظر: سير أعلام النبلاء ١٠/٣٠٣ .

أُمٌّ لَهُمْ لَوْ رَجَوْا أن تُفْتَدَى جعلُوا فِـدَى لَـهَـا كـلَّ أمٍّ بـرَّةٍ وَأَبِ
وَبرْزَةُ الوَجْهِ قَدْ أَعْيتْ رِيَاضَتُها كِسْرَى وَصَدَّتْ صُدودًا عن أبى كَرِبِ
بِكْرٌ فَمَا افْترَعَتْهَا كَفُّ حَادِثَةٍ وَلاَ تَرقَّتْ إِليها هِمَّةُ النُّوبِ
مِنْ عَهْد إِسكندرٍ أَوْ قبلَ ذلكَ قَدْ شَابَتْ نَوَاصِى اللَّيَالِي وَهْىَ لَمْ تَشِبِ
حَتَّى إِذَا مَخَّضَ اللهُ السِّنينَ لَهَا مَخْضَ الحَلِيبَةِ كَانَتْ زُبْدَةَ الحِقَبِ
أَتـتْهُـمُ الكُـرْبَـةُ السَّـوْدَاءُ سَادِرَةً مِنها وَكَانَ اسْمُهَا فَرَّاجَةَ الكُرَبِ
جَرَى لَهَا الفَأْلُ نَحسًا يَوْمَ أَنْقرةٍ إِذْ غُودِرَتْ وَحْشَةَ السَّاحَاتِ وَالرحَبِ
لمَّا رَأَتْ أُختَها بالأَمْسِ قَدْ خَرِبَتْ كَانَ الخَرَابُ لها أَعْدَى مِنَ الجَرَبِ
كَمْ بينَ حِيطَانِها مِنْ فارِسٍ بَطَلٍ قَانِى الذَّوائِبِ مِنْ آنِى دَم سَرِبِ
بِسُنَّةِ السَّيفِ والخَطِّىّ مِنْ دَمِهِ لاَ سُنَّةِ الدِّينِ والإِسْلاَمِ مُخْتَضِبِ
لَقَدْ تركْتَ - أَميرَ المؤمِنِينَ - بِهَا لِلنَّارِ يَوْمًا ذَلِيلَ الصَّخْرِ والخَشَبِ
غادرْتَ فيهم بَهِيمَ اللَّيْلِ وَهْو ضُحَى بِثُلَّةٍ وَسْطَها صُبْحٌ مِنَ اللَّهَبِ
حَتَّى كأَنَّ جَلابِيبَ الدُّجَىٰ رَغِبَتْ عَنْ لَونِهَا، وَكَأَنَّ الشَّمْسَ لم تَغِبِ
ضوءٌ مِنَ النَّارِ والظَّلْمَاءُ عَاكِفَةٌ وَظُلمَةٌ مِنْ دُخَانٍ فِى ضُحَى شَحِبِ
فالشَّمْسُ طالعةٌ مِنْ ذَا وَقَدْ أَفلَتْ وَالشَّمْسُ وَاجِبَةٌ فِى ذَا وَلَمْ تَجِبِ
تَكَشَّفَ[١] الدَّهْر تصريح الغمام لَهَا عَنْ يَوْم هيجاءَ منها طَاهِرٍ جلبِ
لم تَطْلُعِ الشَّمْسُ منه يَوْمَ ذاك عَلَىٰ بَانٍ بأَهْلٍ وَلَمْ تَغْرُبْ عَلَى عَزَبِ
مَا رَبْعُ مَيَّةَ مَعْمُورًا يُطِيفُ بِهِ غَيْلاَنُ أَبْهَى رُبًى مِنْ رَبْعِهَا الخَرِبِ
وَمَا الخُدُودُ وإن أُدْمِينَ من خَجَلٍ أَشْهَىٰ إِلَىٰ نَاظِرِى مِنْ خَدِّها التَّرِبِ
سَمَاجَةً غَنِيَتْ منْهَا العُيونُ بِهَا عَنْ كُلِّ حُسْنٍ بَدَا أَوْ مَنْظَرٍ عَجَبِ
وَحُسْنُ منقَلَبٍ تَبْدُو عَوَاقِبُهُ جَاءَتْ بَشَاشَتُهُ عَنْ سُوءِ مُنْقَلَبِ
تَدْبِيرُ مُعْتَصِمٍ بِاللَّهِ مُنْتَقِمٍ لِلهِ مُرْتَقِبٍ فِى اللَّهِ مُرْتَغِبِ
ومُطعِمِ النَّصْلِ لم تَكْهَمْ أَسِنَّتُهُ يَوْمًا ولا حُجِبَتْ عن رُوح مُحتَجِبِ
لم يَرْمِ قومًا وَلَم يَنْهَدْ إِلى بَلَدٍ إِلاَّ تَقَدَّمَهُ جَيْشٌ مِنَ الرُّعْبِ
لَوْ لَمْ يَقُدْ جَحْفَلاً يَوْمَ الوَغَى لَغَدَا مِنْ نفسِهِ وَحْدَهَا فِى جَحْفَلٍ لَجِبِ

---

(١) فى الديوان: تصرح .

رَمَىٰ بِكَ اللَّهُ بُرْجَيْهَا فَهَدَّمَهَا وَلَو رَمَى بِكَ غَيْرُ اللَّهِ لَمْ يُصِبِ
مِنْ بَعْدِ مَا أَشَّبوهَا[1] واثقِينَ بِهَا واللَّهُ مِفْتَاحُ بَاب المَعْقِلِ الأَشِبِ
وَقَالَ ذُو أَمْرِهِم لاَ مَرْتَعٌ صَدَدٌ لِلسَّارِحِينَ وَلَيْسَ الوِرْدُ عَنْ كَثَبِ
أَمَانِيًا سَلَبَتْهُمْ نُجْحَ هَاجِسِهَا ظُبَى السُّيوفِ وَأَطْرَافُ القَنَا السُّلُبِ
إِنَّ الحمامَينِ مِنْ بِيضٍ ومِنْ سُمُرٍ دَلْوَا الحَيَاتينِ مِنْ مَاءٍ وَمِنْ عُشُبِ
لَبَّيْتَ صَوْتًا زِبَطْرِيًا هَرَقْتَ لَهُ كَأْسَ الكَرَا ورُضَابَ الخُرَّدِ العُرُبِ
عَدَاكَ حَرُّ الثُّغُورِ المُستُضَامَةِ عَنْ بَرْدِ الثُّغُورِ وَعَنْ سَلْسَالِهَا الحَصِبِ
أَجبْتَهُ مُعْلِنًا بالسَّيْفِ مُنصَلِتًا وَلَوْ أَجَبْتَ بِغَيْرِ السَّيْفِ لم تُجِبِ
حَتَّى تَرَكْتَ عَمُودَ الشِّرْكِ مُنعَفِرًا وَلَمْ تُعَرِّجْ عَلَى الأَوْتَادِ والطُّنُبِ
لمَّا رَأَى الحَرْبَ رَأْى العَينِ تُوفَلِسٌ والحَرْبُ مُشْتَقَّةُ المعنى مِنَ الحَرَبِ
غَدَا يُصَرِّفُ بالأَمْوَالِ جِزْيَتَهَا فَعَزَّهُ البَحْرُ ذُو التَّيَّارِ والعَبَبِ
هَيْهَاتَ زُعْزِعَتِ الأَرْضُ الوَقُورُ بِهِ عَنْ غَزْوِ مُحْتَسِبٍ لا غَزْوِ مُكْتَسِبِ
لَمْ يُنْفِقِ الذَّهَبَ المُرْبِى بِكَثْرَتِهِ عَلَى الحصَى وَبِهِ فَقْرٌ إِلَى الذَّهَبِ
إِنَّ الأُسُودَ أُسود الغَابِ هِمَّتُها يَوْمَ الكَرِيهَةِ فى المَسْلُوبِ لاَ السَّلَبِ
وَلَّىٰ وَقَدْ أَلْجَمَ الخَطِّيُّ مَنْطِقَهُ بِسَكْتَةٍ تحتها الأَحْشَاءُ فى صَخَبِ
أَحْذَىٰ قَرَابِينَهُ صَرْفَ الرَّدَى وَمَضَى يَحُثُّ أَنْجَى مَطَايَاهُ مِنَ الهَرَبِ
مُوَكَّلاً بِيَفَاعِ الأَرْضِ يُشْرِفُهُ مِنْ خِفَّةِ الخَوْفِ لاَ من خِفَّةِ الطَّرَبِ
إن يَعْدُ من حَرِّهَا عَدْوَ الظَّلِيمِ فَقَدْ أَوْسَعْتَ جَاحِمَهَا مِنْ كَثْرَةِ الحَطَبِ
تِسْعُون أَلْفًا كَآسَادِ الشَّرَىٰ نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ قَبْلَ نُضْجِ التِّينِ وَالعِنَبِ
يَا رُبَّ حَوْبَاءَ لَمَّا اجْتُثَّ دَابِرُهُمْ طَابَتْ وَلَو ضُمِّخَتْ بِالمِسْكِ لَمْ تَطِبِ
وَمُغْضَبٍ رَجَعَتْ بِيضُ السُّيوفِ بِهِ حَيَّ الرِّضَا عَنْ رَدَاهُمْ مَيِّتَ الغَضَبِ
وَالحَرْبُ قَائِمَةٌ فِى مَأْزِقٍ لَجِبٍ تَجْثُو الرِّجَالُ به صُغْرًا عَلَى الرُّكَبِ
كَمْ نِيلَ تَحْتَ سَنَاهَا مِنْ سَنَا قَمَرٍ وَتَحْتَ عَارِضِهَا مِنْ عَارِضٍ شَنِبِ
كم كَانَ فِى قَطْعِ أَسْبَابِ الرِّقَابِ بِهَا إِلَى المُخَدَّرَةِ العَذْرَاء مِنْ سَبَبِ
كم أَحْرَزَتْ قُضُبُ الهِنْدِيِّ مُصْلَتَةً تَهْتَزُّ من قُضُبٍ تَهْتَزُّ فى كُثُبِ

---

(١) فى ط: أثبتوها. والمثبت من الديوان، والمعنى: أحاطوها بالرماح لحمايتها .

بِيضٌ إِذَا انْتُضِيَتْ مِنْ حُجْبِهَا رَجَعَتْ أَحَقَّ بِالبِيضِ أَبْدَانًا مِنَ الحُجُبِ
خليفةُ اللَّهِ، جَازَى اللَّه سَعْيَكَ عَنْ جُرْثُومَةِ الدِّينِ وَالإِسْلَامِ والحَسَبِ
بَصُرْتَ بِالرَّاحَةِ الكُبْرَى فَلَمْ تَرَهَا تُنَالُ إِلاَّ عَلَىٰ جِسْرٍ مِنَ التَّعَبِ
إِنْ كَانَ بَيْنَ صُرُوفِ الدَّهْرِ مِنْ رَحِمٍ مَوْصُولَةٍ وَذِمَامٍ غَيْرِ مُنْقَضِبِ
فَبَيْنَ أَيَّامِكَ اللاَّئِي نُصِرْتَ بِهَا وَبَيْنَ أَيَّامِ بَدْرٍ أَقْرَبُ النَّسَبِ
أَبْقَتْ بَنِي الأَصْفرِ المُصْفَرِّ كَاسْمِهِمُ صُفْرَ الوُجُوهِ وَجَلَّتْ أَوْجُهَ العَرَبِ[١]

وكان يقال له: المثمن؛ فإنه ثامن الخلفاء من بنى العباس، وملك ثمان سنين وثمانية أشهر، وفتح ثمان فتوحات، وخلف من الذهب ثمانية آلاف ألف دينار، ومن الدراهم ثمانية عشر ألف ألف، ومن الخيل ثمانين ألفًا، وثمانية آلاف مملوك، وثمانية آلاف جارية، وبنى ثمانية قصور، وكان عدد غلمانه الترك ثمانية عشر ألفًا، وولد فى شعبان، وهو ثامن شهور السنة، وخلف ثمانية ذكور وثمان إناث، وتوفى وعمره ثمان وأربعون سنة[٢].

وعن أحمد بن أبى دؤاد قال: كان المعتصم يخرج ساعده إليّ فيقول: يا أبا عبد الله، عض ساعدى بأكبر قوتك. فأقول: لا تطيب نفسى. فيقول: إنه لا يضرنى. فأروم ذلك فإذا هو لا تعمل فيه الأسنة فضلاً عن الأسنان.

وانصرف يومًا من دار المأمون إلى داره، وكان شارع الميدان منتظمًا بالخيام فيها الجند، فإذا امرأة تبكى وتقول: ابنى ابنى، وإذا بعض الجند أخذ ابنها، فدعاه المعتصم وأمره برد ابنها عليها فأبى. فاستدناه فدنا منه فقبض عليه بيده فسمعت أصوات عظامه ثم أطلقه فسقط ميتًا، وأمر بإخراج الصبى إلى أمه.

ونقل أنه حال محاصرته لعمورية أصبح ذلك اليوم برد عظيم وثلج، فلم يقدر أحد أن يخرج يده ولا أن يمسك قوسه، فأوتر المعتصم فى ذلك اليوم فوق أربعة آلاف قوس.

أخبر إبراهيم بن عبد السلام عن الحسين بن الضحاك قال: دخلت أنا ومحمد بن عمرو الرومى دار المعتصم، فخرج علينا كالحًا، فدخل إيتاخ مملوك فقال: الملهون

---

(١) ينظر ديوانه (ص ١٨ - ٢١) .
(٢) ينظر فى تسميته «المثمن»: الفخرى / ٢٢٩، التنبيه والأشراف/ ٣٠٧ .

على الباب، مخارق وعلويه وفلان وفلان. فقال: اغرب عليك وعليهم لعنة الله، قال: فتبسمت إلى محمد وتبسم إلى، فقال المعتصم: مم تبسمت ؟ فقلت: خطر ببالى شيء، قال: هاته. فأنشدته: [من مجزوء الخفيف]

إِنْفِ عَنْ قَلْبِكَ الحَزَنْ بِدُنُوٍّ مِنَ السَّكَنْ
وَتَمَتَّعْ بِكَرٍّ طَرْ فِكَ فِى وَجْهِهِ الحَسَنْ

فدعا لى بألف دينار ولمحمد بألف، فقلت: الشعر لى فما معنى ألف محمد ؟ قال: لأنه جاء معك. وأمر الملهين بالدخول فدخلوا، فما زال يومه ذاك ينشد ذلك الشعر ويردده، انتهى.

قال أبو العيناء: أنشدنى المعتصم عقب ذكر جرى لبغداد: [من المتقارب]

سَقَانِى بَعَيْنَيْهِ كَأسَ الهَوَىٰ فَظَلْتُ وَبِى مِنْهُ مِثْلَ الَّلمَمْ
بِعَيْنَىْ مَهَاةٍ شَقِيقِيَّةٍ وَأَشْنَبَ عَذْبٍ وَفَرْعٍ أَجَمّ

قال أبو العيناء: فتوهمت أنه يعنى « سر من رأى » ويكنى عنها بذلك، فقلت: يا أمير المؤمنين، قال مروان فى جدك: [من الرجز]

قُرَيْش الأَبْلَجُ ذُو البَهَاءِ
غَيْثُ العُفَاةِ غُرَرُ الأَنْوَاءِ
هُمْ زِمَامُ الدَّوْلَةِ الزَّهْرَاءِ

قال: قل يا أبا عبد الله فى مدح بنى هاشم لك أو لغيرك فقد أصبت مقالاً. فأنشدت لمروان بن أبى حفصة: [من المتقارب]

إِلَىٰ ملِكٍ مِثْلِ بَدْرِ الدُّجَىٰ عَظِيمِ الفِنَاءِ رَفِيعِ الدِّعَمْ
قَرِيعِ نِزَارٍ غَدَاةَ الْفَخَارِ وَلَوْ شِئْتَ قُلْتَ: جَمِيعِ الأُمَمْ
لَهُ كَفُّ جُودٍ تُقِيدُ الغِنَىٰ وَكَفٌّ تُبِيدُ بِسَيْفِ النِّقَمْ

فقال: زدنى، فأنشدته: [من الرجز]

يَا قُطُبَ الرَّحْرَاحَةِ المَلْحَاءِ
وَمنْزِلَ البَدْرِ مِنَ السَّمَاءِ
وَالْمُجْتَدَى فِى السَّنَةِ الْعَجْفَاءِ

فقال: حسبك. ثم التفت إلى جارية بين يديه فقال: عشر بدر ووصيفة وفرس

ومملوك وخمسون ثوبًا من الساعة. فجيء بهذا كله فأخذته وانصرفت، فقال الناس: يا أبا العيناء ما هذا ؟ قلت: مال الله، على يد عبد الله، لله الحمد، ولأمير المؤمنين الشكر، ما دامت السماء، وما حملت مثقلة إلى الماء.

وعن ابن أبى دؤاد قال: أرسل المعتصم إلى مملوك له تركى مقدم العساكر كان يتعلق على الآداب، فطلب منه كلب صيد فوجه به إليه، ثم رده المعتصم بعد رجوعه من الصيد وهو يعرج، فكتب أشناس إلى المعتصم بقوله:

الكلب أخذت جيد مكسور رجل جبت
رد جيد كما كنت كلب أخذت

فكتب إليه المعتصم من جنس شعره:

الكلب كان يعرج يوم الذى بعثت لو كان جا مجبر
جبر رجل كلب أنت

فللَّه ما أحلم المعتصم وألطف طبعه !!

قال الحافظ الذهبى[1]: كان المعتصم من أهيب الخلفاء وأعظمهم، لولا ما شان سؤدده بامتحان العلماء بخلق القرآن، فنسأل الله السلامة. وهو أول من أدخل الأتراك الديوان.

وقال على بن المنجم: استتمت عدة غلمان المعتصم الأتراك بضعة عشر ألفًا وعلق له خمسون ألف مخلاة وذلك للعدو بالنواحى، وكان يتشبه بملوك الأعاجم سمتًا ومشية.

هجاه دعبل الخزاعى بقوله: [من الطويل]

مُلُوكُ بَنِى العَبَّاسِ فى الكُتْبِ سَبْعَةٌ وَلَمْ تَأْتِنَا فِى ثَامِنٍ لَهُمُ الكُتْبُ[2]
كَذَلِكَ أَهْلُ الكَهْفِ فى الكهفِ سَبْعَةٌ غَدَاةَ ثَوَوْا فِيهِ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُ
وَإِنِّى لأُعْلِى[3] كَلْبَهُمْ عَنْكَ رَغْبَةً لِأَنَّكَ ذُو ذَنْبٍ وَلَيْسَ لَهُ ذَنْبُ

---

(١) ينظر: تاريخ الإسلام: الطبقة الثالثة والعشرون (ص ٣٩٤).
(٢) ويروى هذا الشطر فى تاريخ الخلفاء هكذا:
... ... ولم يأتنا فى ثامن منهم الكتب.
(٣) فى تاريخ الخلفاء: لأزهى.

لَقَدْ ضَاعَ أَمْرُ الناسِ حِينَ يَسوسُهُمْ وَصِيفٌ وَأَشْنَاسٌ وَقَدْ عَظُمَ الخَطْبُ
وَإِنِّى لأَرْجُو أَنْ تُرَى مِنْ مَغِيبِهَا مَطَالِعُ شَمْسٍ قَدْ يَغَصُّ بِهَا الشَّرْبُ
وَهَمُّكَ تُرْكِيٌّ عَلَيْهِ مَهَابَةٌ فَأَنْتَ لَهُ أُمٌّ وَأَنْتَ لَهُ أَبُ

فتطلبه المعتصم؛ فخاف وهرب حتى قدم مصر ثم خرج إلى المغرب[١].

أخرج الصولى عن الفضل اليزيدى قال: وجه المعتصم إلى الشعراء ببابه: من كان منكم يحسن أن يقولَ فينا كما قال منصور النميرى فى الرشيد: [من البسيط]

إنَّ المَكَارِمَ وَالمَعْرُوفَ أَوْدِيَةٌ أَحَلَّكَ الله مِنْها حَيْثُ تَجْتَمِعُ
مَنْ لَمْ يَكُنْ بِأَمِيرِ اللَّهِ مُعْتَصِمًا فَلَيْسَ بِالصَّلَوَاتِ الخَمْسِ يَنْتَفِعُ
إن أَخْلَفَ القَطْرُ لَمْ تُخْلَفْ فَوَاضِلُهُ أَوْ ضَاقَ أَمْرٌ ذَكَرْنَاهُ فَيَتَّسِعُ

فقال أبو وهب[٢]: فينا من يقول خيرًا منه فيك: [من البسيط]

ثَلاثَةٌ تُشرِقُ الدُّنْيَا بِبَهْجَتِهَا شَمْسُ الضُّحَى وَأَبُو إِسْحَاقَ وَالْقَمَرُ
يَحْكِى أَفَاعِيلَهُ فِى كُلِّ نَائِبَةٍ أَللَّيْثُ وَالغَيْثُ وَالصَّمْصَامَةُ الذَّكَرُ[٣]

فأسنى جائزته. وروى الصولى عن أحمد بن الخصيب قال: قال لى المعتصم: إن بنى أمية ملكوا وما لأحد منا ملك؟ وملكنا نحن ولهم بالأندلس هذا الأموى. فقدر ما يحتاج إليه لمحاربته، وشرع فى ذلك، فاشتدت علته ومات.

وفى سنة إحدى وعشرين ومائتين بنى المعتصم « سر من رأى » لكثرة عسكره وضيق بغداد عليه، وانتقل إليها وسكنها بعسكره، وسميت « العسكر »[٤].

وفى سنة سبع وعشرين ومائتين احتجم المعتصم فَحم فمات. قال على بن الجعد: لما احتضر جعل يقول: أؤخذ من بين هذا الخلق؟ ذهبت الحيلة فليس حيلة، حتى صمت.

ومن كلامه: إذا اشتغلت الألباب بالآداب، والعقول بالتعليم، انتبهت النفوس على محمود أمرها، وأبرز التحريك حقائقها. وكان يقول: عاقل عاقل مرتين أحمق.

---

(١) ينظر: تاريخ الخلفاء/ ٢٦٩ .
(٢) فى تاريخ الخلفاء: أبو وهيب .
(٣) ينظر: تاريخ الخلفاء/ ٢٧١ .
(٤) ينظر: تاريخ بغداد ٣/ ٣٤٦، فوات الوفيات (٤/ ٤٩)، سير أعلام النبلاء (١٠/ ٣٠٥)، معجم البلدان (٣/ ١٧٤) .

وتوفي يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة بقيت من ربيع الأول، سنة ثمان وعشرين، وعمره ثمان وأربعون سنة وثمانية أيام. ومن أحسن ما سمع منه قوله - إن صح عنه: اللهم إنك تعلم أنى أخافك من قِبَلى، ولا أخافك من قبلك، وأرجوك من قبلك ولا أرجوك من قبلى. رحمه الله تعالى.

ولما مات المعتصم رثاه وزيره محمد بن عبد الملك الزيات جامعًا بين العزاء والهناء فقال: [من المنسرح]

قَدْ قُلْتُ إِذ غَيَّبُوكَ وَاصْطَفَقَتْ ... عَلَيْكَ أَيْدٍ بِالتُّرْبِ وَالطِّينِ

إِذْهَبْ فَنِعْمَ الحَفِيظُ كُنْتَ عَلَى الد ... دُنْيَا وَنِعْمَ الظَّهِيرُ لِلدِّينِ

مَا يَجْبُرُ اللَّهُ أُمَّةً فَقَدَتْ ... مِثْلَكَ إِلاَّ بِمِثْلِ هَارُونِ

خلافة الواثق بالله(١)

هارون بن أبى إسحاق محمد المعتصم بن الرشيد بن المهدى بن المنصور.

بويع بالخلافة بـ « سر من رأى » بموت أبيه المعتصم، فاستقر الأمر له ببغداد وغيرها. ولد لعشرٍ بقين من المحرم سنة ست وتسعين ومائة. وفى المسامرة بويع فى تاسع ربيع الأول، يوم الخميس لاثنتى عشرة ليلة بقيت من ربيع الأول سنة سبع وعشرين ومائتين.

أمه أم ولد اسمها قراطيس. كان أبيض، حسن الخيم، فى عينه اليمنى نكتة بياض.

ولما ولى قتل أحمد بن نصر الخزاعى على القول بخلق القرآن، ونصب رأسه إلى الشرق فدار إلى القبلة فأقعد رجلا معه رمح أو قصبة، وأمره أن يرد الرأس كلما دار إلى القبلة إلى الشرق.

ورؤى فى المنام فقيل له: ما فعل الله بك ؟ قال: غفر لى ورحمنى، إلا أنى كنت

---

(١) ينظر [الواثق بالله] فى: تاريخ بغداد ١٤/ ١٥، تاريخ اليعقوبى ٣/ ٢٠٤، تاريخ الطبرى ٩/ ١٢٣، تاريخ الخلفاء ٣٦٧، تاريخ الخميس ٢/ ٣٣٧، الأغانى ٩/ ٢٧٦، فوات الوفيات ٤/ ٢٢٨، الكامل لابن الأثير ٦/ ٥٢٨، سير أعلام النبلاء ١٠/ ٣٠٦، مروج الذهب ٤/ ٦٥، المحبر ٤٢، المعارف لابن قتيبة ٣٩٣، دول الإسلام ١/ ١٣٨، مرآة الجنان ٢/ ١٠٧، تاريخ ابن خلدون ٣/ ٢٧٠، شذرات الذهب ٢/ ٧٥، نهاية الأرب ١/ ٣٧٤، خلاصة الذهب المسبوك ١٨٧، تاريخ ابن الوردى ١/ ٢٢٣ .

مهمومًا رأيت النبى ﷺ مرتين معرضًا عنى بوجهه فغمنى ذلك، ثم رأيته مرة ثالثة فقلت: يا رسول الله ألستُ على الحق فلم تعرض عنى ؟ قال: بلى، ولكنى أعرضت عنك حياءً إذ قتلك رجل من أهل بيتى.

وروى البغدادى أن طاهر بن خلف قال: سمعت محمدًا الملقب بالمهتدى بن الواثق يقول: كنت عند أبى الواثق إذ أتى برجل محصور مقيد فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين. فقال: لا سلم الله عليك. فقال: بئسما أدبك به من أدبك، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ [النساء: ٨٦]، والله ما حييتنى بأحسن منها ولا رددتها. فقال له أبى: وعليك السلام. فقال ابن أبى دؤاد: يا أمير المؤمنين، الرجل متكلم، فقال: كلمه وسله، فقال: يا أمير المؤمنين، أنا محبوس مقيد، أصلى فى الحبس بتيمم؛ منعت الماء، فمر بقيودى تحل ومر لى بماء أتطهر به فأصلى ثم سل؛ فأمر له بماء فتوضأ وصلى ثم قال لابن أبى دؤاد: سله فقال الشيخ: المسألة لي، فمره أن يجيبني، فقال: سل. فأقبل الشيخ على ابن أبي دؤاد، فقال: أخبرنى عن هذا الأمر الذى تدعو الناس إليه أشيء دعا إليه رسول الله ﷺ ؟ قال: لا. قال: فشيء دعا إليه أبو بكر بعده ؟ قال: لا. قال: فشيء دعا إليه عمر بن الخطاب ؟ قال: لا. قال: فشيء دعا إليه عثمان بن عفان ؟ قال: لا. قال الشيخ: فشيء دعا إليه على بن أبى طالب ؟ قال: لا. قال الشيخ: فشيء لم يدع إليه رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا على تدعو إليه أنت أيها الإنسان (!!) ليس يخلو أن تقول: علموه أو جهلوه، فإن قلت علموه وسكتوا عنه وسعنا وإياك من السكوت ما وسع القوم، وإن قلت جهلوه وعلمته أنت فيا لكع ابن لكع يجهل النبى ﷺ والخلفاء الراشدون شيئًا وتعلمه أنت وأصحابك ؟ قال المهتدى بن الواثق: فرأيت أبى وثب قائمًا ودخل الخلوة وجعل ثوبه فى فيه يضحك، ثم جعل يقول: صدق، ليس يخلو من أن يقول: علموه أو جهلوه، فإن قال علموه وسكتوا وسعنا ما وسع القوم جزمًا. قال المهتدى: ثم دعا أبى عمارًا الحاجب، وأمره أن يعطى الشيخ أربعمائة دينار ويأذن له فى الرجوع إلى وطنه وأهله، وسقط من عينه ابن أبى دؤاد ولم يمتحن بعد ذلك أحدًا[1].

---

(١) ينظر: سير أعلام النبلاء ١٠/٣٠٨ - ٣٠٩ .

والشيخ المذكور هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن محمد الأزدي شيخ أبي داود والنسائي.

وقال الحافظ أبو نعيم فى حليته: قال المهتدى: ما قطع أبى - يعنى الواثق - إلا شَيْخٌ جيء به من المصنعة فمكث فى الحبس مدة.. ثم ذكر القصة بقرب مما ذكرناه.

وأخرج الصولى قال: غنى فى مجلس الواثق بشعر الأخطل: [من البسيط]

وَشَادِنٍ فَرِحٍ بِالْكَأْسِ نَادَمَنِي لاَ بِالحُصورِ وَلاَ فِيهَا بِسَوَّارِ

فقيل: سوار وسآر، فوجه إلى ابن الأعرابى فسأله عن ذلك فقال: سوار وثاب، يقول ولا يثب على ندمائه وسآر يفضل فى الكأس سؤرا، وقد رويا جميعًا. فأمر الواثق له بعشرين ألف درهم.

وفى الذهبى قيل: رأى الواثق منامًا كأنه سأل الله الجنة، وأن قائلاً يقول: لا يهلك على الله إلا مَنْ قلبه مَرْتٌ، فأصبح فسأل الجلساء عن ذلك فلم يعرفوا معناه. فوجه إلى أبى محلم فسأله عن الرؤيا والمرت، فقال أبو محلم: المَرْت: القفر الذى لا ينبت شيئًا؛ فالمعنى لا يهلك على الله إلا من قلبه خال من الإيمان خلو المرت من النبات.

فقال له الواثق: أريد شاهدًا على هذا. فقال: قال شاعر بنى أسد: [من البسيط]

وَمَرْتِ مَرَوْرَاتٍ يَحَارُ بِهَا الْقَطَا وَيُصْبِحُ ذُو عِلْمٍ بِهَا وَهْوَ جَاهِلُ

فأمر له الواثق بمائة ألف دينار.

وفى ابن خلكان[1] فى ترجمة أبى عثمان بكر المازنى البصرى النحوى شيخ المبرد، رواها عن شيخه أبى عثمان: أن رجلاً من أهل الذمة قصده ليقرأ عليه كتاب سيبويه، ويزن له مائة دينار، فامتنع أبو عثمان من ذلك، فقال له المبرد تلميذه: جعلت لك الفداء، أترد المنفعة معِ فاقتك ؟ فقال: إن هذا الكتاب يشتمل على أكثر من ثلاثمائة آية من كتاب الله تعالى، ولست أرى أن أمكن منه ذميًا غيرة على كتاب الله وحمية له. قال فاتفق أن جارية غنت بحضرة الواثق بقول العرجى: [من الكامل]

أَظَلُومُ إِنَّ مُصَابَكُمْ رَجُلاً أَهْدَى السَّلاَمَ تَحِيَّةً ظُلْمُ

فاختلف من بحضرته فى إعراب رجل، منهم من نصبه على أنه اسم إن، ومنهم

(١) ينظر: وفيات الأعيان لابن خلكان ١/ ٢٨٤ .

من رفعه على أنه خبرها، والجارية مصرة على أن شيخها أبا عثمان المازنى لقنها إياه بالنصب، فأمر الواثق بإشخاصه، قال [أبو عثمان][١]: فلما مثلتُ بين يديه قال لى: ممن الرجل ؟ قلت: [من] مازن. قال: أى الموازن ؟ أمازن تميم أم مازن قيس أم مازن ربيعة ؟ قلت: من مازن ربيعة. فكلمنى بكلام قومى فقال لى: بَاسْمُكَ ؟ لأنهم يبدلون الباء من الميم والميم منها. فكرهت أن أواجهه بالمكر فقلت: بكر يا أمير المؤمنين. ففطن لما قصدته وأعجب به، ثم قال: ما تقول فى البيت ؟ وأنشده، أترفعه أم تنصبه ؟ قلت: بل الوجه النصب يا أميرَ المؤمنين. قال: ولم ؟ قلت: لأن مصاب مصدر ميمى بمعنى الإصابة ورجلًا منصوب به، والمعنى إن إصابتكم رجلًا أهدى السلام تحية ظلم، فظلم هو الخبر لـ « إنَّ » ولا يتم الكلام إلا به، فاستحسنه الواثق وأعجب به. ثم قال: هل لك من ولد ؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين، بنية. قال: ما قالت لك عند مسيرك ؟ قال قلت: أنشدت [وهى تبكى][٢] قول الأعشى: [من المتقارب]

أَيَا أَبَتَا لاَ تَرِمْ عندَنَا فَإِنَّا بِخَيْرٍ إِذَا لَمْ تَرِمْ
أَرَانَا إِذا أَضْمَرَتْكَ البِلاَ دُ نُجْفَى وَتُقْطَعُ مِنَّا الرَّحِمْ

قال الواثق: فما قلت لها ؟ قلت: قول جرير: [من الوافر]

ثِقِى بِاللَّهِ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ وَمِنْ عِنْدِ الخَلِيفَةِ بِالنَّجَاحِ

فقال: عليَّ النجاح، إن شاء الله تعالى، ثم أمر لى بألف دينار، ولحف وهدايا كثيرة، ووهب لى الجارية جملة أخرى وردنى مكرمًا. قال المبرد: فلما عاد جئت لأهنئه بالقدوم، فقال لى: كيف رأيت يا أبا العباس ؟ تركنا لله مائة، فعوضنا ألفًا. فقلت: من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه.

كان الواثق مؤثرًا لكثرة الجماع، فقال لطبيب: اصنع لى دواءً للباءة. فقال الطبيب: يا أمير المؤمنين لا تهدم بدنك بالجماع، واتق الله فى نفسك. فقال: لا بد من ذلك، فأمر الطبيب أن يؤخذ لحم سبع فيغلى عليه سبع غليات على جمر، وتتناول منه - إذا شربت - وزن ثلاثة دراهم، ولا تجاوز هذا القدر، فأمر بذبح سبع

---

(١) المثبت من وفيات الأعيان .
(٢) المثبت من وفيات الأعيان .

فذبح وطبخ لحمه، وصار يتنقل به على شرابه، فلم يكن إلا قليل حتى استسقى، فأجمع الأطباء على أن لا دواء له إلا أن ينزل بطنه ثم يترك فى التنور قد سجر بحطب الزيتون حتى يصير جمرًا، ثم يجلس فيه، ففعل به ذلك ومنع الماء ثلاث ساعات، فجعل يستغيث ويطلب الماء فلا يسقونه؛ فصار فى جسده نفاطات مثل البطيخ، ثم أخرجوه فجعل يقول: ردونى إلى التنور وإلا مت؛ فردوه، فسكن صياحه. ثم انفجرت تلك النفاطات وقطر منها ماء، فأخرج من التنور وقد اسود جسده فمات بعد ساعة. ولما احتضر جعل يقول:

أَلْمَوْتُ فِيهِ جَمِيعُ النَّاسِ تَشْتَرِكُ   لاَ سُوقَةٌ مِنْهُمْ يَبْقَى وَلاَ مَلِكُ
مَا ضَرَّ أَهْلَ قَلِيلٍ فِى تَفَاقُرِهِمْ   وَلَيْسَ يُغْنِى عَنِ الْأَمْلَاكِ مَا مَلَكُوا

ثم أمر بالبسط فطويت، وألصق خده فى الأرض، وجعل يقول: يا من لا يزول ملكه، ارحم من زال ملكه.

قال الذهبى[1]: روى عن أحمد بن محمد الواثقى، أمير البصرة، عن أبيه قال: كنت أدخل فى مرض الواثق عليه، إذ لحقته غشية فما شككنا أنه مات، فقال بعضنا لبعض: تقدموا. فما جسر أحد، فتقدمت أنا، فلما صرت عند رأسه، وأردت أن أضع يدى على أنفه لحقته إفاقة ففتح عينيه، فكدت أموت فزعًا أن يرانى قد مشيت إلى غير رتبتى، فرجعت إلى خلف، فتعلقت قبيعة سيفى بالعتبة فعثرت على سيفى فاندلق فكاد أن يدخل فى لحمى، فسلمت وخرجت، واستدعيت بسيف وجئت فوقفت ساعة فتلف الواثق تلفًا لم يشك فيه، فشددت لحييه وغمضته وسجيته، وجاء الفراشون فأخذوا ما تحته ليردوه إلى الخزائن؛ لأنه مكتتب عليهم، وترك وحده فى البيت، فقال لى أحمد بن أبى دؤاد القاضى: إنا نريد أن نتشاغل بأمر البيت، وأحب أن تحفظه إلى أن يدفن، فأنت من أخصهم به فى حياته، فرددت باب المجلس وجلست عند الباب، فأحسست بعد ساعة بحركة فى المجلس أفزعتنى، فدخلت فإذا بجرذون قد جاء فاستل عينه. فقلت: لا إله إلا الله ! هذه العين التى فتحها من ساعة فاندلق سيفى هيبة لها ! كذا فى الذهبى. والجرذون: أكبر من اليربوع.

قال يحيى بن أكثم: ما أحسن أحد إلى آل أبى طالب ما أحسن إليهم الواثق؛

(١) ينظر: سير أعلام النبلاء ١٠/ ٣١٣ .

ما مات ومنهم فقير؛ وكان عالمًا شاعرًا حاذقًا، أكثر بنى العباس رواية للشعر، بليغًا، كان يقاس بعبد الله بن المعتز.

قال حمدون بن إسماعيل: كان الواثق يحب خادمًا له أهدى إليه من مصر، فأغضبه الواثق، ثم إنه سمعه يقول لبعض الخدم عن الواثق: والله إنه ليروم أن أكلمه من يومين فلم أفعل فقال الواثق: [من البسيط]

يَا ذَا الَّذِى بِعَذَابِى ظَلَّ مُفْتَخِرَا ... مَا أَنْتَ إِلاَّ مَلِيكٌ جَارَ إِذْ قَدَرَا

لَوْلاَ الْهَوَىٰ لَتَجَارَيْنَا عَلَى قَدَرٍ ... وَإِنْ أُفِق مِنْهُ يَوْمًا مَا فَسَوْفَ تَرَىٰ

ومن شعر الواثق قوله: [من السريع]

حَيَّاكَ بِالنَّرْجِسِ وَالْوَرْدِ ... مُعْتَدِلُ الْقَامَةِ وَالْقَدِّ

فَأَلْهَبَتْ عَيْنَاهُ نَارَ الجوَى ... وَزَادَ فِى اللَّوْعَةِ وَالْوَجْدِ

أَمَّلْتُ بِالْمُلْكِ وِصَالاً لَهُ ... فَصَارَ مُلْكِى سَبَبَ الْبُعْدِ

مَوْلًى وَيَشْكُو الظُّلْمَ مِنْ عَبْدِهِ ... فَأَنْصِفُوا المَوْلَىٰ مِنَ الْعَبْدِ

قال الصولى: أجمعوا على أن ليس لأحد من الخلفاء مثل هذه الأبيات فى اللطف والرقة، مات بـ« سُر من رأى »، يوم الأربعاء، لست بقين من ذى الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائتين. وكانت خلافته خمس سنين وستة أشهر، وعمره ست وثلاثون سنة وأحد عشر شهرًا وأربعة أيام.

خلافة المتوكل(١)

جعفر، أبو الفضل بن المعتصم بن الرشيد بن المهدى بن المنصور.

بويع فى ذى الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائتين، بعد الواثق. وكان أسمر اللون، مليح العينين، نحيف الجسم، خفيف العارضين، إلى القصر أقرب، أمه أم ولد تركية

---

(١) ينظر [المتوكل] فى: المعارف ٣٩٣، تاريخ ابن الوردى ١/ ٢٢٨، شذرات الذهب ٢/ ١١٤ - ١١٦، تاريخ الخميس ٢/ ٣٧٨، أخبار الدول للقرمانى ١٥٩، المختصر فى أخبار البشر ٢/ ٤١، مرآة الجنان ٢/ ١٥٤، البداية والنهاية ١٠/ ٣٤٩، العقد الثمين ٣/ ٤٣١، النجوم الزاهرة ٢/ ٢٧٥ وما بعدها، فوات الوفيات ١/ ٢٠٩، العبر للذهبى ١/ ٤٤٩، دول الإسلام ١/ ١٤٩، سير أعلام النبلاء ١٢/ ٣٠ - ٤١، تاريخ الخلفاء ٣٤٦، خلاصة الذهب المسبوك ٢٢٣، الكامل لابن الأثير ٧/ ٣٣، العقد الفريد ١/ ٢٦٩، المعرفة والتاريخ ١/ ٢٠٩، تاريخ اليعقوبى ٢/ ٤٧٨، البدء والتاريخ ٦/ ١٢٠، تاريخ بغداد ٧/ ١٦٥ - ١٧٢ .

اسمها شجاع.

استخلف فأظهر السنة، وتكلم بها فى مجلسه، وكتب إلى الآفاق برفع المحنة بالقول بخلق القرآن، وأظهر السنة ونصر أهلها.

وقدم إلى دمشق فى صفر سنة أربع وأربعين وأعجبته، فعزم على المقام بها، ونقل دواوين الملك إليها، وأمر بالبناء بها. وبنى قصرًا كبيرًا بـ « داريه » من جهة المزة، ثم رجع إلى « سر من رأى » دار ملكه.

قيل إن سبب ميله إلى دمشق: أن إسرائيل بن زكريا الطَبيب نعت له دمشق، وأنها موافقة لمزاجه، ومذهبة عنه العلل التى تعرض له فى الصيف بالعراق.

كان المتوكل شجاعًا كريمًا، ما أعطى خليفة شاعرًا ما أعطاه المتوكل. ومن أفعاله الشنيعة أنه هدم قبر الحسين بن على فى سنة سبع وثلاثين، وهدم جميع ما حوله من الدور، وجعل مكانها مزارع، ومنع من زيارته، فتألم الناس لذلك، وكتب أهل بغداد شتمه على الحيطان والمساجد، وهجاه بعض الشعراء بقوله: [من الكامل]

تاللَّهِ إنْ كَانَتْ أُمَيَّةُ قَدْ أَتَتْ   قَتْلَ ابنِ بِنْتِ نَبِيها مَظْلُومَا
فَلَقَدْ أَتَاهُ بنو أَبِيهِ بِمِثْلِهِ   هَذَا لَعَمْرِى قَبْرُهُ مَهْدُومَا
أَسِفُوا عَلَى أَلاَّ يَكُونُوا شَارَكُوا   فِى قَتْلِهِ فَتَتَبَّعُوهُ رَمِيمَا

وهذا الفعل السيِّىء محا جميع محاسنه، وصار ما عذب من إحسانه مغلوبًا بأجاجه وآسنه، وعدت هذه الزلة أقبح قبيحة، وهذه الخلة الشنيعة أفضح من كل فضيحة.

وذكر ابن خلكان[1] فى ترجمة المتوكل عن المتوكل نفسه قال: ركبت إلى دار الواثق أخى فى مرضه الذى مات فيه لأعوده، فجلست فى الدهليز لأنتظر الإذن، فبينما أنا جالس إذ سمعت النياحة عليه، وإذا إيتاخ ومحمد بن عبد الملك الزيات يأتمران فى أمرى، فقال محمد بن عبد الملك: نقتله فى التنور. وقال إيتاخ: بل ندعه فى الماء البارد حتى يموت ولا يرى عليه أثر القتل. فبينما هما على ذلك إذ جاء أحمد بن أبى دؤاد القاضى فدخل وحدثهما كلامًا لا أفهمه، لما داخلنى من الخوف وشغل القلب فى إعمال حيلة فى الهرب، فبينما أنا كذلك، وإذا بالغلمان

(١) ينظر: وفيات الأعيان لابن خلكان ١/٤٧٨ - ٤٧٩ .

يتغادون ويقولون: انهض يا مولانا. فلم أشك أنى داخل لأبايع لولد الواثق، ثم ينفذ فيَّ ما قررا. فلما دخلت بايعونى، فسألت عن الحال، فأعلمت أن ابن أبى دؤاد كان سبب ذلك ثم إن المتوكل قتل إيتاخ بالماء البارد، وابن الزيات بالتنور على ما أشارا إليه فى حقه.

وهذا من أعجب الاتفاق؛ فإن ابن الزيات هو الذى صنع التنور، وكان يعذب به الناس فعذبه الله به جزاءً وفاقًا. وهو من حديد داخله مسامير وكان يسجر عليه بحطب الزيتون حتى يصير كالجمر ثم يدخل فيه الإنسان، نسأل الله العافية فى الدنيا والآخرة. وكان ابن الزيات إذا استغاث به أحد من الرعية فقال: ارحمنى، يقول: الرحمة خور فى القلب، فلما ألقى هو فى التنور قال للمتوكل: ارحمنى، فقال له: الرحمة خور فى القلب أو فى الطبيعة، وكان قد حبسه قبل أن يدخله التنور أيامًا فكتب إليه فى الحبس بقوله: [من البسيط]

هِيَ السَّبِيلُ فَمِنْ يَوْمٍ إِلَى يَوْمِ ... كَأَنَّهُ مَا تُرِيكَ العَيْنَ فِى النَّومِ

لاَ تَعْجَلَنَّ رُوَيْدًا إِنَّهَا دُوَلٌ ... دُنْيَا تَنَقَّلُ مِنْ قَوْمٍ إِلَى قَوْمِ

ووقعت فى أيامه عجائب: منها أن النجوم ماجت من السماء وتناثرت كأنها الجراد، فرميت قرية السويداء بناحية مضر أحجار من السماء وُزن حجر منها فكان عشرة أرطال، ومار جبل باليمن عليه مزارع ومدن إلى جبل آخر بينهما نحو أربعة أيام، ووقع طائر أبيض دون الرخمة فصاح: يا معشر الناس، اتقوا الله أربعين مرة، وجاء من الغد ففعل كذلك !! فكتبوا خبر ذلك على البريد إلى بغداد، وكتبوا فيه شهادة خمسمائة رجل سمعوا ذلك بآذانهم، وكان هذا فى شهر رمضان سنة إحدى وأربعين ومائتين، وحصلت زلازل، وغارت عيون مكة؛ فأرسل المتوكل مائة ألف دينار ذهبًا لإجراء عين عرفات فصرفت فيها إلى أن جرت، كذا ذكره السيوطى(١).

قال العلامة النجم، عمر بن فهد فى تاريخه «إتحاف الورى، بأخبار أم القرى»: فى حوادث سنة خمس وأربعين ومائتين: غارت عين مشاش، وهى عين مكة فبلغ ثمن القربة درهمًا، فبعث المتوكل مالاً ثانيًا فأنفق عليها حتى جرت(٢). قال ابن

(١) ينظر: تاريخ الخلفاء للسيوطى (٣٤٨ - ٣٤٩).
(٢) ينظر: الكامل لابن الأثير ٧/ ٨٨.

الأثير فى تاريخه المسمى بـ « الكامل »: هذه العين من عمل زبيدة بنت جعفر زوجة الرشيد، وهى عين بازان. قال العلامة القطبى: عين مشاش هى عين مكة موجودة الآن، وهى من جملة العيون التى تصب فى عين حنين، وهى تقوى وتضعف أحيانا لقلة الأمطار وكثرتها، ومحلها معروف.

ولماكثر الترك ببغداد، ودخلوا فى الملك، واستولوا على المملكة، وصار بيدهم الحل والعقد، والولاية والعزل، إلى أن حملهم الطغيان على الفتك بالخليفة المتوكل، لما أراد أن يصادر مملوك أبيه وصيفًا التركى؛ لكثرة أمواله وخزائنه فتعصب له باغر التركى، وانحرف الأتراك عن المتوكل؛ فدخل باغر ومعه عشرة أتراك وهو فى مجلس أنسه وعنده وزيره الفتح بن خاقان بعد مضى هزيع من الليل، فصاح الفتح: ويلكم هذا سيدكم وابن سيدكم، وهرب من كان حوله من الغلمان والندمان على وجوههم، فبقى الفتح وحده، والمتوكل غائب سكران فضربه باغر بالسيف على عاتقه فقدَّه إلى حقوه، فطرح الفتح نفسه عليه، فضربهما باغر ضربة ثانية فماتا جميعًا فلفهما معًا فى بساط، ومضى هو ومن معه، ولم ينتطح فى ذلك عنزان. وقيل إن سبب ذلك أن ابنه المنتصر باطن عليه الأتراك حتى قتلوه، وذلك أنه كان بايع بالعهد للمنتصر، ثم أراد أن يعزله ويولى المعتز ابنه لمحبته لأمه، فسأل المتوكل المنتصر أن ينزل عن العهد فأبى، فكان يحضره مجلس العامة ويحط من منزلته ويتهدده ويشتمه، وقيل: كان هذا وهذا سببًا لذلك.

قال المسعودى[1]: ولم يصح عن المتوكل النصب، حدثنا المبرد قال: قال المتوكل لأبى الحسن على الهادى بن محمد الجواد بن عَلِى الرضى بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق: ما يقول ولد أبيك فى العباس ؟ قال: ما يقولون فى رجل فرض الله طاعة نبيه على خلقه، وفرض طاعته على نبيه. فأعجب بجوابه المتوكل إعجابًا. قلت: لا يخفى على الفطن هذه التورية من هذا السيد الجليل وصدقها. وسعى إلى المتوكل بأبى الحسن المذكور بأن فى منزله سلاحًا وكتبًا من الشيعة، وأنه يريد التَوثُّب على الخلافة، فبعث إليه المتوكل جماعة فهجموا على منزله فوجدوه على الأرض مستقبل القبلة يقرأ القرآن، فحملوه على حاله إلى المتوكل، والمتوكل

---

(١) ينظر: مروج الذهب للمسعودى ٤/ ٩٣ .

يشرب الخمر، فأعظمه وأجلسه وقال: اشرب. فقال: والله ما خامر لحمى ودمى قط، فأعفنى، فأعفاه. ثم قال له أنشدنى فأنشد: [من البسيط]

بَاتُوا عَلَى قُلَلِ الْأَجْبَالِ تَحْرُسُهُمْ ... غُلْبُ الرِّجَالِ فَلَمْ تَنفَعْهُمُ[1] القُلَلُ
واسْتُنْزِلُوا بَعْدَ عِزٍّ عَنْ مَعَاقِلِهِمْ ... وَأُودِعُوا حُفْرَةً يَا بِئْسَمَا نَزَلُوا
نَادَاهُمُ صَارِخٌ مِنْ بَعْدِ مَا قُبِرُوا ... أَيْنَ الْأَسِرَّةُ وَالتِّيجَانُ وَالحلل[2]
فَأَفْصَحَ القَبْرُ عَنْهُمْ حِينَ سَاءَلَهُ ... تِلْكَ الوُجُوهُ عَلَيْهَا الدُّودُ يَقْتَتِلُ
قَدْ طَالَمَا أَكَلُوا دَهْرًا وَمَا شَرِبُوا ... فَأَصْبَحُوا بَعْدَ ذَاكَ الْأَكْلِ قَدْ أُكِلُوا

فبكى جعفر والحاضرون وقال: يا أبا الحسن لقد لينت منا قلوبًا قاسية، أعليك دين ؟ قال: نعم، أربعة آلاف. فأمر له بها ورده مكرمًا.

ومما يحكى من كرمه أنه دخل عليه ابن الجهم - وقيل النميرى - فأنشده قصيدة يقول فيها: [من مجزوء الكامل]

وَإِذَا مَـرَرْتَ بِـبِـئْـرِ عُـرْ ... وَةَ فَـاسْـقِـنـى مِـنْ مَـائِـهَـا

وكان بيد المتوكل درتان عظيمتان يقلبهن، فدحا[3] إليه بدرة منهما فقال: استقص بها، فهى والله خير من مائة ألف دينار، قال: لا والله، ولكنى فكرت فى أبيات أعملها آخذ بها الأخرى، فقال: قل، فقال: [من مخلع البسيط]

بِـسُـرَّ مَـنْ رَا إِمَـامُ عَـدْلٍ ... تَـغْـرَقُ مِـنْ كَـفِّـهِ الـبِـحَـارُ
يُرْجَى وَيُخْشَى بِكُلِّ خَطْبٍ ... كَـأَنَّـهُ جَـنَّـةٌ[4] وَنَـارُ
أَلْـمُـلْـكُ فِـيـهِ وَفِـى بَـنِـيـهِ ... مَا اخْـتَـلَفَ الـلَّـيْـلُ وَالـنَّـهَارُ
يَـدَاهُ فِـى الـجُـودِ ضَـرَّتَـانِ ... عَـلَـيْـهِ كِـلْـتَـاهُـمَـا تَـغَـارُ
لَـمْ تَـأْتِ مِـنْهُ الـيَـمِـيَـنُ شَـيْـئًا ... إِلاَّ أَتَـتْ مِـثْـلَـهُ الْـيَـسَـارُ

قال: فدحا إليه بالدرة الأخرى. قلت: رحم الله الكرام المجيزين على دردى النظام بدرى النظام.

وأجاز مروان بن أبى الجنوب على قصيدته التى يقول فيها: [من الطويل]

---

(١) فى المروج: فما أغنتهم .
(٢) فى ط: الكلل . والمثبت من المروج .
(٣) دحا: رمى . ينظر: الوسيط (دحا) .
(٤) فى تاريخ الخلفاء: بحره .

فَأَمْسِكْ نَدَى كَفَّيْكَ عَنِّى وَلاَ تَزِدْ　　فَقَدْ خِفْتُ أَنْ أَطْغَى وَأَنْ أَتَجَبَّرَا

فقال: لا أمسك حتى يغرقك جودى، فأمر له بمائة وعشرين ألف دينار وخمسمائة ثوب ديباج.

قال على بن محمد النديم: دخلت على المتوكل العباسى وعنده الرضى، فقال: يا على من أشعر الناس ؟ قلت: البحترى، قال: ومن بعده ؟ قلت: مروان بن أبى حفصة، فالتفت إلى الرضى وقال: من أشعر الناس فى زماننا ؟ قال: على بن محمد العلوى. قال: وما تحفظ من شعره ؟ قال قوله: [من الطويل]

لَقَدْ فَاخَرَتْنَا مِنْ قُرَيْشٍ عِصَابَةٌ　　بِمَطِّ خُدُودٍ وَامْتِدَادِ الْأَصَابِعِ
فَلَمَّا تَنَازَعْنَا الفَخَارَ قَضَىٰ لَنَا　　عَلَيْهِمْ بِمَا نَهْوىٰ نِدَاءُ الصَّوَامِعِ

قال المتوكل: وما معنى نداء الصوامع ؟ فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله. قال المتوكل: وأبيك إنه لأشعر الناس، ثم أنشده قوله أيضًا: [من المتقارب]

عَصَيْتُ الهَوىٰ وَهَجَرْتُ النِّسَاءَ　　وَكُنْتُ دَوَاءً فَأَصْبَحْتُ دَاءَ
وَمَا أَنْسَ لاَ أَنْسَ حَتَّى المَمَاتِ　　تَرِيبَ الظِّبَاءِ تُجِيبُ الظِّبَاءَ
دَعِينِى وَصَبْرِى عَلَى النَّائِبَاتِ　　فَبِالصَّبْرِ نِلْتُ الثَّرَىٰ وَالثَّوَاءَ
فَإِنْ يَكُ دَهْرِى لَوَىٰ رَأْسَهُ　　فَقَدْ لَقِيَ الدَّهْرُ مِنِّى الْتِوَاءَ
لَيَالِيَ أَرْوِى صُدُورَ الْقَنَا　　وَأَرْوِى بِهِنَّ الصُّدُورَ الظِّمَاءَ
وَنَحْن إِذَا كَانَ شُرْبُ المُدَام　　شَرِبْنَا عَلَى الصَّافِنَاتِ الدِّمَاءَ
بَلَغْنَا السَّمَاءَ بِأَنْسَابِنَا　　وَلَوْلاَ السَّمَاءُ لَجُزْنَا السَّمَاءَ
فَحَسْبُكَ مِنْ سُؤْدَدٍ أَنَّنَا　　بِحُسْنِ البَلاَءِ كَشَفْنَا الْغِطَاءَ
يَطِيبُ الثَّنَاءُ لِآبَائِنَا　　وَذِكْرُ عَلِيٍّ يَزِينُ الثَّنَاءَ
إِذَا ذُكِرَ النَّاسُ كَانُوا مُلُوكًا　　وَكَانُوا عَبِيدًا وَكَانُوا الْإِمَاءَ
هَجَانِى رِجَالٌ وَلَمْ أَهْجُهُمْ　　أَبَى الله لِى أَنْ أَقُولَ الْهِجَاءَ

فوصله لهذه الرواية بمال عظيم

وفى سنة أربع وأربعين ومائتين قتل المتوكل يعقوب بن السكيت الإمام فى العربية؛ وذلك أنه حضر يومًا مجلس المتوكل، وكان يؤدب أولاده، فجاء منهم

المعتز والمؤيد، فقال المتوكل: يا يعقوب، أيما أحب إليك ابناى هذان أم الحسن والحسين ابنا على رضى الله عنهم ؟ فقال يعقوب: والله إن قنبر خادم على خير منك ومن ابنيك. فقال المتوكل للأتراك: سلوا لسانه من قفاه، ففعلوا ذلك فمات، ثم أرسل المتوكل لأولاده دية أبيهم عشرة آلاف درهم[1]، كذا فى « حياة الحيوان ».

وذكر ابن خلكان: كان المتوكل يبغض عليًا، فذكر يومًا على عنده فغض منه، فتمعَّر وجه ابنه المنتصر لذلك، فشتمه أبوه المتوكل وأنشد مواجها له: [من المجتث]

غَضِبَ الفَتَى لابْنِ عَمِّهْ رَأْسُ الفَتَى فِى حِرِ امِّهْ

فحقد عليه وأغرى على قتله مع ما كان مما تقدم من عدوله بالعهد عنه إلى أخيه المعتز. قلت: هذا يؤيد القول الثانى أن المتوكل ناصبى، خلاف ما قاله المسعودى.

وذكر أن على بن الجهم كان بدويًا جافيًا، قدم على المتوكل أول قدمة فأنشده قصيدة يمدحه بها يقول فيها: [من الخفيف]

أَنْتَ كَالْكَلْبِ فِى حِفَاظِكَ لِلوُدِّ وَكَالتَّيْسِ فِى قِرَاعِ الخُطُوبِ
أَنْتَ كَالدَّلْو لاَ عَدِمْتُكَ دَلْوًا مِنْ كِبَارِ الدِّلا كَثِير الذَّنُوبِ

فعرف المتوكل قوته، ورقة قصده، وخشونة لفظه، وعرف أنه ما رأى سوى ما شبه لملازمته البادية وعدم مخالطته، فأمر له بدار حسنة على شاطئ دجلة، وفيها بستان يتخلله النسيم، والجسر قريب منه، وأمر له بجائزة سنية، فلطف طبعه عن أول أمره، وأنشد الأشعار البليغة الرقيقة بعد ذلك.

وحكى أن عبادة المخنث دخل يومًا إلى دار المتوكل، فرأى رطبة مطروحة فأكب ليأخذها، فرآه ابن للمتوكل صغير فأشار بإصبعه إلى استه وقال: يا عم من فتح لك هذه الكوة ؟ فقال له عبادة: الذى فتح لأمك ثنتين، فسمعه المتوكل فأمر بضرب عنقه، فهرب ولم يدر إلى أين يتوجه، فأخذ يهرب فى الصحارى ومعه طبله ونايه، فلما أمعن فى الصحراء خاف أن يدركه الطلب، فرأى غارًا مفتوحًا فدخله وسد بابه بالحجارة، فلما صار إلى أقصاه وجد فيه أسدًا عظيمًا رابضًا ففزع منه وهم الأسد أن

(١) ينظر: معجم الأدباء ٢٠/ ٥١، وفيات الأعيان ٦/ ٣٩٥ - ٣٩٦ .

يثب عليه، فما وسعه إلا أن ضرب الطبل، فلما سمعه الأسد فزع من صوته وهرب يريد الخروج، فوجد باب الغار مسدودًا فربض هناك خائفًا من صوت الطبل. فجعل عبادة تارة يضرب بالطبل، وتارة يزمر بالناى خوفًا من الأسد، ووافق ذلك قدوم الفتح بن خاقان من نزهة كان خرج إليها، فلما سمع صوت الطبل والناى فى الصحراء أنكره، ثم تبعه حتى وقف على باب الغار، وأمر أن يفتح، فلما فتحوه خرج الأسد هاربًا على وجهه، فخرج عبادة وهو يبكى ويصرخ، ويقول: هذا دفعه إلى أمير المؤمنين أعلمه ضرب الطبل والغناء بالناى وشردته على، فقال له الفتح: أنا أرضى أمير المؤمنين، ولك على ألف دينار، فقال: أخاف والله أن يضرب عنقى.

فقال الفتح: أنا أستوهبه دمك، فقال: إن فعلت فقد رضيت. ثم أخذه معه، وأتى به المتوكل، فلما دخل عليه قال: يا أمير المؤمنين، لى إليك حاجة، قال: وما هى ؟ قال: هب لى دم عبادة فأنا الذى أذنبت وليس هو، فقال: ما كانت نيتى إلا أن أضرب عنقه، وقد وهبته لك، فقبل الفتح يده وقال: أنا الذى أطلقت الأسد وما له ذنب، فلما سمع المتوكل ذكر الأسد سأل عن أصل القصة، فقال له الفتح بما رأى، قال: وزعم أن أمير المؤمنين أعطاه ذلك الأسد ليعلمه الطبل والغناء، فضحك المتوكل حتى فحص برجله الأرض وقال: خدعك والله يا فتح، إن الأصل كيت، وأنجز الفتح لعبادة الألف التى وعده بها بوعده السابق. انتهى. كذا فى « بقية الخاطر » لمحمد بن مصطفى الشهير بالكاتى.

قال البحترى: اجتمعنا فى مجلس المتوكل فنعت له سيف هندى، فبعث إلى اليمن فاشترى له بعشرة آلاف فأتى به، فأعجبه ثم قال للفتح: أبغنى غلامًا أدفع إليه هذا السيف لا يفارقنى به، فأقبل باغر التركى، فقال الفتح: هذا موصوف بالشجاعة والبسالة، فدفع المتوكل إليه السيف وزاد فى رزقه، فوالله ما انتضى ذلك السيف إلا ليلة ضربه باغر بالقصر الجعفرى[١]، وكان المتوكل مستغرقًا بجاريته التى اسمها قبيحة وهى أم ولده المعتز لا يصبر عنها ساعة. فوقفت له يومًا وقد كتبت على خديها بالغالية « جعفر » فتأملها ثم أنشأ يقول: [من الطويل]

وَكَاتِبَةٍ بِالمِسْكِ فِى الْخَدِّ جَعْفَرًا بِنَفْسِى مَخَطُّ المِسْكِ مِنْ حَيْثُ أَثَّرَا

---

(١) ينظر: تاريخ الإسلام للذهبى الطبقة الخامسة والعشرون ص٢٠٠ .

لَئِنْ أَوْدَعَتْ سَطْرًا مِنَ المِسْكِ خَدَّهَا   لَقَدْ أَوْدَعَتْ قَلْبِى مِنَ الحُبِّ أَسْطُرَا(١)

وكانت ليلة المتوكل يضرب بها المثل فى السرور الذى يعقبه ترح، يقال: مات بليلة المتوكل، كان قتله ليلة الأربعاء لليلتين مضتا من شهر شوال سنة سبع وأربعين ومائتين، وهو أول مقتول بمعرة ولده المنتصر بعد قتل الأمين بمباشرة طاهر بن الحسين، كانت مدة خلافته أربع عشره سنة وتسعة أشهر وثمانية أيام، وكان عمرهُ أربعين سنة وشهرًا وقيل إحدى وأربعين سنة.

خلافة المنتصر بالله(٢)

محمد بن المتوكل جعفر بن المعتصم بن الرشيد بن المهدى بن المنصور أخى السفاح بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، بويع بالخلافة فى الليلة التى قتل فيها أبوه، ومن الغد البيعة العامة.

ولما ولى خلع أخويه المعتز والمؤيد من ولاية العهد التى عقدها لهما أبوه المتوكل، وأظهر العدل والإنصاف فى الرعية، فمالت إليه النفوس والقلوب مع هيبتهم له، وكان محببًا إلى العلويين، وصولاً لهم، بارًا بهم، أزال عن آل أبى طالب ما كانوا فيه من الخوف والمحنة بمنعهم من زيارة قبر الحسين، ورد « فدك » عليهم، فقال يزيد المهلبى فى ذلك يمدحه: [من الكامل]

وَلَقَدْ بَرَرْتَ الطَّالِبِيَّةَ بَعْدَ مَا   ذَمُّوا زَمَانًا بَعْدَهَا وَزَمَانَا

وَرَدَدتَّ أُلْفَةَ هَاشِمٍ فَرَأَيْتَهُمْ   بَعْدَ الْعَدَاوَةِ بَيْنَهُمْ إِخْوَانَا

وكان حليمًا كريمًا. منّ كلامه: لذة العفو أعذب من لذة التشفى. وأقبح أفعال المقتدر الانتقام.

(١) ينظر: الأغانى ١٩/ ٣١١، البداية والنهاية ١٠/ ٣٥١، سير أعلام النبلاء ١٣/ ٣٣، تاريخ الخلفاء ٣٥٠ .

(٢) ينظر المنتصر بالله فى: شذرات الذهب ٢/ ١١٨، الكامل لابن الأثير ٧/ ٥٤ - ٥٧، وفيات الأعيان ١/ ٣٥٠، النجوم الزاهرة ٢/ ٣٢٧، تاريخ الخلفاء ٣٥٦ - ٣٥٨، تاريخ الخميس ٢/ ٣٧٨، سير أعلام النبلاء ١٢/ ٤٢ - ٤٦، العبر للذهبى ١/ ٤٥٢، فوات الوفيات ٣/ ٣١٧، البداية والنهاية ١٠/ ٣٥٢، تاريخ ابن الوردى ١/ ٢٢٩، العقد الفريد ٤/ ١٦٥، الوافى بالوفيات ٢/ ٢٨٩، البدء والتاريخ ٦/ ١٢٣، المعارف ٣٩٣، تاريخ اليعقوبى ٢/ ٤٨٧، المعرفة والتاريخ ١/ ٢١٠، تاريخ الطبرى ٩/ ١٦٢، تاريخ بغداد ٢/ ١١٩ .

وقال الحافظ الذهبى[(١)]: ذكر نجيح بن على المنجم أن المنتصر جلس للهو، وأمر بفرش بساط من ذخائر الخزينة تداولته الملوك ففرش، فرأى فيه صورة رأس عليه تاج، وعليه كتابة بالفارسية، فطلب من يقرأ تلك الكتابة فأحضر رجل من الأعاجم فقرأها، وعبس عند ذلك، فسأله المنتصر عنها فقال: لا معنى لها، فألح عليه فقال: هى « أنا الملك شيرويه بن كسرى بن هرمز، قتلت أبى فلم أمتع بالملك بعده إلا ستة أشهر ». فتغير وجه المنتصر وقام من ذلك المجلس، وترك اللهو الذى أراده، وبات مغتما وتوعك، ثم رأى فى ليلة وعكه أباه فانتبه فزعًا يبكى، فقالت له أمه: ما يبكيك ؟ فقال: أفسدت دينى ودنياى، رأيت أبى الساعة يقول لى: قتلتنى يا محمد لأجل الخلافة، والله لا تتمتع بها إلا أيامًا قلائل، ثم مصيرك إلى النار، فاستمر موهومًا من هذا المنام فما عاش بعد ذلك إلا أيامًا قلائل، وكان على حذر من الأتراك يسبهم ويلعنهم، ويقول: هؤلاء قتلة الخلفاء؛ فلم يأمنوه؛ فأرادوا قتله فما أمكنهم الإقدام عليه؛ لشدة محاذرته منهم، فدسوا إلى طبيبه ابن طيفور ثلاثين ألف دينار عند توعكه ليسمه فقصده بمبضع مسموم فأحس بذلك وأراد قتل الطبيب، فقال له: إنك تصبح طيبًا وتقدم على قتلى، فأمهلنى إلى الصبح، فأمهله فأصبح ميتًا. وكانت وفاته لأربع خلون من ربيع الأول سنة ثمان وأربعين ومائتين، وعمره ست وعشرون سنة، وقيل: خمس وعشرون وأربعة أيام، ومدة خلافته ستة أشهر.

خلافة المستعين بالله[(٢)]

أحمد بن المعتصم بن هارون. كان فاضلاً دينًا، أخباريًا مطلعًا على التواريخ، متجملاً فى ملبسه. وهو أول من أحدث الأكمام العراض؛ فجعل عرض الكم ثلاثة

---

(١) ينظر: تاريخ الإسلام للذهبى [الطبقة الخامسة والعشرون] ص ٤١٩ - ٤٢٠، تاريخ بغداد ٢/ ١٢٠ - ١٢١

(٢) ينظر المستعين بالله فى: المعارف ٣٩٣، تاريخ اليعقوبى ٢/ ٤٩٤، البدء والتاريخ ٦/ ١٢٣، العقد الفريد ٤/ ١٦٥، تاريخ الخميس ٢/ ٣٨٩، تاريخ الخلفاء ٣٥٨ - ٣٥٩، شذرات الذهب ٢/ ١٢٤ - ١٢٦، أخبار الدول ١٦١ وما بعدها، البداية والنهاية ١١/ ٢ و١١ وما بعدها، نهاية الأرب ٢٢/ ٣٠١ - ٣١٤، وفيات الأعيان ١/ ٤٧٩، تاريخ ابن الوردى ١/ ٢٣٠، دول الإسلام ١/ ١٥٠، النجوم الزاهرة ٢/ ٣١٣ وما بعدها، فوات الوفيات ١/ ١٤٠ - ١٤٣)، تاريخ بغداد ٥/ ٨٤ - ٨٦، المحبر ٤٤، تاريخ الطبرى ٩/ ٢٥٤ - ٣٦٣، سير أعلام النبلاء ١٢/ ٤٦-٥٠ .

أشبار، وهو عم المنتصر قبله، أخو المتوكل أبيه. وإنما قدمته الأتراك وعدلوا عن أولاد المتوكل؛ لأنهم كانوا قتلوا المتوكل فخافوا أن يلي الخلافة أحد من أولاده فيأخذ بثأر أبيه؛ فاختاروا من أولاد المعتصم أحمد هذا، ولقبوه بالمستعين بالله.

أمه أم ولد تسمى مخارق، وما كان له من الخلافة إلا الاسم، وكان المماليك الأتراك مستولين على الملك، وكان الأمر جميعه لكبيرى الأتراك « وصيف، وبغا » التركيين حتى قيل فى ذلك: [من الرجز]

خَلِيفَةٌ فِى قَفَصٍ بَيْنَ وَصِيفٍ وبغا
يَقُولُ مَا قَالاَ لَهُ كَمَا تَقُولُ البَبَّغَا

والببغا: هى الطير المسمى بالدرة، واستمر كذلك وهو مترصد لهما، إلى أن ظفر بوصيف فقتله، وهرب باغر الذى كان سطا فى المتوكل وقتله، فتنكرت له الأتراك فخرج عنهم من « سر من رأى » إلى بغداد، فأرسلوا إليه يعتذرون، ويسألونه العودة إلى « سر من رأى »، فامتنع منهم، فلما أبى قصد الأتراك خلعه، فأتوا إلى الحبس، فأخرجوا محمدًا أبا عبد الله بن المتوكل، ولقبوه المعتز بالله، وبايعوه وعمره تسعة عشر عامًا، ولم يل الخلافة أصغر منه، وجيشوا على المستعين بالله جيشًا إلى أن خلع نفسه، وأشهد القضاة والعدول على نفسه بذلك، وانحدروا به إلى واسط وحبسوه تسعة أشهر، ثم دسوا إليه سعيدًا الحاجب فذبحه فى الحبس فى ثالث شوال سنة اثنتين وخمسين ومائتين، وجاء برأسه إلى المعتز وهو يلعب الشطرنج فقيل له: هذا رأس المخلوع. فقال: دعوه هناك حتى أفرغ من اللعب، ثم أمر بدفنه وعمره إحدى وثلاثون سنة وثلاثة أشهر، وخلافته إلى زمان خلعه سنتان وثمانية أشهر وستة عشر يومًا.

* * *

خلافة المعتز بالله(١)

محمد بن المتوكل جعفر بن المعتصم بن الرشيد هارون بن المهدى محمد بن المنصور عبد الله كان بديع الحسن جدًّا، مليح الصورة ليس فى الخلق أجمل منه حسنًا، كان مستضعفًا مع الأتراك، وكان صالح بن وصيف مستوليًا عليه، وهو خائف منه، فاجتمع الجند عليه، وطلبوا منه أرزاقهم، ووعدوه أنه إذا أنفق عليهم أرزاقهم ركبوا معه على صالح بن وصيف، فيقتلوه ويصفو الملك له، ولم يكن فى خزائنه مال يصرفه عليهم فطلب من أمه وكانت تركية اسمها قبيحة لفرط جمالها بين النساء، فأبت أن تعطيه وشحت عليه بالمال، وسخت بولدها وكان معها مال عظيم فاتفق الأتراك على خلعه، وركب عليه صالح بن وصيف ومحمد بن بغا وهجموا عليه وجروا برجله، وأوقفوه فى الشمس، فصار يرفع رجلًا ويضع رجلًا، وعذبوه وهم يلطمونه ويقولون: اخلعها ويتقى بيديه ويأبى، ثم أجابهم، وخلع نفسه؛ فأدخلوه الحمام، ومنعوه الماء إلى أن مات عطشًا. وقيل: أتوه بماء مالح فشربه وسقط ميتًا، ثم أخرجوه وأشهدوا عليه أنه لا أثر به، وصادر صالح بن وصيف قبيحة أم المعتز وعذبها حتى أخذ منها ألف ألف دينار ذهبًاونصف أردب لؤلؤ ومثله زمرد وسدس أردب ياقوت أحمر، ثم أخرجت إلى مكة وأقامت بها إلى أن ماتت، وأقل الناس الترحم عليها؛ حيث إن هذا المال عندها وشحت به عن ولدها عند احتياجه؛ فكان عليه ما كان.

توفى فى ثالث شعبان سنة خمس وخمسين ومائتين. مدة خلافته سنتان وأحد عشر شهرًا، وعمره اثنتان وعشرون سنة وسبعة أشهر.

* * *

(١) ينظر: [المعتز بالله] فى: شذرات الذهب ٢/ ١٣٠، تاريخ الخلفاء ٣٥٩، أخبار الدول ١٦٢ و١٦٣، سير أعلام النبلاء ١٢/ ٥٣٢، الوافى بالوفيات ٢/ ٣٩١ - ٣٩٤، فوات الوفيات ٣/ ٣١٩ - ٣٢١، تاريخ بغداد ٢/ ١٢١، تاريخ الخميس ٢/٣٧٩، النجوم الزاهرة ٣/ ٢٣، المعارف ٣٩٤، تاريخ اليعقوبى ٢/ ٥٠٠ - ٥٠٤، تاريخ الطبرى ٩/ ١٧٦ وما بعدها، البدء والتاريخ ٦/ ١٢٣، العقد الفريد ٤/١٦٦، تاريخ الزمان ٤٠ - ٤٢، خلاصة الذهب المسبوك/ ٢٣٠ .

خلافة المهتدى بالله(١)

أبو إسحاق بن الواثق هارون بن المعتصم بن الرشيد بن المهدى بن المنصور الخليفة الصالح، ولد فى خلافة جده، سنة بضع عشرة ومائتين، وبويع بالخلافة لليلة بقيت من رجب سنة خمس وخمسين ومائتين، وما قبل بيعة أحد حتى أتى إليه بالمعتز قبل قتله، فلما رآه قام له وسلم على المعتز بالخلافة وجلس بين يديه فجيء بالشهود والقاضى ابن أبى الشوارب فشهدوا على المعتز أنه عاجز عن الخلافة، واعترف بذلك ومد يده وبايع المهتدى، فارتفع حينئذ المهتدى إلى صدر الديوان، وقال: لا يجتمع سيفان فى غمد، وتمثل بقول أبى ذؤيب: [من الطويل]

تُرِيدِينَ كَيْمَا تجمعينى وَخَالِدًا وَهَلْ يُجْمَعُ السَّيْفَانِ وَيْحَكِ فِى غِمْدِ

وكان المهتدى بالله أسمر، رقيقًا، مليح الوجه، ورعًا متعبدًا، عادلاً، قويًا فى أمر الله تعالى، بطلاً شجاعًا، لكنه لم يجد ناصرًا ولا معينًا على الحق والخير. قال أبو بكر بن الخطيب(٢): قال أبو موسى العباسى: لم يزل صائمًا منذ ولى إلى أن قتل، قال العباس بن هاشم بن القاسم: كنت بحضرة المهتدى عشية فى رمضان، فوثبت لأنصرف، فقال لى: اجلس فجلست، وتقدم فصلى بنا ثم دعا بالطعام، فإذا طبق عليه خبز وآنية فيها ملح وخل وزيت، فدعانى إلى الأكل فقال: كل واستوف فليس ههنا من الطعام غير ما ترى؛ فعجبت، ثم قلت: يا أمير المؤمنين، قد أسبغ الله نعمته عليك، فقال: إن الأمر على ما وصفت، ولكنى فكرت فى أنه كان فى بنى أمية عمر بن عبد العزيز، فكان من التقلل والتقشف على ما بلغك، فغرت على بنى هاشم فأخذت نفسى بما رأيت(٣).

وقال ابن عرفة النحوى: حدثنى بعض الهاشميين، قال: كان للمهتدى سفط فيه

---

(١) ينظر [المهتدى بالله] فى: شذرات الذهب ٢/ ١٣٢، النجوم الزاهرة ٣/ ٢٦، تاريخ الخميس ٢/ ٣٨١، الوافى بالوفيات ٥/ ١٤٤، البداية والنهاية ١١/ ١٧، فوات الوفيات ٤/ ٥٠، تاريخ الخلفاء ٣٦١، سير أعلام النبلاء ١٢/ ٥٣٥، تاريخ بغداد ٣/ ٣٤٧، الكامل لابن الأثير ٧/ ١٩٨ - ٢٠٤، تاريخ اليعقوبى ٢/ ٥٠٤ - ٥٠٦، تاريخ الطبرى ٩/ ١٥٤، البدء والتاريخ ٦/ ١٢٣، تاريخ الزمان ٤٢ - ٤٤، خلاصة الذهب المسبوك ٢٢١ .

(٢) ينظر: تاريخ بغداد ٣/ ٣٤٩ .

(٣) ينظر: تاريخ بغداد ٣/ ٣٥٠ .

جبة صوف وكساء، وكان يلبسه بالليل ويصلى فيه، وكان قد اطرح الملاهى، وحرم الغناء، وحسم عن الظلم، وكان يشرف على الدواوين بنفسه، ويجلس الكتاب بين يديه، فتبرم به بابك التركى وانحصر، وكان ظلومًا، غشوما فأمر المهتدى بقتله، فلما قتل هاجت الأتراك، ووقع الحرب بينهم وبين المغاربة؛ فقتل من الفريقين أربعة آلاف، وخرج المهتدى والمصحف فى عنقه، وهو يدعو الناس إلى نصرته، والمغاربة معه وبعض العامة، فحمل عليهم طنبغا أخو بابك فهزمهم، ومضى المهتدى منهزمًا والسيف فى يده وقد جرح جرحين، حتى دخل دار محمد بن أبى داود، فتجمعت الأتراك وهجموا عليه، وأخذوه أسيرًا، وحمل على دابة، وأردف خلفه سائس بيده خنجر، وأدخل إلى دار بعضهم وجعلوا يصفعونه ويقولون: اخلعها، فأبى عليهم، فسلم إلى رجل منهم فوطئ مذاكيره حتى قتله. وتوفى فى رجب سنة ست وخمسين ومائتين، وكانت مدة خلافته سنة واحدة إلا خمسة عشر يومًا، عمره ثمان وثلاثون سنة وأربعة أشهر.

خلافة المعتمد على الله(١)

أبى جعفر، أحمد بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد بن المهدى بن المنصور.

لما قتل متغلبة الأتراك الخليفة المهتدى صبرًا عمدوا إلى الحبس، وأخرجوا ابن عمه أبا جعفر أحمد بن المتوكل، ولقبوه بالمعتمد على الله، وبايعوه سنة ست وخمسين، أمه أم ولد اسمها فينان، وكان له انهماك على اللذات واللهو، فقدم أخاه طلحة بن المتوكل ولقبه بالموفق بالله، وجعله ولى عهده، ولاه المشرق، والحجاز، واليمن، وفارس،وطبرستان، وسجستان، والسند. وكان له ولد صغير اسمه جعفر ولاه المغرب، والشام، والجزيرة، ولقبه المفوض إلى الله، وعقد لهما لواءين أبيض وأسود، وعقد لهما البيعة، وشرط على أخيه الموفق بالله أنه إن حدث به الموت وولده صغير كان الموفق ولى عهده، وإن كان حينئذٍ ولده كبيرًا كان هو ولى عهده،

(١) ينظر المعتمد على الله فى: مرآة الجنان ٢/ ١٩٣، تاريخ الخميس ٢/ ٣٨٣، تاريخ ابن الوردى ١/ ٢٤١، تاريخ الخلفاء ٣٦٣ - ٣٦٨، دول الإسلام ١/ ١٦٩، البداية والنهاية ١١/ ٦٥، وفيات الأعيان ١/ ١٧٣، خلاصة الذهب المسبوك ٢٣٣، الكامل لابن الأثير ٧/ ٤٥٥، تاريخ الزمان ٤٤ - ٤٦، العقد الفريد ٤/ ١٦٦، تاريخ الطبرى ٩/ ٤٧٤، تاريخ بغداد ٤/ ٦٠ .

وكتب بذلك معاقدة كتب كل منهما خطة عليه، وكتب القضاة والعدول خطوطهم عليها، وأرسلها إلى مكة فعلقت فى الكعبة، وما أفاد مع هذا حذر من قدر؛ كان الموفق عاقلاً مدبرًا شجاعًا، مشتغلا بأمور المملكة، ملتفتًا لأمور الرعية، وكان أخوه المعتمد مكبًا على لهوه ولذاته، مهملاً أحوال الرعية غير ملتفت إليها؛ فكرهه الناس وأحبوا أخاه طلحة الموفق، وظهرت فيه نجابات كثيرة، وكان ميمونًا مظفرًا فى الحروب.

وظهر أيام المعتمد طائفة من الزنج، وتغلبوا على المسلمين، وكان لهم رئيس اسمه يهبول يدعى أنه أرسله الله إلى الخلق، وادعى علم المغيبات، وقتل فى المسلمين. . . .، ذكر الصولى أنه قتل ألف ألف وخمسمائة ألف مسلم، وكان يستأسر نساء المسلمين ويبيعهن فى الأسواق بأبخس ثمن، وينادى على الشريفة العلوية بدرهمين، وكان عند الزنجى الواحد منهم عشر شرائف يطؤهن ويمتهنهن فى الخدم الشاقة، وكان ذلك من أعظم المصائب فى الإسلام. وتملك هذا الكافر مدنًا كثيرة للمسلمين، واستأصل أهلها، وجعل دار مملكته واسط ورامهرمز وما والاهما؛ فانتدب لقتاله الموفق بالله، وجمع الجموع والعساكر ممن حنكته الحروب، ووسمته قوارع الخطوب، فاتخذهم جنانًا ويدًا، ورضى بهم ساعدًا وعضدًا، فركض بهم إلى الأعداء اللئام، الكفرة الطغام. فالتقت الفئتان على ضربية الحرب، وتساقيا كئوس الطعن والضرب، فجفلت السودان من لامع الصارم الأبيض، وفروا كما يفر الليل الأسود من النهار المبيض، وقتل أميرهم يهبول، ونصر الله ملة الإسلام، ومحا بنوره ذلك الظلام، واستردت المدائن التى أخذها وغيرها من البلاد، واطمأن المسلمون وكافة العباد، ولقبوه بالناصر لدين الله، وصار له حينئذٍ لقبان: الموفق بالله، والناصر لدين الله. ودخل إلى بغداد فى عظمة وعلو شأن، ورأس ذلك الكافر ورءوس أصحابه على رماح، ودعا له المسلمون، وقصدته الشعراء بالمدائح، وأحبه الناس، وبعد صيته واستفحل أمره.

واستمر أخوه المعتمد على حاله منهمكًا فى اللهو واللذات وله اسم الخلافة، وجميع الأمور يتلقاها الموفق بالله الناصر لدين الله، فحسده أخوه المعتمد، لذهابه بالذكر والصيت، وأراد هضمه؛ لاستيلائه على المملكة ورضا الناس عنه، فلم يدر

كيف يصنع فى ذلك، فاستعان على هضم جانب أخيه بصاحب مصر يومئذٍ أحمد بن طولون، وكان ملكًا شجاعًا فاتكًا، صاحب جيوش وجنود، كثير الأموال والخزائن، مستقلا بمملكة مصر يأخذ خراجها، فكاتبه المعتمد، وأمره أن يقاتل أخاه ليخف أمره ويهون بذلك، فجرت بينهما حروب اشتغل بها الموفق عن أخيه المعتمد، وصار يواليه تارة ويداريه، ويباعده تارة ويدانيه. ومضى على ذلك زمان والموفق بعد مرهن.

وكان للموفق ابن نجيب اسمه أحمد جعله الموفق ولى عهده واستعان به فى حروبه، وظهرت له نجابة وقوة، فخشى الموفق على نفسه وعلى أخيه المعتمد لما رأى من شجاعته وبسالته؛ فأودعه بطن الحبس ووكل به من يثق به فى أمره، واستمر محبوسًا إلى أن اشتد حال الموفق فى المرض فبادر غلمانه إلى الحبس، وأخرجوا ولده أحمد منه فلما رآه الموفق قال: ياولدى لهذا اليوم خبأتك، وكان ذلك قبل موته بثلاثة، وفوض إليه وأوصاه بعمه المعتمد خيرًا، ثم مات بعد ثلاثة أيام.

وشمت المعتمد بموت أخيه، وظن أنه استراح وصفا له دهره، والدهر ما صفا لأحد من البشر؛ وإن صروفه تأتى بالعبر والغير. فما حال عليه الحول حتى سلب ذلك الطول والحول، ولم يكن له بعد خذلانه الناصر من قوة ولا ناصر. وتوفى يوم الإثنين لإحدى عشرة ليلة بقيت من رجب سنة تسع وسبعين ومائتين. وكانت مدة خلافته اثنتين وعشرين سنة وأحد عشر شهرًا وعمره أربعون سنة وستة أشهر.

خلافة المعتضد(١)

أحمد بن الموفق بالله طلحه بن المتوكل بن المعتصم.

بويع له بالخلافة بعد وفاة عمه المعتمد فى تاريخ وفاته المذكور آنفًا. أمه أم ولد اسمها صواب، كان قليل الرحمة، مهيبًا ظاهر الجبروت، وافر العقل، شجاعًا

(١) ينظر المعتضد فى: شذرات الذهب ٢/ ١٩٩، الانتصار لابن دقماق ٤/ ٦٧، نهاية الأرب ٢٢/ ٣٤٦، بدائع الزهور ١/ ١٧١، تاريخ ابن خلدون ٣/ ٣٤٦ - ٣٥٤، النجوم الزاهرة ٣/ ١٢٦، تاريخ الخلفاء ٥٨٨ - ٥٩٩، وفيات الأعيان ١/ ١٧٣، الوافى بالوفيات ٦/ ٤٢٨، البداية والنهاية ١١/ ٨٦ - ٩٤، فوات الوفيات ١/ ٧٢، تاريخ بغداد ٤/ ٤٠٣ - ٤٠٧، تاريخ مختصر الدول ١٥٠، سير أعلام النبلاء ١٣/ ٤٦٣، الكامل لابن الأثير ٧/ ٣٣٨ وما بعدها، البدء والتاريخ ٦/ ١٢٥، تاريخ اليعقوبى ٢/ ٥١٠، تاريخ الطبرى ٩/ ٥٣٠ .

مظفرًا. دانت له الأمور فسالمه كل مخالف ومعاند، شديد السطوة، حسن السياسة، يقدم على الأسد وحده، إذا غضب على أحد ألقاه في حفرة وطم عليه التراب[(١)]، وله تصرفات شتى في قتل من غضب عليه، أسقط المكوس ورفع المظالم عن الرعية، وأظهر عز الملك بعد ما ذل ووهن، وجدد ملك بني العباس، وفي ذلك يقول عبد الله بن المعتز: [من السريع]

أَمَا تَرَى مُلْكَ بَنِى هَاشِمٍ عَادَ عَزِيزًا بَعْدَ مَا ذُلِّلا

يَا طَالِبَ المُلْكِ فَكُنْ مِثْلَهُ تَسْتَوْجِبِ المُلْكَ وَإِلاَّ فَلاَ

وفيه يقول أبو العباس على بن الرومى: [من الطويل]

هَنِيئًا بَنِى الْعَبَّاسِ إِنَّ إِمَامَكُمْ إِمَامُ الْهدَى وَالْبَأْسِ وَالجودِ أَحْمَدُ

كَمَا بِأَبِى العَبَّاسِ أُسِّسَ[(٢)] مُلْكُكُمْ كَذَا بِأَبِى الْعَبَّاسِ أَيْضًا يُجَدَّدُ

إِمَامٌ يَظَلُّ الأَمْسُ يَشْكُو فِرَاقَهُ تأسُّفَ مَلْهُوفٍ وَيَشْتَاقُهُ الْغَدُ[(٣)]

وكان مع سطوته وبأسه يتوخى العدل،ويبرز المراء في صورة الجبروت والعسف، وهو في ذلك محق في الباطن، فمن ذلك ما روى عن عبد الله بن حمدون قال: خرج المعتضد للصيد يومًا وأنا معه، فمر بمقثاة فعاث بعض جنوده فيها، فصاح صاحبها واستغاث بالمعتضد، فأحضره وسأله عن سبب صياحه فقال: ثلاثة من غلمانك نزلوا المقثاة فأخربوها. فأمر عبيده بإحضارهم، فضرب أعناقهم ومضى وهو يحادثني فقال لي: اصدقني ما الذي تنكره الناس من أحوالي ؟ فقلت له: سفكك للدماء. فقال: ما سفكت دمًا حرامًا قط، فقلت: بأي ذنب قتلت أحمد ابن الطيب ؟ فقال: دعاني إلى الإلحاد فقتلته لما ظهر لي إلحاده؛ لنصرة الدين. فقلت: فالثلاثة الذين نزلوا المقثاة الآن ؟ فقال: والله ما قتلتهم، وإنما ثلاثة من قطاع الطرق، وأوهمت الناس أنهم هم، ثم أحضر صاحب الشرطة فأمره بإحضار الثلاثة الذين نزلوا المقثاة فأحضرهم وشاهدتهم، ثم أمر بإعادتهم إلى الحبس. وهكذا ينبغي تدبير السياسة، وإظهار النصفة، وتخويف الجند

---

(١) ينظر: مروج الذهب (٤/ ٢٣٣) .

(٢) في تاريخ الخلفاء: أنشئ .

(٣) وروايته في تاريخ الخلفاء:

إمام يظل الأمس يعمل نحوه تلهف ملهوف ويشتاقه الغد

وإرعابهم[١].

ومما وقع فى أيام المعتضد من عمارة المسجد الحرام زيادة دار الندوة، وهى الزيادة التى فى شامى المسجد وهى أول الزيادتين، والأخرى التى فى الجانب الغربى، سيأتى أن الآمر بها المقتدر، وبينهما قريب من عشرين سنة، وليست الزيادة هى عين دار الندوة، بل محلها فى تلك الأماكن لا على التعيين من خلف مقام الحنفى إلى آخر الزيادة.

قلت: ما سبق بيانه أن قصيًا أول من بنى مكة، ثم بنت قريش بيوتها، وأن البيوت كانت محدقة بالكعبة ، ولها أبواب شارعة إلى المطاف، وبين كل دارين طريق إلى المطاف، وهو هذه البقعة المرخمة - يقتضى أن دار الندوة هى محل مقام الحنفى الآن بلا شبهة، فتأمل ذلك.

ومن شعر المعتضد قاله حين مرض: [من الطويل]

تَمَتَّعْ مِنَ الدُّنْيَا فَإِنَّكَ لاَ تَبْقَىٰ ... وَخُذْ صَفْوَهَا مَهْمَا[٢] صَفَتْ وَدَعِ الرَّنْقَا

وَلاَ تَأْمَنَنَّ الدَّهْرَ إِنِّى أَمِنْتُهُ ... فَلَمْ يُبْقِ لِى حَالاً وَلَمْ يَرْعَ لِى حَقًّا

قَتَلْتُ صَنَادِيدَ الرِّجَالِ وَلَمْ أَدَعْ ... عَدُوًّا وَلَمْ أُمْهِلْ عَلَى حَسَدٍ خَلْقَا

وَأَخْلَيْتُ دَارَ الْمُلْكِ عَنْ كُلِّ نَازِلٍ ... وَفَرَّقْتُهُمْ غَرْبًا وَمَزَّقْتُهُمْ شَرْقَا[٣]

وَلَمَّا بَلَغْتُ النَّجْمَ عِزًّا وَرِفْعَةً ... وَدَانَتْ رِقَابُ الخَلْقِ أَجْمَعَ لِى رِقًّا

رَمَانِى الرَّدَىٰ سَهْمًا فَأَخْمَدَ جَمْرَتِي ... فَهٰأنذا فِى حُفْرَتِى عَاجِلاً مُلْقَىٰ

وَأَفْسَدتُ دُنْيَاىَ وَدِينِى سَفَاهَةً ... فَمَنْ ذَا الَّذِي مِنِّى بِمَصْرَعِهِ أَشْقَىٰ

فَيَا لَيْتَ شِعْرِى بَعْدَ مَوْتِىَ مَا أَرَى ... لِرَحْمَةِ رَبِّى أَمْ إِلَىٰ نَارِهِ أُلْقَىٰ[٤]

ثم عهد إلى ابنه على ولقبه المكتفى بالله، وأخذ له البيعة قبل موته بثلاثة أيام.

---

(١) ينظر: المنتظم (٥/ ١٢٣)، نهاية الأرب (٢٢/ ٣٦١)، الوافى بالوفيات (٦/ ٤٣٠)، تاريخ الخلفاء/ ٣٦٨ .

(٢) فى تاريخ الخلفاء: ما إن .

(٣) روايته فى الخلفاء:

وأخليت دور الملك عن كل بازل ... وشتتهم غربًا ومزقتهم شرقا

(٤) وجاء هذا الشطر فى تاريخ الخلفاء هكذا:

... ... إلى نعمة الله أم إلى ناره ألقى

حكى المسعودى[١] أن المعتضد كان مفرطًا فى الجماع، فاعتل من إفراطه وطالت علته، وغشى عليه؛ فشك من حوله فى موته، وكان لا يجسر أحد عليه لشدة هيبته، فتقدم إليه الطبيب ليخبره بجس النبض، ففتح عينيه وفطن لذلك، فرفس الطبيب برجله رفسة رماه أذرعا فمات الطبيب !! ثم مات المعتضد من ساعته.

وكان أسمر اللون، مهيبًا جدًّا، معتدل الشكل. توفى لسبع بقين من ربيع الأول سنة تسع وثمانين ومائتين، وقيل: سنة سبع وثمانين، وكان مدته تسع سنين وتسعة أشهر وأربعة أيام، وعمره ست وأربعون سنة وشهر.

خلافة المكتفى بالله[٢]

على بن المعتضد بن الموفق بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد بن المهدى بن المنصور.

لما توفى المعتضد كان ابنه المكتفى غائبًا بالرقة، فنهض بأعباء البيعة له الوزير أبو الحسين القاسم بن عبيد الله، وكتب إليه فوصل، وكان يوم دخوله يومًا مشهودًا زينت له بغداد، ونزل دار الخلافة وخلع على الوزير سبع خلع، ومدحه الشعراء وأنعم عليهم بالجوائز السنية.

كان مولده فى غرة ربيع الأول سنة مائتين وأربع وستين. وأمه أم ولد تركية اسمها غنجك[٣]، وكان مليح الصورة يضرب بحسنه المثل. قال ابن المعتز: [من الكامل]

مَيَّزْتُ[٤] بَيْنَ جَمَالِهَا وَفِعَالِهَا ... فَإِذَا المَلاَحَةُ بِالْجِنَايَةِ لاَ تَفِي

---

(١) ينظر: مروج الذهب ٤/ ٢٧٤، سير أعلام النبلاء ١٣/ ٤٦٧، الوافى بالوفيات ٦/ ٤٢٩، نهاية الأرب ٢٢/ ٣٥٨ .

(٢) ينظر [المكتفى بالله] فى: شذرات الذهب ٢/ ٢١٩، نهاية الأرب ٢٣/ ١١ - ٢٣، تاريخ الخلفاء ٦٠٠ - ٦٠٣، كنز الدرر ٧٣ - ٧٦، سير أعلام النبلاء ١٣/ ٤٧٩ - ٤٨٥، وفيات الأعيان ٦/ ١٩٨ - ٢٠٠، دول الإسلام ١/ ١٧٩، مرآة الجنان ٢/ ٢٢٤، العبر ٢/ ١٠٢، أخبار الدول ١٦٥، البداية والنهاية ١١/ ٩٤، النجوم الزاهرة ٣/ ١٨٣، الكامل لابن الأثير ٧/ ٥١٦، تاريخ الطبرى ١٠/ ٣٦، العقد الفريد ٤/ ١٦٦، المنتظم ٦/ ٣١ - ٣٣، تاريخ الزمان ٤٩، تاريخ ابن الوردى ١/ ٢٤٩ .

(٣) فى تاريخ الخلفاء: اسمها جيجك .

(٤) فى تاريخ الخلفاء: قايست .

وَاللَّهِ لاَ كَلَّمْتُهَا وَلَوَ انَّهَا كَالشَّمْسِ أَوْ كَالْبَدْرِ أَوْ كَالْمُكْتَفِي

كان وسيمًا جميلاً، بديع الحسن، وردى اللون، معتدل الطول، أسود الشعر. قال الصفدى فى « شرح اللامية »: ومن أين للمكتفى صفة الحسن ؟ والذى دلت عليه التواريخ أنه كان أسمر أعين قصيرًا، وليست هذه من صفات الحسن. قلت: المثبت مقدم على النافى؛ سيما وأكثر التواريخ فيها وصفه بالحسن كما هنا.

وكان إلى حب على بن أبى طالب. امتدحه شاعر بقصيدة يذكر فيها فضل أولاد العباس على أولاد على، فقطع المكتفى عليه إنشاده وقال: كأنهم ليسوا ابنى عم وإن لم يكونوا خلفاء، ما أحب أن يخاطب أهلنا بشيء من ذلك، ولم يسمع القصيدة ولا أجازه عليها: وذكر عبد الغفار فى « تاريخ نيسابور » عن أبى المدينى - وكان معلمًا للمكتفى قبل أن يلى الخلافة، فلما أفضت إليه كتب إليه بهذين البيتين: [من الخفيف]

عِنْدَ أَهْلِ التُّقَىٰ وَأَهْلِ الْمُرُوَّهْ حَقُّ الأُسْتَاذِ فَوْقَ حَقِّ الأُبُوَّةْ

وَأَحَقُّ الأَنَامِ أَنْ يَحْفَظُوا ذَا كَ وَيرْعَوْهُ أَهْلُ بَيْتِ النُّبُوَّهْ

ومن أعظم الحوادث فى أيام المكتفي ظهور القرامطة الملحدين؛ بل الكفرة أعداء الدين فأول من خرج منهم يحيى بن بهرويه القرمطى، وكانت دار ملكهم هجر، وهم طائفة إباحية يدعون أن الإمام الحق بعد النبى ﷺ محمد بن الحنفية، ويسندون إليه أقاويل باطلة لا أصل لها، فجهز عليه المكتفى جيوشًا فقتله، فقام بعده أخوه الحسين وظهر شأنه[1]، وظهر ابن عمه عيسى ابن مهرويه، ويلقب بالمدثر، وزعم أنه المراد بالسورة الشريفة يا أيها المدثر، ولقب غلامًا مظلمًا بالمطوّق بالنور، وزعم أنه المهدى، ودعا لنفسه على المنابر، وأفسد بالشام وعاث؛ فحارب المكتفى الثلاثة وقتلهم، وطيف برءوسهم فى البلاد فى سنة إحدى وتسعين ومائتين.

ولم يطل زمان المكتفى؛ توفى ليلة الأحد لاثنتى عشرة خلت من ذى القعدة سنة خمس وتسعين ومائتين، ومدة خلافته ست سنين وسبعة أشهر، وعمره إحدى وثلاثون سنة وثمانية أشهر وثلاثة عشر يومًا.

---

(١) ينظر تفاصيل ذلك: الكامل لابن الأثير ٧/ ٥٢٣ - ٥٢٦، البداية والنهاية ١١/ ٩٦، سير أعلام النبلاء ١٣/ ٤٨٢، العبر للذهبى ٢/ ٨٤ .

خلافة المقتدر بالله[1]

أبو الفضل جعفر بن المعتضد بن الموفق بالله بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد ابن المهدى بن المنصور.

بويع له بالخلافة ببغداد يوم مات أخوه المكتفى وهو ابن ثلاث عشرة سنة وأربعين يومًا، ولم يل الخلافة قبله ولا بعده أصغر منه، وضعف دست الخلافة فى أيامه.

ذكر صاحب « النوادر » وغيره أن صافى مولى المعتضد قال: مشيت يومًا بين يدى المعتضد وهو يريد دار الحريم، فلما بلغ باب دار المقتدر وقف وتسمع وتطلع من خلل الباب، فإذا هو بالمقتدر وله إذ ذاك خمس سنين، وبين يديه طبق فضة فيه عنقود عنب فى وقت فيه العنب عزيز جدًا، والصبى يأكل منه واحدة بعد واحدة ثم يطعم الجماعة عنبه عنبة على الدور، حتى فنى العنقود والمعتضد يتمزق غيظًا، ثم رجع ولم يدخل الدار، فرأيته مهمومًا، فقلت: ما سبب هذا يا سيدى ؟ فقال: يا صافى، لولا العار والنار لقتلت هذا الغلام اليوم، فإن فى قتله صلاحًا للأمة. فقلت: يا سيدى، ما شأنه، وأى شيء غمك أعيذك بالله من هذا ؟ فقال: ويحك، أنا بصير بما أقول؛ أنا رجل قد سست الأمور، وأصلحت الدنيا بعد فساد شديد، ولا بد من موتى، وأنا أعلم أن الناس بعدى لا يختارون أحدًا على ولدى، إنهم سيجلسون ابنى عليًا - يعنى المكتفى - وما أظن عمره يطول للعلة التى به - يعنى الخنازير التى فى حلقه - فيتلف عن قريب ولا يرى الناس إخراجها عن ولدى، ولا يجدون بعد أمثل من جعفر - يعنى المقتدر - وهو صبى وله من الطبع والسخاء ما قد رأيته من أنه أطعم الوصائف مثل ما أكل، وساوى بينه وبينهم فى شيء عزيز فى العالم. والشح على مثله فى طبائع الصبيان غالب، فيحتوى على النساء لقرب عهده بهن، فيقسم ما جمعته من الأموال كما قسم العنب، ويبذر خراج الدنيا،

---

(١) ينظر المقتدر بالله فى: شذرات الذهب ٢/ ٢٨٤، النجوم الزاهرة ٣/ ٢٣٣، تاريخ الخميس ٢/ ٣٨٦، البداية والنهاية ١١/ ١٦٩، مرآة الجنان ٢/ ٢٧٣، الوافى بالوفيات ١١/ ٩٤، تاريخ ابن الوردى ١/ ٢٦٢، تاريخ ابن خلدون ٣/ ٣٥٨، أخبار الدول ١٦٥، تاريخ الخلفاء ٢٧٨ - ٣١٦، سير أعلام النبلاء ١٥/ ٤٣ - ٥٦، العبر للذهبى ٢/ ١٨١، خلاصة الذهب المسبوك ٢٣٩، نهاية الأرب ٢٣/ ٢٢ - ١٠٥، الكامل لابن الأثير ٨/ ٥٨ - ٦٥، تاريخ بغداد ٧/ ٢١٣ - ٢١٩، المنتظم ٦/ ٢٤٣، تاريخ الطبرى ١٠/ ٤٢، تاريخ الزمان ٥٠ وما بعدها .

فتضيع الثغور، وتعظم الأمور، وتحدث الحوادث والأسباب التى فيها زوال الملك عن بنى العباس. فقلت: يا مولاى، يتخلق بأخلاقك، ولايكون هذا الذى ظننت. فقال: ويحك، احفظ عنى ما أقول؛ فإنه كما قلت. ومكث يومه مهمومًا. وضربه الدهر ضربة ومات المعتضد، وولى المكتفى ولم يطل عمره، وولى المقتدر، فكان ما ذكره المعتضد، فوالله لقد وقفت على رأس المقتدر وهو فى مجلس لهوه، فدعا بالأموال فأخرجت إليه ووضعت البدر بين يديه، فجعل يفرقها على الجوارى والنساء، ويلعب بها ويمحقها ويهبها، وأعطى القهرمانة سبحة جوهر لم ير مثلها، وأخرج على النساء جميع جواهر الخلافة، وأتلف أموالاً كثيرة، منها من النقد ثمانمائة ألف ألف دينار(١)، فذكرت قول مولاى المعتضد، ثم إن الجند وثبوا على وزيره فقتلوه، واتفقوا على خلع المقتدر، وعقدوا لأبى العباس عبد الله بن المعتز بن المتوكل فوليها.

خلافة عبد الله بن المعتز بن المتوكل(٢)

لما أقاموه فى الخلافة لقبوه الغالب بالله، وقيل: المرتضى بالله، بعد أن شرط عليهم ألا يكون فى ذلك حرب ولا سفك دم، فلما بويع استمر يومًا وليلة، فأرسل إلى المقتدر يأمره بإخلاء دار الخلافة، وأن يذهب إلى دار محمد بن طاهر لينظر فى أمره، فلما جاء الرسول إلى المقتدر وبلغه الرسالة قال: ليس عندى جواب إلا السيف، ولبس السلاح وركب، ومعه جماعة قليلة من خدمه وهم مستسلمون للقتل فى غاية الخوف والوجل، وهجموا على عبد الله بن المعتز، فأهاله ذلك وألقى الله فى قلبه الرعب فانهزم هو ووزيره وقاضيه، وكل من هو فى ديوانه؛ ظنًا أن خلف هؤلاء أعوانًا وأنصارًا، وقبض المقتدر على ابن المعتز وحبسه، ثم أخرجه من الحبس ميتًا.

---

(١) ينظر: سير أعلام النبلاء ١٥/ ٥٥ .

(٢) ينظر [عبد الله بن المعتز] فى: شذرات الذهب ٢/ ٢٢١، النجوم الزاهرة ٣/ ١٦٥، البداية والنهاية ١١/ ١٠٨، مرآة الجنان ٢/ ٢٢٥، دول الإسلام ١/ ١٧٩، فوات الوفيات ٢/ ٢٣٩، وفيات الأعيان ٣/ ٧٦، الكامل لابن الأثير ٨/ ١٤، تاريخ بغداد ١٠/ ٩٥، فهرست ابن النديم ١٦٨، تاريخ الطبرى ١٠/ ١٤٠، كشف الظنون ١٠٤، هدية العارفين ١/ ٤٤٣، المنتظم ٦/ ٨٤، سير أعلام النبلاء ١٤/ ٤٢ - ٤٤ .

قال ابن خلكان[١]: لما أدخل ابن المعتز على المقتدر أمر به فطرح على الثلج عريانًا، وحشى سراويله ثلجًا، فلم يزل كذلك والمقتدر يشرب إلى أن مات فى ربيع الآخر سنة ست وتسعين ومائتين.

وعبد الله بن المعتز لقصر زمانه لا ينبغى عده من الخلفاء، ولكن قد ذكرناه كما ذكره بعض المؤرخين لفضله وأدبه، وهو أشعر بنى العباس؛ بل أشعر بنى هاشم على الإطلاق، وأغزرهم فضلاً وأدبًا ودخولاً، ومعرفة بعلم الموسيقا، وصاحب التشبيهات المبتكرة، الغريبة المخترعة، المرقصة، التى لا يشق له فيها غبار. وكان يقول: إذا قلت: كأن، ولم أجد تشبيهًا فقطع الله لسانى. قلت: مما أحفظ لعبد الله ابن المعتز من ذلك قوله فى تشبيه الهلال والثريا، حيث يقول: [من المنسرح]

قَدِ انْقَضَتْ دَوْلَةُ الصِّيَامِ وَقَدْ ... بَشَّرَ سُقْمُ الهِلَالِ بِالْعِيدِ
يَتْلُو الثُّرَيَّا كَفَاغِرٍ شَرِهٍ ... يَفْتَحُ فَاهُ لِأَكْلِ عُنْقُودِ

وقوله فى تشبيه الليل والهلال والنجوم: [من المنسرح]

كَأَنَّمَا اللَّيْلُ وَالهِلَالُ وَقَدْ ... لَاحَتْ نُجُومُ السَّمَاءِ مُنْقَضَّهْ
وَأُمٌّ مِنَ الزِّنْجِ حَوْلَهُ ذَهَبٌ ... تَبْدُرُ مِنْهُ بَنَادِقُ الفِضَّهْ

وقوله: [من الرجز]

إِذَا الْهِلَالُ فَارَقَتْهُ لَيْلَتُه
لِكُلِّ مَنْ يَرْمُقُهُ وَيَنْعَتُهْ
كَأَنَّهُ أَسْمَرُ شَابَتْ لِحْيَتُهْ

وهو صاحب القصيدة البائية التى يفخر فيها على بنى هاشم، ويدعى أولوية الخلافة ببنى العباس - وهو فى ذلك ظالم - وهى قوله: [من المتقارب]

أَلاَ مَنْ لِعَيْنٍ وَتَسْكَابِهَا ... تُشَكِّى القَذَا وَبُكَاهَا بِهَا
تَرَامَتْ بِنَا حَادِثَاتُ الزَّمَانِ ... تَرَامِى القِسِيِّ بِنشَّابِهَا
وَيَا رُبَّ أَلْسِنَةٍ كَالسُّيوفِ ... تُقَطِّعُ أَرْقَابَ أَصْحَابِهَا
وكم دُهِيَ المرءُ مِن نفسِهِ ... فمزَّقَهُ حَدُّ أَنيابِهَا

---

(١) ينظر: وفيات الأعيان لابن خلكان (٣/ ٧٦ ت ٣٤١) حيث أثبت فى هذه الترجمة طريقة أخرى لمقتله.

وَإِنْ فُرْصَةٌ أمكنَتْ فى العدوِّ ... فَـلَا تُـبـدِ هـمَّـكَ إلاّ بِـهَـا
فإنْ لـم تَـلِجْ بابَـها مُسْرِعًا ... أتـاكَ عـدوُّكَ مِـنْ بَـابِـهَـا
وهـلْ نـافِـعٌ نَـدَمٌ بـعـدَهَـا ... وتـأمـيـلُ أخـرى وأَنَّـىٰ بِـهَـا
وَمَا يُنْتَقَصْ من شبابِ الرجالِ ... يُـزَدْ فـى نُـهَـاهـا وَأَلْـبَـابِـهَـا
نـهيتُ بَنِـى رَحِمِـى نَاصِحًا ... نَـصِـيـحَـةَ بَـرٍّ بـأنـسَـابِـهَـا
وقـد رَكِـبُـوا بـغـيـهـم وارْتَـقَـوْا ... مَـعَـارِجَ تَـهْـوِى بـركَّـابِـهَـا
فَـرَامُـوا فَـرَائِـسَ أُسْـد الـشَّـرَىٰ ... وقـد نَـشِـبَـتْ بـيـنَ أَنـيـابِـهَـا
دَعُوا الأُسْدَ تفرسُ ثم اشْبَعُوا ... بما تفضلُ الأسْدُ فى غابِهَا

ومنها:

قـتـلـنـا أمـيـةَ فـى دارِهَـا ... ونـحـنُ أحـقُّ بـأسـلَابِـهَـا
ولـمـا أَبَـى الـلَّـهُ أَن تـملِـكُـوا ... نـهـضْـنَـا إلـيـهـا وقُـمْـنَـا بِـهَـا
ونـحـن ورثـنـا ثـيـابَ الـنَّـبِـيِّ ... فَـلِـمْ تَـجـذِبـونَ بـأَهْـدَابِـهَـا
لَـكُـمْ رَحِـمٌ يـا بـنـى بِـنْـتِـهِ ... ولـكـنْ بَـنُـو العـمِّ أولَـىٰ بِـهَـا
فَـمَـهْـلًا بـنـى عَـمِّـنَـا إنَّـهـا ... عـطـيَّـةُ ربٍّ حَـبَـانـا بِـهَـا
وكـانـت تَـزَلـزلُ فـى الـعـالَـمِـينَ ... فَـشُـدَّتْ لَـدَيْـنَـا بـأَطْـنَـابِـهَـا

فرد عليه شاعر زمانه، وفصيح أوانه عبد العزيز بن سرايا الحلى، وأجاد فقال:

[من المتقارب]

أَلاَ قُـلْ لِـشـرِّ عـبـيـدِ الإلـهِ ... وَطَـاغـى قـريـشٍ وَكَـذَّابِـهَـا
أَأَنْـتَ تُـفَـاخِـرُ آلَ الـنـبـىِّ ... وَتَـجْـحَـدُهَـا فَـضْـلَ أَنْـسَـابِـهَـا
بِكُمْ بَاهَلَ المُصْطَفى أَمْ بِهِمْ ... وَرَدَّ الـعُـدَاةَ بِـأَوْصَـابِـهَـا؟!
أَعَنْكُم نَفَى الرِّجسَ أَمْ عَنْهُمُ ... لِطُهْـرِ النُّفُـوسِ وَأَلْـبَـابِـهَـا؟!
أَمِ الشُّرْبُ واللَّهْوُ مِنْ دَأْبِكُمْ ... وَفَـرْطُ الـعِـبَـادَةِ مِـنْ دَأْبِـهَـا؟!
وقـلـتـم وَرِثْـنَـا ثِـيَـابَ الـنَّـبِـيِّ ... فَـلِـمْ تَـجْـذِبُـونَ بـأَهْـدَابِـهَـا
وعـنـدكَ لاَ تُـورَثُ الأنـبـيـاءُ ... فَـكَـيْـفَ حَـظِـيـتُـمْ بـأَثْـوَابِـهَـا
فكذبْتَ نَفْسَكَ فى الحالَتَيْنِ ... ولـم تعلـمِ الشَّـهْدَ مِنْ صَابِهَا
أَجَـدُّكَ يَـرْضَـىٰ بـمـا قـلـتَـهُ ... وَمَـا كَـانَ يَـوْمًـا بـمُـرْتَـابِـهَـا

وكان بـ« صِفِّينَ » من حِزْبِهِمْ لحربِ الطُّغَاةِ وأحْزَابِهَا
وقد شَمَّرَ المَوْتُ عن سَاقِهِ وكَشَّرَتِ الحَرْبُ عن نَابِهَا
فأقبلَ يَدْعُو إلى حَيْدَرٍ بِإرْعَابِهَا وبإرْهَابِهَا
وآثَرَ أَنْ ترتضيه الأَنَامُ مِنَ الحَكَمَينِ لإِسْهَابِهَا
ليُعْطِي الخِلافَةَ أهْلاً لَهَا فلم يرتضوه لأنجابِهَا
وَصَلَّى مع الناسِ طولَ الحياةِ وحَيْدَرُ في صدرِ مِحْرابِهَا
فَهَلَّا تَقَمَّصَهَا جَدُّكُمْ إذَا كَانَ ذلك أَحْرَىٰ بِهَا
وإذْ جَعَلَ الأمرَ شُورَى لهم فَهَلْ كَانَ من بَعْضِ أَرْبَابِهَا
أَخَامِسَهُمْ كَانَ أَمْ سَادِسًا وَقَدْ جُلِيَتْ بَيْنَ خُطَّابِهَا
وقولُكَ: أنتم بَنُو بنتِهِ وَلَكِنْ بَنُو العَمِّ أَولَى بِهَا
بَنُو البِنْتِ أيضا بَنُو عَمِّهِ وذَلِكَ أدْنَى لأَنْسَابِهَا
فَدَعْ فِي الخلافَةِ فَصْلَ الخِطَابِ فليسَتْ ذَلُولاً لِرُكَّابِهَا
وَمَا أَنْتَ والفَحْصَ عَنْ شَأْنِهَا وَمَا قَمَّصُوكَ بِأَثْوَابِهَا
وَمَا سَاوَرَتْكَ سِوَى سَاعَةٍ فَمَا كُنْتَ أَهْلاً لأَلْقَابِهَا
وَكَيْفَ يَخُصُّوكَ يَوْمًا بِهَا وَلَمْ تَتَأَدَّبْ بِآدَابِهَا
وَقُلْتَ بِأَنَّكُمُ القَاتِلُونَ أسودَ أُمَيَّةَ فِي غَابِهَا
كَذَبْتَ وَأَسْرَفْتَ فِيمَا ادَّعَيْتَ وَلَمْ تَفْدِ نَفْسَكَ عَنْ عَابِهَا
فَكَمْ حَاوَلَتْهَا سَرَاةٌ لَكُمْ فَردَّتْ عَلَى نَكْصٍ أَعْقَابِهَا
ولولا سُيُوفُ أبي مُسْلِمٍ لَعَزَّتْ عَلَى جَهْدِ طلَّابِهَا
وَذَلِكَ عَبْدٌ لَهُمْ لاَ لَكُمْ رَعَى فيكمُ قُرْبَ أَنْسَابِهَا
وَكنتُمْ أَسَارَى بِبَطْنِ الحُبُوسِ وَقد شَفَّكُمْ لَثْمُ أَعْقَابِهَا
فَأَخْرَجَكُمْ وَحَبَاكُمْ بِهَا وَقَمَّصَكُمْ فَضْلَ جِلْبَابِهَا
فجازَيْتُمُوه بِشَرِّ الجَزَاءِ لطغْوَى النُّفُوسِ وَإعْجَابِهَا
فَدَعْ ذِكْرَ قَوْمٍ رَضُوا بالكَفَافِ وَجَاءُوا القَنَاعَةَ مِنْ بَابِهَا
هُمُ الزَّاهِدُونَ هُمُ العَابِدُونَ هُمُ العَامِلُونَ بآدابِهَا
هُمُ القَائِمُونَ هُمُ الرَّاكِعُونَ هُمُ السَّاجِدُونَ بِمِحْرَابِهَا

هُمْ قُطْبُ مِلَّةِ دِينِ الإِلَـهِ ... وَدَوْرُ الرَّحِيِّ بِأَقْطَابِهَا
عَلَيْكَ بِلَهْوِكَ بِالْغَانِيَاتِ ... وَخَلِّ الْمَعَالِى لِأَرْبَابِهَا
وَوَصْفِ العِذَارِ وَذَاتِ الخِمَارِ ... وَنَعْتِ الْعُقَارِ بِأَلْقَابِهَا
وَشِعْرِكَ فِى مَدْحِ تَرْكِ الصَّلاَةِ ... وَسَعْيِ السُّقَاةِ بِأَكْوَابِهَا
فَذَلِكَ شَأْنُكَ لاَ شَأْنُهُمْ ... وَجَرْىُ الجِيَادِ بِأَحْسَابِهَا

واستمر المقتدر فى الخلافة إلى أن خرج عليه مؤنس الخادم مقدم جيشه، وذلك سنة سبع عشرة وثلاثمائة لأمر بلغه عنه، وهو أنه قد عزم على اغتياله، فبلغ المقتدر ما نقل إلى مؤنس، فحلف المقتدر على بطلان ذلك معتذرًا إلى مؤنس فأسرّها مؤنس ولم يقبل حلفه ولا عذره، وركب والجيش معه وجاءوا دار الخلافة، فهرب خواص المقتدر، وأشهد المقتدر على نفسه بالخلع، وأحضر مؤنس أبا منصور محمد بن المعتضد وبايعه، ولقب بالقاهر بالله، وفوضت الوزارة إلى الوزير أبى على ابن مقلة الكاتب المشهور، واستقر القاهر، وكتب الوزير إلى سائر البلاد، وعمل يوم الإثنين الديوان، فجاء العسكر يطلبون منه رسم البيعة، فارتفعت الأصوات فمنعهم الحاجب من الدخول إلى الخليفة القاهر، فقتلوا الحاجب، ومالوا إلى دار مؤنس الخادم، وأخرجوا المقتدر من الحبس، وحملوه على أعناقهم إلى دار الخلافة، فجلس على سريرها، وأتوه بأخيه القاهر، وهو مقهور يبكى ويقول: الله الله يا أخى فى روحى. فاستدناه المقتدر، وقبل بين عينيه، وقال: يا أخى، لا ذنب لك، الذنب لمؤنس، وأنت مضطر مغلوب على أمرك، والله لا ينالك منى مكروه، فطب نفسًا وقر عينًا. وبذل المقتدر الأموال للجند واسترضاهم، وثبتت له الخلافة بعد العزل مرتين، الأول بالمعتز، والثانية بالقاهر، وهذه التولية ثالث مرة، والثالثة ثابتة.

ومن محاسن المقتدر أنه زاد فى المسجد الحرام باب إبراهيم فى الجانب الغربى منه، وليس المراد بإبراهيم المضاف إليه هذا الباب سيدنا إبراهيم الخليل - على نبينا وعليه وعلى سائر النبيين أفضل الصلاة والسلام - وإنما هو إبراهيم كان خياطًا يَجْلِسُ عند الباب وعمر دهرًا، فعرف الباب به وأضيف إليه، كذا فى أعلام القطبى.

وقدمت على المقتدر رسل ملك الروم بهدايا لطلب الهدنة، فعمل المقتدر موكبًا عظيمًا لإرهاب العدو، فأقام مائة وستين ألف مقاتل بالسلاح الكامل سماطين، وأقام

بعدهم الخدم وهم سبعة آلاف خادم، ثم الحجاب وهم سبعمائة حاجب، وعلق فى دار الخلافة ثمانية وثلاثين ألف ستر ديباج، وكانت الفرش الفاخرة التى بسطت فى الأرض اثنين وعشرين ألف بساط، وفى الحضرة مائة سبع بسلاسل الذهب والفضة، وأبرز شجرة صيغت من الذهب والفضة وأغصانها تتمايل بحركات مصنوعة، وعلى الأغصان طيور ذهب وفضة تنفخ فيها الريح فيسمع لكل طير تغريد وصفير خاص، وهذا بعد وهن الخلافة وضعفها، فكيف كان زينتها فى أيام دولتهم فى كمال وصفها، فسبحان من لا يزال ملكه ولا يزول.

وفى هذه السنة - وهى سنة سبع عشرة وثلاثمائة - لم تشعر الحجاج يوم التروية بمكة إلا وقد وافاهم عدو الله أبوطاهر القرمطى فى عسكر جرار، فدخلوا بخيلهم وسلاحهم المسجد الحرام، ووضعوا السيف فى الطائفين والمصلين والمحرمين إلى أن قتلوا فى المسجد الحرام وفى مكة وشعابها - أزيد من ثلاثين ألف إنسان، وركض أبو طاهر بسيفه مسلولاً بيده وهو سكران، فصفر لفرسه عند البيت فبال وراث، والحجاج يطوفون والسيوف تأخذهم، وقتل فى المطاف خاصة ألف محرم، وطمت بئر زمزم بالقتلى، وما بمكة من الحفر والآبار ملئت بهم، وطلع أبو طاهر إلى باب الكعبة فقلعه وهو يقول: [من الرمل]

أَنَــا بِــالــلَّــهِ وَبِــالــلَّــهِ أَنَــا ... يَخْلُقُ الْخَلْقَ وَأُفْنِيهِمْ أَنَا

وأطلع رجلًا لقلع الميزاب فأتاه سهم من جبل أبى قبيس فقتله، وأطلع آخر لقلعه فسقط إلى أسفل فانفضخ دماغه، فقال: دعوه حتى يأتى من يأخذه. وقتل أمير مكة محمد بن محارب وخلقا من العلماء والصلحاء، واستدعى جعفر بن أبى علاج فأمره بقلع الحجر الأسود فقلعه بعد العصر يوم الإثنين رابع عشر ليلة خلت من ذى الحجة من تلك السنة. وأقام بمكة أحد عشر يومًا، وقيل: ستة أيام، ثم انصرف إلى بلده هجر، وحمل معه الحجر الأسود يريد أن يحول الحج إلى بلده الذى سماه دار الهجرة، وأراد أخذ مقام الخليل، فغيبه بنو شيبة فى بعض شعاب مكة.

ولما وصل إلى بلده علق الحجر الأسود فى الأسطوانة السابعة مما يلى صحن المسجد، وبقى الحجر الأسود عندهم، وبذل له المطيع العباسى خمسين ألفًا فلم يردوه، إلى أن أيسوا من تحويل الحج إلى بلدهم هجر، فردوه إلى محله من أنفسهم

بعد اثنين وعشرين عامًا وأربعة أيام، أتى به سمندر بن الحسن القرمطى إلى مكة يوم النحر سنة ٣٣٩ تسع وثلاثين وثلاثمائة فوضعه، وقال: أخذناه بأمر، ورددناه بأمر.

وللقرمطى وعترته سير مطولة، وابتلى أبو طاهر بأكلة فصار لحمه يتناثر بالدود، فمات أشنع موتة. وفى التواريخ صور أخرى لهذه القصة متناقضة، وهذا ملخص أصح ما روى فيها، فاعتمدنا عليه باختصار.

ثم وقع بين مؤنس والمقتدر حرب خرج فيه المقتدر فتوغل فى المعركة، فضربه بربرى من خلفه فسقط إلى الأرض. فقال لضاربه: ويحك أنا الخليفة، فقال: أنت المطلوب، وذبحه بالسيف ورفع رأسه على الرمح، وسلب ما على بدنه وبقى مكشوف العورة حتى سُتر بحشيش، ثم حفر له مكانه فدفن وعفى أثره.

وكانت وفاته لثمان بقين من شوال سنة عشرين وثلاثمائة ومدة خلافته أولاً وثانيًا وثالثًا خمس وعشرون سنة إلا أيامًا، وعمره ثمان وثلاثون سنة وشهر ونصف.

خلافة القاهر بالله[1]

أخيه محمد بن المعتضد بن الموفق بالله بن المتوكل بن المعتصم بويع لليلتين بقيتا من شوال سنة عشرين وثلاثمائة.

ولما ولى قبض على أخيه المكتفى، وأمر به فأقيم فى بيت وسد عليه بالآجر والجص حتى مات غمًا. وقبض على أم المقتدر فطالبها بمال لم تقدر عليه؛ فتهددها وضربها بيده وعذبها وعلقها منكوسة حتى كان يجرى بولها على وجهها وهى تقول: ألست ابنى فى كتاب الله، ألم أخلصك من ابنى المقتدر لما جيء بك إليه تبكى ؟ وأنت الآن تعاقبنى هذه العقوبة. ثم إنها ماتت بعدُ عقب ذلك[2].

ثم إن الجند شغبوا عليه، وهجموا على داره من سائر الأبواب، فهرب إلى سطح حمام واستتر فيه، فأتوا إليه وقبضوا عليه، وخلعوه وحبسوه، وسملوا عينيه. قال

---

(١) ينظر [القاهر بالله] فى: تاريخ الخلفاء ٣٨٦ - ٣٩٠، البداية والنهاية ١١/ ١٧٠، النجوم الزاهرة ٣/ ٣٠٣، العبر للذهبى ٢/ ٢٥٠، الوافى بالوفيات ٢/ ٣٤، الكامل لابن الأثير ٨/ ٢٤٤، تاريخ بغداد ١/ ٣٣٩، المنتظم ٦/ ٢٤١، شذرات الذهب ٢/ ٣٤٩، سير أعلام النبلاء ١٥/ ٩٨، تاريخ الزمان ٥٣، نهاية الأرب ٢٣/ ١٠٥، تاريخ ابن خلدون ٣/ ٣٩١، مرآة الجنان ٢/ ٢٧١ .

(٢) ينظر: سير أعلام النبلاء ١٥/ ٩٩ .

ابن البطريق: لأن القاهر قد ارتكب أمورًا قبيحة لم يسمع بها فى الإسلام، وكان أهوج طائشًا، سفاكًا للدماء، مدمنا للشرب، كانت له حربة يأخذها بيده فلا يضعها حتى يقتل بها إنسانًا، ولولا الحاجب سلامة لأهلك الناس(١).

وحكى أن رجلاً قال: صليت فى جامع المنصور ببغداد، فإذا أنا بإنسان عليه جبة عتابية قد ذهب وجهها، وبقيت بطانتها وقطنها، وهو يقول: أيها الناس، تصدقوا عليَّ، بالأمس كنت أمير المؤمنين وأنا اليوم من فقراء المسلمين، فسألت عنه فقيل لى إنه القاهر بالله.

كانت مدة خلافته ست سنين وسبعة أشهر. ووفاته تأخرت إلى سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة، وعمره اثنان وخمسون سنة وثمانية أشهر.

خلافة الراضى بالله(٢)

أبى العباس محمد بن المقتدر بن المعتضد بن الموفق بن المتوكل بن المعتصم •

بويع بالخلافة يوم خلع عمه القاهر سنة ست وعشرين وثلاثمائة، واستوزر أبا على بن مقلة. وأطلق كل من كان فى حبس القاهر، ثم قبض على ابن مقلة، وسبب ذلك أن محمد بن رائق كان بواسط متغلبًا عليها إلا أن الضرورة ألجأته إلى ذلك؛ لاضطراب الأمور عليه، ولضعف من يلى الوزارة عن القيام بها، فأحضر الراضى القضاة، وأعلمهم بأن ابن مقلة راسله فى محمد بن رائق فأفتوا بقطع يده اليمنى، وبعد أيام قطع لسانه، ثم مات فى شوال سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة. ودعا الراضى بالله محمد بن رائق فقدم إلى بغداد، فجعله الراضى أمير الأمراء، وفوض إليه تدبير المملكة، ومن ذلك اليوم بطل أمر الوزارة ببغداد، ولم يبق إلا اسمها، والحكم للأمراء والملوك المتغلبين، فكان قدومه لخمس بقين من ذى الحجة سنة أربع وعشرين وثلاثمائة.

---

(١) ينظر: سير أعلام النبلاء ١٥/ ٩٩، تاريخ الخلفاء ٣٨٨ .

(٢) ينظر: [الراضى بالله] فى: تاريخ بغداد ٢/ ١٤٢ - ١٤٥، المنتظم ٦/ ٢٦٥، الكامل لابن الأثير ٨/ ٢٨٢، العبر ٢/ ٢١٨، الوافى بالوفيات ٢/ ٢٩٧ - ٣٠٠، فوات الوفيات ٢/ ٣٧٥ - ٣٧٧، مرآة الجنان ٢/ ٢٩٦، البداية والنهاية ١١/ ١٧٨ - ١٧٩، النجوم الزاهرة ٣/ ٢٧١، تاريخ الخلفاء ٣٩٠، شذرات الذهب ٢/ ٣٢٤، سير أعلام النبلاء ١٥/ ١٠٣، تاريخ ابن الوردى ١/ ٢٧٢، تاريخ الخميس ٢/ ٣٩٣، دول الإسلام ١/ ٢٠١، نهاية الأرب ٢٣/ ١٢١ وما بعدها .

ثم دخلت سنة خمس وعشرين وثلاثمائة والدنيا فى أيدى المتغلبين، وكل من حصل فى يده بلد ملكه ومانع عليه: فالبصرة وواسط والأهواز فى يد عبد الله اليزيدى وإخوته، وفارس فى يد عماد الدولة بن بويه الديلمى، والموصل وديار ربيعة ومضر فى أيدى بنى حمدان الحسن بن حمدان وناصر الدولة وسيف الدولة، ومصر والشام فى يد أبى بكر محمد بن طغج الإخشيدى، والمغرب وإفريقية فى يد المهدى الفاطمى، والأندلس فى يد بنى أمية أولاد عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ابن عبد الملك الأموى، وخراسان وما والاها فى يد نصر بن أحمد السامانى، واليمامة وهجر والبحرين فى يد أولاد أبى طاهر القرمطى، ولم يبق فى يد الراضى وابن رائق سوى بغداد وما والاها، وتعطلت دواوين المملكة، ونقص قدر الخلافة وضعف ملكها.

فتوفى الراضى بالله خامس ربيع الأول سنة تسع وعشرين وثلاثمائة بعلة الاستسقاء والسحج، وكان أكبر أسباب علته كثرة الجماع، وكانت مدة خلافته ثلاث سنين وخمسة أشهر وعشرة أيام، وعمره اثنتان وثلاثون سنة، وهو آخر خليفة له شعر مدوّن، وآخر خليفة انفرد بتدبير الجيوش والأموال، وآخر خليفة خطب يوم الجمعة وجالس الندمان، وكانت جوائزه وأموره على ترتيب المتقدمين. ومن شعره قوله:

[من مجزوء الخفيف]

كُلُّ صَفْوٍ إِلَى كَدَرْ ... كُلُّ أَمْنٍ إِلَى حَذَرْ

وَمَصِيرُ الشَّبَابِ لِلْـ ... ـمَوْتِ فِيهِ أَوِ الْكِدَرْ

دَرَّ دَرُّ الْمَشِيبِ مِنْ ... وَاعِظٍ يُنْذِرُ الْبَشَرْ

أَيُّهَا الآمِلُ الَّذِي ... تَاهَ فِى لُجَّةِ الْقَدَرْ

أَيْنَ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا ... ذَهَبَ الْعَيْنُ وَالأَثَرْ

رَبِّ فَاغْفِرْ لِيَ الْخَطِيـ ... ـئَةَ يَا خَيْرَ مَنْ غَفَرْ[1]

* * *

(١) ينظر: تاريخ بغداد ٢/ ١٤٤، ١٤٥ .

خلافة المتقى لله(١)

أخوه إبراهيم بن المقتدر بن المعتضد. بويع له بالخلافة يوم موت أخيه الراضى، فصلى ركعتين وركب السرير. وكان ذا دين وورع وزهد، ولهذا لقبوه بالمتقى، ولم يكن له من الخلافة إلا الاسم، والتصرف لـ « توزون ».

ثم إنه زاد استيلاؤه فخلع المتقى، وسلمه لابن عمه المستكفى فأخرجه إلى جزيرة بقرب السند، وأكحله بعد أن أشهد المتقى على نفسه بالخلع سنة ٣٣٣ ثلاث وثلاثين وثلاثمائة، فكانت خلافته ثلاث سنين وأحد عشر شهرًا. ولما توفى قال القاهر - وكان يعيش: [من السريع]

صِرْتُ وَإِبْرَاهِيم شَيْخَىْ عَمًى ... لاَ بُدَّ لِلشَّيْخَينِ مِنْ مَصْدَرِ

مَا دَامَ تُوزون لَهُ إِمْرَةٌ ... مُطَاعَةٌ فَالْمَيْلُ فِى المَجْمَرِ

ولم يحل الحول على توزون حتى مات، وكان عُمْر المتقى اثنتين وثلاثين سنة وستة أشهر واثنى عشر يومًا.

خلافة المستكفى بالله(٢)

أبى القاسم، عبد الله، المستكفى على بن المعتضد، بويع بالخلافة بعد ابن عمه. وفى أيامه قدم معز الدولة أحمد بن بويه الديلمى إلى بغداد، فخلع عليه وفوض إليه أمر المملكة وتدبيرها، وأمر أن يخطب له على المنابر، ولقبه بمعز الدولة، ولقب أخاه أبا الحسن على بعماد الدولة، ولقب أخاهما أبا الفتح بركن الدولة، وكان

---

(١) ينظر [المتقى بالله] فى: تاريخ الخلفاء ٣٩٤ - ٣٩٧، شذرات الذهب ٣/ ٢٢، الوافى بالوفيات ٥/ ٣٤١، العبر ٢/ ٣٠٧، المنتظم ٦/ ٣١٦، الكامل لابن الأثير ٨/ ٣٦٨ وما بعدها، تاريخ بغداد ٦/ ٥١، سير أعلام النبلاء ١٥/ ١٠٥، النجوم الزاهرة ٣/ ٢٨٢، تاريخ ابن خلدون ٣/ ٤١٨، دول الإسلام ١/ ٢٠٥، تاريخ ابن الوردى ١/ ١٧٥، مروج الذهب ٤/ ٣٣٩، فوات الوفيات ١/ ١٧، وفيات الأعيان ٢/ ١١٤، خلاصة الذهب المسبوك ٢٥٣ .

(٢) ينظر [المستكفى بالله] فى: تاريخ بغداد ١٠/ ١٠ - ١١، المنتظم ٦/ ٣٣٩، سير أعلام النبلاء ١٥/ ١١١، الكامل لابن الأثير ٨/ ٤٢٠ وما بعدها، العبر للذهبى ٢/ ٢٤٥، البداية والنهاية ١١/ ٢١٠، النجوم الزاهرة ٣/ ٢٩٩، تاريخ الخلفاء ٣٩٧، شذرات الذهب ٢/ ٣٤٥، تاريخ ابن الوردى ١/ ٢٧٨، مرآة الجنان ٢/ ٣١٣، دول الإسلام ١/ ٢٠٧، الوافى بالوفيات ١٧/ ٣٢٣، مروج الذهب ٤/ ٣٥٥، تاريخ ابن خلدون ٣/ ٤٢٠ .

قدومه سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة.

ثم وقعت الفتنة بينه وبين معز الدولة، وقبض عليه وسمل عينيه. وسبب ذلك أن معز الدولة بلغه أن المستكفى قد دبر على هلاكه، فدخل وقبل الأرض، ثم قبل يده وطرح له كرسيٌّ فجلس عليه، ثم تقدم إليه رجلان من الديلم ومدا أيديهما إلى المستكفى فظن أنهما يريدان تقبيل يده فمدها إليهما، فجذباه من أعلى السرير وجعلا عمامته فى عنقه، ثم سحب إلى دار معز الدولة فاعتقله، ثم خلعه وسمل عينيه، فصار ثالثًا للأولين قبله، وانتهبت دار الخلافة حتى لم يبق فيها شيء[١].

وكان خلعه فى جمادى الأولى سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة ومدة خلافته سنة واحدة وأربعة أشهر ويومان، وعمره ست وأربعون سنة وشهران، وكانت وفاته فى بيت معز الدولة فى ربيع الأول سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة.

خلافة المطيع بالله[٢]

الفضل بن المقتدر بن المعتضد. ضعفت فى زمنه الخلافة، وكاد ينمحى رسمها، ولا يذكر اسمها، وغلب على الأمر معز الدولة، والمطيع لا نهى له ولا أمر، ولا خلافة تذكر، وعين له معز الدولة فى كل يوم مائة دينار، فهذا كان حظه من الخلافة، وانقطعت الخطبة لبنى العباس فى مصر والشام والحجاز، وغلب على المطيع مرض الفالج واشتدت زمانته، فجعل ابنه ولى عهده مع ضعف حاله.

وتوفى فى أيامه معز الدولة سنة ست وخمسين وثلاثمائة فقام ولده عز الدولة بختيار مقام والده، وقلده المطيع موضع أبيه وخلع عليه، فاستقل بالأمور كأبيه[٣].

وفي سنة ثمان وخمسين توفي كافور الإخشيدي صاحب مصر وفيها قدم جوهر، القائد الرومى - غلام المعز لدين الله الفاطمى صاحب إفريقية - إلى مصر وأقام بها

---

(١) ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبى ١٥/ ١٣٣، الكامل لابن الأثير ٨/ ٤٥٠ - ٤٥١.

(٢) ينظر [المطيع بالله] فى: شذرات الذهب ٣/ ٤٨ - ٤٩، تاريخ الخلفاء ٣٩٨، البداية والنهاية ١١/ ٢١٢، المنتظم ٦/ ٣٤٣، تاريخ بغداد ١٢/ ٣٧٩، سير أعلام النبلاء ١٥/ ١١٣، العبر للذهبى ٢/ ٣٣٤، دول الإسلام ١/ ٢٢٥، النجوم الزاهرة ٤/ ١٠٨، أخبار الدول ١٦٩، مروج الذهب ٤/ ٣٧٢، مرآة الجنان ٢/ ٣٨٠، أخبار الزمان ٦٧، ذيل تاريخ دمشق ١١.

(٣) ينظر: الكامل لابن الأثير ٨/ ٥٧٥، سير أعلام النبلاء ١٥/ ١١٦.

الدعوة لسيده المعز الفاطمى، وبايعه الناس على ذلك، وانقطعت الخطبة بمصر عن بنى العباس، وشرع فى بناء القاهرة والقصرين، ثم دخل المعز بنفسه مصر لثمان بقين من شهر رمضان سنة اثنتين وستين وثلاثمائة، كما سنذكر ذلك عند فتح مصر فى الباب الثالث المعقود للدولة الفاطمية إن شاء الله تعالى.

ولما تغلب سبكتكين التركى، وهو غلام معز الدولة، وقويت شوكته، ونفذت كلمته، وانضاف إلى ذلك مالحق المطيع من الفالج والمرض - خلع نفسه طائعًا من الخلافة، وسلمها لولده الطائع عبد الكريم، وقيل: أبو بكر، ولقبه الطائع لله، وذلك فى ذى القعدة سنة ثلاث وستين وثلاثمائة. ثم توفى سنة أربع وستين، وكانت خلافته تسعًا وعشرين سنة وستة أشهر وأحد عشر يومًا، وعمره تسع وخمسون سنة وسبعة أشهر واثنان وعشرون يومًا.

خلافة الطائع لله[1]

عبد الكريم بن المطيع الفضل بن المقتدر بن المعتضد.

بويع له بالخلافة، والأمر مغلوب عليه، وما له إلا الاسم، لم يل الخلافة من بنى العباس أكبر سنًّا منه، كان عمره حين استخلف سبعًا وأربعين سنة، ولم يتقلد الخلافة منهم من أبوه حى غيره وغير أبى بكر الصديق فى الخلفاء رضى الله تعالى عنه وعنهم، ولما ولى خلع على سُبكتكين التركى فولاه ما وراء بابه.

وفى أيامه استولى عضد الدولة على بغداد وملكها، فخلع عليه الطائع، وتوجه بتاج جوهر وطوَّقة وسوَّره وعقد له لواءين بيده، أحدهما مفضض والآخر مذهب على رسم ولاة العهود، ولم يعهد هذا اللواء الثانى لغيره، وأمر بضرب الدبادب على بابه صبحًا ومغربًا وعشاءً، وأنه يخطب له على منابر الحضرة، وذلك بعد محاربة عضد الدولة لابن عمه عز الدولة ابن معز الدولة وظفره به.

(١) ينظر [الطائع لله] فى: تاريخ الخلفاء ٤٠٥ - ٤١١، شذرات الذهب ٣/ ١٤٣، الكامل لابن الأثير ٨/ ٦٣٧ وما بعدها، المنتظم ٧/ ٦٦، العبر للذهبى ٣/ ٥٥ - ٥٦، تاريخ بغداد ١١/ ٧٩، سير أعلام النبلاء ١٥/ ١١٨، تاريخ ابن الوردى ١/ ٣١٠، تاريخ ابن خلدون ٣/ ٤٣٦، مرآة الجنان ٢/ ٤٤٦، المختصر فى أخبار البشر ٢/ ١٢٧، النجوم الزاهرة ٤/ ٢٠٨، ذيل تاريخ دمشق ١١، نهاية الأرب ٢٣/ ٢٠٤ .

ولما مات عضد الدولة قام ولده بهاء الدولة بن عضد الدولة بتدبير المملكة بعد والده، فخلع عليه الطائع، وقلده ما كان قلد أباه.

ثم إن بهاء الدولة أمسك الطائع واعتقله ونهبت دار الخلافة، ثم أشهد على الطائع بخلع نفسه من الخلافة وتسليمها إلى أبى العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر، وكان الخلع والإشهاد فى شهر شعبان سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة وأقام مخلوعًا إلى أن توفى فى ليلة عيد الفطر سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة، وكانت مدة خلافته سبع عشرة سنة وثمانية أشهر وتسعة أيام، وكان عمره ثلاثًا وخمسين سنة.

خلافة القادر بالله(١)

هو أبو العباس، أحمد ابن الأمير إسحاق بن المقتدر بن جعفر بن المعتضد.

كان رجلًا صالحًا عالمًا كثير التهجد والصدقات، وصنف كتابًا فى فضل الصحابة وذم الروافض، وكان يُقرأ فى المساجد والجوامع(٢).

بويع بالخلافة ليلة خلع الطائع نفسه، وكان غائبًا فقدم فى عاشر رمضان، وجلس من الغد جلوسًا عامًّا، وهنئ وأنشد الشعر بين يديه، ومن ذلك قول الشريف الرضى من قصيدة: [من الكامل]

شَرَفُ الْخِلاَفَةِ يا بَنِى الْعَبَّاسِ ... أَلْيَوْمَ جَدَّدَهُ أَبُو الْعَبَّاسِ

ذَا الطَّوْدُ أَبْقَاهُ الزَّمَانُ ذَخِيرَةً ... مِنْ ذَلِكَ الجَبَلِ العَظِيمِ الرَّاسِي

يحكى أن فى زمانه جيء إليه برجل قامته ذراع واحد، ولحيته شبران، وأذناه فى غاية الطول والعرض المفرط، دور الواحدة أربعة أذرع، فطافوا به ببغداد، وكان من يأجوج ومأجوج رمت به الريح من فوق السد، فأحضر القادر له أجناسًا من الترك فلم يفهموا كلامه.

واستمر القادر إلى أن توفى حادى عشر ذى الحجة سنة اثنتين وعشرين

---

(١) ينظر [القادر بالله] فى: تاريخ بغداد ٤/ ٣٧ - ٣٨، المنتظم ٧/ ١٦٠ - ١٦٥، الكامل لابن الأثير ٩/ ٨٠ وما بعدها، العبر للذهبى ٣/ ١٤٨، الوافى بالوفيات ٦/ ٢٣٩، النجوم الزاهرة ٤/ ١٦٠، تاريخ الخلفاء ٤١١، شذرات الذهب ٣/ ٢٢١، سير أعلام النبلاء ١٥/ ١٢٧، دول الإسلام ١/ ٢٥٢، مرآة الجنان ٣/ ٤١، تاريخ ابن خلدون ٣/ ٤٣٦، أخبار الدول ١٧١، الوافى بالوفيات ٦/ ٢٣٩، تاريخ ابن الوردى ١/ ٣٤٠ .

(٢) ينظر: تاريخ بغداد ٤/ ٣٧، سير أعلام النبلاء ١٥/ ١٢٨ .

وأربعمائة، ومدة خلافته إحدى وأربعون سنة وثلاثة أشهر، وعمره ست وثمانون سنة وثمانية أشهر ويومان.

قال الحافظ الذهبى[١]: كان فى عصر القادر رأس الأشعرية الإمام الأستاذ أبو إسحاق الإسفرايني. قلت: هذا الإمام هو جد الفقير إلى الله تعالى جامع هذا الكتاب. وقد ذكره ابن قتيبة وغيره بالسيادة وشرف النسبة المحمدية الحسينية، والبعض الآخر لم يذكره بسيادة وشرف من المؤرخين؛ لنسبه فيحتمل صحة النسبة ويكون من إطلاق من أطلق اعتمادًا على تقييد من قيد، على أن لى اتصالاً لا ريب فيه بنسبه عليه الصلاة والسلام من جهة الأم؛ فأرجو بهما أو به الفوز الأخروى برضا الله تعالى. على أنى بحمد الله متشرف بانتظامى فى سلك وارثى علمه عليه الصلاة والسلام فرعًا عن أصل آصل، سلسلة علم ما فصلها - بحمد الله - جاهل، علماء محققين، فضلاء مدرسين، وإن عريت عزائمى عن ذاك، ومنيت أسبابى عما هناك؛ ففى ولائى لأهل بيته ومحبتى، وحسن اعتقادى وخدمتى - ما يقوى قوى أمراس أملى، وأطمع به أن يمحى خطأ خطط خطلى ورأس المعتزله، القاضى عبد الجبار، ورأس الرافضة ابن المعلم، ورأس الكرامية محمد بن الهيصم، ورأس القراء أبو الحسن الحمامى، ورأس المحدثين الحافظ عبد الغنى بن سعيد، ورأس الصوفية أبو عبد الرحمن السلمى صاحب كتاب « مناقب الأبرار، ومحاسن الأخيار »، ورأس الشعراء أبو عمرو بن دراج، ورأس الكتاب المجودين ابن البواب، ورأس الملوك السلطان محمود بن سُبكتكين، انتهى. وزاد السيوطى[٢] فقال: ورأس الزنادقة الحاكم بأمر الله العبيدى، ورأس اللغويين إسماعيل الجوهرى، ورأس النحاة عثمان بن جنى، ورأس البلغاء البديع الهمذانى، ورأس الخطباء ابن نباتة صاحب الخطب المشهورة، ورأس المفسرين أبو القاسم ابن حبيب النيسابورى، ورأس الخلفاء القادر بالله، فإنه من أعلامهم، تفقه وصنف، ومدته فى الخلافة من أطول المدد.

* * *

(١) ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبى ١٥/ ١٣٢، وينظر: ترجمة أبي إسحاق الإسفراييني ص ٥٣٥، والأنساب ١/ ٢٠٥، والعبر ٢/ ٢٧١، والوافى بالوفيات ١٢/ ٢٦٥، وشذرات الذهب ٢/ ٣٧٢ .

(٢) ينظر: تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٣٣٣ .

خلافة القائم بأمر الله(١)

عبد الله بن القادر بالله أحمد ابن الأمير إسحاق بن المقتدر بن المعتضد.

كان خَيِّرًا دينًا، فاضلاً صالحًا، مغلوبًا على أمره مدة زمانه. أمه أرمنية اسمها قطر الندى، أدركت خلافته(٢). بويع بالخلافة يوم مات أبوه القادر بالله، وكانت بيعته بحضرة القضاة والأمراء والكبراء، فكان أول من بايعة الشريف الرضى الموسوى وأنشد: [من المتقارب]

فَإِمَّا مَضَى جَبَلٌ وَانقَضَى ... فَمِنكَ لَنَا جَبَلٌ قَدْ رَسَا
وَإِمَّا فُجِعْنَا بِبَدْرِ التَّمَامِ ... فَقَدْ بَقِيَتْ مِنْهُ شَمْسُ الضُّحَىٰ
لَنَا حَزَنٌ مِنْ خِلَالِ السُّرُورِ ... فَكَمْ ضَحِكٌ مِنْ خِلَالِ البُكَا
فَيَا صَارِمًا أَغْمَدَتْهُ يَدٌ ... لَنَا بَعْدَكَ الصَّارِمُ المُنْتَضَىٰ
وَلَمَّا حَضَرْنَاكَ عَقْدَ البَيَانِ ... عَرَفْنَا بِهَدْيِكَ طُرْقَ الهُدَىٰ
فَقَابَلْتَنَا بِوَقَارِ المَشِيبِ ... كَمَالاً وَسِنُّكَ سِنُّ الفَتَىٰ

واستوزر أبا طالب محمد بن أيوب، واستقضى ابن ماكولا الإمام المشهور فى أيامه.

وفى سنة ثلاثين وأربعمائة كان انقراض الدولة الديلمية دولة بنى بويه، وكانت مدتها مائة وسبعًا وعشرين سنة، وابتدأت دولة السلاطين السلجوقية.

قال الذهبى(٣): وآل سلجوق هم ملوك الروم، وقد امتدت أيامهم وبقى منهم بقية إلى زمن الملك الظاهر.

وفى ليلة النصف من شعبان سنة إحدى وستين وأربعمائة فى خلافة القائم

---

(١) ينظر [القائم بأمر الله] فى: تاريخ بغداد ٩/ ٣٩٩، العبر للذهبى ٣/ ٢٦٤، تاريخ الخلفاء ٤١٧ - ٤٢٣، شذرات الذهب ٣/ ٣٢٦، المنتظم ٨/ ٥٧ وما بعدها، الكامل لابن الأثير ٩/ ٤١٧، سير أعلام النبلاء ١٥/ ١٣٨، الوافى بالوفيات ١٧/ ٢٠، أخبار الدول ٢/ ١٦٠، تاريخ الخميس ٢/ ٣٥٧، النجوم الزاهرة ٥/ ٤ - ١١، تاريخ ابن خلدون ٣/ ٤٤٧، نهاية الأرب ٢٣/ ٢٤٢، الكامل لابن الأثير ١٠/ ٩٤، دول الإسلام ١/ ٢٧٥، تاريخ ابن الوردى ١/ ٥١٢ .

(٢) ينظر: الكامل لابن الأثير ١٠/ ٩٥، وسير أعلام النبلاء ١٥/ ١٣٨ .

(٣) ينظر: تاريخ الإسلام للذهبى حوادث سنة ثلاثين وأربعمائة ص ٤٢، المنتظم ٨/ ٩٩ - ١٠٠، البداية والنهاية ١٢/ ٤٥، دول الإسلام ١/ ٢٥٥، النجوم الزاهرة ٥/ ٢٩، شذرات الذهب ٣/ ٢٤٤ .

المذكور كان حريق جامع دمشق الذى كان عمره الوليد بن عبد الملك وكلفه. وقد تقدم ذكره عند ذكر خلافة الوليد، وكان حريقه فى هذه السنة. وسبب الحريق أن غلمان الفاطميين والعباسيين اختصموا فيما بينهم، فألقيت نار بدار الملك، وهى الخضراء بجانب المسجد من جهة القبلة، فاحترقت وتعدى حريقها حتى وصل إلى الجامع، فسقطت سقوفه وتناثرت فصوصه المذهبة التى على جدرانه، وتغيرت معالمه ومحاسنه، وتبدلت بهجته بضدها[1]، وقد كانت سقوفه مذهبة مبطنة كلها، والجملونات من فوقها، وجدرانه بالفصوص المذهبة والملونة مصور فيها جميع بلاد الدنيا: الكعبة ومكة فوق المحراب، والبلاد كلها شرقيها وغربيها كل فى مكانه اللائق به، وفيه كل شجرة مثمرة وغير مثمرة، كل مصور فى بلدانه وأوطانه، والستور مرخاة على أبوابه النافذة إلى الصحن، وعلى أصل الحيطان إلى مقدار الثلث منها، وباقى الجدران بالفصوص المذهبة والملونة، وأرضه كلها بالفصوص الرخام الملون، ولم يكن فى الدنيا بناء أحسن منه، لا قصور الملوك ولا غيرها من دور الخلفاء وغيرهم. ثم لما وقع هذا تبدل الحال الكامل بضده، وصارت أرضه طينًا فى الشتاء، غبارًا فى الصيف، ولم يزل كذلك حتى تبلط فى زمن العادل أبى بكر بن أيوب بعد الستمائة، وكان جميع ما سقط من الرخام وغيره مستودعًا فى المشاهد الأربعة، شرقيه وغربيه حتى فرغها من ذلك القاضى كمال الدين الشهرزورى فى زمن الملك العادل نور الدين الشهيد محمود بن زنكى حين ولاه نظر الأوقاف كلها، ولم تزل الملوك تجدد فى محاسنة إلى زماننا هذا، فتماثل حاله فى زمن الأمير شكر بن عبد الله الناصرى نائب الشام، وذلك فى سنة ثلاثين وسبعمائة.

وأما الخضراء وهى دار الملك والإمارة، فبادت وصارت كومًا ترابًا، بعدما كانت فى غاية الإحكام والإتقان، وحسن البناء وطيب الفناء، فهى إلى يومنا هذا لا يسكنها لرذالة مكانها إلا سفْلَةُ الناس وأسقاطهم، بعد ما كانت دار الملك والإمارة منذ أسسها معاوية بن أبى سفيان الأموى. كذا فى تاريخ ابن السبكى.

وكان القائم بأمر الله أبيض، مليح الوجه، مشربًا بحمرة، ورعًا زاهدًا عابدًا، مريدًا لقضاء حوائج المسلمين، موقرًا لأهل العلم، معتقدًا فى الفقراء

(١) ينظر: الكامل لابن الأثير ١٠/٥٩، نهاية الأرب ٢٣/٢٣٨، تاريخ ابن الوردى ١/ ٣٧٣ .

والصالحين[١]، ولم يقم أحد فى الخلافة إقامته، كانت مدته أربعًا وأربعين سنة وثمانية أشهر، وقيل: خمسًا وأربعين سنة، وكانت وفاته سنة سبع وستين وأربعمائة لعشرة أيام مضت من شعبان.

قال ابن السبكى: افتصد القائم بأمر الله يوم الخميس الثامن والعشرين من رجب من السنة المذكورة من « ماشرا » كان يعتاده[٢]. قلت: ماشرا اسم لعلة[٣]، نعوذ بالله من جميع العلل. ثم نام فانفجر فصاده، فاستيقظ وقد سقطت كل قوته، وحصل اليأس منه، فدعا حفيده وولى عهده من بعده عمدة الدين أبا القاسم عبد الله بن محمد ابنه، وأحضر إليه الفقهاء والنقباء، وأشهد عليه ثانيًا بولاية العهد له من بعده فشهدوا، ثم توفى وكان عمره أربعًا وسبعين سنة وثمانية أشهر وثمانية أيام، ومدته أربعًا وأربعين سنة، ومدة أبيه قبله إحدى وأربعين سنة؛ فمجموعهما خمس وثمانون سنة وأشهر، وذلك مقارب لمدة دولة بنى أمية كلها.

خلافة المقتدى بأمر الله[٤]

هو القاسم، عمدة الدين عبد الله بن ذخيرة الدين محمد ابن الخليفة القائم عبد الله ابن القادر أحمد ابن الأمير إسحاق بن المقتدر بن المعتضد بن الموفق طلحة بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد بن المهدى بن المنصور بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس.

بويع له بالخلافة يوم وفاة جده القائم بأمر الله، وذلك أنه لما افتصد استدعى ابن ابنه هذا عبد الله ولقبه المقتدى بأمر الله كما تقدم ذكر ذلك، فلما مات جده القائم بأمر الله المذكور بويع بالخلافة يوم وفاته بحضرة الإمام الولى الشهير أبى إسحاق

---

(١) ينظر: الكامل لابن الأثير ١٠/ ٩٥ .
(٢) ينظر: الكامل لابن الأثير ١٠/ ٩٤ .
(٣) «الماشرا» ورم حاد ينتج عن دم صفراوى يعم الوجه وربما غطى العين .
(٤) ينظر [المقتدى بأمر الله] فى: المنتظم ٩/ ٨٤، الكامل لابن الأثير ١٠/ ٢٢٩ - ٢٣١، تاريخ الزمان ١٢١، نهاية الأرب ٢٣/ ٢٥٢، سير أعلام النبلاء ١٨/ ٣١٨، تاريخ ابن الوردى ١/ ٥٦٨، فوات الوفيات ٢/ ٢١٩، تاريخ الخميس ٢/ ٤٠٢، تاريخ الخلفاء ٤٢٣ وما بعدها، النجوم الزاهرة ٥/ ١٣٩، الجوهر الثمين ١٨٧، مرآة الجنان ٣/ ١٤٣، البداية والنهاية ١٢/ ١٤٦، تاريخ ابن خلدون ٣/ ٤٨٠، دول الإسلام ٢/ ١٦، الوافى بالوفيات ١٧/ ٤٦٧ .

الشيرازى الشافعى صاحب كتاب « التنبيه » و« المهذب »، وغيرهما، أحد أركان أئمة الشافعية. ثم إن المقتدى جهز الإمام المذكور إلى نيسابور إلى جلال الدولة ملك شاه السلجوقى سفيرًا له في خطبة ابنته، فنجز الشغل وناظر إمام الحرمين هناك، ثم ودعه إمام الحرمين حال خروجه، وأخذ بركاب بغلته حتى ركب، وكان المقتدى قد بايع بالعهد لولده المستظهر بعده، ثم لما ولدت ابنة ملك شاه من الخليفة المقتدى ولدًا أقبل ملك شاه يريد بغداد، وأرسل إلى المقتدى يلزمه أن يعزل ولده المستظهر عن ولاية عهده ويجعل ولى عهده ابن بنته جعفر مكانه، وأن يخرج من بغداد ويتركها ويذهب إلى أى بلد شاء، فأرسل المقتدى يتلطف به فى ذلك، فأبى إلا شدة وغلظة، يريد بذلك إظهار التحكم والحيف على الخليفة، وطلب الخليفة الإمهال شهرًا فأبى وقال: ولا ساعة، فأرسل إلى وزيره فاستمهله له عشرة أيام فأمهله، فصار الخليفة يصوم النهار ويقوم الليل ويضع خده على التراب، ويناجى حضرة رب الأرباب، يدعو على ملك شاه، فاستجاب الله دعاءه، فهلك ملك شاه قبل مضى العشرة الأيام وكفاه الله تعالى شره، وما ربك بظلام للعبيد. وعدت هذه كرامة للخليفة المقتدى، وهذه عقبى كل ظالم ومعتدى.

ذكر أن المقتدى قدم إليه طعام فتناول منه ثم غسل يديه، وهو على أكمل حال فى جسمه ونفسه، وبين يديه قهرمانته شمس النهار فقال: ما هذه الأشخاص الذين دخلوا على بغير إذن ؟ فالتفتت فلم تر أحدًا، فنظرت إليه فوجدته قد تغير وجهه، واسترخت يداه، وانحلت قواه، وسقط إلى الأرض، فإذا هو قد مات، فأمسكت عن البكاء واستدعت الخادم، فاستدعى الوزير أبا منصور، فبكيا وأحضرا أبا العباس أحمد بن المقتدى، وكان أبوه المقتدى قد عهد إليه بالخلافة بعده، فعزياه وهنآه، وأخفى موته ثلاثة أيام حتى توطأت البيعة لابنه أحمد، ولقب بالمستظهر بالله[1].

كانت وفاة المقتدى سنة سبع وثمانين وأربعمائة. ومدة خلافته تسع عشرة سنة وثمانية أشهر إلا يومين، وعمره ثمان وثلاثون سنة وثمانية شهور.

* * *

---

(١) ينظر: تاريخ الزمان لابن العبرى ١٢١، سير أعلام النبلاء ١٨/ ٣٢٣ .

خلافة المستظهر بالله(١)

أبى العباس، أحمد بن المقتدى بن محمد القائم عبد الله بن القادر أحمد ابن الأمير إسحاق بن المقتدر بن المعتضد بن الموفق طلحة بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد. بويع بعد موت والده المقتدى، وأول من بايعه الوزير أبو منصور بن جهير كما تقدم ذكر ذلك، وحضر من العلماء الإمام الغزالى والشاشى وابن عقيل وبايعوه يومئذ، وكان كريم الأخلاق، حافظًا للقرآن العظيم، فصيحا بليغًا، شاعرًا منطيقًا.

من شعره: [من البسيط]

أَذَابَ حَر الْجَوَىٰ فِى الْقَلْبِ مَا جَمُدَا   يَوْمًا مَدَدْنَ عَلَىٰ رَسْمِ الوَدَاعِ يَدَا

قَدْ أَخْلَفَ الوَعْدَ بَدْرٌ قَدْ شُغِفْتُ بِهِ   مِنْ بَعْدِ مَا قَدْ وَفَىٰ دَهْرًا بِمَا وَعَدا

إِنْ كُنْتُ أَنْقُضُ عَهْدَ الحُبِّ فِى خَلَدِي   مِنْ بَعْدِ هَذَا فَلاَ عَايَنْتُهُ أَبَدَا

حكى أنه اجتمع فى زمانه فى برج الحوت ستة أنجم من السبعة السيارة ما عدا زحل، فحكم المنجمون أنه سيظهر طوفان كطوفان نوح عليه الصلاة والسلام، فتألم من ذلك المستظهر بالله، وأحضر من المنجمين ابن الفيلسوف وسأله عن ذلك فقال: فى زمان نوح عليه الصلاة والسلام اجتمع فى برج الحوت السبعة الأنجم بكمالها، والآن اجتمع ستة، ولا يعلم الغيب إلا الله، لكن الذى تدل عليه الدلائل وليس بقطعى أنه سيجتمع الماء من العالم من طرقٍ شتى فى مكان واحد، فيغرقون فى ذلك المحل. فخافوا على بغداد لاجتماع العالم فيها وهى فى جنب شط النهر، فوصل الخبر أن الحجاج حين نزلوا فى وادى المناقب هجم عليهم سيل جحاف فغرقوا أجمعين فى ذلك السيل، فتعجب من قرب التحقيق من قوله والأمر بيد الله تعالى سبحانه ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧]، الآية

توفى المستظهر ليلة الخميس لأربع وعشرين ليلة خلت من ربيع الآخر سنة اثنتى عشرة وخمسمائة. ومدة خلافته خمس وعشرون سنة وعشرة أيام، وعمره إحدى وأربعون سنة وأحد عشر شهرًا وأربعة أيام.

---

(١) ينظر [المستظهر بالله] فى: تاريخ الخلفاء ٤٣٠، شذرات الذهب ٤/ ٣٣، أخبار الدول ٢/ ١٦٧، النجوم الزاهرة ٥/ ٢١٥، مرآة الجنان ٣/ ٢٠٣، تاريخ ابن خلدون ٣/ ٤٩٥، الجوهر الثمين ٢٠٠، عيون التواريخ ١٢/ ٨٢، العبر ٤/ ٢٦، نهاية الأرب ٢٣/ ٢٦٠، البداية والنهاية ١٢/ ١٨٢، وفيات الأعيان ٤/ ٢٤٠، سير أعلام النبلاء ١٩/ ٣٩٦، الكامل لابن الأثير ١٠/ ٥٣٤

خلافة المسترشد بالله[١]

الفضل بن المستظهر أحمد بن المقتدى عبد الله بن محمد الذخيرة بن القائم عبد الله بن القادر أحمد ابن الأمير إسحاق بن المقتدر بن المعتضد.

بويع يوم وفاة والده المستظهر، وكان شجاعًا دينًا، مشتغلاً بالعبادة، لم يل الخلافة بعد المعتضد أشهم منه، أمه أم ولد اسمها لبابة، كان شديد الهيبة، ذا رأى ويقظة وهمة عالية، ضبط الأمور، وأحيا مجد بنى العباس، وجاهد غير مرة.

يحكى أن فى زمانه ظهر سنة أربع عشرة وخمسمائة قبر الخليل إبراهيم وإسحاق ويعقوب على نبينا وعليهم الصلاة والسلام، وشوهدت أجسامهم المباركة كأنما دفنوا تلك الساعة، ووجد عندهم فى الموضع قناديل الذهب والفضة وغير ذلك، ذكر ذلك فى كتاب « قلادة النحر » الفقيه بامخرمة.

كانت وفاته يوم الخميس سابع عشر ذى القعدة سنة تسع وعشرين وخمسمائة، ومدة خلافته سبع عشرة سنة وسبعة أشهر.

ومن شعره قوله: [من الطويل]

أَنَا الأَشْقَرُ المَوْعُودُ [بى] فِى المَلَاحِمِ ... وَمَنْ يَمْلِكُ الدُّنْيَا بِغَيْرِ مُزَاحِمِ؟!

فكان هذا التخيل من خيالاته الفاسدة؛ فإنه ما يملك من الدنيا ولا فناء داره.

خرج عليه الملك مسعود بن محمد بن ملك شاه السلجوقى فلم يقاتل معه أحد، فقاتل وحده إلى أن حمل أسيرًا فحبس[٢]. وذكر أهل التواريخ أنه لما حبس رأى فى منامه كأن على يده حمامة مطوقة، وأتاه آتٍ فقال له: خلاصك فى هذا وأشار إلى الحمامة، فلما أصبح حكى ذلك لابن سكينة الإمام فقال له: ما أولته يا أمير المؤمنين؟ فقال: أولته بقول أبى تمام: [من الكامل]

هُنَّ الحَمَامُ فَإِنْ كَسَرْتَ عِيَافَةً ... مِنْ حَائِهِنَّ فَإِنَّهُنَّ حِمَامُ

---

(١) ينظر [المسترشد بالله] فى: تاريخ الخلفاء ٣٤٥، شذرات الذهب ٤/ ٨٨، أخبار الدول ٢/ ١٧٠، البداية والنهاية ١٢/ ٢٠٨، النجوم الزاهرة ٥/ ٢٥٦، تاريخ ابن خلدون ٥/ ٦١، عيون التواريخ ١٢/ ٢٩٣، دول الإسلام ٢/ ٥٠، سير أعلام النبلاء ١٩/ ٥٦١، مفرج الكروب ١/ ٦٠، خلاصة الذهب المسبوك ٢٧٣، دول الإسلام ٢/ ٥٠، فوات الوفيات ٢/ ٢٤٨، تاريخ ابن الوردى ٢/ ٣٩، العبر للذهبى ٤/ ٧٥، طبقات السبكى ٧/ ٢٥٧.

(٢) ينظر تفاصيل ذلك فى سير أعلام النبلاء ١٩/ ٥٦٥.

ولا أرى أحلامى إلا فى حِمامى، فقتل بعد أيام قلائل. وقيل فى كيفية قتله غير ذلك، فقتل فى التاريخ المذكور وعمره ثلاث وأربعون سنة وأحد عشر شهرًا.

خلافة الراشد بالله(١)

منصور بن المسترشد بن المستظهر بن المقتدى.

بُويعَ له يوم وفاة أبيه بعهد منه فمكث ما شاء الله، ثم وقع بينه وبين السلطان مسعود بن محمد قاتل والده فاستخدم الراشد أجنادًا كثيرة وتهيأ للقائه، فكاتب السلطان مسعود أتابك زنكى وأرتغش، كبيرى جند الراشد، فأشارا عليه بالتوقف عن المسير إلى الملك مسعود، وأقبل الملك مسعود بجيوشه، فدخل بغداد فى ذى القعدة سنة ثلاثين وخمسمائة، فنهب دور الجند، ومنع من نهب البلد، واستمال الرعية وأحضر القضاة والشهود، فقدحوا فى الراشد بأنه صدرت منه سيرة قبيحة من سفك الدماء وارتكاب المنكرات، وفعل ما لا يجوز فعله، وشهدوا عليه بذلك؛ فحكم قاضى القضاة بخلعه فخلعوه فى ذى القعدة سنة ثلاثين وخمسمائة، وكان الراشد قد هرب هو وأتابك زنكى إلى الموصل، فطلبه السلطان مسعود، فهرب إلى فارس ثم دخل أصبهان وحاصرها فتمرض هناك، فوثب عليه جماعة من الفداوية فقتلوه، وكانت مدته إلى أن خلع سنة إلا أيامًا، وعمره إحدى وعشرين سنة، وقيل ثلاثون سنة.

كان شابًا أبيض تام الشكل، شديد البطش، شجاع النفس، كريمًا جوادًا فصيحًا. قال العماد الكاتب(٢): كان للراشد الحسن اليوسفي، والكرم الحاتمى، رحمه الله تعالى.

---

(١) ينظر [الراشد بالله] فى: تاريخ الخلفاء ٤٣٦ - ٤٣٧، تاريخ الخميس ٢/ ٣٦٢، النجوم الزاهرة ٥/ ٢٦٣، البداية والنهاية ١٢/ ٢١٣، فوات الوفيات ٤/ ١٦٨ - ١٦٩، المنتظم ١٠/ ٧٦ - ٧٧، سير أعلام النبلاء ١٩/ ٥٦٨، شذرات الذهب ٤/ ١٠٠، الكامل لابن الأثير ١١/ ٦٢، العبر للذهبى ٤/ ٨٩، مرآة الجنان ٣/ ٢٥٩، الجوهر الثمين ٢٠٦، أخبار الدول ٢/ ١٧٢، دول الإسلام ٢/ ٥٢ .

(٢) ينظر: خريدة القصر وجريدة العصر . للعماد الكاتب ١/ ٣٢ .

خلافة أبى عبد الله المقتفى (١)

محمد بن المستظهر بن المقتدى، وهو عم الراشد قبله.

بويع له يوم خلع ابن أخيه الراشد ولقب بالمقتفى، وسبب تلقيبه بهذا أنه رأى النبى ﷺ قبل الخلافة بأشهر فى المنام وهو يقول له: إنه سيصل إليك هذا الأمر، فاقتف بى. فقام بتدبير المملكة، وكان بيده أَزِمَّةُ الأمور؛ لا يجرى فى خلافته أمر وإن صغر إلا بتوقيعه، وكتب بيده فى أيام خلافته ثلاث ربعات(٢).

وكان محمود السيرة مشكور الدولة، يرجع إلى فضل ودين، وعقل ورأى وسياسة، جدد معالم الإمامة، ومهد رسوم الخلافة، وامتدت أيامه، ولم ير مع سماحته ولين جانبه ورأفته بعد المعتصم خليفة مثله فى شهامته وصرامته، مع ما خص به من زهده وورعه وعبادته، ولم تزل جيوشه منصورة حيث يممت.

قال العلامة ابن الجوزى: من أيام المقتفى هذا عادت بغداد والعراق إلى يد الخلفاء ولم يبق لهم منازع، وقبل ذلك من دولة المقتدر إلى وقته كان الحكم للمتغلبين من الملوك، وليس للخليفة معهم إلا الاسم فقط(٣).

ومن سلاطين دولته سنجر صاحب خراسان، ونور الدين محمود بن زنكى صاحب الشام المعروف بنور الدين الشهيد.

وفى سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة فى خلافته قال ابن الأثير(٤): ظهر بدمشق الشام سحاب أسود، فاشتد الظلام حتى لا يرى أحد أحدًا، ثم انقشع وظهر بعده سحاب أحمر، فتلونت السماء بلون النار، ثم بعد ذلك ظهرت ريح عظيمة عاصف تقلع الأشجار العظيمة من أصولها.

---

(١) ينظر [المقتفى بالله] فى: تاريخ الخلفاء ٤٣٧ - ٤٤٢، شذرات الذهب ٤/ ١٧٢ - ١٧٤، أخبار الدول ١٧٥، النجوم الزاهرة ٥/ ٣٣٢، تاريخ الخميس ٢/ ٣٦٢، سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٣٩٩، الوافى بالوفيات ٢/ ٩٤، البداية والنهاية ١٢/ ٢٤١، مرآة الجنان ٣/ ٣١٠، دول الإسلام ٢/ ٧١، تاريخ ابن الوردى ٢/ ٦٢، عيون التواريخ ١٢/ ٥٢١، الجوهر الثمين ١/ ٢٠٧، تاريخ ابن خلدون ٣/ ٥٢٢، تاريخ الزمان ١٧٤، الكامل لابن الأثير ١١/ ٢٥٦، المنتظم ١٠/ ١٩٧ .

(٢) ينظر الكامل لابن الأثير ١١/ ٤٣، تاريخ الخلفاء ٤٣٧، سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٤٠١ .

(٣) ينظر: تاريخ الإسلام للذهبى [وفيات سنة خمس وخمسين وخمسمائة] ص ١٧٥ .

(٤) ينظر: الكامل لابن الأثير (١١/ ٥٤) .

وفى سنة خمس وأربعين وخمسمائة من خلافته أمطرت السماء دما أحمر لا ينكر منه شيء، وكان ذلك الإمطار فى بلاد نيسابور.

وفى « قلادة النحر » فى حوادث سنة تسع وأربعين وخمسمائة فى خلافة المذكور: كانت قصة أهل قرية المعلف، وهى قرية بين الكُدر والمهجم من أعمال تهامة اليمن، وفى كفاية المستبصر: هما قريتان اسم إحداهما معلف والأخرى سحلة، أرسل الله عليهما سحابة سوداء فيها رجف وبرق وشعل نار تلهب وريح، فلما رأوا ذلك زالت عقولهم فألتجأ منهم قوم إلى المساجد فغشيهم العذاب، فاحتملت الريح أصل القريتين من تحت الثرى بمساكنهم بمن فيها من الرجال والنساء والأطفال والدواب فألقتهم بمكان بعيد نحو خمسة أميال من حيث احتملتهم، فوجدوا حيث ألقتهم صرعى ولبعضهم أنين، وهم صم بكم عمى، فماتوا عن آخرهم يومهم، نسأل الله السلامة والعافية لنا ولجميع المسلمين.

وكان المقتفى محبًا للحديث وسماعه، معتنيًا به وبالعلم، مكرمًا لأهله. ولما دعا الإمام أبا منصور الجواليقى النحوى ليجعله إمامًا يصلى به الصلوات الخمس - دخل فما زاد على أن قال: السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. وكان الطبيب هبة الله بن صاعد ابن التلميذ النصرانى قائما فقال: ما هكذا يسلم على أمير المؤمنين يا شيخ، فلم يلتفت إليه الجواليقى، وقال للمقتفى: يا أمير المؤمنين، سلامى هو ما جاءت به السنة النبوية، وروى له خبرًا فى صورة السلام ثم قال: يا أمير المؤمنين لو حلف حالف أن نصرانيًا أو يهوديًا لم يصل إلى قلبه نوع من أنواع العلم على الوجه المعتبر - ما لزمته كفارة الحنث؛ لأن الله تعالى ختم على قلوبهم ولن يفك ختمه إلا الإيمان، فقال المقتفى: صدقت وأحسنت. فكأنما ألقم ابن التلميذ حجرًا مع فضله وغزارة علمه وأدبه.

وتوفى الخليفة المقتفى يوم الأحد ثالث ربيع الاول، وقيل: الآخر، وقيل: رجب سنة خمس وخمسين وخمسمائة. مدة خلافته خمس وعشرون سنة وثلاثة أشهر ونصف، وعمره سبع وستون سنة، وقيل: وشهر واحد.

* * *

خلافة المستنجد بالله(١)

أبو المظفر، يوسف ابن المقتفى لأمر الله محمد بن المستظهر أحمد بن المقتدى.

كان أديبًا فاضلاً، أهلاً للخلافة، بويع له يوم وفاة والده. أمه أم ولد حبشية اسمها طاوس.

حكى أنه قبل أن يستخلف رأى فى منامه أن ملكًا نزل من السماء فكتب فى كفه خمس خاءات، فلما أصبح سأل الإمام محمدًا الغزالى، أو أخاه أحمد عن تعبير ذلك، فقال: والله أعلم، أنك ستلى الخلافة سنة خمس وخمسين وخمسمائة، فكان كذلك، وليها سنة خمس وخمسين وخمسمائة، فالخاء الأولى للخلافة.

وكان موصوفًا بالعدل والديانة، أبطل المكوس وقام كل القيام على المفسدين، روى أنه سجن رجلاً كان يسعى بالفساد فى الناس، فجاء إليه رجل، وبذل فيه عشرة آلاف دينار فقال المستنجد له: أنا أعطيك عشرة آلاف دينار على آخر مثله تأتينى به فأحبسه وأكفى الناس شره(٢). وله شعر متوسط منه قوله فى بخيلٍ: [من السريع]

وَبَـاخِـلٍ أَشْـعَـلَ فِـى بَـيْـتِـه ... تَـكَـرُّمًـا مِـنْـهُ لَـنَـا شَـمْـعَـهْ
فَمَا جَرَتْ مِنْ عَيْنِهَا دَمْعَةٌ ... حَتَّى جَرَتْ مِنْ عَيْنِهِ دَمْعَهْ

وقوله: [من الخفيف]

عَيَّرَتْنِي بِالشَّيْبِ وَهْوَ وَقَارُ ... لَيْتَهَا عَيَّرَتْ بِمَا هُوَ عَارُ
إِنْ تَكُنْ شَابَتِ الذَّوَائِبُ مِنِّي ... فَاللَّيَالِى تَزِينُهَا الْأَقْمَارُ

وفى سنة سبع وخمسين وخمسمائة، وهى السنة الثالثة من خلافته جرت الكائنة الغريبة، وهى ما ذكره العلامة السيد نور الدين على السمهودى المدنى فى كتابه « خلاصة الوفا » وغيره، فقال: إن الملك العادل نور الدين رأى النبى ﷺ فى نومه

---

(١) ينظر: [المستنجد بالله] فى: شذرات الذهب ٤/ ٢١٨، تاريخ الخلفاء ٣٥٤، تاريخ الخميس ٢/ ٣٦٣، حسن المحاضرة ٢/ ٩١، النجوم الزاهرة ٥/ ٣٨٦، الضوء اللامع ١٠/ ٣٢٩، تاريخ ابن خلدون ٣/ ٥٢٥، البداية والنهاية ١٢/ ٢٦٢، مرآة الجنان ٣/ ٣٧٩، دول الإسلام ٢/ ٧٩، العبر للذهبى ٤/ ١٩٤، فوات الوفيات ٤/ ٣٥٨، المنتظم ١٠/ ١٩٢، الكامل لابن الأثير ١١/ ٢٥٦، مفرج الكروب ١/ ١٩٣، سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٤١٢، خلاصة الذهب المسبوك ٢٧٦ .

(٢) ينظر سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٤١٤، الكامل لابن الأثير ١١/ ٣٦٢، المنتظم ١٠/ ١٩٣ .

ليلة ثلاث مرات وهو يشير إلى رجلين أشقرين، يقول: أنجدنى من هذين. فأرسل إلى وزيره، وتجهزا فى بيته ليلتهما على رواحل خفيفة فى عشرين نفرًا، وصحب مالاً كثيرًا فقدم المدينة فى ستة عشر يومًا، فزار ثم أمر بإحضار أهل المدينة بعد كتابتهم، وصار يتأمل فى كل ذلك تلك الصفة إلى أن انقضت الناس فقال: هل بقى أحد ؟ قالوا: لم يبق سوى رجلين صالحَيْن عفيفين مغربيين يكثران الصدقة. فطلبهما فرآهما الرجلين اللذين أشار إليهما عليه الصلاة والسلام، فسأل عن منزلهما فأخبر أنهما فى رباط بقرب الحجرة الشريفة، فأمسكهما ومضى إلى منزلهما فلم ير غير ختمتين وكتبًا فى الرقائق، ومالاً كثيرًا فأثنى عليهما أهل المدينة خيرًا فبقى مترددًا متحيرًا، فرفع حصيرًا فى البيت فرأى سردابًا محفورًا ينتهى إلى صوب الحجرة، فارتاعت الناس لذلك، فقال لهما السلطان: أصدقانى، وضربهما ضربًا شديدًا، فاعترفا بأنهما نصرانيان بعثهما النصارىٰ فى زى حجاج المغاربة، وأمالوهما بالمال العظيم ليتحيلا فى الوصول إلى الجناب الشريف، ونقله وما يترتب عليه، فنزلا قرب رباط وصارا يحفران ليلاً، ولكل منهما محفظة جلد، والذى يجتمع من التراب يخرجانه فى محفظتيهما إلى البقيع إذا خرجا بعلة الزيارة، فلما قرب من الحجرة أرعدت السماء وأبرقت وحصل رجف عظيم، فقدم السلطان صبيحة تلك الليلة، فلما ظهر حالهما بكىٰ السلطان بكاء شديدا، وأمر بضرب رقابهما، فقتلا تحت الشباك الذى يلى الحجرة الشريفة المسمَّىٰ الآن شباك الجمال، ثم أمر بإحضار رصاص عظيم، وحفر خندقًا عظيمًا إلى الماء حول الحجرة الشريفة كلها وأذاب ذلك الرصاص، وملأ الخندق، فصار حول الحجرة سور من رصاص إلى الماء، انتهى.

وفى سنة إحدى وستين وخمسمائة ذكر صاحب الخميس عن شمس الدين صواب الموصلى بواب المسجد النبوى، والقائم بأمره بإسناد صحيح عنه أن جماعة من الروافض وصلوا من حلب فأهدوا إلى أمير المدينة الشريفة من الأموال والجواهر ما لم يخطر ببال، فشغله ذلك وأنساه دينه، والتمسوا منه أن يخرجوا جسد أبى بكر وعمر - رضى الله تعالى عنهما - من عند النبى ﷺ.

فلما غشيه من حب الدنيا والتشاغل بالأموال عن الدين وافقهم على ذلك. قال صواب الموصلى المذكور: فطلبنى أمير المدينة وقال: إن فى هذه الليلة يصل إليك

كذا وكذا من الرجال، فحين يصلون إليك سلم إليهم مفتاح الحجرة الشريفة النبوية ولا تتشاغل عنهم، وإلا أخذت ما فيه عيناك.

قال صواب: فأخذتنى رعدة ودهشة، ولا أدرى إلامَ يئول الأمر، فانتظرت، فلما كان نصف الليل أقبل أربعون رجلاً فدخلوا من باب السلام، فسلمت إليهم مفتاح الحجرة المطهرة، فإذا معهم المقاحف والمكاتل وآلات الحفر؛ فعرفت مرادهم؛ وغاب حسى من الهيبة النبوية، ثم سجدت لله وجعلت أبكى وأتضرع، فما نظرت إلا وقد انشقت الأرض واشتملتهم بجميع ما معهم من آلات الحفر والتأمت لساعتها، وذلك عند المحراب العثمانى، فسجدت شكرًا لله، فلما استبطأ الأمير الخبر أرسل لى رسولاً فأخبرته بما رأيت، فطلبنى عاجلًا فوصلت إليه فإذا هو مثل الواله، فسألنى مشافهة فحققت له ما رأيت، فقال: إن خرج منك هذا الأمر قتلتك، فلم أزل ساكتًا عن بثِّ هذا الأمر مدة حياة ذلك الأميرخوفًا منه.

وتوفى المستنجد يوم السبت ثالث ربيع الآخر سنة ست وستين وخمسمائة، ومدة خلافته اثنتا عشرة سنة إلا يومًا أو يومين، وعمره سبع وأربعون سنة، وقيل: تسع وأربعون وشهر. وكان أسمر طويل اللحية، وهو الثانى والثلاثون من الخلفاء. قال فيه بعض الأدباء: [من البسيط]

أَصْبَحْتَ لُبَّ بَنِى العَبَّاسِ كُلِّهِمُ ... إِنْ عُدِّدَتْ بِحِسَابِ الجُمَّلِ الخُلَفَا

خلافة المستضىء بنور الله[1]

أبى محمد، الحسن بن المستنجد، بويع له بالخلافة يوم موت أبيه المستنجد، وخطب له بالديار المصرية واليمن، وكانت الخطبة منقطعة منهما فى زمن المطيع العباسى عند استيلاء المعز الفاطمى على مصر، وكان المستضيء جوادًا كريمًا، مؤثرًا للخير، كثير الصدقات سخيًا، محييًا للسنة، أمنت البلاد فى زمانه، وأبطل مظالم كثيرة، واحتجب عن أكثر الناس؛ فلم يكن يركب إلا مع مماليكه، ولم يكن يدخل عليه غير الأمير قيماز.

---

(١) ينظر [المستضىء بالله] فى: العبر ٤/ ٢٢٣، مرآة الزمان ٨/ ٣٥٦، البداية والنهاية ١٢/ ٣٠٤، سير أعلام النبلاء ٢١/ ٦٨، الكامل لابن الأثير ١١/ ٤٥٩، المنتظم ١٨/ ١٩٠، تاريخ الخلفاء ٣٥٥، فوات الوفيات ١/ ١٣٧، تاريخ ابن خلدون ٣/ ٥٢٨، تاريخ الخميس ٢/ ٣٦٦ .

قال الذهبى: ولم يل الخلافة أحد اسمه الحسن بعد الحسن بن على - رضى الله تعالى عنهما - غير هذا، ووافقه فى الكنية أيضًا. ومما نظمه العماد الكاتب حين جاءت البشارة بخلافة المستضيء وهو بأرض الموصل قوله: [من الخفيف]

قد أضاءَ الزمانُ بالمُسْتَضِئِ وارثِ البُرْدِ وابْنِ عَمِّ النبيِّ
جاءَ بِالحقِّ والشريعةِ والعَدْ لِ فيا مرحبًا بهذا المَجِئِ
فهنيئًا لأهْلِ بغدادَ فازوا بعد بؤسَىٰ بكلِّ عيشٍ هنئِ

وكان مرضه بالحمى، ابتدأ بها يوم عيد الفطر، فلما كان يوم السبت سلخ شوال سنة خمس وسبعين وخمسمائة توفى إلى رحمة الله تعالى، وكانت مدة خلافته ثمان سنين وثمانية أشهر وثمانية وعشرين يومًا، وقيل: تسع سنين وثلاثة أشهر، وعمره سبع وثلاثون سنة.

خلافة الناصر لدين الله(١)

أحمد بن المستضىء حسن بن المستنجد يوسف بن المقتفى لأمر الله محمد بن المستظهر بن المقتدى. كانت فيه شهامة وصرامة وإقدام، وعقل ودهاء، وكان مستقلًا بأمور الملك بالعراق متمكنًا، طالت أيامه، وكانت له دسائس وعيون عند كل أحد من الأمراء والعظماء، والسلاطين والحكام من الأجناس المختلفة؛ حتى كان يظن أن له اطلاعًا على المغيبات.

بويع بالخلافة بعد موت والده، وعمره ثلاث وعشرون سنة، فبسط العدل، وأمر بإراقة الخمور، وكسر الملاهى، وإزالة المكوس والضرائب، فعمر البلاد، وبسط الأرزاق، وقصدت الناس بغداد وتبركوا به.

وفى أيامه ظهور صلاح الدين يوسف بن أيوب، واستخلاصه بيت المقدس من الفرنج، واستيلاؤه على مصر، وإزالة دولة الفاطميين عنها، فخطب بها للناصر العباسى، كما سنذكر ذلك عند ذكرهم.

---

(١) ينظر [الناصر لدين الله] فى: الكامل لابن الأثير ١٢/ ١٠٨ - ١٨١، مرآة الزمان ٨/ ٦٣٥، تكملة المنذرى ٣/ت٢٠٧٠، مفرج الكروب ٤/ ١٦٣، مختصر أبى الفداء ٣/ ١٤٢، العبر للذهبى ٥/ ٨٧، دول الإسلام ٢/ ٩٥، الوافى بالوفيات ٦/ ٣١٠، فوات الوفيات ١/ ٦٢، البداية والنهاية ١٣/ ١٠٦، النجوم الزاهرة ٦/ ٢٦١، المنهل الصافى ١/ ٢٦٤، شذرات الذهب ٥/ ٩٧، سير أعلام النبلاء ٢٢/ ١٩٢، تاريخ الخلفاء ٣٥٨ .

وفى أيامه مات السلطان طغرلبك شاه بن أرسلان بن طغرلبك بن محمد بن ملك شاه، وهو آخر ملوك الدولة السجلوقية، وكان عدتهم نيفًا وعشرين ملكًا، أولهم طغرلبك الذى أعاد الخليفة القائم إلى بغداد، ومدة دولتهم مائة وستون سنة.

وطالت أيامه؛ فأحيا رسوم الخلافة، وامتلأت القلوب بهيبته، وكان ذا فكر صائب، وكانت أيامه من غرر الزمان، وهو الذى وقع للشريف قتادة بن إدريس صاحب مكة معه تلك الواقعة حين استدعاه، وسأذكرها إن شاء الله فى الخاتمة عند ذكر الشريف قتادة.

وكان له إحسان على أهل الحرمين، وكانت الكعبة الشريفة تُكْسَىٰ الديباج الأبيض زمن المأمون إلى آخر أيام الناصر هذا، فكساها الديباج الأسود، واستمر إلى زماننا هذا.

قال فى « قلادة النحر » نقلاً عن العماد الكاتب: فى سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة، فى خلافة الناصر العباسى، أجمع المنجمون على اجتماع الكواكب السبعة فى برج الميزان، ويدل ذلك على خراب العالم، وأن تهب ريح مثل ريح قوم عاد، وعينوا الاجتماع فى ليلة نصف شعبان من السنة المذكورة. وفرق الملوك فحفروا حفائر ونقلوا إليها الماء والزاد، قال: فلما كانت الليلة التى عينوها جلسنا عند السلطان، والشموع تتقد، فلم يتحرك اللهب منها، ولم تر ليلة مثلها فى ركود ريحها وسكونها[١]، ولكن ظهر بعد ذلك أن سلطان التتار خرج فى تلك الليلة من تلك السنة، فكان منه ما كان من الفساد، وعاث فى أكثر البلاد، وأفنى خلقًا من العباد، حتى قتل الخليفة العباسى المستعصم بالله ببغداد، كما سأذكر قصته على أتم الأحوال.

وفى سنة [اثنتين وثمانين وخمسمائة][٢] أمطرت السماء يومًا وليلة رمادًا وأظلمت الدنيا وعجز الناس عن اطِّراق الطرق إلى بيوتهم من الأسواق، وذلك بمدينة زبيد باليمن، ووقعت بردة فى أسفل وادى « مور » من بلاد « تهامة »، طولها مائة وستون ذراعًا، وعرضها عشرة أذرع، وسمكها نحوًا من قامتين، فلما ذابت سقى بمائها أربع قطع من الأرض فى ذلك الموضع.

---

(١) ينظر: سير أعلام النبلاء ٢٢/٢٠٦ .

(٢) فى ط: سنة ستين وستمائة، والمثبت من تاريخ الخلفاء ص (٣٦٢) .

وكان الناصر فى أكثر الليل يشق الدروب والأسواق، وكان الناس يتهيئون للقائه، وهو أطول بنى العباس خلافة، كانت مدته ستًّا وأربعين سنة، وقيل: سبعًا وأربعين، وكانت وفاته سلخ شهر رمضان سنة اثنتين وعشرين وستمائة، أصابه فى آخر عمره الفالج؛ فبقى معه سنتين وذهبت عينه، ثم مات فى التاريخ المذكور وعمره سبعون سنة إلا شهرًا. كان تركى الوجه، أقنى الأنف، خفيف العارضين، أشقر اللحية، رقيق المحاسن. رحمه الله تعالى.

خلافة الظاهر بأمر الله(١)

أبى نصر، محمد بن الناصر لدين الله، أحمد بن المستضيء بن المستنجد بن المقتفى.

كان من أهل الورع والدين، تابعا للشرع، اتفق أهل النقل أنه ما جاء أحد بعد عمر بن عبد العزيز مثله، فإنه أحيا سنة العمرين، وسار بسيرتهما، فأعاد الأموال المغصوبة والأملاك المأخوذة فى أيام أبيه ومن قبله إلى أهلها، وأظهر العدل، وأزال المكس، وكان العمال تكيل للديوان بكيل زائد على ما يكيلون به للناس فأبطل ذلك، وكتب إلى وزيره ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾ إلى قوله ﴿ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [المطففين: ١-٦]، فقال له الوزير: تفاوت الكيل ينوف على ثلاثين ألف دينار، فقال له: أبطله ولو أنه ثلاثمائة ألف دينار. وفرق ليلة عيد النحر على الفقهاء مائة ألف دينار، فلامه وزيره على ذلك، فقال: اتركنى أفعل الخير؛ فإنى لا أدرى كم أعيش، ولم يمتد زمانه(٢).

وكان فى أضيق عيش، فقالوا له إشفاقا لحاله: لم لا تتوسع فى المأكل والمشرب والرزق ؟ فقال: من فتح الحانوت بعد العصر، فحاله معلوم فى البيع والشراء.

توفى فى شهر رجب سنة ثلاث وعشرين وستمائة. ولما توفى اتفق خسوف القمر

---

(١) ينظر [الظاهر بأمر الله] فى: الكامل لابن الأثير ١٢/ ١٨٨ - ١٨٩، مرآة الزمان ٨/ ٦٤٢، تكملة المنذرى ٣/ ت٢١١١، ذيل الروضتين ١٤٩، مختصر ابن العبرى ٢٤٢، مختصر أبى الفداء ٣/ ١٢٣، سيرأعلام النبلاء ٢٢/ ٢٦٤، العبر للذهبى ٥/ ٩٥، دول الإسلام ٢/ ٩٦، الوافى بالوفيات ٢/ ٩٥ - ٩٧، البداية والنهاية ١٣/ ١١٢ - ١١٣، النجوم الزاهرة ٦/ ٢٦٥، شذرات الذهب ٥/ ١٠٩ .

(٢) ينظر: سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٢٦٥، الكامل لابن الأثير ١٢/ ١٨٨ .

فى تلك السنة مرتين. فجاء ابن الأثير رسولاً من صاحب الموصل برسالة فى التعزية أولها: « ما لليل والنهار لا يعتذران وقد عظم حادثهما، وما للشمس والقمر لا ينكسفان وقد فقد ثالثهما !!: [من الطويل]

فيا وَحْشَةَ الدنْيَا وكانَتْ أنيسةً ووحدةَ مَنْ فيها لِمَصْرَعِ واحدِ

وهو سيدنا ومولانا، الإمام الظاهر بالله، أمير المؤمنين، الذى جعلت ولايته رحمة للعالمين ».. إلى آخر رسالة ذكرها السيوطى فى تاريخه(١). وكانت مدته عشرة أشهر وأيامًا، وعمره اثنتان وثلاثون سنة، وقيل: وخمسون وستة أشهر.

خلافة المستنصر بالله(٢)

أبى جعفر، منصور بن الظاهر بأمر الله محمد بن الناصر لدين الله أحمد بن المستضيء الحسن بن المستنجد يوسف بن المقتفى محمد بن المستظهر بن المقتدى.

بويع له بالخلافة بعد موت أبيه الظاهر فى رجب سنة ثلاث وعشرين وستمائة، فنشر العدل وبذل الإنصاف، وقرب أهل العلم والدين، وبنى المساجد والربط والمدارس، وأقام منار الدين، وقمع المتمردين، ونشر السنن، وكف كف الفتن، وحمل الناس على أقوم سنن، وحفظ الثغور وافتتح الحصون، واجتمعت القلوب على محبته، والألسن على مدحته، ولم يجد أحد من المتعنتة فيه معابًا. وكان جده الناصر يقربه، ويسميه القاضى، لهديه وعقله، وإنكار ما يجده من المنكر.

قال الحافظ زكى الدين عبد العظيم المنذرى(٣): كان المستنصر راغبًا فى فعل الخير، مجتهدًا فى أعمال البر، وله فى ذلك آثار جميلة، وهو الذى أنشأ « المستنصرية » التى لم يبن مثلها فى مدارس الإسلام، ولم يوجد فى المدارس أكثر كسبًا منها، ولا أكثر أوقافًا عليها، ورتب فيها الرواتب الحسنة لأهل العلم.

---

(١) ينظر: تاريخ الخلفاء للسيوطى ٣٦٨ .

(٢) ينظر [المستنصر بالله] فى: مرآة الزمان ٨/ ٧٣٩، التكملة للمنذرى ٣/ت ٣٠٩٥، سير أعلام النبلاء ٢٣/ ١٥٦، ذيل الروضتين ١٧٢، مختصر ابن العبرى ٢٥٣، المختصر بأخبار البشر ٣/ ١٧٩، دول الإسلام ٢/ ١١٠، العبر للذهبى ٥/ ١٦٦، البداية والنهاية ١٣/ ١٥٩، النجوم الزاهرة ٦/ ٣٤٥، شذرات الذهب ٥/ ٢٠٩، تاريخ الخلفاء ٣٦٨ .

(٣) ينظر التكملة للمنذرى ٣/ ٦٠٧ (ت ٣٠٩٥) .

وقال ابن واصل: بناها على دجلة من الجانب الشرقى، وهى بأربعة مدرسين على المذاهب الأربعة، وعمل فيها « مارستانًا »، ورتب فيها مطبخًا للفقهاء، ومزملة للماء البارد، ورتب لبيوت الفقهاء الحصر والبسط والزيت والورق والحبر، ورتب فيها الخبز واللحم والحلوى والفواكه، وكسوة الشتاء وكسوة الصيف، وجعل فيها ثلاثين يتيمًا، ووقف على ذلك ضياعًا وقرى كثيرة سردها الذهبى وغيره، ولكل فقيه فى الشهر دينار، وشرع فى عمارتها سنة خمس وعشرين وستمائة، وأتمها فى سنة إحدى وثلاثين وستمائة[1]، ونقل إليها من الكتب النفيسة، وعدة فقهائها مائتان وثمانية وأربعون فقيهًا من المذاهب الأربعة، وشيخ حديثٍ، وشيخ نحوٍ وشيخ طب، وشيخ فرائض، وكان غلال ما وقف عليها فى كل عام نيفًا وسبعين ألف مثقالٍ ذهبًا.

وفى سنة اثنتين وثلاثين أمر المستنصر بضرب الدراهم الفضية؛ ليعامل بها بدلاً عن قراضة الذهب[2]، فجلس الوزير وأحضر الولاة والتجار والصيارفة، وفرشت الأنطاع وأفرغ عليها الدراهم، وقال الوزير: قد رسم مولانا أمير المؤمنين بمعاملتكم بهذه الدراهم عوضًا عن قراضة الذهب؛ رفقًا بكم، وإنقاذًا لكم من التعامل بالحرام، ومن الصرف الربوى، فأعلنوا الدعاء له، ثم أديرت وسعرت كل عشرة دراهم بدينار، فقال أبو المعالى، القاسم بن أبى الحويل فى ذلك أبياتًا: [من الخفيف]

لا عَدِمْنَا جميلَ رأيِكَ فينا ... أَنْتَ باعَدتَّنا عَنِ التَّطفيفِ
ورَسَمْتَ اللُّجينَ حتى أَلِفْنَا ... هُ وما كان قَبْلُ بالمألوفِ
ليس للجَمْعِ كان مَنْعُكَ للصَّرْ ... فِ ولكنْ للعَدْلِ والتعريفِ

قلت: تأمل بيته الأخير؛ فما ألطفه!

ومن مناقبه أن الوجيه القيروانى امتدحه بقصيدة يقول فيها: [من الكامل]

لو كُنْتَ فى يومِ السقيفةِ حاضرًا ... كُنْتَ المقدَّمَ والإمامَ الأَوْرَعَا

فقال له قائل بحضرته: أخطأت؛ قد كان حاضرًا العباس جد أمير المؤمنين، ولم يكن المقدم إلا أبو بكر، فأقر ذلك المستنصر وخلع على القائل، ثم أمر بنفى الوجيه

---

(١) ينظر: سير أعلام النبلاء ٢٣/ ١٦٣ .

(٢) ينظر: سير أعلام النبلاء ٢٣/ ١٦٤، تاريخ الخلفاء ٣٧٠ .

فخرج إلى مصر[١]، كذا قاله الذهبى. قلت: العباس - رضى تعالى عنه - لم يحضر السقيفة؛ فالرد مردود، على أن قول الشاعر: « حاضر » لا يلزم منه حضوره عند السقيفة حتى يرد ما قاله هذا القائل؛ بل مراده: حضوره، أى: وجوده فى ذلك الزمن، يعنى زمن اجتماعهم فى السقيفة، لا حضور نفس الاجتماع فيها.

وكانت مدارس بغداد يضرب بها المثل فى ارتفاع العماد، وإتقان المهاد، وطيب الماء، ولطف الهواء، ورفاهية الطلاب، وسعة الطعام والشراب.

وأول مدرسة بنيت فى الدنيا مدرسة « نظام الملك »؛ فلما سمع علماء ما وراء النهر هذا الخبر اتخذوا ذلك العام مأتمًا، وحزنوا على سقوط حرمة العلم، فقالوا حين سئلوا عن ذلك: إن للعلم ملكة شريفة لا تطلبها إلا النفوس الشريفة، بجاذب الشرف الذاتى، فلما جعلت عليه الأجور تطلبته النفوس الرذلة؛ لتجعله مكسبًا وسلمًا لحطام الدنيا، لا لتحصيل شرف العلم؛ بل لتحصيل المناصب الدنيوية الأسفلية الفانية، فيرذل العلم لرذالتهم، ولا يشرفون بشرفه. ألا ترى إلى علم الطب؛ فإنه مع كونه شريفًا لما تعاطاه اليهود والنصارى رذل برذالتهم، ولم يشرفوا بشرفه، وهذا حال طلبة العلم فى هذا الزمان الفاسد، كذا فى « الأعلام ». قلت: قد كان هذا قبل، وأما اليوم فلا طلب ولا مطلوب، ولا رغبة ولا مرغوب، نسأل الله اللطف وحسن الخاتمة.

ومن جملة خدام المستنصر بالله الأمير شرف الدين، وإقبال الشرابى المستنصرى.

وفى سنة ست وثلاثين وستمائة وقع باليمن مطر عظيم عمه جميعًا، وكان فيه برد عظيم قتل من الدواب والوحوش شيئًا كثيرًا، ونزلت فيه بردة كالجبل الصغير لها شناخيب، يزيد كل واحد منها على ثلاثة أذرع، وقعت فى مفازة من بلاد « سنحان » و« زراحة »، وذلك بمرحلتين بمسير الجمال عن صنعاء فغاب فى الأرض أكثرها، وكانت يدور حولها عشرون رجلًا فلا يرى بعضهم بعضًا. وبشاذروان الكعبة الشريفة فى وسط مصلى جبريل عليه الصلاة والسلام، وهى الحفيرة المسماة الآن بالمعجنة، حجر من الرخام الأزرق ومنقور فيه « بسم الله الرحمن الرحيم. أمر بعمارة هذا

(١) ينظر: تاريخ الخلفاء للسيوطى ٣٧٠ - ٣٧١ .

المطاف الشريف - وذكر اسمه - وذلك فى سنة إحدى وثلاثين وستمائة. وصلى الله على سيدنا محمد وآله » انتهى. وهذا الحجر باقٍ إلى يومنا.

ثم توفى المستنصر لعشر بقين من جمادى الآخرة سنة أربعين وستمائة، وكانت خلافته ست عشرة سنة وعشرة أشهر، وعمره اثنتان وخمسون سنة وأربعة أشهر، رحمه الله تعالى.

خلافة المستعصم بالله(١)

أبى أحمد، عبد الله بن المستنصر بالله، منصور بن الظاهر بأمر الله، محمد بن الناصر لدين الله، أحمد. هو آخر الخلفاء العباسيين بالعراق. أمه أم ولد حبشية اسمها هاجر.

بويع له بالخلافة عند موت أبيه المستنصر، كان لينًا هينًا، قليل الرأى، بعيد الفهم، فوض جميع أموره إلى وزيره مؤيد الدين - بل مدمر الدين - ابن العلقمى الرافضى، فكان سبب هلاكه وزوال ملكه كما سيأتى ذكره، وكان للمستنصر أبيه ابنان: أحدهما يسمى بالخفاجى، كان شديد الرأس، شديد الرأى، شجاعًا صعب المراس، والثانى هذا المستعصم، وكان هينًا لينًا، ضعيف الرأى، فاختاره الأمير الشرابى على أخيه الخفاجى؛ ليستبد هو بالأمر، ويستقل بأحوال الملك؛ فإنه لا يخشاه كما يخشىٰ من أخيه الخفاجى. فلما توفى المستنصر أخفى الأمير إقبال موته نحوًا من عشرين يومًا، حتى دبر الولاية للمستعصم، وبويع له بالخلافة، ففر أخوه الخفاجى إلى العربان وتلاشىٰ أمره.

وفى سنة إحدى وأربعين بنى إقبال الشرابى مدرسة بمكة على يمين الداخل من باب السلام إلى المسجد، ورباطًا فيه عدة خلاوى، ووقف بالمدرسة كتبًا ذهبت شذر مذر إلا قليلاً، والمدرسة باقية إلى الآن، وعلوها مجلسان مطلان على باب السلام، وبها كتب وقفها بعض أهل الخير ممن أدركناه، رحمهم الله تعالى، كذا فى

---

(١) ينظر [المستعصم بالله] فى: شذرات الذهب ٥/ ٢٧٠ - ٢٧٢، تاريخ الخلفاء ٤٦٤، تاريخ ابن خلدون ٣/ ٥٣٦، البداية والنهاية ١٣/ ٢٠٤، فوات الوفيات لابن شاكر ٢/ ٢٣٠، العبر للذهبى ٥/ ٢٣٠، خلاصة الذهب المسبوك ٢٨٩، سير أعلام النبلاء ٢٣/ ١٧٤، النجوم الزاهرة ٧/ ٦٣، دول الإسلام ٢/ ١٢١ .

« الأعلام » للقطب النهروالى؛ نسبة إلى « نهروالا » قرية من قرى الهند أو العجم.

وفى موسم السنة المذكورة حجت والدة المستعصم بالله، وهى أم ولد حبشية اسمها هاجر كما تقدم، وكان فى خدمتها الأمير إقبال الشرابى الدوادار، ومعه ستة آلاف خلعة، وتصدق بنحو ستين ألف دينار، وعدت جمال ركب أهل بغداد تلك السنة، فكانت فوق مائة وعشرين ألف بعير، ثم عادت إلى بغداد.

وفى سنة أربع وخمسين وستمائة، كان ظهور النار، قال أبو شامة فى كتاب « الروضتين »: جاءنا كتب من المدينة الشريفة فيها: لما كانت ليلة الأربعاء ثالث جمادى الآخرة، ظهر بالمدينة دوى عظيم، ثم زلزلة عظيمة؛ فكانت ساعة بعد ساعة إلى خامس الشهر المذكور، فظهرت نار عظيمة فى الحرة الشرقية قريبًا من قريظة، نراها من دورنا من داخل المدينة كأنها عندنا، وسالت أودية منها وادى « شظا » سيل الماء، وطلعنا نقصدها فإذا الجبال تسير نارًا، وسارت هكذا وهكذا، كأنها الجبال، وطار منها شرر كالقصر، وفزع الناس إلى القبر الشريف مستغفرين تائبين، واستمرت هكذا أكثر من شهر(١).

وقال الذهبى: كانت تدب دبيب النمل، وكانت تحرق كل ما مرت عليه من الحجارة وغيرها؛ فكانت الحجارة تذوب كما يذوب الرصاص، وكانت لا تحرق أشجار المدينة على مشرفها الصلاة والسلام. وكان نساء المدينة يغزلن على ضوئها، ثم انطفأت بعد مدة قريبة من شنهر، ومع ذلك ما كان لها حرارة، وما كانت تؤثر فيمن وصل إليها.

ذكر أن أمير المدينة الشريفة أرسل رجلين ليتحققا أمر هذه النار، فلما وصلا إلى قربها، وشاهدا عدم حرارتها - تقربا إليها؛ حتى إن أحدهما أخرج نشابًا فأدخله النار فذاب نصله، ولم يحترق العود، فقلب النشاب وأدخله النار فاحترق الريش ولم يحترق العود؛ لأن السهام كانت من أشجار المدينة، وذلك من معجزاته عليه الصلاة والسلام.

قال اليافعى فى تاريخه: وهذه النار هى التى ذكرها رسول الله ﷺ فقال: « تظهر فى آخر الزمان نار شرقى المدينة، تضيء لها أعناق الإبل بـ« بصرى » من أرض

(١) ينظر: تفاصيل هذه المعجزة فى دلائل النبوة من السيرة النبوية لابن كثير، وقد أورد ابن كثير ملخصًا شاملاً لما أورده أبو شامة. وينظر: البداية والنهاية (٣/ ٢١٩ - ٢٢٣)، سير أعلام النبلاء (٢٣/ ١٨٠)، تاريخ الخلفاء (ص ٣٧٢).

الشام ». قلت: الذى ذكره الحافظ الذهبى أن لفظ الحديث: « لا تقوم الساعة حتى تخرج نار بأرض الحجاز، تضيء لها أعناق الإبل بـ« بصرى »[(١)]، ثم قال: وأمر هذه النار متواتر، وهو مصداق ما أخبر به المصطفى ﷺ. وقد حكى غير واحد ممن كان بـ« بصرى » أنه رأى فى الليل أعناق الإبل فى ضوئها، والصادق لا ينطق عن الهوى، ﷺ.

ثم كان أن مؤيد الدين محمد بن محمد بن عبد الملك صار وزير المستعصم، وكان رافضيًا سبابًا، مستوليا على المستعصم، عدوًا له ولأهل السنة، يداريهم فى الظاهر، وينافقهم فى الباطن وكان دائرًا على طمس آثار السنة، وإعلاء منار البدعة، فصار يكاتب هولاكو قائد التتار، ويطمعه فى ملك بغداد، ويخبره بأخبارها، ويعرفه بصورة أخذها، وبضعف الخليفة، وبانحلال العسكر عنه. وصار يحسن للمستعصم توفير الخزائن، وعدم الصرف على العسكر، والإذن لهم فى الذهاب أين شاءوا، ويقطع أرزاقهم، ويشتت شملهم؛ بحيث إنه أذن مرة لعشرين ألف مقاتل، فذهبوا ووفر علوفاتهم من الخزانتين.

وكان التتار جائلين فى الأرض يقتلون ويأسرون ويخربون الديار، ونارهم فى غاية الاشتعال والاستعار، والمستعصم ومن معه فى غفلة عنهم؛ لإخفاء ابن العلقمى عنه سائر الأخبار، إلى أن وصل هولاكو خان إلى بلاد العراق، واستأصل من بها قتلاً وأسرًا.

وتوجه إلى بغداد، وأرسل إلى الخليفة يطلبه، فاستيقظ من نوم الغرور، وندم على غفلته حيث لا ينفع الندم، وجمع من قدر عليه وبرز إلى قتاله، وجمع من أهل بغداد خاصته، ومن عبيده وخدامه ما يقارب أربعين ألف مقاتل، لكنهم مرفهون بلين المهاد، وساكنون على شط بغداد، فى ظل ثخين، وماء معين، وفاكهة وشراب، واجتماع أحباب، ما كابدوا حربًا، ولا ذاقوا طعنًا ولا ضربًا، وعساكر المغل ينوفون على مائة ألف مقاتل، فوقع التصاف، والتحم القتال، وزحف الخميس إلى الخميس، يوم الخميس عاشر محرم سنة ست وخمسين وستمائة، وصبر أهل بغداد

---

(١) أخرجه البخارى (٧١١٨) ومسلم (٢٩٠٢) والحاكم (٤/ ٤٤٣) وابن حبان (٦٨٣٩) من حديث أبى هريرة .

على حر السيوف، صبروا مضطرين على طعم الحتوف، وأعطوا الدار حقها، واستقبلوا غمام السهام وبلها وودقها، واستمروا كذلك من إقبال الفجر إلى إدبار النهار، فعجزوا عن الاصطبار، وانكسروا أشد انكسار، وولوا الأدبار، وغرق كثير منهم فى دجلة، وقتل أكثرهم شر قتلة، ووضعت التتار فيهم السيف والنار، فقتلوا فى ثلاثة أيام ما ينوف على ثلاثمائة ألف وسبعين ألفًا، وسبوا النساء والأطفال، ونهبوا الخزائن والأموال، وأخذ هولاكو جميع النقود، وأمر بحرق الباقى، ورمى كتب مدارس بغداد فى دجلة، وكانت لكثرتها جسرًا يمرون عليها ركبانًا ومشاة، وتغير لون الماء بحبرها إلى السواد، فأشار الوزير على الخليفة بمصانعتهم وقال: أنا فى تقرير الصلح، فخرج، ووثق لنفسه بينهم، ورجع إلى الخليفة وقال: إن الملك هولاكو قد رغب فى أن يزوج ابنته بابنك الأمير أبى بكر، ويبقيك فى منصب الخلافة كما أبقى صاحب الروم فى سلطنته، ولا يؤثر أن تكون الطاعة له كما كان أجدادك مع سلاطين الديلم والسلجوقية، وينصرف عنك بجنوده، فيجيب مولانا إلى هذا، فإن فيه حقنًا لدماء من بقى من المسلمين، ويمكن بعد ذلك أن تفعل ما تريد، فالرأى أن تخرج إليهم.

فخرج الخليفة فى أعيان دولته فأنزل فى خيمة، ثم دخل الوزير فاستدعى الفقهاء والأماثل ليحضروا العقد، فخرجوا من بغداد، فضربت أعناقهم، وكذلك تخرج طائفة بعد طائفة فتضرب أعناقهم، حتى قتل جميع من فيها من العلماء والأمراء والحجاب والكتاب، واستبقى هولاكو المستعصم أيامًا إلى أن استصفى أمواله وخزائنه وذخائره، ثم رمى رقاب أولاده وذويه وأتباعه، وأمر أن يوضع الخليفة فى غرارة، ويرفس بالأرجل حتى يموت؛ ففعل به ذلك[1].

وفى رواية: أن خروج الخليفة المستعصم إليه كان قبل وقوع شيء من القتال، ثم لما خرج وفعل به ومن معه ما فعل - بذل السيف فى بغداد، واستمر السيف نحو أربعين يومًا، فبلغت القتلى أكثر من ألف ألف نسمة، ولم يسلم إلا من اختفى فى بئر أو قناة.

واستشهد الخليفة - رحمه الله - يوم الأربعاء رابع عشر صفر من سنة ست وخمسين وستمائة، وانقطعت بموته خلافة بنى العباس بن عبد المطلب من العراق،

---

(١) ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبى ٢٣/ ١٨١ .

وعدتهم سبعة وثلاثون خليفة، أولهم: عبد الله السفاح ابن محمد بن على بن عبد الله ابن العباس، وآخرهم: هذا المستعصم بالله عبد الله بن المستنصر بالله أبى جعفر منصور بن الظاهر بأمر الله محمد بن الناصر لدين الله أحمد بن المستضئ بنور الله حسن بن المستنجد بالله يوسف بن المقتفى لأمر الله محمد بن المستظهر بالله أحمد بن المقتدى بأمر الله عبد الله ابن الأمير محمد الذخيرة بن القائم بأمر الله عبد الله بن القادر بالله أحمد ابن الأمير إسحاق بن المقتدر بن جعفر بن المعتضد بن أحمد ابن الأمير طلحة الموفق بن المتوكل على الله جعفر بن المعتصم محمد بن الرشيد هارون ابن المهدى محمد بن المنصور أبى جعفر عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس.

وكانت مدة خلافته ست عشرة سنة وأربعة أشهر وستة أيام، وعمره خمس وأربعون سنة، وقيل: ست وأربعون وشهران.

وهذه السنة التى قتل فيها المستعصم تسمى: « سنة المصائب »، وبقيت الدنيا بلا خليفة ثلاث سنين ونصفًا: ستٍ وخمسين وستمائة، وسبع وخمسين، وثمانٍ وخمسين، وتسعٍ وخمسين، إلى رجب منها؛ فأقيمت بمصر الخلافة، وبويع المستنصر كما سنذكره.

قال الحافظ الذهبى[١] عند ذكر قتل الخليفة: وما أظنه دفن، وقتل معه جماعة من أولاده، وأعمامه[٢] وبنى عمه، وكانت بلية لم يصب الإسلام بمثلها، وعملت الشعراء قصائد فى مراثى بغداد وأهلها[٣]، وتمثل بقول سبط بن التعاويذى: [من الكامل]

بَادَتْ وأهلُوهَا مَعًا فبيوتُهُمْ ببقاءِ مولانا الوزيرِ خرابُ

وقال بعضهم: [من الكامل]

يا عصبَةَ الإسلامِ نوحِى واندُبِي حزنًا علَىٰ ما تَمَّ للمستعصِمِ
دَسْتُ الوزارةِ كان قَبْلَ زمَانِهِ لابْنِ الفراتِ فَصَارَ لابنِ العلقمِى

---

(١) ينظر: تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٣٧٧ .
(٢) فى ط: من أولاد أعمامه. والمثبت من تاريخ الخلفاء .
(٣) فى ط: وعملت الشعراء قصائد فى بغداد وأهلها مراثى . والمثبت من تاريخ الخلفاء .

قلت: يشير إلى ابن الفرات، وكان وزيرًا فى خلافة المقتدر. وكان آخر خطبة خطبت ببغداد، قال الخطيب فى أولها: الحمد لله الذى هدم بالموت مشيد الأعمار، وحكم بالفناء على أهل هذه الدار، والسيف قائم بها. ومما قاله تقى الدين ابن أبى اليسر فى بغداد: [من البسيط]

لسائلِ الدمعِ عنْ بغدَادَ إخبارُ ... فما وقوفُكَ والأحبابُ قد ساروا

يا زائرينَ إلى الزوراءِ لا تَفِدُوا ... فما بذاك الحِمَىٰ والدارِ ديَّارُ

تاجُ الخلافةِ والرَّبْعُ الذى شَرُفَتْ ... به المَعَالِمُ قد عَفَّاهُ إقفارُ

أضحَىٰ لِعَصْفِ[1] البلا فى رَبْعِهِ أثرٌ ... وللدموعِ على الآثارِ آثارُ

يا نارَ قَلْبِىَ من نارٍ لحَرْ[2] وغَى ... شبَّتْ عليه ووافى الرَّبْعَ إعصارُ

علا الصليبُ على أعلَىٰ منابِرِهَا ... وقامَ بالأمرِ مَنْ يحويه زُنَّارُ

وكم حريمٍ سَبَتْهُ التُّركُ غَاصِبةً ... وكان مِنْ دونِ ذاك السِّترِ أَسْتَارُ

وكم بُدُورٍ على البَدْرِيةِ انخسفَتْ ... ولم يعدْ لِبُدُورٍ مِنْهُ إبدارُ

وكم ذخائرَ أضحَتْ وهى شائعةٌ ... من النِّهابِ وقد حازَتْهُ كفارُ

وكم حدودٍ أقيمَتْ من سيوفِهِمُ ... على الرِّقابِ وحُطَّت فيه أوزَارُ

نادَيْتُ والسَّبْىُ مَهتُوكٌ يَجُرُّهُمُ ... إلى السِّفاحِ من الأعداءِ دَعَّارُ

إليكَ يا ربَّنا الشكوَىٰ فأنتَ ترَىٰ ... ما حلَّ بالدِّينِ والباغونَ فُجَّارُ

ومن غريب الاتفاق ما رواه بعضهم قال: لما استولت التتار على بغداد، وقتلوا الخليفة المستعصم، كان ببغداد رجل من ذوى اليسار معروف، فلما سمع بقرب التتار من بغداد، جعل فى قاع داره مخبأ تحت الأرض، ووضع فيه صناديقه وأمتعته، وسائر ما يعزُّ عليه من أموال وغيرها، ثم جعل على فم ذلك الموضع هيئة فم الخرابة، وجعل تسرب مائها إلى موضع آخر؛ ليخفى أمر ذلك الموضع عن الناظرين. وقال فى نفسه: إذا دخلت التتار بغداد خرجت إلى الصحراء، فإذا خرجوا عدت إلى دارى ومالى. فلما فرغ من إحكام ذلك وجد فى ذخائره ستًّا من اللآلىء الكبار النفيسة، كبارًا جدًّا، فقال فى باله: فتح هذه المطمورة أمر عظيم، وفكر فى

---

(١) ف ط: لعطف. والمثبت من تاريخ الخلفاء.
(٢) فى تاريخ الخلفاء: لحرب.

حفظ تلك اللؤلؤات، فلم يجد لها موضعًا أحسن من عش عصافير كان بسقف تلك الدار قريبًا من المخبأ المذكور، فاستدعى بسلم فوضعها فى ذلك العش، وجلس فى دهليز تلك الدار، وعليه زى الفقراء، فلما دخلت التتار بغداد خرج إلى موضع استتر فيه، فأمسك بعض عساكر التتار رجلاً من أهل بغداد، وألزموه أن يريهم دور أهل اليسار من أهل بغداد، ليجد فيها ما يأخذه، فأتى ذلك الرجل بذلك البعض إلى هذه الدار المذكورة فطافا فيها فلم يجدا شيئًا، فغضب التترى فربطه وقال: أتهزأ بى ؟ وجعل يضربه ويعذبه، والرجل يحلف له أن صاحب هذه الدار من مياسير أهل بغداد، وما هزأت بك. فبينما هو يضربه إذ زرق عليه عصفور من ذلك العش الذى فيه اللؤلؤات فأصاب الزرق وجهه، فازداد غيظه فضرب ذلك العش فوقع العش، وسقطت تلك اللؤلؤات منه، فتدحرجت منه ثلاث، فوقعن في ثقب تلك الخربة، فأخذ التتري تلك الثلاث لؤلؤات، وألزم الرجل بخراب تلك الخرابة لإخراج اللؤلؤات الأخرى، فلما شرع فى تخريبها وأزال وجهها، وجد سلالم تنتهى إلى الموضع الذى فيه الأموال والذخائر والصناديق، فأخذ التترى جميع ما هناك وأطلق الرجل وأعطاه ما تيسر؛ فاعتبروا يا أولى الألباب.

شرح حال التتار(١)

قال الموفق عبد اللطيف الخجندى فى خبر التتار: هو حديث يأكل الأحاديث، وخبر يطوى الأخبار، وتاريخ ينسى التواريخ، ونازلة تصغر كل نازلة، وفادحة تطبق الأرض، وتملؤها ما بين الطول والعرض.

هذه الأمة لغتهم مشوبة بلغة الهند؛ لأنهم فى جوارهم، وبينهم وبين « بنكث » أربعة أشهر، وهى فى النسبة إلى الترك، عراض الوجوه، وواسعو الصدور، خفاف الأعجاز، صغار الأطراف، سمر اللون، سريعو الحركة فى الجسم والرأى، تصل إليهم أخبار الأمم، ولا تصل أخبارهم إلى الأمم، قَلّما يقدر جاسوس أن يتمكن منهم؛ لأن الغريب لا يشتبه بهم، وإذا أرادوا جهة كتموا أمرهم، ونهضوا دفعة واحدة؛ فلا يعلم بهم أهل بلد حتى يدخلوه، ولا عسكر حتى يخالطوه، فلهذا تفسد

---

(١) ينظر تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٣٧٣ وما بعدها .

على الناس وجوه الحيل فيهم، وتضيق طرق الحرب عليهم، ونساؤهم يقاتلن كرجالهم، والغالب على سلاحهم النشاب، وأكلهم أى لحم وجدوه، وليس فى قتلهم استثناء ولا إبقاء، يقتلون الرجال والنساء والأطفال، وكان مقصودهم إفناء النوع الإنسانى وإبادة العالم، لا قصد الملك والمال.

وقال سبط ابن الجوزى فى « مرآة الزمان »: أرض التتار بأطراف بلاد الصين، وهم سكان بوادى، مشهورون بالشر والغدر.

وسبب ظهورهم أن إقليم الصين متسع دوره ستة أشهر، وهم ست ممالك، ولهم ملك حاكم على الست، وهو القان الأكبر المقيم بـ « طغماج » وهو كالخليفة على المسلمين، وكان سلطان أحد الممالك الست، واسمه « دوس خان »، قد تزوج بعمة « جنكيز خان » ملك التتار فحضر زائرًا لعمته، وقد مات زوجها، وكان قد حضر مع « جنكيز خان » « كشلوخان »، فأعلمتهما أن الملك الذى هو « دوس خان » لم يخلف ولدًا، وأشارت على ابن أخيها أن يقوم مقامه، فقام مقامه وانضم إليه خلق من المغل، ثم سير التقاديم والهدايا إلى القان الأكبر، فاستشاط غضبًا، وأمر بقطع أذناب الخيل التى أهديت إليه وطردها، وقتل الرسل لكون التتار لم يتقدم لهم سابقة سلطنة، إنما هم بادية الصين، فلما سمع جنكيزخان وصاحبه كشلوخان تحالفا على التعاضد، وأظهرا الخلاف للقان، وهو الحاكم على الست المدن المذكورة، وأتتهما أمم كثيرة من التتار، وعلم القان قوتهم وشرهم؛ فأرسل يؤانسهم، ثم أرسل بعد ذلك ينذرهم ويتهددهم، فلم يغن ذلك فيهم شيئًا، ثم عزم على قصدهم فقصدهم، ووقع بينهم ملحمة عظيمة، فكسروا القان وملكوا بلاده، واستفحل شرهم، واستمر الملك بين جنكيزخان وكشلوخان على المشاركة، ثم سارا إلى بلاد « قاسون » من نواحى الصين فملكاها، فمات كشلوخان، فقام مقامه ولده، فاستصغره جنكيزخان فوثب عليه فقتله، واستقل جنكيزخان، ودانت له التتار وانقادت، واعتقدوا فيه الألوهية، وبالغوا فى طاعتهم[1].

ثم كان أول خروجهم من بلادهم سنة ست وستمائة إلى نواحى الترك و« فرغانة »، فأرسل خوارزم شاه محمد بن تكش صاحب خراسان - الذى أباد

(١) ينظر: تاريخ الخلفاء للسيوطى ٣٧٤ .

الملوك وأخذ الممالك وعزم على قصد الخليفة فلم يتهيأ له - إلى أهل « فرغانة » و« الشاش » و « كاشان »، وتلك البلاد النزهة العامرة بالجلاء والإجفال عنها إلى سمرقند وغيرها، ثم خربها جميعًا؛ خوفًا من التتار أن يملكوها؛ لعلمه أنه لا طاقة له بهم[1].

ثم سارت التتار يتحفظون ويتنقلون إلى سنة خمس عشرة وستمائة، فأرسل فيها جنكيزخان إلى السلطان خوارزم رسلًا وهدايا، وقال الرسل لخوارزم شاه: إن القان الأعظم جنكيزخان يسلم عليك ويقول لك: ليس يخف عليَّ عظم شأنك، وما بلغت من سلطانك، ونفوذ حكمك على الأقاليم، وأنا أرى مسالمتك من جملة الواجبات، وأنت عندى مثل أعز أولادى، وغير خافٍ عليك أنى ملك الصين، وأنت أخبر الناس ببلادى، وأنها مغارات العساكر والخيول، ومعادن الذهب والفضة، وفيها كفاية عن غيرها، فإن رأيت أن تعقد بيننا المودة فأمر التجار بالسفر لتعم المصلحتان. فأجابه خوارزم شاه إلى ملتمسه، وسر جنكيزخان بذلك، واستمر الحال على المهادنة إلى أن وصل من بلاده تجار، وكان خال خوارزم شاه نائبًا عنه على بلاد ما وراء النهر، ومعه عشرون ألف فارس، فشرهت نفسه إلى أموال التجار، فكتب إلى جنكيزخان يقول: إن هؤلاء القوم قد جاءوا بزى التجار، وما قصدهم إلا التجسس، وإن أذنت لى فيهم فأذن له بالاحتياط عليهم، فقبض عليهم وأخذ أموالهم، فوردت رسل جنكيزخان إلى خوارزم شاه يقول: إنك أعطيت أمانك للتجار فغدرت، والغدر قبيح، وهو من السلطان أقبح، فإن زعمت أن الذى فعله خالك بغير أمرك فسلمه إلينا، وإلا سوف تشاهد منى ما تعرفنى به، فدخل خوارزم شاه من الرعب، لكنه تجلد وأمر بقتل الرسل فقتلوا، فيالها من قتلة كم هدرت من دماء للإسلام، أجرت بكل قطر سيلًا من الدم[2].

ثم سار جنكيزخان إليه فانجفل خوارزم شاه عن « جيحان » إلى « نيسابور » إلى « مرج همدان »؛ رعبا من التتار، فأحدق به التتار وقتلوا كل من معه، ونجا هو بنفسه فخاض الماء إلى جزيرة ولحقته علة ذات الجنب فمات بها وحيدًا طريدًا،

---

(١) ينظر: تاريخ الخلفاء للسيوطى ٣٧٤ .
(٢) ينظر السابق ٣٧٥ .

وذلك سنة سبع عشرة وستمائة؛ فملكوا جميع مملكة خوارزم شاه.

ثم بعد ذلك عبروا النهر بعد أن أخذوا « بخارى » و« سمرقند »، وكان خوارزم شاه قد أباد الملوك من مدن خراسان، فلم يجد التتار أحدًا في وجوههم، فطوفوا البلاد قتلاً وسبيًا، وساقوا إلى أن وصلوا همدان وقزوين.

قال ابن الأثير فى كامله[1]: حادثة التتار من الحوادث العظمى، والمصائب الكبرى، التى عقمت الدهور عن مثلها، عمت الخلائق وخصت المسلمين، فلو قال قائل: إن العالم منذ خلقه الله لم يبل بمثلها - لكان صادقًا؛ فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها. ومن أعظم ما يذكرون فعل « بُخْتَنَصَّر » ببنى إسرائيل ببيت المقدس، فما بيت المقدس بالنسبة إلى ما خرب هؤلاء الملاعين من مدن الإسلام ؟ وما بنو إسرائيل، بالنسبة إلى ما قتلوا من الأنام ؟ فهذه الحادثة التى استطار شررها، وعم ضررها، وسارت فى الدنيا سير السحاب استدبرته الريح، فإن قومًا خرجوا من أطراف الصين فقصدوا كبار المدن والقرى مثل « تركستان » و« كاشغر » و« بلاساغون »، ثم منها إلى بخارىٰ وسمرقند، فتملكوا ملكها، وأبادوا أهلها، ثم تعبر طائفة إلى خراسان فتفرغ منها ملكًا وتخريبًا وقتلاً وإبادة، ثم إلى الرى وهمذان، إلى حد العراق، ثم يقصدون « أذربيجان » ونواحيها، ويخربونها ويفتحونها، كل ذلك فى أقل من سنة أمر لم يسمع بمثله، ثم من أذربيجان إلى « دَرْبَنْد شروان »، ثم إلى بلاد « اللان » فقتلوا وأسروا، ثم بلاد « القفجاق » - وهم من أكثر الترك عددًا - فقتلوا من وقف، وهرب الباقون، واستولى التتار عليها، ومضت طائفة منهم إلى « غزنة » وأعمالها، و« سجستان » و« كرمان » ففعلوا مثل هذا، هذا ما لم يطرق الأسماع مثله؛ فإن الإسكندر الذى ملك الدنيا لم يملكها فى هذه السرعة، وإنما ملكها فى نحو عشرين سنة، ولم يقتل أحدًا وإنما رضى بالطاعة، وهؤلاء قد ملكوا أكثر المعمور من الأرض وأحسنه وأعمره، ولم يبق أحد فى البلاد التى لم يطرقوها إلا وهو خائف يترقب وصولهم إليه، ثم إنهم كانوا لا يحتاجون إلى الميرة ومددهم يأتيهم، فإن معهم الأغنام والبقر والخيل، يأكلون

---

(١) ينظر الكامل لابن الأثير ٣٥٨/١٢ . فقد أورد ابن الأثير خبر التتار الملاعين بالتفصيل فى كامله فانظر ٣٥٨/١٢ - ٤٠٠ .

لحومها لا غير، وأما خيل ركوبهم فإنها تحفر الأرض بحوافرها، وتأكل عروق الشجر، لا تعرف الشعير. وديانتهم سجودهم للشمس - والعياذ بالله - حال طلوعها، ولا يحرمون شيئًا، ويأكلون جميع الدواب وبنى آدم، ولا يعرفون نكاحًا، بل المرأة الواحدة يأتيها الجماعات، ويثبون وثوب القردة، يقطعون المسافات الطويلة فى أيام قليلة، ويخوضون الأوحال، ويتعلقون بالجبال، ويصبرون على العطش والجوع، ويهجرون الغمض والهجوع، ولا يبالون بالحر والبرد، والسهل والوعر، طعامهم كف شعير، وشربهم من طرف البئر، يكاد أحدهم يتقوت بطرف أذن فرسه، يقطعها ويأكلها نيئة !! ويصبر على ذلك أيامًا عديدة؛ بل يكتفى هو وفرسه بحشيش الأرض مدة مديدة.

ثم ساروا إلى بغداد وهم ينوفون على مائتى ألف فارس وراجل سالب باسل، فكان ما كان منهم على الخليفة المستعصم وبغداد وأهلها، وملكهم هولاكو بعد أن مات جنكيزخان.

ثم وصلوا إلى حلب وبذلوا فيها السيف، بعد أن ملكوا ما بينها وبين بغداد من المدن والقرى.

ثم أرسل هولاكو إلى الملك الناصر، صاحب دمشق كتابًا صورته: « يعلم سلطان ناصر طال بقاؤه أنا لما توجهنا إلى العراق وخرج إلينا جنودهم قتلناهم بسيف الله، ثم خرج إلينا رؤساء البلد ومقدموها، فكانت قصارى كل منهم سببًا لهلاك نفوس تستحق الإذلال. وأما صاحب البلد الخليفة، فإنه خرج إلى خدمتنا، ودخل تحت عبوديتنا، فسألناه عن أشياء كذبنا فيها؛ فاستحق الإعدام وكان كذبه ظاهرًا ﴿ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ﴾ [الكهف: ٤٩]. وأنت فأجب ملك البسيطة، ولا تقولن: قلاعى المانعات، ورجالى المقاتلات وقد بلغنا أن شذرة من عساكر العراق التجأت إليك هاربة، وإلى خبائك لائذة: [من الكامل]

أينَ المفَرُّ ولا مفَرَّ لهاربِ ... ولنا البسيطانِ الثرَىٰ والمَاءُ

فبساعة وقوفك على كتابنا تجعل قلاع الشام سماءها أرضًا وطولها عرضًا[1].

ثم أرسل كتابًا ثانيًا يقول فيه « حضرة ملك ناصر طال عمره، أما بعد، فإنا فتحنا

(١) ينظر: تاريخ الخلفاء للسيوطى ٣٧٨ .

بغداد، واستأصلنا مُلكها ومَلكها، وقد كان ضن بالأموال، ولم ينافس فى الرجال، فظن أن ملكه يبقى على ذلك الحال، وقد علا ذكره ونما قدره، فخسف فى الكمال بدره: [من المتقارب]

إذا تَـمَّ شـيءٌ بـدا نـقـصُـهُ ... تـرقَّـبْ زوالاً إذا قِـيـلَ تَـمّ

ونحن فى طلب الازدياد على ممر الآباد، فلا تكن كالذين نسوا الله. وأبدِ ما فى نفسك إما إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، أجب دعوة ملك البسيطة تأمن من شره، وتنل من بره، واسعَ إليه برجالك وأمرائك، ولا تعُق رسولنا، والسلام ».

ثم أرسل إليه كتابًا ثالثًا يقول فيه: « أما بعد، فنحن جنود الله، بنا ينتقم ممن عتا وتجبر، وطغى وتكبر، وبأمر الله ما ائتمر، إن عوتب تنمر، وإن روجع استمر، ونحن قد أهلكنا البلاد، وأبدنا العباد، وقتلنا النساء والأولاد، فيا أيها الباقون، أنتم بمن مضى لاحقون، ويا أيها الغافلون، أنتم إليهم تساقون، ونحن جيوش الهلكة لا جيوش المملكة، مقصودنا الانتقام، وملكنا لا يرام، ونزيلنا لا يضام، وعدلنا فى ملكنا قد اشتهر، ومن سيوفنا أين المفر، ولا مفر ؟ ! ذلت لهيبتنا الأسود، وأصبحت فى قبضتنا الأمراء والخلفاء، ونحن إليكم صائرون، ولكم الهرب، وعلينا الطلب: [من الطويل]

ستعلَمُ ليلَىٰ أىَّ دينٍ تداينَتْ ... وأي غريـم للتقاضـي غَـريمُـهَا

دمرنا البلاد، وأيتمنا الأولاد، وأهلكنا العباد، وجعلنا عظيمهم صغيرًا، وأميرهم أسيرًا، تحسبون أنكم ناجون أو متخلصون، وعن قليل سوف تعلمون على ما تقدمون، وقد أعذر من أنذر ».

فلما وصلوا إلى دمشق خرج إليهم الملك المظفر، المسمى قطز، من ملوك الأتراك من مصر، ومقدم عسكره الظاهر بيبرس البندقدارى، فالتقى معهم عند « عين جالوت »[1]، ووقع المصاف يوم الجمعة خامس عشر رمضان سنة ثمان وخمسين وستمائة، فهزم التتار شر هزيمة، وانتصر المسلمون ولله الحمد والمنة، وقتل من التتار مقتلة عظيمة، وولوا الأدبار، وطمع الناس فيهم يتخطفونهم وينتهبونهم، وجاء كتاب الملك المظفر إلى دمشق بخبر النصر؛ فطار المسلمون

---

(١) ينظر: البداية والنهاية لابن كثير ١٣/ ٢٥٥ وما بعدها، تاريخ الخلفاء للسيوطى ٣٨٠ .

فرحا، وسيأتى ذكر الملك المظفر قطز فى الباب الخامس المعقود للدولة التركية إن شاء الله تعالى.

قال السخاوى[1]: ثم لم يزل بقاياهم يخرجون إلى أن كان آخرهم « تيمور لنك » الأعرج، فطرق الديار الشامية وعاث فيها، وحرق دمشق حتى جعلها خاوية على عروشها، ودخل الروم والهند وما بين ذلك، وطالت مدته إلى أن مات وتفرق بنوه فى البلاد.

قلت: وفى الشائع أن ملوك الهند فى زماننا يرجع نسبهم إلى تيمور لنك هذا، والله أعلم بصحة هذا؛ فإنى لم أره منقولاً.

واعلم أن السنة النبوية قد أشارت إلى قتال الترك وفتنتهم، فقد روى الستة إلا النسائى حديث: « لا تقوم القيامة حتى تقاتلوا قومًا نعالهم الشعر، وحتى تقاتلوا الترك صغار الأعين حمر الوجوه ذلف الأعين، كأن وجوههم المجان المطرقة »[2]، وفى رواية للبخارى: « لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا خوزًا وكرمان من الأعاجم، حمر الوجوه، فطس الأنوف، صغار الأعين، كأن وجوههم المجان المطرقة، نعالهم الشعر »[3] وفى لفظ له: « عراض الوجوه » فقوله: « نعالهم الشعر » يحتمل أنه على ظاهره، ويحتمل أن تكون من جلود مشعرة، قاله المناوى فى « تخريج المصابيح »، وحمر الوجوه: بيض مشربة بحمرة.

و« ذلف » بالذال المعجمة فى رواية الجمهور، قال صاحب « المشارق » وهى الصواب، ويروى بإهمال الدال، وهو جمع أذلف، كأحمر وحمر، معناه: فطس الأنوف كما فى الرواية الأخرى، أى: قصارها مع انبطاح. وقال النووى: الذلف: غلظ أرنبة الأنف. والمجان: جمع مجن بكسر الميم: الترس. والمطرقة بضم الميم وإسكان الطاء، وحكى فتحها مع تشديد الراء، والأول هو المشهور فى الرواية، ومعناه: أن وجوههم عريضة ووجناتهم ناتئة.

---

(١) ينظر: الضوء اللامع (٢/ ٤٦ - ٥٠ ت١٩٢) .

(٢) أخرجه البخارى (٣٥٩٠) ومسلم (٢٩١٢/ ٦٤) وعبد الرزاق (٢٠٧٨٢) وأحمد (٢/ ٣١٩) وابن حبان (٦٧٤٣) والبيهقى فى السنن (٩/ ١٧٦) وفى الدلائل (٦/ ٣٣٦) من حديث أبى هريرة .

(٣) أخرجه مسلم (٢٩١٢/ ٦٥) وأبو داود (٤٣٠٣) والنسائى (٦/ ٤٤ - ٤٥) وابن حبان (٦٧٤٥) من طريق سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة .

وقوله: « حتى تقاتلوا خوزًا وكرمان » ضبطه ابن الأثير فى نهايته[١] فقال: بالخاء والزاى المعجمتين: جيل معروف، وهم من بلاد الأهواز، وكرمان صقع معروف، قال السمعانى: بلدة معروفة من بلاد العجم بين خراسان وبحر الهند. وورد « اتركوا الترك ما تركوكم، فإن أول من يسلب أمتى ملكها بنو قنطوراء »[٢]. . . . الحديث، زاد فى رواية « فإنهم أصحاب بأس شديد وغنائم قليلة » قلت: بنو قنطوراء بالمد والقصر، قيل: كانت جارية لسيدنا إبراهيم الخليل فولدت له أولادًا، فانتشر منهم الترك. حكاه محمد بن الأثير واستبعده، لكن ما استبعده جزم به المجد الفيروزأبادى فى قاموسه. وروى الخطيب البغدادى عن على - رضى الله تعالى عنه -: تكون مدينة بين الفرات ودجلة، يكون فيها ملك بنى العباس وهى الزوراء، تكون فيها حرب مفظعة يسبى فيها النساء، وتذبح فيها الرجال كما تذبح الغنم[٣]، ثم قال: وإسناده شديد الضعف. قال الحافظ السيوطى: وقد وقعت هذه الحرب بعد موت الخطيب بأكثر من مائتى سنة، وذلك يقوى الحديث ويصححه.

قال السخاوى: ومن المرات التى قاتل فيها المسلمون الترك دولة بنى أمية حتى أغزى معاوية الجيش إلى الروم، وأردفهم بابنه يزيد بن معاوية، ومعه عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وأبو أيوب الأنصارى، ثم كان بينهم وبين المسلمين مسدودًا بالهدنة التى عقدها يزيد بينه وبينهم، إلى أن فتح ذلك شيئًا فشيئًا، وكثر السبى فيهم حتى كان أكثر عسكر المعتصم بن الرشيد منهم، ثم غلبت الأتراك على الملك فقتلوا ابنه المتوكل بن المعتصم، ثم أولاده الخلفاء واحدًا بعد واحد إلى أن خالط المملكة الديلم، ثم كانت الملوك السامانية من الترك أيضًا، فملكوا بلاد العجم، ثم غلب على تلك الممالك آل « سُبكتكين » غلام معز الدولة بن بويه، ثم آل سلجوق، وامتدت مملكتهم إلى العراق والشام والروم، وكانت بقايا أتباعهم بالشام، وهم آل زنكى والد محمود بن زنكى الملقب نور الدين الشهيد، وأتباع آل زنكى هم بنو أيوب الأكراد، فاستكثرت بنو أيوب الأتراك من المماليك أيضًا

(١) ينظر: النهاية (٢/ ٨٧).
(٢) أخرجه أبو داود (٤٣٠٩) بلفظ: « اتركوا الحبشة ما تركوكم » وسيأتي تخريجه قريبًا بلفظ: « إن أول من يسلب أمتى . . . »
(٣) أخرجه الخطيب فى تاريخ بغداد (١/ ٣٩)

فغلبوهم بالديار المصرية والشامية والحجازية. وخرج على آل محرق فى المائة الخامسة الغز فخربوا البلاد، وقتلوا فى العباد، ثم جاءت الطامة الكبرى بعد الستمائة؛ فكان خروج جنكيزخان، وخلفه بعده هولاكو، واستعرت الدنيا بهم نارًا لا سيما الشرق بأسره، حتى لم يبق بلد منه إلا دخلها شرهم، ثم كان خراب بغداد، وقتل الخليفة وسلب ملكه ودمار عماره، وظهر به - بل بجميع ذلك - مصداق قوله ﷺ « أن أول من يسلب أمتى ملكها بنو قنطوراء »(١)، وقد تقدم ذكر الحديث، والله سبحانه أعلم.

وكان ممن نجا من سيوف التتار من بنى العباس أبو العباس أحمد بن الظاهر(٢)، عم المستعصم المقتول، قيل: كان محبوسًا ببغداد، فلما أخذت التتار بغداد أطلق فهرب، وصار إلى عرب العراق، فلما تسلطن الملك الظاهر بيبرس بعد الملك المظفر قطز، وفد عليه إلى مصر فى رجب سنة تسع وخمسين وستمائة، ومعه عشرة من بنى مهارش عرب الحلة، البلدة المعروفة، فركب السلطان الملك الظاهر بيبرس للقائه، ثم أثبت نسبه على يد قاضى القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز الشافعى، ثم بايعه بالخلافة السلطان، ثم قاضى القضاة المذكور، ثم الشيخ عز الدين بن عبد السلام، ثم الكبار على مراتبهم، وذلك فى ثالث عشر رجب من السنة المذكورة.

وضربت السكة باسمه، وخطب له، ولقب بلقب أخيه المستنصر، وفرح الناس، وركب يوم الجمعة وعليه السواد إلى جامع القلعة، فصعد المنبر وخطب خطبة ذكر فيها شرف بنى العباس، ودعا للسلطان والمسلمين، ثم صلى بالناس، ثم رسم بعمل خلعة للسلطان، وبكتابة تقليد له، ثم نصبت خيمة بظاهر القاهرة، وركب الخليفة المستنصر بالله المذكور، والسلطان الظاهر المذكور معه يوم الإثنين رابع شهر شعبان إلى الخيمة، وحضر القضاة والعلماء والأمراء والوزراء، فألبس الخليفة السلطان الخلعة بيده وطوقه، ونُصِبَ مِنْبَر فصعد عليه فخر الدين بن لقمان فقرأ التقليد، ثم

---

(١) أخرجه الطبرانى فى الكبير (١٠٣٨٩) وقال الهيثمى فى المجمع (٥/ ٣٠٧) رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه مروان بن سالم وهو متروك.

(٢) ينظر ترجمته فى: تاريخ الخلفاء ٣٨١، دول الإسلام ٢/ ١٢٥، العبر ٥/ ٢٥٨، البداية والنهاية ١٣/ ٢٣١ - ٢٣٣، النجوم الزاهرة ٧/ ١٠٩ - ١١٧، سير أعلام النبلاء ٢٣/ ١٦٨، ذيل الروضتين ٢١٣، ذيل مرآة الزمان ١/ ٤٤١.

ركب السلطان بالخلعة ودخل من باب النصر وزينت القاهرة، وحمل الوزير التقليد على رأسه راكبًا والأمراء مشاة، ورتب السلطان للخليفة جيشًا وأتابكًا واستدارًا وشرابيًا وخازندارًا وحاجبًا وكاتبًا، وعين له خزانة وجملة مماليك، ومائة فرس وثلاثين بغلاً، وعشر قطارات جمال إلى أمثال ذلك(١).

قال الذهبى: ولم يل الخلافة أحد بعد ابن أخيه إلا هذا المستنصر؛ فإنه وليها بعد ابن أخيه وهو المستعصم المقتول، وإلا المقتفى بن المستظهر؛ فإنه وليها بعد الراشد ابن أخيه المسترشد بن المستظهر(٢)، ثم عزم المستنصر إلى العراق يريد تخت بغداد، فخرج معه السلطان الملك الظاهر بيبرس يشيعه إلى أن دخلوا دمشق، ثم سار الخليفة بمن معه متوجهًا إلى بغداد، فلما وصل إلى السراة ثالث محرم سنة ستين وستمائة - قاتله هناك « قره بغا » نائب هولاكو على بغداد، فقتل المستنصر ومن معه، ولم ينج منهم إلا القليل، ولم يقم له أمر فكانت ولايته ستة أشهر(٣).

والحاصل أن خلفاء بنى العباس البغداديين سبعة وثلاثون خليفة أولهم السفاح وآخرهم المستعصم، ومدة ملكهم فيها خمسمائة وأربع وعشرون سنة ويوم واحد. وقد ذكرهم الإمام محمد بن عبد اللطيف بن يحيى بن على بن تمام السبكى نظما مبتدئًا بأبى بكر الصديق فقال: [من الطويل]

إذا رمتَ أعداد الخلائفِ عُدَّهُمْ ... كما قُلْته تدعى اللبيبَ المحصِّلاَ
عتيقٌ وفاروقٌ وعثمانُ بعدَهُ ... عليُّ الرِّضَا مِنْ بَعْدِهِ حَسَنٌ تلا
معاويةٌ ثم ابنُهُ وحفيدُهُ ... مُعَاوِيَة وابنُ الزُّبَيْرِ أخو العُلاَ
ومروانُ يتلوه ابنُهُ ووليدُهُ ... سليمانُ وافَىٰ بَعْدَهُ عُمَرٌ وَلاَ
يزيدُ هشامٌ والوليدُ يزيدُهُمْ ... سناهُمْ بإبراهيمَ مروانُ قَدْ علا
وسَفَّاحُ المنصورُ مهدىٌّ ابنُهُ ... وهادِى رشيدٌ للأمينِ تَكَفَّلا
وأعقب بالمأمونِ مُعْتَصِم غدا ... بَوَائقه يستَتْبع المُتَوَكِّلا
ومنتصرٌ والمستعِينُ وبعدَهُ ... لمعتزٌ المَتْلُوّ بالمهتدي اقْبَلا

(١) ينظر: سير أعلام النبلاء ٢٣/ ١٦٩ .
(٢) ينظر: تاريخ الخلفاء للسيوطى ٣٨٢ .
(٣) ينظر: سير أعلام النبلاء ٢٣/ ١٧٠ - ١٧١، ذيل الروضتين ٢١٣، ذيل مرآة الزمان ١/ ٤٥٤، تاريخ الخلفاء ٣٨٢ .

ومعتمدٌ يَقْفُوه معتضِدٌ وعَنْ سنا المكتفى يتلوه مقتدرٌ سلا
وبالقاهِرِ الراضِى يُفوِّضُ متقٍ وثَانِيهِ مُسْتَكْفٍ مطيع تفضَّلا
وطائعُهُمْ للَّهِ باللَّهِ قادرٌ وقائمُهُمْ بالمقتدي استَظْهر العلا
ومسترشدٌ والراشدُ المكتفي بِهِ ومستنجدٌ والمستضِي نَاصِرٌ جلا
فظاهِرُهُمْ مستنصرٌ قد تكمَّلوا فإن آت تقصيرًا فكُنْ متطوِّلا

قلت: ولم يذكر عبد الله بن المعتز فيهم، وقد ذكره بعض المؤرخين، وبعضهم لم يذكره؛ لكونه ولى نصف يوم أو نحوه؛ فلذلك تركه الناظم.

ثم صار الملك فى مصر، والحل والعقد إلى ملوك الأتراك، ثم الجراكسة ثم العثامنة، وقد كانوا يعينون واحدًا من أولاد العباس للخلافة، ويكون كواحد من العامة لا حلَّ له ولا عقد يجاب، ولا يسمع، ولا يفكر فى رأى له فيتبع.

فأول من ورد إليهم مصر المستنصر الذى تقدم ذكر قدومه إليها على الملك الظاهر بيبرس؛ فجهزه وسيره إلى بغداد فتم عليه ما تم، ثم وصل بعده إلى مصر من بنى العباس أبو العباس أحمد بن الراشد بن المسترشد، ولقب بالحاكم بأمر الله(١)، فأكرمه الظاهر بيبرس أيضًا، وأثبت نسبه بحضرة قضاة الشرع وبايعه بالخلافة، فأجرى عليه النفقة وسكن بمصر، وليس له من الأمر شيء وإنما اسمه الخليفة، واستخلف أولاده من بعده على هذا النسق ليس لهم إلا اسم الخلافة، يأتون به إلى السلطان الذى يريد توليته، فيقول له: وليتك السلطنة. هكذا كانوا بألقاب الخلفاء واحدًا بعد واحد، وكانت سلاطين الأقاليم يتبركون بهم، ويرسلون إليهم أحيانًا يطلبون تقليد السلطنة، فيكتبون إليهم تقليدًا ويعهدون إليهم بالسلطنة عهدًا.

ولا يخفى أن هؤلاء ليس لهم من الخلافة إلا الصورة، كما كانت الخلفاء البغداديون المحجور عليهم من جانب أمرائهم، وإنما لهم الاسم المجرد عن المعنى من كل وجه، وعدتهم ثمانية عشر خليفة، أولهم: المستنصر الذى جهزه الملك الظاهر بيبرس إلى بغداد فوقع له فى الطريق ما وقع، وإنما عددناه منهم لأن ولايته بمصر، وآخرهم: محمد المتوكل على الله ابن المستمسك بالله يعقوب، وهذا

(١) ينظر [الحاكم بأمر الله] فى: البداية والنهاية ١٣/ ٢٧٥، تاريخ الخلفاء ٣٨٢، الدرر الكامنة ١/ ١١٩، فوات الوفيات ١/ ٦٨، الأعلام للزركلى ١/ ١١١.

المستمسك هو آخر من ذكره العلامة السيوطى فى منظومته فى الخلفاء[1].

واستمر المستمسك بالله خليفة إلى أن كبرت سنه، وكف نظره، ودخلت أيام الدولة العثمانية، وافتتحت الديار المصرية، فأخذه السلطان سليم معه إلى « اسطنبول » واستمر بها إلى أن مات السلطان سليم، ثم عاد إلى مصر فخلع، وولى ولده المتوكل على بن المستمسك فى شعبان سنة أربع عشرة وتسعمائة، واستمر خليفة إلى أن توفى ثانى عشر شعبان سنة خمس وتسعين وتسعمائة، فى أيام المرحوم داود باشا صاحب مصر، وبانى رباط الداودية ومدرستها المعروفة به، وبموته انقطعت الخلافة الصورية أيضا بمصر، وكان المتوكل فاضلاً أديبًا له شعر حسن، منه قوله: [من البسيط]

لم يبقَ محتسبٌ يُرجَىٰ ولا حسنٌ ... ولا كريمٌ إليه مُشْتَكَىٰ حَزَنِي
وإنما سَادَ قومٌ غيرُ ذى حَسَبٍ ... ما كنتُ أوثرُ أنْ يمتدَّ بى زَمَنِي

قال العلامة قطب الدين: اجتمعت به رحلتى إلى مصر سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة، وأخذت عنه. وهذه قصيدة العلامة السيوطى[2] المتضمنة لذكر الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين البغداديين والمصريين، ومدة وفياتهم، وهى غاية فى ضبط أولئك. قال رحمه الله تعالى: [من البسيط]

ألحمدُ للَّهِ حمدًا لا نَفَادَ له ... وإنما الحمدُ حقًّا رأسُ مَنْ شكَرَا
ثمَّ الصلاةُ على الهادِى النبيِّ ومَنْ ... سادَتْ بنسبته الأشرافُ والأُمَرَا[3]
إنَّ الأمينَ رسُولَ اللَّهِ مبعثُهُ ... لأَربعينَ مضَتْ فيما رَوَوْا عُمُرَا
وكانَ هجرتُهُ منها [لِطَيْبَةَ مِنْ][4] ... بعد الثلاثةِ أعوامًا تلى عَشَرَا
وماتَ فى عامِ إحدى بَعْدَ عَشْرتها ... فيا مصيبةَ أَهْلِ الأرضِ حينَ سَرَىٰ
وقامَ مِنْ بعده الصِّديقُ مجتهدًا ... وفى ثلاثة عشر بَعْدَهُ قُبِرا
وهو الذى جَمَعَ القرآنَ فى صحفٍ ... وأولُ النَاسِ سَمَّىٰ المُصْحَفَ الزُّبُرَا
وقامَ من بعدِهِ الفاروقُ ثُمَّتَ فِي ... عشرينَ بعْدَ ثلاثٍ غَيَّبوا عُمَرا

---

(١) ينظر: تاريخ الخلفاء ص ٤١٣ .
(٢) ينظر: تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٤١٤ - ٤١٨ . وهناك أبيات لم يوردها المصنف هنا .
(٣) فى تاريخ الخلفاء: الكبرا .
(٤) فى تاريخ الخلفاء: لطيبته .

وَهْوَ الذى اتخَذَ الديوانَ وافترَضَ الْـ عَطاءَ قَبلُ وبيتَ المالِ والدُّرَرَا
وَهْوَ المسمَّىٰ أميرَ المؤمنينَ ولم يُدْعَىٰ به قَبْلَهُ شخصٌ مِنَ الأُمَرَا
وقام عثمانُ حتَّىٰ جاءَ مَقْتَلُهُ بعد الثلاثينَ فى خَمسٍ[(١)] وقد حُصِرا
وبعدُ قامَ علىٌّ ثمَّ مقتلُهُ لأربعينَ فمَنْ أوداه قد خَسِرَا
ثم ابنُهُ السِّبْطُ نصفَ العامِ ثُمَّ أَتَىٰ بنو أميَّةَ يَبْغونَ الوغَىٰ زُمَرَا
فسلَّم الأمرَ فى أُخْرَىٰ لِرَغْبَتِهِ عن دارِ دُنْيا بلا ضَيْرٍ ولا ضَرَرَا

الخلفاء الأمويون:

وكان أولَ ذِى مُلكٍ معاويةٌ فى النِّصْفِ من عامِ ستينَ الحِمَامُ عَرا
ثمَّ اليزيدُ ابنُهُ أَخْبِثْ به ولدًا فى أربعٍ بعدها ستُّونَ قد قُبِرَا
وابنُ الزبَيْرِ وفى سبعينَ مَقْتَلُهُ بعد الثلاثِ وكَمْ بالبيتِ قد حُصِرا
وفى ثمانينَ مَعْ ستٌّ عليه قضى عبدُ المليكِ به الأمرَ الذى اشتُهِرا
ثم الوليدُ ابنُهُ فى قَبْلِ مَا رَجَبٍ فى الستِّ من بعدِ تسْعِينَ انقضَىٰ عُمُرا
وَهْوَ الذى مَنَعَ الناسَ النداءَ له باسْمٍ وكانتْ تُنَادَىٰ باسمِها الأُمَرَا
وقامَ بَعْدُ سليمانُ الخِيَارُ وفِي تسعٍ وتسعينَ جاء الموتُ فى صَفَرَا
وبعدَه عُمَرٌ ذاكَ النجيبُ وفِى إحدَى تلى مائةٌ قد أَلْحَدُوا عُمَرَا
وَهْوَ الذى أمر الزهْرِيَّ خَوْفَ ذَهَا بِ العلم أنْ يجمَعَ الأَخبارَ والأَثَرا
ثم اليَزِيدُ فَفِي خَمْسٍ قَضَىٰ وتَلاَ هِشَامُ في الخَمْسِ والعِشْرينَ قَدْ سطرا
ثم الوليدُ وبعد العام [مقتله من بعد ما جاء بالفسق الذى شهرا
ثم اليزيد وفى ذا العام][(٢)] مات وقد أقام ست شهور مثل ما أثرا
وبعدَهُ قامَ إبراهيمُ ثم مضَىٰ بالخلعِ سبعينَ يومًا مذ أقامَ ثرا
وبعده قامَ مروانُ الحمارُ وفي ثنتينِ بعد ثلاثينَ الدماءُ جَرَىٰ

الخلفاء العباسيون :

وقام مِنْ بَعْدِهِ السَّفَّاحُ ثمَّ قَضَىٰ بعدَ الثلاثينَ فى ستٌّ وقد جُدِرَا
وقامَ مِنْ بعدِهِ المنصورُ ثمَّتَ في خمسينَ بعد ثمانٍ مُحْرِمًا قُبِرا

(١) فى تاريخ الخلفاء: ست .
(٢) ما بين المعكوفين سقط من ط، وأثبتناه من تاريخ الخلفاء .

ثم ابنُهُ وَهُوَ المهديُّ ماتَ لدَىٰ   تسعٍ وستينَ مَسْمُومًا كما ذُكِرَا
ثم ابنُهُ وَهُوَ الهادِى وموتَتُهُ   فى عامِ سبعينَ لمَّا هَمَّ أنْ غَدَرَا
ثم الرشيدُ وفِى تسعين تاليةٍ   ثلاثةٌ ماتَ فى الغزوِ الرَّفِيعِ ذُرَا
ثم الأمينُ وفى تسعينَ تاليةٍ   ثمانيًا جاءه قتلٌ كما ذُكِرَا
وقامَ مِنْ بعده المأمونُ ثمَّتَ في   ثمانِ عشرةَ كان الموتُ فاعْتَبِرا
وقامَ معتصمٌ مِنْ بعدِهِ وقضَىٰ   فى عامِ سبعٍ وعشرينَ الذى أُثِرَا
وَهُوَ الذى أدخَلَ الأَتراكَ منفردًا   ديوانَهُ واقتناهُمْ جالبًا وشرا
ثم ابنُهُ الواثِقُ المالى الورَىٰ رُعْبًا   وفى ثلاثينَ مَعْ ثِنْتَيْنِ قد غَبَرَا
وذو التوكُّلِ ما أزكاهُ من خُلُقٍ[1]   ومظهرُ السُّنَّةِ الغَرَّاءِ إذ نَصَرَا
فى عامِ سبعٍ تليهَا أربعُونَ قَضىٰ   قتلاً حَبَاه ابنُه المدعوُّ منتَصِرَا
فلم يَقُمْ بعدَهُ إلاَّ اليسيرَ كَمَا   قد سَنَّهُ الله فيمَنْ بعضَه غَدَرَا
والمستعينُ وفى عامِ اثنتينِ تَلاَ   خمسينَ خَلْعٌ وقتلٌ جاءه زُمَرَا
وَهُوَ الذى أحدثَ الأكمامَ واسعةً   وفى القلانِسِ عن طُولٍ أَتَى قِصَرَا
وقامَ مِنْ بَعْدِه المعتزُّ ثُمَّتَ في   خمسٍ وخمسينَ حَقا قتلُهُ أثرا
والمهتدِى الصَّالِحُ الميمونُ مَقْتَلُهُ   مِنْ بعدِ عَامٍ وقفى قبله عمرا
أقامَ مِنْ بَعْدِهِ بالأَمْرِ مُعْتَمِدٌ   فى عامِ تسعٍ وسبعين الحِمَامُ عَرَا
وذاكَ أولُ ذِى أمرٍ له حَجَرُوا   وأولُ الناسِ موكولاً به قُهِرَا
وقام مِنْ بعده بالأمرِ معتضدٌ   وفى ثمانينَ مَعْ تسعٍ مضتْ قُبِرَا
ثم ابنُهُ المكتفي بالله أحمدُ فِي   خمسٍ وتسعينَ وافاه[2] الذى قدرَا
فى عامِ عشرينَ فى شوالَ بَعْدَ مُضِي   ثلاثةٍ قُتِلَ المدعوُّ مُقْتَدِرَا
وبعدَهُ القاهِرُ الجَبَّارُ مخلَعُه   فى اثنينِ مِنْ بعد عشرين وقد سُمِرَا
وقام من بعدِهِ الراضى وَمَاتَ لَدَىٰ   تسعٍ وعشرينَ وانسُبْ عِنْدَهُ أَخَرَا
والمتَّقي وَمَضَىٰ بالخَلْعِ مُشْتَمِلاً   من بعدِ أربعةِ الأعوامِ فى صَفَرَا
وقام بالأمرِ مستكفيهِمُ وَقَفَا   من بعدِ عامٍ لأمرِ المتقي أَثَرَا

(١) فى تاريخ الخلفاء: خلف .
(٢) فى التاريخ للسيوطى: سبحان .

ثم المطيعُ وفى ستينَ يتبعُهَا ... ثلاثةٌ فى أخيرِ العامِ قد غَبَرَا

ثم ابنُه الطائعُ المقهورُ مخلَعُهُ ... عامَ الثمانينَ مَعْ إحْدَىٰ كما أُثِرَا

ثم الإمام أبو العباسِ قادرُهم ... فى اثنينِ مِنْ بعد عشرينَ مَضَتْ قُبِرَا

ثم ابْنُهُ قائِمٌ لله ماتَ لَدَىٰ ... سبعٍ وستينَ مِنْ شعبانَ قَدْ سُطِرَا

والمقتدِي ماتَ فى تسعٍ[1] بأوَّلِهَا ... بَعْدَ الثمانينَ جدَّ الملك واقتدَرَا

وَقَامَ مِنْ بَعدِه مستظهِرٌ وقَضَىٰ ... فى خامسِ القرنِ فى اثنينِ تلِى عَشرَا

وقام مِنْ بعدهِ مسترشدٌ ولَدَىٰ ... تسعٍ وعشرين فيه القَتْلُ حَلَّ عُرَا

ثمَّ ابنُهُ الراشدُ المقهورُ مَخْلَعُهُ ... مِنْ بعد عامٍ فلا عينٌ ولا أَثَرَا

والمقتفي ماتَ مِنْ بَعْدِ التَمَكُّنِ فِي ... خمسٍ وخمسينَ وانقادَتْ له النُّصَرا

وقَامَ مِنْ بعدهِ مستنجدٌ وقَضَىٰ ... من بعدِ ستينَ مَعْ سِتٍّ وقد شعرا

والمستضىءُ بأمر الله ماتَ لَدَىٰ ... خمسٍ وسبعين بالإحسان قد بَهَرا

وقام مِنْ بعدهِ بالأمرِ ظاهِرُهُم ... تسعًا شهورًا فأقلل مدةً قِصَرَا

وقام مِنْ بعدهِ مستنصرٌ وقَضَىٰ ... لأربعينَ وكَمْ تَرْثِيهِ مِنْ شُعَرَا

وقام مِنْ بعدهِ مستعصمٌ ولَدَىٰ ... ستٌّ وخمسينَ كَانَ الفتنةُ الكبرَىٰ

جاء التتارُ فَأَرْدَوْهُ وبلدتَهُ ... فيلعنُ اللَّهُ والمخلوقةُ التَّتَرَا

مرتْ ثلاثُ سنين بعدَهُ وَيلى ... نصفٌ ودَهْرُ الرَّدَىٰ عَنْ قائمٍ شغرَا[2]

الخلفاء العباسيون المصريون:

وقامَ مِن بعد ذا مستنصرٌ وثَوَىٰ ... فى آخِرِ العام قَتْلًا مِنْهُمُ وسرى[3]

أقام ستَّ شهورٍ ثم رَاحَ لَدَى ... مُهَلٍّ ستينَ لَم يَبْلُغْ بها وَطَرَا

وقام مِنْ بعده فى مصرَ حاكِمُهُمْ ... على وَهَى لا كَمَنْ مِن قَبْلُ قد غَبَرَا

ومات[4] فى عام إحدى بَعْد سبع مِئِى ... وقام من بعدُ مستكفيهمُ وجَرَىٰ

فى أربعينَ قضىٰ إذ قام واثِقُهُمْ ... فَفِى اثنتينِ قضىٰ خلعا مِنَ الأمَرَا

---

(١) فى تاريخ الخلفاء: سبع.

(٢) المثبت من تاريخ الخلفاء. ووقع فى ط ثغرًا.

(٣) فى ط: أشرا. والمثبت من تاريخ الخلفاء.

(٤) فى ط: وقام. والمثبت من تاريخ الخلفاء.

وقام حاكمُهُمْ مِنْ بعدِه وقضىٰ عَامَ الثلاثِ مع الخَمْسِينَ معتبرَا
فقام مِنْ بعدِه بالأمرِ معتضدٌ وفى الثلاثةِ والستينَ قَدْ غَبرَا
وذو التوكُّلِ يتلوهُ أَقَامَ إلىٰ بعدَ الثمانينَ فى خمسٍ وقد حُصِرَا
وبايَعُوا واثقًا بالله ثُمَّتَ فى عامِ الثمانِ قَضَىٰ وسَمَّه عُمَرا
وبايَعُوا بعدَهُ بالله معتصمًا فى عامِ إحدى وتسعينَ أُزيل وَرَا
وذو التوكُّل رَدُّوهُ أقامَ إلى ذا القرنِ عامَ ثمانٍ منه قد قُبِرَا
أولادُه منهمُ خمسٌ مبجلةٌ حازوا الخلافةَ إِذْ كانَتْ لَهُمْ قَدَرَا
والمستعينُ وآلَ الأمرُ أن خلعوا فى شهرِ شعبان فى خمسٍ تَلي عَشَرَا
وقام مِنْ بعدِه بالأمر معتضدٌ لأربعينَ تليها الخمسةُ احتُضِرَا
وقام بالأمر مستكفيهمُ وقَضَىٰ فى عامِ الأَرْبع والخمسينَ مُضْطَبِرَا
وقام قائِمهُمْ من بعدُ ثُمَّتَ في سبعٍ وخمسينَ بعد الخلع قد حُصِرَا
وقام مِنْ بعدِه مستنجدٌ دَهرًا خلِيفة العَصْرِ رقَّاهُ الإله ذُرَا
وبعدَ نظمىَ هذا النظمَ فى مُدَدٍ قَضَىٰ خليفتُنا المذكورُ مصطَبرَا
فى عام الأَرْبَعِ من شهرِ المحرَّم مِنْ بعدِ الثمانينَ يومَ السبت قَدْ قُبرَا
وبويع ابنُ أخيه بَعْدَهُ ودُعِى بذي التوكُّلِ كالجَد الذى شُهِرَا
وماتَ عامَ ثلاثٍ بعد تِسْعِمِئِى سلخ المحرَّم عَنْ عهدٍ له سطرَا
لنجله البرِّ يعقوبَ الشريفِ وَقَدْ لُقِّبَ مستمسكًا بالله فى صَفَرَا

هذا آخر ما نظمه العلامة السيوطى، وقال بعضهم: فذكر خلع المستمسك هذا بعد طول عمره وكبر سنه وانكفاف نظره وولاية ابنه محمد المتوكل على الله بن المستمسك بالله – فقال:

وكان خلعٌ له فى عام أربعةٍ من بعد عَشْرَةَ فى شعبانَ قد شُهِرَا
ولم يكنْ خَلْعُهُ من أجلِ مَنْقَصَةٍ فى دينِه ثم دنياهُ وليسَ جَرَى
شبيهُ ذاكَ ولكنْ أمرُ خالِقنَا مُذْ حلَّ فى عينه فأَذْهَبَ البَصَرَا
وأهلُ حَلٍّ وعَقْدٍ بايَعُوا بِرِضًا لِنَجْلهِ لَيْسَ فِيهِمْ واحدٌ غَدَرَا
بذى التوكُّلِ حقًّا لقبُوهُ وَقُلْ محمدٌ إِسمه لاَ زَالَ مُنْتَصِرَا
فى ساعةِ الخلع والمخلوعُ والدُه كانَتْ بَنُو عَمِّهِ راضِينَ ما ذكَرَا

الباب الثالث
فى الدولة العبيدية[١]
المسمَّين بالفاطميين[٢] بالمغرب ثم بمصر

اعلم أن بنى العباس حين ولوا الخلافة امتدت إيالتهم على جميع ممالك الإسلام، كما كان بنو أمية من قبلهم، ثم لحق بالأندلس من فلِّ بنى أمية من ولد هشام بن عبد الملك - حفيده عبد الرحمن بن معاوية بن هشام، ونجا من تلك الهلكة، فأجاز البحر ودخل الأندلس فملكها من يد عبد الرحمن بن يوسف الفهرى، وخطب للسفاح فيها حولاً، ثم لحق به أهل بيته من المشرق فعذلوه فى ذلك، فقطع الدعوة عن السفاح وبقيت بلاد الأندلس منقطعة عن الدولة الإسلامية من بنى العباس.

ثم كانت وقعة « فخ » أيام الهادى أخى الرشيد علىٰ بنى الحسن بن على سنة تسع وستين ومائة، وقتل داعيتهم يومئذ الحسين بن على بن الحسن المثلث بن الحسن المثنى بن الحسن السبط، وجماعة من أهل بيته، ونجا آخرون، وخلص منهم إدريس بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى إلى المغرب الأقصى، وقام بدعوته البرابر هنالك؛ فاقتطع المغرب عن بنى العباس، واستحدثوا هنالك دولة لأنفسهم،

---

(١) أجمع أهل العلم على تقبيح سيرة الفاطميين فالعلامة السيوطى لم يورد - فى تاريخه عمدًا - أحدًا منهم بالتفصيل . حيث علل ذلك بأن إمامتهم غير صحيحة حيث إنهم غير قرشيين فجدهم مجوسى وأكثرهم من الزنادقة الخارجين عن الإسلام فمنهم من أظهر سبَّ الأنبياء ومنهم من أباح الخمر ومنهم من سبَّ الصحابة، يقول الشيخ الباقلانى عن المهدى العبيدى. كان باطنيًا خبيثًا حريصًا على إزالة ملة الإسلام .ويقول الذهبى عنهم: «كانوا على ملة الإسلام شرًا من التتر» .

وقد أجمع العلماء بالقيروان على أن حال بنى عبيد حال المرتدين والزنادقة لما أظهروا من خلاف الشريعة .

ومن أعظم الأقوال فيهم قول الذهبى - فيهم - كانوا أربعة عشر متخلفًا لا مستخلفًا . ينظر فى الدولة العبيدية: اتعاظ الحنفا للمقريزى فقد أفرده المقريزى لدولتهم، تاريخ الخلفاء للسيوطى ٤٢٠، تاريخ ابن خلدون ٣/ ٣٦٤، النجوم الزاهرة ٣/ ١٦٦، الكامل لابن الأثير ٨/ ٤٧ - ٥٠، العبر للذهبى ٢/ ٣٧، المواعظ والاعتبار ١/ ٣٥١، ٢/ ١١، البيان المغرب ١/ ٢٩٨، وفيات الأعيان ١/ ١٥٨ .

(٢) نسبتهم إلى السيدة فاطمة عليها السلام جهل وافتراء يقول العلامة السيوطى فى تاريخه: «وإنما سمتهم بالفاطميين جهلة العوام، فجدهم مجوسى» ينظر تاريخ الخلفاء ص ٤ .

ثم ضعفت الدولة العباسية بعد الاستفحال، وتغلب على الخليفة بها الأولياء والقرابة والمصطنعون، وصار تحت حجرهم من حين قتل الخليفة المتوكل العباسى، وحدثت الفتن ببغداد، وصار العلوية إلى النواحى مظهرين لدعوتهم، فدعا أبو عبد الله الشيعى سنة ست وثمانين ومائتين بإفريقية فى كتابه لعبيد الله المهدى بن محمد الحبيب بن جعفر المصدق بن محمد المكتوم بن إسماعيل بن جعفر الصادق، وبايع له، وانتزع إفريقية من بنى الأغلب واستولى عليها وعلى المغرب الأقصى ومصر والشام، واقتطعوا سائر هذه الأعمال عن بنى العباس، واستحدثوا دولة أقامت مائتين وسبعين سنة كما يذكر الآن فى أخبارهم، ثم ظهر بطبرستان من العلوية الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن السبط، ويعرف بالداعى، خرج سنة خمسين ومائتين أيام المستعين، ولحق بالديلم فأسلموا على يديه، وملك طبرستان ونواحيها، وصار له هناك دولة أخذها من يد أخيه سنة إحدى وثلاثمائة الأطروش من بنى الحسين، ثم من بنى على بن عمر داعى الطالقان أيام المعتصم. وسيأتى ذكر ذلك فى الباب الثانى من الخاتمة عند ذكر من دعا من أهل البيت. واسم هذا الأطروش الحسن بن على بن الحسين بن على بن محمد، وكانت لهم دولة وانقرضت أيام الخمسين والثلاثمائة، واستولى عليها الديلم، وصارت لهم دولة أخرى فظهر باليمن يحيى بن الحسين بن القاسم الرسى، وهو ابن إبراهيم طباطبا، لقب بذلك للكنة كانت فى لسانه يعدل عن لفظ قبا قبا إلى طبا طبا ابن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن المثنى، وأظهر هنالك دعوى الزيدية وملك « صعدة » و« صنعا »، وكانت لهم هنالك دولة لم تزل حتى الآن، وأول من ظهر منهم يحيى ابن الحسين بن القاسم سنة تسعين ومائتين. وسيأتى ذكرهم فى الدعاة للمبايعة.

ثم ظهر أيام الفتنة من دعاة العلوية صاحب الزنج، ادَّعى أنه أحمد بن عيسى بن زيد الشهيد، وذلك سنة خمس وخمسين ومائتين أيام المهتدى، وطعن فى نسبه؛ فادعى ثانيًا أنه من ولد يحيى بن زيد قتيل الجوزجان، وقيل: إنه انتسب إلى طاهر ابن الحسين بن على. والذى ثبت عند المحققين أنه على بن عبد الرحيم بن عبد القيس، فكانت له ولبنيه دولة بنواحى البصرة، قام بها الزنج إلى أن انقرضت على يد الموفق طلحة المعتمد أيام السبعين ومائتين.

ثم ظهر القرمطى بنواحى البحرين وعمان، سار إليهما من الكوفة سنة تسع وسبعين ومائتين أيام المعتضد، وانتسب إلى بنى إسماعيل ابن الإمام جعفر الصادق دعوى كاذبة. وكان من أصحابه الحسن الجبائى وزكرويه القاشانى؛ فقاما بالدعوة من بعده ودعوَا لعبيد الله المهدى، وغلبوا على البصرة والكوفة، ثم انقطعوا عنها إلى البحرين وعمان، وكانت هنالك دولة انقرضت آخر المائة الرابعة، وتغلب عليهم العرب من بنى سليم وبنى عقيل.

وفى خلال ذلك استبد بنو سامان بما وراء النهر آخر أعوام الستين والمائتين، وأقامت دولتهم إلى آخر المائة الرابعة، ثم اتصلت دولة أخرى فى مواليهم بِغَزْنَةَ إلى منتصف المائة السادسة.

وكانت للأغالبة بالقيروان وإفريقية دولة أخرى استبدوا بها على الخلفاء من لدن أيام الرشيد والمأمون إلى أول المائة الثالثة، ثم أعقبتها دولة أخرى لمواليهم بنى طغج، موالى كافور إلى الستين والثلاثمائة.

ثم استولى المعز الفاطمى على مصر بعد موت كافور لما افتتحها له عبده جوهر الرومى الصقلى، واختط القاهرة والجامع الأزهر والقصرين، واستمرت فى يد أولاده إلى سنة سبع وستين وخمسمائة، حتى كان أخرهم العاضد، فاستولى عليه الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب الكردى، وقطع خطبة الفاطميين، وأعاد الخطبة بمصر لبنى العباس، للمستضئ بن المستنجد منهم، بعد أن قطعت عنهم مائتين ونيفًا وثمانين سنة، مدة استيلاء الفاطميين عليها كما سيأتى ذكر كل ذلك فى الدولة الأيوبية.

ثم عقبها دولة أخرى لمواليهم، وهى الدولة التركمانية الذين أولهم المعز أيبك التركمانى، ثم عقبتها دولة أخرى لمواليهم، وهى الدولة الشركسية، ثم عقبتها دولة أخرى وهى العثمانية، وسيأتى ذكر كل دوله فى باب على حدة على ترتيب ما ذكرناه.

وفى خلال هذا كله تضايق نطاق الدولة العباسية بخروج المستبدين بالنواحى عليها، ولم يمتد نطاقها إلا إلى نواحى السواد والجزيرة فقط، إلا أنهم قائمون ببغداد على أمرهم.

ثم كانت للديلم دولة أخرى، واستولوا فيها على النواحى، وملكوا الأعمال. ثم ساروا إلى بغداد وملكوها، وصيروا الخليفة فى مملكتهم من لدن المستكفى أعوام الثلاثين والثلاثمائة إلى الأربعمائة والخمسين، فكانت مدتهم مائة وعشرين سنة، وكانت من أعظم الدول.

ثم أخذها من أيديهم الملوك السلجوقية إحدى شعوب الترك، فلم تزل دولتهم من لدن القائم بأمر الله العباسى سنة الأربعين وأربعمائة أو الخمسين إلى آخر المائة السادسة، وكانت دولتهم كذلك من أعظم الدول فى العالم، وتشعبت عنها دول لهم ولأشياعهم فى النواحى، وهى باقية لهذا العهد آخذة فى التلاشى. كما سنذكر كلا فى محله من بابه المعقود له.

نسب العبيديين بإفريقية

قد اختلف الناس فى صحة نسب هؤلاء العبيديين القائمين بإفريقية ثم بمصر؛ فأثبت نسبهم وصححه جماعة ونفاه جماعة كثيرون. قال العلامة ابن خلكان:(١) والجمهور على عدم صحة نسبهم، وأنهم كذبة أدعياء، لا حظ لهم فى النسبة المحمدية أصلاً.

فممن أثبت نسبهم العلامة ابن خلدون فى تاريخه فقال:

نسبة هؤلاء العبيديين إلى أول خلفائهم، وهو عبيد الله المهدى بن محمد الحبيب ابن جعفر المصدق بن محمد المكتوم بن إسماعيل الإمام بن جعفر الصادق، ولا عبرة بمن أنكر هذا النسب من أهل القيروان وغيرهم، ولا بالمحضر الذى كتب ببغداد أمام القادر بالله العباسى بالقدح فى نسبهم، وأشهد فيه أعلام الأئمة مثل القدورى، والصيمرى، وأبى العباس الأبيوردى، وأبى حامد الأسفراييني، وأبى الفضل النسوى، وأبى جعفر النسفى، ومن العلويين المرتضى، وابن البلجانى، وابن الأزرق، وزعيم الشيعة أبى عبد الله بن النعمان؛ فهى شهادة على السماع.

وكان ذلك القدح متصلاً فى دولة العباسيين منذ مائتين من السنين، فاشيًا فى أمصارهم وأعصارهم عند أعدائهم شيعة بنى العباس؛ فتلون الناس بمذهب أهل

---

(١) ينظر وفيات الأعيان لابن خلكان ٣/ ١١٧ - ١١٨ .

الدولة، فجازت شهادتهم بذلك، والشهادة على السماع فى مثله جائزة، على أنها شهادة نفى؛ فلا تعارض شهادة المثبت، مع أن طبيعة الوجود فى الانقياد إليهم، وظهور كلمتهم، حتى فى مكة والمدينة - أدل شيء على صحة نسبهم.

وأما من يجعل نسبهم فى اليهودية والنصرانية كميمون القداح، فكفاه إثمًا وسفسفة. وكان شيعة هؤلاء العبيديين فى المشرق واليمن وإفريقية، وكان أصل ظهورهم بإفريقية دخول الحلوانى وأبى سفيان من شيعتهم إليها، أنفذهما جعفر الصادق وقال لهما: بالمغرب أرض بور فاذهبا واحرثاها حتى يجئ صاحب البذر، فنزل أحدهما ببلد « مرغة » والآخر ببلد « سوف جمار »، وكلاهما من أرض كتامة؛ ففشت هذه الدعوة فى تلك النواحى.

وكان محمد الحبيب ينزل « سلمية » من أرض حمص، وكان شيعتهم يتعاهدونه بالزيارة إذا زاروا قبرالحسين، فجاء محمد بن الفضل من « عدن لاعة » من اليمن لزيارة محمد الحبيب، فبعث معه رستم بن الحسن بن حوشب من أصحابه؛ لإقامة دعوته باليمن، وأن المهدى خارج فى هذا الوقت، فسار فأظهر الدعوة للمهدى من آل محمد بنعوته المعروفة عندهم، واستولى على أكثر اليمن وسمى بالمنصور، وابتنى حصنًا بجبل « لاعة »، وفرق الدعاة فى اليمن واليمامة والبحرين والسند والهند ومصر والمغرب.

ولما توفى محمد الحبيب عهد إلى ابنه عبيد الله وقال له: أنت المهدى، وتهاجر بعدى هجرة بعيدة فتلقى محنًا شديدة. واتصل خبره بسائر دعاته فى إفريقية واليمن، وبعث إليه أبو عبد الله الشيعى رجالاً من كتامة يخبرونه بما فتح الله عليهم، وأنهم فى انتظاره، وشاع خبره واتصل بالخليفة العباسى على المكتفي، فطلبه ففر من أرض الشام إلى العراق، ثم لحق بمصر ومعه ابنه الآخر أبو القاسم غلامًا حدثًا، وخاصته ومواليهم، بعد أن كان أراد قصد اليمن فبلغه ما أحدث بها على بن الفضل، وأنه أساء السيرة، فانثنى عن ذلك، واعتزم على اللحاق بأبى عبد الله الشيعى داعيتهم بالمغرب، فارتحل هو ومن معه من مصر إلى الإسكندرية، ثم خرجوا من الإسكندرية فى زى التجار، وجاء كتاب المكتفى إلى عامل مصر - وهو يومئذ عيسى النوشرى - بخبرهم والقعود لهم بالمراصد، وكتب إليه بنعته وحليته فسرح

فى طلبهم، ثم وقف عليهم وامتحن أحوالهم؛ فلم يقف على اليقين فى شيء منها فخلى سبيلهم، وجدَّ المهدى فى السير، وكانت له كتب فى الملاحم منقولة من آبائه، سرقت من رَحْلِهِ فى طريقه، فيقال: إن ابنه أبا القاسم استردها من « برقة » حين زحف إلى مصر.

ثم إن المهدى أغزى ابنه أبا القاسم، وجموع كتامة سنة إحدى وثلاثمائة إلى الإسكندرية ومصر، وبعث أسطوله فى البحر فى مائتى مركب، وشحنها بالأمداد، وعقد عليها لحباسة بن يوسف، فسارت العساكر فملكوا برقة والإسكندرية والفيوم، فبعث المقتدر عساكر من بغداد مع سُبكتكين ومؤنس الخادم؛ فتواقعوا معهم مرارًا وأجلوهم عن مصر؛ فرجعوا إلى المغرب.

ثم أعاد المهدى حباسة فى العسكر فى البحر سنة اثنتين وثلاثمائة إلى الإسكندرية فملكها، وسار يريد مصر، فجاء مؤنس الخادم من بغداد لمحاربته فتواقعوا مرات، وكان الظهور آخرًا لمؤنس، وقتل من أصحاب حباسة حوالى سبعة آلاف، وانصرف إلى المغرب فقتله المهدى، فانتقض عليه لذلك أخو حباسة واسمه عروبة، واجتمع عليه من « كتامة » خلق كثير من كتامة والبربر؛ فسرح إليه المهدى مولاه غالبًا فى الجيوش؛ فهزمهم وقتل عروبة وبنى عمه فى أمم لا تحصى.

ثم اعتزم المهدى على بناء مدينة على ساحل البحر يتخذها معصمًا لأهل بيته، لما كان يتوقعه على الدولة من الخوارج. ويحكى عنه أنه قال: بنيتها ليعتصم بها الفواطم ساعة من نهار، وأراهم موقف صاحب الحمار بساحتها، فخرج بنفسه يرتاد موضعًا لبنائها، ومر بـ« تونس » وقرطاجنة حتى وقف على مكانها؛ جزيرة متصلة بالبر؛ كصورة كف اتصلت بزند فاختطها، وهى المهدية، وجعلها وأدار ملكه، وأدار عليها سورًا محكمًا، وجعل لها أبوابًا من الحديد، وزن كل مصراع مائة قنطار.

وابتدأ بناءها آخر سنة ثلاث وثلاثمائة، ولما ارتفع السور رمى من فوقه بسهم إلى ناحية المغرب ونظر إلى منتهاه، وقال: إلى هذا الموضع يصل صاحب الحمار - يعنى أبا يزيد - وأبو يزيد هذا خارجى خرج عليه، نهب باجة وغيرها، وأحرق وقتل الأطفال وسبى النساء، واجتمع إليه قبائل البربر، واتخذ الأخبيه والبيوت وآلات

الحرب، وأهدى إليه رجل حمارًا أشهب، وكان يركبه وبه لقب، وكان يلبس جبة صوف قصيرة ضيقة الكمين، وهو أبو يزيد بن مخلد بن كيداد، وكان جده كيداد من أهل « قسطيلية » من بلد « توزر »، وكان يختلف إلى بلاد السودان بالتجارة، وبها ولد ولده أبو يزيد المذكور، ثم أمر أن ينحت فى الجبل دار لإنشاء السفن تسع مائة سفين، ويخبأ في أرضها أهراء الطعام ومصانع للمياه، وبنى فيها القصور والدور، فكملت سنة ست وثلاثمائة. فلما فرغ منها قال: اليوم أمنت على الفواطم.

ثم جهز ابنه أبا القاسم بالعساكر إلى مصر مرة ثانية سنة سبع وثلاثمائة فملك الإسكندرية، ثم سار وملك الجيزة والأشمونين وكثيرًا من الصعيد، وكتب إلى أهل مكة بطلب الطاعة فلم يجيبوه إليها، وبعث المقتدر مؤنسًا الخادم فى العساكر؛ فكانت بينه وبين أبى القاسم عدة وقعات ظهر فيها مؤنس، وأصاب عسكر أبى القاسم الجهد من الغلاء والوباء، فرجع إلى إفريقية، وكانت مراكبهم قد وصلت من المهدية إلى الإسكندرية فى ثمانين أسطولاً؛ مددًا لأبى القاسم.

ثم توفى عبيد الله المهدى فى ربيع سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة وولى بعده ابنه أبو القاسم محمد، ويقال: نزار، ولقب القائم بأمر الله؛ فعظم حزنه على أبيه، حتى يقال: إنه لم يركب سائر أيامه إلاَّ مرتين. وكثر الثوار عليه فى النواحى، فسير إليهم وأخذهم، واستباح أموالهم وديارهم، وحاصر الأدارسة ملوك الريف، ودخل المغرب وحاصر فاس، واستنزل عاملها أحمد بن بكر، ثم بعث عسكرًا إلى مصر مع خادمه « زيران » فملكوا الإسكندرية، فجاءت عساكر الإخشيد من مصر؛ فأزعجوهم عنها؛ فرجعوا إلى المغرب.

ثم توفى القائم أبو القاسم، محمد بن عبيد الله المهدى، صاحب إفريقية بعد أن عهد إلى ولده إسماعيل، وذلك سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة؛ فقام بعده ولده إسماعيل بعهده إليه، وتلقب بالمنصور. هذا ما ذكره ابن خلدون، ثم استمر فى ذكر تعدادهم - واحدًا بعد واحد - إلى آخرهم العاضد لدين الله.

وأما غير ما ذكره ابن خلدون فى شأنهم، فقال به جماعات كثيرون منهم الإمام الحافظ الذهبى فى تاريخه « دول الإسلام »، ونصه: اعلم أن مبدأ أمرهم ومنشأ خبرهم، أن الحسين بن محمد بن أحمد بن عبد الله القداح - لأنه كان يعالج العيون

بالقدح فتبصر - ابن ميمون بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب - رضى الله تعالى عنهم - قدم إلى « سلمية »، وكان له بها ودائع وأموال من ودائع جده عبد الله القداح، فاتفق أن جرى بحضرته ذكر النساء، فوصفت له امرأة يهودى حداد مات عنها زوجها، وهى فى غاية الحسن والجمال، وله منها ولد يماثلها فى الجمال، فتزوجها وأحبها، وحسن موضعها منه، وأحب ولدها فعلمه العلم، وصارت له نفس عظيمة وهمة كبيرة، وكان الحسين يدَّعِي أنه الوصِيّ وصاحب الأمر، والدعاة بالمغرب واليمن يكاتبونه، ولم يكن له ولد؛ فعهد إلى اليهودى ابن الحداد ربيبه، وأعطاه الأموال، وأمر أصحابه بطاعته وخدمته، وقال: إنه الإمام الرضى، وزوجه ابنة عمه، وهو جدهم عبيد الله فتلقب بالمهدى، ووضع لنفسه نسبًا هو عبيد الله بن الحسن بن عَلِيّ بن محمد بن موسى بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب، فلما توفى الحسين قام بعده المهدى هذا، فلما انتشرت دعوته أرسل إليه داعيه بالمغرب بما فتح الله عليه من البلاد، وأنهم ينتظرون قدومه إليهم؛ فشاع خبره عند الناس أيام المكتفى العباسى عليّ بن المعتضد؛ فطلبه فهرب هو وولده نزار الملقب بالقائم، وهو يومئذٍ غلام، ومعهما خاصتهما ومواليهما، فلما وصلا إلى إفريقية أحضر الأموال منها واستصحبها معه، فوصل إلى « رقادة » فى العشر الأخير من شهر ربيع الأول سنة سبع وتسعين ومائتين، ونزل فى قصر من قصورها، وأمر أن يدعى له فى الخطبة فى جميع تلك البلاد، وجلس يوم الجمعة للمبايعة، وأحضر الناس بالعنف، ودعاهم لمذهبه، فمن أجاب أحسن إليه ومن أبى حبسه، فاستمر على ذلك إلى أن كانت وفاته سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة.

ثم قام من بعده ابنه نزار، وتلقب بالقائم بأمر الله تعالى، واستمر إلى أن مات سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة.

ثم قام من بعده ابنه إسماعيل، وتلقب بالمنصور. انتهى ما ذكره الحافظ الذهبى.

قال ابن خلكان[1] فى ترجمة المنصور هذا: وذكر أبو جعفر، أحمد بن محمد المروذى، قال: خرجت مع المنصور بن القائم بن المهدى العبيدى، صاحب

---

(١) ينظر: وفيات الأعيان لابن خلكان (١/ ٢٣٤، ٢٣٥) باختصار.

إفريقية، يوم هزم أبا يزيد الخارجى فسايرته وبيده رمحان، فسقط أحدهما مرارًا، فمسحته وتفاءلت له فأنشدته: [من الطويل]

فألقَتْ عَصَاها واسْتَقَرَّ بِهَا النَّوىٰ كَمَا قَرَّ عَيْنًا بالإيابِ المُسافِرُ

فقال: هلا قلت ما هو خير من هذا وأصدق ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴾ [الأعراف:١١٧، ١١٩] فقلت: يا مولانا، أنت ابن رسول الله، قلت ما عندك لما عندك من العلم.

وكان المنصور شجاعًا رابط الجأش، فصيحًا بليغًا، يرتجل الخطب ارتجالاً، وتوفى بمدينته التى بناها وسماها « المنصورية ». انتهى ما ذكره ابن خلكان.

وإِفْرِيقِيَّة، بكسر الهمزة والفاء الساكنة والراء المكسورة بعدها مثناة تحتية فقاف مكسورة فمثناة تحتية مشددة: إقليم عظيم ببلاد المغرب، افتتح فى خلافة عثمان بن عفان - رضى الله تعالى عنه.

ثم قام من بعده ابنه معد الملقب بالمعز بن إسماعيل(١)، الملقب بالمنصور بن نزار، الملقب بالقائم بن عبيد الله، الملقب بالمهدى. هذا المعز أول من ملك مصر من العبيديين، أرسل عبده جوهرًا الرومى الصقلى، أرسله من إفريقية بلاد المغرب؛ لأخذ بلاد مصر عند اضطراب جَيْشِهَا بعد موت كافور الإخشيدى، فلم يجتمعوا عليه؛ فأرسل بعضهم إلى المعز يستنجد به، فأرسل مولاه جوهرًا هذا فى ربيع الأول سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة، فوصل إلى القاهرة فى شعبان فى مائة ألف مقاتل، ومعه من الأموال ألف ومائتا صندوق، وقيل: خمسمائة صندوق، فانزعج الناس، وأرسلوا يطلبون إليه الأمان فآمنهم؛ فلم يرض الجيش بذلك، وبرزوا لقتاله فكسرهم وجدد الأمان لأهلها، ودخلها يوم الثلاثاء لثمان عشرة ليلة خلت من شعبان، فشق مصر ونزل فى مكان القاهرة اليوم وأسس من ليلته القصرين، وخطب يوم الجمعة

---

(١) ينظر [المعز لدين الله] فى: المنتظم ٧/ ٨٢، العبر للذهبى ٢/ ٣٣٩، مرآة الجنان ٢/ ٣٨٣، البداية والنهاية ١١/ ٢٨٣، الكامل لابن الأثير ٨/ ٦٦٣، شذرات الذهب ٣/ ٥٢، دول الإسلام للذهبى ١/ ٢٢٦، كنز الدرر ١١٩، اتعاظ الحنفا ١/ ٩٣، نهاية الأرب ٢٣/ ٢٠٣، تاريخ ابن الوردى ١/ ٢٩٩، وفيات الأعيان ٥/ ٢٢٤ - ٢٢٨، سير أعلام النبلاء ١٥/١٥٩ - ١٦٧ .

الآتية وقطع الدعاء لبنى العباس، ودعا لمولاه المعز وذكر الأئمة الاثنى عشر، وأذن بحى على خير العمل، وكان يظهر الإحسان إلى الناس، ويجلس كل يوم سبت مع الوزير جعفر بن الفرات، واجتهد فى تكميل القاهرة، وفرغ من جامعها سريعًا وهو الجامع الأزهر المشهور، وأرسل أميرًا من أمرائه - يسمى جعفر بن فلاح - إلى الشام، فأخذها لسيده المعز، ثم قدم مولاه المعز فى سنة اثنتين وستين وثلاثمائة وصحبته توابيت آبائه، فلما وصل إلى الإسكندرية فى شعبان منها تلقاه أعيان مصر؛ فخطب الناس هناك خطبة بليغة ارتجالاً، ذكر فيها فضلهم وشرفهم، وقد كذب وقال: إن الله تعالى قد أغاث الرعايا بهم وبذويهم، حكى ذلك قاضى بلاد مصر، وكان جالسًا إلى جانبه، ثم إنه سأله: هل رأيت خليفة أفضل منى ؟ فقال القاضى: لم أر أحدًا من الخلائف سوى أمير المؤمنين، فقال له: أحججت ؟ فقال: نعم، قال: وزرت قبر النبى ﷺ ؟ قال: نعم، قال: وقبر أبى بكر وعمر. قال: فتحيرتُ ماذا أقول، ثم نظرت فإذا ابنه قائم مع كبار الأمراء فقلت: شغلنى رسول الله ﷺ عنهما، كما شغلنى أمير المؤمنين عن السلام على ولى العهد، ونهضت إليهما فسلمت عليهما، ورجعت فانفسح المجلس إلى غير هذا المجال.

ثم سار من الإسكندرية إلى مصر فدخلها فى اليوم الخامس من رمضان من هذه السنة فنزل بالقصرين، ثم كانت أول حكومة انتهت إليه: أن امرأة كافور الإخشيدى تقدمت إليه فذكرت له أنها كانت أودعت رجلاً من اليهود الصواغ قباء من لؤلؤ منسوج بالذهب، وأنه جحدها ذلك؛ فاستحضره وقرره، فجحد اليهودى ذلك وأنكره فأمر عند ذلك المعز أن تحفر داره وأن يستخرج ما فيها فوجدوا القباء قد جعله فى جرة ودفنه، فسلمه المعز إليها، فتقدمت إليه وعرضته عليه فأبى أن يقبله منها ورده عليها، فاستحسن ذلك منه الحاضرون من مؤمن وكافر، وقد ثبت فى الحديث أن رسول الله ﷺ قال: « إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر »[1].

وفى بعض التواريخ: أنه سئل فى ذلك المجلس عن نسبه فاستل سيفه إلى نصفه بيمناه، وقبض قبضة من الذهب بيسراه فقال: هذا نسبى، وهذا حسبى. والله أعلم بصحة ذلك.

---

(١) تقدم فى غزوة الأحزاب .

وفى سنة ثلاثٍ وستين وثلاثمائة عملت الروافض البدعة الشنعاء يوم عاشوراء ببغداد؛ من تعليق المسوح، ونثر التتن فى الأسواق، وخروج النساء سافرات الوجوه والنهود، ينحن على الحسين رضى الله تعالى عنه. ووقعت فتنة عظيمة بين أهل السنة والروافض، وكلا الفريقين قليل عقلٍ بعيدٌ من السداد؛ وذلك أن جماعة من أهل السنة أركبوا امرأة جملاً وسموها عائشة، وتسمى بعضهم بطلحة والزبير، وقاتل مقاتل أصحاب على بن أبى طالب، فقتل من الفريقين خلق كثير، وعاثت العيارون فى البلد بالفساد، ونهبت الأموال، وقتل الرجال، ثم أخذ جماعة منهم فقتلوا وصلبوا فسكنت الفتنة(١).

قال العلامة ابن الأثير فى كامله(٢): لما استقر المعز الفاطمى فى الديار المصرية وتأطد ملكه، سار إليه الحسين بن أحمد القرمطى الأحسائى، قال ابن عساكر: وبقية نسبه: ابن أبى سعيد الحسن بن بهرام، ويقال: الحسن بن أحمد بن الحسن بن يوسف بن كودر كار، يقال: أصلهم من الفرس، قال: ويعرف الحسين هذا بالأعصم، وكان قد تغلب على دمشق سنة سبع وخمسين وثلاثمائة، ثم عاد إلى بلده الأحساء بعد سنة، ثم عاد إلى دمشق فى سنة ستين، وكسر جيش جعفر بن فلاح أول من ناب بالشام عن المعز الفاطمى. ذكر له الحافظ ابن عساكر أشعارًا حسنة رائقة فائقة؛ فمن ذلك ما كتبه إلى جعفر بن فلاح قبل الحرب بينهما، وهو هذه الأبيات: [من البسيط]

أَلحَرْبُ ساكِنَةٌ والخيلُ صَافِنَةٌ ... والسِّلْمُ مبتَذَلٌ والظِّل مَمْدُودُ
فإنْ أنبتُمْ فَمَقْبُولٌ إِنَابَتُكُمْ ... وَإِنْ أبيتُمْ فَهَذا الكُورُ مَشْدُودُ
على ظهورِ المَطَايا أو يَرِدْنَ بِهَا ... دِمَشْقَ وَالْبَابُ مَهْدُومٌ ومَرْدُودُ
إِنى امرُؤٌ لَيْسَ من شَأْنِى ولا أَرَبِي ... طَبْلٌ يَرِنُّ وَلاَ نَايٌ وَلاَ عُودُ
ولاَ اعْتِكَافٌ عَلَى خمرٍ ومجْمَرَةٍ ... وذاتِ دَل لـهَا دَلٌّ وتـفـنـيـدُ
ولا أَبِيتُ بَطِينَ البَطْنِ من شِبَعٍ ... وَلِى رفيقٌ خميصُ البَطْنِ مَجْهُودُ
ولا تَسَامَتْ بِىَ الدنيا إِلَى طَمَعٍ ... يَوْمًا وَلاَ غَرَّنِى منها المَوَاعِيدُ

(١) ينظر: المنتظم ٧/ ١٨ - ١٩، تجارب الأمم ٢/ ٢٠٢، العبر ٢/ ٢٩٦، دول الإسلام ١/ ٢١٩، الكامل لابن الأثير ٨/ ٥٥٢، تاريخ الإسلام حوادث ثلاث وخمسين وثلاثمائة ص ١٣ .
(٢) ينظر: الكامل لابن الأثير ٨/ ٦٣٨ بمعناه .

ومن شعره أيضًا قوله: [من الكامل]

يَا سَاكِنَ البَلَدِ المَنِيعِ تَعزُّزًا بِقِلاَعِهِ وَحُصُونِهِ وَكُهُوفِهِ
لاَ عِزَّ إلاَّ لِلْعَزِيزِ بِنَفْسِهِ وَبِخَيْلِهِ وَبِرَجْلِهِ وَسُيُوفِهِ

ثم فى هذا العام، وهو عام ثلاث وستين وثلاثمائة سار إلى مصر فى جيش كبير من أصحابه، والتقى معه أمير العرب ببلاد الشام، وهو حسان بن الجراح الطائى فى عرب الشام بكمالهم، فلما سمع به المعز الفاطمى سقط فى يده لكثرتهم؛ فكتب إلى القرمطى يستميله ويقول له: إن دعوة آبائك إنما كانت لآبائى قديمًا، فدعوتنا واحدة. ويذكر فضله وفضل آبائه. فرد له الجواب بقوله: [من الكامل]

زَعَمتْ رِجَالُ الغُرْبِ أَنِّى هِبْتُهَا فَدَمِى إِذَنْ مَا بَينَهَا مَطْلُولُ
يَا مِصْرُ إنْ لَمْ أَسْقِ أَرْضَكِ مِنْ دَمٍ يَرْوِى ثَرَاكِ فَلاَ سَقَانِى النِّيلُ

وصل كتابك الذى كثر تفصيله وقل تحصيله، ونحن سائرون على أثره والسلام. فلما انتهوا إلى أطراف مصر عاثوا قتلاً ونهبًا وفسادًا، وحار المعز ماذا يفعل؛ لكثرة من مع القرمطى، وضعف جيشه عن مقاومته؛ فعدل إلى المكيدة والخديعة، فراسل حسان بن الجراح أمير العرب، ووعده بمائة ألف دينار؛ فأرسل إليه حسان أن ابعث إلىَّ بما التزمت فى أكياس، وأقبل بمن معك، فإذا التقينا انهزمتُ بمن معى، فأرسل إليه المعز بمائة ألف فى أكياس، ولكنها زغل أكثرها ضرب النحاس، وألبسه ذهبًا وجعله فى أسفل الأكياس، ووضع فى رءوس الأكياس الدنانير الخالصة. ولما بعثها إليه ركب فى أثرها بجيشه فالتقى الناس، فلما تواجه الفريقان ونشبت الحرب بينهما - انهزم حسان بن الجراح بالعرب؛ فضعف جانب القرمطى وقوى عليه المعز الفاطمى فكسره، وانهزمت القرامطة بين يديه؛ فرجعوا إلى « أذرعات » فى أذل حال، وبعث المعز فى آثارهم بعض الأمراء فى عشرة آلاف فارس ليحسم مادة القرامطة.

ولما أرسل جوهر القائد الرومى الصقلى رسولاً إلى سيده المعز الفاطمى بإفريقية يبشره بفتح الديار المصرية وإقامة الدعوة والخطبة له بها - فرح فرحًا شديدًا. وامتدحه الشعراء فكان ممن امتدحه شاعره محمد بن هانئ الأندلسى بالقصيدة المشهورة وهى: [من الطويل]

تَقُولُ بنو العباسِ هَلْ فُتِحَتْ مِصْرُ فَقُلْ لبنى العباسِ قَدْ قُضِى الأَمْرُ

وقد جَاوَزَ الإسكندريةَ جَوْهَرٌ تطالِعُهُ البُشْرىٰ ويَقْدُمُهُ النَّصْرُ
وقد أَوْفَدَتْ مِصْرٌ إليهِ وُفودَهَا وَزِيدَ على المعقودِ مِنْ جسرِهَا جِسْرُ
فمَا جَاء هذا اليومُ إلاَّ وَقَدْ غَدَتْ وأَيْدِيكُمُ مِنْهَا ومِنْ غَيرِها صِفْرُ
فلا تُكْثِرُوا ذَمَّ الزمَانِ الذى خَلاَ فَذَلِكَ عَصْرٌ قد تَقَضَّى وَذَا عَصْرُ
أَفِى الجيشِ كنتُمْ تَمْتَرُونَ- رُوَيْدَكُم- فهذا القَنَا العَرَّاصُ والعَسْكَرُ المَجْرُ
وقد أَشْرفَتْ خيلُ الإلهِ طَوَالِعًا عَلَى الدِّينِ والدُّنيا كَمَا طَلَعَ الفَجْرُ
وَذَا ابْنُ رَسولِ الله يطلُبُ وَتْرَهُ وكَانَ حَرٍ أَلاَّ يَضِيعَ لَهُ وَتْرُ
ذَرُوا الوِرْدَ فى مَاءِ الفُرَاتِ لِخيلِهِ فلا الضَّحْلُ منه تمنَعُونَ ولا الغَمْرُ
أَفِى الشمسِ شكٌّ إنها الشمسُ بَعْدَ مَا تَجلَّتْ عِيَانًا ليسَ مِنْ دونِها سِتْرُ
وَمَا هِيَ إلا آيةٌ بعدَ آيةٍ ونذرٌ لكم إِنْ كَانَ تُغْنِيكُمُ النُّذْرُ
وكونُوا حَصِيدًا خامِدِينَ أَوِ ازعَوُوا إلىٰ مَلِكٍ فى كَفِّه الموتُ والنَّشْرُ
أَطِيعُوا إمامًا للأئمةِ فَاضِلاً كمَا كَانَتِ الأَعْمَالُ يَفْضُلُهَا البِرُّ
رِدُوا سَاقِيًا لا تُنْزِفُونَ حِيَاضَهُ جموعًا كما لا تُنْزِفُ الأَبْحُرَ الذَّرُّ
فإن تَتْبَعُوهُ فَهْوَ مَوْلاكُم الَّذِي لَهُ بِرَسُولِ الله دُونَكُمُ الفَخْرُ
وإلاَّ فبُعْدًا للبَعِيدِ فَبَيْنَهُ وبينَكُمُ مَا لاَ يُقرِّبهُ الدَّهرُ
أَفِى ابْنِ أَبى السِّبْطينِ أَمْ فى طليقِكُمْ تَنَزَّلَتِ الآياتُ والسُّوَرُ الغُرُّ
بَنِى نتلةٍ ما أَوْرَثَ الله نتلةً وَمَا ولدَتْ هَلْ يستوى العَبْدُ والحُرُّ
وَأَنَّىٰ بِهذَا وَهْيَ أَعْدَتْ بلُؤْمِهَا أَبَاكُمْ فإِيَّاكُمْ ودَعْوَىٰ هِيَ الكُفْرُ
ذَرُوا النَّاسَ رُدُّوهُمْ إلىٰ مَنْ يَسُوسُهُمْ فَمَا لَكُمُ فى الأَمْرِ عُرْفٌ ولا نُكْرُ
أسرتُمْ قُرُومًا بالعراقِ أعِزَّةً فَقَدْ فُكَّ من أعناقِهِمْ ذلِك الأَسْرُ
وقد بَزَّكُمْ أيَّامَكُمْ عَصَبُ الهُدَىٰ وَأَنْصَارُ دِينِ اللَّهِ والبيضُ والسُّمْرُ
وَمُقْتَبِلٌ أَيَّامُهُ مُتَهَلِّلٌ إِلَيْهِ الشَّبابُ الغَضُّ والزَّمَنُ النَّضْرُ
أَدَارَ كَمَا شَاءَ الوَرَىٰ وتَحَيَّزَتْ على السبعةِ الأَفْلَاكِ أُنْمُلُهُ العَشْرُ
أَتَدْرُونَ مَنْ أزكىٰ البريةِ مَنْصِبًا وأفضلُهَا إِنْ عُدِّدَ البَدْوُ والحَضْرُ
تعالَوْا إلى حكامِ كُلِّ قبيلةٍ فَفِى الأَرْضِ أَقْيَالٌ وأنديَةٌ زُهْرُ
وَلاَ تَعْدِلُوا بالصِّيدِ مِنْ آلِ هاشمٍ ولا تَتْرُكوا فِهْرًا وَمَا جمعتْ فِهْرُ

فجيئوا بمَنْ ضمَّتْ لُؤَيُّ بنُ غالبٍ   وجيئوا بمن ضمَّتْ كنانَةُ والنَّضْرُ
ولا تَذَرُوا عُلْيَا مَعَدٍّ وعِزَّهَا   ليُعْرَفَ منكُمْ مَنْ لَهُ الحقُّ والأَمْرُ
ومِنْ عَجَبٍ أن اللسانَ جَرَى لَهُمْ   بذكرٍ عَلَى حينَ انْقَضَوْا وانْقَضَى الذِّكْرُ
فَبَادُوا وعَفَّى الله آثارَ مُلْكِهِمْ   فَلاَ خَبَرٌ تلقاهُ عنهُمْ ولا خُبْرُ
أَلاَ تلكمُ الأَرْضُ الأَرِيضَةُ أَصْبَحَتْ   وَمَا لِبَنِى العباسِ فى عُرْضِهَا فِتْرُ
فَقَدْ دَالَتِ الدُّنيَا لآلِ محمدٍ   وقدْ جرَّرَتْ أذيالَهَا الدولةُ البِكْرُ
وردَّ حقوقَ الطالبيِّينَ مَنْ زكَتْ   صنائِعُهُ فى آلِهِ وزكَا الذُّخْرُ
مُعِزُّ الهُدَىٰ والدينِ والرَّحِمِ التي   بِهِ اتَّصلَتْ أسبَابُهَا ولَهُ الشُّكْرُ
مَنِ انَتاشَهُمْ فى كلِّ شرقٍ ومغربٍ   فبُدِّلَ أَمْنًا ذَلِكَ الخَوْفُ والذُّعْرُ
وكُلُّ إمامِيٍّ يَجِيءُ كَأَنَّمَا   على يَدِهِ الشِّعْرَىٰ وَفى وجْهِهِ البَدْرُ
ولما تولَّتْ دولةُ النَّصْبِ عَنْهُمُ   تولَّى العَمَىٰ والجَهْلُ واللُّؤمُ والغَدْرُ
حقوقٌ أَتَتْ من دونِهَا أَعصُرٌ خَلَتْ   فَمَا رَدَّهَا دَهْرٌ عليهِمْ ولا عَصْرُ
فجرَّدَ ذو التَّاجِ المقاديرَ دونَهَا   كما جُرِّدَتْ بيضٌ مضارِبُها حُمْرُ
وأنقذَها مِنْ بُرْثُنِ الدهرِ بعدَمَا   تواكَلَها الفرْس المنيّب والهَصْرُ
وأجْرَى على ما أنزل اللّهُ قَسْمَهَا   فَلَمْ يَنْخَرِمْ فيهَا قليلٌ ولا كُثْرُ
فدونَكُمُ يَا آلَ بَيْتِ محمَّدٍ   صَفَتْ بمعزِّ الدِّينِ حَمْأَتُها الكُدْرُ
فقدْ صَارَتِ الدنيا إليكُمْ مَصِيرَهَا   وَصَار له الحمْدُ المُضَاعَفُ والأَجْرُ
إمامٌ رأيتُ الدينَ مُرْتَبِطًا بِهِ   فَطَاعَتُه فَوْزٌ وعِصْيَانه خُسْرُ
أرَىٰ مَدْحَهُ كالمدحِ لله إنَّه   قُنُوتٌ وَتَسْبِيحٌ يُحَطُّ به الوِزْرُ
هُوَ الوَارِثُ الدنيا وَمَنْ خُلِقَتْ لَهُ   مِنَ النَّاسِ حَتَّى يلتقى القطر والقَطْرُ
وما جَهِلَ المنصورُ فى المَهْدِ فَضْلَهُ   وقد لاحَتِ الأعْلاَمُ والسِّمة البُهْرُ
رَأَى أَنْ يُسَمَّى مالكَ الأرضِ كلِّها   فلمَّا رآه قَالَ ذَا الصَّمَدُ الوَتْرُ
وَمَا ذَاكَ أخذٌ بالفَرَاسَةِ وَحْدَهَا   وَلاَ أنه فِيها إلى النُّطْقِ مُضْطَرٌّ
ولكنْ مَرْجُوًّا مِنَ الأَثَرِ الذي   تَلَقَّاهُ عَنْ حَبْرٍ ضَنِينٍ به حَبْرُ
وكنْزًا مِنَ العِلْمِ الرُّبُوبِيِّ إنه   هوَ العِلْمُ حقًّا لا العِيَافَةُ والزَّجْرُ
فبشَّرْ به البيتَ المحرَّمَ عَاجِلاً   إذَا أَوْجَفَ التَّطْوَافُ بالناسِ والنَّفْرُ

وَهَا فَكَأَنْ قَدْ زارَهُ وتجانَفَتْ به عَنْ قصورِ المُلْكِ طيبة والسرُّ
هلِ البيتُ بَيْتُ الله إلاَّ حَرِيمُه وهَلْ لِغَريبِ الدارِ عَنْ دارِهِ صَبْرُ
مَنَازِلُهُ الأُولَى اللَّواتِى يَشُقْنَهُ فليْسَ له عنهنَّ مَعْدًى ولا قَصْرُ
وحيثُ تلقَّى جَدُّه القدسَ وانتحتْ لَهُ كلماتُ اللَّهِ والسرُّ والجَهْرُ
فإن يَتَمَنَّ البيتُ تلكَ فَقَدْ دَنَتْ مواكِبُها والعُسْرُ مِنْ بعدِه اليُسْرُ
ألستَ ابنَ بانِيهِ فلو جِئْتَهُ انجلَتْ غَوَاشِيهِ وابْيَضَّتْ مَنَاسِكُه الغُبْرُ
حبيبٌ إِلَى بطحاءِ مَكَّةَ موسِمٌ تحيى مَعَدًّا فيهِ مَكَّةُ والحِجْرُ
هناكَ تضيءُ الأرضُ نورًا وتلتقِى دُنُوًّا فلا يَسْتَبْعِد السَّفَرَ السَّفْرُ
وتُدْرَى فروضُ الحجِّ مِنْ نَافِلاَتِهِ ويَمْتَازُ عند الأمَّةِ الخَيْرُ والشَّرُّ
شهدتُ لَقَدْ أعززتَ ذَا الدِّينَ عِزَّةً خَشِيتُ لَهَا أن يَسْتَبِدَّ بكَ الكِبْرُ
وأمضيتَ عزمًا ليسَ يَعْصيكَ بَعْدَهُ مِنَ الناسِ إلا جَاهِلٌ بك مُغْتَرُّ
فلم يَبْقَ إلا البُرْدُ ترىٰ وَقَدْ نَأَىٰ عليكَ به أَقْصَى مَوَاعيدِه شَهْرُ
وما ضَرَّ مِصرًا حينَ ألقتْ قِيَادَهَا إِليك أمُدَّ النيلُ أم غَالَهُ الجَزْرُ
وقد حُبِّرتْ فيهَا لك الخُطَبُ التي بَدَائِعُهَا نَظْمٌ وألفَاظُهَا نَثْرُ
فلم يُهْتَرَقْ فيهَا لِذِى ذِمَّةٍ دَمٌ حَرَامٌ ولم يُحْمَلْ على مُسْلِمٍ إِصْرُ
غَدَا جَوْهَرٌ فيهَا غَمَامَةَ رَحْمَةٍ يَقِى جَانِبَيْهَا كُلَّ حادثةٍ تَعْرُو
كأَنِّى به قَدْ سَارَ فى القومِ سِيرَةً سَواء إِذَا ما حَلَّ فى الأرضِ وَالْقَطْرُ
ومن أين تَعْدُوهُ وسيلةُ مِثْلِهَا وقَدْ قُلِّصتْ فى الحربِ عن ساقِه الأُزْرُ
وثَقَّفَ تثقيفَ الرُّدَيْنِيِّ قَبْلَهَا وما الطَّرْفُ إلا أن يُهَذِّبَهُ الضُّمْرُ
وليسَ الذى يأتى بأوَّلِ مَا كَفَىٰ فَشُدَّ بِهِ مُلْكٌ وَسُدَّ بِه ثَغْرُ
فمـا بمَدَاهُ دُونَ عِزٍّ تخلُّفٌ وما بِخُطَاه دونَ صَالِحَةٍ بَهْرُ
سننتَ لَهُمْ فيه من العَدْلِ سُنَّةً هِىَ الآيَةُ الكبرىٰ وبُرْهَانها السِّحْرُ
على مَا خلا من سنةِ الوَحْيِ مَا خَلا فَأَذْيَالُهَا تَضْفُو عليهِمْ وتَنْجَرُّ
وأوصيتَهُ فيهم بِرفْقِكَ مُرْدِفًا بجودِكَ معقودًا بِهِ عندَكَ البِرُّ
وَصَاةً كما أوصَىٰ بِهِ اللَّهُ رُسْلَهُ ولَيْسَ بأُذْنٍ أنتَ مُسْمِعُهَا وَقْرُ
وثبَّتَّهَا بالكُتْبِ فِى كُلِّ مُدْرَجٍ كَأَنَّ جميعَ الخيرِ فى طَيِّه سَطْرُ

يَقُولُ رجالٌ شاهَدُوا يومَ حُكْمِهِ   بِذَا تَعْمُرُ الدنيا وَلَوْ أنَّها قَفْرُ
بذَا لا ضِيَاعٌ حَلَّلُوا حرماتِهَا   وَأَقْطَاعَها واسْتُصْفِيَ السَّهْلُ والوَعْرُ
فحسْبُكُمُ يَا أهلَ مِصْرٍ بعَدْلِهِ   دليلًا على العَدْلِ الذى عنه يَفْتَرُّ
فذاكَ بيَانٌ واضحٌ عن خليفةٍ   كثيرُ سِوَاهُ عند مَعْرُوفه نَزْرُ
رَضِينَا لَكُمْ يا أهل مصرٍ بِدَوْلَةٍ   أطيلَ لَنَا فى ظلِّها الأمْنُ والوَفْرُ
لَكُمْ أسْوَةٌ فينا قديمًا فلَمْ يَكُنْ   بأحوالِنَا عنكُمْ غِطَاءٌ ولاَ سِتْرُ
وهَلْ نحنُ إلاَّ مَعْشَرٌ من عُفَاتِهِ   لَنَا الصافِنَاتُ الجُرْدُ والعَسْكرُ الدَّثْرُ
فكيفَ مَوَالِيهِ الذِينَ كأنَّهُمْ   سَمَاءٌ على العافِينَ أمْطَارُها التِّبْرُ
لَبِثْنَا به أيَّامَ دهرٍ كَأنَّمَا   بِهَا وَسَنٌ أوْ مَالَ مَيْلًا بها السُّكْرُ
فيا مَلِكًا هَدْيُ المَلاَئِكِ هَدْيُه   ولكنَّ بَحْرَ الأنْبياءِ لَهُ بَحْرُ
ويا رَازِقًا من كفِّهِ نَشَأَ الحَيَا   وإلاَّ فَمِنْ أسْرَارِهِ يَنْبُعُ البَحْرُ
ألاَ إنَّمَا الأيَّامُ أيامُكَ التى   لِيَ الشَّطْرُ من نَعْمَائِها وَلَكَ الشَّطْرُ
لَكَ الشَّطْرُ منها مَالِكَ المَجْدِ والعُلاَ   وَيَبْقَى لَنَا مِنْهَا الحَلُوبَةُ والدَّرُّ
لقَدْ جدتَّ حَتَّىٰ لَيْسَ لِلمَالِ طَالِبٌ   وأعطَيْتَ حَتَّى ما لمُنْفِسة قَدْرُ
فلَيْسَ لِمَنْ لا يرتَقِى النجمَ هِمَّةٌ   وليسَ لِمَنْ لاَ يَسْتَفِيدُ الغِنَى عُذْرُ
وَدِدتُّ لجيلٍ قد تقدَّم عصرهُمْ   لَوِ استأخَرُوا فى حَلْبَةِ العُمْرِ أو كَرُّوا
وَلَوْ شَهِدُوا الأيامَ والعَيْشُ بَعْدَهُمْ   حَدَائِقُ والآمَالُ مُونِقَةٌ خُضْرُ
فَلَوْ سَمِعَ التثويبَ مَنْ كَانَ رِمَّةً   رُفَاتًا وَلَبَّى الحَيَّ مَنْ ضَمَّهُ القَبْرُ
لَنَادَيْتُ مَنْ قَدْ مَاتَ حَى بِدَوْلَةٍ   تُقَامُ بِهَا المَوْتَى وَيُرْتَجَعُ العُمْرُ

انتهت

قلت: قوله « بنى نتلة » يشير إلى بنى العباس؛ لأن نتلة أم العباس، وقد أفحش فرمى بنى العباس بالكفر والرق والعبودية !! فلا قوةَ إلا بالله.

وكان هذا – محمد بن هانئ – شاعرًا محبوبًا مقربًا عند المعز، استصحبه معه من بلاد القيروان وتلك النواحى حين توجه إلى الديار المصرية، فلما كان ببعض الطريق وُجد محمد بن هانئ مقتولاً مجدلاً على حافة البحر، وذلك فى رجب، وقد كان شاعرًا مطبقًا، قوى النظم؛ إلا أنه كفره غير واحد من العلماء فى مبالغاته فى مدائحه

للمعز خصوصًا. فمن ذلك قوله فيه - قبحهما الله تعالى: [من الكامل]

مَاشِئْتَ لاَ مَا شَاءَتِ الأَقْدَارُ فَاحْكُمْ فَأَنْتَ الوَاحِدُ القَهَّارُ

وهذا خطأ كثير، وكفر كبير. وقال - أيضًا - قبحه الله وأخزاه وفض فاه: [من مجزوء الكامل]

وَلَطَالَمَا زَاحَمْتَ تَحْـ ـتَ رِكَابِهِ جِبْرِيلاَ

ومن ذلك قوله، قال ابن الأثير: ولم أر ذلك فى ديوانه: [من مخلع البسيط]

حَلَّ بِرقَّادَةَ المَسِيحُ حَلَّ بِهَا آدَمٌ وَنُوحُ

حَلَّ بِهَا اللهُ ذُو المَعَالِي فَكُلُّ شَيْءٍ سِوَاهُ رِيحُ

قال ابن الأثير: وقد شرع بعض المتعصبين له فى الاعتذار عنه؛ قال العلامة ابن السبكى فى تاريخه: وهذا الكلام - إن صح عنه - فليس عنه اعتذار، لا فى الدار الآخرة، ولا فى هذه الدار.

قال فى « الأرج المسكى »: فصارت الخطبة الإسلامية على قسمين، فمن بغداد إلى حلب وسائر ممالك الشرق إلى أعمال الفرات يُخطب فيها للمطيع العباسى، ومن حلب إلى بلاد المغرب مع الحرمين الشريفين يخطب فيها للمعز العُبَيدى هذا.

وتوفى المعز فى شهر ربيع الآخر سنة خمس وستين وثلاثمائة. ثم قام من بعده ابنه نزار[1] الملقب بالعزيز ابن المعز الفاطمى العبيدى، بويع بعد موت أبيه المعز، وقام بتدبيره القائد جوهر غلام والده، وكان يدعى التنجيم فكتب له: [من مخلع البسيط]

بِالظُّلْمِ والجَوْرِ قَدْ رَضِينَا وَلَيْسَ بِالْكُفْرِ والحَمَاقَهْ

إِنْ كُنْتَ أُعْطِيتَ عِلْمَ غَيْبٍ بَيِّنْ لَنَا كَاتِبَ البِطَاقَهْ

كان العزيز هذا قد استوزر رجلين، أحدهما نصرانى اسمه « عيسى بن نسطورس »، والآخر يهودى اسمه « ميشا » فعز بسببهما أهل تينك الملتين فى ذلك

(١) ينظر [العزيز بالله] فى: خطط المقريزى ١/ ٣٤٥، العبر للذهبى ٣/ ٣٤، شذرات الذهب ٣/ ١٢١، المختصر فى أخبار البشر ٢/ ١٣١، تاريخ ابن الوردى ١/ ٢١٣، سير أعلام النبلاء ١٦/ ١٦٧ - ١٧٣، تاريخ الزمان لابن العبرى ٧٣، ذيل تاريخ دمشق ٤٤، المنتظم ٧/ ١٩٠، مرآة الجنان ٢/ ٤٣٠، البداية والنهاية ١١/ ٣٢٠، الدرة المضية ٢٣٨، الكامل لابن الأثير ٩/ ١١٦، النجوم الزاهرة ٤/ ١١٢، وفيات الأعيان ٥/ ٣٧١ - ٣٧٦، تاريخ ابن خلدون ٤/ ٥١ .

الزمان على المسلمين، حتى كتبت إليه امرأة قصة فى حاجة فقالت فيها: بالذى أعز النصارى بعيسى بن نسطورس واليهود بميشا، وأذل المسلمين بك !! إلا ما كشفت عن ظلامتى، فعند ذلك أمر بالقبض عليهما، وأخذ من النصرانى ثلاثمائة ألف دينار[١]، كذا ذكره ابن السبكى رحمه الله تعالى.

قال ابن خلكان[٢]: أكثر أهل العلم [بالنسب][٣]لا يصححون نسب المهدى عبيد الله جد خلفاء مصر؛ حتى إن هذا العزيز فى أول ما تولى صعد المنبر يوم الجمعة، فوجد هنالك ورقة مكتوبًا فيها هذه الأبيات: [من السريع]

إِنَّا سَمِعْنَا نَسَبًا مُنْكَرًا ... يُتْلَىٰ عَلَى المِنْبَرِ فى الْجَامِعِ
إِنْ كُنْتَ فِيمَا تَدَّعِى صَادِقًا ... فَاذْكُرْ أَبًا بَعْدَ الأَبِ السَّابِعِ[٤]
وَإِنْ تُرِدْ تَحْقِيقَ مَا قُلْتَهُ ... فَانْسُبْ لَنَا نَفْسَكَ كَالطَّائِعِ
أَوْ لاَ دَعِ الأَنْسَابَ مَسْتُورَةً ... وَادْخُلْ بِنَا فِى النَّسَبِ الوَاسِعِ
فَإِنَّ أَنْسَابَ بَنِى هَاشِمٍ ... يَقْصُرُ عَنْهَا طَمَعُ الطَّامِعِ

وتوفى العزيز فى رمضان سنة ست وثمانين وثلاثمائة، فكانت مدته إحدى وعشرين سنة. ثم قام بعده ابنه منصور الملقب بالحاكم بأمر الله[٥]، بويع بعد موت أبيه، وهو صاحب الجامع الذى هو داخل باب النصر فى القاهرة، وكان أول أمره خيرًا، ولما كبر عبد الكواكب، وفعل فى حكوماته ما يضحك منه الصبيان من المهملات والقبائح، واستمر إلى أن عملت أخته على قتله فقتل.

قال ابن خلكان فى تاريخه « وفيات الأعيان »[٦] فى ترجمة الحاكم بأمر الله: كان

---

(١) ينظر: المنتظم ٧/ ١٩٠، تاريخ الإسلام وفيات سنة ست وثمانين وثلاثمائة ص ١٣٠ .
(٢) ينظر: وفيات الأعيان لابن خلكان ٥/ ٣٧٣ .
(٣) المثبت من وفيات الأعيان .
(٤) وفى بعض نسخ الوفيات: الرابع .
(٥) ينظر [الحاكم بأمر الله] فى: شذرات الذهب ٣/ ١٩٢، النجوم الزاهرة ٤/ ١٧٦ - ١٩٦، حسن المحاضرة ٢/ ١٣، تاريخ الخلفاء ٤١٥، الجوهر الثمين ٢٥١، صبح الأعشى ٣/ ٤٢٦ - ٤٢٧، تاريخ ابن خلدون ٤/ ٥٦ - ٦١، اتعاظ الحنفا ٢/ ٣ -- ١٢٣، مرآة الجنان ٣/ ٢٥، البداية والنهاية ١٢/ ٩ - ١١، دول الإسلام ١/ ٢٤٥، تاريخ ابن الوردى ١/ ٣٣٢ - ٣٣٣، سير أعلام النبلاء ١٥/ ١٧٣، وفيات الأعيان ٥/ ٢٩٢، ذيل تاريخ دمشق ٧٩، المنتظم ٧/ ٢٩٣ - ٣٠٠ .
(٦) ينظر: وفيات الأعيان لابن خلكان ٥/ ٢٩٧ .

له حمار أشهب، يدعى بـ« قمر » يركبه، وكان يحب الانفراد والركوب وحده، فخرج راكبًا حماره ليلة الإثنين رابع عشر شوال سنة إحدى عشرة وأربعمائة إلى ظاهر مصر، وطاف ليله كله، وأصبح متوجهًا إلى شرق حلوان، ومعه ركابيان؛ فأعاد أحدهما ثم أعاد الآخر، وبقى الناس يخرجون يلتمسون رجوعه، ومعهم دواب الموكب إلى يوم الأحد سلخ الشهر المذكور، ثم خرج ثانى القعدة جماعة[١] من الموالى والأتراك، فأمعنوا فى طلبه، وفى الدخول فى الجبل، فرأوا الحمار الأشهب الذى كان يركب عليه وهو على قرنة الجبل، وقد ضربت يداه بسيف وعليه سرجه ولجامه، فتبعوا الأثر إلى البركة التى فى شرقى حلوان، فنزل فيها رجل فوجد فيها ثيابه وهى سبع جبّات، ووجدت مزررة لم تحل أزرارها وفيها أثر السكاكين، فحملت إلى القصر ولم يشكوا فى قتله، غير جماعة من الغالين فى حبهم له، السخيفين عقولاً؛ يظنون حياته وأنه سيظهر، ويحلفون بغيبة الحاكم.

وكان الحاكم جوادًا بالمال، سفاكًا للدماء، وكانت سيرته عجبًا، يخترع كل يوم حكمًا يحمل الناس عليه؛ فمن ذلك أنه أمر الناس فى سنة خمس وتسعين وثلاثمائة بكتب سب الصحابة - رضى الله تعالى عنهم - فى حيطان المساجد والقناطر والشوارع، وكتب به إلى سائر البلدان من الديار المصرية، ثم أمر بقطع ذلك سنة سبع وتسعين وثلاثمائة، وأمر بضرب من سب الصحابة وتأديبه، وأمر بقتل الكلاب؛ فلم ير كلب فى الأسواق والأزقة إلا قتل، ونهى عن بيع الفقاع والملوخيا، ونهى عن بيع الزبيب قليله وكثيره، وجمع جملة كثيرة منه فأنفق على إحراقها ما يساوى خمسمائة دينار، ثم منع من بيع العنب أصلاً، وألزم اليهود والنصارى أن يتميزوا فى لباسهم عن المسلمين فى الحمامات وخارجها، ثم أفرد حمامًا لليهود وحمامًا للنصارى، وألزمهم ألا يركبوا أشياء من المراكب المحلاة، وأن تكون ركبهم الخشب، ولا يستخدموا أحدًا من المسلمين، ولا يركبوا حمارًا لمكار مسلم، ولا سفينة نوتيها مسلم[٢].

وفى سنة خمس وأربعمائة منع النساء من الخروج من المنازل أو يطلعن من

---

(١) ذكر ابن خلكان بعض أسمائهم فى وفيات الأعيان (٥/ ٢٩٧) .

(٢) ينظر المواعظ والاعتبار ٢/ ٢٨٦، النجوم الزاهرة ٤/ ١٧٧، وفيات الأعيان ٥/ ٢٩٣ .

الأسطحة والطاقات، ومنع الخفافين من عمل الخفاف لهن، ومن الخروج إلى الحمامات، وقتل خلقًا منهن على مخالفة ذلك، وهدم بعض الحمامات عليهن، وجهز عجائز يطفن فى البيوت يستعلمن أحوال النساء من منهن تعشق أو تعشق بأسمائهن وأسماء من يعترض لهن، وأكثر من الدوران بالليل، وغرق من اطلع على فسقه من الرجال والنساء، فضاق النطاق عليهن وعلى الفساق، ولم يتمكن أحد منهم أن يصل إلى أحد إلا نادرًا؛ حتى إن امرأة نادت قاضى القضاة بالديار المصرية، وهو مالك بن سعد الفارقى، وحلفته بحقِّ الحاكم لما وقف لها فاستمع كلامها؛ فوقف لها فبكت بكاء شديدًا وقالت: إن لى أخًا ليس لى غيره وهو فى السياق، وأنا أسألك لما وصلتنى إلى منزله لأنظر إليه قبل أن يفارق الدنيا، فرق لها القاضى رقةً شديدةً، وأمر رجلين معه أن يكونا معها حتى يبلغاها إلى المنزل الذى تريده، فأغلقت بابها وأعطت المفتاح جارتها، وذهبت حتى وصلت مع الرجلين إلى منزل فطرقت الباب ودخلت، وقالت لهما: اذهبا راشدين، فإذا هو منزل رجل تهواه ويهواها، فأخبرته بما احتالت به على القاضى، فأعجبه ذلك، وجاء زوجها آخر النهار فوجد بابه مغلقًا، فسأل عن أمرها فذكر له ما صنعت، فاستغاث على القاضى وذهب إليه وقال: ما أريد امرأتي إلا منك؛ فإنها ليس لها أخ بالكلية، وإنما ذهبت إلى عشيقها؛ فخاف القاضى من معرة هذا الأمر، فركب إلى الحاكم وبكي لديه، فسأله عن شأنه، فأخبره بما اتفق من الأمر، فأرسل الحاكم مع الرجلين من يحضر الرجل والمرأة جميعًا على أى حال كانا عليه، فوجدوهما متعانقين سكرانين، فسألهما القاضى عن حالهما، فأخذا يعتذران بما لا يجدى، فأمر بتحريق المرأة فى بارية، وضرب الرجل بالسياط ضربًا مبرحًا. وازداد احتياط الحاكم على النساء حتى مات. ذكر هذا ابن الجوزى فى « المنتظم »[1]. وأمر بهدم القمامة وجميع الكنائس بالديار المصرية، ووهب جميع ما فيها من الآلات، وجميع ما لها من الأحباس لجماعة من المسلمين، وأمر ألا يتكلم أحد فى صناعة النجوم، وأن ينفى المنجمون من البلاد، وكذلك أصحاب الغناء. ثم أمر ببناء ما كان هدمه من الكنائس، ورد ما كان أخذه من أحباسها. انتهى.

---

(١) ينظر: المنتظم لابن الجوزى ٧/٢٦٨ - ٢٧٠ .

حلوان: مدينة كثيرة النزه فوق مصر بمقدار خمسة أميال، كانت مسكن عبد العزيز بن مروان والد عمر بن عبد العزيز، وبها ولد عمر رضى الله تعالى عنه.

وقال العلامة السبكى فى تاريخه عند ذكر الحاكم: ولنذكر شيئًا من صفاته القبيحة، وسيرته الملعونة، أخزاه الله ولا وقاه شرًّا:

كان - قبحه الله - كثير التلون فى أفعاله وأقواله، جائرًا فى كيفية بلوغ ما يؤمله؛ لأنه كان يروم أن يدعي الألوهية كما ادعاها قارون فى زمن موسى عليه الصلاة والسلام، فكان قد أمر الرعية إذا ذكره الخطيب على المنبر أن تقوم الناس على أقدامهم صفوفًا؛ إعظامًا لذكره واحترامًا لاسمه !! فكان هذا يفعل فى سائر ممالكه حتى فى الحرمين الشريفين، وكان أهل مصر على الخصوص إذا قاموا خروا سجدًا، حتى إنه يسجد بسجودهم من فى الأسواق من الرعاع وغيرهم، وابتنى المدارس وجعل فيها الفقهاء والمشايخ، ثم قتلهم وخربها. وألزم الناس بإغلاق الأسواق والدكاكين نهارًا وفتحها ليلاً، فامتثلوا ذلك دهرًا طويلاً، حتى اجتاز مرة بشيخ يعمل النجارة فى أثناء النهار فوقف عليه وقال: ألم أنهكم عن هذا ؟ فقال: يا سيدى أما كان الناس يسهرون لما كانوا يتعيشون بالنهار ؟ فهذا من جملة السهر. فتبسم وتركه، وأعاد الناس إلى أمرهم الأول. وكل هذا منه تغيير للرسوم، واختبار لطاعة العامة، ليرقى إلى ما هو أهم من ذلك لعنه الله.

وقد كان يعمل الحسبة بنفسه؛ يدور فى الأسواق على حماره فمن وجده قد عثر فى معيشته أمر عبدًا أسود معه يقال له مسعود أن يفعل به الفاحشة العظمى، وهذا أمر منكر ملعون لم يسبق إليه - لعنه الله - وكانت العامة يبغضونه ويكتبون له الأوراق التى فيها الشتيمة البليغة له ولأسلافه وحريمه فى صورة قصص، فإذا قرأها ازداد حنقًا عليهم، حتى إن أهل مصر حملوا صورة امرأة من ورق بخفها وإزارها وفى يدها قصة فيها من الشتم والقبائح شيء كثير، فلما رآها ظنها امرأة فذهب من ناحيتها وأخذ القصة من يدها فقرأها؛ فرأى ما فيها فأغضبه جدا وأمر بقتل تلك المرأة، فلما تحققها من ورق ازداد غيظًا على غيظه ثم لما وصل إلى القاهرة أمر العبيد من السودان أن يذهبوا إلى مصر فيحرقوها، وينهبوا ما فيها من الأموال والحريم، فذهب العبيد فامتثلوا ما أمرهم به فقاتلهم أهل مصر قتالاً عظيمًا ثلاثة أيام، والنار تعمل فى

الدور والحرم، وفى كل يوم يخرج بنفسه - لعنه الله - فيقف من بعيد ويبكى ويقول: من أمر هؤلاء العبيد بهذا ؟ ! ثم اجتمع الناس فى الجوامع فرفعوا المصاحف، وجأروا إلى الله تعالى واستغاثوا به، فرق لهم الترك والمشارقة وانحازوا إليهم؛ فقاتلوا معهم عن حريمهم ودورهم السودان وتفاقم الحال جدًا. ثم ركب الحاكم ففصل بين الفريقين، وكف العبيد عنهم، وكان يظهر التنصل من القضية، وأن العبيد ارتكبوا ذلك عن غير علمه، وهو ينفذ إليهم السلاح ويحثهم على ذلك فى الباطن، وما انجلى الحال حتى احترق من مصر نحو ثلثها، ونهب قريب من نصفها، وسبي حريم خلق كثير ففعل بهن الفواحش والمنكرات، حتى إن منهن من قتلت نفسها خوفًا من العار والفضيحة، واشترى الرجال من سبي لهم من النساء والحريم من أيدى العبيد[١]. انتهى ما قاله ابن السبكى.

وقَالَ ابن الجوزى فى كتابه « المنتظم، فى ذكر الأمم[٢]، من العرب والعجم »: ثم زاد ظلم الحاكم وعنَّ له أن يدعي الربوبية، فصار قوم من الجهال إذا رأوه يقولون: يا واحد يا أحد، يا محيي يا مميت !! وكان قد تعدى شره الناس حتى إلى أخته؛ يتهمها بالفاحشة ويسمعها أغلظ الكلام؛ فتبرمت منه، وعملت على قتله، فراسلت فيه أكبر الأمراء، وكان يقال له: ابن دواس، فتوافقت هى وهو على قتله فواطأها على ذلك، وجهز من عنده عبدين أسودين فقال لهما: إذا كانت الليلة الفلانية فكونا بجبل المقطم، ففى تلك الليلة يكون الحاكم هناك فى الليل ينظر فى النجوم، وليس معه إلا ركابى وصبى، فاقتلاه واقتلاهما معه. واتفق الحال على ذلك وتقرر، فلما كانت تلك الليلة قال الحاكم: لا بد أن فى هذه الليلة علي قطعًا عظيمًا؛ فإن نجوت منه عمرت نحوًا من ثمانين سنة، فقالت له أمه: يا مولاى، فإذا كان الأمر كما تقول، فارحمنى ولا تترك ليلتك هذه إلى موضع أصلاً. وكان من عادته أن يدور حول القصر كل ليلة، فدار ثم عاد إلى القصر فنام إلى قريب ثلث الليل الأخير، فاستيقظ وقال: إن لم أركب الليلة فاضت نفسى؛ فثار وركب فرسًا وتبعه صبى وركابى حتى صعد جبل المقطم، فاستقبله ذانك العبدان فأنزلاه عن

---

(١) ينظر: سير أعلام النبلاء ١٥/ ١٨٠ - ١٨١ .

(٢) ينظر: المنتظم لابن الجوزى ٧/ ٢٩٧ - ٣٠٠ .

مركوبه وقطعا يديه ورجليه وبقرا بطنه، وأتيا به مولاهما، فحمله إلى أخته فدفنته في مجلس دارها، واستدعت الأمراء والأكابر والوزير، وقد أطلعته على الحيلة، فبايعته لولد الحاكم أبى الحسن على، ولقب بالظاهر لإعزاز دين الله.

وكان بدمشق فاستدعته، وجعلت تقول للناس: إن الحاكم قال لى: إنه يغيب سبعة أيام ثم يعود، فاطمأن الناس بذلك، وجعلت ترسل ركابين يصعدون الجبل ويجيئون فيقولون: تركناه فى الموضع الفلانى، ويقول الذين من بعدهم تركناه فى موضع كذا وكذا حتى اطمأن الناس وقدم ابنه، فحين وصل ألبسته تاج جد أبيه المعز، وحلته حلية عظيمة، فأجلسته على السرير فبايعه الأمراء والرؤساء، وأطلقت لهم الأموال الجزيلة، وخلعت على ابن دواس خلعة سنية هائلة، وعملت عزاء أخيها ثلاثة أيام، ثم أرسلت إلى ابن دواس طائفة من الجند ليكونوا بين يديه بسيوفهم؛ وقوفًا فى خدمته، ثم أمرتهم فى بعض الأيام أن يقولوا له: أنت قاتل مولانا ثم يهتبرونه بسيوفهم، ففعلوا ذلك، وقتلت كل من اطلع على سرها فى قتل أخيها، فعظمت هيبتها، وقويت حرمتها، وثبتت دولتها؛ فإنها هى التى كانت متولية الأمور لدولة ابن أخيها[1].

وكان عمر الحاكم حين قتل سبعًا وثلاثين سنة، وكان قتله سنة إحدى عشرة وأربعمائة، ومدة ملكه خمسًا وعشرين سنة، لعنه الله وقبحه.

وفى ربيع الآخر من سنة اثنتين وأربعمائة فى دولة الحاكم المذكور، كتبت ببغداد محاضر تتضمن اللعن والقدح فى نسب الخلفاء المصريين الذين يزعمون أنهم فاطميون وليسوا كذلك، وكتب فى ذلك جماعة من العلماء والقضاة والفقهاء والأشراف والأماثل والمعدّلين والصالحين، شهدوا جميعًا أن الناجم، وهو منصور ابن نزار الملقب بالحاكم بأمر الشيطان لا بأمر الله - حكم الله عليه بالبوار والدمار، والخزى والنكال والاستئصال، ابن معد بن إسماعيل بن محمد القائم ابن سعيد، لا أسعده الله؛ فإنه لما صار إلى المغرب تسمَّى بعبيد الله، وتلقب بالمهدى، ومن تقدم من سلفه من الأرجاس والأنجاس - عليه وعليهم لعنة الله ولعنة اللاعنين - أدعياء خوارج، لا نسب لهم فى ولد عليّ بن أبى طالب - رضى الله تعالى عنه - ولا

---

(١) ينظر: المنتظم ٧/ ٢٩٧ - ٣٠٠، سير أعلام النبلاء ١٥/ ١٨٢ .

يتعلقون منه بسبب، وأنه منزه عن أباطيلهم، وأن الذى ادعوه باطل وزور. وأنهم لا يعلمون أحدًا من أهل بيوتات الطالبيين توقف فى إطلاق القول فى هؤلاء، وأنهم الخوارج، وأنهم أدعياء.

وقد كان هذا الإنكار لباطلهم شائعًا فى الحرمين، وفى أول أمرهم بالمغرب، منتشرًا انتشارًا يمنع من أن يدلس على أحد كذبهم أو يذهب وَهْمٌ إلى تصديقهم، وإن هذا الناجم بمصر هو وسلفه كفار وفساق فجار، ملحدون زنادقة معطلون، وللإسلام جاحدون، ولمذهب الثنوية والمجوسية معتقدون، قد عطلوا الحدود، وأباحوا الفروج، وأحلوا الخمور، وسفكوا الدماء، وسبوا الأنبياء، ولعنوا السلف، وادعوا الربوبية.

وقد كتب خطه فى المحضر خلق كثير:

فمن العلويين: المرتضي، والرضى، وابن الأزرق الموسوي، وأبو طاهر بن أبى الطيب، ومحمد بن محمد بن عمرو بن أبى يعلى. ومن القضاة: أبو محمد القناتى، وأبو القاسم الحمزوى، وأبو العباس بن السورى. ومن الفقهاء: الإمام أبو حامد الإسفراييني، وأبو محمد بن الكشفلى، وأبو الحسين القدورى، وأبو عبد الله الصيمرى، وأبو عبد الله البيضاوى، وأبو على بن حكمان. ومن الشهود: أبو القاسم التنوخى فى كثير، وقُرِئ بالبصرة، وكتب فيه خلق كثير. هذه عبارة الشيخ أبى الفرج بن الجوزى(١)، رحمه الله تعالى.

ثم قام من بعده ولده علي الملقب بالظاهر لإعزاز دين الله(٢)، وكني بأبى هاشم، بويع بعد قتل أبيه وهو ابن ست عشرة سنة، وقامت عمته بتدبير ملكه أحسن قيام - كما تقدم ذكره - إلى أن ماتت، فحذا حذوها، وحسنت أيامه وسيرته. إلى أن طمع الناس فيه لصغر سنه، وتغلب صاحب الرملة حسان بن مفرَج البدرى على أكثر بلاد الشام. وتضعضعت دولة الظاهر إلى أن توفى يوم الأحد منتصف شعبان سنة سبع

(١) ينظر المنتظم لابن الجوزى ٧/ ٢٥٥ - ٢٥٧ .

(٢) ينظر [الظاهر العبيدى] فى: شذرات الذهب ٣/ ٢٣١ - ٢٣٢ ، حسن المحاضرة ٢/ ١٤ ، النجوم الزاهرة ٤/ ٢٤٧ ، اتعاظ الحنفا ٢/ ١٢٤ ، المواعظ والاعتبار ١/ ٣٥٤ ، تاريخ ابن خلدون ٤/ ٦١ ، البداية والنهاية ١٢/ ٣٩ ، الجوهر الثمين ٢٥٣ ، الدرة المضية ٣٣٩ ، تاريخ ابن الوردى ١/ ٣٤٢ ، سير أعلام النبلاء ١٥/ ١٨٤ - ١٨٦ ، دول الإسلام ١/ ٢٥٤ ، العبر ٣/ ١٦٢ ، نهاية الأرب ٢٣/ ٢٢٠ ، وفيات الأعيان ٢/ ٤٠٧ - ٤٠٨ ، الكامل لابن الأثير ٩/ ٤٤٧ .

وعشرين وأربعمائة، وله من العمر ثلاث وثلاثون سنة، وكانت مدة ولايته ستة عشر عامًا وتسعة أشهر.

ثم قام بالأمر بعده ابنه معد المُكَنَّى أبا تميم، الملقب بالمستنصر[١]- بسين الاستفعال - ابن الظاهر وعمره سبع سنين، وتكفل بأعباء المملكة بين يديه الأفضل، أمير الجيوش، بدر بن عبد الله الجمالى. بويع يوم موت أبيه وهو ابن سبع سنين وسبعة وعشرين يومًا، وبقي فى الخلافةستين سنة وأربعة أشهر، ولا يعلم فى الإسلام خليفة ولا سلطان أقام فى الملك هذه المدة[٢] والمستنصر هذا هو الذى خطب له البساسيرى على منابر بغداد، وهذا شيء لم يقع لأحد من آبائه.

وفى أيامه وقع الغلاء العظيم بمصر، حتى إن الكلب بيع بخمسة دنانير ليؤكل، والقط بثلاثة دنانير، وضعفت الناس من شدة الجوع؛ حتى إن الكلب يدخل إلى بيت الشخص فيأكل ولده وليس له قدرة على النهوض إلى دفعه، وكان بمصر حارة تعرف بحارة « الطبق » وفيها عشرون دارًا، كل دار تساوى أكثر من ألف دينار فبيعت كلها بطبق خبز؛ كل دار منها برغيف !!.

قال ابن الجوزى فى « المنتظم »[٣]: خرجت امرأة وَمَعَهَا قدر ربع من جوهر، فقالت: من يأخذ منى هذا الجوهر ويعطينى عوضه برًا ؟ فلم تجدْ مَنْ يأخذه مِنْهَا بذلك، فَقَالَتْ: إِذَا لم ينفعْنى وقت الحاجة فلا حاجة لى به، فألقته على الأرض وانصرفت، فالعجب ما كان له من يلقطه. وأخرج المستنصر جميع الذخائر فباعها، يقال: إنه باع فى هذا الغلاء ثمانين ألف قطعة من أنواع الجواهر المثمنة، وخمسة وسبعين ألف قطعة من أنواع الديباج المنسوج بالذهب، وعشرين ألف سيف محلى، وأحد عشر ألف دار، وافتقر الخليفة حتى لم يبق له إلا سجادة تحته وقبقاب فى رجله،

---

(١) ينظر [المستنصر العبيدى] فى: شذرات الذهب ٣/ ٣٨٢، حسن المحاضرة ٢/ ١٤، النجوم الزاهرة ٥/ ١٤٠، اتعاظ الحنفا ٢/ ٣٣٢، المواعظ والاعتبار ١/ ٣٥٥، الجوهر الثمين ٢٥٤، البداية والنهاية ١٢/ ١٤٨، مرآة الجنان ٣/ ١٤٥، الدرة المضيّة ٤٤١، تاريخ ابن الوردى ٢/ ٧، العبر للذهبى ٣/ ٢١٥، دول الإسلام ٢/ ١٥، المختصر فى أخبار البشر ٢/ ٢٠٥، نهاية الأرب ٢٨/ ٢٤٠ - ٢٤٣، وفيات الأعيان ٥/ ٢٢٩ - ٢٣١ .

(٢) ينظر: وفيات الأعيان ٥/ ٢٢٩ .

(٣) هذا وهم من المصنف لأن هذا الخبر ورد فى مرآة الزمان لسبط بن الجوزى وليس لابن الجوزى صاحب المنتظم .

فصار إذا نزل للصلاة يستعير بغلة الديوان حتى يركبها، ومات معظم الناس جوعًا[١].

قال ابن الجوزى فى « المنتظم »[٢]: فى سنة اثنتين وستين وأربعمائة فى ولاية المستنصر كان غلاء شديد، وقحط عظيم بديار مصر؛ بحيث إنهم أكلوا الجيف والميتات والكلاب، وأفنيت الدواب. فلم يبق لصاحب مصر فرس بعد العدد الكثير، ونزل الوزير يومًا عن بغلته فغفل عنها الغلام لضعفه من الجوع، فأخذها ثلاثة نفر فذبحوها وأكلوها، فأخذوا وصلبوا، فأصبحوا وعظامهم بادية على ما صلبوا عليه، قد أكل الناس لحومهم !! وظهر على رجل يقتل الصبيان والنساء، ويدفن رءوسهم وأطرافهم، ويبيع لحومهم؛ فقتل.

وفيها ضاقت يد شريف مكة محمد بن أبى هاشم بن فليتة، فأخذ الذهب من أستار الكعبة والميزاب والباب فضرب ذلك دراهم ودنانير، وكذلك فعل صاحب المدينة بالقناديل التى فى الحجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام.

وقبلها فى سنة خمسين وأربعمائة كانت فتنة البساسيرى، وهو أرسلان التركى - قبحه الله تعالى - وذلك أنه عزم على أن يسير إلى بغداد ويأخذها من صاحبها الخليفة العباسى المسمى بالقاهر بن القادر، ويخطب فيها للمستنصر الفاطمى، فركب البساسيري ومعه قريش بن بدران أمير العرب إلى الموصل، فأخذها وأخرب قلعتها؛ فانزعج الناس لذلك، واضطربت بغداد، وأرجف الناس بأن البساسيرى عازم على قصد بغداد، وأنه قرب من الأنبار، وتفرق الجيش من بغداد، إلى نواحى همذان والأهواز، وبقيت بغداد وليس بها أحد من المقاتلة، فعزم الخليفة القائم بأمر الله على الرحيل من بغداد إلى غيرها وليته فعل، ثم أحب داره والمقام مع أهله فلبث فيها اغترارًا، ولما خلا البلد من المقاتلة قيل للناس: من أراد الخروج فليذهب إلى حيث شاء؛ فانزعج الناس وبكى الرجال والنساء والأطفال، وعبر كثير من الناس إلى الجانب الغربى، وبلغت المعبرة دينارًا أو دينارين لعدم الجسر[٣].

قال[٤]: وطار فى تلك الليلة على دار الخليفة نحو من عشر بومات مجتمعات

(١) ينظر المنتظم لابن الجوزى ١٦/ ١١٨، النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٥/ ١٧ .
(٢) ينظر: المنتظم لابن الجوزى ١٦/ ١١٨ .
(٣) ينظر: المنتظم لابن الجوزى ١٦/ ٣٢ - ٣٣ .
(٤) ينظر: المصدر السابق .

يصحن صياحًا مزعجًا. وقيل للوزير أبى القاسم بن المسلمة، الملقب برئيس الرؤساء، وزير القائم العباسى: من المصلحة أن الخليفة يرتحل من بغداد لعدم المقاتلة بها فلم يقبل، وشرعوا فى استخدام طائفة العوام، ودُفِعَ إليهم سلاح من دار المملكة. فلما كان يوم الأحد الثامن من ذى القعدة من هذه السنة، دخل البساسيرى بغداد، ونشر الرايات البيض المصرية، وعلى رأسه أعلام مكتوب عليها: الإمام المستنصر بالله، أبو تميم معد أمير المؤمنين، فتلقاه أهل « الكرخ » - وهم أهل الرفض والإلحاد - فتضرعوا إليه، وسألوه أن يجتاز عندهم، فدخل الكرخ وخرج إلى « مشرعة الروايا »، فخيم بها، والناس إذ ذاك فى ضر ومجاعة شديدة، ونزل قريش بن بدران فى نحو مائتى فارس على مشرعة باب البصرة، وكان البساسيرى قد جمع العيارين وأطمعهم فى نهب دار الخلافة، ونهب أهل الكرخ دور أهل السنة بباب البصرة، ونهبت دار قاضي القضاة الدامغانى، وهلك أكثر السجلات والكتب الحكمية، ونهبت دار المتعلقين بخدمة الخليفة، وأعادت الروافض الأذان بـ « حى على خير العمل »، وكذلك أذن فى سائر جوامع بغداد، وضربت له السكة على الذهب والفضة، وحوصرت دار الخلافة فحاجز الوزير ابن المسلمة بمن معه من المستخدمين دونها، فلم يفد ذلك شيئًا، فركب الخليفة بالسواد والبردة على كتفيه، وعلى رأسه القواد، وبيده سيف صلت، وحوله زمرة من الهاشميين والجوارى حاسرات وجوههن، ناشرات شعورهن، معهن المصاحف على رءوس الرماح، وبين يديه الخدم بالسيوف المسللة.

ثم إن الخليفة أخذ ذمامًا من أمير العرب، قريش بن بدران لنفسه وأهله ووزيره ابن المسلمة، فآمنه على ذلك وأنزله فى خيمة، فلامه البساسيرى على ذلك، وقال له: لقد علمت ما كان وقع الاتفاق عليه بينى وبينك من أنك لا تستبد برأى دونى ولا أنا دونك، ومهما ملكنا فبينى وبينك.

واستحضر البساسيرى ابن المسلمة ووبخه ولامه لومًا شديدًا، ثم ضربه ضربًا مبرحًا واعتقله مهانًا عنده، ونهبت العيارون دار الخلافة؛ فلا يحصى ما أخذ منها من الجواهر، والنفائس، والديباج، والأثاث، وغير ذلك مما لا يحد ولا يوصف.

قلت: ما أخذه البساسيرى لأستاذه المستنصر من دار الخليفة القائم العباسى

أخرجه وباعه بأبخس الأثمان، وهو مضطر جوعان، ولم يتمتع به فى هذه الدار، وهو محاسب عليه فى دار القرار.

ثم اتفق رأى البساسيرى وقريش بن بدران على تسيير الخليفة من بغداد، وتسليمه إلى أمير « حديثة عانة »، وهو مهارش بن مجلى البدرى، وهو من بنى عم قريش بن بدران، وكان رجلًا صالحًا.

قلت: « حديثة عانة »: بليدة بين حلب وبغداد، مشهورة مذكورة إلى الآن، النسبة إلى جزئها الأول فيقال: فلان الحديثى. انتهى.

فلما بلغ الخليفة ذلك دخل على قريش بن بدران ألا يخرجه من بغداد فلم يفد ذلك شيئًا، وسيروه مع أصحابه إلى حديثة عانة، فكان عند مهارش أميرها حولاً كاملًا، وليس معه أحد من أهله، فحكي عن القائم أنه قال: لما كنت بحديثة عانة قمت ليلة إلى الصلاة، فوجدت فى قلبي حلاوة المناجاة، ثم دعوت الله تعالى فقلت: اللهم أعدنى إلى وطنى، واجمع بينى وبين أهلي وولدي، ويسر اجتماعنا، وأعد روض الأنس زاهرًا، وربع القرب عامرًا، فقد قل العزاء، وبرح الخفاء. قال: فسمعت قائلاً على شط الفرات يقول: نعم نعم، فقلت: هذا رجل يخاطب آخر، ثم أخذت فى السؤال والابتهال، فسمعت ذلك الصائح يقول: إلى الحول إلى الحول، فعلمت أنه هاتف أنطقه الله تعالى بما جرى الأمر عليه. وكان الأمر كذلك؛ فإنه خرج من داره فى ذى القعدة من هذه السنة، ورجع إليها فى ذى القعدة من السنة المقبلة[1]، كما سنذكره الآن.

ولما كان يوم عيد الأضحى ألبس البساسيرى الخطباء والمؤذنين البياض، وعليه هو وأصحابه كذلك، وعلى رأسه الألوية المستنصرية والقطاريف المصرية، وخطب للمستنصر الفاطمى صاحب مصر، والروافض فى غاية السرور، وانتقم من أعيان أهل بغداد انتقامًا عظيمًا، وغرق خلقًا كثيرًا، وقتل من العلماء جمعًا.

ولما كانت ليلة الإثنين لليلتين بقيتا من ذى الحجة، أحضر بين يديه الوزير ابن المسلمة، وعليه جبة صوف، وطرطور من لبد أحمر، وفى رقبته مخنقة من جلود، فأركب جملًا، وطيف به فى البلد، وخلفه من يصفعه بقطعة جلد. وحين أجاز

---

(١) ينظر: المنتظم لابن الجوزى ١٦/ ٣٥ .

بالكرخ، نثروا عليه خلقان المداسات، وبصقوا فى وجهه ولعنوه وسبوه، فأوقف بإزاء دار الخلافة وهو فى ذلك كله يتلو قوله تعالى ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ ﴾ الآية [آل عمران:٢٦]، ثم لما فرغ من الطواف به فى البلد، وأعيد إلى العسكر، ألبس جلد ثور بقرنيه، وعلق بكلاب فى شدقيه، ورفع إلى الخشبة حيًا فجعل يضطرب إلى آخر النهار، فمات رحمه الله تعالى، وكان آخر كلامه أن قال: الحمد لله الذى أحيانى سعيدًا وأماتنى شهيدًا[١].

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين وأربعمائة، وبغداد فى قبضة البساسيرى، يخطب فيها للخليفة المستنصر الفاطمى، والقائم قاعد بـ « حديثة عانة » .

ثم لما كان يوم الإثنين، ثانى عشر صفر، أحضر البساسيرى قاضى القضاة أبا عبد الله الدامغانى، وجماعة من الوجوه والأعيان من العلويين والعباسيين، وأخذ عليهم البيعة للمستنصر الفاطمى، ثم دخل دار الخلافة، وهؤلاء المذكورون معه، وأمر بنقض تاج دار الخلافة؛ فنقضت بعض الشراريف. ثم قيل له: إن ترك الفتح فى هذا الأمر من المصلحة؛ فتركه. ثم ركب إلى زيارة المشهد، وأمر بأن تنقل جثة ابن المسلمة إلى ما يقارب الحرم الظاهري، وأن ينصب على دجلة[٢].

وكتبت أم الخليفة، وكانت عجوزا كبيرة قد بلغت التسعين، وهى مختفية فى مكان - إلى البساسيرى؛ تشكو إليه الفقر والحاجة وضيق الحال، فأرسل إليها ونقلها إلى الحريم، وأخدمها جاريتين، ورتب لها كل يوم اثنى عشر رطلا من خبز، وأربعة أرطال من لحم؛ ولا يفى هذا بقيراط مما فعله بولدها وبأهل السنة[٣].

وكان وقوع هذا الواقع، والسلطان طغرلبك أبو طالب محمد بن ميكائيل بن سلجوق غائب؛ لقتال أخيه إبراهيم بن ميكائيل. فلما ظفر به وأسره وقتله، وتمكن فى أمره، وطابت نفسه واستقر حاله، ولم يبق له بتلك البلاد منازع - سمع بهذا الواقع؛ فكتب إلى قريش بن بدران أمير العرب، يأمره بأن يعاد الخليفة إلى داره، على ما كان عليه، وتوعده على ترك ذلك بأسًا شديدًا. فكتب إليه قريش، يتلطف به ويسأله، ويقول: أنا معك على البساسيرى بكل ما أقدر عليه، حتى يمكن الله منه؛

(١) ينظر: المنتظم لابن الجوزى ٣٨/١٦ .
(٢) ينظر: السابق (١٦/ ٤٤ - ٤٥)
(٣) ينظر: السابق (١٦/ ٤٤) .

ولكن أخشى أن أشرع فى أمرٍ يكون فيه على الخليفة مفسدة، أو يبدر إليه أحد بأذية؛ ولكن سأعمل فى أمره بكل ما يمكننى. ثم إنه راسل البساسيرى، وأشار عليه بعود الخليفة إلى داره؛ وخوفه من جهة الملك طغرلبك. وقال له - فيما قال -: إنك دعوتنا إلى طاعة المستنصر صاحب مصر، وبيننا وبينه ستمائة فرسخ، ولم يأتنا من جهته رسول ولا أحد، ولم يفكر فى شيء مما أرسلنا إليه، وهذا الملك من ورائنا بالمرصاد.

وجاء كتاب من الملك طغرلبك، عنوانه: « إلى الأمير الأجل، علم الدين أبى المعالى، قريش ابن بدران، مولى أمير المؤمنين. من شاهنشاه، ملك المشرق والمغرب، طغرلبك أبى طالب محمد بن ميكائيل بن سلجوق » وعلى رأس الكتاب العلامة السلطانية بخط السلطان: « حسبى الله » وكان فى الكتاب ما نصه: « والآن، فقد سارت بنا المقادير إلى قتال كل عدو للدين والملك، ولم يبق لنا وعلينا من المهمات؛ إلا خدمة سيدنا ومولانا الإمام القائم بأمر الله أمير المؤمنين، وإطلاع أبهة إمامته على سرير عزه، فإن الذى يلزمنا ذلك، ولا فسحة فى التضجيع فيه ساعة من الزمان، وقد أقبلنا بجيوش المشرق إلى هذا المهم العظيم؛ ونريد من الأمير الجليل السعى النجيح الذى وفق له وتفرد به؛ وهو أن يتمم وفاءه من أمانته وخدمته فى باب سيدنا ومولانا الإمام القائم بأمر الله أمير المؤمنين، وأن يكون أحد الرجلين: إما أن يقبل به إلى وكر عزه، ويتولى إقامته وموقف خلافته من مدينة السلام، وينتدب بين يديه متوليا أمره منفذا حكمه شاهرا سيفه وقلمه، وذلك المراد، وهو خليفتنا فى تلك الخدمة المفروضة؛ ويوليه العراق بأسرها، وتصفى له مشارع برها وبحرها؛ لا يطأ حافر من خيول العجم شبرًا من أرض تلك المملكة إلا بالتماس لمعاونته ومظاهرته. وإما أن يحافظ على شخصه العالى؛ بتحويله من القلعة إلى حين يجاء لخدمته فيتكفل بإعادته، ويكون الأمير الجليل مخيرًا بين أن يلتقى بنا أو يقيم حيث شاء بتولية العراق، وسنخلفه فى الخدمة. وهو - أدام الله تمكنه - يتيقن ما ذكرنا، ويعلم أن توجهنا إثر هذا الكتاب بهذا الغرض المعلوم، ولا غرض سواه، ومن اتصل ببغداد من سائر العرب والعجم والأكراد، كلُّهم إخواننا، وفى ديننا وعهدنا، وعلينا لهم عهد الله وميثاقه - ما داموا موافقين للأمير ولكل محترم -

عفونا وأمننا لما بدر منه؛ إلا البساسيرى؛ فإنه لا عهد له ولا أمان، وهو موكول إلى الشيطان؛ وقد ارتكب فى دين الله عظيما، وهو - إن شاء الله - مأخوذٌ حيث وجد، ومعذب على ما عمل وسعى فى دماء خلق كثير بسوء دخيلته، وإدارة أفعاله على فساد عقيدته !. وكتب فى رمضان، سنة إحدى وخمسين وأربعمائة »(١).

فلما وصل الكتاب إلى قريش بن بدران، استعلم عن أخبار الملك طغرلبك من الرسل وغيرهم؛ فإذا معه جنود عظيمة، فخاف من ذلك خوفًا شديدًا، وبعث إلى البرية، وأمر بحفر أماكن للماء، وتجهيز علوفات كثيرة إلى هنالك، وأنفذ الكتاب إلى البساسيرى؛ فانزعج البساسيرى لذلك وخارت قوته وضعف أمره، وبعث إلى أهله فنقلهم من بغداد، وأرصد له إقامات عظيمة بواسط، وجعلها دار مقره، ووافق على عود الخليفة إلى بغداد؛ ولكن اشترط شروطًا كثيرة؛ ليذهب خجله.

وترحل قريش بن بدران إلى أرض الموصل، وبعث إلى « حديثة عانة » يقول لأميرها مهارش بن مجلى - الذى سلم إليه الخليفة -: المصلحة تقتضي أن تحول الخليفة إلي؛ حتى نستأمن لأنفسنا بسببه؛ فلا نسلمه حتى نأخذ لأنفسنا أمانًا، ويكون فى يدك دون يدى. فامتنع عليه مهارش، وقال: قد غدر بى البساسيرى فى أشياءَ وعدنى بها فلم أرها، ولست بمرسله إليك أبدًا، وله فى عنقى أيمان كثيرة لا أغدر بها.

وكان مهارش رجلا صالحًا ثقة أمينا، فقال للخليفة: من المصلحة أن نسير إلى بلد بدر بن مهلهل، وننظر ما يكون من أمر السلطان: فإن ظهر دخلنا بغداد، وإن كانت الأخرى نظرنا لأنفسنا؛ فإنا نخشى من البساسيرى أن يعود فيحصرنا. فقال له الخليفة: افعل ما فيه المصلحة.

فسارا فى الحادى والعشرين من ذى القعدة، إلى أن حصلا بقلعة « عكبراء » فتلقته رسل الملك طغرلبك بالهدايا التى كان أنفذها إليه، وهو متشوق إليه كثيرًا، وجاءت الأخبار بأن السلطان طغرلبك دخل بغداد، وكان يومًا مشهودًا؛ غير أن الجيش نهبوا بغداد سوى دار الخليفة، وصودر خلق كثير وشرعوا فى عمارة دار الملك، وأرسل السلطان إلى الخليفة مراكب كثيرة من أنواع الخيول وغيرها،

---

(١) ينظر: المنتظم لابن الجوزى ١٦/٤٦ .

وسرادق عظيمة وملابس سنية؛ أرسل ذلك مع وزيره عبد الملك الكندرى.

ولما انتهوا أرسلوا بتلك الآلات قبل أن يصلوا إليه، وقالوا لمن حوله: اضربوا السرادق، وليلبس الخليفة ما يليق به، ثم نجيء نحن فنستأذن عليه، فلا يأذن لنا إلا بعد ساعة طويلة فلما دخل الوزير عبد الملك الكندرى ومن معه، قبلوا الأرض، بعد أن استأذنوا - فلم يؤذن لهم إلا كما قالوا. وأخبر الخليفة بسرور السلطان بما حصل؛ من العود إلى بغداد واشتياقه إليه جدا، وكتب الوزير عبد الملك إلى السلطان وأخبره بما جرى، وأحب أن يأخذ خط الخليفة فى أعلى الكتاب؛ فيكون أقرَّ لِعَيْنِ السلطان. ولم يكن عند الخليفة دواة؛ فأحضر الوزير دواته ومعها سيف، قال: هذه حرمة السيف والقلم، فأعجب الخليفة قوله.

وترحلوا من منازلهم تلك بعد يومين، فلما وصلوا إلى النهروان، خرج السلطان طغرلبك من بغداد لتلقيه. فلما انتهى إلى السرادق قبل الأرض بين يدى الخليفة سبع مرات، فأخذ الخليفة مخدة فوضعها بين يديه، فأخذها السلطان فقبلها ثم جلس عليها، وقدم للخليفة الحبل الياقوت الأحمر، الذى كان لابن بويه، فوضعه بين يديه، وأخرج اثنتى عشرة حبة لؤلؤ كبار، وقال: هذا لرسلان خاتون؛ وهى أخته زوجة الخليفة، وكانت قد خرجت فى وقعة البساسيرى، ولحقت بأخيها السلطان طغرلبك؛ تخدم وتسأل أن يسبح الخليفة بهذه المسبحة؛ وجعل يتعذر عن تأخره عن الحضرة فيقول: سببه عصيان أخي إبراهيم عَلَيّ فحاربته وقتلته، واتفق موت أخى الأكبر؛ فاشتغلت فى ترتيب أولاده فى هذه الممالك. وأنا شاكر لمهارش بما كان منه من خدمة أمير المؤمنين، وأنا - إن شاء الله - أمضي إلى هذا الكلب البساسيرى، وأعود إلى الشام، وأفعل بصاحب مصر ما ينبغى أن يجازى به؛ من سوء المقابلة بما كان من فعله ههنا. فدعا له الخليفة وشكره على ذلك. كل ذلك بتوجيه الوزير عبد الملك الكندرى بين الخليفة والسلطان، وأعطى الخليفة السلطان سيفًا كان لم يبق معه من أمور الخلافة سواه.

ودخلَ الخليفةُ بغداد يومَ الخميسِ، لخمسٍ بقين مِنْ ذى القعدةِ، وَكَانَ ذلك يومًا مشهودًا؛ الجيش كُلّه مَعَهُ، والقضاة والأعيان بَيْنَ يَدَيْهِ، وَالسُّلطان آخذ بلجام بغلته، حتى وصل إلى باب الحجرة. ولما وصل الخليفة إلى دار مملكته ومقر خلافته،

استأذن السلطان طغرلبك فى الخروج وراء البساسيري، فأذن له. وكان قد عزم على أن يمضى معه، فقال: يا أمير المؤمنين، أنا أكفيك. وأطلق لمهارش عشرة آلاف دينار، ولم يرض.

وشرع السلطان فى ترتيب الجيوش وراء البساسيرى، فأرسل جيشًا من ناحية « الكوفة »؛ ليمنعوه من الدخول إلى الشام، وخرج هو فى التاسع والعشرين من شهر ذى الحجة، فى بقية الجيش. وأما البساسيرى فإنه مقيم بـ « واسط » فى جمع غلات وتمور، يتهيأ لقتال أهل بغداد ومن فيها، وعنده: أن السلطان طغرلبك ومن معه ليسوا بشيء يخاف منهم؛ وذلك لما يريده الله من إهلاكه على يد السلطان، جزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيرًا !.

ولما سار السلطان وقد وصلت إليه السرية الأولى، فلقوه بأرض « واسط » فالتقوا هناك، فانهزم أصحاب البساسيرى ونجا بنفسه على فرسه، فتبعه بعض الغلمان فرمى فرسه بنشابة؛ فألقته إلى الأرض، وجاء وضربه على وجهه ولم يعرفه، وأخذه واحد من الجيش، يقال له: كشتكين، فحز رأسه وحمله إلى السلطان، وأخذت الأتراك من جيش البساسيرى، من الأموال والذخائر ما عجزوا عن حمله.

ولما وصل الرأس إلى السلطان، أمر أن يذهب به إلى « بغداد » وأن يرفع على قناة، وأن يطاف به، والدباب والبوقات والنفاطون معه، ففعل ذلك، وخرج الناس والنساء والصبيان؛ للفرجة عليه، ثم نصب على الطَّيار تجاه دار الخلافة، ولله الحمد والمنة !.

وكان مع البساسيرى خلق من البغادِدَة، خرجوا ظانين أنه سيعود إليها؛ محبة فيه، فهلكوا ونهبت أموالهم كلها، ولم ينج من أصحابه إلا القليل !.

وأما الخليفة: فإنه لما عاد إلى دار الخلافة، جعل لله عليه ألا ينام على وطاء، ولا يأتيه أحد بطعامه إذا كان صائمًا، ولا يخدمه فى وضوئه وغسله؛ بل يتولى ذلك كله بنفسه. وعاهد الله ألا يؤذى أحدًا ممن آذاه، وأن يصفح عمن ظلمه، وكان يقول: ما عاقبت من عصى الله فيك، بأكثر من أن تطيع الله فيه ! (١).

انتهت وقعة البساسيرى بكمالها، وأحببت إيرادها؛ لأنها من أعظم الوقائع، ولم

---

(١) ينظر: المنتظم لابن الجوزى ١٦/ ٥٥ - ٥٦ .

تخل من فائدة ويقال: إن المستنصر هذا أحسن السيرة والعدل؛ لما احتفظ بتدبير المملكة. وذكروا أنه كتب على رقعة: [من السريع]

أَصْبَحْتُ لاَ أَرْجُو وَلاَ أَتَّقِي إِلاَّ إِلَهِي وَلَهُ الْفَضْلُ
جَدِّى نَبِيِّى وَإِمَامِى أَبِي وَقَوْلِىَ التَّوْحِيدُ وَالْعَدْلُ

المال مال الله، والعبيد عبيد الله، والعطاء خير من المنع ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

وفى أيامه احترق جامع دمشق، سنة إحدى وستين وأربعمائة.

قلت: البساسيرى[(١)] هذا اسمه: أرسلان، ويلقب: أبا الحارث، وهو من الترك، وكان من مماليك بهاء الدولة ابن عضد الدولة الديلمى، وكان أولا مملوكا لرجل من أهل مدينة « بسا » بالباء العجمية - بـ « أصبهان » فنسب إلى ذلك الرجل المنسوب إلى تلك المدينة فقيل له البساسيرى، ثم كان مقدمًا كبيرًا عند الخليفة القائم بأمر الله، لا يقطع أمرًا دونه، وخطب له على منابر العراق كلها، ثم طغى وبغى، وتمرد وعتا، وخرج على الخليفة بل وعلى المسلمين، ودعا إلى خلافة الفاطميين؛ ليتم له ما رامه من الأمل الفاسد. وكانت وفاته سنة إحدى وخمسين وأربعمائة.

وكانت وفاة المستنصر يوم الخميس لاثنتى عشرة ليلة خلت من ذى الحجة سنة سبع وثمانين وأربعمائة.

ثم قام من بعده أحمد الملقب بالمستعلي[(٢)]، المكنى بأبى القاسم، بويع بعد موت أبيه المستنصر، وسنه نيف وعشرون سنة. وكان القائم بتدبير ملكه: أمير الجيوش الأفضل شاهنشاه ابن أمير الجيوش بدر الجمالى. وقد كان عهد أبوه إلى ولده الآخر نزار، فخلعه الأفضل، فقاتله نزار، فهزمه الأفضل وأسر القاضى ونزار؛ فقتل القاضى وحبس نزار حتى مات، واستقر المستعلى فى الخلافة، وكان عمره

---

(١) ينظر [البساسيرى] فى: شذرات الذهب ٣/ ٢٨٧، الكامل لابن الأثير ٨/ ٣٤٩، النجوم الزاهرة ٥/ ٢، وفيات الأعيان ١/ ١٩٢ - ١٩٣، المنتظم لابن الجوزى ١٦/ ٥٦ .

(٢) ينظر [المستعلى] فى: الكامل لابن الأثير ١٠/ ٢٣٧ وما بعدها، وفيات الأعيان ١/ ١٧٨ - ١٨٠، العبر للذهبى ٣/ ٣٤١، البداية والنهاية ١٢/ ١٦٢، تاريخ ابن خلدون ٤/ ٦٦ - ٦٨، خطط المقريزى ١/ ٣٥٦ - ٣٥٧، النجوم الزاهرة ٥/ ١٤٢، سير أعلام النبلاء ١٥/ ١٩٦، شذرات الذهب ٣/ ٤٠٢ .

إحدى وعشرين سنة.

وفى أيامه: استولت الفرنج على سواحل أهل الشام وبيت المقدس(١)، واضمحل أمر الفاطميين، ولم يبق لهم من الخلافة إلا الاسم، واستمر إلى أن مات يوم الثلاثاء ثالث صفر سنة خمس وسبعين وأربعمائة.

ثم قام بالأمر بعده ابنه منصور الملقب بالآمر بأحكام الله(٢) ابن المستعلى ابن المستنصر، الفاطمى العبيدى، أبو عَلي الخبيث الرافضى، بويع بعد موت أبيه، وتولى تدبير مملكته شاهنشاه، فلما كبر جازاه بالقتل، وأقام عوضه فى الوزارة المأمون البطائحى، صاحب جامع الأقمر بالقاهرة، ثم قبض عليه وقتله وصلبه أيضا.

واستمر الآمر إلى أن مات ليلة الأربعاء، ثالث عشر ذى القعدة الحرام، سنة أربع وعشرين وخمسمائة، وكانت مدته سبعًا وعشرين سنة وتسعة أشهر، ولم يعقب.

وسبب موته: أنه مر على الجسر من الروضة عند خروجه إلى الجزيرة تجاه مصر، فوثب عليه تسعة فضربوه بالسكاكين، حتى إن أحدهم وثب وركب خلفه، ثم حمل جريحًا إلى أن مات(٣).

ثم قام من بعده ابن عمه عبد المجيد، الملقب بالحافظ لدين الله (٤)بن محمد بن المستنصر المكنى أبا الهول. بويع بعد قتل الآمر، ودام إلى أن مات فى جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسمائة.

واستوزر فى أيامه أحمد بن الأفضل، شاهنشاه بن بدر الجمالى، ولقب أمير الجيوش كأبيه وجده، وكانت الأمور قبل ولاية الحافظ اضطربت لموت الآمر عن

(١) ينظر: الكامل لابن الأثير ١٠/ ٢٧٢ - ٢٨٩، حيث أورد الحروب الصليبية بالتفصيل.

(٢) ينظر: [الآمر بأحكام الله] فى: شذرات الذهب ٤/ ٧٢ - ٧٣، النجوم الزاهرة ٥/ ١٧٠ - ١٨٥، خطط المقريزى ١/ ٣٥٧، تاريخ ابن خلدون ٤/ ٦٨ - ٧١، سير أعلام النبلاء ١٥/ ١٩٧، الكامل لابن الأثير ١٠/ ٣٢٨، وفيات الأعيان ٥/ ٢٩٩ - ٣٠٢، العبر للذهبى ٤/ ٦٢، البداية والنهاية ١٢/ ٢٠٠ - ٢٠١.

(٣) ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبى ١٥/ ١٩٩، النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٥/ ١٨٤ - ١٨٥.

(٤) ينظر [الحافظ لدين الله] فى: شذرات الذهب ٤/ ١٣٨، النجوم الزاهرة ٥/ ٢٣٧، تاريخ ابن خلدون ٤/ ٧١ - ٧٣، خطط المقريزى ١/ ٣٥٧، البداية والنهاية ١٢/ ٢٢٦، سير أعلام النبلاء ١٥/ ١٩٩، تاريخ ابن إياس ١/ ٦٤ - ٦٥، وفيات الأعيان ٣/ ٢٣٥ - ٢٣٧، العبر للذهبى ٤/ ١٢٢، الكامل لابن الأثير ١٠/ ٦٦٥.

غير ولد، وكان الحافظ كثير المرض بالريح القولنج، فعمل له الحكيم المسمى « سرماه » طبلاً للقولنج الذى وجد بعد فى خزائن الفاطميين لما ملك السلطان صلاح الدين مصر، وكان هذا الطبل مركبًا من المعادن السبعة فى أشرافها، وكان من خاصية هذا الطبل إذا ضرب به أحد خرج منه تلك الريح المذكورة، فلما وجد فى الخزائن ضرب به بعض الأجناد الأجلاف، فخرج منه ريح؛ فغضب وضرب به الأرض فكسره فبطلت تلك الخاصية، فندم السلطان صلاح الدين لذلك غاية الندم[(١)].

وفى أيام الحافظ هذا ابتذلت الخلافة حتى لم يبق له من الحكم لا قليل ولا كثير، وكانت مدته تسع عشرة سنة وسبعة أشهر.

ثم قام من بعده ابنه إسماعيل، الملقب بالظافر[(٢)]، ابن عبد المجيد بن محمد بن المستنصر الفاطمى العُبيدى، صاحب الجامع الظافرى المعروف بجامع الفاطميين داخل القاهرة، بويع بعد موت أبيه وهو ابن سبع عشرة سنة وأشهر.

وكان يهوى نصرًا، ابن وزيره العباس وينادمه، فينزل الظافر له خفية وينام عنده، فتكلم الناس فى ذلك، فبلغ العباس ذلك فوبخ ابنه بما سمع من كلام الناس، فلما نزل إليه الخليفة فى بعض الليالى على عادته ومعه خادم واحد ونام، قام نصر إليه فقتله ورمى به فى بئر، وعرف أباه الوزير بذلك، فلما أصبح الوزير توجه إلى باب القصر كأنه لم يعلم بما وقع، فطلب الخليفة على العادة فقال له خادم القصر: ابنك نصر يعرف أين هو، فقال له الوزير: ما لابنى علم. ثم أحضر العباس أخوين للظافر وابن أخيه وقتلهم صبرًا بين يديه[(٣)]، ثم أحضر أعيان الدولة وقال لهم: إن الظافر قد ركب البارحة فى مركب فانقلب به وغرق. وقام ودخل إلى الحريم وأخرج عيسى بن الظافر وبايعه ولقبه بالفائز، وتفرق الناس عن الوزير لما عرفوا أمر الظافر وطالبوه بدم الخليفة.

---

(١) ينظر: النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٥/ ٣٣٥ .

(٢) ينظر [الظافر بالله] فى: شذرات الذهب ٤/ ١٥٢ - ١٥٣، تاريخ ابن إياس ١/ ٦٥، سير أعلام النبلاء ١٥/ ٢٠٢، خطط المقريزى ٢/ ٣٠، تاريخ ابن خلدون ٤/ ٧٣ - ٧٥، البداية والنهاية ١٢/ ٢٣١، العبر للذهبى ٤/ ١٣٦، وفيات الأعيان ١/ ٢٣٧، الكامل لابن الأثير ١١/ ١٤١ .

(٣) ينظر: وفيات الأعيان ١/ ٢٣٧ .

وكانت مدة الظافر أربع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام، وأرسل النساء يستغثن بطلائع بن رزيك، وكان إذ ذاك بدمشق متولى منية ابن الخصيب، فجمع طلائع عسكره وقصد عباسًا الوزير فبلغه، فجمع عباس ما قدر على جمعه من الجواهر والأموال وخرج نحو الشام، فخرج عليه الفرنج فى الطريق فأسروه وأخذوا أمواله، وتولى طلائع وزارة مصر، وأرسل فبذل للفرنج مالاً عظيمًا، وأخذ عباسًا منهم وقتله وصلبه على باب القصر، وتلقب بالملك الصالح، وهو صاحب جامع باب الزويلة. وكان قتل الظافر سنة تسع وأربعين وخمسمائة.

ثم قام من بعده ابنه عيسى، الملقب بالفائز[1] بن الظافر بن الحافظ بن محمد بن المستنصر. بويع بعد قتل أبيه وهو صبى، وأصيب بالرجفة لما أخرجه الوزير عباس من الحريم على كتفه للبيعة، وهو ابن سنتين أو أربع، وذلك أنه لما رأى أعمامه قتلى فزع واضطرب، ودام به ذلك إلى أن مات يوم الجمعة سابع عشر رجب سنة خمس وخمسين وخمسمائة، وهو ابن عشر سنين تقريبًا.

قال فى البداية: وفيها - يعنى سنة تسع وأربعين وخمسمائة - تولى الفائز بنصر الله، أبو القاسم، عيسى بن إسماعيل الظافر، ثم كانت وفاته فى صفر وعمره إحدى عشرة سنة، ومدة ولايته من ذلك ست سنين وشهران، وكان مدبر دولته أبو الغارات.

ثم قام من بعده عبد الله، الملقب بالعاضد لدين الله[2] بن يوسف بن الحافظ، ولم يكن أبوه خليفة، وكان يومئذ قد ناهز الاحتلام، فقام بتدبير مملكته الملك الصالح طلائع بن رزيك الوزير، وأخذ له البيعة وزوجه بابنته وجهزها بأمر عظيم، وقد عمرت بعد زوجها العاضد، ورأت زوال دولة الفاطميين على يد السلطان

---

(١) ينظر [الفائز بالله] فى: شذرات الذهب ٤/ ١٧٥، تاريخ ابن إياس ١/ ٦٦، سير أعلام النبلاء ١٥/ ٢٠٥، النجوم الزاهرة ٥/ ٣٠٦، خطط المقريزى ١/ ٣٥٧، تاريخ ابن خلدون ٤/ ٧٥، البداية والنهاية ١٢/ ٢٤٢، وفيات الأعيان ٣/ ٤٩١، العبر للذهبى ٤/ ١٥٦، الكامل لابن الأثير ١١/ ١٩١ .

(٢) ينظر [العاضد] فى: شذرات الذهب ٤/ ٢١٩ - ٢٢٠، تاريخ ابن إياس ١/ ٦٧، سير أعلام النبلاء ١٥/ ٢٠٧، النجوم الزاهرة ٥/ ٣٣٤، خطط المقريزى ١/ ٣٥٧، تاريخ ابن خلدون ٤/ ٧٦، البداية والنهاية ١٢/ ٢٦٤ - ٢٦٨، العبر للذهبى ٤/ ١٩٧، وفيات الأعيان ٣/ ١٠٩، الكامل لابن الأثير ١١/ ٢٥٥ .

صلاح الدين، يوسف بن أيوب بن شاذى الكردى؛ فإن العاضد هو آخرهم، وكان انتقال دولتهم فى زمنه، وكان لما بويع ابن إحدى عشرة سنة.

قال فى « الأرج المسكى »: وكان القائم بتدبير ملكه وزيره الملك الصالح طلائع ابن رزيك، وزر له بعد والده ولقب بالعادل، فانتزعها منه شاور، وهو الذى كان سببًا لخراب الديار المصرية بمباطنته الفرنج لعنهم الله، وزوال دولة العبيديين منها.

ثم بعد قتل شاور وزر له أسد الدين شيركُوه بن شاذى الكردى، وهو عم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب؛ لأن أيوب وشيركوه أخوان أبوهما شاذى، وأيوب يلقب نجم الدين، وشيركوه يتلقب « أسد الدين »؛ فهو عم السلطان صلاح الدين، فلقب شيركوه بالملك المنصور، وأقام شهرين وأيامًا ثم مات، فاستوزر العاضد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، ولقبه بالملك الناصر، فقطع الملك الناصر بعد سنين اسم الخليفة العاضد من الخطبة بمصر وأعمالها، بأمر الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى بن آق سُنْقر، صاحب الشام المعروف بنور الدين الشهيد، ومات العاضد بعد ذلك بأيام فى يوم الإثنين، يوم عاشوراء سنة سبع وستين وخمسمائة، وندم السلطان صلاح الدين على قطعه الخطبة فى حياته وتمنى أن كان القطع بعد موته، فاستولى السلطان صلاح الدين بن أيوب على مصر وذخائرها.

واختلف فى سبب موت العاضد، فقيل: إنه تفكر فى أموره فرآها فى إدبار فأصابه ذَرَبٌ عظيم فمات منه، وقيل: إنه لما خطب لبنى العباس بالقاهرة بلغه ذلك فاغتم فمات، وقيل: إنه لما أيقن بزوال ملكه كان فى يده خاتم فصه مسموم فمصه فمات منه.

قال الذهبى[(١)]: وكان العاضد مع وزرائه كالمحجور عليه لا يتصرف فى شيء مما يريد، وهو آخر ملوك مصر المسمين بالعبيديين والفاطميين، وكانت مدة تملكهم مائتين وثمان سنين فكانوا لأربعة عشر متخلفًا لا مستخلفًا.

وقال العلامة ابن السبكى فى تاريخه المسمى بـ « البداية »: كان ابتداؤها سنة أربع وستين وثلاثمائة. وكان موت العاضد فى سنة سبع وستين وخمسمائة، وأعيدت الخطبة للمستضيء العباسى ابن المستنجد. وفرح المسلمون فرحًا شديدًا، وكانت

(١) ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبى ١٥/ ٢١١ - ٢١٢ .

الخطبة قد قطعت عن بنى العباس من ديار مصر من سنة تسع وخمسين وثلاثمائة فى خلافة المطيع العباسى. قال ابن الجوزى: وقد ألفت فى ذلك كتابًا سميته « النصر على مصر ».

قال العلامة ابن السبكى: واتفق أنه لما دخل المعز الفاطمى مصر أرسل إلى الجامع الأزهر يطلب ألقابًا تكون عنده لمن يقوم بعده من أولاده وأولاد أولاده، فكتبت له هذه الألقاب: العزيز، الحاكم بأمر الله، إلى العاضد آخرهم. والعضد فى اللغة: القطع. فكان مع إرادته سبحانه وتعالى قاطعًا لخلافتهم، وبه انقراض ملكهم(١).

قال العلامة ابن السبكى: واتفق أنه لما استقر أمر السلطان صلاح الدين فى مصر بالخطبة لبنى العباس عن مرسوم الملك نور الدين محمود بن زنكى له بذلك، لمعاتبة الخليفة المستنجد إياه قبل وفاته بذلك، وكان إذ ذاك العاضد مريضًا مدنفًا. فكانت وفاته يوم عاشوراء فى سنة سبع وستين كما تقدم ذكر ذلك، فحضر السلطان صلاح الدين جنازته، وشهد عزاءه وبكى عليه، وتأسف وظهر منه حزن، فقد كان مطيعًا له فيما يأمره به. ولما مات استحوذ الملك صلاح الدين على القصر بما فيه، وأخرج أهل العاضد إلى دار أفردها لهم، وأجرى عليهم النفقات والأرزاق الهنية والمعيشة المرضية. وكان يتندم على إقامته الخطبة العباسية قبل وفاته وهلاً صبر بها إلى ما بعد مماته، ولكن كان ذلك قدرًا مقدورًا، وفى الكتاب مسطورًا. ومما قال العماد الكاتب فى ذلك: [من المنسرح]

تُوُفِّيَ الْعَاضِدُ الدَّعِيُّ فَمَا ... يَفْتَحُ ذُو بِدْعَةٍ بِمِصْرَ فَمَا
وَعَصْرُ فِرْعَوْنِهَا انْقَضَىٰ وَغَدَا ... يُوسُفُهَا فِى الأُمُورِ مُحْتَكِمَا
فَانْطَفَأَتْ جَمْرَةُ الْفُؤَادِ وَقَدْ ... بَاخَ مِنَ الشَّرِّ كُلُّ مَا اضْطَرَمَا
وَصَارَ شَمْلُ الصَّلَاحِ مُلْتَئِمًا ... بِهَا وَعَقْدُ السَّدَادِ مُنْتَظِمَا
لَمَّا غَدَا معلما شِعَارُ بَنِى الْـ ... عَبَّاسِ حَقًّا وَالْبَاطِلُ اكْتُتِمَا
وَبَاتَ دَاعِى التَّوْحِيدِ مُنْتَصِرًا ... وَمِنْ دُعَاةِ الإِشْرَاكِ مُنْتَقِمَا
فَظَلَّ أَهْلُ الضَّلَالِ فِى ظُلَلٍ ... دَاجِيَةٍ مِنْ عَمَايَةٍ وَعَمَىٰ

(١) ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبى ١٥/٢١٢ .

وَارْتَبَكَ الْجَاهِلُونَ فى ظُلَم ... لَمَّا أَضَاءَتْ مَنَابِرُ الْعُلَمَا
وَعَادَ بِالْمُسْتَضِيءِ مُمْتَهِدًا ... بِنَاء حَقٍّ قَدْ كَانَ مُنْهَدِمَا
وَاعْتَلَتِ الدَّوْلَةُ الَّتِى اضْطُهِدَتْ ... وَانْتَصَرَ الدِّينُ بَعْدَ مَا اهتُضِمَا
وَاهْتَزَّ عِطْفُ الْإِسْلَامِ مِنْ جَذَلٍ ... وَافْتَرَّ ثَغْرُ الْإِيمَانِ مُبْتَسِمَا
وَاسْتَبْشَرَتْ أَوْجُهُ الْهُدَىٰ فَرَحًا ... فَلْيَقْرَعِ الْكُفْرُ سِنَّهُ نَدَمَا
عَادَ حَرِيمُ الْأَعْدَاءِ مُنْتَهَكَ الْ ... حِمَى وَفَيْءُ الطُّغَاةِ مُقْتَسَمَا
قُصُورُ أَهْلِ الْقُصُورِ أَخْرَبَهَا ... عَامِرُ بَيْتٍ مِنَ الْكَمَالِ سَمَا
أُزْعِجَ بَعْدَ السُّكُونِ سَاكِنُهَا ... وَمَاتَ ذُلاً وَأَنْفُهُ رَغِمَا

قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة[1]: وقد قال حسان الشاعر المدعو عرقلة:
[من الخفيف]

أَصْبَحَ الْمُلْكُ بَعْدَ آلِ عَلِيٍّ ... مُشْرِقًا بِالْمُلُوكِ مِنْ آلِ شَاذِى
وَغَدَا الشَّرْقُ يَحْسُدُ الغَرْبَ لِلْقَوْ ... مِ وَمِصْرٌ تَزْهُو عَلَى بَغْدَاذِ
مَا حَوَوْهَا إِلاَّ بِعَزْمٍ وَحَزْمٍ ... وَصَلِيلِ الفُولاَذِ فِى الفُولاَذِ
لاَ كَفِرْعَوْنَ وَالْعَزِيزِ وَمَنْ كَا ... نَ بِهَا كَالْخَصِيبِ وَالْأُسْتَاذِ

وقوله: « آل عَلِي » يعنى الفاطميين. ولم يكونوا فاطميين، وإنما كانوا أدعياء ينتسبون إلى يهودى حداد بـ « سلمية »، ثم ذكر ما ذكرناه من كلام الأئمة فيهم وطعنهم فى نسبهم.

قال: وقد استقصيت الكلام فى ذلك فى بعض الأحيان من الكفريات والمصائب العظيمات، وقد صنف العلماء فى الرد عليهم كتبًا كثيرة من أجلِّ ما وضع فيه: كتاب القاضى العلامة، إمام الأئمة، أبى بكر الباقلانى، الذى سماه: « كشف الأسرار، وهتك الأستار ».

ومن أحسن ما قاله بعض الشعراء فى بنى أيوب يمدحهم على ما فعلوه بمصر قوله من قصيدة: [من الطويل]

أَلَسْتُمْ مُزِيلِي دَوْلَةِ الْكُفْرِ من بَنِي ... عُبَيْدٍ بِمِصْرٍ ؟! إِنَّ هَذَا هُوَ الفَضْلُ
زَنَادِقَةٌ شِيعِيَّةٌ بَاطِنِيَّةٌ ... مَجُوسٌ، وَمَا فِى الصَّالِحِينَ لَهُمْ أَصْلُ

---

(١) ينظر الروضتين لأبى شامة ١/ ٢٠١ .

يُسِرُّونَ كُفْرًا يُظْهِرُونَ تَشَيُّعًا لِيَسْتَتِرُوا شَيْئًا، وَعَمَّهُمُ الْجَهْلُ

ومما قيل من الشعر ببغداد يبشر الخليفة المستنجد بالله العباسى: [من الطويل]

لِيَهْنِكَ يَا مَوْلاَىَ فَتْحٌ تَتَابَعَتْ إِلَيْكَ بِهِ خُوصُ الرَّكَائِبِ تُوجَفُ
أَخَذْتَ بِهِ مِصْرًا وَقَدْ حَالَ دُونَهَا مِنَ الشِّرْكِ نَاسٌ فِى لَهَا الْحَقِّ تُقْذَفُ
فَعَادَتْ بِحَمْدِ الله بِاسْمِ إِمَامِنَا تَتِيهُ عَلَىٰ كُل الْبِلاَدِ وَتَشْرُفُ
فلا غَرْوَ إِنْ ذَلَّتْ لِيُوسُفَ مِصْرُهُ وكانَتْ لَهُ عَلْيَاؤُهَا تَتَشَوَّفُ
تَمَلَّكَهَا فِى قَبْضَةِ الْكُفْرِ يُوسُفٌ وَخَلَّصَهَا مِنْ عُصْبَةِ الفِسْقِ يُوسُفُ
فَشَابَهَهُ خَلْقًا وخُلْقًا وَعِفَّةً وَكُلٌّ عَنِ الرَّحْمَنِ فِى الأَرْضِ يَخْلُفُ
كَشَفْتَ بِهَا عَنْ آلِ هَاشِمِ سُبَّةً وَعَارًا أَبَىٰ إِلاَّ بِسَيْفِكَ يُكْشَفُ

ذكر الشيخ شهاب الدين فى « الروضتين »: أن أبا الفضائل، الحسين بن محمد، وزير ابن هبيرة - أنشدها للخليفة المستنجد والد المستضيء قبل موته، عند تأويل منام رآه بعض الناس للخليفة، فأراد الشاعر بيوسف الثانى الخليفة المستنجد؛ لأن اسمه يوسف، وكذا ذكره ابن الجوزى وغيره أن هذه القصيدة أنشدت للمستنجد فى حياته، ولكن لم يُخطب بمصر إلا لولده المستضيئ بن المستنجد ، فجرى التأويل باسم الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ثم إن الخليفة المستضيئ أرسل إلى الملك نور الدين الشهيد خلعة سنية، وكذلك للملك صلاح الدين إلى الديار المصرية، فرفعت على أعلام سود ولواء معقود، ففرقت على الجوامع ببلاد الشام وبلاد مصر، فلله الحمد على ما صح من العز والنصر.

وكان قد أجمع جماعة من الدولة المصرية الفاطمية الذين كانوا حكامًا فاتفقوا فيما بينهم أن يعيدوا الدولة الفاطمية، فكتبوا إلى الفرنج يستدعونهم، إليهم، وعينوا خليفة من ورثة الفاطميين ووزراء وأمراء، وذلك فى غيبة السلطان ببلاد « الكرك »، ثم اتفق مجيئه. وكان من نية الملك صلاح الدين أن يبعث أخاه تورانشَاه شمس الدين، إلى اليمن، فشرع عُمارةُ اليمني يذكر له اليمن وما فيها من المصالح والدور والمتنزهات والمغلات، ويحسن له المصير إليها؛ ليخف الجيش بمصر ويضعف عن مقاومة الفرنج إذا قدموا لنصرة الفاطميين، فخرج تورانشاه ولم يخرج معه عمارة؛ بل أقام بالقاهرة يفيض فى هذا الحديث، ويدخل المتكلمين فيه، وكان من

أكابر الدعاة إليه والمحرضين عليه، هذا وقد أدخلوا معهم فى هذا الأمر بعض من ينتسب إلى الملك الناصر، وذلك من قلة عقولهم وكثرة جهلهم، فخانهم أحوج ما كانوا إليه، وهو الشيخ زين الدين على بن نجا الواعظ، فجاء إلى السلطان وأخبره بما تمالأ عليه القوم وما انتهى أمرهم إليه، فأطلق له السلطان أموالاً جزيلة، وأفاض عليه خلعًا جميلة، ثم استدعاهم السلطان واحدًا واحدًا فقررهم فأقروا له بذلك؛ فاعتقلهم، ثم استفتى العلماء فى أمرهم، فأفتوا بقتلهم وتبديد شملهم، فعند ذلك أمر بهم فصلبت رءوسهم وأعيانهم دون أتباعهم وغلمانهم، وأمر بنقل من بقي من جيش العُبَيديين إلى أقاصى البلاد.

وقد كان عمارة هذا معاديًا للقاضى الفاضل، فلما حضر بين يدى السلطان قام القاضى الفاضل فاجتمع بالسلطان ليشفع فيه، فتوهم عمارة أنه تكلم فيه فقال: يا مولانا السلطان لا تسمع منه، فغضب القاضى الفاضل ونهض وخرج من القصر، فقال له السلطان: إنه كان قد شفع فيك، فندم عمارة ندمًا عظيمًا، ولما ذهب به ليصلب اجتاز بدار القاضى الفاضل فطلبه فتغيب عنه فأنشد عند ذلك قائلاً: [من الرجز]

إِنَّ الْـخَـلاصَ هُـوَ الْـعَـجَـبْ   عَـبْـدُ الـرَّحِـيـمِ قَـدِ احْـتَـجَـبْ

قال ابن أبى طى: وكان الذين صلبوا الفضل بن كامل القاضى، وهو أبو القاسم، هبة الله، ابن عبد الله بن كامل قاضى قضاة الديار المصرية زمن الفاطميين، ويلقب بـ« فخر الأمناء » وهو أول من صُلب، وقد كان ينسب إلى فضيلة وأدب. وله شعر رائق منه فى غلام رفاء: [من مخلع البسيط]

يَـا رَافِـيًـا خَـرْقَ كُـلِّ ثَـوْبٍ   وَيَـا رَشًـا حُـبُّـهُ اعْـتِـقَـادِي
عَـسَىٰ بِـكَـفِّ الـوِصَـالِ تَـرْفُـو   مَـا مَـزَّقَ الـهَـجْـرُ مِـنْ فُـؤَادِي

وابن عبد القوى داعى الدعاة، وكان يعلم بدقائق القصد، فعوقب ليعلم بها فامتنع من ذلك فمات واندرست، وشريا كاتب السر، وعبد الصمد أحد أمراء المصريين، ونجاح الحمامى، رجل منجم نصرانى كان قد بشرهم بأن هذا الأمر يتم بعلم النجوم، وعمارة اليمنى هذا، وقد كان شاعرًا مطبقًا، بليغًا فصيحًا، لا يُلحق فى هذا الشأن. وله ديوان مشهور، ذكره ابن السبكى فى طبقاته، وله فى الفاطميين ووزرائهم وأمرائهم مدائح كثيرة جدًا، وأقل ما نسب إلى الرفض، وقد اتهم باطنه

بالكفر المحض، وله مصنف فى الفرائض، وكتاب « الوزراء الفاطميين »، وكتاب جمع فيه سيرة نفسه. وكان أديبًا فاضلاً، فقيهًا فصيحًا. وذكر العماد الكاتب فى « الخريدة » أنه قال فى قصيدته التى يقول فيها: [من البسيط]

أَلْعِلْمُ مُذْ كَانَ مُحْتَاجٌ إلى الْعَلَمِ وَشَفْرَةُ السَّيْفِ تَسْتغْنِى عَنِ الْقَلَمِ

وهى طويلة قال فيها أيضًا

قَدْ كَانَ أَوَّلُ هَذَا الدِّينِ مِنْ رَجُلٍ سَعَىٰ إِلَىٰ أَنْ دَعَوْهُ سَيِّدَ الأُمَمِ

قال العماد الكاتب: فأفتى علماء مصر بكفره وقتله، وحرضوا السلطان على المثلة بمثله. قال: ويجوز أن يكون الشعر معمولاً عليه، كذا قاله العلامة ابن السبكى. أقول: سبحان الله كيف هذا الإفتاء بالكفر والحال أن هذا اللفظ ليس ظاهرًا فيما يوجب الكفر فضلاً عن أن يكون نصا ؟ إذ قوله « سعى » يحتمل أن يريد به سعيه ﷺ فى إبلاغ دين الله، وعرضه نفسه على القبائل، وصبره على ما لاقاه من أذى قريش وغيرهم، وجهاده فى إعلاء كلمة الله وإعلانها، وهذا هو الظاهر ظهورًا بيّنًا، والمطلوب والمتعين الحمل عليه؛ إذ الإيمان والعصمة ثابتان له قبل ذلك بلا شك، فعندى فى هذا التكفير تفكير. انتهى.

ومما أورد له ابن الساعى قوله يمدح بعض الملوك: [من الكامل]

مَلِكٌ إِذَا قَابَلْتُ بِشْرَ جَبِينِهِ فَارَقْتُهُ وَالبِشْرُ فَوْقَ جَبِينِي
وَإِذَا لَثَمْتُ يَمِينَهُ وخَرَجْتُ مِنْ أَبْوَابِهِ لَثَمَ المُلُوكُ يَمِينِي

ومما وجد من شعر عمارة يرثى العاضد الفاطمى ودولته وأيامه: [من الكامل]

أَسَفِى عَلَىٰ زَمَنِ الإِمَامِ الْعَاضِدِ أَسَفَ العَقِيمِ عَلَىٰ فِرَاقِ الوَاحِدِ
جَالَسْتُ مِنْ وُزَرَائِهِ وَصَحِبْتُ مِنْ أُمَرَائِهِ أَهْلَ الثَّنَاءِ الخَالِدِ
لَهَفِى عَلَىٰ حُجُرَاتِ قَصْرِكَ إِذْ خَلَتْ يَا ابْنَ النَّبِيِّ مِنِ ازْدِحَامِ الوَافِدِ
وَعَلى النَّوَازِلِ مِنْ عَسَاكِرِكَ الَّتِي كَانَتْ كَأَمْوَاجِ الخِضَمِّ الرَّاكِدِ
قُلِّدتَّ مُؤْتَمَنَ الخِلَافَةِ أَمْرَهُمْ فَكَبَا وَقَصَّرَ عَنْ صَلَاحِ الْفَاسِدِ
فَعَسَى اللَّيَالِي أَنْ تَرُدَّ عَلَيْكُمُ مَا عَوَّدَتْكُمْ مِنْ جَمِيلِ عَوَائِدِ

وله من قصيدة فيه: [من البسيط]

يَا عَاذِلِى فِى هَوَىٰ أَبْنَاءِ فَاطِمَةٍ لَكَ المَلَامَةُ إِنْ قَصَّرتَ فِى عَذَلِي

بِاللّٰهِ زُرْ سَاحَةَ الْقَصْرَيْنِ وَابْكِ مَعِي عَلَيْهِمَا، لاَ عَلَىٰ صِفِّينَ وَالْجَمَلِ
وَقُلْ لِأَهْلِهِمَا وَاللّٰهِ مَا الْتَحَمَتْ فِيكُمْ قُرُوحِى وَلاَ جُرْحِى بِمُنْدَمِلِ
مَاذَا تُرَىٰ كَانَتِ الْإِفْرِنْجُ فَاعِلَةً فِى نَسْلِ آلِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِي

وقد أورد الشيخ شهاب الدين أبو شامة فى « الروضتين » من أشعار عمارة هذا ومدائحه فى الخلفاء الفاطميين وذويهم - شيئًا كثيرًا، فمن ذلك قوله: [من البسيط]

لِى فِى هَوَى الرَّشَإِ الْعُذْرِيِّ أَعْذَارُ لَمْ يَبْقَ لِى مُذْ أَقَرَّ الدَّمْعُ إِنْكَارُ
لِى فِى الْقُدُودِ وَفِى لَثْمِ الخُدُودِ وَفِي ضَمِّ النُّهُودِ لُبَانَاتٌ وَأَوْطَارُ
هَذَا اخْتِيَارِى فَوَافِقْ إِنْ رَضِيتَ بِهِ أَوْ لاَ فَدَعْنِى وَمَا أَهْوَىٰ وَأَخْتَارُ

ومما أنشد الشيخ تاج الدين الكندى فى عمارة حين صلب قوله: [من الطويل]

عمَارَةُ فِى الْإِسْلَامِ أَبْدَىٰ خِيَانَةً وَبَايَعَ فِيهَا بَيْعَةً وَصَلِيبَا
وَأَمْسَىٰ شَرِيكَ الشِّرْكِ فِى بُغْضِ أَحْمَدٍ فَأَصْبَحَ فِى حُبِّ الصليبِ صَلِيبَا
وَكَانَ خَبِيثَ الْمُلْتَقَىٰ إِنْ عَجَمْتَهُ تَجِدْ مِنْهُ عُودًا فِى الثِّقَافِ صَلِيبَا
سَيَلْقَىٰ غَدًا مَا كَانَ يَسْعَىٰ لِأَجْلِهِ وَيُسْقَىٰ صَدِيدًا فِى لَظًى وَصلِيبَا

قلت: الأول صليب النصارى، والثانى بمعنى مصلوب، والثالث بمعنى القوى، والرابع بمعنى ودك العظام.

ولما صلب الملك الناصر هؤلاء بين القصرين فى القاهرة - وكان ذلك اليوم يوم السبت الثامن من شهر رمضان سنة تسع وستين وخمسمائة - كتب إلى الملك نور الدين الشهيد محمود بن زنكى يعلمه بذلك وما وقع بهم من الخزى والنكال، فوصل الكتاب بذلك الأمر يوم توفى الملك نور الدين المذكور، رحمه الله تعالى .

* * *

فهرس موضوعات الجزء الثالث

الموضوع الصفحة

* * *